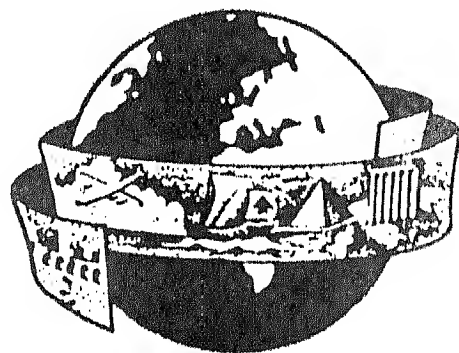


موسوعة العلامة
ابن خلدون

المجلد الأول

دار الكتاب العربي
بيروت

دار الكتاب العربي
القاهرة



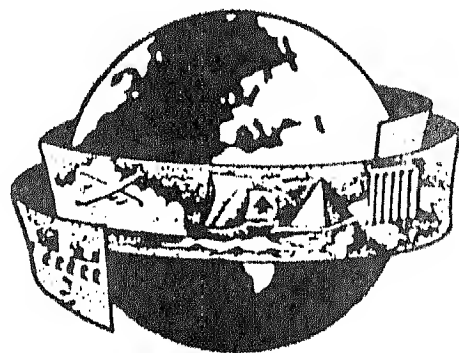
دار الكتاب اللبناني

طباعة - نشر - توزيع

شارع ميناكسوري - مقابل فندق بيرستول
تلefon: ٧٢٥٧٣١ - ٧٢٥٧٣٢ - فاكسميلي: ٢٥١٤٣٣ (٩٦١١)
بريقيا، ناطليون - ص.ب. ١١/٨٢٣٠ - بيروت - لبنان

FAX (9611) 351433

ATT: MR. HASSAN EL-ZEIN



دار الكتاب اللبناني

طباعة - نشر - توزيع

شارع ميناكسوري - مقابل فندق بيرستول
تلefon: ٧٢٥٧٣١ - ٧٢٥٧٣٢ - فاكسميلي: ٢٥١٤٣٣ (٩٦١١)
بريقيا، ناطقيلان - ص.ب. ١١/٨٢٣٠ - بيسروت - لبنان

FAX (9611) 351433

ATT: MR. HASSAN EL-ZEIN

تَارِيحُ الْعَلَامَةِ
أَبْنُ خَلْدُونِ
المجلد الأول

I.S.B.N. 977 - 238 - 030 - 7

دار الكتاب اللبناني شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول تلخون، ٧٢٥٧٣١ - ٧٢٥٧٣٢ - فاكسميلي، ٢٥١٢٣ (٩٦١١) برفيا، ناكليان - ص.ب. ١١/٨٢٢٠ - بيروت - لبنان FAX: (0611) 351433 ATT.: MR. HASSAN EL-ZEIN	جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للنائرين	دار الكتاب المصري ٢٢ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع. تلخون، ٢٩٢٢٣٨ / ٢٩٢٢٣٩ - فاكسميلي ٢٩٢٢٣٥٧ (٢٠٢) ص.ب. ١٥٦ - الرمز البريدي ١٥١١ - برفيا، كتامصر FAX: (202) 3024667 ATT.: MR. HASSAN EL-ZEIN
---	---	--

طبعة مزيدة ومنقحة

١٩٩٩ م
A.D. 1999

١٤٢٠ هـ
H. 1420

تَارِيخُ الْعَلَامَةِ أَبْنُ خَلْدُون

كُتَابُ الْعِبَرَةِ وَدِيَانُ الْمُبْدَأِ وَالْمُخْبَرِ
فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْجَمِّ وَالْبَرَزِ وَمَنْ عَاَصَرَهُمْ
مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الْأَكْبَرِ
وَهُوَ تَارِيخٌ وَحِيدٌ عَصْرُهُ
الْعَلَامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
أَبْنُ خَلْدُونُ الْمَغْرِبِيُّ

المجلد الأول

دار الكتاب اللبناني
بيروت

دار الكتاب المصري
القاهرة

كلمة الناشر

إنما الأمة برجالها الأفاضال الذين يخوضون في بحار الفكر ويرتادون المجاهل ليقتنصوا لأمتهم مشاعل تسير على أضوائها، ويرفعوا للعالم منارات إشعاع وتوجيه. ومن المع رجال الفكر والعلم صاحب الشهرة الواسعة أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون.

وُلد ابن خلدون في تونس وشبَّ فيها أعجوبة من أعاجيب العقل وسعة الاطلاع ودقة الملاحظة. وُلِّيَ الكتابة والوساطة بين الملوك في المغرب والاندلس. ثم انتقل إلى مصر حيث قلَّده السلطان برقوق قضاء المالكية. ثم استقال من منصبه وانقطع إلى التدريس والتصنيف، فكانت مؤلفاته من أهم المصادر للفكر العالمي. وأشهرها: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وهو كتاب ضخم يقع في سبعة مجلدات. وأعظم أجزائه وأشهرها الكتاب الأول المسمى «مقدمة ابن خلدون» ضمنه صاحبه قواعد فلسفة التاريخ والاجتماع، ونقد فيه الذين سبقوه وبين عيوبهم، ثم وصف تطوُّر الأمم من البداوة إلى الحضارة، وترقي الشعوب في الاجتماع والدين والسياسة والاقتصاد والعلوم والفنون، وتكوُّن الدول ونموها وانحيارها، وطبائع أهل البدو والحضر وما إلى ذلك، كلُّ هذا، بطريقة متسلسلة وأسلوب منطقي، وتعبير سائغ سهل لا تكلف فيه ولا تقيد بسجع أو ببيديع، بمعرفة لا حدَّ لها ونظر ينفذ إلى الأعماق، وتفهم صحيح لحقيقة الوجود الاجتماعي. ولا عجب من بعد إذا ما رأينا مقدمة ابن خلدون تطبع عبر الزمن، في مصر والشام وأوروبا، وتُترجم بكاملها أو ببعض أقسامها إلى اللغات الأجنبية. ثم إن كتاب العبر، على ما في أقسامه من تفاوت في الاجادة، يجمع فوائد جمَّة ولا سيما في تاريخ البربر الذي لا يزال المرجع

النفيس لمعرفة أحوال المغرب في العصور الوسطى .

ولما كان لهذا الكتاب من الأهمية في مجال العلوم الإنسانية فقد رأينا من الواجب أن نقدم على إعادة طبعه مع ما يعترض ذلك العمل من مشاقّ جسام ، ومع ما يفرضه من أتعاب وأكلاف ، وذلك خدمةً للأجيال الناشئة من أبناء الأمة العربية ، وخدمة لنشر العلم والمعرفة ، وتأدية للرسالة التي حملتها دار الكتاب في لبنان وفي مصر . . لخدمة ارباب المعرفة والاطلاع . .

وقد شمرنا عن ساعد الجدّ ورحنا نسعى وراء النسخ النادرة ، ونجند الصفوة المباركة من رجال التاريخ ، والفكر ، والأدب ، للبحث والمقارنة والتحقيق ، ثم باشرنا الطبع فاخترنا له من أساليب الاتقان ما يليق بهذا الأثر الجليل .

ولكي يكون عملنا تاماً ذيلنا الكتاب بفهارس مختلفة تكون أكبر مُساعد لمن أراد الخوض في عباب هذا اليم الواسع الأطراف .

وإننا ، ونحن نُقدّم للعالم العربي بل للعالم أجمع ، كتاب العلامة ابن خلدون ، نشعر بتلك الغبطة التي يشعر بها كل مخلص ، أدّى الأمانة التي تصدّى لإبداعها ، وصونها وإيصالها .

ولنا الأمل الوطيد بأن عملنا هذا سيحوز الثقة في عالم المعرفة ، وسيكون خطوة واسعة في طريق التقدم والنور ، والله ولي التوفيق .

دار الكتاب المصري

دار الكتاب اللبناني

المجلد الأول

من تاريخ العلامة ابن خلدون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يقول العبدُ الفقيرُ إلى رحمة ربه، الغنيُّ بلطفه، عبدُ الرحمن

ابنُ محمد بن خلدون الحضرميُّ وفقه الله تعالى :

الحمدُ لله الذي له العزةُ والجبروتُ، وبِيدِهِ المُلْكُ والمُلْكوتُ،
وله الاسماءُ الحُسنى والثُّعوتُ، العالمُ فلا يعزُبُ عنه ما تُظهِرُهُ
النَّجوى أو يُخْفِيهِ السُّكوتُ، القادرُ فلا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ في السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَلَا يَفوتُ. أَنشَأْنَا مِنَ الْأَرْضِ نَسَمًا^(١)، وَاسْتَعْمَرْنَا فِيهَا
أَجْيَالًا وَأُمَمًا، وَيَسَّرْنَا مِنْهَا أَرْزَاقًا وَقِسَمًا. تَكُنُّنَا الْأَرْحَامُ وَالْبُيُوتُ
وَيَكْفُلُنَا الرِّزْقُ وَالْقَوْتُ، وَتُبْلِيْنَا الْأَيَّامُ وَالْوُقُوتُ، وَتَعْتَوِرُنَا
الْأَجَالُ الَّتِي خُطَّ عَلَيْنَا كِتَابُهَا الْمَوْقُوتُ، وَلَهُ الْبَقَاءُ وَالثُّبُوتُ،
وَهُوَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا
مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكْتُوبِ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الْمَنْعُوتِ،
الَّذِي تَمَخَّضَ لِفَصَالِهِ الْكَوْنُ قَبْلَ أَنْ تَتَعَاقَبَ الْأَحَادُ وَالسُّبُوتُ،

(١) أي نفوساً: والله باري النسم أي خالق النفوس (قاموس).

وَيَتَبَايَنَ زُحْلُ وَالْيَهْمُوتُ^(١) وَشَهِدَ بِصَدْقِهِ الْحَامُ وَالْعَنْكَبُوتُ ،
وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ لَهُمْ فِي مُحَبَّتِهِ وَإِتِّبَاعِهِ الْأَثَرُ الْبَعِيدُ
وَالصِّيتُ ، وَالشَّمْلُ الْجَمِيعُ فِي مُظَاهَرَتِهِ وَلَعْدُوهُمْ الشَّمْلُ الشَّتِيتُ ،
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ مَا اتَّصَلَ بِالْإِسْلَامِ جَدُّهُ الْمُبْخُوتُ ، وَأَنْقَطَعَ
بِالْكُفْرِ حَبْلُهُ الْمَبْتُوتُ ، وَسَلِّمَ كَثِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ فَنَّ التَّارِيخِ مِنَ الْفُنُونِ الَّتِي تَتَدَاوَلُهَا الْأُمَمُ
وَالْأَجْيَالُ ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ الرِّكَاثُ وَالرِّحَالُ ، وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهِ
السُّوقَةُ وَالْأَغْفَالُ ، وَتَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُلُوكُ وَالْأَقْيَالُ^(٢) ، وَيَتَسَاوَى فِي
فَهْمِهِ الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَّالُ ، إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى إِنْجَارٍ عَنْ
الْأَيَّامِ وَالْدُّوَلِ ، وَالسَّوَابِقِ مِنَ الْقُرُونِ الْأُولِ ، تَنَمُو^(٣) فِيهَا
الْأَقْوَالُ ، وَتُضْرَبُ فِيهَا الْأَمْثَالُ ، وَتُطْرَفُ بِهَا الْأَنْدِيَّةُ إِذَا غَضَّهَا
الْإِحْتِفَالُ ، وَتُوَدِّي إِلَيْنَا شَأْنَ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا الْأَحْوَالُ ،
وَأَتَّسَعَ لِلدُّوَلِ فِيهَا النِّطَاقُ وَالْجَلَالُ ، وَعَمَرُوا الْأَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمْ
الْإِزْنَجَالُ ، وَحَانَ مِنْهُمْ الزُّوَالُ ، وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ ، وَتَعْلِيلٌ
لِلْكَائِنَاتِ وَمَبَادِيهَا دَقِيقٌ ، وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ الْوَقَائِعِ وَأَسْبَابِهَا عَمِيقٌ ،

(١) علق الشيخ نصر الهوريني - الذي أشرف على أول طبعة مصرية ، على هذه الكلمة بما يلي : « قوله اليهموت هو النون أي الحوت الذي على ظهره الأرض السابعة ، ويسمى أيضاً لوتياء كما في المزهرو روح البيان واللهجة ومعلوم أن بينه وبين زحل الذي هو في الفلك السابع بونا بعيداً . قال الشهاب الخفاجي في حاشيته على البيضاوي في أول سورة نون : اليهموت بفتح المثناة التحتية وسكون الهاء ، وما اشتهر من أنه بالباء الموحدة غلط على ما ذكره الفاضل المحشي ومثله في روح البيان (أ هـ) . »

(٢) جمع قَيْل ، والقَيْلُ الملك وقيل : هو الرئيس دون الملك الأعلى .

(٣) نَمَى أَوْ نَمَا الْخَبَرُ أَوْ الْحَدِيثُ : ارْتَفَعَ وَذَاعَ .

فهو لذلك أصيل في الحكمة عريقٌ وجديرٌ بأن يُعَدَّ في علوِّها وتخليقٍ . وإنَّ فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وتجمعوها ، وسطَّروها في صفحات الدفاتر وأودعوها ، وخلطوها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها ، وزخارف من الروايات المضففة لفقوها ووضعوها ، واقتفى تلك الآثار الكثيرُ ممن بعدهم واتَّبعوها . وأدَّوها إلينا كما سيموها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يُراعوها ، ولا رَفَضُوا زُهاتِ الأحاديث ولا دَفَعُوا ، فالتحقيق قليلٌ ، وطرفُ التنقيح في الغالب قليلٌ ، والغلطُ والوهمُ نسيبٌ للأخبارِ وخليلٌ ، والتقليدُ عريقٌ في الآدميين وسليلٌ ، والتطفُّلُ على الفنون عريضٌ وحلولٌ ، ومرعى الجمل بين الأنام وخيمٌ وبيلٌ . والحقُّ لا يُقاومُ سلطانَهُ ، والباطلُ يَنفِذُ بِشهابِ النَّظَرِ شيطانَهُ ، والناقلُ إنما هو يَمْلِي وَيَنْقُلُ ، والبصيرة تنقدُ الصحيح إذا ثَمُلَ ، والعلمُ يَحُلُو لها صفحاتِ الصوابِ ويَضُقُّ .

هذا وقد دَوَّنَ الناسُ في الأخبارِ وأكثرُوا ، وتجمَّعوا تَوارِيخَ الأممِ والدُّولِ في العالمِ وسَطَّروا . والذين ذَهَبُوا بِفَضْلِ الشُّهرةِ والأمانةِ الممتَّعةِ ، واستَفَرَّغُوا دَواوينَ مَنْ قَبْلَهُمْ في صُحُفِهِمِ المُتَأخِّرةِ ، هم قَلِيلُونَ لا يَكادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ الْأَنَامِلِ ، ولا حَرَكَاتِ الْعَوَامِلِ ؛ مثلُ ابنِ إِسْحَاقَ والطَّبْرِيِّ وابنِ السَّكَلَبِيِّ ومُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ الْوَاقِدِيِّ وَسَيْفِ بْنِ عُمَرَ الْأَسَدِيِّ وَالْمُسْعُودِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمَشَاهِيرِ ، الْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ الْجَاهِلِينَ ؛ وَإِنْ كَانَ فِي كُتُبِ الْمُسْعُودِيِّ وَالوَاقِدِيِّ مِنَ الْمَطْلَعِ وَالْمَغْمَرِ

ما هو معروف عند الأثبات ، ومشهور بين الحفظة الثقات ، إلا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم ، واقتفاء سُنَنِهم في التصنيف وإتباع آثارهم ، والنأقِدُ البصيرُ قسّطاسُ نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم فللمُمرانِ طبائعُ في أحواله ترجع إليها الأخبارُ ، وتُحمَلُ عليها الرواياتُ والآثارُ . ثم إن أكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسايل ، لعموم الدولتين صدر الإسلام^(١) في الآفاق والممالك ، وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والتارك . ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والأمم ، والأمير العمم^(٢) ، كالمسعودي ومن نحا منحا .

وجاء من بعدهم من عدل عن الإطلاق إلى التقييد ، ووقف في العموم والإحاطة عن الشأو البعيد ، فقيّد شواردة عصره ، واستوعب أخبار أئفقه وقطره ، واقتصر على أحاديث دولته ومصره . كما فعل أبو حيّان مؤرخ الأندلس والدولة الأموية بها ، وابن الرقيق مؤرخ إفريقيا والدول التي كانت بالقيروان .

ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مُقلدٌ وبلیدُ الطبعِ والمقل أو متبليدٌ ينسجُ على ذلك المنوال ، ويحتذي منه بالمثل ، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال ، وأسبَدَلَتْ به من عوائد الأمم والأجيال . فيخيلون^(٣) الأخبار عن الدول ، وحكايات الوقائع في

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ ، وتصويب العبارة : لعموم صدر الإسلام والدولتين (أي دولة بني أمية والدولة العباسية) .

(٢) أمر عمم : تام ، عام (لسان العرب) .

(٣) بمعنى يجمعون .

المُصَوِّرِ الْأَوَّلِ ، صُوراً قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا ، وَصِفَاحاً انْتَضَيْتْ مِنْ أَغْصَادِهَا ، وَمَعَارِفَ تُسْتَكْرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا^(١) ، إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أَصُولُهَا ، وَأَنْوَاعُ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا ، يُكْرِرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهِمُ الْأَخْبَارَ الْمُتَدَاوِلَةَ بِأَعْيَانِهَا ، اتِّبَاعاً لِمَنْ غَنِيَ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا ، وَيُغْفِلُونَ أَمْرَ الْأَجْيَالِ النَّاشِئَةِ فِي دِيَوَانِهَا ، بِمَا أَعُوذَ عَلَيْهِمْ مِنْ تُرْجُمَانِهَا ، فَتَسْتَعِجِمُ^(٢) صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا . ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِلذِّكْرِ الدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسْقاً ، مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهَمَّاءُ أَوْ صِدْقاً ، لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا ، وَلَا يَذْكُرُونَ السَّبَبَ الَّذِي دَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا ، وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا ، وَلَا عِلَّةَ الْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا فَيَبْقَى النَّظَرُ مُتَطَلِّعاً بَعْدُ إِلَى أَفْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِيءِ الدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا ، مُفْتِشاً عَنْ أَسْبَابِ تَرَاخُجِهَا أَوْ تَعَاقُيْهَا ، بَاحِثاً عَنِ الْمُنْشِئِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ تَنَاسُيْهَا ، حَسْبَمَا نَذْكُرُ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ .

ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ الْإِخْتِصَارِ ، وَذَهَبُوا إِلَى الْإِكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ الْمُلُوكِ وَالْإِفْتِصَارِ ، مَقْطُوعَةً عَنِ الْأَنْسَابِ وَالْأَخْبَارِ ، مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ بِحُرُوفِ الْغُبَارِ^(٣) ، كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ الْعَمَلِ ، وَمَنْ افْتَنَى هَذَا الْأَثَرَ مِنَ الْعَمَلِ . وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لِهَوْلَاءِ مَقَالٌ ، وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا انْتِقَالٌ ؛ لَمَّا أَذْهَبُوا مِنَ الْفَوَائِدِ ، وَأَخْلَوْا بِالْمَذَاهِبِ الْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْعَوَائِدِ .

(١) أي بحديثها وقديمها .

(٢) استعجم الكلام : أصبح مبهماً .

(٣) اسم العلامات تدل على الأعداد (قاموس) .

وَلَمَّا طَالَتْ كُتُبُ الْقَوْمِ ، وَتَبَرَّتْ غَوَرِ الْأَمْسِ وَالْيَوْمِ ،
 نَبِهَتْ عَيْنَ الْقَرِيحَةِ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ وَالنُّوْمِ ، وَسَمَتْ التَّصْنِيفَ مِنْ
 نَفْسِي وَأَنَا الْمُفْلِسُ ، أَحْسَنَ السُّوْمِ ^(١) . فَأَنْشَأْتُ فِي التَّارِيخِ كِتَابًا ، رَفَعْتُ
 بِهِ عَنْ أَحْوَالِ النَّاشِئَةِ مِنَ الْأَجْيَالِ حِجَابًا ، وَفَصَّلْتُ فِي الْأَخْبَارِ
 وَالْإِعْتِبَارِ بَابًا بِابًا ، وَأَبْدَيْتُ فِيهِ لِأَوَّلِيَّةِ الدُّوَلِ وَالْعُمَرَاءِ عِلَلًا
 وَأَسْبَابًا ، وَبَيَّنَّتهُ عَلَى أَخْبَارِ الْأُمَمِ الَّذِينَ عَمَرُوا الْمَغْرِبَ فِي هَذِهِ
 الْأَعْصَارِ ، وَمَلَأُوا أَكْنَافَ النُّوَاحِي مِنْهُ وَالْأَمْصَارِ ، وَمَا كَانَ لَهُمْ
 مِنَ الدُّوَلِ الطُّوَالِ أَوْ الْقِصَارِ ، وَمَنْ سَلَفَ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْأَنْصَارِ ،
 وَهُمْ الْعَرَبُ وَالْبَرْبَرُ ، إِذْ هُمَا الْجِيلَانِ اللَّذَانِ عُرِفَ بِالْمَغْرِبِ مَأْوَاهُمَا ،
 وَطَالَ فِيهِ عَلَى الْأَحْقَابِ مَنَوَاهُمَا ، حَتَّى لَا يَكَادُ يَتَصَوَّرُ فِيهِ مَا
 عَدَاهُمَا ، وَلَا يَعْرِفُ أَهْلُهُ مِنْ أَجْيَالِ الْأَدَمِيِّينَ سِوَاهُمَا . فَهَذَبْتُ
 مَنَاحِيهِ تَهْدِيًا ، وَقَرَّبْتُهِ لِأَفْهَامِ الْعُلَمَاءِ وَالْخَاصَّةِ تَقْرِيًا ، وَسَلَكْتُ
 فِي تَرْتِيبِهِ وَتَبْوِيهِهِ مَسْلَكًا غَرِيبًا ، وَأَخْتَرَعْتُهُ مِنْ بَيْنِ الْمَنَاحِي مَذْهَبًا
 عَجِيبًا ، وَطَرِيقَةً مُبْتَدَعَةً وَأَسْلُوبًا . وَشَرَحْتُ فِيهِ مِنْ أَحْوَالِ الْعُمَرَاءِ
 وَالتَّمَدُّنِ ، وَمَا يَغْرِضُ فِي الْاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيَّ مِنَ الْعَوَارِضِ الدَّائِيَّةِ
 مَا يُتِمُّكَ بِعِلَلِ الْكَوَائِنِ وَأَسْبَابِهَا ، وَيُعَرِّفُكَ كَيْفَ دَخَلَ أَهْلُ
 الدُّوَلِ مِنْ أَبْوَابِهَا ، حَتَّى تَنْزِعَ مِنَ التَّقْلِيدِ يَدَكَ ، وَتَقِفَ عَلَى أَحْوَالِ
 مَا قَبْلَكَ مِنَ الْأَيَّامِ وَالْأَجْيَالِ وَمَا بَعْدَكَ .

وَرَتَّبْتُهِ عَلَى مُقَدِّمَةٍ وَثَلَاثَةِ كُتُبٍ :

(١) السوم : طلب الشراء (لسان العرب).

المُقدِّمة : في فضلِ علمِ التاريخِ وتحقيقِ مَذاهِبِهِ والإِلماعِ
بمغالِطِ المؤرِّخين .

الكتاب الاول : في العُمرانِ وذِكْرُ ما يعرضُ فيه من العواضِ
الذاتِيَّةِ من المُلْكِ والسُّلطانِ والكسْبِ والمعاشِ والصَّنائعِ والعلومِ
وما لَدَيْكَ من العِللِ والاسبابِ .

الكتاب الثاني : في أخبارِ العَرَبِ وأَجيالِهِمْ ودُوْلِهِمْ منذُ مَبْدَأِ
الْخَلِيقَةِ إلى هذا العَهْدِ ، وفيهِ الإِلماعُ ببَعْضِ مَنْ عاصَرَهُمْ من الأُمَمِ
المشاهيرِ ودُوْلِهِمْ مثلُ النُّبَطِ والسُّرْيَانِيِّينَ والفُرسِ وبني إِسْرائِيلَ
والقِبطِ واليونانِ والرومِ والْتُرْكِ والإِفْرَنْجِيَّةِ .

الكتاب الثالث : في أخبارِ البَرْبَرِ ومن إِلَيْهِمْ من ذَناتَةٍ وذِكْرُ
أَوَّلِيَّتِهِمْ وَأَجيالِهِمْ وما كانَ لَهُمْ بديارِ المَغْرِبِ خاصَّةً من المُلْكِ والدُّوْلِ .
ثم كَانَتِ الرِّحْلَةُ إلى المَشْرِقِ لاجْتِلَاءِ أنوارِهِ ، وقضاءِ القَرَضِ
والسَّنَةِ في مَطافِهِ ومَزَارِهِ ، والوقوفِ على آثارِهِ في دَوَاوِينِهِ وأسْفارِهِ ،
فَأَقْدَتُ ما نَقَصَ من أخبارِ مُلوكِ العَجَمِ بَتَلَكِ الدِّيارِ ، ودَوَلِ التُّرْكِ
فيما مَلَكَوهُ من الأَقْطارِ ، وَأَتَبَعْتُ بها ما كَتَبْتُهُ في تلكِ الأسْطارِ ،
وَأَدْرَجْتُها في ذِكْرِ المُعاصِرِينَ لِتِلْكَ الأَجْيالِ من أُمَمِ النُّواحي ،
ومُلوكِ الأَمْصارِ والنُّواحي ؛ سائِلاً سَبِيلَ الاختصارِ والتَّلْخيصِ ،
مُفْتَدِياً بِالْمَرَامِ السَّهْلِ من العَوِيصِ ، دَاخِلاً من بابِ الأسبابِ على
المُعمومِ إلى الأخبارِ على الخُصوصِ ؛ فَاسْتَوَعَبَ أَخْبَارَ الْخَلِيقَةِ^(١)

(١) كذا في أكثر النسخ ، وفي النسخة التي نشرتها لجنة البيان العربي : الخليفة ولم ندر أي
خليفة ، ولعلها غلطة مطبعية .

استيعاباً ، وذلك من الحكم النافذة صعباً ، وأعطى لِحَوَادِثِ
الدُّولِ عللاً وأسباباً ، وأصبحَ لِلْحِكْمَةِ صَوَاناً وَلِلتَّارِيخِ جِراباً .

ولمَّا كَانَ مُشْتَمِلاً عَلَى أَخْبَارِ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ ، مِنْ أَهْلِ الْمُدُنِ
وَالْوَبَرِ ، وَالْإِمْلَاعِ بَيْنَ عَاصِرَهُمْ مِنَ الدُّولِ الْكَبَرِ ، وَأَفْصَحَ بِالذِّكْرِ
وَالْعِبَرِ ، فِي مُبْتَدَأِ الْأَحْوَالِ وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْخَبَرِ ، سَمَّيْتُهُ : « كِتَابَ
الْعِبَرِ ، وَدِيَوَانَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ ، فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالْبَرْبَرِ ، وَمَنْ
عَاصَرَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الْأَكْبَرِ . »

وَلَمْ أَتْرُكْ شَيْئاً فِي أَوَّلِيَةِ الْأَجْيَالِ وَالدُّولِ ، وَتَعَاوُرِ الْأُمَمِ
الْأُولَى ، وَأَسْبَابِ التَّصَرُّفِ وَالْحَوْلِ ، فِي الْقُرُونِ الْحَالِيَةِ وَالْإِلْمَلِ ، وَمَا
يَعْرِضُ فِي الْعُمُرَانِ مِنْ دَوْلَةٍ وَمِلَّةٍ ، وَمَدِينَةٍ وَحِلَّةٍ ^(١) ، وَعِزَّةٍ وَذَلَّةٍ ،
وَكَثْرَةٍ وَقَلَّةٍ ، وَعِلْمٍ وَصِنَاعَةٍ ، وَكَسْبٍ وَإِضَاعَةٍ ، وَأَحْوَالٍ مُتَقَلِّبَةٍ
مُشَاعَةٍ ، وَبَدْوٍ وَحَضَرٍ ، وَوَاقِعٍ وَمُنْتَظَرٍ ، إِلَّا وَأَسْتَوْعَبْتُ جَمْلَهُ ،
وَأَوْضَحْتُ بَرَاهِينَهُ وَعِلَلَهُ . فَجَاءَ هَذَا الْكِتَابُ فَنَدّاً بِمَا صُمِنَتْهُ مِنْ
الْعُلُومِ الْفَرِيئَةِ ، وَالْحُكْمِ الْمَحْجُوبَةِ الْقَرِيبَةِ . وَأَنَا مِنْ بَعْدِهَا مُوقِنٌ
بِالْقُصُورِ ، بَيْنَ أَهْلِ الْعُصُورِ ، مُعْتَرِفٌ بِالْعِجْزِ عَنِ الْمَضَاءِ ، فِي مِثْلِ
هَذَا الْقَضَاءِ ^(٢) ، رَاغِبٌ مِنْ أَهْلِ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ ، وَالْمَعَارِفِ الْمُتَّسِعَةِ
الْقَضَاءِ ، النَّظَرَ بَيْنَ الْإِنْتِقَادِ لَا بَيْنَ الْإِزْتِياعِ ، وَالتَّعَمُّدِ ^(٣) لِمَا يَعْتُرُونَ
عَلَيْهِ بِالْإِصْلَاحِ وَالْإِغْضَاءِ . فَالْبِضَاعَةُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ مُزْجَاةٌ ،

(١) الحلة : القرية مجازاً ، ومعناها في الأصل ، القوم النازلون في مكان ما .

(٢) بمعنى : هذه القضايا .

(٣) تغمده : ستر ما كان منه .

والاعترافُ مِنَ اللّوْمِ مَنْجَاةٌ، والحُسْنَى مِنَ الإِخْوَانِ مُرْتَجَاةٌ، وَاللّٰهُ أَسْأَلُ
أَنْ يَجْعَلَ أَعْمَالَنَا خَالِصَةً لِّوَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .
وَبَعْدَ أَنْ اسْتَوْفَيْتُ عِلَاجَهُ ، وَأَزَلْتُ مِشْكَاةَهُ لِلْمُسْتَبْصِرِينَ
وَأَذَكَيْتُ سِرَاجَهُ ، وَأَوْضَحْتُ بَيْنَ الْعُلُومِ طَرِيقَهُ وَمِنْهَاجَهُ ، وَأَوْسَعْتُ
فِي فضاءِ الْمَعَارِفِ نِطاقَهُ ، وَأَدْرْتُ سِيَّاحَهُ ، أَتَخَفْتُ بِهِذِهِ النُّسخَةَ مِنْهُ ^(١)
خِزَانَةَ مولانا السلطان الإمام المجاهد ، الفاتح الماهد ، المتحلي
منذُ خَلْعِ التَّهَامِ ^(٢) وَلَوْثِ ^(٣) الْعَمَائِمِ ، بِحِلْيَةِ الْقَائِمِ الزَاهِدِ ، الْمُتَوَشِّحِ

(١) علق الشيخ نصر المهوريني على هذه القضية بما يلي : قوله اتخفت بهذه النسخة منه إلخ .
وجد في نسخة بخط بعض فضلاء المغاربة زيادة قبل قوله اتخفت وبعد قوله وأدرت سياجه ونصها :
« التمسْتُ له الكفاء الذي يلمح بعين الاستبصار فنونه ، ويلحظ بمداركه الشريفة معياره الصحيح
وقانونه ، ويميز رتبته في المعارف عما دونه فسرحت فكري في فضاء الوجود ، وأجلت نظري ليل التهام
والهجوم ، بين التهام والنجوم ، في العلماء الركع السجود ، والخلفاء أهل الكرم والوجود ، حتى وقف
الاختيار بساحة الكمال ، وطافت الأفكار بموقف الآمال ، وظفرت أيدي المساعي والاعتمال ، بمبتدئ
المعارف مشرقة فيه غرر الجمال ، وحدائق العلوم الوارفة الظلال ، عن اليمين وال شمال . فانخت
مطي الأفكار في عرصاتها ، وجلوت محاسن الأنظار على منصاتها ، واتخفت بديوانها ، مقاصير إيوانها ،
واطلمعته كوكباً وقاداً في أفق خزائنها وصوانها ، ليكون آية للعقلاء يهتدون بمناره ، ويعرفون فضل
المدارك الإنسانية في آثاره . وهي خزانة مولانا السلطان الإمام المجاهد ، الفاتح الماهد » إلى آخر
النعوت المذكورة هنا . ثم قال : « الخليفة أمير المؤمنين ، المتوكل على رب العالمين ، أبو العباس أحمد
ابن مولانا الأمير الطاهر المقدس أبي عبدالله محمد ابن مولانا الخليفة المقدس أمير المؤمنين أبي يحيى
أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين ، من أئمة الموحدين ، الذين جددوا الدين ، ونهجوا السبل
للمهتدين ، وعوا آثار البغاة المفسدين ، من المجسمة والمعتدين . سلالة أبي حفص والفاروق ،
والنبتة النامية على تلك المغارس الزاكية والعروق ، والنور المتأليء من تلك الأشعة والبروق .
فأوردته من مودعها العلي بحيث مقر الهدى ، ورياض المعارف خضلة الندى » إلى آخر ما ذكر هنا .
إلا أنه لم يقيد الامامة بالفارسية . لكن النسخة المذكورة مختصرة عن هذه النسخة المنقولة من خزانة
الكتب الفارسية ، ولم يقل فيها : ثم كانت الرحلة إلى المشرق . . . إلخ » .

(٢) التيممة : خرزة رقطاء تنظم في السير ؛ ثم يعقد في العنق ؛ وهي التهام والتيمم ؛ عن
ابن جنبي ، وقيل : هي قلادة يجعل فيها سيور وعود . وحكي عن ثعلب : تمت المولود ، علقت عليه
التهام . (لسان العرب) .

(٣) اللوث : عصب العمامة .

من زكاه المناقب والحميد، وكرم الشّائل والشّواهد، بأنجل من
 القلائد، في نُحور الولائد، المتناول بالعزم القوي الساعد والجِدِّ
 المؤاتي المساعيد، والمجد الطارف والتايد، ذوائب مُلكهم الرّاسي
 القواعد، الكريم المعالي والمصاعيد، جامع أشتات العلوم والفوائد،
 وناظم شمل المعارف الشوارد، ومُظهر الآيات الرّبّانيّة، في فضل
 المدارك الإنسانيّة، بفكره الثاقب الناقد، ورأيه الصّحيح المعاييد،
 النير المذهب والمقائد، نور الله الواضح المرشيد، ونعمته المذبة
 المواريد، ولطفه الكامن بالمراسد للشدائد، ورحمته الكريمة المقاليد،
 التي وسعت صلاح الزمان الفاسد، واستقامة المائيد من الأحوال
 والعوائيد، ودَهَبَتْ بالخطوب الأوابد، وخَلَمَتْ على الزمان روثق
 الشباب العائيد، وحجته التي لا يُبطلها إنكارُ الجاحد ولا شُبُهاتُ
 المُعانيد، (أمير المؤمنين) أبي فارس عبد العزيز ابن مولانا السلطان
 الكبير المجاهد المقدّس أمير المؤمنين، أبي الحسن ابن السادة الاعلام
 من بني مرين، الذين جَدّدوا الدين، ونهَجُوا السبيل للمُتدين،
 ونَحَوْا آثارَ البُغاة المُفسدين. أفاء الله على الأُمّة ظلاله، وبلّغه في
 نصر دَعْوَةِ الإسلام آماله. وَبَعَثَهُ إلى خِزَانَتِهِمُ المَوْقِفَةَ لِطَلَبَةِ العِلْمِ
 بِجامعِ القَرَوَيْنِ من مَدِينَةِ فاس حَاضِرَةِ مُلْكِهِم، وَكُرْنِي سُلْطَانِهِم،
 حَيْثُ مَقَرُّ الهُدَى، وَرِياضُ المَعَارِفِ خِضْلَةُ النَّدَى، وَقَضَاءُ الأَسْرَارِ
 الرّبّانيّة فسيحُ المَدَى، وَالإِمَامَةُ الكَرِيمَةُ الفَارِسيّة^(١) العَزِيزَةُ إِنْ
 شَاءَ اللهُ بِنَظَرِهَا الشَّرِيفِ، وَقَضَائِهَا الغَنِيِّ عَنِ التَّعْرِيفِ، تَبَسُّطُ لَهُ مِنْ

(١) الفارسية أي المنسوبة إلى السلطان أبي فارس المتقدم ذكره.

العناية مهاداً، وتفسح له في جانب القبول آماداً، فتوضح بها أدلة على رُسوخه وأشهاداً . ففي سوقها تنفق بضائع الكتاب ، وعلى حضرتها تكيف ركانب العلوم والآداب ، ومن ممدد بصايرها المنيرة نتائج القرائح والألباب . والله يوزعنا شكر نعمتها ، ويوفّر لنا حظوظ الموائب من رحمته ، ويعيننا على حقوق خدمتها ، ويجعلنا من السابقين في ميدانها ، المحلّين في حومتها ، ويضفي على أهل إيالتها ، وما أوى من الإسلام إلى حرم عمارتها ، لبوس حمايتها وحرمتها وهو سبحانه المسؤول أن يجعل أعمالنا خالصة في وجهتها ، بريئة من شوائب الغفلة وشبهتها ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل .

المقدمة في فضل علم التاريخ

وتحقيق مذاهبه وإلماح لما يعرض للمؤرخين من المغالط والإوهام
وذكر شيء من أسبابها

إِعْلَمَ أَنَّ فَنَّ التَّارِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ الْمَذْهَبِ، جَمُّ الْقَوَائِدِ، شَرِيفُ
الْغَايَةِ؛ إِذْ هُوَ يَوْقِفُنَا^(١) عَلَى أَحْوَالِ الْمَاضِينَ مِنَ الْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ،
وَالْأَنْبِيَاءِ فِي سَيْرِهِمْ، وَالْمُلُوكِ فِي دَوْلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ؛ حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ
الْاِقْتِدَاءِ فِي ذَلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا. فَهُوَ مُحْتَاجٌ
إِلَى مَا اخْتَدَتْ مُتَعَدِّدَةٌ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٌ، وَحُسْنَ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفْضِيَانِ
بِصَاحِبَيْهَا إِلَى الْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ الْمَزَلَّاتِ وَالْمَقَالِطِ لِأَنَّ الْأَخْبَارَ
إِذَا اعْتُمِدَ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ النُّقْلِ، وَلَمْ تُحْكَمْ أَصُولُ الْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ
السِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ الْعُمَرَانِ وَالْأَحْوَالِ فِي الْإِجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ، وَلَا
قِيَاسَ الْغَائِبِ مِنْهَا بِالشَّاهِدِ، وَالْحَاضِرُ بِالذَّاهِبِ، قَرُبًا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا
مِنَ الْعُشُورِ، وَمَزَلَّةِ الْقَدَمِ وَالْخَيْدِ عَنِ جَادَةِ الصِّدْقِ. وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ

(١) بمعنى يطلعنا، وهي لغة ضعيفة.

لِلْمُؤَرِّخِينَ وَالْمُفَسِّرِينَ وَائِمَّةِ النَّقْلِ الْمَغَايِطُ فِي الْحِكَايَاتِ وَالْوَقَائِعِ ،
لِاعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ النَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا ، لَمْ يَغْرِضُوهَا عَلَى
أَصُولِهَا ، وَلَا قَاسَوْهَا بِأَشْبَاهِهَا ، وَلَا سَبَرُوهَا بِمِغْيَارِ الْحِكْمَةِ ،
وَالْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ ، وَتَحْكِيمِ النَّظَرِ وَالْبَصِيرَةِ فِي
الْأَخْبَارِ . فَضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ ؛ وَلَا سِيَّامَا
فِي إِنْصَاءِ الْأَعْدَادِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي الْحِكَايَاتِ
إِذْ هِيَ مَطْنَةُ الْكَذِبِ وَمَطْيَةُ الْهَذَرِ ؛ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى الْأَصُولِ
وَعَرْضِهَا عَلَى الْقَوَاعِدِ .

وَهَذَا كَمَا نَقَلَ الْمُسْعُودِيُّ وَكَثِيرٌ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ فِي جُيُوشِ
بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَحْصَاهُمْ فِي التِّيهِ ، بَعْدَ
أَنْ أَجَازَ مَنْ يُطِيقُ سَمَلَ السِّلَاحِ خَاصَّةً مِنْ ابْنِ عَشْرِينَ فَمَا فَوْقَهَا
فَكَانُوا سِتِّمِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ .

وَيَذْهَبُ فِي ذَلِكَ عَنْ تَقْدِيرِ مَضَرِّ وَالشَّامِ وَإِتْسَاعِهَا لِثَلَاثَةِ هَذَا
الْعَدَدِ مِنَ الْجُيُوشِ . لِكُلِّ تَمَلُّكِ مِنَ الْمَمَالِكِ حِصَّةٌ مِنَ الْحَاكِمَةِ
تَتَسَّعُ لَهَا وَتَقُومُ بِوُضَائِفِهَا وَتَضِيقُ عَمَّا فَوْقَهَا ؛ تَشْهَدُ بِذَلِكَ الْعَوَائِدُ
الْمَعْرُوفَةُ وَالْأَحْوَالُ الْمَأْلُوفَةُ .

ثُمَّ إِنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْجُيُوشِ الْبَالِغَةِ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَدَدِ يَبْدُو
أَنْ يَقَعَ بَيْنَهَا زَحْفٌ أَوْ قِتَالٌ لِيَضِيقَ سَاحَةَ الْأَرْضِ عَنْهَا ، وَبُعْدِهَا
إِذَا أَصْطَفَتْ عَنْ مَدَى الْبَصَرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَزِيدَ ، فَكَيْفَ
يَقْتَلُ هَذَانِ الْفَرِيقَانِ أَوْ تَكُونُ غَلْبَةُ أَحَدِ الصَّفَيْنِ وَشَيْءٌ مِنْ

جَوَانِيهِ لَا يَشْعُرُ بِالْجَانِبِ الْآخِرِ . وَالْحَاضِرُ يَشْهَدُ لِذَلِكَ ؛ فَلَمَّا ضَى
أَشْبَهُ بِالْآتِي مِنَ الْمَاءِ بِالْمَاءِ .

وَلَمَّا كَانَ مُلْكُ الْفُرْسِ وَدَوَّلَتُهُمْ أَعْظَمَ مِنْ مُلْكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ
بِكَثِيرٍ ، يَشْهَدُ لِذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ غَلَبِ بَخْتَنَصَرٍ لَهُمْ ، وَأَنْتِهَامِهِ
بِلَادَهُمْ ، وَاسْتِيلَائِهِ عَلَى أَمْرِهِمْ ، وَتَحْرِيبِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ قَاعِدَةً
مِلَّتِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ ، وَهُوَ مِنْ بَعْضِ عُمَالِ تَمْلِكَةِ فَارِسَ . يُقَالُ إِنَّهُ
كَانَ مَرْزَبَانُ الْمَغْرِبِ مِنْ نُخُومِهَا . وَكَانَتْ مَمَالِكُهُمْ بِالْعِرَاقَيْنِ
وَحِرَاسَانَ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَالْأَبْوَابِ أَوْسَعَ مِنْ تَمَالِكِ بَنِي إِسْرَائِيلَ
بِكَثِيرٍ . وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَبْلُغْ جُيُوشُ الْفُرْسِ قَطُّ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ وَلَا
قَرِيباً مِنْهُ . وَأَعْظَمُ مَا كَانَتْ جُوعُهُمْ بِالْقَادِيسِيَّةِ مِائَةً وَعِشْرُونَ أَلْفًا ،
كُلُّهُمْ مَتَبُوعٌ عَلَى مَا نَقَلَهُ «سَيْفٌ»^(١) قَالَ : وَكَانُوا فِي أَتْبَاعِهِمْ
أَكْثَرَ مِنْ مِائَتِي أَلْفٍ . وَعَنْ عَائِشَةَ وَالزُّهْرِيِّ : أَنَّ جُوعَ دُسْتَمِ
الَّتِي رَحَفَ بِهَا لِسَعْدِ بِالْقَادِيسِيَّةِ إِنَّمَا كَانَ سِتِينَ أَلْفًا كُلُّهُمْ مَتَبُوعٌ .

وَأَيْضًا فَلَوْ بَلَغَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِثْلَ هَذَا الْعَدَدِ لَأَتَّسَعَ نِطاقُ
مُلْكِهِمْ وَأَنْفَسَجَ مَدَى دَوَلَّتِهِمْ ؛ فَإِنَّ الْعِمَالَاتِ وَالْمَمَالِكِ فِي الدُّوَلِ
عَلَى نِسْبَةِ الْحَاكِمِيَّةِ وَالْقَبِيلِ الْقَائِمِينَ بِهَا فِي قِلَّتِهَا وَكَثْرَتِهَا ؛ حَسَبًا
نُبَيْنُ فِي فَصْلِ الْمَمَالِكِ مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ . وَالْقَوْمُ لَمْ تَتَّسِعْ مَمَالِكُهُمْ
إِلَى غَيْرِ الْأَزْدُنِ وَفِلَسْطِينَ مِنَ الشَّامِ ، وَبِلَادِ يَثْرِبَ وَخَيْبَرَ مِنْ
الْحِجَازِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْرُوفُ .

(١) هوسيف بن عمر الأسدي : من جامعي تواريخ الأمم والدول .

وأيضاً فالذي بين موسى وإسرائيل إنما هو أذبعة آباء على ما ذكره المحققون ، فإنه موسى بن عمران بن يصر بن قاهت بفتح الهاء وكسر ها ، ابن لاوي بكسر الواو وفتحها ، ابن يعقوب وهو إسرائيل الله ، هكذا نسب في التوراة . والمدة بينهما على ما نقله المستودعي ، قال : دخل إسرائيل مصر مع ولديه الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفساً ؛ وكان مقامهم يصر إلى أن خرجوا مع موسى عليه السلام إلى التيه مائتين وعشرين سنة ، تتداولهم ملوك القبط من القراينة . ويعد أن يتشعب النسل في أذبعة أجيال إلى مثل هذا العدد . وإن زعموا أن عدد تلك الجيوش إنما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعد أيضاً ؛ إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر أباً . فإنه سليمان بن داود بن إيشا بن عوفيد (ويقال ابن عوفد) بن باعز (ويقال بويز) بن سلمون ابن نحشون بن عمينوذ (ويقال حيناذاب) بن رم بن حصرون (ويقال حسرون) ابن بارس (ويقال تيرس) بن يهوذا بن يعقوب . ولا يتشعب النسل في أحد عشر من الولد إلى مثل هذا العدد الذي زعموه ؛ اللهم إلى المئين والآلاف فرُبما يكون ؛ وأما أن يتجاوز إلى ما بعدهما من عقود الأعداد فبعد . واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد والقريب المعروف ، تجد زعمهم باطلاً ونقلهم كاذباً . والذي ثبت في الإسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفاً خاصة ، وأن ممرباته^(١) كانت ألفاً وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه . هذا

(١) المقربات : ج . مقربة . وهي من الخيل التي يقرب معلقها ومربطها لكرامتها .

هُوَ الصَّحِيحُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَى خُرَافَاتِ الْعَامَّةِ مِنْهُمْ . وَفِي
 أَيَّامِ سُلايْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُلْكِهِ كَانَ عُنْفُوانُ دَوْلَتِهِمْ وَاتِّسَاعُ مُلْكِهِمْ .
 هَذَا ، وَقَدْ نَجِدُ الْكَافَّةَ مِنْ أَهْلِ الْعَصْرِ إِذَا أَفَاضُوا فِي الْحَدِيثِ
 عَنْ عَسَاكِرِ الدُّوَلِ الَّتِي لِعَمَلِهِمْ أَوْ قَرِيباً مِنْهُ ، وَتَفَاوَضُوا فِي
 الْأَخْبَارِ عَنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ النِّصَارِيِّ ، أَوْ أَخَذُوا فِي إِحْصَاءِ
 أَمْوَالِ الْجَبَايَاتِ وَخَرَاجِ السُّلْطَانِ وَنَفَقَاتِ الْمُتَرَفِّينَ وَبِضَائِعِ الْأَغْنِيَاءِ
 الْمُوَسَّرِينَ ، تَوَغَّلُوا فِي الْعَدَدِ ، وَتَجَاوَزُوا حُدُودَ الْعَوَائِدِ ، وَطَاوَعُوا
 وَسَاوِسَ الْإِغْرَابِ . فَإِذَا اسْتَكْشَفْتَ أَصْحَابَ الدَّوَاوِينِ عَنْ
 عَسَاكِرِهِمْ ، وَاسْتَبْطَطْتَ أَحْوَالَ أَهْلِ الثَّرْوَةِ فِي بِضَائِعِهِمْ وَفَوَائِدِهِمْ ،
 وَاسْتَجْلَيْتَ عَوَائِدَ الْمُتَرَفِّينَ فِي نَفَقَاتِهِمْ ، لَنْ تَجِدَ مَعْشَارَ مَا يَعُدُّونَهُ .
 وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِوُلُوعِ النَّفْسِ بِالْغَرَائِبِ ، وَسُهُولَةِ التَّجَاوُزِ عَلَى اللِّسَانِ
 وَالْعُقْلَةِ عَلَى الْمُتَعَبِّ وَالْمُنْتَقِدِ ، حَتَّى لَا يُجَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى خَطَأٍ وَلَا
 عَمْدٍ ، وَلَا يُطَالِبَهَا فِي الْخَبَرِ بِتَوْسُطٍ وَلَا عَدَالَةٍ ، وَلَا يُرْجِعُهَا إِلَى بَحْثٍ
 وَتَفْتِيشٍ ، فَيُرْسِلَ عِنَانَهُ وَيُسِيمَ فِي مَرَاتِعِ الْكَذِبِ لِسَانَهُ ، وَيَتَّخِذَ
 آيَاتِ اللَّهِ هُزُوءاً ، وَيَشْتَرِي هُوَ الْحَدِيثَ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ،
 وَحَسْبُكَ بِهَا صَفْقَةٌ خَاسِرَةٌ .

وَمِنْ الْأَخْبَارِ الْوَاحِيَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي أَخْبَارِ
 التَّبَايَعَةِ مُلُوكِ الْيَمَنِ وَجَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْزُونَ مِنْ قُرَاهِمُ
 بِالْيَمَنِ إِلَى إِفْرِيقِيَّة^(١) وَالْبَرْبَرِ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ ، وَأَنَّ إِفْرِيقِشَ بْنَ قَيْسٍ

(١) كَذَا الْمَشْهُورُ بِدُونِ تَشْدِيدِ الْيَاءِ ، وَقَدْ تَشَدَّدَ الْيَاءُ : (إِفْرِيقِيَّة) كَمَا ذَكَرَهَا يَاقُوتُ فِي مَعْجَمِ
 الْبِلَادِ .

ابن صَيْفِيٍّ مِنْ أَعَاظِمِ مُلُوكِهِمُ الْأَوَّلِ ، وَكَانَ لِعَهْدِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ . غَزَا إِفْرِيْقِيَّةَ وَأَتَخَنَ فِي الْبَرْبَرِ ، وَأَنَّهُ الَّذِي سَمَّاهُمْ
بِهَذَا الْأَسْمِ حِينَ سَمِعَ رَطَا نَتْمَهُمْ وَقَالَ : مَا هَذِهِ الْبَرْبَرَةُ ، فَأَخَذَ هَذَا الْأَسْمَ
عَنْهُ وَدُعُوا بِهِ مِنْ حَيْثُ ذُو ، وَأَنَّهُ لَمَّا أَنْصَرَفَ مِنَ الْمَغْرِبِ حَجَزَ هُنَالِكَ
قَبَائِلَ مِنْ يَخْمَرٍ فَأَقَامُوا بِهَا وَأَخْتَلَطُوا بِأَهْلِهَا ، وَمِنْهُمْ صِنْهَاجَةٌ^(١)
وَكُتَامَةٌ وَمِنْ هَذَا ذَهَبَ الطَّبْرِيُّ وَالْجُرْجَانِيُّ وَالْمُسْعُودِيُّ وَأَبْنُ الْكَلْبِيِّ
وَالْبَيْلِيُّ إِلَى أَنَّ صِنْهَاجَةَ وَكُتَامَةَ مِنْ يَخْمَرٍ وَتَأْبَاهُ نَسَابَةُ الْبَرْبَرِ ،
وَهُوَ الصَّحِيحُ .

وَذَكَرَ الْمُسْعُودِيُّ أَيْضًا أَنَّ ذَا الْأَذْعَارِ مِنْ مُلُوكِهِمْ قَبْلَ إِفْرِيْقِشَ
وَكَانَ عَلَى عَهْدِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، غَزَا الْمَغْرِبَ وَدَوَّخَهُ ، وَكَذَلِكَ
ذَكَرَ مِثْلُهُ عَنْ يَاسِرٍ أُنْبِئِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَنَّهُ بَلَغَ وَادِي الرُّمْلِ مِنْ
بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ مَسْلَكًا لِكَثْرَةِ الرُّمْلِ ، فَرَجَعَ . وَكَذَلِكَ
يَقُولُونَ فِي تَبَعِ الْآخِرِ وَهُوَ أَسْعَدُ أَبُو كَرْبَ ، وَكَانَ عَلَى عَهْدِ
يَسْتَأَيْسِفَ^(٢) مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ الْكِيَانِيَّةِ ، إِنَّهُ مَلَكَ الْمَوْصِلَ وَأَذْدُ بِنِجَانَ
وَلَقِيَ التُّرْكَ فَهَزَمَهُمْ وَأَتَخَنَ ، ثُمَّ غَزَاهُمْ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَذَلِكَ ، وَإِنَّهُ
بَعْدَ ذَلِكَ أَغْزَى ثَلَاثَةً مِنْ بَنِيهِ بِلَادَ فَارِسَ ، وَإِلَى بِلَادِ الصُّمْدِ
مِنْ بِلَادِ أَمَمِ التُّرْكَ وَرَاءَ النَّهْرِ ، وَإِلَى بِلَادِ الرُّومِ ، فَلَمَّا الْأَوَّلُ
الْبِلَادَ إِلَى سَمَرَقَنْدَ وَقَطَعَ الْمَفَازَةَ إِلَى الصِّينِ ، فَوَجَدَ أَخَاهُ الثَّانِي

(١) صِنْهَاجَةُ بَفَتْحِ الصَّادِ كَمَا فِي مَعْرُوفَةِ فِي الْمَغْرِبِ ، وَبِكْسَرِ الصَّادِ كَمَا وَرَدَتْ فِي كِتَابِ
التَّارِيخِ وَاللُّغَةِ .

(٢) كَذَا بِالْأَصْلِ فِي جَمِيعِ النُّسَخِ الْقَدِيمَةِ ، وَنَسَخَةُ لَجْنَةِ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ : يَسْتَأْفِ وَأَطْنَهَا غُلْطَةُ
مَطْبَعِيَّةٍ .

الَّذِي غَزَا إِلَى سَمَرْقَنْدَ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا ، فَأَتَتْحْنَا فِي بِلَادِ الصِّينِ
وَرَجَعَا جَمِيعاً بِالْفَنَائِمِ ، وَتَرَكَوْا بِلَادِ الصِّينِ قَبَائِلَ مِنْ خَيْرِ
فَهْمَ بِهَا إِلَى هَذَا الْعَهْدِ ، وَبَلَغَ الثَّالِثُ إِلَى قُسْطَنْطِينِيَّةَ فَدَرَسَهَا^(١)
وَدَوَّخَ بِلَادَ الرُّومِ وَرَجَعَ .

وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ كُلُّهَا بَعِيدَةٌ عَنِ الصِّحَّةِ ، عَرِيقَةٌ فِي الْوَهْمِ وَالْغَلَطِ ،
وَأَشْبَهُ بِأَحَادِيثِ الْقِصَصِ الْمَوْضُوعَةِ . وَذَلِكَ أَنَّ مُلْكَ التَّبَاعَةِ إِنَّمَا
كَانَ يَجْزِيهِ الْعَرَبُ وَقَرَادَهُمْ وَكُرْسِيِّهِمْ بِصَنْعَاءَ الْيَمَنِ . وَجَزِيرَةُ
الْعَرَبِ يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتِهَا : فَبَحْرُ الْهِنْدِ مِنَ الْجَنُوبِ ،
وَبَحْرُ فَارِسَ الْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى الْبَصْرَةِ مِنَ الْمَشْرِقِ ؛ وَبَحْرُ السُّوَيْسِ
الْهَابِطُ مِنْهُ إِلَى السُّوَيْسِ مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ ، كَمَا
تَرَاهُ فِي مُصَوِّرِ الْجُغْرَافِيَا . فَلَا يَجِدُ السَّالِكُونَ مِنَ الْيَمَنِ إِلَى
الْمَغْرِبِ طَرِيقاً مِنْ غَيْرِ السُّوَيْسِ . وَالْمَسْلُكُ هُنَاكَ مَا بَيْنَ بَحْرِ
السُّوَيْسِ وَالْبَحْرِ الشَّامِيِّ قَدَرِ مِزْحَلَتَيْنِ فَا دُونَهَا . وَيَبْعُدُ أَنْ يُرَى
بِهَذَا الْمَسْلُكِ مَلِكٌ عَظِيمٌ فِي عَسَاكِرِ مَوْفُورَةٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَصِيرَ
مِنْ أَعْمَالِهِ ، هَذَا مُتَمَتِّعٌ فِي الْعَادَةِ . وَقَدْ كَانَ يَتْلُكَ الْأَعْمَالِ
الْعَمَلِيقَةُ وَكُنْعَانُ بِالشَّامِ وَالْقِبْطُ بِمِصْرَ ، ثُمَّ مَلِكُ الْعَمَلِيقَةِ مِصْرَ وَمَلِكُ
بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّامَ ؛ وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَاعَةَ حَارَبُوا أَحَدًا مِنْ
هَؤُلَاءِ الْأُمَمِ وَلَا مَلَكَوا شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الْأَعْمَالِ .

وَأَيْضاً فَالْشُّقَّةُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْمَغْرِبِ بَعِيدَةٌ وَالْأَزِيدَةُ وَالْعُلُوفَةُ
لِلْعَسَاكِرِ كَثِيرَةٌ ؛ فَإِذَا سَارُوا فِي غَيْرِ أَعْمَالِهِمْ احْتَأَجَوْا انْتِهَابَ

(١) درس الأثر: بمعنى عناه (لسان العرب).

الرَّزْعِ وَالنَّعْمِ . وَانْتِهَابَ الْبِلَادِ فِيمَا يُمِرُّونَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَكْفِي ذَلِكَ
لِلْأَزْوَدَةِ وَالْمَعْلُوقَةِ عَادَةً ؛ وَإِنْ تَقَلُّوا كِفَايَتَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ
فَلَا تَغْيِي لَهُمُ الرُّوَايِلُ بِنَقْلِهِ ، فَلَا بُدَّ وَأَنْ يُمِرُّوا فِي طَرِيقِهِمْ كُلِّهَا
بِأَعْمَالٍ قَدْ مَلَكَوْهَا وَدَوَّخَوْهَا لِتَكُونَ الْمِيرَةُ مِنْهَا . وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ
تِلْكَ الْعَسَاكِرَ تَمُرُّ بِهَؤُلَاءِ الْأُمَمِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَهْبِجَهُمْ فَتَحْصُلَ لَهُمْ
الْمِيرَةُ بِالسَّالِمَةِ ، فَذَلِكَ أَبْعَدُ وَأَشَدُّ امْتِنَاعًا ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ
الْأَخْبَارَ وَاهِيَةٌ أَوْ مَوْضُوعَةٌ .

وَأَمَّا وادي الرُّمْلِ الَّذِي يُعْجِزُ السَّالِكَ ، فَلَمْ يُسَمَعْ قَطُّ ذِكْرُهُ فِي
الْمُغْرِبِ عَلَى كَثْرَةِ سَالِكِيهِ وَمَنْ يَقْصُرُ طَرَفُهُ مِنَ الرُّكَّابِ وَالْقَرَى^(١)
فِي كُلِّ عَصْرِ وَكُلِّ جِهَةٍ ؛ وَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْغَرَابَةِ تَتَوَافَرُ
الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ .

وَأَمَّا غَزْوُهُمْ بِلَادَ الشَّرْقِ وَأَدْضَ التُّرْكِ ، وَإِنْ كَانَتْ طَرِيقُهُ
أَوْسَعَ مِنْ مَسَالِكِ السُّوَيْسِ ، إِلَّا أَنَّ الشُّقَّةَ هُنَا أَبْعَدُ ، وَأَمَّهُمْ فَارِسَ
وَالرُّومِ مُعْتَرِضُونَ فِيهَا دُونَ التُّرْكِ . وَلَمْ يُنْقَلْ قَطُّ أَنَّ التَّبَاعَةَ مَلَكَوْا
بِلَادَ فَارِسَ وَلَا بِلَادَ الرُّومِ ؛ وَإِنَّمَا كَانُوا يُجَارِبُونَ أَهْلَ فَارِسَ عَلَى
حُدُودِ بِلَادِ الْعِرَاقِ وَمَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ وَالْحِيرَةِ وَالْجَزِيرَةِ بَيْنَ دِجْلَةَ
وَالْفُرَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي الْأَعْمَالِ . وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ بَيْنَ ذِي الْإِذْعَارِ
مِنْهُمْ وَكِسَاوُسَ مِنْ مُلُوكِ الْكِيَانِيَّةِ ، وَبَيْنَ تُبَّعِ الْأَصْغَرِ أَبِي كَرِبَ
وَيَسْتَأْسَفَ مِنْهُمْ أَيْضًا ، وَمَعَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ بَعْدَ الْكِيَانِيَّةِ وَالسَّاسَانِيَّةِ

(١) بمعنى : الأشخاص الذين يطوفون في البلاد (قاموس).

من بعدهم، مُجَاوِزَةً^(١) أَرْضِ فَارِسَ بِالْعَزْوِ إِلَى بِلَادِ التُّرْكِ وَالتَّبَتِ ، وهو مُنْتَنِعٌ عَادَةً مِنْ أَجْلِ الْأُمَمِ الْمُتَرَضَّةِ مِنْهُمْ ، وَالْحَاجَّةِ إِلَى الْأَزْوَدَةِ وَالْعُلُوفَاتِ مَعَ بُعْدِ الشُّقَّةِ كَمَا مَرَّ . فَأَلْأَخْبَارُ بِذَلِكَ وَاهِيَةٌ مَدْخُولَةٌ . وَهِيَ لَوْ كَانَتْ صَحِيحَةَ النُّقْلِ لَكَانَ ذَلِكَ قَادِحًا فِيهَا ؛ فَكَيْفَ وَهِيَ لَمْ تُنْقَلْ مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ . وَقَوْلُ ابْنِ إِسْحَاقَ فِي خَبَرِ يَثْرِبَ وَالْأَوْسِ وَالْحَزْرَجِ : إِنَّ تَبْعًا الْآخَرَ — سَارَ إِلَى الْمَشْرِقِ مَحْمُولٌ عَلَى الْعِرَاقِ وَبِلَادِ فَارِسَ . وَأَمَّا بِلَادِ التُّرْكِ وَالتَّبَتِ فَلَا يَصِحُّ غَزْوُهُمْ إِلَيْهَا يَوْجُهُ لِمَا تَقَرَّرَ . فَلَا تَيَمَّنْ بِمَا يُلْقَى إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ ، وَتَأَمَّلِ الْأَخْبَارَ وَأَعْرِضْهَا عَلَى الْقَوَانِينِ الصَّحِيحَةِ يَقَعُ لَكَ تَحْيِصُهَا بِأَحْسَنِ وَجْهِ . وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ .

فصل : وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْرَقُ فِي الْوَهْمِ مَا يَتَنَاقَلُهُ الْمُفَسِّرُونَ^(٢) فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ «وَالْفَجْرِ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ ، فَيَجْعَلُونَ لَفْظَةَ إِرَمَ اسْمًا لِمَدِينَةٍ وَصَفَتْ بِأَنَّهَا ذَاتُ عِمَادٍ أَيْ أَسَاطِينٍ . وَيَنْقُلُونَ أَنَّهُ كَانَ لِعَادِ ابْنِ عَوْصِ بْنِ إِرَمَ ابْنَانِ هُمَا شَدِيدٌ وَشَدَادٌ مَلَكَا مِنْ بَعْدِهِ ، وَهَلَكَ شَدِيدٌ فَخَلَصَ الْمَلِكُ لَشَدَادٍ وَدَانَتْ لَهُ مُلُوكُهُمْ ؛ وَسَمِعَ وَصْفَ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ لِأَبْنَيْنِ مِثْلَهَا ، فَبَنَى مَدِينَةَ إِرَمَ فِي صَحَارَى عَدَنَ فِي مَدَّةٍ ثَلَاثَةِ سِنِينَ ؛ وَكَانَ عُمرُهُ تِسْعِمِائَةَ سَنَةٍ ، وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ قُصُورُهَا مِنَ الذَّهَبِ وَأَسَاطِينُهَا مِنَ الزَّبَرْجَدِ وَالْيَاقُوتِ ، وَفِيهَا

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ ، وتصويب العبارة : وأما مجاوزة أرض فارس . . . إلخ .

أَصْنَافُ الشَّجَرِ وَالْأَنْهَارِ الْمَطْرَدَةُ^(١) . ولما تَمَّ بناؤها سَادَ إِلَيْهَا
بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ؛ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بَعَثَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَنِيعَةً مِنَ السَّمَاءِ فَهَلَكُوا كُلُّهُمْ . ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبْرِيُّ وَالتَّعَالِيُّ
وَالزُّخَرِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ وَيَنْفُلُونَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قِلَابَةَ مِنْ
الصَّحَابَةِ^(٢) أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِ إِبْلِيسَ لَهُ فَوَقَعَ عَلَيْهَا وَتَحَمَّلَ مِنْهَا مَا قَدِرَ
عَلَيْهِ ، وَبَلَغَ خَبْرَهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، فَأَحْضَرَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ؛ فَبَحَثَ عَنْ كَنْبِ
الْأَحْبَارِ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ ؛ فَقَالَ ، هِيَ : « إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ » ، وَسَيَدُهَا
رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي زَمَانِكَ أَتَمَرُ أَشَقَرُ قَصِيرٌ عَلَى حَاجِبِهِ خَالٌ
وَعَلَى عُنُقِهِ خَالٌ ، يُخْرِجُ فِي طَلَبِ إِبْلِيسَ لَهُ ، ثُمَّ أَلْتَفَتَ فَأَبْصَرَ
ابْنَ قِلَابَةَ فَقَالَ : هَذَا وَاللَّهِ ذَلِكَ الرَّجُلُ .

وَهَذِهِ الْمَدِينَةُ لَمْ يُسْمَعْ لَهَا خَبَرٌ مِنْ يَوْمِئِذٍ فِي شَيْءٍ مِنْ بَقَاعِ
الْأَرْضِ . وَصَحَارَى عَدْنِ أَلْيَ زَعَمُوا أَنَّهَا بُنِيَتْ فِيهَا هِيَ فِي وَسْطِ
الْيَمَنِ ، وَمَا زَالَ عُمْرَانُهَا مُتَعاقِباً وَالْأَدِلَّةُ تَقْصُّ طُرُقَهَا مِنْ كُلِّ
وَجْهِ ، وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ خَبَرٌ وَلَا ذَكَرَهَا أَحَدٌ مِنَ الْإِنْجَارِيِّينَ
وَلَا مِنْ الْأُمَمِ . وَلَوْ قَالُوا إِنَّهَا دَرَسَتْ فِيمَا دَرَسَ مِنَ الْأَثَارِ لَكَانَ
أَشْبَهُ . إِلَّا أَنَّ ظَاهِرَ كَلَامِهِمْ أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ . وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ إِنَّهَا
دِمَشْقُ ، بِنَاءٌ عَلَى أَنَّ قَوْمَ عَادٍ مَلَكُوهَا . وَقَدْ يَنْتَهِي الْهَدْيَانُ
بِبَعْضِهِمْ إِلَى أَنَّهَا غَائِبَةٌ ، وَإِنَّمَا يَتَعَرَّضُ عَلَيْهَا أَهْلُ الرِّيَاضَةِ وَالسَّحْرِ .
مَزَاعِمُ كُلِّهَا أَشْبَهُ بِالْخَرَافَاتِ .

(١) بمعنى الجارية .

(٢) كذا في جميع النسخ ، وهو عبدالله بن زيد بن عمرو الجرمي وكنيته : أبو قلابَةَ . وهو من
التابعين - كذا ذكره ياقوت في معجم الأدباء .

وَالَّذِي تَحَمَّلَ الْمُفْتَسِرِينَ عَلَى ذَلِكَ مَا أَقْتَضَتْهُ صِنَاعَةُ الْإِعْرَابِ فِي لَفْظَةِ ذَاتِ الْعِمَادِ أَنَّهَا صِفَةٌ إِرَمَ ، وَحَمَلُوا الْعِمَادَ عَلَى الْأَسَاطِينِ فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ بِنَاءٌ . وَدَسَّحَ لَهُمْ ذَلِكَ قِرَاءَةُ ابْنِ الزُّبَيْرِ «عَادُ إِرَمَ» ، عَلَى الْإِضَافَةِ مِنْ غَيْرِ تَنْوِينٍ . ثُمَّ وَقَفُوا عَلَى تِلْكَ الْحِكَايَاتِ الَّتِي هِيَ أَشْبَهُ بِالْأَقَاصِيصِ الْمَوْضُوعَةِ وَالَّتِي هِيَ أَقْرَبُ إِلَى الْكُذِبِ ، الْمُنْقُولَةِ فِي عِدَادِ الْمُضْحِكَاتِ . وَإِلَّا فَالْعِمَادُ هِيَ عِمَادُ الْأَخْيَةِ بَلَرِ الْخِيَامِ . وَإِنْ أُريدَ بِهَا الْأَسَاطِينُ فَلَا يَدْعُ فِي وَصْفِهِمْ بِأَنَّهُمْ أَهْلُ بِنَاءٍ وَأَسَاطِينُ عَلَى الْعُومِ ، بِمَا اشتهَرَ مِنْ قُوَّتِهِمْ ، لَا أَنَّهُ بِنَاءٌ خَاصٌّ فِي مَدِينَةٍ مُعَيَّنَةٍ أَوْ غَيْرِهَا . وَإِنْ أُضِيفَتْ كَمَا فِي قِرَاءَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَعَلَى إِضَافَةِ الْفَصِيلَةِ إِلَى الْقَبِيلَةِ ، كَمَا تَقُولُ قُرَيْشُ كِنَانَةَ ، وَإِلْيَاسَ مُضَرَ ، وَرَبِيعَةَ زَرَارٍ . وَآيُ ضَرُورَةٍ إِلَى هَذَا الْمَحْمَلِ الْبَعِيدِ الَّذِي تُمَحَّلَتْ^(١) لِتَوْجِيهِهِ لِأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي يُنَزَّهُ كِتَابُ اللَّهِ عَنْ مِثْلِهَا لِبُعْدِهَا عَنِ الصِّحَّةِ .

وَمِنْ الْحِكَايَاتِ الْمُنْخُولَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ ، مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً فِي سَبَبِ نَكْبَةِ الرَّشِيدِ لِلْبَرَامِكَةِ مِنْ قِصَّةِ الْعَبَّاسَةِ أُخْتِهِ مَعَ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى ابْنِ خَالِدٍ مَوْلَاهُ ، وَأَنَّهُ لِكَلْفِهِ بِمَكَانِهَا مِنْ مُعَاقَرَتِهِ إِيَّاهَا الْخَمْرَ أَذِنَ لَهَا فِي عَقْدِ النِّكَاحِ دُونَ الْخُلُوعِ حِرْصاً عَلَى انْجِمَاعِهَا فِي تَجْلِسِهِ ، وَأَنَّ الْعَبَّاسَةَ تَحَمَّلَتْ عَلَيْهِ فِي الْتِمَاسِ الْخُلُوعِ بِهِ ، لِمَا شَفَقَهَا مِنْ حُبِّهِ حَتَّى وَاقَعَا ، ذَمُّوْا فِي حَالَةِ سُكْرِ ، فَحَمَلَتْ وَوُثِّيَ بِذَلِكَ لِلرَّشِيدِ ، فَاسْتَفْضَبَ .

(١) تَحَمَّلَ لِلشَّيْءِ بِمَعْنَى : اِحْتَالَ فِي طَلَبِهِ . وَفِي الْعِبَارَةِ اضْطِرَابُ ، وَالتَّصَوُّبُ : «الَّذِي تَحْمَلُ لِتَوْجِيهِهِ بِأَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ» .

وَهَيْهَاتَ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ الْعَبَّاسَةِ فِي دِينِهَا وَأَبْوَنِهَا وَجَلَالِهَا ،
وَأَنَّهَا بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ .
هُمْ أَشْرَافُ الدِّينِ وَعُظَمَاءُ الْمِلَّةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَالْعَبَّاسَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ
الْمُهَدِّيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمُتَّصِرِ بْنِ مُحَمَّدٍ السَّجَّادِ بْنِ عَلِيٍّ
أَبِي الْخَلَفَاءِ ، بْنِ عَبْدِ اللَّهِ تَرْجُمَانِ الْقُرْآنِ ، بْنِ الْعَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ ابْنَةُ خَلِيفَةٍ ، أُخْتُ خَلِيفَةٍ ، مُحْفُوفَةٌ بِالْمُلْكِ
الْعَزِيزِ وَالْخِلَافَةِ النَّبَوِيَّةِ وَصُحْبَةِ الرُّسُولِ وَعُمُومَتِهِ ، وَإِمَامَةِ الْمِلَّةِ
وَنُورِ الْوَحْيِ وَمَهَبِطِ الْمَلَائِكَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا ، قَرِيبَةٌ عَهْدٍ
بِبِدَاوَةِ الْعُرُوِّيَّةِ وَسَدَاجَةِ^(١) الدِّينِ ، الْبَعِيدَةِ عَنْ عَوَائِدِ التَّرَفِّ
وَمَرَاتِعِ الْفَوَاحِشِ . فَأَيُّنَ يُطْلَبُ الصَّوْنُ وَالْعَفَافُ إِذَا ذَهَبَ عَنْهَا ،
أَوْ أَيُّنَ تَوَجَّدُ الطَّهَارَةُ وَالزَّكَاةُ^(٢) إِذَا فُقِدَ مِنْ بَيْنِهَا ، أَوْ كَيْفَ تَلْحَمُ
نَسَبَهَا بِجَعْفَرِ بْنِ يُحْيَى وَتُدْنَسُ شَرَفُهَا الْعَرَبِيُّ بِمَوْلَى مِنْ مَوَالِي
الْعَجَمِ ، يَمْلِكُكَ جَدِّهِ مِنَ الْفُرْسِ أَوْ يُولَاءُ جَدِّهَا مِنْ عُومَةِ
الرُّسُولِ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ . وَغَايَتُهُ أَنْ جَذَبَتْ دَوَائِلَهُمْ بِضَبْعِهِ وَضَبَعَ
أَبِيهِ وَأَسْتَخْلَصَتْهُمْ وَرَفَّقَتْهُمْ إِلَى مَنَازِلِ الْأَشْرَافِ . وَكَيْفَ يَسُوعُ مِنَ
الرَّشِيدِ أَنْ يُصْهَرَ إِلَى مَوَالِي الْأَعَاجِمِ عَلَى بُعْدِ هِمَّتِهِ ، وَعِظَمِ آبَائِهِ ؟
وَلَوْ نَظَرَ الْمُتَأَمِّلُ فِي ذَلِكَ نَظَرَ الْمُنْصِفِ ، وَقَاسَ الْعَبَّاسَةَ بِابْنَةِ مَلِكٍ
مِنْ عُظَمَاءِ مُلُوكِ زَمَانِهِ ، لَأَسْتَنَكَفَ لَهَا عَنْ مِثْلِهِ مَعَ مَوْلَى مِنْ

(١) بمعنى الوضع الصحيح الطبيعي الذي لم تشبهه شائبه (قاموس).

(٢) في جميع النسخ المطبوعة الذكاء بالذال، وفي النسخة الباريسية المخطوطة: الزكاء،

بالزاي، وهو الأصح، بمعنى الصلاح.

موالي دَوْلَتِهَا ، وفي سُلْطَانِ قَوْمِهَا ، وَأُسْتَنْكَرَهُ وَلَجٌ فِي تَكْذِيبِهِ .
وَأَيْنَ قَدْرُ الْعَبَاسَةِ وَالرَّشِيدِ مِنَ النَّاسِ ؟

وَأَمَّا نَكَبَ الْبَرَامِكَةِ مَا كَانَ مِنْ أَسْتَبْدَادِهِمْ عَلَى الدَّوْلَةِ ،
وَأَحْتِجَافِهِمْ^(١) أَمْوَالِ الْجَبَايَةِ ، حَتَّى كَانَ الرَّشِيدُ يَطْلُبُ الْيَسِيرَ مِنْ
الْمَالِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ ، فَغَلَبَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَشَارَكُوهُ فِي سُلْطَانِهِ ، وَلَمْ
يَكُنْ لَهُ مَعَهُمْ تَصَرُّفٌ فِي أُمُورِ مُلْكِهِ . فَعَظُمَتِ آثَارُهُمْ وَتَبَدَّدَ صَيْتُهُمْ ،
وَعَمَرُوا مَرَاتِبَ الدَّوْلَةِ وَخُطَطَهَا^(٢) بِالرُّؤَسَاءِ مِنْ وَلَدِيهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ ،
وَأَحْتَازَوْهَا عَنْ سِوَاهُمْ ، مِنْ وَزَارَةِ وَكِتَابَةِ وَقِيَادَةِ وَحِجَابَةِ وَسَيْفِ
وَقَلَمٍ . وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ يَدَارُ الرَّشِيدِ مِنْ وَلَدِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ خَمْسَةٌ
وَعِشْرُونَ رَئِيسًا مِنْ بَيْنِ صَاحِبِ سَيْفٍ وَصَاحِبِ قَلَمٍ ، زَاخَمُوا فِيهَا
أَهْلَ الدَّوْلَةِ بِالْمَنَازِكِ ، وَدَفَعُوهُمْ عَنْهَا بِالرَّاحِ ، لِمَكَانِ أَبِيهِمْ يَحْيَى
مِنْ كِفَالَةِ هُرُونَ وَلِيِّ عَهْدٍ وَخَلِيفَةٍ ، حَتَّى شَبَّ فِي حُجْرِهِ وَدَرَجٍ مِنْ
عُشْبِهِ وَغَلَبَ عَلَى أَمْرِهِ ، وَكَانَ يَدْعُوهُ يَا أَبَتِ . فَتَوَجَّهَ الْإِيشَارُ مِنْ
السُّلْطَانِ إِلَيْهِمْ وَعَظُمَتِ الدَّالَّةُ مِنْهُمْ ، وَأَنْبَسَطَ الْجَاهُ عِنْدَهُمْ ، وَأَنْصَرَفَتْ
نَحْوُهُمُ الْوُجُوهُ ، وَخَضَعَتْ لَهُمُ الرِّقَابُ ، وَقُصِرَتْ عَلَيْهِمُ الْأَمْالُ ،
وَتَخَطَّتْ إِلَيْهِمْ مِنْ أَقْصَى الشُّخُومِ هَدَايَا الْمُلُوكِ وَنُحُفُ الْأَمْرَاءِ ،
وَسُيِّرَتْ إِلَى خَزَائِنِهِمْ فِي سَبِيلِ التَّرْتُّلِ وَالْإِسْتِمَالَةِ ، أَمْوَالُ الْجَبَايَةِ ،
وَأَفَاضُوا فِي رِجَالِ الشَّيْعَةِ وَعُظَمَاءِ الْقَرَابَةِ الْمَطَاءِ ، وَطَوَّقُوهُمْ الْيَمْنَ

(١) احتجف الشيء: استخلصه وحازه. والأصح استعمال كلمة احتجافهم في هذا المقام.
ولكن ابن خلدون يتعمد استعمال الكلمات الغريبة.

(٢) جمع خبطة بضم الخاء بمعنى: الأمر. وأما بالكسر كما أوردها محقق لجنة البيان العربي
بمعنى «المكان المختلط لعبارة»؛ فليس لها معنى في هذا المقام.

وَكَسَبُوا^(١) مِنْ بُيُوتَاتِ الْأَشْرَافِ الْمُعْتَمِدِمْ وَفَسَكُوا الْعَافِي^(٢)، وَمُذِحُوا
بِمَا لَمْ يَمْدَحْ بِهِ خَلِيفَتُهُمْ وَأَسَنُوا لِعُفَايَتِهِمْ^(٣) الْجَوَائِزَ وَالصِّلَاتِ، وَأَسْتَوَلُوا
عَلَى الثُّرَى وَالضُّبَاعِ مِنَ الضُّوَاهِي وَالْأَمْصَارِ فِي سَائِرِ الْمَمَالِكِ؛ حَتَّى
أَسَفُوا الْبَطَانَةَ وَأَحْمَدُوا الْخَاصَّةَ، وَأَغَصُوا^(٤) أَهْلَ الْوِلَايَةِ فَكُشِفَتْ
لَهُمْ وُجُوهُ الْمُنَافَسَةِ وَالْحَسَدِ، وَدَبَّتْ إِلَى يَهَادِيهِمْ الْوُثَيْرُ مِنَ الدُّوَلَةِ
عَقَارِبُ السَّعَايَةِ، حَتَّى لَقْدَ كَانَ بَنُو قَحْطَبَةَ أَخْوَالُ جَمْعَةٍ مِنْ أَعْظَمِ
السَّاعِينَ عَلَيْهِمْ، لَمْ تُعْطِفْهُمْ، لَمَّا وَقَرَّ فِي نُفُوسِهِمْ مِنَ الْحَسَدِ، عَوَاطِفُ
الرَّجْمِ، وَلَا وَزَعَتْهُمْ أَوَاصِرُ الْقَرَابَةِ. وَقَارَنَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ تَوَاضُعُ
الْغِيَرَةِ وَالْإِسْتِنْكَافِ مِنَ الْحَجَرِ وَالْأَنْفَةِ، وَكَامِنِ الْحَقُودِ الَّتِي بَمَشَتْهَا
مِنْهُمْ صَغَائِرُ الدَّالَّةِ، وَأَنْتَهَى بِهَا الْإِصْرُ أَدَى شَأْنِهِمْ إِلَى كِبَائِرِ الْخَالَفَةِ
كَقِصَّتِهِمْ فِي يُحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ،
أَخِي مُحَمَّدٍ الْمُهَدِيِّ الْمُلَقَّبِ بِالنَّفْسِ الزَّكِيَّةِ الْخَارِجِ عَلَى الْمَنُصُورِ. وَتُحْيَى هَذَا
هُوَ الَّذِي أَسْتَنْزَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ يُحْيَى مِنْ بِلَادِ الدِّيَّانِ عَلَى أَمَانِ الرَّشِيدِ
بِحُطْبِهِ، وَبَدَّلَ لَهُمْ فِيهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ، وَدَفَعَهُ
الرَّشِيدُ إِلَى جَمْعِهِ، وَجَمَلَ أَعْتِقَالَهُ بِدَارِهِ وَإِلَى نَظَرِهِ. فَجَبَسَهُ مُدَّةً،
ثُمَّ تَحَلَّتْهُ الدَّالَّةُ عَلَى تَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ، وَالْأَسْتَبْدَادِ بِحَلِّ عِقَالِهِ، حُرْمًا^(٥)
لِدِمَاءِ أَهْلِ الْبَيْتِ بِزَعْمِهِ، وَدَالَّةً عَلَى السُّلْطَانِ فِي حُكْمِهِ. وَسَأَلَهُ الرَّشِيدُ

(١) يتعدى فعل كسب بنفسه إلى مفعول ثانٍ، وهو هنا كذلك بمعنى: كسب فلاناً ما لا ي
أناله. كما في القاموس.

(٢) أي الأسير.

(٣) أسنوا الجوائز: أجزلوها، والعفاة: جمع عافٍ، وهو طالب المعروف.

(٤) أصل الغصص للطمع، واستعملها ابن خلدون للغيظ على التشبيه.

(٥) أي الحرمة دماء أهل البيت.

عنه لما وُثِّيَ به إليه، ففطن، وقال: أطلقته؛ فأبدى له وجه الاستحسان وأسرّها في نفسه. فأوجد السَّيْلَ بِذَلِكَ على نفسه وقومه، حتى نُلَّ عَرْشُهُمْ، وألْقِيَتْ عَلَيْهِمْ سَمَاوُهُمْ، وخُسِفَتِ الْأَرْضُ بِهِمْ وَبِدَارِهِمْ، وذَهَبَتْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ أَيَّامُهُمْ. وَمَنْ تَأَمَّلَ أَخْبَارَهُمْ، وَاسْتَقْصَى سِيرَ الدَّوْلَةِ وَسِيرَهُمْ وَجَدَ ذَلِكَ مُحَقَّقَ الْأَثَرِ مُمَهَّدَ الْأَسْبَابِ.

وَأَنْظُرْ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ فِي مُفَاوَضَةِ الرَّشِيدِ عَمِّ جَدِّهِ دَاوُدَ ابْنِ عَلِيٍّ فِي شَأْنِ نَكْبَتِهِمْ، وَمَا ذَكَرَهُ فِي بَابِ الشُّعْرَاءِ مِنْ كِتَابِ الْعُقَدِ فِي مُحَاوَرَةِ الْأَصْحَمِيِّ لِلرَّشِيدِ وَلِلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فِي سَمَرِهِمْ، تَتَقَهَّهْ أَنَّهُ إِذَا قَتَلْتَهُمُ الْغِيْرَةَ وَالْمُنَافَسَةَ فِي الْإِسْتِدَادِ مِنَ الْخَلِيفَةِ قُنْ دُونَهُ. وَكَذَلِكَ مَا تَحِيلَ بِهِ أَعْدَاؤُهُمْ مِنَ الْبَطَانَةِ فِيمَا دَسَّوهُ لِلْمُعَنِّينَ مِنَ الشُّعْرِ أَحْتِيَالًا عَلَى إِسْمَاعِهِ لِلْخَلِيفَةِ وَتَحْرِيكِ حَفَائِظِهِ لَهُمْ وَهُوَ قَوْلُهُ:

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزْتَنَا مَا تَعِدُ وَشَفْتَ أَنْفُسَنَا يَمَّا نَجِدُ
وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مِنْ لَا يَسْتَبِدُّ

وَأَنَّ الرَّشِيدَ لَمَّا سَمِعَهَا قَالَ: «إِي وَاللَّهِ إِنِّي عَاجِزٌ»، حَتَّى بَعَثُوا بِأَمْثَالِ هَذِهِ كَامِنَ غَيْرَتِهِ، وَسَلَطُوا عَلَيْهِمْ بَأْسَ أَنْتِقَامِهِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَلْبَةِ الرِّجَالِ وَسُوءِ الْحَالِ.

وَأَمَّا مَا تُنَوِّهُ بِهِ الْحِكَايَةَ مِنْ مُعَاوَرَةِ الرَّشِيدِ الْحَمَرِ، وَأَقْتِرَانِ سُكْرِهِ بِسُكْرِ النَّدْمَانِ، فَحَاشَ لِلَّهِ «مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ». وَأَيْنَ هَذَا مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ وَقِيَامِهِ بِمَا يَحِبُّ لِنَصِبِ الْخِلَافَةِ مِنَ الدِّينِ وَالْعَدَالَةِ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ صَحَابَةِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ، وَمُحَاوَرَاتِهِ

للفَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ وَأَبْنِ السَّمَّالِ وَالْعُمَرِيِّ ، وَمُكَاتَّبَتِهِ سُفْيَانَ الثَّوْرِيَّ ،
وَبُكَائِهِ مِنْ مَوَاعِظِهِمْ وَدُعَائِهِ بِمَكَّةَ فِي طَوَافِهِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ
الْعِبَادَةِ وَالْحَافِظَةِ عَلَى أَوْقَاتِ الصَّلَوَاتِ وَشُهُودِ الصُّبْحِ لِلأَوَّلِ وَقَتِهَا .
حَكَى الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ رَكْعَةٍ نَافِلَةٍ ،
وَكَانَ يَنْزُو عَامًا وَيُحِجُّ عَامًا . وَلَقَدْ زَجَرَ ابْنُ أَبِي مَرْثَمٍ مُضْحِكُهُ فِي
سَمَرِهِ حِينَ تَعَرَّضَ لَهُ بِمَثَلٍ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ لَمَّا سَمِعَهُ يَقْرَأُ « وَمَا لِي
لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي » ، وَقَالَ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي لِمَ ؟ فَمَا تَمَّا لَكَ الرَّشِيدُ
أَنْ ضَحِكَ ، ثُمَّ أَلْفَتَ إِلَيْهِ مُغْضَبًا ، وَقَالَ : يَا ابْنَ أَبِي مَرْثَمٍ فِي الصَّلَاةِ
أَيْضًا ؟ إِيَّاكَ وَإِيَّاكَ وَالْقُرْآنَ وَالدينَ ، وَلَكَ مَا شِئْتَ بَعْدَهُمَا .

وَأَيْضًا فَقَدْ كَانَ مِنَ الْعِلْمِ وَالسَّدَاجَةِ بِمَكَانٍ يُقْرَبُ عَنْهُمْ مِنْ
سَلَفِهِ الْمُتَحِجِّينَ لِذَلِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَدِّهِ أَبِي جَعْفَرٍ بَعِيدُ زَمَنِ ،
إِنَّمَا خَلَفَهُ غُلَامًا . وَقَدْ كَانَ أَبُو جَعْفَرٍ بِمَكَانٍ مِنَ الْعِلْمِ وَالدينِ قَبْلَ
الْخِلَافَةِ وَبَعْدَهَا . وَهُوَ الْقَائِلُ لِإِيَّاكَ حِينَ أَشَارَ عَلَيْهِ بِتَأْلِيفِ الْمُوطَّأِ :
« يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِنَّهُ لَمْ يَنْبَقْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَعْلَمُ مِنِّي وَمِنْكَ ، وَإِنِّي
قَدْ شَغَلْتَنِي الْخِلَافَةُ فَضَعْتُ أَنْتَ لِلنَّاسِ كِتَابًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ ، تَجَنَّبَ فِيهِ
رُخْصَ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَشَدَائِدَ ابْنِ عُثْمَرَ ، وَوَعِظُهُ لِلنَّاسِ تَوَظُّعًا » . قَالَ
مَالِكٌ : « فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلَّمَنِي التَّصْنِيفَ يَوْمَئِذٍ » . وَلَقَدْ أَدْرَكَهُ ابْنُهُ
الْمُهْدِيُّ أَبُو الرَّشِيدِ هَذَا وَهُوَ يَتَوَرَّعُ عَنْ كِسْفَةِ الْجَدِيدِ لِعِيَالِهِ مِنْ
بَيْتِ الْمَالِ . وَدَخَلَ عَلَيْهِ يَوْمًا وَهُوَ بِمَجْلِسِهِ يُبَاشِرُ الْخِطَّائِينَ فِي إِدْقَاعِ
الْخُلُقَانِ^(١) مِنْ ثِيَابِ عِيَالِهِ ، فَاسْتَنْكَفَ الْمُهْدِيُّ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ :

(١) كَذَا ، وَالْأَصَحُّ : فِي رَقْعِ الْخُلُقَانِ أَوْ فِي تَرْقِيعِهَا ، وَالْخُلُقَانُ : الْبَالِي مِنَ الثِّيَابِ (قَامُوسٌ) .

يا أمير المؤمنين عليّ كِسْوَةُ الْعِيَالِ عَامَنَا هَذَا مِنْ عَطَائِي ، فَقَالَ لَهُ
لَكَ ذَلِكَ وَلَمْ يَصُدَّهُ عَنْهُ ، وَلَا سَمَحَ بِالْإِنْفَاقِ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ .
فَكَيْفَ يَلِيقُ بِالرَّشِيدِ عَلَى قُرْبِ الْعَهْدِ مِنْ هَذَا الْخَلِيفَةِ وَأَبُوْتِهِ ، وَمَا
رُبِّيَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ السَّيْرِ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَالتَّخَلُّقِ بِهَا ، أَنْ
يُعَايِرَ الْخَمْرَ أَوْ يُجَاهِرَ بِهَا . وَقَدْ كَانَتْ حَالَةُ الْأَشْرَافِ مِنَ الْعَرَبِ
الْجَاهِلِيَّةِ فِي اجْتِنَابِ الْخَمْرِ مَعْلُومَةً ، وَلَمْ يَكُنْ الْكَرْمُ شَجَرَتُهُمْ ، وَكَانَ
شُرْبُهَا مَذْمُومَةً عِنْدَ الْكَثِيرِ مِنْهُمْ ، وَالرَّشِيدُ وَأَبَاؤُهُ كَانُوا عَلَى تَبَجٍّ^(١)
مِنْ اجْتِنَابِ الْمَذْمُومَاتِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَالتَّخَلُّقِ بِالْحَامِدِ وَأَوْصَافِ
الْكَمَالِ وَزَعَاتِ الْعَرَبِ .

وَأَنْظُرْ مَا نَقَلَهُ الطَّبْرِيُّ وَالْمُسْعُودِيُّ فِي قِصَّةِ جَبْرِيلَ بْنِ بَنْتِشُوعَ
الطَّبِيبِ حِينَ أُحْضِرَ لَهُ السَّمَكُ فِي مَائِدَتِهِ فَجَاهَهُ عَنْهُ ؛ ثُمَّ أَمَرَ صَاحِبَ
الْمَائِدَةِ بِحَمْلِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ ؛ وَفَظِنَ الرَّشِيدُ وَأَذْتابَ بِهِ ، وَدَسَّ خَادِمُهُ حَتَّى
عَايَنَهُ يَتَنَاوَلُهُ ؛ فَأَعَدَّ ابْنُ بَنْتِشُوعَ لِلْإِعْتِدَارِ ثَلَاثَ قِطَعٍ مِنَ السَّمَكِ
فِي ثَلَاثَةِ أَقْدَاحٍ : خَلَطَ إِحْدَاهَا بِاللَّخْمِ الْمَعَالِجِ بِالتَّوَابِلِ وَالْبُقُولِ
وَالْبَوَارِدِ وَالْحُلُوى ؛ وَصَبَّ عَلَى الثَّانِيَةِ مَاءً مُشَلَّجاً ؛ وَعَلَى الثَّالِثَةِ خَمْراً
صِرْفاً . وَقَالَ فِي الْأَوَّلِ وَالثَّانِي هَذَا طَعَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ خَلَطَ
السَّمَكُ بغيرِهِ أَوْ لَمْ يَخْلُطْهُ ؛ وَقَالَ فِي الثَّالِثِ : هَذَا طَعَامُ ابْنِ بَنْتِشُوعَ ،
وَدَفَعَهَا إِلَى صَاحِبِ الْمَائِدَةِ حَتَّى إِذَا أَنْتَبَهَ الرَّشِيدُ ، وَأَحْضَرَهُ لِلتَّوْبِيخِ ،
أَحْضَرَ الثَّلَاثَةَ الْأَقْدَاحِ ، فَوَجَدَ صَاحِبَ الْخَمْرِ قَدْ اخْتَلَطَ وَأَمَاعَ

(١) التبج من كل شيء : معظمه ، أعلاه ووسطه . ومنه حديث عبادة : يوشك أن يرى
الرجل من تبج المسلمين أي من وسطهم ؛ وقيل : من سرائهم وعليتهم (قاموس) .

وَتَقَتَّتْ ، وَوَجَدَ الْآخَرِينَ قَدْ فَسَدَا وَتَغَيَّرَتْ رَأْيُهُمَا . فَكَانَتْ لَهُ فِي ذَلِكَ مَعْدِرَةٌ . وَتَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ حَالَ الرَّشِيدِ فِي اجْتِنَابِ الْخُرْكَانَتِ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ بَطَانَتِهِ وَأَهْلِ مَائِدَتِهِ وَلَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ عَهْدَ يَجْبَسُ أَيْ نُوَاسٍ لَمَّا بَلَغَهُ مِنْ أَهْنَاهَا كَيْهٌ فِي الْمَعَاوَرَةِ حَتَّى تَابَ وَأَقْلَعَ .

وَإِنَّمَا كَانَ الرَّشِيدُ يَشْرَبُ نَبِيذَ التَّمْرِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْعِرَاقِ (١) ، وَفَتَاوَاهِمٍ فِيهَا مَعْرُوفَةٌ ؛ وَأَمَّا الْخُرُ الصَّرْفُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى اتِّهَامِهِ بِهِ ، وَلَا تَقْلِيدِ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ فِيهَا . فَلَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ يَحِثُّ يَوَاقِعُ حَرَمًا مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَايَرِ عِنْدَ أَهْلِ أَيْلَةِ . وَلَقَدْ كَانَ أُولَئِكَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ يَنْجَاةٍ مِنْ أَرْتِكَابِ السَّرَفِ وَالتَّرَفِ فِي مَلَابِسِهِمْ وَزِينَتِهِمْ وَسَائِرِ مُتَنَاوَلَاتِهِمْ ، لَمَّا كَانُوا عَلَيْهِمْ مِنْ خُشُونَةِ الْبِدَاوَةِ وَسَدَاجَةِ الدِّينِ الَّتِي لَمْ يَفَارِقُوهَا بَعْدَ . فَمَا ظَنُّكَ بِمَا يَخْرُجُ عَنِ الْإِبَاحَةِ إِلَى الْخَطَرِ ، وَعَنِ الْجَلِيَّةِ إِلَى الْحَرَمَةِ . وَلَقَدْ اتَّفَقَ الْمُؤَرِّخُونَ الطَّبَرِيُّ وَالْمُسَعَوْدِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ مَنْ سَلَفَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي عَبَّاسٍ إِنَّمَا كَانُوا يَزْكُبُونَ بِالْجَلِيَّةِ الْخَفِيَّةَ مِنَ الْفِضَّةِ فِي الْمَنَاطِقِ وَالسُّيُوفِ وَاللُّجَمِ وَالسُّرُوجِ ، وَأَنَّ أَوَّلَ خَلِيفَةٍ أَحْدَثَ الرُّكُوبَ بِجَلِيَّةِ الذَّهَبِ هُوَ الْمُعْتَزُّ بْنُ الْمُتَوَكِّلِ ثَامِنُ الْخُلَفَاءِ بَعْدَ الرَّشِيدِ . وَهَكَذَا كَانَ حَالُهُمْ أَيْضًا فِي مَلَابِسِهِمْ فَمَا ظَنُّكَ بِمَشَارِيهِمْ ؟ وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ بِأَتَمِّ مِنْ هَذَا إِذَا فَهِمْتَ طَبِيعَةَ الدَّوْلَةِ فِي أَوَّلِهَا مِنَ الْبِدَاوَةِ وَالْفَضَاضَةِ كَمَا تَشْرَحُ فِي مَسَائِلِ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الصَّوَابِ .

وَيُنَاسِبُ هَذَا أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَهُ كَافَّةً عَنْ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمٍ

(١) يقصد به مذهب الإمام أبي حنيفة .

قاضي المأمون وصاحبه ، وأنه كان يُعاقرُ الحمرَ وأنه سكرَ ليلةً مع شربه^(١) ، قدُفِنَ في الرِّجَانِ حَتَّى أَفَاقَ وَيُنْشِدُونَ عَلَى لِسَانِهِ :

يا سيدي وأميرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ
قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِينِي
إِنِّي غَفَلْتُ عَنِ السَّاقِي فَصَيَّرَنِي
كَمَا تَرَانِي سَلِيبَ الْعَثَلِ وَالدينِ

وحالُ ابْنِ أَكْثَمَ وَالْمَأْمُونِ فِي ذَلِكَ مِنْ حَالِ الرَّشِيدِ . وَشَرَاهُمُ
إِنَّمَا كَانَ النَّبِيذُ ؛ وَلَمْ يَكُنْ تَحْظُوراً عِنْدَهُمْ . وَأَمَّا السُّكْرُ فَلَيْسَ مِنْ
شَأْنِهِمْ ؛ وَصَحَابَتُهُ لِلْمَأْمُونِ إِنَّمَا كَانَتْ خُلَّةً فِي الدِّينِ . وَلَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ
كَانَ يَنَامُ مَعَهُ فِي الْبَيْتِ . وَنُقِلَ مِنْ فُضَائِلِ الْمَأْمُونِ وَحُسْنِ عِشْرَتِهِ
أَنَّهُ أَنْتَبَهَ ذَاتَ لَيْلَةٍ عَطْشَانٌ فَقَامَ يَتَحَسَّسُ وَيَلْتَمِسُ الْإِنَاءَ خَافَةً أَنْ
يَوْقُظَ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ . وَثَبَتَ أَنَّهَا كَانَا يُصَلِّيَانِ الصُّبْحَ جَمَاعَةً . فَأَيُّ
هَذَا مِنَ الْمَعَارِفِ ؟

وَأَيْضاً فَإِنَّ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمَ كَانَ مِنْ عِلْيَةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ . وَقَدْ
أَثْنَى عَلَيْهِ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَإِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي ، وَخَرَّجَ عَنْهُ
التِّرْمِذِيُّ كِتَابَهُ الْجَامِعَ^(٢) ، وَذَكَرَ الْمُزْنِيُّ الْحَافِظُ أَنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَى
عَنْهُ فِي غَيْرِ الْجَامِعِ ، فَالْقَدْحُ فِيهِ قَدْحٌ فِي جَمِيعِهِمْ .
وَكَذَلِكَ مَا يَنْجُجُهُ^(٣) الْمَجَانُ بِالْمَيْلِ إِلَى الْغِلْمَانِ بُهْتَاناً عَلَى اللَّهِ

(١) الشرب: الذين يشربون معاً. جمع شارب. (قاموس).

(٢) كذا بالأصل في جميع النسخ، والتصويب: وخرَّجَ عنه الترمذي في كتابه الجامع.

(٣) ثبج الكلام: لم يأت به على وجهه (قاموس). وفي نسخة: ينزه بمعنى: لقيه بالسوء.

وصحيحها: ما ينزه به المجان. . الخ.

وفرية على العلماء ، وَيَسْتَبْدُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْبَارِ الْقُصَاصِ الْوَاحِيَةِ
التي لعلها من أفتراء أعدائِهِ ؛ فَإِنَّهُ كَانَ مُحْسُوداً فِي كِبَالِهِ وَخُلْتِهِ لِلسُّلْطَانِ ؛
وكان مقامه من العلم والدين مُنْزَهاً عن مثل ذلك . وَلَقَدْ ذَكَرَ لِابْنِ
حَنْبَلٍ مَا يَرْمِيهِ بِهِ النَّاسُ ؛ فَقَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَمَنْ
يَقُولُ هَذَا ؟ وَأَنْكَرَ ذَلِكَ إِنْكَاراً شَدِيداً . وَأَثْنَى عَلَيْهِ إِسْمَاعِيلُ الْقَاضِي ؛
فَقِيلَ لَهُ مَا كَانَ يُقَالُ فِيهِ ؛ فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ تَرُولَ عِدَالَةَ مِثْلِهِ
بَتَكْذِبِ بَاغٍ وَحَاسِدٍ ؛ وَقَالَ أَيْضاً : يَحْيَى بْنُ أَكْثَمٍ أَبْرَأَ إِلَى اللَّهِ مِنْ
أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ ؛ يَمَا كَانَ يُرْمَى بِهِ مِنْ أَمْرِ الْعِلْمَانِ ؛ وَلَقَدْ كُنْتُ
أَقِفُ عَلَى سَرَائِرِهِ فَأَجِدُهُ شَدِيدَ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ ؛ لَكِنَّهُ كَانَتْ فِيهِ
دُعَابَةٌ وَحُسْنُ خَلْقٍ فَرُمِيَ بِمَا رُمِيَ بِهِ . وَذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثِّقَاتِ ،
وَقَالَ : لَا يُشْتَغَلُ بِمَا يُحْكَى عَنْهُ لِأَنَّهُ أَكْثَرُهَا لَا يَصِحُّ عَنْهُ .

وَمِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ مَا نَقَلَهُ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ صَاحِبُ الْعُقَدِ
مِنْ حَدِيثِ الزُّنْبِيلِ ، فِي سَبَبِ إِصْهَارِ الْأُمُومِ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ سَهْلِ فِي
بَيْتِهِ بَوْرَانٍ ، وَأَنَّهُ عَثَرَ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي فِي تَطَوُّافِهِ بِسِكَكِ بَغْدَادَ فِي
زُنْبِيلٍ^(١) مُدَلٍّ مِنْ بَعْضِ السُّطُوحِ بِمَعَالِقَ وَجُدَلٍ مُنَارَةٍ الْقَتْلِ مِنْ
الْحَرِيرِ ؛ فَاقْتَعَدَهُ وَتَنَاوَلَ الْمَعَالِقَ فَاهْتَزَّتْ وَذَهَبَ بِهِ صُعُداً إِلَى مَجْلِسِ
شَأْنِهِ كَذَا . وَوَصَفَ مِنْ زِينَةِ قَرْنِهِ وَتَنْضِيدِ أُنْيَتِهِ وَجَمَالِ رُؤْيَتِهِ مَا
يَسْتَوْفِي الطَّرْفَ وَيَمْلِكُ النَّفْسَ ، وَأَنَّ أَمْرَأَةً بَرَزَتْ لَهُ مِنْ خَلْلِ السُّتُورِ
فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ رَائِقَةً أَلْجَالِ فَتَانَةَ الْحَاسِنِ ، فَحَيَّتَهُ وَدَعَتْهُ إِلَى الْمُنَادِمَةِ ،

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ ، ولعلها : عثر على زنبيل . أو بمعنى زل : أي لم ينتبه للزنبيل
فعر فيه .

فلم يَزَلْ يُعَاقِرُهَا أَلْحَرَ حَتَّى الصَّبَاحِ ، وَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِبَكَائِهِمْ مِنْ
 أَنْتِظَارِهِ وَقَدْ شَغَفَتْهُ حُبًّا بَعَثَهُ عَلَى الْإِضْهَارِ إِلَى أَبِيهَا ، وَأَيْنَ هَذَا كُلُّهُ
 مِنْ حَالِ الْمُتَأَمُّونِ الْمَعْرُوفَةِ فِي دِينِهِ وَعِلْمِهِ وَأَقْنَفَائِهِ سُنَنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ
 مِنْ آبَائِهِ ، وَأَخَذِهِ بِسِيرِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ أَرْكَانِ أَلِلَّةٍ وَمُنَاطَرَتِهِ لِلْعُلَمَاءِ
 وَحِفْظِهِ لِحُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى فِي صَلَوَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ . فَكَيْفَ تَصِحُّ عَنْهُ
 أَحْوَالُ الْفُسَّاقِ الْمُسْتَهْتَرِينَ^(١) فِي السَّطَوَافِ بِاللَّيْلِ وَطُرُوقِ الْمَنَازِلِ
 وَغَشْيَانِ السَّرِّ ، سَبِيلِ عُشَّاقِ الْأَعْرَابِ . وَأَيْنَ ذَلِكَ مِنْ مَنْصِبِ ابْنَةِ
 الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ وَشَرَفِهَا وَمَا كَانَ بَدَارَ أَبِيهَا مِنَ الصَّوْنِ وَالْعَفَافِ .
 وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ كَثِيرَةٌ ، وَفِي كُتُبِ الْمُؤَرِّخِينَ مَعْرُوفَةٌ ؛
 وَإِنَّمَا يَنْبَغُ عَلَى وَضْعِهَا وَالْحَدِيثِ بِهَا الْأَنْهَاطُ فِي اللَّذَاتِ الْحَرَمَةِ ،
 وَهَتَاكَ قِنَاعِ الْخُذْرَاتِ ، وَيَتَعَلَّلُونَ بِالتَّأْسِي بِالْقَوْمِ فِيمَا يَأْتُونُهُ مِنْ
 طَاعَةِ لَذَائِهِمْ . فَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ كَثِيرًا مَا يَلْهَجُونَ بِأَشْبَاهِ هَذِهِ الْأَخْبَارِ
 وَيُنْقِرُونَ عَنْهَا عِنْدَ تَصَفُّحِهِمْ لِأَوْرَاقِ الدَّوَاوِينِ . وَلَوْ أَنْتَسَوْا بِهِمْ فِي
 غَيْرِ هَذَا مِنْ أَحْوَالِهِمْ وَصِفَاتِ الْكَمَالِ اللَّائِقَةِ بِهِمْ الْمَشْهُورَةِ عَنْهُمْ
 لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

وَلَقَدْ عَدَلْتُ يَوْمًا بَعْضَ الْأُمَرَاءِ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ فِي كَلْفِهِ بِتَعَلُّمِ
 الْغِنَاءِ وَوَلُوعِهِ بِالْأَوْتَارِ ، وَقُلْتُ لَهُ : لَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِكَ وَلَا يَلِيقُ
 بِمَنْصِبِكَ ؛ فَقَالَ لِي : أَفَلَا تَرَى إِلَى إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهْدِيِّ كَيْفَ كَانَ إِمَامَ
 هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَرئيسَ الْمُغَنِّينَ فِي زَمَانِهِ ؟ فَقُلْتُ لَهُ : يَا سُبْحَانَ اللَّهِ ؟

(١) المستهتر بالشيء بالفتح المولع به لا يبالي بما فعل فيه وشتم له والذي كثرت أباطيله اهـ

(قاموس).

وَهَلَّا تَأَسَّيْتَ بِأَبِيهِ أَوْ بِأَخِيهِ ؟ أَوْ مَا رَأَيْتَ كَيْفَ قَعَدَ ذَلِكَ
بِإِبْرَاهِيمَ عَنْ مَنَاصِبِهِمْ ؟ أَوْ قَصَمَ عَنْ عَذْلِي وَأَعْرَضَ ۝ وَاللَّهُ يَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ ۝ .

وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْوَاهِيَةِ مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُرْخِينَ
وَالْأَثْبَاتِ فِي الْعُبَيْدِيِّينَ خُلَفَاءُ الشَّيْعَةِ بِالْقَيْرَوَانِ وَالْقَاهِرَةِ مِنْ تَفْهِيمٍ
عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَالطَّمَنُ فِي نَسَبِهِمْ إِلَى إِسْمَاعِيلَ
الْإِمَامِ ابْنِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ . يَمْتَدُونَ فِي ذَلِكَ عَلَى أَحَادِيثَ لُقِّتْ
لِلْمُسْتَضْمِعِينَ مِنْ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ تَرْتُلُفًا إِلَيْهِمْ بِالْقَدَحِ فِيمَنْ نَاصِبُهُمْ ،
وَتَفَنُّتًا فِي الشُّمَاتِ بَعْدَهُمْ ؛ حَسْبَا نَذَكُرُ بَعْضَ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ فِي
أَخْبَارِهِمْ ، وَيَنْقُلُونَ عَنِ التَّفَطُّنِ لِشَوَاهِدِ الْوَاقِعَاتِ وَأَدِلَّةِ الْأَحْوَالِ
الَّتِي أَقْبَضَتْ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ تَكْذِيبِ دَعْوَاهُمْ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ . فَإِنَّهُمْ
مُتَقَفِّوْنَ فِي حَدِيثِهِمْ عَنْ مُبْدَأِ دَوْلَةِ الشَّيْعَةِ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْحَسَنَ
لَمَّا دَعَا بِكِبَايَةِ الرَّضَى مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ، وَاشْتَهَرَ خَبَرُهُ وَعُلِمَ تَحْوِيلُهُ عَلَى
عُبَيْدِ اللَّهِ الْمُهَدِّيِّ وَأَبْنِهِ أَبِي الْقَاسِمِ ، خَشِيَ عَلَى أَنْفُسِهِمَا فَهَرَّبَا مِنْ
الْمَشْرِقِ حَلَّ الْخِلَافَةِ وَأَجْتَازَا بِمَصْرَ ، وَأَتْنَاهَا خَرَجَا مِنَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ
فِي زِيَةِ الثَّجَارِ ، وَنَمِيَ خَبَرُهُمَا إِلَى عَيْسَى النُّوْشَرِيِّ عَامِلِ مِصْرَ
وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، فَسَرَّحَ فِي طَلِبِهَا الْخِيَالَةَ ؛ حَتَّى إِذَا أُدْبِرَا خَفِيَ حَالُهُمَا
عَلَى تَابِعِيهِمَا بِمَا لَبَسُوا بِهِ مِنَ الشَّارَةِ وَالزِّيَةِ ؛ فَأَفْلَتُوا إِلَى الْمَثْرَبِ ، وَأَنَّ
الْمُنْتَضِدَ أَوْعَزَ إِلَى الْأَغَالِبَةِ أَمْرًا إِفْرِيْقِيَّةً بِالْقَيْرَوَانِ ، وَبَنِي مَدْرَارَ
أَمْرًا سِجِلْمَاسَةَ بِأَخْذِ الْآفَاقِ عَلَيْهَا وَإِذْكَاءِ الْعِيُونِ فِي طَلِبِهَا ، فَمَثَرُ
إِلَيْسَعُ صَاحِبُ سِجِلْمَاسَةَ مِنْ آلِ مَدْرَارَ عَلَى خَفِيٍّ مَكَانِهَا بِبَلَدِهِ ،

وَأَعْتَقَلَهَا مَرْضَاةً لِلْخَلِيفَةِ ، هَذَا قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ الشَّيْعَةُ عَلَى الْأَغَالِبَةِ
بِالْقَيْرَوَانِ . ثُمَّ كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِمْ بِالْمَغْرِبِ
وِإِفْرِيقِيَّةٍ ، ثُمَّ بِالْيَمَنِ ، ثُمَّ بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ ، ثُمَّ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَالْجَزَارِ . وَقَاسَمُوا
بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ شِقَّ الْأَبْلَمَةِ^(١) ، وَكَادُوا يَلْجُونَ عَلَيْهِمْ
مَوَاطِنُهُمْ وَيَزِيلُونَ مِنْ أَمْرِهِمْ . وَلَقَدْ أَظْهَرَ دَعْوَتُهُمْ بِبَغْدَادَ وَعِرَاقِهَا
الْأَمِيرُ الْبَسَاسِيرِيُّ مِنْ مَوَالِي الدَّيْلَمِ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَى خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي
مُغَاضَبَةٍ جَرَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُمَرَاءِ الْعِجَمِ ، وَخَطَبَ لَهُمْ عَلَى مَنَابِرِهَا حَوْلًا
كَامِلًا . وَمَا زَالَ بَنُو الْعَبَّاسِ يَنْغَصُّونَ يَمَكَانِيهِمْ وَدَوَلَّتِهِمْ ، وَمُلُوكُ بَنِي
أُمَيَّةٍ وَرَاءَ الْبَحْرِ يُنَادُونَ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ مِنْهُمْ . وَكَيْفَ يَقَعُ هَذَا
كُلُّهُ لِدَعْيٍ فِي النَّسَبِ يَكْذِبُ فِي أَنْتِحَالِ الْأَمْرِ . وَأَعْتَبَرُ حَالِ الْقَرْمَاطِيِّ
إِذْ كَانَ دَعِيًّا فِي أَنْتِسَابِهِ كَيْفَ تَلَاشَتْ دَعْوَتُهُ وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ
وُظْهِرَ سَرِيعًا عَلَى خُبَيْهِمْ وَمَكْرِهِمْ فَسَاءَتْ عَاقِبَتُهُمْ ، وَذَاقُوا وَبَالَ
أَمْرِهِمْ . وَلَوْ كَانَ أَمْرُ الْعُبَيْدِيِّينَ كَذَلِكَ لَعُرِفَ وَلَوْ بَعْدَ مُهْلَةٍ :

وَمَهَا تَكُنْ عِنْدَ أَمْرِي مِنْ خَلِيفَةٍ

وَأِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعَلِّمُ

فَقَدْ اتَّصَلَتْ دَوَلَّتُهُمْ نَحْوًا مِنْ مَائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً ، وَمَلَكَوا مَقَامَ
إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُصَلَّاهُ ، وَمَوْطِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَمَدْفَنُهُ ، وَمَوْقِفَ الْحَجِيجِ وَمَهْطَ الْمَلَائِكَةِ ، ثُمَّ أَنْقَرَضَ أَمْرُهُمْ ،

(١) يقال: الأمر أو المال بيننا شق الأبلمة، والأبلمة هي الخوصة أي ورقة الدوم، وهي شجرة تشبه النخلة، وذلك لأنها تؤخذ فتشق طولاً على السواء. والمعنى أنهم قاسموا بني العباس أعمالهم. وفي نسخة لجنة البيان العربي: «شق الأبلّة»؛ وهو تحريف.

وشيعتهم في ذلك كله على أتم ما كانوا عليه من الطاعة لهم والحب فيهم واعتقادهم بنسب الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق . ولقد خرجوا مراراً بعد ذهاب الدولة ودروس أثرها ، داعين إلى بدعتهم هاتفين بأسماء صبيان من أعقابهم ، يزعمون استحقاقهم للخلافة ، ويذهبون إلى تميينهم بالوصية بمن سلف قبلهم من الأئمة . ولو أدتوا في نسبهم لما ركبوا أعناق الأخطار في الانتصار لهم ، فصاحب البدعة لا يلبس في أمره ولا يشبه في بدعته ولا يكذب نفسه فيما يتجمله .

والمعجب من القاضي أبي بكر الباقلاني شيخ النظار من المتكلمين يخرج إلى هذه المقالة المزجوة ، ويرى هذا الرأي الضعيف . فان كان ذلك لما كانوا عليه من الإلحاد في الدين والتعمق في الرافضية ، فليس ذلك يدافع في صدر دعوتهم ، وليس إثبات منتسبهم بالذي يعني عنهم من الله شيئاً في كفرهم ؛ فقد قال تعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه إنه ليس من أهلِكَ ، إنه عمل غير صالح ، ﴿ فَلَا تَتْلِنَ مَالِيسَ لَكَ بِهِ . عَلَّمٌ ﴾ ^(١) . وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة يعظها : « يا فاطمة اعلمي فلن أغني عنك من الله شيئاً » .

ومتى عرف امرؤ قضية أو استيقن أمراً وجب عليه أن يصدع به ؛ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ؛ والقوم كانوا في مجال لظنون الدول بهم وتحت رقة من الطغاة لتوفر شيعتهم وانتشارهم في القاصية بدعوتهم ، وتكرار خروجهم مرة بعد أخرى ، فلاذت رجالاً لهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون ، كما قيل :

(١) سورة هود آية ٤٦ .

فَلَوْ تَسْأَلِ الْأَيَّامَ مَا أَسَمِيَ مَا دَرَّتْ
وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفَنَ مَكَانِيَا

حَتَّى لَقَدْ سَمِيَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامُ جَدُّ عَبْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ
بِالْمَكْتُومِ ؛ سَمَتْهُ بِذَلِكَ شِيعَتُهُمْ لِمَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِنْ إِخْفَائِهِ حَذَرًا مِنْ
الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَيْهِمْ . فَتَوَسَّلَ شِيعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ بِذَلِكَ عِنْدَ ظُهُورِهِمْ إِلَى
الطُّغْنِ فِي نَسَبِهِمْ . وَازْدَلَفُوا بِهَذَا الرَّأْيِ الْفَائِلَ (١) لِلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ
خُلَفَائِهِمْ ، وَأَعْجَبَ بِهِ أَوْلِيَاؤُهُمْ وَأَمْرَاءُ دَوْلَتِهِمْ الْمُتَوَلُّونَ لِحُرُوبِهِمْ مَعَ
الْأَعْدَاءِ يَذْفَعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَسُلْطَانِهِمْ مَعَرَّةَ الْعِزِّ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ
وَالْمُدَافَعَةِ لِمَنْ غَلَبَهُمْ عَلَى الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ مِنَ الْبُزُرِ الْكُتَامِيِّينَ
شِيعَةَ الْمُبِيدِيِّينَ وَأَهْلِ دَعْوَتِهِمْ ؛ حَتَّى لَقَدْ أَسْجَلَ الْقُضَاةُ بِبَغْدَادَ
بِنَفْسِهِمْ عَنْ هَذَا النَّسَبِ ، وَشَهِدَ بِذَلِكَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْلَامِ النَّاسِ
جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ الشَّرِيفُ الرِّضِيُّ وَأَخُوهُ الْمُرْتَضَى وَابْنُ الْبَطْحَاوِيِّ ، وَمِنْ
الْعُلَمَاءِ أَبُو حَامِدٍ الْإِسْفَرَايِينِيُّ وَالْقُدُورِيُّ وَالصَّيْمَرِيُّ وَابْنُ الْأَكْفَانِيِّ
وَالْأَبْيُورْدِيُّ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ النُّعْمَانِ فَقِيهُ الشَّيْعَةِ ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ أَعْلَامِ
الْأُمَّةِ بِبَغْدَادَ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ ، وَذَلِكَ سَنَةَ سِتِّينَ وَأَرْبَعِينَ فِي أَيَّامِ
الْقَادِرِ ؛ وَكَانَتْ شَهَادَتُهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى السَّمْعِ لَمَّا اشْتَهَرَ وَعُرفَ بَيْنَ
النَّاسِ بِبَغْدَادَ ، وَغَالِبُهَا شِيعَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ الطَّاعِنُونَ فِي هَذَا النَّسَبِ ؛
فَنَقَلَهُ الْإِخْبَارِيُّونَ كَمَا سَمِعُوهُ ، وَرَوَوْهُ حَسَبًا وَعَوَهُ ؛ وَالْحَقُّ مِنْ وَرَائِهِ .
وَفِي كِتَابِ الْمُتَضِدِّ فِي شَأْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى ابْنِ الْأَعْلَبِ بِالْقَيْرَوَانِ

(١) أي الضعيف أو الخاطئ .

وابن منذرَ بِسَجْلِيَّاسَةٍ أَصْدَقُ شَاهِدٍ وَأَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى صِحَّةِ تَسْيِيمِهِمْ.
فَالْمُتَضِدُّ أَقْعَدُ^(١) يَنْسَبُ أَهْلُ الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ. وَالذُّوْلَةُ وَالسُّلْطَانُ
سَوْقٌ لِلْعَالَمِ يُجْلَبُ إِلَيْهِ بَضَائِعُ الْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ، وَتُلْتَمَسُ فِيهِ ضَوَالُ
الْحُكْمِ، وَتُحْدَى إِلَيْهِ رَكَائِبُ الرِّوَايَاتِ وَالْأَنْخَبَارِ، وَمَا نَفَقَ فِيهَا
نَفَقَ عِنْدَ الْكَافَةِ. فَإِنْ تَنَزَّهَتِ الذُّوْلَةُ عَنِ التَّعَسُّفِ وَالْمِيلِ وَالْأَفَنِ^(٢)
وَالسُّفْسَفَةِ وَتَسَلَّكَتِ النَّهْجَ الْأَمَّمْ وَلَمْ تَجْرُ^(٣) عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ نَفَقَ
فِي سَوْقِهَا الْأَبْرَزُ الْخَالِصُ وَاللُّجَيْنُ^(٤) الْمُصَفَّى وَإِنْ ذَهَبَتْ مَعَ
الْأَغْرَاضِ وَالْخُفُودِ، وَمَاجَتْ بِسَهَابِ سِرَّةِ الْبَغْيِ وَالْبَايِلِ، نَفَقَ الْبَهْرُجُ
وَالزَّائِفُ. وَالنَّاقِدُ الْبَصِيرُ قِسْطَاسُ نَظَرِهِ وَمِيزَانُ بَحْثِهِ وَمُلْتَمَسِيهِ.

ومثلُ هذا وَأَبْعَدُ مِنْهُ كَثِيرًا مَا يَتَنَاجَى بِهِ الطَّاعِنُونَ فِي نَسَبِ
إِذْرِيسَ بْنِ إِدْرِيسَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ
أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، الْإِمَامِ بَعْدَ أَبِيهِ بِالْمَغْرِبِ
الْأَقْصَى وَيُعَرِّضُونَ تَعْرِيزَ الْحَسَنِ بِالْظَّنِّ فِي الْحَمْلِ الْمَخْلُفِ عَنْ إِذْرِيسَ
الْأَكْبَرِ أَنَّهُ لَرِاشِدٍ مَوْلَاهُمْ قَبَضَهُمُ اللَّهُ وَأَبْعَدَهُمْ؛ مَا أَجْهَلُهُمْ ! أَمَا
يَعْلَمُونَ أَنَّ إِذْرِيسَ الْأَكْبَرَ كَانَ أَصْهَارُهُ فِي الْبَرِّيَّةِ وَأَنَّهُ مِنْذُ دَخَلَ الْمَغْرِبَ
إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَرِيقٌ فِي الْبَدْوِ، وَأَنَّ حَالِ الْبَادِيَةِ فِي مِثْلِ
ذَلِكَ غَيْرُ خَافِيَةٍ، إِذْ لَا مَكَامِينَ لَهُمْ يَتَأَتَّى فِيهَا الرِّيبُ، وَأَحْوَالُ حَرَمِهِمْ
أَجْمَعِينَ يَمْزَأَى مِنْ جَارَاتِهِمْ وَمَسْمَعٍ مِنْ جِيرَانِهِمْ لِتَلَاصُقِ الْجُدْرَانِ

(١) بمعنى أكفأ. يقال: قعد فلان بقرنه أي كان كفؤاً له، ويستعمل القاعد بمعنى الحافظ.

(٢) ضعف الرأي.

(٣) قوله ولم تجر بضم الجيم مضارع جار أي لم تمل احد.

(٤) الغضة.

وَتَطَامُنُ^(١) الْبُلْغِيَانِ وَعَدَمِ الْفَوَاصِلِ بَيْنَ الْمَسَاكِينِ وَقَدْ كَانَ رَاشِدُ يَتَوَلَّى خِدْمَةَ الْحَرَمِ أَتَجَعَ مِنْ بَعْدِ مَوْلَاهُ بِمَشْهَدٍ مِنْ أَوْلِيَانِهِمْ وَشَيْعَتِهِمْ وَمُرَاقَبَةِ مَنْ كَافَتْهُمْ. وَقَدْ اتَّفَقَ بِرَايَةِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى عَامَةً عَلَى بَيْعَةِ إِذْرِيسَ الْأَصْغَرَ مِنْ بَعْدِ أَبِيهِ، وَآتَوْهُ طَاعَتَهُمْ عَنْ رِضَا وَإِصْفَاقٍ^(٢) وَبَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ الْأَنْحَرِ وَخَاضُوا دُونَهُ بِحَارَ الْمَنَآيَا فِي حُرُوبِهِ وَغَزَوَاتِهِ. وَلَوْ حَدَّثُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَثَلِ هَذِهِ الرِّبِّيَّةِ، أَوْ قُرِعَتْ أَسْمَاعُهُمْ، وَلَوْ مِنْ عَدُوٍّ كَاشِحٍ أَوْ مُنَافِقٍ مُرْتَابٍ، لَتَخَلَّفَ عَنْ ذَلِكَ وَلَوْ بَعْضُهُمْ. كَلَّا وَاللَّهِ إِنَّمَا صَدَرَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَقْتَالِهِمْ^(٣) وَمِنْ بَنِي الْأَغْلَبِ عُثْمَالِهِمْ، كَانُوا بِافْرِيقِيَّةَ وَوُلَاتِهِمْ. وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَّ إِذْرِيسُ الْأَكْبَرُ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ وَقْعَةِ بَلَخٍ، أَوْعَزَ الْهَادِي إِلَى الْأَغَالِبَةِ أَنْ يَتَعُدُّوا لَهُ بِالْمَرَاصِدِ وَيُذَكِّرُوا عَلَيْهِ الْعُيُونَ، فَلَمْ يَظْفَرُوا بِهِ، وَخَلَصَ إِلَى الْمَغْرِبِ، فَتَمَّ أَمْرُهُ وَظَهَرَتْ دَعْوَتُهُ، وَظَهَرَ الرَّشِيدُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ وَاضِحِ مَوَلَاهُمْ وَعَامِلِهِمْ عَلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ مِنْ دَسِيسَةِ التَّشْيِيعِ لِلْمَلُوكِيَّةِ وَإِدْهَانِهِ^(٤) فِي نَجَاةِ إِذْرِيسَ إِلَى الْمَغْرِبِ. فَقَتَلَهُ وَدَسَّ الشَّمَاخَ مِنْ مَوَالِي الْمُهْدِيِّ أَبِيهِ لِلتَّحْيِيلِ عَلَى قَتْلِ إِذْرِيسَ، فَأَظْهَرَ الْحَاقِقَ بِهِ وَالْبَرَاءَةَ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ مَوَالِيَهُ. فَأَشْتَمَلَ عَلَيْهِ إِذْرِيسُ وَخَلَطَهُ بِنَفْسِهِ وَنَآوَلَهُ الشَّمَاخَ فِي بَعْضِ خَلَوَاتِهِ نُسْماً اسْتَهْلَكَهُ بِهِ^(٥). وَوَقَعَ خَبْرُ

(١) ورد في لسان العرب: اطمأنت وطمأنت: انخفضت.

(٢) ورد في لسان العرب: «وأصفت يده بكذا أي صادفته ووافقته» وقد استعملها ابن خلدون بمعنى الموافقة وهو ضعيف. والأصح: عن رضا وصفق من صفق: أي ضرب يده على يده.

(٣) جمع قتل وهو العدو والمقاتل.

(٤) بمعنى الغش.

(٥) بمعنى أهلكه.

مَهْلِكِهِ مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ أَحْسَنَ الْمَوَاقِعِ، لَمَّا رَجَوْهُ مِنْ قَطْعِ أَسْبَابِ
الدَّعْوَةِ الْعَلَوِيَّةِ بِالْمَغْرِبِ وَأَقْتِلَاعِ جُرْثُومَتِهَا . وَلَمَّا تَأَدَّى إِلَيْهِمْ خَبَرُ
الْحَمَلِ الْمَخْلَفِ لِإِذْرِيسَ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَّا كَلًّا وَلَا^(١) . وَإِذَا بِالدَّعْوَةِ
قَدْ عَادَتْ، وَالشَّيْعَةُ بِالْمَغْرِبِ قَدْ ظَهَرَتْ، وَدَوْلَتُهُمْ بِإِذْرِيسَ بْنِ إِذْرِيسَ
قَدْ تَجَدَّدَتْ، فَكَانَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ أَنْكِي مِنْ وَقْعِ السَّهَامِ، وَكَانَ
الْفَقْلُ وَالْهَرَمُ قَدْ تَزَلَا بِدَوْلَةِ الْعَرَبِ عَنْ أَنْ يَسْمُوا إِلَى الْقَاصِيَةِ .
فَلَمْ يَكُنْ مُنْتَهَى قُدْرَةِ الرَّشِيدِ عَلَى إِذْرِيسَ الْأَكْبَرِ بِمَكَانِهِ مِنْ قَاصِيَةِ
الْمَغْرِبِ، وَأَشْتَمَالِ الْبَرْزِ عَلَيْهِ إِلَّا التَّحِيلُ فِي إِهْلَاكِهِ بِالسُّمُومِ . فَبَيْنَمَا
ذَلِكَ فَرَعُوا إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ مِنَ الْأَغَالِبَةِ بِإِفْرِيقِيَّةَ فِي سَبَبِ تِلْكَ الْفُرْجَةِ
مِنْ نَاجِيَتِهِمْ، وَحَسَمَ الدَّاءُ الْمُتَوَقَّعَ بِالدَّوْلَةِ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَأَقْتِلَاعَ تِلْكَ
الْمُرُوقِ قَبْلَ أَنْ تُشْفَحَ^(٢) مِنْهُمْ، يُخَاطِبُهُمْ بِذَلِكَ الْمَأْمُونُ، وَمَنْ
بَعْدَهُ مِنْ خُلَفَائِهِمْ . فَكَانَ الْأَغَالِبَةُ عَنْ بَرَايَةِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى
أَعْجَزَ، وَلِئَلَّهَا مِنَ الزُّبُونِ^(٣) عَلَى مُلُوكِهِمْ أَحْوَجَ، لَمَّا طَرَقَ الْخِلَافَةُ مِنْ
أَنْتِزَاعِ^(٤) تَمَالِكِ الْعَجَمِ عَلَى سُدَّتِهَا، وَأَمْتِطْلَاهُمْ صَهْوَةَ الثَّقَلْبِ عَلَيْهَا،
وَتَصْرِيفِهِمْ أَحْكَامَهَا طَلُوعَ أَغْرَاضِهِمْ فِي رِجَالِهَا وَجِبَاتِهَا وَأَهْلِ

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ، ويظن أنها معرفة عن وكلاثة، أي الوارث الذي ليس بولد
للبيت ولا والده .

(٢) بمعنى غمد وترسخ .

(٣) ورد في لسان العرب : «يقال للناقة إذا كان من عاداتها أن تدفع حالبها عن حلبها :
وزبون» . وقد استعملت هنا بمعنى الأشخاص الذين يدافعون عن الملوك، وإن كان هذا الاستعمال
ضعيفاً، وقد تكررت هذه العبارة بنصها عدة مرات في تاريخ ابن خلدون، لذلك لا يمكننا أن نقول
إن ابن خلدون قصد بها كلمة سواها .

(٤) بمعنى الوثوب .

يَخْطِطُهَا^(١)، وَسَائِرِ تَقْضِيهَا وَإِبْرَائِيهَا كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ :

خَلِيفَةُ فِي قَقْصٍ تَيْنَ وَصَيْفٍ وَبُعَا
يَقُولُ مَا قَالَا لَهُ كَمَا تَقُولُ الْبَغَا

فَخَشِيَ هَوْلَاءُ الْأُمَرَاءِ الْأَغَالِبَةَ بَوَادِرِ السَّعَايَاتِ ، وَتَلَوْا بِالْمَعَاذِيرِ
فَطَوَّرُوا بِأَحْتِقَارِ الْمَغْرِبِ وَأَهْلِهِ ؛ وَطَوَّرُوا بِالْإِزْهَابِ بِشَأْنِ إِدْرِيسَ
الْخَارِجِ بِهِ وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ مِنْ أَعْقَابِهِ يُخَاطِبُونَهُمْ بِتَجَاوُزِهِ حُدُودَ
الشُّخُومِ مِنْ عَمَلِهِ ، وَيُنْفِذُونَ سِكَّتَهُ فِي نُحْمِهِمْ وَهَدَايَاهُمْ وَمُرْتَقِعِ
جَبَايَاهُمْ ، تَعْرِيزاً بِأَسْتَفْحَالِهِ وَتَهْوِيلاً بِأَشْتِدَادِ شَوْكِهِ وَتَعْظِيمِ
لَا دُفِعُوا إِلَيْهِ مِنْ مُطَالَبَتِهِ وَبِرَاسِهِ ، وَتَهْدِيدِ بَقْلِبِ الدَّعْوَةِ إِنْ
الْجُئُوا إِلَيْهِ ؛ وَطَوَّرُوا يَطْعَنُونَ فِي نَسَبِ إِدْرِيسَ بِمِثْلِ ذَلِكَ الطَّعْنِ
الْكَاذِبِ ، تَخْفِيزاً لِشَأْنِهِ لَا يُبَالُونَ بِصِدْقِهِ مِنْ كَذِبِهِ ، لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ ،
وَأَفْنِ عُقُولِ مَنْ خَلَفَ مِنْ صَبِيَّةِ بَنِي الْعَبَّاسِ وَمَمَالِكِهِمُ الْعَجَمِ فِي
الْقَبُولِ مِنْ كُلِّ فَائِلٍ وَالسَّمْعِ لِكُلِّ نَاعِقٍ . وَلَمْ يَزَلْ هَذَا دَائِهِمْ
حَتَّى أَنْقَضَى أَمْرُ الْأَغَالِبَةِ ؛ فَفَرَعَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الشَّنْعَاءُ أَسْمَاعَ الْفَوَغَاءِ ،
وَصَرَّ عَلَيْهَا بَعْضُ الطَّاعِنِينَ أَذْنُهُ ، وَأَعْتَدَهَا ذَرِيعَةً إِلَى النَّيْلِ مِنْ خَلْفِهِمْ
عِنْدَ الْمُنَافَسَةِ . وَمَا لَهُمْ قَبْحَهُمُ اللَّهُ وَالْعُدُولَ عَنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ ؛ فَلَا
تَعَارُضَ فِيهَا بَيْنَ الْمَقْطُوعِ وَالْمُظْنُونِ . وَإِذْرِيسُ وُلِدَ عَلَى فِرَاشِ أَبِيهِ ،
وَأُولَدُ الْفِرَاشِ . عَلَى أَنَّ تَنْزِيَةَ أَهْلِ الْبَيْتِ عَنْ مِثْلِ هَذَا مِنْ عَقَائِدِ

(١) الخططة: الأرض. والدار يختطها الرجل في أرض غير مملوكة ليتحجرها وبني فيها،
وذلك إذا أذن السلطان. (لسان العرب). وأهل خططها هنا بمعنى الموظفين المشرفين على أعمال
الخطط.

أهل الإيمان، فالله سبحانه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. ففراش إدريس طاهر من الدنس ومُنزّه عن الرجس بحكم القرآن. ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بإيميه وولج الكفر من بابه. وإنما أطلبت في هذا الرد سداً لأبواب الرّيب ودفعاً في صدر الحاسدين، لما سمعته أذنائي من قائله الممتدي عليهم، القادح في نسيهم بفرزيتيه، وينقله يزعمه عن بعض مؤرخي المغرب ممن انحرّف عن أهل البيت، وأرتاب في الإيمان بسلفهم. وإلا فالمحلّ مُنزّه عن ذلك معصوم منه؛ ونفّي العيب حيث يستحيل العيب، غيب. لكنني جادلت عنهم في الحياة الدنيا، وأرجو أن يجادلوا عني يوم القيامة. ولتعلم أن أكثر الطاعنين في نسيهم إنما هم الحسدة لأعقاب إدريس هذا من منتم إلى أهل البيت أو دخيل فيهم، فإن ادعاء هذا النسب الكريم دعوى شرف عريض على الأمم والأجيال من أهل الآفاق، فتعرض التهمة فيه. ولما كان نسب بني إدريس هؤلاء يموطنهم من فاس وسائر ديار المغرب، قد بلغ من الشهرة والوضوح مبلغاً لا يكاد يلحق ولا يطلع أحد في ذركه؛ إذ هو نقل الأئمة والجيل من الخلف عن الأئمة والجيل من السلف، ويئت جديهم إدريس مختط فاس وموسسها بين بيوتهم، ومسجده لصق محلّتهم وذروبهم، وسيفه منتضى برأس المذنية العظمى من قرار بلديهم، وغير ذلك من آثاره التي جاوزت أخبارها حدود التواتر مرات، وكادت تلحق بالعيان، فإذا نظر غيرهم من أهل هذا النسب إلى ما اتاهم الله من أمثالها، وما عصد شرفهم النبوي من جلال الملك الذي كان لسلفهم بالمغرب؛

وَأُسْتَيْقَنَ أَنَّهُ يَمْعَزِلُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ^(١)،
وَأَنَّ غَايَةَ أَمْرِ الْمُتَمَتِّينَ إِلَى الْبَيْتِ الْكَرِيمِ يَمْنُ لَمْ يَحْضُلْ لَهُ أَمْثَالُ هَذِهِ
الشَّوَاهِدِ أَنْ يُسَلَّمَ لَهُمْ حَالُهُمْ، لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ،
وَبَوْنُ مَا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالظَّنِّ وَالْيَقِينِ وَالتَّسْلِيمِ، فَإِذَا عَلِمَ ذَلِكَ مِنْ
نَفْسِهِ غَضَّ بِرَبِّقِهِ وَوَدَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَوْ يَرُدُّوهُمْ عَنْ شَرَفِهِمْ ذَلِكَ
سَوْفَةً وَوَضْعَاءً^(٢) حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْعِنَادِ
وَأَزْيَتِ كَابِ اللَّجَاجِ وَالْبَهْتِ يَمْعَزِلُ هَذَا الظَّنُّ الْفَائِلُ وَالْقَوْلُ
الْمُكَذَّبُ تَعَلُّلًا بِالسَّوَادَةِ فِي الظَّنِّ وَالْمُشَابَهَةِ فِي تَطَرُّقِ الْإِحْتِمَالِ،
وَهَيْهَاتَ لَهُمْ ذَلِكَ. فَلَيْسَ فِي الْمَغْرِبِ فِيمَا نَعْلَمُهُ مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ
الْكَرِيمِ مَنْ يَبْلُغُ فِي صَرَاحِهِ نَسَبِهِ وَوُضُوحِهِ مَبَالِغَ أَعْقَابِ إِدْرِيسَ
هَذَا مِنْ آلِ الْحَسَنِ . وَكَبَرَاؤُهُمْ لِهَذَا الْمَهْدِ بَنُو عِمْرَانَ يَفَاسَ
مَنْ وَلَدَ يَحْيَى الْحَوْطِيَّ بْنَ مُحَمَّدٍ يَحْيَى الْعَوَّامِ ابْنَ الْقَاسِمِ بْنِ إِدْرِيسَ
ابْنَ إِدْرِيسَ، وَهُمْ نُقَبَاءُ أَهْلِ الْبَيْتِ هُنَاكَ، وَالسَّاكِنُونَ بَيْتِ
جَدِّهِمْ إِدْرِيسَ، وَهُمْ السِّيَادَةُ عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ كَافَّةً، حَسْبًا
نَذْكُرُهُمْ عِنْدَ ذِكْرِ الْأَدَارِسَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَيَلْحَقُ بِهِذِهِ الْمَقَالَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالْمَذَاهِبِ الْفَائِلَةِ مَا يَتَنَاوَلُهُ
ضَعْفَةُ الرَّأْيِ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَغْرِبِ مِنَ الْقَدَحِ فِي الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ صَاحِبِ
دَوْلَةِ الْمَوْحِدِينَ وَنَسَبَتِهِ إِلَى الشَّعْوَذَةِ وَالتَّلْبِيسِ فِيمَا أَتَاهُ مِنَ الْقِيَامِ

(١) قوله: «لا يبلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه» مثل يكفى به عن ضعة مكانة شخص بالنسبة
لشخص آخر.

(٢) وَضْعَاءُ بضم الواو: جمع وضيع، وهو الخسيس الدنيء، ضد الشريف (قاموس).

بالتوحيد الحق والنمي على أهل البني قبله، وتكذيبهم لجميع مدعياته في ذلك، حتى فيما يزعم الموحدون أتباعه من انتسابه في أهل البيت. وإنما تحمل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسد على شأنيه. فإنهم لما رأوا من أنفسهم مناهضة في العلم والثبات وفي الدين يزعمهم، ثم أمتاز عنهم بأنه مشوع الرأي مسموع القول موطأ القرب نفوسوا ذلك عليه^(١) وغضوا عنه بالمذح في مذهبهم والتكذيب لمدعياته. وأيضاً فكانوا يؤنسونه^(٢) من ملوك لتونة أعدائه تجلة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم، لما كانوا عليه من السداجة والتهال الديانة. فكان يحمله العلم بدولتهم مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى، كل في بليده وعلى قدره في قومه. فأصبحوا بذلك شيعة لهم وحزباً يمدوهم وتقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتثريب^(٣) عليهم والمناسبة^(٤) لهم، تشيماً للتونة وتمصّباً لدولتهم. ومكان الرجل غير مكانيهم وحاله على غير معتقديهم. وما ظنك برجل تقم على أهل الدولة ما تقم من أحوالهم وخالف اجتهاده فمهاوهم، فنادى في قومه ودعا إلى جهادهم بنفسه، فافتلح الدولة من أصولها وجعل عاليها سافلها، أعظم ما كانت قوة وأشد شوكة وأعز أنصاراً وحامية، وتساقطت في ذلك من أتباعه نفوس لا يخصها إلا

(١) أي حسدوه.

(٢) بمعنى: يعلمون.

(٣) التثريب كالتأنيب والتعير والاستقصاء في اللوم (قاموس).

(٤) ناصبه مناصبة: عاداه وقاومه.

خَالِفُهَا قَدْ بَايَعُوهُ عَلَى الْمَوْتِ ، وَوَقَّوهُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِإِتْلَافٍ مُهْجِهِمْ فِي إِظْهَارِ تِلْكَ الدَّعْوَةِ وَالتَّعَصُّبِ لِتِلْكَ الْكَلِمَةِ حَتَّى عَلَتْ عَلَى الْكَلِمِ ، وَدَاَلَتْ بِالْعُدُوَّتَيْنِ مِنَ الدُّوَلِ ، وَهُوَ بِحَالَةٍ مِنَ التَّقَشُّفِ وَالْخَصَرِ^(١) وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَالتَّقَلُّلِ مِنَ الدُّنْيَا ، حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْخَطِّ وَالْمَتَاعِ فِي دُنْيَاهُ ، حَتَّى أُولَدُ الَّذِي رُبَّمَا تَجَنَّحُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ ، وَتُخَادِعُ عَنْ تَمَنِّيهِ . فَلَيْتَ يَشْعُرِي مَا الَّذِي قَصَدَ بِذَلِكَ إِنْ لَمْ يَكُنْ وَجْهَ اللَّهِ ، وَهُوَ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ حَظٌّ مِنَ الدُّنْيَا فِي عَاجِلِهِ . وَمَعَ هَذَا فَلَوْ كَانَ قَصْدُهُ غَيْرَ صَالِحٍ لَمَا تَمَّ أَمْرُهُ وَانْفَسَحَتْ دَعْوَتُهُ . سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ .

وَأَمَّا إِنْكَارُهُمْ نَسَبَهُ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ فَلَا تَعْضُدُهُ^(٢) حُجَّةٌ لَهُمْ ، مَعَ أَنَّهُ إِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ ادَّعَاهُ وَانْتَسَبَ إِلَيْهِ فَلَا دَلِيلٌ يَقُومُ عَلَى بُطْلَانِهِ ، لِأَنَّ النَّاسَ مُصَدِّقُونَ فِي أَنْسَابِهِمْ . وَإِنْ قَالُوا إِنَّ الرِّئَاسَةَ لَا تَكُونُ عَلَى قَوْمٍ فِي غَيْرِ أَهْلِ جِلْدَتِهِمْ كَمَا هُوَ الصَّحِيحُ حَسَبًا يَأْتِي فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ، وَالرَّجُلُ قَدْ رَأَسَ سَائِرَ الْمَصَامِدِ وَدَانَا بِاتِّبَاعِهِ وَالْإِنْقِيَادِ إِلَيْهِ وَإِلَى عِصَابَتِهِ مِنْ هَرَعَةٍ حَتَّى تَمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِي دَعْوَتِهِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا النَّسَبَ الْفَاطِمِيَّ لَمْ يَكُنْ أَمْرُ الْهَيْدِيِّ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ وَلَا اتَّبَعَهُ النَّاسُ بِسَبَبِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ اتِّبَاعُهُمْ لَهُ بِعَصِيَّةِ الْهَرَجِيَّةِ وَالْمُضْمُودِيَّةِ وَمَكَانِهِ مِنْهَا وَرُسُوخِ شَجَرَتِهِ فِيهَا . وَكَانَ ذَلِكَ النَّسَبُ الْفَاطِمِيُّ خَفِيًّا قَدْ دَرَسَ عِنْدَ النَّاسِ وَبَقِيَ عِنْدَهُ

(١) بمعنى الامتناع عن إتيان النساء .

(٢) عضده بهذه ، بكسر الضاد : بمعنى أعانه وكان له عضداً (عن لسان العرب) .

وعند عَشِيرَتِهِ يَتَنَاقَلُونَهُ بَيْنَهُمْ . فَيَكُونُ النَّسَبُ الْأَوَّلُ كَأَنَّهُ
انْسَلَخَ مِنْهُ وَلَيْسَ جِلْدَةً هَوْلَاءُ ، وَظَهَرَ فِيهَا فَلَا يَضُرُّهُ الْإِنْتِسَابُ
الْأَوَّلُ فِي عَصَبِيَّتِهِ ، إِذْ هُوَ نَجْهولٌ عِنْدَ أَهْلِ الْإِصَابَةِ . وَمِثْلُ هَذَا
وَاقِعٌ كَثِيرًا إِذْ كَانَ النَّسَبُ الْأَوَّلُ خَفِيًّا .

وَأَنْظُرْ قِصَّةَ عَرْفَجَةَ وَجَرِيرٍ فِي رِئَاسَةِ بَجِيلَةَ وَكَيْفَ كَانَ عَرْفَجَةُ مِنْ
الْأَزْدِ وَلَيْسَ جِلْدَةً بَجِيلَةَ حَتَّى تَنَازَعَ مَعَ جَرِيرٍ رِئَاسَتَهُمْ عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ ، كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ ، تَتَقَيَّمُ مِنْهُ وَجْهَ الْحَقِّ . وَاللَّهُ الْمَهَادِي لِلصَّوَابِ .
وَقَدْ كِدْنَا أَنْ نَخْرُجَ عَنْ غَرَضِ الْكِتَابِ بِالْإِطْنَابِ فِي هَذِهِ الْمَغَالِطِ ،
فَقَدْ زَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَثْبَاتِ وَالْمُؤَرِّخِينَ الْخُفَاطِ فِي مِثْلِ هَذِهِ
الْأَحَادِيثِ وَالْآرَاءِ ، وَعَلِقَتْ بِأَفْكَارِهِمْ وَتَقَلَّهَا عَنْهُمْ الْكَافَّةُ مِنْ ضَعْفَةِ
النَّظَرِ وَالْفَقْلَةِ عَنِ الْقِيَاسِ ، وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيْضًا كَذَلِكَ مِنْ غَيْرِ نَجْثٍ
وَلَا رَوِيَّةٍ وَأَنْدَرَجَتْ فِي مُحْفُوظَاتِهِمْ حَتَّى صَارَ قَنْ التَّارِيخِ وَاهِيًا
مُخْتَلِطًا ، وَنَازِلُهُ مُرْتَبِكًا ، وَعُدَّ مِنْ مَنَاحِي الْعَامَّةِ .

فَإِذَا بَحْتَاجُ صَاحِبِ هَذَا الْقَنْ إِلَى الْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ السِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ
الْمَوْجُودَاتِ وَأَخْتِلَافِ الْأُمَمِ وَالْيَقَاعِ وَالْأَعْصَارِ فِي السَّيْرِ وَالْأَخْلَاقِ
وَالْعَوَائِدِ وَالتَّحَلُّلِ وَالْمُذَاهِبِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ ، وَالْإِحَاطَةِ بِالْحَاضِرِ
مِنْ ذَلِكَ ، وَمُمَازَلَةِ مَا يَبْنُو وَيَبْنَى الْغَائِبِ مِنَ الْوَفَاقِ أَوْ بَوْنِ مَا يَبْنُو
مِنْ الْخِلَافِ ، وَتَعْلِيلِ الْمُتَّفِقِ مِنْهَا وَالْمُخْتَلِفِ ، وَالْإِقْيَامِ عَلَى أَصُولِ
الدُّوَلِ وَالْمَلَلِ وَمَبَادِيءِ ظُهُورِهَا ، وَأَسْبَابِ حُدُودِهَا وَدَوَاعِي كَوْنِهَا
وَأَحْوَالِ الْقَائِمِينَ بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ ، حَتَّى يَكُونَ مُسْتَوْعِبًا لِأَسْبَابِ كُلِّ
حَادِثٍ ، وَاقِفًا عَلَى أَصُولِ كُلِّ خَبَرٍ . وَحِينَئِذٍ يَفْرِضُ خَبَرَ الْمُنْقُولِ

على ما عنده من القواعد والأصول ، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً ، وإلا زيفه وأستغنى عنه .

وما أستكبر القدماء عِلْمَ التاريخ إلا لذلك ؛ حتى أنتحلّه الطبريُّ والبخاريُّ وابنُ إسحق من قبلهما ، وأمثالهم من علماء الأُمّة وقد ذهل الكثير عن هذا السرّ فيه حتى صارَ أنتحاله تجهلة^(١) ، وأستخفّ العوامُّ ومن لا دُسوخَ له في المعارفِ مطالعته وتحمّله والحوّض فيه والتطفّل عليه ، فاختلطَ المرعيُّ بالهمليِّ^(٢) وألّبابُ بالقِشرِ ، والصادقُ بالكاذبِ . وإلى الله عاقبةُ الأمور .

ومن الغلطِ الخفيِّ في التاريخِ الذُّهولُ عن تبدّلِ الأحوالِ في الأُممِ والأجيالِ بتبدّلِ الأعصارِ ومُروِرِ الأيامِ ، وهو داءٌ دويٌّ شديدُ الخفاءِ إذ لا يقعُ إلا بعدَ أحقابٍ مُتطاوِلةٍ ، فلا يكادُ يتفطنُ له إلا الآحادُ من أهلِ الخليفةِ . وذلك أن أحوالَ العالمِ والأُممِ وعوايدَهُم ونحلَّهُم لا تدومُ على وتيرةٍ واحدةٍ ومنهاجٍ مُستقرٍّ ، إنّما هو اختلافٌ على الأيامِ والأزمنةِ وانتقالٌ من حالٍ إلى حالٍ وكما يكونُ ذلك في الأشخاصِ والأوقاتِ والأُمصارِ ، فكذلك يقعُ في الآفاقِ والأقطارِ والأزمنةِ والدُّولِ «سُنّةُ الله التي قد خلت في عبادِهِ» . وقد كانت في العالمِ أُممُ الفُرسِ الأولى والشُرّانيُّونَ والنَّبَطُ والتَّبابِعةُ وبنو إسرائيلَ والقِبْطُ ، وكانوا على أحوالٍ خاصّةٍ بهم في دُولِهِم وممالكِهِم وسياسَتِهِم وصنائعِهِم^(٣) ولُغائِهِم وأصطِلَاحاتِهِم وسائرِ مُشاركاتِهِم مع

(١) المجهلة: ما يجهل على الجهل (قاموس).

(٢) هو مثل لاختلاط الجيد بالقيح .

(٣) صنائع: جمع صناعة، وجمع صنّعة بمعنى الإحسان (قاموس).

أبناء جنسهم؛ وأحوال أعيانهم للعالم تشهد بها آثارهم. ثم جاء من بعدهم
الفرس الثانية والروم والمرب، فتبدلت تلك الأحوال وأنقلبت بها
العوائد إلى ما يتجاسها أو يشابهها، وإلى ما يباينها أو يباعدها. ثم جاء
الإسلام بدولة مفسر فأنقلبت تلك الأحوال أنجع أنقلابة أخرى،
وصارت إلى ما أكثره متعارف لهذا العهد، يأخذه الخلف عن السلف.
ثم درست دولة العرب وأيامهم وذهبت الأسلاف الذين شيّدوا
عزهم، وهندوا ملكهم، وصار الأمر في أيدي سواهم من العجم
مثل الترك بالشرق والبربر بالمغرب والفرنجية بالشمال؛ فذهبت
بذها بهم أمم وأنقلبت أحوال وعوائد نسي شأنها وأغفل أمرها.
والسبب الشائع في تبدل الأحوال والعوائد، أن عوائد كل
جيل تابعة لعوائد سلطانه، كما يقال في الأمثال الحكيمية: الناس
على دين الملك. وأهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة
والأمر فلا بد وأن يفرعوا إلى "عوائد من قبلهم ويأخذوا
الكثير منها ولا ينفخوا عوائد جيلهم مع ذلك. فيقع في عوائد
الدولة بنص الطائفة لعوائد الجيل الأول. فإذا جاءت دولة أخرى
من بعدهم ومنزجت من عوايديهم وعوايدها خالفت أيضاً بعض
الشيء، وكانت للأولى أشد مخالفة. ثم لا يزال التذريج في الطائفة
حتى ينتهي إلى المباشرة بالجملة. فادامت الأمم والأجيال تتعاقب
في الملك والسلطان، لا تزال الطائفة في العوائد والأحوال واقعة.

(١) تركيب: ولا بد وأن، هو تركيب غير فصيح، وقد استعمله ابن خلدون كثيراً في كتابه.
والأصح استعمال: ولا بد أن. وفرع إلى بمعنى: الحال إلى.

وَالْقِيَاسُ وَالْحَاكَاةُ لِلْإِنْسَانِ طَبِيعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَمِنَ الْغَلَطِ غَيْرُ
مَا مَوْنَةٌ تُخْرِجُهُ مَعَ الذُّهُولِ وَالْعَقْلَةِ عَنْ قَصْدِهِ ، وَتَعُوجُ بِهِ ^(١) عَنْ
مَرَامِهِ ، فَرُبَّمَا يَسْمَعُ السَّامِعُ كَثِيرًا مِنْ أَخْبَارِ الْمَاضِينَ وَلَا يَتَفَقَّنُ
لِمَا وَقَعَ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَجْوَالِ وَانْقِلَابِهَا ، فَيُجَرِّبُهَا لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ عَلَى مَا
عَرَفَ وَيَقْيِسُهَا بِمَا شَهِدَ ، وَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَثِيرًا فَيَقَعُ فِي
مَهْوَاةٍ مِنَ الْغَلَطِ .

فَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا يَنْتُقِلُهُ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَحْوَالِ الْحَجَّاجِ وَأَنَّ
أَبَاهُ كَانَ مِنَ الْمُعَلِّمِينَ ؛ مَعَ أَنَّ التَّعْلِيمَ لِهَذَا الْعَهْدِ مِنْ جُمْلَةِ الصَّنَائِعِ
الْمَعَاشِيَةِ الْبَعِيدَةِ مِنْ اعْتِرَازِ أَهْلِ الْعَصِيَّةِ ؛ وَالْمُعَلِّمُ مُسْتَضْعَفٌ
مُسَكِّنٌ ، مُنْقَطِعُ الْجُذْمِ ^(٢) . فَيَتَشَوَّفُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ أَهْلَ
الْحِرَفِ وَالصَّنَائِعِ الْمَعَاشِيَةِ إِلَى نَيْلِ الرُّتَبِ الَّتِي لَيْسُوا لَهَا بِأَهْلَ
وَيَعِدُّوْنَهَا مِنَ الْمُمْكِنَاتِ لَهُمْ . فَتَذْهَبُ بِهِمْ وَسَاوِسُ الطَّامِعِ ، وَرُبَّمَا
أَنْقَطَعَ حَبْلُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ فَسَقَطُوا فِي مَهْوَاةِ الْهَلَكَةِ وَالتَّلَفِ ، وَلَا
يَعْلَمُونَ اسْتِحَالَاتِهَا فِي حَقِّهِمْ ، وَأَنَّهُمْ أَهْلُ حِرَفٍ وَصَّنَائِعٍ لِلْمَعَاشِ ،
وَأَنَّ التَّعْلِيمَ صَدَرَ الْإِسْلَامِ وَالِدَوْلَتَيْنِ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ
الْعِلْمُ بِالْجُمْلَةِ صِنَاعَةً ، إِنَّمَا كَانَ نَقْلًا لِما سَمِعَ مِنَ الشَّارِعِ وَتَعْلِيمًا
لِما جَهِلَ مِنَ الدِّينِ عَلَى جِهَةِ الْبَلَاغِ ؛ فَكَانَ أَهْلُ الْأَنْسَابِ وَالْعَصِيَّةِ
الَّذِينَ قَامُوا بِالْمِلَّةِ هُمُ الَّذِينَ يُعَلِّمُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، عَلَى مَعْنَى التَّبْلِيغِ الْخَبْرِيِّ لَا عَلَى وَجْهِ التَّعْلِيمِ .

(١) بمعنى ترجع به .

(٢) الجذم : الأصل اهـ (قاموس) .

الصناعي إذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هدايتهم
والإسلام دينهم، قاتلوا عليه وقتلوا، واختصوا به من بين الأمم
وشرفوا، فيحرصون على تبليغ ذلك وتفهيبه للأمم؛ لا تصدّهم
عنه لائمة الكبر ولا يزعمهم عاذل الأنفة. ويشهد لذلك بعث النبي
صلّى الله عليه وسلّم كبار أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم
حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين. بعث في ذلك
من أصحابه العشرة فمن بعدهم. فلما استقر الإسلام وشجّت
عروق الأمة حتى تناولها الأمم البعيدة من أيدي أهلها، واستحالت
بمرور الأيام أحوالها، وكثرت استنباط الأحكام الشرعية من
النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها، فأحتاج ذلك القانون لمن يحفظه
من الخطأ وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعلم فأصبح من حملة
الصنائع وألحرف كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعليم وأشتغل
أهل العصبة بالقيام بالملك والسلطان، فدفع للعلم من قام به من
سواهم، وأصبح حرفة للمعاش، وشمخت أنوف المترفين وأهل
السلطان عن التصدي للتعليم، وأختص أنتحاله بالمستضعفين وصار
منتحله محترماً عند أهل العصبة والملك. والحجاج بن يوسف كان
أبوه من سادات ثقيف وأشرافهم، ومكانهم من عصية العرب
ومناهضة قرينهم في الشرف ما علمت. ولم يكن تعليمه للقرآن على
ما هو الأمر عليه لهذا العهد من أنه حرفة للمعاش، وإنما كان على
ما وصفناه من الأمر الأول في الإسلام.

ومن هذا الباب أيضاً ما يتوهمه المتصفّحون لكتب التاريخ إذا

سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه من الرياسة في الحروب وقود العساكر، فتترامى بهم وساوس الهمم إلى مثل تلك الرتب، ينجسبون أن الشأن في خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل يظنون بأن أبي عاير صاحب^(١) هشام المستبد عليه وابن عباد من ملوك الطوائف بإشبيلية إذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاة لهذا العهد؛ ولا يتفطنون لما وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد كما نبيته في فصل القضاء من الكتاب الأول. وابن أبي عاير وابن عباد كانا من قبائل العرب القائمين بالدولة الأموية بالأندلس وأهل عصبيتها، وكان مكانهم فيها معلوماً، ولم يكن نيلهم لما نالوه من الرياسة والملك بخطة القضاء كما هي لهذا العهد؛ بل إنما كان القضاء في الأمر القديم لأهل العصبية من قبيل^(٢) الدولة ومواليها، كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب. وأنظر خروجهم بالعساكر في الطوائف^(٣) وتقليدهم عظام الأمور التي لا تقلد إلا لمن له الغنى^(٤) فيها بالعصبية فيغلط السامع في ذلك ويحمل الأحوال على غير ما هي. وأكثر ما يقع في هذا الغلط ضعف البصائر من أهل الأندلس لهذا العهد، لفقدان العصبية في مواطنهم منذ أعصار بعيدة، لقضاء العرب ودولتهم بها؛ وخروجهم عن ملكة أهل العصبية^(٥) من البربر؛ فبقيت

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ، وأظنها تحريف من الناسخ، وصوابها: «حاجب هشام». وهشام هذا هو أحد ملوك الأندلس، وكان ابن أبي عامر حاجباً له.

(٢) بمعنى جماعة الدولة.

(٣) كذا بالأصل في جميع النسخ والغالب أنه تحريف عن «صوائف» وهي غزوات الصيف.

(٤) كذا بالأصل في جميع النسخ ولا معنى لها هنا والصحيح: الغناء بمعنى الإجزاء والكفاية.

(٥) بمعنى العشائر والقبائل.

أَنسَابُهُمُ الْعَرَبِيَّةُ مُحْفُوظَةٌ ، وَالذَّرِيعَةُ إِلَى الْعِزِّ مِنَ الْعَصَبِيَّةِ وَالتَّنَاصُرِ
مُفْقُودَةٌ ، بَلْ صَارُوا مِنْ جُمْلَةِ الرِّعَايَا الْمُتَخَاذِلِينَ الَّذِينَ تَعَبَّدَهُمُ الْقَهْرُ ،
وَرَبَّمَا لِمَنْدَلَةٍ^(١) ؛ يَحْسَبُونَ أَنَّ أَنسَابَهُمْ مَعَ مُخَالَطَةِ الدَّوْلَةِ هِيَ الَّتِي
يَكُونُ لَهُمْ بِهَا الْقَلْبُ وَالتَّحَكُّمُ ، فَتَجِدُ أَهْلَ الْحَرْفِ وَالصَّنَائِعِ مِنْهُمْ
مُتَصَدِّقِينَ لِذَلِكَ سَاعِينَ فِي نَيْلِهِ . فَأَمَّا مَنْ بَاشَرَ أَحْوَالَ الْقَبَائِلِ
وَالْعَصَبِيَّةِ وَدَوُلَّهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْغَرِيبَةِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ التَّغْلُبُ بَيْنَ
الْأُمَمِ وَالْعَشَائِرِ ، فَقَلَّمَا يَفْطَلُونَ فِي ذَلِكَ وَيُخْطِئُونَ فِي اعْتِبَارِهِ .

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَيْضاً مَا يَسْلُكُهُ الْمُؤَرِّخُونَ عِنْدَ ذِكْرِ الدَّوْلِ
وَلَسَقَى مُلُوكُهَا فَيَذْكُرُونَ أَسْمَهُ وَلَسَبَهُ وَأَبَاهُ وَأُمَّهُ وَنِسَاءَهُ وَلَقَبَهُ
وَحَاقِمَهُ وَقَاضِيَهُ وَحَاجِبَهُ وَوَزِيرَهُ ؛ كُلُّ ذَلِكَ تَقْلِيدُ الْمُؤَرِّخِي الدَّوْلَتَيْنِ
مِنْ غَيْرِ تَقْطُنٍ لِمَقَاصِدِهِمْ . وَالْمُؤَرِّخُونَ لِذَلِكَ الْعَهْدِ كَانُوا يَصْعَمُونَ
تَوَارِيخَهُمْ لِأَهْلِ الدَّوْلَةِ ، وَأَبْنَاؤُهَا مُتَشَوِّفُونَ إِلَى سِيرِ أَسْلَافِهِمْ وَمَعْرِفَةِ
أَحْوَالِهِمْ لِيَقْتَنُوا آثَارَهُمْ وَيَتَسَجَّجُوا عَلَى مَنَاقِبِهِمْ ، حَتَّى فِي أَصْطِنَاعِ
الرِّجَالِ مِنْ خَلْفِ دَوْلَتِهِمْ وَتَقْلِيدِ الْخَطِّ وَالْمَرَاتِبِ لِأَبْنَاءِ صَنَائِعِهِمْ
وَدَوَابِّهِمْ . وَالْقَضَاءُ أَيْضاً كَانُوا مِنْ أَهْلِ عَصَبِيَّةِ الدَّوْلَةِ وَفِي عِدَادِ
الْوُزَرَاءِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ لَكَ ؛ فَيَحْتَاجُونَ إِلَى ذِكْرِ ذَلِكَ كُلِّهِ . وَأَمَّا حِينَ
تَبَايَنَتِ الدَّوْلُ ، وَتَبَاعَدَ مَا بَيْنَ الْمُصَوِّرِ ، وَوَقَفَ الْغَرَضُ عَلَى مَعْرِفَةِ
الْمُلُوكِ بَأَنْفُسِهِمْ خَاصَّةً ، وَلَسَبِ الدَّوْلِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ فِي قُوَّتِهَا
وَعَلَبَتِهَا ، وَمَنْ كَانَ يُنَاقِضُهَا مِنَ الْأُمَمِ أَوْ يُقَصِّرُ عَنْهَا ، فَا الْفَائِدَةُ

(١) فِي الْقَامُوسِ : يَفْطَلُونَ : هُوَ رُؤُومٌ لِلْفَضِيمِ أَيِ ذَلِيلٍ رَاضٍ بِالْخُسْفِ . وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ
قَلِيلَةُ الِاسْتِعْمَالِ ، وَالْأَصَحُّ : رَتَّمُوا الْمَدْلَةَ تَعْنَى الْقُوَاهُ .

لِلْمُصَنِّفِ فِي هَذَا الْعَهْدِ فِي ذِكْرِ الْأَبْنَاءِ وَالنِّسَاءِ وَنَفْسِ الْخَاتَمِ وَالْقَبْرِ
وَالْقَاضِي وَالْوَزِيرِ وَالْحَاجِبِ مِنْ دَوْلَةٍ قَدِيمَةٍ لَا يَعْرِفُ فِيهَا أَصُولُهُمْ
وَلَا أُنْسَابُهُمْ وَلَا مَقَامَاتِهِمْ ؟ إِنَّمَا حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ التَّقْلِيدُ وَالْعَقْلَةُ عَنْ
مَقَاصِدِ الْمُؤَلِّفِينَ الْأَقْدَمِينَ ، وَالذُّهُولُ عَنْ تَحَرِّيِ الْأَغْرَاضِ مِنْ
التَّارِيخِ ؛ اللَّهُمَّ ! لَا ذِكْرُ الْوُزَرَاءِ الَّذِينَ عَظُمَتْ آثَارُهُمْ وَعَقَّتْ عَلَى^(١)
الْمُلُوكِ أَخْبَارُهُمْ ، كَالْحَاجِّاجِ وَبَنِي الْمُهَلَّبِ وَالْبَرَامِكَةِ وَبَنِي سَهْلِ بْنِ
نُوحٍ وَكَافُورِ الْأَخْشِيدِيِّ وَابْنِ أَبِي عَامِرٍ وَأَمْثَالِهِمْ ؛ فَغَيْرُ نَكِيرِ
الْإِلْمَاعِ بِأَبَائِهِمْ وَالْإِشَارَةِ إِلَى أَحْوَالِهِمْ لِانْتِظَامِهِمْ فِي عِدَادِ الْمُلُوكِ .
وَلَنَذْكُرْ هُنَا فَايِدَةً نَخْتُمُ كَلَامَنَا فِي هَذَا الْفَصْلِ بِهَا ، وَهِيَ
أَنَّ التَّارِيخَ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ الْأَخْبَارِ الْخَاصَّةِ بِعَصْرِ أَوْ جِيلٍ . فَأَمَّا
ذِكْرُ الْأَحْوَالِ الْعَامَّةِ لِلْأَفَاقِ وَالْأَجْيَالِ وَالْأَعْصَارِ فَهُوَ أَسُّ لِلْمُؤَرِّخِ
تَلَبُّي عَلَيْهِ أَكْثَرُ مَقَاصِدِهِ وَتَتَبُّي بِهِ أَخْبَارَهُ . وَقَدْ كَانَ النَّاسُ
يُفَرِّدُونَهُ بِالتَّأْلِيفِ ؛ كَمَا فَعَلَهُ الْمُسْعُودِيُّ فِي كِتَابِ مُرُوجِ الذَّهَبِ ؛
شَرَحَ فِيهِ أَحْوَالَ الْأُمَمِ وَالْأَفَاقِ لِعَهْدِهِ فِي عَصْرِ الثَّلَاثِينَ وَالثَّلَاثِمِئَةِ
غَرْبًا وَشَرْقًا ، وَذَكَرَ نَحْلَهُمْ وَعَوَائِدَهُمْ وَوَصَفَ الْبُلْدَانَ وَالْجِبَالَ وَالْبَحَارَ
وَالْمَمَالِكَ وَالْدُّوَلَّ وَفَرَّقَ شُعُوبَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ؛ فَصَارَ إِمَامًا لِلْمُؤَرِّخِينَ
يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ ، وَأَصْلًا يُعَوَّلُونَ فِي تَحْقِيقِ الْكَثِيرِ مِنْ أَخْبَارِهِمْ عَلَيْهِ . ثُمَّ
جَاءَ الْبَكْرِيُّ مِنْ بَعْدِهِ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ خَاصَّةً
دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَحْوَالِ ؛ لِأَنَّ الْأُمَمَ وَالْأَجْيَالَ لِعَهْدِهِ لَمْ يَقَعْ فِيهَا
كَثِيرٌ انْتِقَالٍ وَلَا عَظِيمٌ تَغْيِيرٍ . وَأَمَّا لِهَذَا الْعَهْدِ وَهُوَ آخِرُ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ

(١) غفا عليه : زاد (قاموس).

فَقَدْ انْقَلَبَتْ أحوالُ الْمَغْرِبِ الَّذِي نَحْنُ شَاهِدُوهُ وَتَبَدَّلَتْ بِالْجُمْلَةِ ، وَاعْتَصَصَ
 مِنْ أَجْيَالِ الْبَرَبْرِ أَهْلُهُ عَلَى الْقَدَمِ بَيْنَ طَرَأٍ فِيهِ مِنْ لَدُنِ الْمَائَةِ الْخَامِسَةِ
 مِنْ أَجْيَالِ الْعَرَبِ بِمَا كَسَرُوهُمْ وَغَلَبُوهُمْ وَأَنْتَزَعُوا مِنْهُمْ عَامَّةَ الْأَوْطَانِ
 وَشَارَكُوهُمْ فِيمَا بَقِيَ مِنَ الْبُلْدَانِ يُلْكِيهِمْ ؛ هَذَا إِلَى مَا نَزَلَ بِالْعُمُرَانِ
 شَرْقًا وَغَرْبًا فِي مُنْتَصَفِ هَذِهِ الْمَائَةِ الثَّامِنَةِ مِنَ الطَّاعُونِ الْجَارِفِ ،
 الَّذِي تَحْيَفُ الْأُتَمَّ وَذَهَبَ بِأَهْلِ الْجِيلِ ، وَطَوَى كَثِيرًا مِنْ تَحَايِسِ
 الْعُمُرَانِ وَمَحَاها ، وَجَاءَ لِلدُّوَلِ عَلَى حِينِ تَهْرِمِهَا وَبُلُوغِ الْغَايَةِ مِنْ مَدَاهَا ،
 فَمَلَّصَ مِنْ ظِلَالِهَا وَقَلَّ مِنْ حَبِّهَا ، وَأَوْهَنَ مِنْ سُلْطَانِهَا ، وَتَدَاعَتْ
 إِلَى التَّلَاشِي وَالْاضْطِحَالِ أحوالُهَا ، وَأَنْتَقَضَ عُمُرَانُ الْأَرْضِ بِانْتِقَاضِ
 الْبَشَرِ ، فَخَرِبَتْ الْأَمْصَارُ وَالْمَصَانِعُ ، وَدَرَسَتْ السُّبُلُ وَالْعَالَمُ وَتَحَلَّتِ
 الدِّيَارُ وَالْمَنَازِلُ ، وَضُمَّتِ الدُّوَلُ وَالْقَبَائِلُ ، وَتَبَدَّلَ السَّاكِنُ . وَكَأَنِّي
 بِالْمَشْرِقِ قَدْ نَزَلَ بِهِ يَمْلُ مَا نَزَلَ بِالْمَغْرِبِ ، لَكِنْ عَلَى نِسْبَتِهِ وَمِقْدَارِ
 عُمرَانِهِ . وَكَأَنَّمَا نَادَى إِبْسَانُ الْكَوْنِ فِي الْعَالَمِ بِالْخَوَلِ وَالْانْقِبَاضِ
 فِبَادَرٍ بِالْإِجَابَةِ . وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا . وَإِذَا تَبَدَّلَتْ
 الْأَحْوَالُ لُحْمَةً فَكَأَنَّمَا تَبَدَّلَ الْخَلْقُ مِنْ أَصْلِهِ ، وَتَحَوَّلَ الْعَالَمُ بِأَسْرِهِ ،
 وَكَأَنَّمَا خُلِقَ جَدِيدٌ ، وَنَشَأَتْ مُسْتَأْنَفَةٌ وَعَالَمٌ مُحْدَثٌ . فَاحْتَاجَ لِهَذَا الْمَهْدِ
 مَنْ يُدَوِّنُ أحوالَ الْخَلِيقَةِ وَالْآفَاقِ وَأَجْيَالِهَا وَالْعَوَائِدَ وَالتَّحَالَاتِ الَّتِي
 تَبَدَّلَتْ لِأَهْلِهَا ، وَيَقْفُو مَسَلَكَ الْمَسْعُودِيِّ لِمَصْرِهِ لِيَكُونَ أَصْلًا يَفْتَتِدِي
 بِهِ مَنْ يَأْتِي مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ مِنْ بَعْدِهِ .

وَأَنَا ذَاكِرٌ فِي كِتَابِي هَذَا مَا أَمَكَّنَنِي مِنْهُ فِي هَذَا الْقَطْرِ الْمَغْرِبِيِّ
 إِمَّا صَرِيحًا أَوْ مُتَدَرِّجًا فِي أَخْبَارِهِ وَتَلَوِيحًا ، لِاخْتِصَاصِ قَصْدِي فِي

التأليف بالغرب، وأحوال أنجيايه وأُمميه، وذكر ممالكه ودُوله دون ما سواه من الأقطار، لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأُمميه، وأن الأخبار المتناقلة لا تُوفي كُنه ما أريدُه منه . والمستعديُّ إنما استوفى ذلك لبُعد رِحلته وتقلُّبه في البلاد، كما ذكر في كتابه؛ مع أنه لما ذكر الغرب قصّر في استيفاء أحواله؛ وفوق كل ذي علم عليم، ومرّد العلم كله إلى الله، وألبشر عاجز قاصر، والاعتراف مُتعيّن واجب، ومن كان الله في عونه تيسرت عليه المذاهب وأنجحت له المساعي والمطالب. ونحن آخذون بعون الله فيما رُمناه من أغراض التأليف، والله المُسيّد والمُعِين وعليه التكلان.

وقد بقي علينا أن نُقدِّم مُقدمة في كَيْفِيَّةِ وَضْعِ الحُرُوفِ التي لَيْسَتْ من لغات العرب إذا عرَضَتْ في كتابنا هذا. إعلم أن الحُرُوفَ في النطق كما يأتي شرحه بعد، هي كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ الْخَارِجَةِ مِنَ الْخُجْرَةِ تَعْرِضُ مِنْ تَقْطِيعِ الصَّوْتِ بِقَرَعِ اللَّهْمَةِ وَأَطْرَافِ اللِّسَانِ مَعَ الْحَنَكِ وَالْخَلْقِ وَالْأَضْرَاسِ، أَوْ بِقَرَعِ الشَّقَتَيْنِ أَيْضاً، فَتَتَغَايَرُ كَيْفِيَّاتُ الْأَصْوَاتِ بِتَغَايُرِ ذَلِكَ الْقَرَعِ، وَتَجِيءُ الْحُرُوفُ مُتَمَازِةً فِي السَّمْعِ، وَتَتَرَكَّبُ مِنْهَا الْكَلِمَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى مَا فِي الصَّمَاةِ. وَلَيْسَتْ الْأُمَمُ كُلُّهَا مُتَسَاوِيَةً فِي النُّطْقِ بِتِلْكَ الْحُرُوفِ. فَقَدْ يَكُونُ لِأُمَّةٍ مِنَ الْحُرُوفِ مَا لَيْسَ لِأُمَّةٍ أُخْرَى. وَالْحُرُوفُ الَّتِي نَطَقَتْ بِهَا الْعَرَبُ هِيَ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ حَرْفاً كَمَا عَرَفْتَ. وَنَحْدُ الْعِبْرَانِيِّينَ حُرُوفاً لَيْسَتْ فِي لُغَتِنَا، وَفِي لُغَتِنَا أَيْضاً حُرُوفٌ لَيْسَتْ فِي لُغَتِهِمْ، وَكَذَلِكَ الْإِفْرَنْجِيُّ وَالتُّرْكُ وَالْبَرْبَرْ وَغَيْرُ هَؤُلَاءِ مِنَ الْعَجَمِ. ثُمَّ إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ

العَرَبِ أَصْطَلَحُوا فِي الدَّلَالَةِ عَلَى حُرُوفِهِمِ الْمُسَمَّوَةِ بِأَوْضَاعِ حُرُوفِ
مَكْتُوبَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ بِأَشْخَاصِهَا ، كَوَضْعِ أَلِفٍ وَبَاءٍ وَجِيمٍ وَراءَ وَطَاءٍ إِلَى
آخِرِ الثَّمَانِيَةِ وَالْيَشْرِينَ ؛ وَإِذَا عَرَضَ لَهُمُ الْحَرْفُ الَّذِي لَيْسَ مِنْ حُرُوفِ
لَفْتِهِمْ بَقِيَ مُهْتَلًا عَنِ الدَّلَالَةِ الْكِتَابِيَّةِ مُنْفَلًا عَنِ الْبَيَانِ ، وَرُبَّمَا يَرُسُّهُ
بَعْضُ الْكُتَّابِ بِشَكْلِ الْحَرْفِ الَّذِي يَكْتَتِفُهُ مِنْ لَفْتِنَا قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ ،
وَلَيْسَ ذَلِكَ بِكَافٍ فِي الدَّلَالَةِ ؛ بَلْ هُوَ تَغْيِيرٌ لِلْحَرْفِ مِنْ أَصْلِهِ .
وَلَمَّا كَانَ كِتَابُنَا مُشْتَمِلًا عَلَى أَخْبَارِ الْبَرَبْرِ وَبَعْضِ الْعَجَمِ ، وَكَانَتْ
تَعْرِضُ لَنَا فِي أَسْمَائِهِمْ أَوْ بَعْضِ كَلِمَاتِهِمْ حُرُوفٌ لَيْسَتْ مِنْ لَفْتِ
كِتَابَتِنَا وَلَا أَصْطِلَاحِ أَوْضَاعِنَا ، اضْطَرَرْنَا إِلَى بَيَانِهِ وَلَمْ نَكْتَفِ بِرَسْمِ
الْحَرْفِ الَّذِي تَلِيهِ كَمَا قُلْنَا ؛ لِأَنَّهُ عِنْدَنَا غَيْرُ وَافٍ بِالدَّلَالَةِ عَلَيْهِ .
فَأَصْطَلَحْتُ فِي كِتَابِي هَذَا عَلَى أَنْ أَضَعَّ ذَلِكَ الْحَرْفَ الْعَجَبِيَّ بِمَا يَدُلُّ
عَلَى الْحَرْفَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكْتَتِفَانِهِ ، لِيَتَوَسَّطَ الْقَارِي بِالنُّطْقِ بِهِ بَيْنَ
فَرْجِي ذَيْنِكَ الْحَرْفَيْنِ ، فَتَحْصُلُ تَأْدِيتُهُ وَإِنَّمَا أَقْبَسْتُ ذَلِكَ مِنْ رَسْمِ
أَهْلِ الْمُصْحَفِ حُرُوفَ الْإِسْهَامِ ، كَالْقِصْرَاطِ فِي قِرَاءَةِ خَلْفٍ ، فَإِنَّ
النُّطْقَ بِصَادِهِ فِيهَا مُعْجَمٌ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الصَّادِ وَالزَّايِ ، فَوَضَعُوا الصَّادَ
وَرَسَمُوا فِي دَاخِلِهَا شَكْلَ الزَّايِ ؛ وَذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَلَى التَّوَسُّطِ بَيْنَ
الْحَرْفَيْنِ . فَكَذَلِكَ رَسَمْتُ أَنَا كُلَّ حَرْفٍ يَتَوَسَّطُ بَيْنَ حَرْفَيْنِ مِنْ
حُرُوفِنَا ، كَالْكَافِ الْمُتَوَسِّطَةِ عِنْدَ الْبَرَبْرِ بَيْنَ الْكَافِ الْمَرْبُوحَةِ عِنْدَنَا
وَالْجِيمِ أَوِ الْقَافِ ؛ مِثْلُ اسْمِ بُلْكَيْنِ فَأَضْمُهَا كَافًا وَأَنْقَطُهَا بِنُقْطَةِ
الْجِيمِ وَاحِدَةً مِنْ أَسْفَلٍ أَوْ بِنُقْطَةِ الْقَافِ وَاحِدَةً مِنْ فَوْقٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ ،
فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الْكَافِ وَالْجِيمِ أَوِ الْقَافِ . وَهَذَا

الحرفُ أَكْثَرُ ما يَجِيءُ في لُفَّةِ الْبَرْبَرِ. وما جاء من غَيْرِهِ فعلى هذا
الْقِيَاسِ أَضَعُ الحَرْفَ الْمُتَوَسِّطَ بَيْنَ حَرْفَيْنِ من لُفَّتِنَا بِالْحَرْفَيْنِ مَعاً ،
لِيَعْلَمَ الْقَارِي أَنَّهُ مُتَوَسِّطٌ فَيَنْطِقُ بِهِ كَذَلِكَ ؛ فَكَوْنُ قَدْ دَلَّلْنَا
عَلَيْهِ . ولو وَضَعْنَاهُ يَرْسُمُ الحَرْفَ الْوَاحِدَ عن جَانِبَيْهِ لَكُنَّا قد صَرَفْنَاهُ
من تَخْرِجِهِ الى تَخْرِجِ الحَرْفِ الَّذِي من لُفَّتِنَا وَغَيْرُنَا لُفَّةَ الْقَوْمِ .
فَاعْلَمْ ذَلِكَ ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ بَيْنَهُ وَفَضْلِهِ .

الكتاب الأول

في طبيعة العمران في الخليفة

وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش
والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب

إِذْ عَلِمَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ التَّارِيخِ أَنَّهُ خَبَرٌ عَنِ الْإِجْتِمَاعِ
الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي هُوَ عُمُرَانُ الْعَالَمِ ، وَمَا يَعْضُ بِطَبِيعَةِ ذَلِكَ الْعُمُرَانِ
مِنَ الْأَحْوَالِ مِثْلَ التَّوَحُّشِ وَالتَّائُسِ وَالْعَصِيَّاتِ وَأَصْنَافِ التَّغْلِبَاتِ
لِلْبَشَرِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَمَا يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ مِنَ الْمُلْكِ وَالذُّوْلِ
وَوَرَاثَتِهَا ، وَمَا يَنْتَحِلُهُ الْبَشَرُ بِأَعْمَالِهِمْ وَمَسَاعِيهِمْ مِنَ الْكَسْبِ
وَالْمَعَاشِ وَالْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ ، وَسَائِرِ مَا يَخْدُثُ فِي ذَلِكَ ، الْعُمُرَانُ
بِطَبِيعَتِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ . وَلَمَّا كَانَ الْكَذِبُ مُتَطَرِّقًا لِلْخَبَرِ بِطَبِيعَتِهِ
وَلَهُ أَسْبَابٌ تَقْتَضِيهِ . فَبَيْنَا التَّشْيِيعَاتُ الْآرَاءَ وَالْمَذَاهِبَ ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ
إِذَا كَانَتْ عَلَى حَالِ الْأَعْتِدَالِ فِي قَبُولِ الْخَبَرِ أَعْطَتْهُ حَقَّهُ مِنَ التَّمْحِيصِ
وَالنَّظَرِ حَتَّى تَتَبَيَّنَ صِدْقُهُ مِنْ كَذِبِهِ ؛ وَإِذَا خَافَتْهَا تَشْيِيعُ لِرَأْيٍ أَوْ
فُحْلَةٍ قِيلَتْ مَا يُوَافِقُهَا مِنَ الْأَخْبَارِ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَلِيلُ
وَالْتَشْيِيعُ غِطَاءً عَلَى عَيْنِ بَصِيرَتِهَا عَنِ الْإِنْتِقَادِ وَالتَّمْحِيصِ ، فَتَمَّعُ

في قبول الكذب ونقله . ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً الثقة بالنّاقلين ؛ وتمحيص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح . ومنها الذّهول عن المقاصد ؛ فكثير من النّاقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع ، وينقل الخبر على ما في ظّنه وتحمينه فيقع في الكذب . ومنها توهم الصدق وهو كثير ؛ وإنما يجي في الأكثر من جهة الثقة بالنّاقلين . ومنها الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبس والتصنع ؛ فينقلها الخبير كما رآها ، وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه . ومنها تقرب الناس في الأكثر لأصحاب التّجلة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك ، فتستفيض الأخبار بها على غير حقيقة ؛ فالنفوس مولعة بحبّ الشّاء ؛ والناس متطلعون إلى الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة ؛ وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها . ومن الأسباب المقتضية له أيضاً وهي ساقطة على جميع ما تقدّم الجهل بطبائع الأحوال في العمران ؛ فإن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً لا بد له من طبيعة تخصّه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله ؛ فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها ؛ أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب ؛ وهذا أبلغ في التمحيص من كلّ وجه يعرض .

وكثيراً ما يعرض للسّامعين قبول الأخبار المستحيلة وينقلونها وتوثر عنهم . كما نقله المسعودي عن الإسكندر لما صدّته دواب

البحر عن بناء الإسكندرية ، وكيف اتخذ تابوت الخشب وفي باطنه صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قعر البحر ، حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها ، وعمل تماثيلها من أجساد معذنية ، ونصبها حذاء البنيان ، فقرت تلك الدواب حين خرجت وعانتها ، وتم له بناؤها ، في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة من قبل اتخذ التابوت الزجاجي ، ومصادمة البحر وأمواجه بجرمه ؛ ومن قبل أن الملوك لا تحيل أنفسهم على مثل هذا القرار^(١) ، ومن اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة وانتفاض المقدّم واجتماع الناس إلى غيره ، وفي ذلك إتلافه ، ولا يتظنون به رجوعه ، عن غروره^(٢) ذلك طرفة عين ، ومن قبل أن الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها ، إنما هي قادرة على التشكل ، وما يذكر من كثرة الرؤوس لها فإنما المراد به البشاعة والتحويل لا أنه حقيقة .

وهذه كلها قاذحة في تلك الحكاية . والقادح الحيل لها من طريق الوجود آيين من هذا كله . وهو أن المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعي وتسخن روحه بسرعة لقلته ، فيفقد صاحبه الهواء الباردة المعبدة ليزاج الربة والروح القلبي ، ويهلك مكانه . وهذا هو السبب في هلاك أهل الحمامات إذا أطبقت^(٣) عليهم عن الهواء البارد ، والتدخين في

(١) بمعنى تعريض النفس للهلاك .

(٢) كذا في جميع النسخ ، ومقتضى السياق : غرره .

(٣) بمعنى دامت .

الآبارِ والمطاميرِ العميقة المتهوى إذا سخنَ هَواؤها بالمُفَوْنَةِ ولم تُدْخِلْهَا
الرياحُ فَتُخْلِجْهَا ؛ فَإِنَّ الْمُتَدَلِّيَ فِيهَا يَهْلِكُ لِحَيْنِهِ . وبهذا السَّبَبِ يَكُونُ
مَوْتُ الْحَوْتِ إِذَا فَارَقَ الْبَحْرَ ؛ فَإِنَّ الْهَوَاءَ لَا يَكْفِيهِ فِي تَمْدِيلِ
رَيْتِهِ إِذْ هُوَ حَارٌّ بِإِفْرَاطٍ ، وَالْمَاءُ الَّذِي يُعَدِّلُهُ بَارِدٌ ، وَالْهَوَاءُ الَّذِي
خَرَجَ إِلَيْهِ حَارٌّ ، فَيَسْتَوِلِي الْحَارُّ عَلَى رَوْحِهِ الْحَيَوَانِيِّ وَيَهْلِكُ دَفْعَةً
وَمِنْهُ هَلَاكُ الْمَضْعُوقِينَ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ .

وَمِنْ الْأَخْبَارِ الْمُسْتَحِيلَةِ مَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضاً فِي تِمَالِ الزُّذُورِ
الَّذِي يَرُومَةُ تَجْتَمِعُ إِلَيْهِ الزَّرَاذِيرُ فِي يَوْمٍ مَعْلُومٍ مِنَ السَّنَةِ حَامِلَةً
لِلزَّيْتُونِ ، وَمِنْهُ يَتَّخِذُونَ زَيْتَهُمْ . وَأَنْظُرْ مَا أَتَمَدَّ ذَلِكَ عَنِ الْحَجَرِ
الطَّبِيعِيِّ فِي اتِّخَاذِ الزَّيْتِ .

وَمِنْهَا مَا نَقَلَهُ الْبَكْرِيُّ فِي بِنَاءِ الْمَدِينَةِ الْمَسْمُوكَةِ ذَاتِ الْأَبْوَابِ
تُحِيطُ بِأَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ مَرَّحَلَةً وَتَشْتَمِلُ عَلَى عَشْرَةِ آلَافِ بَابٍ .
وَالْمَدُنُ إِنَّمَا أُتِّخِذَتْ لِلتَّحَصُّنِ وَالْإِعْتِصَامِ كَمَا يَأْتِي ؛ وَهَذِهِ خَرَجَتْ
عَنْ أَنْ يُحَاطَ بِهَا فَلَا يَكُونُ فِيهَا حِصْنٌ وَلَا مُنْتَصَمٌ .
وَكَمَا نَقَلَهُ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضاً فِي حَدِيثِ مَدِينَةِ النُّحَاسِ وَأَنَّهَا مَدِينَةٌ
كُلُّ بِنَائِهَا نُحَاسٌ بِصَخْرَاءِ سِجِلْمَاسَةَ ، ظَفَرَ بِهَا مُوسَى بْنُ نُصَيْرٍ فِي
غَزْوَتِهِ إِلَى الْغَرْبِ ، وَأَنَّهَا مُغْلَقَةُ الْأَبْوَابِ ، وَأَنَّ الصَّاعِدَ إِلَيْهَا مِنْ
أَسْوَارِهَا إِذَا أَشْرَفَ عَلَى الْحَائِطِ صَفَّقَ وَرَمَى بِنَفْسِهِ فَلَا يَرْجِعُ آخِرَ
الدَّهْرِ ، فِي حَدِيثٍ مُسْتَحِيلٍ عَادَةً مِنْ خَرَافَاتِ الْفُصَّاصِ . وَصَخْرَاهُ
سِجِلْمَاسَةَ قَدْ نَفَضَهَا^(١) الرُّكَّابُ وَالْأَدْلَاءُ وَلَمْ يَقِفُوا لِهَذِهِ الْمَدِينَةِ عَلَى

(١) نفّض المكان: نظر جميع ما فيه حتى يتعرفه .

خَبَرٌ . ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ الَّتِي ذَكَرُوا عَنْهَا كُلُّهَا مُسْتَحِيلٌ عَادَةً مُنَافٍ لِلْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي بِنَاءِ الْمَدِينِ وَاخْتِطَاطِهَا ؛ وَأَنَّ الْمَعَادِينَ غَايَةُ الْمَوْجُودِ مِنْهَا أَنْ يُصَرَّفَ فِي الْآلِيَّةِ وَالْخُرْنِيِّ^(١) ؛ وَأَمَّا تَشْيِيدُ مَدِينَةٍ مِنْهَا فَكَمَا تَرَاهُ مِنَ الْإِسْتِحَالَةِ وَالْبُعْدِ .

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ ؛ وَتَحْيِصُهُ إِنَّمَا هُوَ بِمَعْرِفَةِ طَبَائِعِ الْعُمَرَانِ ، وَهُوَ أَحْسَنُ الْوُجُوهِ وَأَوْثَقُهَا فِي تَحْيِصِ الْأَخْبَارِ وَتَمْيِيزِ صِدْقِهَا مِنْ كَذِبِهَا وَهُوَ سَابِقٌ عَلَى التَّمْحِصِ بِتَعْدِيلِ الرُّوَاةِ ، وَلَا يُرْجَعُ إِلَى تَعْدِيلِ الرُّوَاةِ حَتَّى يُعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ الْخَبَرَ فِي نَفْسِهِ مُمَكِّنٌ أَوْ مُمْتَنِعٌ . وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُسْتَحِيلًا فَلَا فَايِدَةَ لِلنَّظَرِ فِي التَّعْدِيلِ وَالتَّجْرِيعِ . وَلَقَدْ عَدَّ أَهْلُ النَّظَرِ مِنَ الْمُطَاعِنِ فِي الْخَبَرِ اسْتِحَالَةَ مَدْلُولِ اللَّفْظِ وَتَأْوِيلَهُ بِمَا لَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ . وَإِنَّمَا كَانَ التَّعْدِيلُ وَالتَّجْرِيعُ هُوَ الْمُعْتَبَرُ فِي صِحَّةِ الْأَخْبَارِ الشَّرْعِيَّةِ ، لِأَنَّ مُنَظَّمَهَا تَكَايُفُ^(٢) إِنْشَائِيَّةٌ^(٣) أَوْجَبَ الشَّارِعُ الْعَمَلَ بِهَا حَتَّى حَصَلَ الظَّنُّ بِصِدْقِهَا ؛ وَسَبِيلُ صِحَّةِ الظَّنِّ الثِّقَةُ بِالرُّوَاةِ بِالْمَدَالَةِ وَالضَّبْطِ .

وَأَمَّا الْأَخْبَارُ عَنْ الْوَاقِعَاتِ فَلَا بُدَّ فِي صِدْقِهَا وَصِحَّتِهَا مِنْ اعْتِبَارِ الْمُطَابَقَةِ . فَلِذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يُنْظَرَ فِي إِمْكَانِ وَقُوعِهِ ، وَصَارَ فِي ذَلِكَ أَهَمُّ مِنَ التَّعْدِيلِ وَمُقَدِّمًا عَلَيْهِ ؛ إِذْ فَايِدَةُ الْإِنْشَاءِ مُقْتَبَسَةٌ مِنْهُ فَقَطْ وَفَايِدَةُ الْخَبَرِ مِنْهُ وَمِنَ الْخَارِجِ بِالْمُطَابَقَةِ . وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَالْقَانُونُ فِي تَمْيِيزِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ فِي الْأَخْبَارِ بِالْإِمْكَانِ وَالْإِسْتِحَالَةِ أَنْ نَنْظُرَ

(١) الخُرْنِيُّ بالضم : أُنْثَى الْبَيْتِ (قَامُوسُ) .

(٢) نِسْبَةٌ إِلَى «إِنْشَاءٍ» وَهُوَ الَّذِي يَشْمَلُ الْأَمْرَ وَالذَّهْنَ وَمَا شَاكَلَ ، وَهُوَ ، قَابِلُ الْخَيْرِ وَيُقَالُ :

جَمَلَةٌ إِنْشَائِيَّةٌ فِي مَقَابِلِ جَمَلَةٍ خَبَرِيَّةٍ .

في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونُفِزَ ما يَلْحَقُهُ من الأحوال لذاته وِبُغْتَضَى طَبْعِهِ، وما يَكُونُ عَارِضاً لا يُعْتَدُّ به وما لا يُمْكِنُ أَنْ يَعْضَلَ له . وإذا فَعَلْنَا ذلكَ كانَ ذلكَ لنا قانوناً في تَمْيِيزِ الحقِّ من الباطلِ في الأخبارِ والصِّدْقِ من الكَذِبِ بِوَجْهِ بُرْهَانِيٍّ لا مَدْخَلَ لِلشَّكِّ فِيهِ . وَحِينَئِذٍ إِذَا سَمِعْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الْوَاقِعَةِ فِي الْعُمُرَانِ عَلِمْنَا مَا نَحْكُمُ بِقَبُولِهِ يَمَّا نَحْكُمُ بِتَرْيِيفِهِ . وَكَانَ ذَلِكَ لَنَا مِيقَاراً صَحِيحاً يَتَحَرَّى بِهِ الْمُؤَرِّخُونَ طَرِيقَ الصِّدْقِ وَالصَّوَابِ فِيمَا يَنْقُلُونَهُ . وَهَذَا هُوَ غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ الْأَوَّلِ مِنْ تَأْلِيفِنَا .

وَكَانَ هَذَا عِلْمٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ . فَإِنَّهُ ذُو مَوْضُوعٍ وَهُوَ الْعُمُرَانُ الْبَشَرِيُّ وَالْاجْتِمَاعُ الْإِنْسَانِيُّ ؛ وَذُو مَسَائِلَ ، وَهِيَ بَيَانُ مَا يَلْحَقُهُ مِنَ الْعَوَارِضِ وَالْأَحْوَالِ لِدَاتِهِ ^(١) وَاجِدَةً بَعْدَ أُخْرَى . وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ عِلْمٍ مِنَ الْعُلُومِ وَضَعِيّاً كَانَ أَوْ عَقْلِيّاً .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذَا الْغَرَضِ مُسْتَحْدَثُ الصَّنْعَةِ ، غَرِيبُ النَّزْعَةِ ، غَزِيرُ الْفَائِدَةِ ، أَعْثَرَ عَلَيْهِ الْبَحْثُ وَأَدَّى إِلَيْهِ الْغَوْصُ . وَلَيْسَ مِنْ عِلْمِ الْخَطَابَةِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ الْعُلُومِ الْمُنْطِقِيَّةِ ؛ فَإِنَّ مَوْضُوعَ الْخَطَابَةِ إِنَّمَا هُوَ الْأَقْوَالُ الْمُفْتَعَةُ النَّافِعَةُ فِي اسْتِمَالَةِ الْجُمْهُورِ إِلَى رَأْيٍ أَوْ صَدِّهِمْ عَنْهُ . وَلَا هُوَ أَيْضاً مِنْ عِلْمِ السِّيَاسَةِ الْمَدَنِيَّةِ ؛ إِذِ السِّيَاسَةُ الْمَدَنِيَّةُ هِيَ تَدْبِيرُ الْمَنْزِلِ أَوْ الْمَدِينَةِ بِمَا يَحِبُّ بِبُغْتَضَى الْأَخْلَاقِ وَالْحِكْمَةِ ،

(١) استعمل ابن خلدون هذه العبارة في أمكنة متفرقة من مقدمته ويغلب على الظن أنه قصد بعبارة: «ما يلحق المجتمع من العوارض والأحوال لذاته» ما يقصده الكتاب اليوم من كلمة «القوانين» ويتضح قصده هذا مما كتبه في أثناء حديثه عن علم الهندسة؛ إذ تعرض للقوانين الهندسية .

لِيُحْمَلَ الْجُهودُ عَلَى مِنْهَاجٍ يَكُونُ فِيهِ حِفْظُ النَّوعِ وَبَقَاؤُهُ . فَقَدْ خَالَفَ مَوْضُوعُهُ مَوْضُوعَ هَذَيْنِ الْفَنَيْنِ اللَّذَيْنِ رُبَّمَا يُشْبِهَانِهِ .
وَكَأَنَّهُ عَلِمُ مُسْتَبْطِ النَّشْأَةِ . وَلَعَمْرِي لَمْ أَقِفْ عَلَى الْكَلَامِ فِي مَنْحَاهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْخَلِيقَةِ . مَا أَذْرِي أَلِفْلَتِهِمْ عَنْ ذَلِكَ ؟ وَلَيْسَ الظَّنُّ بِهِمْ أَوْ لَعَلَّهُمْ كَتَبُوا فِي هَذَا الْغَرَضِ وَاسْتَوْفَوْهُ وَلَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا فَالْعُلُومُ كَثِيرَةٌ وَالْحُكْمَاءُ فِي أَمَمِ النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ مُتَمَدِّدُونَ ، وَمَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا مِنَ الْعُلُومِ أَكْثَرُ بِمَا وَصَلَ . فَأَيْنَ عُلُومُ الْفُرسِ الَّتِي أَمَرَ نَحْمُرُ رِضَى اللَّهِ عَنْهُ بِمَجْهَدِهَا عِنْدَ الْفَتْحِ ؟ وَأَيْنَ عُلُومُ الْكِلدَانِيِّينَ وَالسُّرْيَانِيِّينَ وَأَهْلِ بَابِلَ ، وَمَا ظَهَرَ عَلَيْهِمْ مِنْ آثَارِهَا وَنَتَائِجِهَا ؛ وَأَيْنَ عُلُومُ الْقِبْطِ وَمَنْ قَبْلَهُمْ ؛ وَإِنَّا وَصَلْ إِلَيْنَا عُلُومُ أُمَّةٍ وَاحِدَةٍ وَهُمْ يُونَانُ خَاصَّةً ، لِكَلْفِ الْأُمُومِ بِإِخْرَاجِهَا مِنْ لُغَتِهِمْ وَاقْتِدَارِهِ عَلَى ذَلِكَ بِكَثْرَةِ الْمُتَرْجِمِينَ وَبَذْلِ الْأَمْوَالِ فِيهَا . وَلَمْ نَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عُلُومِ غَيْرِهِمْ .

وَإِذَا كَانَتْ كُلُّ حَقِيقَةٍ مُتَمَعِّلَةً طَبِيعَةً يَصْلُحُ أَنْ يُبْحَثَ عَمَّا يَغْرِضُ لَهَا مِنَ الْعَوَارِضِ لِذَاتِهَا ؛ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ بِإِعْتِبَارِ كُلِّ مَفْهُومٍ وَحَقِيقَةٍ عِلْمٌ مِنَ الْعُلُومِ يَخُصُّهُ . لَكِنَّ الْحُكْمَاءَ لَعَلَّهُمْ إِنَّمَا لَاحَظُوا فِي ذَلِكَ الْعِنَايَةَ بِالشَّمَرَاتِ ؛ وَهَذَا إِنَّمَا ثَمَرَتُهُ فِي الْأَخْبَارِ فَقَطْ كَمَا رَأَيْتَ ؛ وَإِنْ كَانَتْ مَسَائِلُهُ فِي ذَاتِهَا وَفِي اخْتِصَاصِهَا شَرِيفَةً لَكِنَّ ثَمَرَتَهُ تَصْحِيحُ الْأَخْبَارِ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ ؛ فَهَذَا هَجْرُهُ ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

وَهَذَا الْفَنُّ الَّذِي لَنَا النَّظَرُ فِيهِ نَحْدُ مِنْهُ مَسَائِلَ تَجْرِي

بالعرض لأهل العلوم في برآهين علومهم، وهي من جنس مسائله بالموضوع والطلب : مثل ما يذكره الحكماء والعلماء في إثبات النبوة من أن البشر متعاونون في وجودهم ، فيحتاجون فيه إلى الحكيم والوازع ؛ ومثل ما يذكر في أصول الفقه ، في باب إثبات اللغات ، أن الناس يحتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع ، وتبيان العبارات أخف ، ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنى يخطئ للأنساب مفسد للنوع ، وأن القتل أيضاً مفسد للنوع ، وأن الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع ، وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في الأحكام ، فإنها كلها مبنية على المحافظة على العمران ، فكان لها النظر فيما يعرض له ، وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل المثلة .

وكذلك أيضاً يقع إلينا القليل من مسائله في كلمات متفرقة لحكماء الخليفة ، لكنهم لم يستوفوه . فمن كلام الموبدان^(١) بهرام ابن بهرام في حكاية اليوم التي نقلها المسعودي : « أيها الملك ! إن الملك لا يتم عزه إلا بالشرعية والقيام لله بطاعته ، والتصرف تحت أمره ونهيه ؛ ولا قوام للشرعية إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ؛ ولا سبيل إلى المال إلا بالعبادة ؛ ولا سبيل للعبادة إلا بالعدل ؛ والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة

(١) هو فقيه الفرس وحاكم المجوس (قاموس).

نَصَبَهُ الرَّبُّ وَجَعَلَ لَهُ قِيَمًا وَهُوَ الْمَلِكُ . ومن كلامِ أنوشروان في هذا المعنى بَعَيْنِهِ : « الملكُ بالجندِ ؛ والجندُ بالمالِ ؛ والمالُ بالخراجِ ؛ والخراجُ بالعمارةِ ؛ والعمارةُ بالعدلِ ؛ والعدلُ بإصلاحِ العمالِ ؛ وإصلاحُ العمالِ باستقامةِ الوزراءِ ؛ ورأسُ الكلِّ بافتقارِ الملكِ حالَ رَعِيَّتِهِ بنفسِهِ واقتدارِهِ على تأديبِها حتى يملكها ولا تملكه » .

وفي الكتابِ المنسوبِ لأرسطو في السِّياسَةِ ، المتداولِ بينِ الناسِ جزءٌ صالحٌ منه ، إلا أَنَّهُ غَيْرُ مُستوفٍ ولا مُعْطَى حَقُّهُ مِنَ البراهينِ ومُختلطٌ بغيرِهِ ؛ وقد أشارَ في ذَلِكَ الكتابِ إلى هَذِهِ الكَلِمَاتِ الَّتِي نَقَلْنَاهَا عَنْ الْمُوتَبَذَانِ وَأَنُوشِرَوَانَ ، وَجَعَلَهَا فِي الدَّائِرَةِ الْقَرِيبَةِ الَّتِي أَعْظَمَ الْقَوْلَ فِيهَا ، وَهُوَ قَوْلُهُ : « الْعَالَمُ بُسْتَانٌ يَسِيحُ فِيهِ الدَّوْلَةُ ؛ الدَّوْلَةُ سُلْطَانٌ تَحِيَا بِهِ السُّنَّةُ ؛ السُّنَّةُ سِيَاسَةٌ يَسُوسُهَا الْمَلِكُ ؛ الْمَلِكُ نِظَامٌ يَنْصُدُّهُ الْجَنْدُ ؛ الْجَنْدُ أَصْحَابُ يَكْفُلُهُمُ الْمَالُ ؛ الْمَالُ رِزْقٌ تَجْمَعُهُ الرَّعِيَّةُ ؛ الرَّعِيَّةُ عَبِيدُ يَكْفُلُهُمُ الْعَدْلُ ؛ الْعَدْلُ مَالُوفٌ بِهِ قِوَامُ الْعَالَمِ ؛ الْعَالَمُ بُسْتَانٌ ... » ؛ ثُمَّ تَرْجِعُ إِلَى أَوَّلِ الْكَلَامِ . فَهَذِهِ ثَمَانُ كَلِمَاتٍ حَكْمِيَّةٍ سِيَاسِيَّةٍ ارْتَبَطَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، وَازْدَدَتْ أَعْجَازُهَا عَلَى صُدُورِهَا ، وَاتَّصَلَتْ فِي دَائِرَةٍ لَا يَتَعَيَّنُ طَرَفُهَا ، فَخَرَّ بِعُشُورِهِ عَلَيْهَا ، وَعَظَّمَهَا مِنْ فَوَائِدِهَا . وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ كَلَامَنَا فِي فَصْلِ الدَّوْلِ وَالْمَلِكِ ، وَأَعْطَيْتَهُ حَقَّهُ مِنَ التَّصْفِيحِ وَالنَّهْثِ ، عَثَرْتَ فِي أَثْنَائِهِ عَلَى تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ ، وَتَفْصِيلِ إِجْمَالِهَا مُسْتَوْفَى تَيْنًا بِأَوْعَبِ بَيَانٍ وَأَوْضَحِ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ ؛ أَطْلَعْنَا اللَّهَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ أَرِسْطُو وَلَا إِفَادَةٍ مُوتَبَذَانٍ . وَكَذَلِكَ تَجَدُّ فِي كَلَامِ ابْنِ الْمُقَفَّعِ ، وَمَا يُسْتَطَرَّدُ فِي رَسَائِلِهِ مِنْ ذِكْرِ السِّيَاسَاتِ

الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه ؛ إنما يجليها في الذكر على منحنى الخطابة في أسلوب الترسل وبلاغة الكلام . وكذلك حوّم القاضي أبو بكر الطرطوشي في كتاب سراج الملوك ، وبوّبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله ؛ لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ^(١) ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ؛ إنما يوبّ الباب للمسئلة ، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار ، وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس مثل بُزْجَمَهَر والموبدان وحكماء الهند والمأثور عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليفة ، ولا يكشف عن التحقيق قناعاً ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاباً ؛ إنما هو نقل وتزكيب شبيه بالمواظ ؛ وكأنه حوّم على الغرض ولم يصادفه ، ولا تحقق قصده ، ولا استوفى مسأله . ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاماً ؛ وأعثرنا على علم جعلنا سنّ بكره ^(٢) وجهينة خبره ^(٣) . فإن كنت قد استوفيت مسأله ، وميزت عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه ، فتوفيق من الله وهداية . وإن فاتني شيء في إحصائه واشتبهت بغيره مسأله ، فللناظر المحقق إصلاحه ؛ ولي الفضل لآني نهجت له السبيل وأوضعت له الطريق . والله يهدي بنوره من يشاء .

ونحن الآن نبين في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم

(١) الرمية : ما يرمى من حيوان ، والشاكلة : الوجهة والطريقة . - والمعنى في الجملتين : لم يصب الغرض .

(٢) مثل يطلق على من يبيع بالخبر الصادق اليقين .

(٣) إشارة إلى المثل المشهور : «عند جهينة الخبر اليقين» .

من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه
برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة ، وتدفع بها
الأوهام وترفع الشكوك ونقول :

لما كان الإنسان متميزاً عن سائر الحيوانات بخواص اختصاص
بها . فمن العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن
الحيوانات ، وشرف بوضفه على المخلوقات . ومنها الحاجة إلى الحكم
الوازع والسلطان القاهر ؛ إذ لا يمكن وجوده دون ذلك^(١) ؛ من
بين الحيوانات كلها إلا ما يقال عن النحل والجراد ؛ وهنـيـه وإن
كان لها مثل ذلك فطريق الهابي لا يفكر وذوية . ومنها السعي
في المعاش والاعتمال في تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه ، لما
جعل الله فيه من الافتقار إلى الغذاء في حياته وبقائه ، وهداه إلى
الناسه وطلبه ؛ قال تعالى : ﴿ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ .

ومنها العمران وهو التـساكن والتنازل في مصر^(٢) أو حلة للأنس
بالمشير واقتضاء الحاجات ، لما في طباعهم من التعاون على المعاش
كما سبقت . ومن هذا العمران ما يكون بدوياً ، وهو الذي يكون
في الضواحي وفي الجبال وفي الحلال المنتجمة في القفار وأطراف
الرمال ومنه ما يكون حضرياً ، وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن
والمند^(٣) للاعتسام بها والتحصن بخدراها . وله في كل هذه الأحوال

(١) يظهر أن هذا عبارة ساقطة من جميع النسخ ، لأن الكلام غير مستقيم . (٢) نسخة نسخة
البيان العربي ردة عبارة من قوسين وهي : « ولا يشبه في ذلك » .

(٢) تعني الصنع أو التدبير ، وهذا صواب . وجمعها أمصار

(٣) يراد بأهل المند : أهل القرى والأمصار ، والعرب تسمي القرية المدرة . ويقال أيضاً
للمدن والقرى : مدر (قاموس) .

أُمُورٌ تُعَرِّضُ مِنْ حَيْثُ الْاجْتِمَاعُ عُرُوضًا ذَاتِيًّا لَهُ ، فَلَا جَرَمَ انْخَصَرَ
الْكَلَامُ فِي هَذَا الْكِتَابِ فِي سِتَّةِ فُصُولٍ :

الأول - في العُمُرَانِ الْبَشَرِيِّ عَلَى الْجُمْلَةِ وَأَصْنَافِهِ وَقِسْمِهِ
مِنَ الْأَرْضِ ؛

والثاني - في العُمُرَانِ الْبَدَوِيِّ وَذِكْرِ الْقَبَائِلِ وَالْأَمَمِ الْوَحْشِيَّةِ ؛

والثالث - في الدُّوَلِ وَالْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ وَذِكْرِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ ؛

والرابع - في العُمُرَانِ الْحَضَرِيِّ وَالْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ ؛

والخامس - في الصَّنَائِعِ وَالْمَعَاشِ وَالْكَسْبِ وَوُجُوهِهِ ؛

والسادس - في الْعُلُومِ وَاكْتِسَابِهَا وَتَعْلُمِهَا .

وَقَدْ قَدِّمْتُ الْعُمُرَانَ الْبَدَوِيَّ لِأَنَّهُ سَابِقٌ عَلَى جَمِيعِهَا كَمَا نُبَيِّنُ

لَكَ بَعْدُ ؛ وَكَذَا تَقْدِيمُ الْمُلْكِ عَلَى الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ ؛ وَأَمَّا تَقْدِيمُ

الْمَعَاشِ فَلِأَنَّ الْمَعَاشَ ضَرُورِيٌّ طَبِيعِيٌّ وَتَعَلُّمُ الْعِلْمِ كَالِيٍّ أَوْ حَاجِيٍّ ،

وَالطَّبِيعِيُّ أَقْدَمُ مِنَ الْكَالِيِّ ؛ وَجَعَلْتُ الصَّنَائِعَ مَعَ الْكَسْبِ لِأَنَّهَا

مِنْهُ بَعْضُ الْوُجُوهِ وَمِنْ حَيْثُ الْعُمُرَانُ ، كَمَا نُبَيِّنُ لَكَ بَعْدُ .

وَاللَّهُ الْمُؤَقِّقُ لِلصَّوَابِ وَالْمُعِينُ عَلَيْهِ .

الْبَابُ الْأَوَّلُ

مِنَ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ

في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات

الاولى : في أن الاجتماع الإنساني ضروريٌ، ويُعبرُ الحكماء عن هذا بقولهم : « الإنسان مَدَنِيٌّ بِالطَّبْعِ » ، أي لا بُدُّ له من الاجتماع الذي هو المَدَنِيَّةُ في اصطلاحهم وهو معنى العمران. وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان ورَكَّبَهُ على صَوْدَةٍ لا يَصِحُّ حَيَاتُهَا وَبَقَاؤُهَا إِلَّا بِالْغِذَاءِ ، وَهَدَاهُ إِلَى التَّيَاسُ بِفِطْرَتِهِ ، وَبِمَا رَكَّبَ فِيهِ مِنَ الْمُدْرَةِ عَلَى تَحْصِيلِهِ . إِلَّا أَنَّ قُدْرَةَ الْوَاحِدِ مِنَ الْبَشَرِ قَاصِرَةٌ عَنْ تَحْصِيلِ حَاجَتِهِ مِنْ ذَلِكَ الْغِذَاءِ ، غَيْرُ مُوفِيَةٍ لَهُ بِمَادَّةِ حَيَاتِهِ مِنْهُ . وَلَوْ فَرَضْنَا مِنْهُ أَقَلُّ مَا يُمْكِنُ فَرَضُهُ وَهُوَ قُوَّةُ يَوْمٍ مِنَ الْخِنْطَةِ مَثَلًا ، فَلَا يَحْصُلُ إِلَّا بِعِلَاجٍ كَثِيرٍ مِنَ الطَّخَنِ وَاللَّعْجَنِ وَالطَّبَخِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الثَّلَاثَةِ يَحْتَاجُ إِلَى مَوَاقِينَ وَآلَاتٍ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِصِنَاعَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ حَدَادٍ وَتَجَارٍ وَفَاخُورِيٍّ . هَبْ أَنَّهُ يَأْكُلُهُ حَبًّا مِنْ غَيْرِ عِلَاجٍ ، فَهُوَ أَيْضًا يَحْتَاجُ فِي تَحْصِيلِهِ حَبًّا إِلَى أَعْمَالٍ

أُخْرَى أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ ، مِنْ الزَّرَاعَةِ وَالْحَصَادِ وَالِدِّرَاسِ الَّذِي يُنْجِزُ
 الْحَبَّ مِنْ غِلَافِ السُّبُلِ . وَيَحْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ إِلَى آلَاتٍ
 مُتَعَدِّدَةٍ وَصَنَائِعَ كَثِيرَةٍ أَكْثَرَ مِنَ الْأُولَى بِكَثِيرٍ . وَيَسْتَحِيلُ أَنْ
 تَوْفَى بِذَلِكَ كُلُّهُ أَوْ بَبَعْضِهِ قُدْرَةُ الْوَاحِدِ . فَلَا بُدَّ مِنْ اجْتِمَاعِ الْقُدَرِ
 الْكَثِيرَةِ مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ لِيَحْصُلَ الْقَوْتُ لَهُ وَلَهُمْ ؛ فَيَحْصُلُ بِالتَّعَاوُنِ
 قُدْرُ الْكِفَايَةِ مِنَ الْحَاجَةِ لِأَكْثَرِ مِنْهُمْ بِأَضْعَافٍ . وَكَذَلِكَ يَحْتَاجُ
 كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَيْضاً فِي الدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِأَبْنَاءِ
 جَنْسِهِ . لِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمَّا رَكَّبَ الطَّبَاعَ فِي الْحَيَوَانَاتِ كُلِّهَا ، وَقَسَمَ
 الْقُدْرَ بَيْنَهَا جَعَلَ حُظُوظَ كَثِيرٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُعْجَمِ مِنَ الْقُدْرَةِ
 أَكْمَلَ مِنْ حَظِّ الْإِنْسَانِ ؛ فَقُدْرَةُ الْقَرَسِ مِثْلًا أَعْظَمُ بِكَثِيرٍ مِنْ
 قُدْرَةِ الْإِنْسَانِ وَكَذَا قُدْرَةُ الْحِمَارِ وَالْفُورِ ؛ وَقُدْرَةُ الْأَسَدِ وَالْفِيلِ
 أَضْعَافٌ مِنْ قُدْرَتِهِ . وَلَمَّا كَانَ الْمُدَوَانُ طَبِيعِيًّا فِي الْحَيَوَانِ جَعَلَ
 لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عُضْوًا يَخْتَصُّ بِمُدَاقَعَتِهِ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ عَادِيَةٍ
 غَيْرِهِ . وَجَعَلَ لِلْإِنْسَانِ عِوَضاً مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ الْفِكْرَ وَالْيَدَ . فَأَلْيَدُ
 مُهَيَّئَةٌ لِلصَّنَائِعِ بِخِدْمَةِ الْفِكْرِ ؛ وَالصَّنَائِعُ تُحْصِلُ لَهُ الْآلَاتِ الَّتِي
 تَنْوِبُ لَهُ عَنْ أَلْوَارِحِ الْمَعْدَةِ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ لِلدِّفَاعِ : مِثْلَ
 الرِّمَاحِ الَّتِي تَنْوِبُ عَنْ الْقُرُونِ النَاطِحَةِ ؛ وَالسُّيُوفِ النَّائِبَةِ عَنْ
 الْحَالِبِ الْجَارِحَةِ ، وَالتَّرَاسِ^(١) النَّائِبَةِ عَنْ الْبَشَرَاتِ الْجَالِسَةِ^(٢) ؛
 إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَهُ جَالِينُوسُ فِي كِتَابِ مَنَافِعِ الْأَعْضَاءِ .

(١) جمع ترس ، بضم التاء ، وهو ما يلبس على الجسم لاتقاء السهام والسيوف (قاموس).

(٢) بمعنى الصلبة.

فَالوَاحِدُ مِنَ الْبَشَرِ لَا تُقَاوِمُ قُدْرَتُهُ قُدْرَةَ وَاحِدٍ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُعْجَمِ سِوَا الْمُفْتَرَسَةِ ؛ فَهُوَ عَاجِزٌ عَنْ مُدَافَعَتِهَا وَتَحْدَهُ بِالْجَلَّةِ ؛ وَلَا تَفِي قُدْرَتُهُ أَيْضاً بِاسْتِثْمَالِ الْآلَاتِ الْمُدَّةِ لِلْمُدَافَعَةِ لِكَثْرَتِهَا وَكَثْرَةِ الصَّنَائِعِ وَالْمَوَاعِينِ الْمُدَّةِ لَهَا فَلَا بُدَّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ التَّعَاوُنِ عَلَيْهِ بِأَبْنَاءِ جَنْسِهِ . وَمَا لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّعَاوُنُ فَلَا يَحْصُلُ لَهُ قُوَّةٌ وَلَا غِذَاءٌ ، وَلَا تَتِمُّ حَيَاتُهُ ؛ لِمَا رَكَّبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْغِذَاءِ فِي حَيَاتِهِ ؛ وَلَا يَحْصُلُ لَهُ أَيْضاً دِفَاعٌ عَنْ نَفْسِهِ لِتَقْدَانِ السِّلَاحِ فَيَكُونُ فَرِيسَةً لِلْحَيَوَانَاتِ ، وَيُعَاجِلُهُ أَمَلَاكٌ عَنْ مَدَى حَيَاتِهِ ، وَيَبْطُلُ نَوْعُ الْبَشَرِ . وَإِذَا كَانَ التَّعَاوُنُ حَصَلَ لَهُ الْقُوَّةُ لِلْغِذَاءِ وَالسِّلَاحِ لِلْمُدَافَعَةِ ، وَتَمَّتْ حِكْمَةُ اللَّهِ فِي بَقَائِهِ وَحِفْظِ نَوْعِهِ . فَإِذَنْ هَذَا الْاجْتِمَاعُ ضَرُورِيٌّ لِلنَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ ؛ وَإِلَّا لَمْ يَكْمُلْ وُجُودُهُمْ وَمَا أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ اعْتِمَادِ الْعَالَمِ بِهِمْ وَاسْتِخْلَافِهِ إِيَّاهُمْ ؛ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْعُمُرَانِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ مَوْضُوعاً لِهَذَا الْعِلْمِ .

وَفِي هَذَا الْكَلَامِ نَوْعُ إِثْبَاتِ الْمَوْضُوعِ فِي فَنِّهِ الَّذِي هُوَ مَوْضُوعٌ لَهُ . وَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَاجِباً عَلَى صَاحِبِ الْفَنِّ ، لَمَا تَقَرَّرَ فِي الصِّنَاعَةِ الْمُنْطِقِيَّةِ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى صَاحِبِ عِلْمٍ إِثْبَاتُ الْمَوْضُوعِ فِي ذَلِكَ الْعِلْمِ ؛ فَلَيْسَ أَيْضاً مِنَ الْمُنْوَعاتِ عِنْدَهُمْ ؛ فَيَكُونُ إِثْبَاتُهُ مِنَ التَّبَرُّعَاتِ ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ بِفَضْلِهِ .

نَحْمُ إِنَّ هَذَا الْاجْتِمَاعَ إِذَا حَصَلَ لِلْبَشَرِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ وَتَمَّ عُمُرَانُ الْعَالَمِ بِهِمْ ، فَلَا بُدَّ مِنْ وَازِعٍ يَذْفَعُ بَعْضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ ؛ لِمَا فِي طَبَاعِهِمْ أَحْيَوَانِيَّةٌ مِنَ الْمُدَوَانِ وَالظُّلْمِ . وَلَيْسَتْ آلَةُ السِّلَاحِ الَّتِي

جَعَلَتْ دَافِعَةً لِعُدْوَانِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَنْهُمْ كَافِيَةً فِي دَفْعِ الْعُدْوَانِ عَنْهُمْ لِأَنَّهَا مَوْجُودَةٌ لِّجَمِيعِهِمْ . فَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ يَدْفَعُ عُدْوَانَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ . وَلَا يَكُونُ مِنْ غَيْرِهِمْ لِقُصُورِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ عَنْ مَدَارِكِهِمْ وَلِهَافَاتِهِمْ . فَيَكُونُ ذَلِكَ الْوَازِعُ وَاحِدًا مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُ عَلَيْهِمُ الْغَلْبَةُ وَالسُّلْطَانُ وَالْيَدُ الْقَاهِرَةُ ؛ حَتَّى لَا يَصِلَ أَحَدٌ إِلَى غَيْرِهِ يَبْعُدُونَ ؛ وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْمَلِكِ . وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ يَهَذَا أَنَّهُ خَاصَّةٌ لِلْإِنْسَانِ طَبِيعِيَّةٌ وَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْهَا . وَقَدْ يَوْجَدُ فِي بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الْحُكَمَاءُ كَمَا فِي النَّحْلِ وَالْجَرَادِ لَمَّا أُسْتَشْرِيَ فِيهَا مِنَ الْحُكْمِ وَالْإِنْقِيَادِ وَالْإِتِّبَاعِ لِرَأْسٍ مِنْ أَشْخَاصِهَا مُتَمَيِّزٌ عَنْهُمْ فِي خُلُقِهِ وَجُثَامِهِ ؛ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ لِغَيْرِ الْإِنْسَانِ يُقْتَضَى الْفِطْرَةَ وَالْهَدَايَةَ لَا يُقْتَضَى الْفِكْرَةَ وَالسِّيَاسَةَ : ﴿وَأَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ .

وَتَرِيدُ الْفَلَاسِفَةِ عَلَى هَذَا الْبُرْهَانِ حَيْثُ يُجَاحِلُونَ إِثْبَاتَ النُّبُوَّةِ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ ، وَأَنَّهَا خَاصَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ ، فَيَقَرُّونَ هَذَا الْبُرْهَانَ إِلَى غَايَتِهِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْبَشَرِ مِنَ الْحُكْمِ الْوَازِعِ ، ثُمَّ يَقُولُونَ بَعْدَ ذَلِكَ . وَذَلِكَ الْحُكْمُ يَكُونُ لِشَرْعٍ مَفْرُوضٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَأْتِي بِهِ وَاحِدٌ مِنَ الْبَشَرِ ؛ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَمَيِّزًا عَنْهُمْ بِمَا يُوَدِّعُ اللَّهُ فِيهِ مِنْ خَوَاصٍ هِدَايَتِهِ لِيَقَعَ التَّسْلِيمُ لَهُ وَالْقَبُولُ مِنْهُ ، حَتَّى يَتِمَّ الْحُكْمُ فِيهِمْ وَعَلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ وَلَا تَرْيِيفٍ . وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ لِلْحُكَمَاءِ غَيْرُ بُرْهَانِيَّةٍ كَمَا تَرَاهُ ؛ إِذِ الْوُجُودُ وَحَيَاةُ الْبَشَرِ قَدْ قَتِمَتْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ بِمَا يَفْرِضُهُ الْحَاكِمُ لِنَفْسِهِ ، أَوْ بِالنَّصِيَّةِ

التي يَمْتَدُّ بِهَا عَلَى قَهَرِهِمْ وَتَحْلِيهِمْ عَلَى جَادَتِهِ . فَأَهْلُ الْكِتَابِ
وَالْمُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ قَلِيلُونَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُجُوسِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ
فَلَا يُنْهَمُ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعَالَمِ ؛ وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَتْ لَهُمُ الدُّوَلُ وَالْأَتَادُ
فَضْلًا عَنِ الْحَيَاةِ ؛ وَكَذَلِكَ هِيَ لَهُمْ لِهَذَا الْمَهْدِ فِي الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرَفَةِ
فِي الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ . يَخْلَافُ حَيَاةَ الْبَشَرِ فَوْضَى دُونَ وَازِعٍ لَهُمُ
الْبَتَّةُ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ . وَبِهَذَا يَتَّبِعُونَ لَكَ غَلَطُهُمْ فِي وُجُوبِ النُّبُوءَاتِ وَأَنَّهُ
لَيْسَ بِعَمَلٍ وَإِنَّمَا مَذْرَكُهُ الشَّرْعُ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ مِنَ الْأُمَّةِ .
وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ وَالْهُدَايَةِ .

المقدمة الثانية

في قسط العوان من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار
والأنهار والأقاليم

إِغْلَمَ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ فِي كُتُبِ الْحُكَمَاءِ النَّاظِرِينَ فِي أَحْوَالِ الْعَالَمِ
أَنَّ شَكْلَ الْأَرْضِ كُرْوِيٌّ وَأَنَّهَا مَخْفُوفَةٌ بِعُنْصُرِ الْمَاءِ كَمَا أَنَّهَا عَيْنَةٌ
طَافِيَةٌ عَلَيْهِ . فَانْحَسَرَ الْمَاءُ عَنْ بَعْضِ جَوَانِبِهَا ، لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ
تَكْوِينِ الْحَيَوَانَاتِ فِيهَا وَنُحْرَانِهَا بِالنَّوْعِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي لَهُ الْخِلَافَةُ
عَلَى سَائِرِهَا . وَقَدْ يُتَوَهَّمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ ؛ وَلَيْسَ
بِصَحِيحٍ ؛ وَإِنَّمَا التَّحْتُ الطَّبِيعِيُّ قَلْبُ الْأَرْضِ وَوَسَطُ كُرَّتِهَا الَّذِي
هُوَ مَرْكَزُهَا ، وَالْكَُلُّ يَطْلُبُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الثَّقَلِ ؛ وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ
جَوَانِبِهَا . وَأَمَّا الْمَاءُ الْحَاطِطُ بِهَا فَهُوَ فَوْقَ الْأَرْضِ . وَإِنْ قِيلَ فِي
شَيْءٍ مِنْهَا إِنَّهُ تَحْتَ الْأَرْضِ فَبِالإِضَافَةِ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى مِنْهُ . وَأَمَّا
الَّذِي انْحَسَرَ عَنْهُ الْمَاءُ مِنَ الْأَرْضِ فَهُوَ النِّصْفُ مِنْ سَطْحِ كُرَّتِهَا
فِي شَكْلِ دَائِرَةٍ أَحَاطَ الْعُنْصُرُ الْمَائِيُّ بِهَا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا بَخْرًا
يُسَمَّى الْبَحْرَ الْحَاطِطَ ، وَيُسَمَّى أَيْضًا كِبَالِيَّةً بِتَفْخِيمِ اللَّامِ الثَّانِيَةِ ،

(١) ورد بالأصل في جميع النسخ وكذا في طبعتنا القديمة عن الأصل لمختلف النسخ
المطبوعة : الأشجار وهو تحريف . وفي النسخة الباريسية المخطوطة : البحار ، ولذلك أثبتناها هنا
هكذا . لأن البحث في هذه المقدمة مستفيض عن البحار ولا يكاد يكون للأشجار بها ذكر .

وَيُسَمَّى أَوْفْيَانُوسَ ، أَسْمُهُ أَعْجَبِيَّةٌ ، وَيُقَالُ لَهُ الْبَحْرُ الْأَخْضَرُ وَالْأَسْوَدُ .
ثُمَّ إِنَّ هَذَا الْمُنْكَشِفَ مِنَ الْأَرْضِ لِلْعُمَرَانِ فِيهِ الْقِفَادُ وَالْخَلَاهُ أَكْثَرُ
مِنْ عُمَرَانِهِ وَالْخَالِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ الشَّامِ ؛
وَأَمَّا الْمَعْمُورُ مِنْهُ قِطْعَةٌ أَمِيلُ إِلَى الْجَانِبِ الشَّامِيِّ عَلَى شَكْلِ مُسَطَّحٍ
كُرْوِيِّ يَنْتَهِي مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ إِلَى خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ ، وَمِنْ جِهَةِ
الشَّامِ إِلَى خَطِّ كُرْوِيِّ وَوَرَاءَهُ الْجِبَالُ الْفَاصِلَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَاءِ
الْمَنْصُرِيِّ الَّذِي بَيْنَهُمَا سَدٌّ يَأْجُوجُ وَمَآجُوجُ . وَهَذِهِ الْجِبَالُ مَائِلَةٌ
إِلَى جِهَةِ الْمَشْرِقِ . وَيَنْتَهِي مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِلَى غَضْرِ الْمَاءِ
أَيْضًا يَقْطَعَتَيْنِ مِنَ الدَّائِرَةِ الْحَيْطَةِ . وَهَذَا الْمُنْكَشِفُ مِنَ الْأَرْضِ
قَالُوا هُوَ مِقْدَارُ النِّصْفِ مِنَ الْكُرَّةِ أَوْ أَقْلُ ؛ وَالْمَعْمُورُ مِنْهُ مِقْدَارُ
رُبْعِهِ ؛ وَهُوَ الْمُنْقَسِمُ بِالْأَقَالِمِ السَّبْعَةِ . وَخَطُّ الْإِسْتِوَاءِ يَقْسِمُ
الْأَرْضَ بِنِصْفَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَهُوَ طَوْلُ الْأَرْضِ
وَأَكْبَرُ خَطِّ فِي كُرَّتِهَا ؛ كَمَا أَنَّ مِنْطَقَةَ فَلَكِ الْبُرُوجِ وَدَائِرَةَ مُعَدَّلِ
النَّهَارِ أَكْبَرُ خَطِّ فِي الْفَلَكَ . وَمِنْطَقَةُ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِثَلَاثَةِ
وَسِتِّينَ دَرَجَةٍ ، وَالدَّرَجَةُ مِنْ مَسَافَةِ الْأَرْضِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ فَرَسَخًا ،
وَالْفَرَسَخُ إِثْنَا عَشَرَ أَلْفَ ذِرَاعٍ فِي ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ ، لِأَنَّ الْمِيلَ
أَرْبَعَةُ أَلْفِ ذِرَاعٍ ، وَالذِّرَاعُ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ إصْبَعًا ، وَالْإِصْبَعُ سِتُّ
حَبَّاتِ شَعِيرٍ مَصْفُوفَةٍ مُلَصَّقَةٍ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ظَهْرًا لِبَطْنٍ . وَبَيْنَ
دَائِرَةِ مُعَدَّلِ النَّهَارِ الَّتِي تَقْسِمُ الْفَلَكَ بِنِصْفَيْنِ وَلُتْسَامِتُ خَطُّ
الْإِسْتِوَاءِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَبَيْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقُطْبَيْنِ تِسْعُونَ دَرَجَةً .
لَكِنَّ الْعِمَادَةَ فِي الْجِهَةِ الشَّامِيَّةِ مِنْ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ

دَرَجَةً وَالْبَاقِي مِنْهَا خَلَاءٌ لَا عِمَارَةَ فِيهِ لِشِدَّةِ الْبَرْدِ وَالْجُودِ، كَمَا كَانَتْ الْجِبَةُ الْجَنُوبِيَّةُ خَلَاءً كُلُّهَا لِشِدَّةِ الْحَرِّ كَمَا نُبَيِّنُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ثُمَّ إِنَّ الْخَبِيرِينَ عَنْ هَذَا الْمَعْمُورِ وَحُدُودِهِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَمْصَارِ وَالْمُدُنِ وَالْجِبَالِ وَالْإِجَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْقِفَارِ وَالرِّمَالِ مِثْلَ : بَطْلِيمُوسَ فِي كِتَابِ الْجُغَرَفِيَا ، وَصَاحِبِ كِتَابِ «رُوحِ الْجَارِ»^(١) مِنْ بَعْدِهِ ، قَسَمُوا هَذَا الْمَعْمُورَ بِسَبْعَةِ أَقْسَامٍ يُسَمُّونَهَا الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِحُدُودٍ وَنَهْمِيَّةٍ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مُتَسَاوِيَةً فِي الْعَرْضِ مُخْتَلِفَةً فِي الطُولِ ؛ فَالْأَقْلِيمُ الْأَوَّلُ أَطْوَلُ بِمَا بَعْدَهُ وَكَذَا الثَّانِي إِلَى آخِرِهَا ؛ فَيَكُونُ السَّابِعُ أَقْصَرَ لِمَا اقْتَضَاهُ وَضَعُ الدَّائِرَةِ النَّاشِئَةِ مِنَ انْحِسَارِ الْمَاءِ عَنْ كُرَّةِ الْأَرْضِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ عِنْدَهُمْ مُنْقَسِمٌ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ عَلَى التَّوَالِي . وَفِي كُلِّ جُزْءٍ الْخَبَرُ عَنْ أَحْوَالِهِ وَأَحْوَالِ عُثْرَانِهِ .

البحار

وَذَكَرُوا أَنَّ هَذَا الْبَحْرَ الْحَاطَّ يَخْرُجُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ فِي الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ الْبَحْرُ الرَّوْمِيُّ الْمَعْرُوفُ . وَيَبْدَأُ فِي خَلِيجِ مُتَضَائِقٍ فِي

(١) كتاب «روح الجار» أو «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» . ألفه الشريف الإدريسي للملك «روح الجار الثاني» ملك النرمان وصاحب صقلية ، وكان الإدريسي رَوَّادَةً طَافَ فِي بِلَادِ الرُّومِ وَالْيُونَانِ وَمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ وَفَرَنْسَا وَجَزِيرَةَ بَرِيطَانِيَا . دَعَاهُ الْمَلِكُ «رُوحِ الْجَارِ» إِلَى زِيَارَةِ صَقْلِيَّةِ فَرَسَمَ لَهُ مَا عَايَنَهُ مِنَ الْبِلَادِ عَلَى كُرَّةٍ مِنْ فِضَّةٍ (قَامُوسُ «الْمَنْجِد»).

عَرْضِ اثْنِي عَشَرَ مِيلًا أَوْ نَحْوَهَا مَا بَيْنَ طَنْجَةِ وَطَرِيفَ وَيُسَمَّى
الرُّقَاقُ ؛ ثُمَّ يَذْهَبُ مُشْرِقًا وَيَنْقَسِحُ إِلَى عَرْضِ سِتِّينَ مِيلًا .
وَنَهَائِيَّتُهُ فِي آخِرِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ عَلَى أَلْفِ فَرَسَخٍ
وَمِائَةِ وَسِتِّينَ فَرَسَخًا مِنْ مَبْدَئِهِ ؛ وَعَلَيْهِ هُنَالِكَ سَوَاحِلُ الشَّامِ .
وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ سَوَاحِلُ الْمَغْرِبِ ، أَوَّلُهَا طَنْجَةُ عِنْدَ الْخَلِيجِ ،
ثُمَّ إِفْرِيْقِيَّةُ^(١) ، ثُمَّ بَرْقَةُ إِلَى الْأِسْكََنْدَرِيَّةِ . وَمِنْ جِهَةِ الشَّامِ سَوَاحِلُ
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ عِنْدَ الْخَلِيجِ ، ثُمَّ الْبَنَادِقَةُ ، ثُمَّ رُومَةُ ، ثُمَّ الْإِفْرِيْقِيَّةُ
ثُمَّ الْأَنْدَلُسُ إِلَى طَرِيفَ عِنْدَ الرُّقَاقِ قُبَالَةَ طَنْجَةِ . وَيُسَمَّى هَذَا
الْبَحْرُ الرُّومِيُّ وَالشَّامِيُّ ؛ وَفِيهِ جُزُرٌ كَثِيرَةٌ عَاطِرَةٌ كِبَارٌ مِثْلُ أَقْرِيطَشَ
وَقَبْرُصَ وَصِقْلِيَّةَ وَمُيُورِقَةَ وَسِرْدَانِيَّةَ وَدَانِيَّةَ .

قَالُوا : وَيَخْرُجُ مِنْهُ فِي جِهَةِ الشَّامِ بَحْرَانِ آخَرَانِ مِنْ خَلِيجَيْنِ .
أَحَدُهُمَا مُسَامِتُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، يَبْدَأُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مُتَضَايِقًا فِي
عَرْضِ دَمِيَّةِ السَّهْمِ ، وَيَمُرُّ ثَلَاثَةَ بَحَارٍ : فَيَتَّصِلُ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ثُمَّ
يَنْقَسِحُ فِي عَرْضِ أَرْبَعَةِ أَمْيَالٍ ، وَيَمُرُّ فِي جَزِيرِهِ سِتِّينَ مِيلًا ، وَيُسَمَّى
خَلِيجَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ؛ ثُمَّ لِيَخْرُجُ مِنْ فُوهَةٍ عَرْضُهَا سِتَّةُ أَمْيَالٍ ، فَيُحْدِ
بَحْرَ نِيطِشَ ؛ وَهُوَ يَنْحَرِفُ مِنْ هُنَالِكَ فِي مَذْهَبِهِ إِلَى نَاحِيَةِ
الْشَّرْقِ فَيَمُرُّ بِأَرْضِ هِرَقْلِيَّةَ ، وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ الْخَزَرِيَّةِ عَلَى أَلْفِ
وِثْلِيَّةٍ مِيلٍ مِنْ فُوهَتِهِ ، وَعَلَيْهِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ أُمَّمٌ مِنَ الرُّومِ وَالتُّرْكِ
وَبُرْجَانِ وَالرُّوسِ . وَالْبَحْرُ الثَّانِي مِنْ خَلِيجِي هَذَا الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَهُوَ

(١) كانت تطلق في ذلك العهد على المغرب الأدنى، أي تونس وما إليها.

بِحُرِّ الْبَنَادِقَةِ^(١) يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ عَلَى سَمْتِ الشَّامِ ، فَإِذَا انْتَهَى إِلَى سَمْتِ الْجَبَلِ انْحَرَفَ فِي سَمْتِ الْمَغْرِبِ إِلَى بِلَادِ الْبَنَادِقَةِ ، وَيَنْتَهِي إِلَى بِلَادِ إِنْكِلَايَةِ عَلَى أَلْفٍ وَمِائَةِ مِيلٍ مِنْ مَبْدِئِهِ . وَعَلَى حَافَتِهِ مِنَ الْبَنَادِقَةِ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ أُمَمٌ ، وَيُسَمَّى خَلِيجَ الْبَنَادِقَةِ .

قالوا : وَيَنْسَاحُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْمُحِيطُ أَيْضاً مِنَ الشَّرْقِ وَعَلَى ثَلَاثَ عَشْرَةَ دَرَجَةً فِي الشَّامِ مِنْ خَطِّ الْاِسْتِوَاءِ بَحْرٌ عَظِيمٌ مُتَّسِعٌ يَمُرُّ إِلَى الْجَنُوبِ قَلِيلاً حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْاَقْلِيمِ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ يَمُرُّ فِيهِ مُغْرِباً إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَالزَّنْجِ ، وَإِلَى بِلَادِ بَابِ الْمُنْدَبِ مِنْهُ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافٍ فَرَسَخٍ وَخَمْسَمِائَةِ فَرَسَخٍ مِنْ مَبْدِئِهِ وَيُسَمَّى الْبَحْرَ الصِّينِيَّ وَالْهِنْدِيَّ وَالْحَبَشِيَّ^(٢) . وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ بِلَادُ الزَّنْجِ وَبِلَادُ بَرْبَرِ الْتِي ذَكَرَهَا أُمُرُ الْقَيْسِ فِي شِعْرِهِ ، وَلَيْسُوا مِنَ الْبَرْبَرِ الَّذِينَ هُمْ قَبَائِلُ الْمَغْرِبِ ، ثُمَّ بَلَدُ مَقْدَشُو ، ثُمَّ بَلَدُ سُفَالَةَ ، وَأَرْضُ الْوَاقِ وَاقٍ ، وَأُمَمٌ أُخْرَى لَيْسَ بَعْدَهُمْ إِلَّا الْقِفَارُ وَالْخَلَاءُ . وَعَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الشَّامِ الصِّينُ مِنْ عِنْدِ مَبْدِئِهِ ثُمَّ الْهِنْدُ ثُمَّ السِّنْدُ ، ثُمَّ سَوَاحِلُ الْيَمَنِ مِنَ الْأَحْقَافِ وَزَبِيدَ وَغَيْرِهَا ، ثُمَّ بِلَادُ الزَّنْجِ عِنْدَ نِهَائِهِ وَبَعْدَهُمْ الْحَبَشَةُ .

قالوا : وَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْحَبَشِيُّ بِحُرَانٍ آخِرَانِ أَحَدُهُمَا يَخْرُجُ مِنْ نِهَائِهِ عِنْدَ بَابِ الْمُنْدَبِ فَيَبْدَأُ مُتَضَايِقاً ، ثُمَّ يَمُرُّ مُسْتَبْجِراً

(١) هو بحر الأدرياتيك ، نسبة إلى شعوب البنادقة الذين توطنوا على سواحله ؛ ودعوا بنادقه نسبة إلى مدينة البندقية (فينيسيا) .

(٢) هو المحيط الهندي .

إلى ناحية الشمالِ ومُغْرَبًا قَلِيلًا إلى أَنْ يَنْتَهِيَ إلى مَدِينَةِ الْقُلْزُمِ في
الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي عَلَى أَلْفٍ وَأَرْبَعِينَ مِيلًا مِنْ مَبْدَأِهِ؛
وَيُسَمَّى بَحْرُ الْقُلْزُمِ وَبَحْرُ السُّوَيْسِ^(١) وَيَبْنِيهِ وَتَيْنَ فِسْطَاطٍ مِصْرَ مِنْ
هُنَا لِكَ ثَلَاثِ مَرَاجِلَ . وَعَلَيْهِ مِنْ يَحْتِجَةُ الشَّرْقِ سَوَاجِلُ الْيَمَنِ ثُمَّ
الْجِزَارُ وَجُدَّةٌ ، ثُمَّ مَدِينُ وَأَيْلَةُ وَفَارَانُ عِنْدَ نَهَائِهِ ؛ وَمِنْ يَحْتِجَةِ الْغَرْبِ
سَوَاجِلُ الصَّعِيدِ وَعَيْنَابُ وَسَوَاكِينُ وَزَيْلَعُ ، ثُمَّ بِلَادُ الْحَبَشَةِ عِنْدَ
مَبْدَأِهِ ، وَآخِرُهُ عِنْدَ الْقُلْزُمِ يُسَامِتُ الْبَحْرَ الرُّومِيَّ عِنْدَ الْعَرِيشِ وَيَتَنَهَّى
نَحْوُ سِتِّ مَرَاجِلَ . وَمَا زَالَ الْمُلُوكُ فِي الْإِسْلَامِ وَقَبْلَهُ يَرْمُونَ تَحْرُقَ
مَا يَتَنَهَّى وَلَمْ يَتِمَّ ذَلِكَ^(٢) . وَالْبَحْرُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ ،
وَيُسَمَّى الْخَلِيجُ الْأَخْضَرُ^(٣) ، يُخْرُجُ مَا بَيْنَ بِلَادِ السِّنْدِ وَالْأَحْقَافِ مِنْ
الْيَمَنِ وَيَرْتُ إِلَى نَاحِيَةِ الشَّامِ مُغْرَبًا قَلِيلًا إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْأَبْلَةِ
مِنْ سَوَاجِلِ الْبَصْرَةِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي عَلَى أَرْبَعِينَ
فَرَسَخًا وَأَرْبَعِينَ فَرَسَخًا مِنْ مَبْدَأِهِ وَيُسَمَّى بَحْرُ فَارِسَ . وَعَلَيْهِ مِنْ
يَحْتِجَةِ الشَّرْقِ سَوَاجِلُ السِّنْدِ وَمَكْرَانُ وَكِرْمَانُ وَفَارِسُ ، وَالْأَبْلَةُ عِنْدَ
نَهَائِهِ ؛ وَمِنْ يَحْتِجَةِ الْغَرْبِ سَوَاجِلُ الْبَحْرَيْنِ وَالْيَمَامَةِ وَعُمَانَ وَالشَّحْرِ ،
وَالْأَحْقَافُ عِنْدَ مَبْدَأِهِ . وَفِيمَا بَيْنَ بَحْرِ فَارِسَ وَالْقُلْزُمِ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ

(١) هو البحر الأحمر .

(٢) هنا شرح للدكتور علي عبد الواحد وافي ، في طبعة دار لجنة البيان العربي ، نقلها
بنصها : « تم ذلك بعد وفاة ابن خلدون بنحو أربعة قرون ونصف قرن عن طريق قناة السويس .
وكلام ابن خلدون يدل على أن توصيل هذين البحرين أحدهما بالآخر مشروع قديم فذكر فيه الملوك
في الإسلام ومن قبل الإسلام . وفي الحق أن تاريخه يبدأ من العهد الفرعوني نفسه ويقال إن أول
ملك من الفراعنة فكر في حفر القناة هو سنوسرت الثالث الذي يفكر أولياء الأمور في مصر الآن في
إقامة تمثال له في بور سعيد .

(٣) هو الخليج الفارسي .

كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ يُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ الْحَبَشِيُّ مِنَ الْجَنُوبِ
وَبَحْرُ الْقَلْزُومِ مِنَ الْغَرْبِ ، وَبَحْرُ فَارِسَ مِنَ الشَّرْقِ ؛ وَتُفْضِي إِلَى الْعِرَاقِ
فَمَا بَيْنَ الشَّامِ وَالْبَصْرَةِ عَلَى أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ مِيلٍ بَيْنَهُمَا . وَهُنَاكَ
الْكُوفَةُ وَالْقَادِيسِيَّةُ وَبَغْدَادُ وَإِيوَانُ كِسْرَى وَالْحِيرَةُ . وَوَرَاءَ ذَلِكَ
أُمُّ الْأَعَاجِمِ مِنَ التُّرْكِ وَالْخَزَرِ وَغَيْرِهِمْ . وَفِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ
بِلَادُ الْحِجَازِ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ مِنْهَا ، وَبِلَادُ الْيَمَامَةِ وَالْبَحْرَيْنِ وَعُومَانُ
جِهَةِ الشَّرْقِ مِنْهَا ، وَبِلَادُ الْيَمَنِ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ مِنْهَا ، وَسَوَاحِلُهُ
عَلَى الْبَحْرِ الْحَبَشِيِّ .

قَالُوا : وَفِي هَذَا الْمَعْمُورِ بَحْرٌ آخَرُ مُنْقَطِعٌ مِنْ سَائِرِ الْبِحَارِ
فِي نَاحِيَةِ الشَّامِ بِأَرْضِ الدَّيْلَمِ يُسَمَّى بَحْرُ جُرْجَانَ وَطَبْرِسْتَانَ ،
طَوْلُهُ أَلْفُ مِيلٍ فِي عَرْضِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ فِي غَرْبِيَّةِ أَدْرَبِجَانُ
وَالدَّيْلَمِ ، وَفِي شَرْقِيَّةِ أَرْضِ التُّرْكِ وَخَوَارِزْمَ ، وَفِي جَنُوبِيَّةِ
طَبْرِسْتَانَ ، وَفِي شَمَالِيَّةِ أَرْضِ الْخَزَرِ وَاللَّانِ .
هَذِهِ بُحْلَةُ الْبِحَارِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجُغَرَفِيَا .

الأنهار

قَالُوا : وَفِي هَذَا الْجُزْءِ الْمَعْمُورِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ أَكْثَرُهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ
وَهِيَ النِّيلُ وَالْفُرَاتُ وَدِجْلَةُ وَنَهْرُ بَلْخَ الْمَسْمُومِ جِيحُونَ .
فَأَمَّا النِّيلُ فَبَدْوُهُ مِنْ جَبَلٍ عَظِيمٍ وَرَاءَ خَطِّ الْأَنْسْتَوَاءِ يَسْتَبِقُ
عَشْرَةَ دَرَجَةٍ عَلَى سَمْتِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَيُسَمَّى

جَبَلَ الْقُمْرِ ، وَلَا يُعْلَمُ فِي الْأَرْضِ جَبَلٌ أَعْلَى مِنْهُ تَخْرُجُ مِنْهُ عُيُونٌ
كَثِيرَةٌ فَيَصُبُّ بَعْضُهَا فِي بُحَيْرَةٍ هُنَاكَ ، وَبَعْضُهَا فِي أُخْرَى ، ثُمَّ تَخْرُجُ
أَنْهَارٌ مِنَ الْبُحَيْرَتَيْنِ ، فَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي بُحَيْرَةٍ وَاحِدَةٍ عِنْدَ خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ
عَلَى عَشْرِ مَرَاحِلَ مِنَ الْجَبَلِ . وَتَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ نَهْرَانِ .
يَذْهَبُ أَحَدُهُمَا إِلَى نَاحِيَةِ الشَّالِ عَلَى سَمِيهِ ، وَيَتَرَّى بِلَادِ النُّوبَةِ ثُمَّ
بِلَادِ مِصْرَ ، فَإِذَا جَاوَزَهَا تَشَعَّبَ فِي شُعَبٍ مُتَقَارِبَةٍ يُسَمَّى كُلُّ وَاحِدٍ
مِنْهَا خَلِيجًا ، وَتَصُبُّ كُلُّهَا فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ عِنْدَ الْأِسْكََنْدَرِيَّةِ ،
وَيُسَمَّى نَيْلَ مِصْرَ ، وَعَلَيْهِ الصَّعِيدُ مِنْ شَرْقِيهِ ، وَالْوَاهَاتُ مِنْ
غَرْبِيهِ . وَيَذْهَبُ الْآخَرُ مُنْعَطِفًا إِلَى الْغَرْبِ ، ثُمَّ يَرُى عَلَى سَمِيهِ إِلَى
أَنْ يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الْهَيْطِ وَهُوَ نَهْرُ السُّودَانِ وَأَمْتُهُمْ كُلُّهُمْ عَلَى
صِفَّتِيهِ .

وَأَمَّا الْفُرَاتُ فَبَدْوُهُ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةٍ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ
الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ ، وَيَتَرَّى جَنُوبًا فِي أَرْضِ الرُّومِ وَمَطْلَعُهُ إِلَى مَنِيَجَ
ثُمَّ يَرُى يَصِيقِينَ ثُمَّ بِالرَّقَّةِ ، ثُمَّ بِالْكُوفَةِ إِلَى أَنْ يَلْتَقِيَ إِلَى الْبَطْحَاءِ الَّتِي
بَيْنَ الْبَصْرَةِ وَوَايِسَ ، وَمِنْ هُنَاكَ يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْخَبَشِيِّ ،
وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ فِي طَرِيقِهِ أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ وَتَخْرُجُ مِنْهُ أَنْهَارٌ أُخْرَى
تَصُبُّ فِي دِجْلَةَ .

وَأَمَّا دِجْلَةُ فَبَدْوُهُ عَيْنُ بِلَادِ خِلَاطٍ مِنْ أَرْمِينِيَّةٍ أَيْضًا ، وَتَمُرُّ
عَلَى سَمَتِ الْجَنُوبِ بِالْمُوصِلِ وَأَذْرَبِيجَانَ وَبَغْدَادَ إِلَى وَايِسَ ،
فَتَفَرَّقُ إِلَى خُلْجَانٍ كُلُّهَا تَصُبُّ فِي بُحَيْرَةِ الْبَصْرَةِ ، وَتُنْقِضِي إِلَى
بَحْرِ فَارِسَ ، وَهُوَ فِي الشَّرْقِ عَلَى يَمَنِ الْفُرَاتِ . وَتَنْجَلِبُ إِلَيْهِ أَنْهَارٌ

كثيرة عظيمة من كل جانب . وفيما بين الفرات ودجلة من أوله جزيرة الموصل قبالة الشام من غدوتي الفرات ، وقبالة أذربيجان من غدوة دجلة .

وأما نهر جیحون فنبوده من بلخ في الجزء الثامن من الأقليم الثالث من عيون هناك كثيرة ؛ وتنحلب إليه أنهار عظام ، ويتذهب من الجنوب إلى الشمال فيمر ببلاد خراسان ؛ ثم يخرج منها إلى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الأقليم الخامس ؛ فيصب في بحيرة البرجانية التي بأسفل مدينتها ، وهي مسيرة شهر في مثله ، وإليها ينصب نهر فرغانة والشاش الآتي من بلاد الترك . وعلى غربي نهر جیحون بلاد خراسان وخوارزم ، وعلى شرقيها بلاد بخارى ورمذ وسمرقند ؛ ومن هناك إلى ما وراءه بلاد الترك وفرغانة والخزرجية وأهم الأعاجم .

وقد ذكر ذلك كله بطليموس في كتابه والشريف في كتاب « روجار » ، وصوّروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والأودية ، واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله ، ولأن عنايتنا في الأكثر إنما هي بالغرب الذي هو وطن البربر وبالأوطان التي للغرب من المشرق^(١) والله الموفق .

(١) كان من الواجب حذف هذه الجملة بعد أن استوفى البحث عن جميع أقطار المعمور التي كانت معروفة في ذلك العهد ؛ ولكنه غفل عن محوها فظلت مثبتة في جميع النسخ .

تكملة لهذه المقدمة الثانية

ففي ان الربع الشمالي من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبي
وذكر السبب في ذلك

ونحن نرى بالمشاهدة والأخبار المتواترة أن الأول والثاني من
الأقاليم المعمورة أقل عمراناً مما بعدهما، وما وجد من عمرانٍ فيتحلله
الخلا، والقفار والرمال، والبحر الهندي الذي في الشرق منهما .
وأهم هاتين الإقليمين وأناسيتهما ليست لهم الكثرة الباقية، وأمصاره
ومدنه كذلك . والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك . فالقفار
فيها قليلة، والرمال كذلك أو ممدومة، وأممها وأناسيتها تجوز الحد
من الكثرة، وأمصارها ومدنها تجاوز الحد عدداً، والممران فيها
مندرج ما بين الثالث والسادس، والجنوب خلا، كله، وقد ذكر
كثير من الحكماء أن ذلك لإفراط الحر وقلة ميل الشمس فيها
عن سمت الرأس . فلنوضح ذلك بيزهايه، ليتبين منه سبب
كثرة المادة فيما بين الثالث والرابع من جانب الشمال إلى الخامس
والسابع فنقول :

إن قطبي الفلك الجنوبي والشمالي إذا كانا على الأفق، فهناك
دائرة عظيمة تقسم الفلك ينصفين هي أعظم الدوائر المارة من

الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَتُسَمَّى دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ . وَقَدْ تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مِنْ أَهْمِيَّةِ أَنَّ الْفَلَكَ الْأَعْلَى مُتَحَرِّكٌ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ حَرَكَةً يَوْمِيَّةً يُحَرِّكُ بِهَا سَائِرَ الْأَفلاكِ الَّتِي فِي جَوْفِهِ قَهْرًا ، وَهَذِهِ الْحَرَكَةُ مُحَسَّوَسَةٌ . وَكَذَلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ لِلْكَوَائِبِ فِي أَفلاكِهَا حَرَكَةً مُخَالَفَةً لِهَذِهِ الْحَرَكَةِ وَهِيَ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَتُخْتَلِفُ آمَادُهَا بِاخْتِلَافِ حَرَكَةِ الْكَوَائِبِ فِي السَّرْعَةِ وَالْبُطْءِ . وَمَمَرَاتُ هَذِهِ الْكَوَائِبِ فِي أَفلاكِهَا تُوَازِيهَا كُلُّهَا دَائِرَةُ عَظِيمَةٌ مِنَ الْفَلَكَ الْأَعْلَى تُسَمُّهُ يَنْصَفَيْنِ ، وَهِيَ دَائِرَةُ فَلَكِ الْبُرُوجِ مُنْقَسِمَةٌ بِإِثْنَيْ عَشَرَ بُرْجًا ، وَهِيَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ مُقَاطِعَةٌ لِدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ عَلَى نُقْطَتَيْنِ مُتَقَابِلَتَيْنِ مِنَ الْبُرُوجِ ، هُمَا أَوَّلُ الْحَمَلِ وَأَوَّلُ الْمِيزَانِ ، فَتَقْسِمُهَا دَائِرَةُ مُعَدِّلِ النَّهَارِ بَيْنَ صَفَيْنِ : نِصْفٍ مَائِلٍ عَنْ مُعَدِّلِ النَّهَارِ إِلَى الشِّمَالِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْحَمَلِ إِلَى آخِرِ السُّنْبُلَةِ ؛ وَنِصْفٍ مَائِلٍ عَنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ وَهُوَ مِنْ أَوَّلِ الْمِيزَانِ إِلَى آخِرِ الْحَوْتِ . وَإِذَا وَقَعَ الْفُطْبَانِ عَلَى الْأَفُقِ فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْأَرْضِ كَانَ عَلَى سَطْحِ الْأَرْضِ خَطٌّ وَاحِدٌ يُسَمَّى دَائِرَةَ مُعَدِّلِ النَّهَارِ ، يُرَى مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَيُسَمَّى خَطُّ الْأَسْتِوَاءِ . وَوَقَعَ هَذَا الْخَطُّ بِالرَّصْدِ عَلَى مَا زَعَمُوا فِي مَبْدَأِ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ مِنَ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ ، وَالْعُمُرَانُ كُلُّهُ فِي الْجِهَةِ الشَّمَالِيَّةِ عَنْهُ . وَالْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ يَزْتَقِعُ عَنْ آفَاقِ هَذَا الْعُمُورِ بِالتَّدرِجِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ ارْتِفَاعُهُ إِلَى أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ دَرَجَةً ؛ وَهَذَا يَنْقَطِعُ الْعُمُرَانُ وَهُوَ آخِرُ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ . وَإِذَا ارْتَفَعَ عَلَى الْأَفُقِ تِسْعِينَ دَرَجَةً وَهِيَ الَّتِي بَيْنَ الْقُطْبِ وَدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ صَارَ الْقُطْبُ عَلَى سَمْتِ

الرؤوسِ وصارت دائرة مُمدّلة النهارِ على الأفقِ ، وَبَقِيَتْ سِتَّةُ مِنْ
 الْبُرُوجِ فَوْقَ الْأُفُقِ وَهِيَ الشَّمَالِيَّةُ وَسِتَّةُ تَحْتَ الْأُفُقِ وَهِيَ
 الْجَنُوبِيَّةُ . وَالْمَادَّةُ فِيمَا بَيْنَ الْأُزْبَعَةِ وَالسِّتِينَ إِلَى التِّسْعِينَ مُنْتَبِعَةٌ ،
 لِأَنَّ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ حِينَئِذٍ لَا يَخْصُلَانِ مُنْتَزَجِينَ لِبُعْدِ الزَّمَانِ بَيْنَهُمَا ، فَلَا
 يَخْصُلُ التَّكْوِينُ . فَإِذَا الشَّمْسُ تَسَامَتْ الرُّؤُوسَ عَلَى خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ
 فِي رَأْسِ السَّرَطَانِ وَالْمِيزَانِ ، ثُمَّ تَمِيلُ عَنِ الْمَسَامَةِ إِلَى رَأْسِ السَّرَطَانِ
 وَرَأْسِ الْجُذْيِ ، وَيَكُونُ نِهَائِيُّ مِيلِهَا عَنِ دَائِرَةِ مُدَدِّ النَّهَارِ
 أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً . ثُمَّ إِذَا أَرْتَفَعَ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ عَنِ الْأُفُقِ
 مَالَتْ دَائِرَةُ مُدَدِّ النَّهَارِ عَنِ سَمْتِ الرُّؤُوسِ بِمِقْدَارِ أَرْتِفَاعِهِ ،
 وَانْخَفَضَ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ كَذَلِكَ بِمِقْدَارِ مُتَسَاوٍ فِي الثَّلَاثَةِ ، وَهُوَ
 الْمُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ الْمَوَاقِيتِ عَرْضَ الْبَلَدِ . وَإِذَا مَالَتْ دَائِرَةُ مُدَدِّ
 النَّهَارِ عَنِ سَمْتِ الرُّؤُوسِ عَلَتْ عَلَيْهَا الْبُرُوجُ الشَّمَالِيَّةُ مُنْدَرِجَةً فِي
 مِقْدَارِ عُلوِّهَا إِلَى رَأْسِ السَّرَطَانِ ، وَانْخَفَضَتِ الْبُرُوجُ الْجَنُوبِيَّةُ مِنَ الْأُفُقِ
 كَذَلِكَ إِلَى رَأْسِ الْجُذْيِ لِانْجِرَافِهَا إِلَى الْجَانِبَيْنِ فِي أَفُقِ الْإِسْتِوَاءِ
 كَمَا قُلْنَا . فَلَا يَزَالُ الْأُفُقُ الشَّمَالِيُّ يَرْتَفِعُ حَتَّى يَصِيرَ أَبْعَدَ الشَّمَالِيَّةِ
 وَهُوَ رَأْسُ السَّرَطَانِ فِي سَمْتِ الرُّؤُوسِ ، وَذَلِكَ حَيْثُ يَكُونُ عَرْضُ
 الْبَلَدِ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ فِي الْجَزَائِرِ وَمَا يَلِيهِ . وَهَذَا هُوَ الْمِيلُ الَّذِي
 إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرَطَانِ عَنِ مُدَدِّ النَّهَارِ فِي أَفُقِ الْإِسْتِوَاءِ أَرْتَفَعَ
 بِأَرْتِفَاعِ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ حَتَّى صَارَ مُسَامَةً . فَإِذَا أَرْتَفَعَ الْقُطْبُ أَكْثَرَ
 مِنْ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ تَرَكَّتِ الشَّمْسُ عَنِ الْمَسَامَةِ ، وَلَا تَرَالُ فِي
 الْخِفَاضِ إِلَى أَنْ يَكُونَ أَرْتِفَاعُ الْقُطْبِ أَرْبَعًا وَسِتِينَ ، وَيَكُونُ

أَنْخِفَاضُ الشَّمْسِ عَنِ الْمُسَامَتَةِ كَذَلِكَ وَأَنْخِفَاضُ الْقُطْبِ الْجَنُوبِيِّ
عَنِ الْأَفْقِ مِثْلُهَا؛ فَيَنْقَطِعُ التَّكْوِينُ لِإِفْرَاطِ الْبَرْدِ وَالتَّجْدِ، وَطُولِ
زَمَانِهِ غَيْرَ مَمْتَرَجٍ بِالْحَرِّ. ثُمَّ إِنَّ الشَّمْسَ عِنْدَ الْمُسَامَتَةِ وَمَا يُقَارِبُهَا
تَبَعَتْ الْأَشِعَّةُ عَلَى الْأَرْضِ عَلَى زَوَايا قَائِمَةٍ؛ وَفِيهَا دُونَ الْمُسَامَتَةِ عَلَى
زَوَايا مُنْفَرَجَةٍ وَحَادَّةٍ. وَإِذَا كَانَتْ زَوَايا الْأَشِعَّةِ قَائِمَةً عَظُمَ الضَّوْءُ
وَانْتَشَرَ بِخِلَافِهِ فِي الْمُنْفَرَجَةِ وَالْحَادَّةِ. فَلِهَذَا يَكُونُ الْحَرُّ عِنْدَ الْمُسَامَتَةِ
وَمَا يُقَرِّبُ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ فِيهَا بَعْدَ؛ لِأَنَّ الضَّوْءَ سَبَبُ الْحَرِّ وَالتَّسْخِينِ.
ثُمَّ إِنَّ الْمُسَامَتَةَ فِي خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ تَكُونُ مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَةِ عِنْدَ نُقْطَتَيْ
الْحُلَلِ وَالْمِيزَانِ؛ وَإِذَا مَالَتْ فَتَقْتَرِبَ بَعِيدٌ. وَلَا يَكَادُ الْحَرُّ يَتَعَدَّلُ فِي
آخِرِ مِيلِهَا عِنْدَ رَأْسِ السَّرْطَانِ وَالْجَدْيِ إِلَّا إِنْ صَعِدَتْ إِلَى الْمُسَامَتَةِ،
فَتَبْقَى الْأَشِعَّةُ الْقَائِمَةُ الزَّوَايا تُلَحُّ عَلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ، وَيَطُولُ مَكَثُهَا
أَوْ يَدُومُ، فَيَشْتَعِلُ الْهَوَاءُ حَرَارَةً، وَيُفْرِطُ فِي شِدَّتِهَا. وَكَذَا مَا
دَامَتْ الشَّمْسُ تُسَامِتُ مَرَّتَيْنِ فِيهَا بَعْدَ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ إِلَى عَرْضِ
أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ، فَإِنَّ الْأَشِعَّةَ مُلَحَّةٌ عَلَى الْأَفْقِ فِي ذَلِكَ بِقَرِيبٍ مِنْ
إِلْحَاقِهَا فِي خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ وَإِفْرَاطِ الْحَرِّ يَفْعَلُ فِي الْهَوَاءِ تَجْفِيفًا وَيَنْسَأً
يَمْنَعُ مِنَ التَّكْوِينِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا أَفْرَطَ الْحَرُّ جَفَّتِ الْمِيَاهُ وَالرُّطُوبَاتُ وَفَسَدَ
التَّكْوِينُ فِي الْمَعْدِنِ وَالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ؛ إِذِ التَّكْوِينُ لَا يَكُونُ إِلَّا
بِالرُّطُوبَةِ. ثُمَّ إِذَا مَالَ رَأْسُ السَّرْطَانِ عَنْ سَمْتِ الرُّؤُوسِ فِي عَرْضِ
خَمْسٍ وَعِشْرِينَ، فَمَا بَعْدَهُ تَزَلَّتِ الشَّمْسُ عَنِ الْمُسَامَتَةِ فَيَصِيرُ الْحَرُّ إِلَى
الْإِعْتِدَالِ أَوْ يَمِيلُ عَنْهُ مَيْلًا قَلِيلًا، فَيَكُونُ التَّكْوِينُ، وَيَتَزَايَدُ عَلَى
التَّذْرِيجِ إِلَى أَنْ يُفْرِطَ الْبَرْدُ فِي شِدَّتِهِ لِقَلَّةِ الضَّوْءِ، وَكَوْنِ الْأَشِعَّةِ

مُنْفَرَجَةً الزَّوَايا فَيَنْقُصُ التَّكْوِينُ وَيَفْسُدُ. إِلَّا أَنْ فَسَادَ التَّكْوِينِ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْحَرِّ أَعْظَمُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ شِدَّةِ الْبَرْدِ ؛ لِأَنَّ الْحَرَّ أَسْرَعُ تَأْثِيرًا فِي التَّجْفِيفِ مِنْ تَأْثِيرِ الْبَرْدِ فِي الْجَلْدِ . فَلِذَلِكَ كَانَ الْعُمُرَانُ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي قَلِيلًا ؛ وَفِي الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مُتَوَسِّطًا لِاعْتِدَالِ الْحَرِّ بِنُقْصَانِ الضَّوْءِ ؛ وَفِي السَّادِسِ وَالسَّابِعِ كَثِيرًا لِنُقْصَانِ الْحَرِّ ، وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ الْبَرْدِ لَا تُؤَثِّرُ عِنْدَ أَوَّلِهَا فِي فَسَادِ التَّكْوِينِ كَمَا يَقَعُ الْحَرُّ ؛ إِذْ لَا تَجْفِيفَ فِيهَا إِلَّا عِنْدَ الْإِفْرَاطِ بِمَا يَغْرِضُ لَهَا حِينَئِذٍ مِنَ الْيَبْسِ كَمَا بَعْدَ السَّابِعِ . فَلِهَذَا كَانَ الْعُمُرَانُ فِي الرَّبْعِ الشَّمَالِيِّ أَكْثَرَ وَأَوْفَرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَمِنْ هُنَا أَخَذَ الْمَلِكُ تَحْلَاءَ خَطَّ الْأَسْتِوَاءِ وَمَا وَرَاءَهُ . وَأُورِدَ^(١) عَلَيْهِمْ أَنَّهُ مَعْمُورٌ بِالشَّاهِدَةِ وَالْأَخْبَارِ التَّوَاتُرَةِ . فَكَيْفَ يَتِمُّ الْبُرْهَانُ عَلَى ذَلِكَ ؟ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا امْتِنَاعَ الْعُمُرَانِ فِيهِ بِالْكُلِّيَّةِ ؛ إِنَّمَا أَذَاهُمُ الْبُرْهَانُ إِلَى أَنَّ فَسَادَ التَّكْوِينِ فِيهِ قَوِيٌّ بِإِفْرَاطِ الْحَرِّ ، وَالْعُمُرَانُ فِيهِ إِمَّا مُنْتَبِعٌ أَوْ مُمَكِّنٌ أَقْلِيٌّ . وَهُوَ كَذَلِكَ ؛ فَإِنَّ خَطَّ الْأَسْتِوَاءِ وَالَّذِي وَرَاءَهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ عُمُرَانٌ كَمَا يُقَالُ فَهُوَ قَلِيلٌ جِدًّا . وَقَدْ زَعَمَ ابْنُ رُشْدٍ أَنَّ خَطَّ الْأَسْتِوَاءِ مُمْتَلِئٌ وَأَنَّ مَا وَرَاءَهُ فِي الْجَنُوبِ ، بِمِثَابَةِ مَا وَرَاءَهُ فِي الشَّمَالِ فَيَعْمُرُ مِنْهُ مَا تَعَمَّرَ مِنْ هَذَا . وَالَّذِي قَالَهُ غَيْرُ مُنْتَبِعٍ مِنْ جِهَةِ فَسَادِ التَّكْوِينِ ؛ وَإِنَّمَا امْتَنَعَ فِيهَا وَرَاءَ خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ فِي الْجَنُوبِ

(١) أورد عليه الخبر: قصه (قاموس).

من جهة أن المنصر المائي غمر وجه الأرض هنالك إلى الحد الذي كان مُقابله من الجهة الشمالية قابلاً للتكوين^(١)؛ ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه؛ لأن العمران مُتدرجٌ ويأخذ في التدرج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع. وأما القول بامتناعه في خط الاستواء فيردّه النقل المتواتر والله أعلم.

ولنرسم بعد هذا الكلام صورة الجغرافيا كما رسمها صاحب كتاب روجار ثم نأخذ في تفصيل الكلام عليها... الخ.

(١) جاء كشف استراليا وأمريكا والقسم الواقع جنوب خط الاستواء من افريقيا مؤيداً لرأي ابن رشد، ومبيناً فساد ما كان يعتقد حينئذ من قلة العمران جنوب خط الاستواء. (نقلاً عن «طبعة لجنة البيان العربي»).

تفصيل الكلام على بدو الجغرافيا

إعلم أن الحكماء قَسَمُوا هذا المَعمورَ كما تقدّم ذكره على سَبْعَةِ أَقْسامٍ مِنَ الشَّمالِ إِلَى الجَنُوبِ ، يُسمَوْنَ كُلَّ قِسْمٍ مِنْهَا إِقْلِيماً . فَانْتَسَمَ المَعمورُ مِنَ الأَرْضِ كُلُّهُ عَلَى هَذِهِ السَّبْعَةِ الأَقَالِيمِ ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا آخِذٌ مِنَ القُرْبِ إِلَى الشَّرْقِ عَلَى طَوِيلِهِ . فَالْأَوَّلُ مِنْهَا مَادُّ مِنَ المَغْرِبِ إِلَى المَشْرِقِ مَعَ خَطِّ الأَنْسِتِواءِ بِحَدِّهِ مِنْ جِهَةِ الجَنُوبِ ، وَلَيْسَ وَرَاءَهُ هُنَاكَ إِلَّا القِفَارُ وَالرِّمَالُ وَبَعْضُ عِمَارَةٍ إِنْ صَحَّتْ فِيهَا كَلَامُ عِمَارَةٍ . وَيَلِيهِ مِنْ جِهَةِ شِمَالِيهِ الأَقْلِيمُ الثَّانِي ثُمَّ الثَّالِثُ كَذَلِكَ ثُمَّ الرَّابِعُ وَالْخَامِسُ وَالسَّادِسُ وَالسَّابِعُ وَهُوَ آخِرُ المُرَانِ مِنْ جِهَةِ الشَّمالِ . وَلَيْسَ وَرَاءَ السَّابِعِ إِلَّا الخَلَاءُ والقِفَارُ ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى البَحْرِ الحَيطِ ؛ كَالْخَالِ فِيهَا وَرَاءَ الأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ فِي جِهَةِ الجَنُوبِ . إِلَّا أَنْ الخَلَاءَ فِي جِهَةِ الشَّمالِ أَقَلُّ يَكْثِيرُ مِنَ الخَلَاءِ الَّذِي فِي جِهَةِ الجَنُوبِ . ثُمَّ إِنَّ أَزِمَّةَ اللَّيْلِ والنَّهَارِ تَتَفَاوَتُ فِي هَذِهِ الأَقَالِيمِ بِسَبَبِ مِيلِ الشَّمْسِ عَنْ دَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ وَأَرْتِفَاعِ المُطَبِّ الشَّمَالِيِّ عَنْ آفَاقِهَا . فَيَتَفَاوَتُ قَوْسُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ لِذَلِكَ . وَيَنْتَهِي طَوْلُ اللَّيْلِ والنَّهَارِ فِي آخِرِ الأَقَالِيمِ الْأَوَّلِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّمْسِ بِرَأْسِ الْجَزْدِيِّ لِلَّيْلِ وَبِرَأْسِ السَّرَطَانِ

لِلنَّهَارِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَاعَةً . وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ
الْإِقْلِيمِ الثَّانِي يَمَّا يَلِي الشَّمَالَ ؛ فَيَنْتَهِي طَوْلُ النَّهَارِ فِيهِ عِنْدَ حُلُولِ
الشَّمْسِ بِرَأْسِ السَّرَطَانِ وَهُوَ مُنْقَلِبُهَا الصَّيْفِيُّ إِلَى ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَاعَةً
وَنِصْفِ سَاعَةٍ . وَمِثْلُهُ أَطْوَلُ اللَّيْلِ عِنْدَ مُنْقَلِبِهَا الشَّتَوِيِّ بِرَأْسِ
الْجُذْيِ . وَيَبْقَى لِلْأَقْصَرِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مَا يَبْقَى بَعْدَ الثَّلَاثِ
عَشْرَةَ وَنِصْفٍ مِنْ جُمْلَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ السَّاعَاتِ الزَّمَانِيَّةِ لِجَمْعِ
اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَهِيَ دَوْرَةُ الْفَلَكَ الْكَامِلَةِ . وَكَذَلِكَ فِي آخِرِ
الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ يَمَّا يَلِي الشَّمَالَ أَيْضًا يَنْتَهِيَانِ إِلَى أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَاعَةً ؛
وَفِي آخِرِ الرَّابِعِ إِلَى أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفِ سَاعَةٍ ؛ وَفِي آخِرِ
الْخَامِسِ إِلَى خَمْسَ عَشْرَةَ سَاعَةً ؛ وَفِي آخِرِ السَّادِسِ إِلَى خَمْسِ
عَشْرَةَ سَاعَةً وَنِصْفٍ ؛ وَفِي آخِرِ السَّابِعِ إِلَى سِتِّ عَشْرَةَ سَاعَةً ؛
وَهُنَاكَ يَنْقَطِعُ الْعُمُرَانُ فَيَكُونُ تَفَاوُتُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ فِي الْأَطْوَلِ
مِنْ لَيْلِهَا وَنَهَارِهَا بِنِصْفِ سَاعَةٍ لِكُلِّ إِقْلِيمٍ ، يَتَزَايَدُ مِنْ أَوَّلِهِ
فِي نَاحِيَةِ الْخُضْبِ إِلَى آخِرِهِ فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالَ ، مُورَّعَةً عَلَى أَجْزَاءِ
هَذَا الْبُعْدِ . وَأَمَّا عَرْضُ الْبُلْدَانِ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ
بُعْدِ مَا بَيْنَ سَمْتِ رَأْسِ الْبَلَدِ وَدَائِرَةِ مُعَدِّلِ النَّهَارِ الَّذِي هُوَ سَمْتُ
رَأْسِ خَطِّ الْأَسْتِوَاءِ ، وَمِثْلُهُ سَوَاءٌ يَنْخَفِضُ الْقُطْبُ الْجَنُوبِيُّ عَنْ
أَفْقِ ذَلِكَ الْبَلَدِ . يَرْتَفِعُ الْقُطْبُ الشَّمَالِيُّ عَنْهُ ، وَهُوَ ثَلَاثَةُ أَبْعَادٍ
مُتَسَاوِيَةٍ تُسَمَّى عَرْضَ الْبَلَدِ كَمَا مَرَّ ذَلِكَ قَبْلُ . وَالتَّكَلِّمُونَ عَلَى
هَذِهِ الْجُغَرَفِيَا قَسَمُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ السَّبْعَةِ فِي
طَوْلِهِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ بِعَشْرَةِ أَجْزَاءٍ مُتَسَاوِيَةٍ ، وَيَذْكُرُونَ

ما اشتملَ عَلَيْهِ كُلُّ جُزءٍ مِنْهَا مِنَ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ وَالْجِبَالِ
وَالْأَنْهَارِ وَالْمَسَافَاتِ بَيْنَهَا فِي الْمَسَالِكِ وَتَحْنُ الْآنَ نَوْجُ الْقَوْلِ فِي
ذَلِكَ وَتَذَكُّرُ مَسَاهِيرِ الْبُلْدَانِ وَالْأَنْهَارِ وَالْبَحَارِ فِي كُلِّ جُزءٍ
مِنْهَا ، وَنُحَازِي بِذَلِكَ مَا وَقَعَ فِي كِتَابِ « زُهْمَةِ الْمُشْتَقِ » الَّذِي
أَلْفَهُ الْعَلَوِيُّ الْأَذْرَيْسِيُّ الْحَمُودِيُّ يَلِيكَ صِقْلِيَّةً مِنَ الْأَفَرَنْجِ وَهُوَ
رُوحُ بْنُ رُوحٍ عِنْدَمَا كَانَ نَازِلًا عَلَيْهِ بِصِقْلِيَّةٍ بَعْدَ خُرُوجِ
صِقْلِيَّةٍ مِنْ إِمَارَةِ مَالِيقَةِ . وَكَانَ تَأْلِيفُهُ لِلْكِتَابِ فِي مُنْتَصَفِ
الْمِائَةِ السَّادِسَةِ . وَجَمَعَ لَهُ كُتُبًا جَمَّةً لِلْمَسْعُودِيِّ وَأَبْنِ خُرْدَاذِيهِ
وَالْحَوْقَلِيِّ وَالْقُدْرِيِّ وَأَبْنِ إِسْحَاقَ الْمُنَجِّمِ وَبَطْلِيمُوسَ وَغَيْرِهِمْ
وَنَبَدَأَ مِنْهَا بِالْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى آخِرِهَا ؛ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
يَمْنُصُنَا بَيْتَهُ وَفَضْلِهِ .

الاقليمُ الاولُ : وفيه من جهة غربيته الجزائرُ الخاليداتُ التي
منها بدأ بطليموسُ يأخذ أطوالَ البلادِ . وَلَيْسَتْ فِي بَسِيطِ الْإِقْلِيمِ ،
وَأَمَّا هِيَ فِي الْبَحْرِ الْحَمِيطِ ، جُزُرٌ مُتَكَثِرَةٌ أَكْبَرُهَا وَأَشْهَرُهَا ثَلَاثَةٌ ؛
وَيُقَالُ إِنَّهَا مَعْمُورَةٌ . وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ سَفَائِنَ مِنَ الْأَفَرَنْجِ مَرَّتْ بِهَا
فِي أَوَاسِطِ هَذِهِ الْمِائَةِ وَقَاتَلُوهُمْ فَفَتَنِمُوا مِنْهُمْ وَسَبَّوْا وَبَاعَوْا بَعْضَ
أَسَارِهِمْ بِسَوَاحِلِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى ، وَصَارُوا إِلَى خِدْمَةِ السُّلْطَانِ .
فَلَمَّا تَعَلَّمُوا اللِّسَانَ الْعَرَبِيَّ أَخْبَرُوا عَنْ حَالِ جَزَائِرِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ
يَحْتَفِرُونَ الْأَرْضَ لِلزَّرَاعَةِ بِالْقُرُونِ ، وَأَنَّ الْحَدِيدَ مَفْقُودٌ بِأَرْضِهِمْ ،
وَعَيْشُهُمْ مِنَ الشَّعِيرِ ، وَمَاشِيَتُهُمْ الْمَرْزُ ، وَقَتَالُهُمْ بِالْحِجَارَةِ يَزُمُونَهَا إِلَى
خَلْفِ ، وَعِبَادَتُهُمْ السُّجُودَ لِلشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ ، وَلَا يَعْرِفُونَ دِينًا

ولم تَبْلَغُهُمْ دَعْوَةٌ. وَلَا يَوْقِفُ عَلَى مَكَانٍ هَذِهِ الْجَزَائِرِ إِلَّا بِالْعُثُورِ
لَا بِالْقَصْدِ إِلَيْهَا؛ لِأَنَّ سَفَرَ السُّفُنِ فِي الْبَحْرِ إِنَّمَا هُوَ بِالرِّيَّاحِ،
وَمَعْرِفَةِ جِهَاتِ مَهَابِهَا، وَإِلَى أَيْنَ يُوْصَلُ إِذَا مَرَّتْ عَلَى الْأَسْتِقَامَةِ
مِنَ الْإِلَادِ الَّتِي فِي تَمَرِّ ذَلِكَ الْمَهَبِّ. وَإِذَا اخْتَلَفَ الْمَهَبُّ وَعُلِمَ
حَيْثُ يُوْصَلُ عَلَى الْأَسْتِقَامَةِ حَوْذِيَّ بِهِ الْقَلْعُ مُحَاذَاةً يَجْمَلُ السَّفِينَةَ
بِهَا عَلَى قَوَانِينٍ فِي ذَلِكَ مُحَصَّلَةً عِنْدَ النَّوَاتِيَّةِ^(١) وَالْمَلَّاحِينَ الَّذِينَ
هُمْ رُؤَسَاءُ السُّفُنِ فِي الْبَحْرِ. وَالْإِلَادُ الَّتِي فِي حَافَاتِ الْبَحْرِ الرُّوِيِّ
وَفِي عُذُوتِهِ مَكْتُوبَةٌ كُلُّهَا فِي صَحِيفَةٍ عَلَى شَكْلِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي
الْوُجُودِ، وَفِي وَضْعِهَا فِي سَوَاحِلِ الْبَحْرِ عَلَى تَرْتِيبِهَا؛ وَمَهَابُ
الرِّيَّاحِ وَتَمَرَّاتُهَا عَلَى اخْتِلَافِهَا مَرْسُومٌ مَعَهَا فِي تِلْكَ الصَّحِيفَةِ وَيُسَمُّوْنَهَا
الْكُنْبَاصَ، وَعَلَيْهَا يَتَعَمِدُونَ فِي أَسْفَارِهِمْ. وَهَذَا كُلُّهُ مَفْقُودٌ فِي
الْبَحْرِ الْخَاطِطِ. فَلِذَلِكَ لَا تَلِجُ فِيهِ السُّفُنُ لِأَنَّهَا إِنْ غَابَتْ عَنْ
مَرَأَى السَّوَاحِلِ فَقَلَّ أَنْ تَهْتَدِيَ إِلَى الرُّجُوعِ إِلَيْهَا؛ مَعَ مَا يَنْعَقِدُ
فِي جَوْزِ هَذَا الْبَحْرِ وَعَلَى سَطْحِ مَائِهِ مِنَ الْأَنْجَرَةِ الْمُنَاعَةِ لِلْسُّفُنِ فِي
مَسِيرِهَا؛ وَهِيَ لِبُعْدِهَا لَا تُذَكِّرُهَا أَضْوَاءُ الشَّمْسِ الْمُنْعَكِسَةِ مِنْ
سَطْحِ الْأَرْضِ فَتُحِلِّلَهَا. فَلِذَلِكَ عَسَرَ الْإِهْتِدَاءُ إِلَيْهَا وَصَعِبَ
الْوُقُوفُ عَلَى خَبَرِهَا.

وَأَمَّا الْجُزْءُ الْأَوَّلُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فَفِيهِ مَصَبُّ النِّيلِ الْآتِي
مِنْ مَبْدِئِهِ عِنْدَ جَبَلِ الْقُمْرِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ، وَيُسَمَّى نَيْلَ السُّودَانِ.

(١) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ، وَهِيَ كَلِمَةٌ عَامِيَّةٌ، وَفَصِيحُهَا النَّوَاتِيَّةُ جَمْعُ نَوْتٍ، وَهُوَ الْمَلَّاحُ يَشْتَغَلُ
فِي السَّفِينَةِ.

وَيَذْهَبُ إِلَى الْبَحْرِ الْهَيْطِ فَيَصُبُّ فِيهِ عِنْدَ جَزِيرَةِ أُولِيكَ . وَعَلَى هَذَا
النَّيْلِ مَدِينَةٌ سَلَا وَتَكْرُورُ وَغَانَةُ ، وَكُلُّهَا لِهَذَا الْمَهْدِ فِي مَمْلَكَةِ
مَلِكٍ « مَالِي » مِنْ أَمَمِ السُّودَانِ . وَإِلَى بِلَادِهِمْ تُسَافِرُ تُجَارُ الْمَغْرِبِ
الْأَقْصَى ، وَبِالْقُرْبِ مِنْهَا مِنْ شِمَالِهَا بِلَادُ لَمْتُونَةَ وَسَائِرِ طَوَائِفِ
الْمُلُثِّينَ ، وَمَفَاوِزُ يَحْمِلُونَ فِيهَا . وَفِي جَنُوبِي هَذَا النَّيْلِ قَوْمٌ مِنْ
السُّودَانِ يُقَالُ لَهُمْ « نِيلِيمُ » وَهُمْ كُفَّارٌ ، وَيَكْتُونُ فِي وُجُوهِهِمْ
وَأَصْدَانِهِمْ ، وَأَهْلُ غَانَةَ وَالتَّكْرُورِ يُغَيِّرُونَ عَلَيْهِمْ وَيَسْبُونَهُمْ
وَيَبْعُونَهُمْ لِلتَّجَارِ فَيَجْلِبُونَهُمْ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَكُلُّهُمْ عَامَّةٌ رَقِيقُهُمْ
وَلَيْسَ وَرَاءَهُمْ فِي الْجَنُوبِ عُمَرَانُ يُعْتَبَرُ إِلَّا أَنَايِي أَقْرَبَ إِلَى الْحَيَوَانِ
الْمُعْجَمِ مِنَ النَّاطِقِ ، يَسْكُونُ الْقِيَا فِي الْكُهُوفِ وَيَأْكُلُونَ الْمُسَبَّ
وَالْحُبُوبَ غَيْرَ مُهَيَّأَةٍ ، وَرُبَّمَا يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَلَيْسُوا فِي عِدَادِ
الْبَشَرِ . وَفَوَاكِهُ بِلَادِ السُّودَانِ كُلُّهَا مِنْ قُصُورِ صَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ
مِثْلَ تَوَاتٍ وَتَكْدَرَارِينَ وَوَزَّكَلَانَ . فَكَانَ فِي غَانَةَ فِيهَا يُقَالُ مُلْكُ
وَدَوْلَةُ لِقَوْمٍ مِنَ الْمَلُوكِ يُعْرِفُونَ بِبَنِي صَالِحٍ . وَقَالَ صَاحِبُ
كِتَابِ رُوحِ الْجَارِ إِنَّهُ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ ، وَلَا
يُعْرِفُ صَالِحُ هَذَا فِي وَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ . وَقَدْ ذَهَبَتْ هَذِهِ
النُّوَلَةُ لِهَذَا الْمَهْدِ وَصَارَتْ غَانَةُ لِسُلْطَانِ « مَالِي » .

وَفِي شَرْقِي هَذَا الْبَلَدِ فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ بَلَدُ
« كُوكُو » عَلَى نَهَرٍ يَنْبُعُ مِنْ بَعْضِ الْجِبَالِ هُنَاكَ . وَبِمِزْ مُغْرَبًا
فَيَمُوسُ فِي رِمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي . وَكَانَ مُلْكُ كُوكُو قَائِمًا بِنَفْسِهِ ، ثُمَّ
أَسْتَوْلَى عَلَيْهَا سُلْطَانُ « مَالِي » وَأَصْبَحَتْ فِي مَمْلَكَتِهِ ، وَخَرَبَتْ لِهَذَا

العهد من أجلِ فِتْنَةٍ وَقَعَتْ هُنَاكَ نَذَكُرُهَا عِنْدَ ذِكْرِ دَوْلَةِ «مالي»
 فِي مَحَلِّهَا مِنْ تَارِيخِ الْبَرْبَرِ . وَفِي جَنُوبِي بَلَدِ «كوكو» بِلَادُ كَانُمْ
 مِنْ أُمَمِ السُّودَانِ . وَبَعْدَهُمْ وَنَعَارَةَ عَلَى ضِفَّةِ النَّيْلِ مِنْ شَمَالِيهِ .
 وَفِي شَرْقِي بِلَادِ وَنَعَارَةَ وَكَانُمْ بِلَادُ زَعَاوَةَ وَتَاجِرَةَ الْمُتَّصِلَةِ
 بِأَرْضِ النُّوبَةِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ . وَفِيهِ يَمُرُّ نَيْلُ
 مِصْرَ ذَاهِبًا مِنْ مَبْدِئِهِ عِنْدَ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ إِلَى الْبَحْرِ الرَّومِيِّ فِي
 الشَّمَالِ . وَيَخْرُجُ هَذَا النَّيْلُ مِنْ جَبَلِ الْقَمَرِ الَّذِي فَوْقَ خَطِّ الْإِسْتِوَاءِ
 بِسِتِّ عَشْرَةَ دَرَجَةً . وَاخْتَلَفُوا فِي ضَبْطِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ . فَضَبَطَهَا بَعْضُهُمْ
 بِفَتْحِ الْقَافِ وَالْمِيمِ نِسْبَةً إِلَى قَرِّ السَّمَاءِ لِشِدَّةِ بَيَاضِهِ وَكَثْرَةِ ضَوْؤِهِ .
 وَفِي كِتَابِ الْمُشْتَرَكِ لِيَاقُوتٍ بَضَمِ الْقَافِ وَسُكُونِ الْمِيمِ نِسْبَةً إِلَى
 قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ ؛ وَكَذَا ضَبَطَهُ ابْنُ سَعِيدٍ . فَيَخْرُجُ مِنْ هَذَا
 الْجَبَلِ عَشْرُ عُيُونٍ تَجْتَمِعُ كُلُّ خَمْسَةٍ مِنْهَا فِي بُحَيْرَةٍ ؛ وَيَبْنِيهَا سِتَّةُ
 أَمْيَالٍ . وَيَخْرُجُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْبُحَيْرَتَيْنِ ثَلَاثَةُ أَنْهَارٍ تَجْتَمِعُ
 كُلُّهَا فِي بَطِيحَةٍ وَاحِدَةٍ فِي أَسْفَلِهَا جَبَلٌ مُعْتَرِضٌ يَشُقُّ الْبُحَيْرَةَ مِنْ
 نَاحِيَةِ الشَّمَالِ . وَيَنْقَسِمُ مَاؤُهَا يَقْسَمَيْنِ : فَيَمُرُّ الْغَرْبِيُّ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ
 السُّودَانِ مُغْرَبًا حَتَّى يَصُبَّ فِي الْبَحْرِ الْحَمِيطِ ؛ وَيَخْرُجُ الشَّرْقِيُّ مِنْهُ
 ذَاهِبًا إِلَى الشَّمَالِ عَلَى بِلَادِ الْحَلَشَةِ وَالنُّوبَةِ وَفِيمَا يَتَنَهَمَا ؛ وَيَنْقَسِمُ
 فِي أَعْلَى أَرْضِ مِصْرَ ، فَيَصُبُّ ثَلَاثَةُ مِنْ جَدَاوِلِهِ فِي الْبَحْرِ الرَّومِيِّ
 عِنْدَ الْأِسْكَندَرِيَّةِ وَرَشِيدَ وَدِمْيَاطَ ، وَيَصُبُّ وَاحِدٌ فِي بُحَيْرَةِ مَلِيحَةٍ
 قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلَ بِالْبَحْرِ فِي وَسْطِ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ . وَعَلَى هَذَا
 النَّيْلِ بِلَادُ النُّوبَةِ وَالْحَلَشَةِ وَبَعْضُ بِلَادِ الْوَحَاتِ إِلَى أَسْوَانِ .

وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة ، وهي في غربي هذا النيل .
وبمدها علوة وبلاق^(١) ، وبمدهما جبل الجنادل على ستة مراحل
من بلاق في الشمال ، وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض
من جهة النوبة ، فينفذ فيه النيل ويصب في هوى بعيد صبا هائلا ،
فلا يمكن أن تسلكه المراكب ، بل يحول الوسق من مراكب
السودان ، فيحمل على الظهر إلى بلد أسوان قاعدة الصعيد ، وكذا
وسق مراكب الصعيد إلى فوق الجنادل . وبين الجنادل وأسوان
اثنتا عشرة مرحلة . والواحات في غربيها غدوة النيل ، وهي الآن
خراب ، وبها آثار المارة القديمة .

وفي وسط هذا الإقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة
على واد يأتي من وراء خط الاستواء ذاهبا إلى أرض النوبة ،
فيصب هناك في النيل الهابط إلى مصر . وقد وهم فيه كثير من
الناس وذهبوا أنه من نيل القمر . وبطليموس ذكره في كتاب
الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل . وإلى وسط هذا
الإقليم في الجزء الخامس ينتهي بحر الهند الذي يدخل من ناحية
الصين ، وينمر عامة هذا الإقليم إلى هذا الجزء الخامس ، فلا يبقى
فيه عمران إلا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي ممتدة ،
يقال تنتهي إلى ألف جزيرة ، أو فيما على سوايله الجنوبية وهي
آخر المنصور في الجنوب ، أو فيما على سوايله من جهة الشمال ،

(١) كذا ، وهي : بلاق .

وَلَيْسَ مِنْهَا فِي هَذَا الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَّا طَرَفٌ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ فِي
جَهَةِ الشَّرْقِ وَفِي بِلَادِ الْيَمَنِ .

وفي الجزء السادس من هذا الإقليم فيما بين البحرين الهابطين
من هذا البحر الهندي إلى جهة الشمال وهما بحر قُزُم وبجر فارس
وفما بينهما جزيرة العرب . وتشمّل على بلاد اليمن وبلاد الشَّحَر^(١)
في شرقها على ساحل هذا البحر الهندي ، وعلى بلاد الحجاز
واليَمَمة وما إليهما كما نذكره في الإقليم الثاني وما بعده . فأما
الذي على ساحل هذا البحر من غربيّه فبلد زالغ من أطراف بلاد
الحبشة ومجالات البجة^(٢) في شمالي الحبشة ما بين جبل العلاقي
في أعالي الصعيد وبين بحر القُزُم الهابط من البحر الهندي وتحت
بلاد زالغ من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب يضيق
البحر الهابط هنالك بمزاحة جبل المندب المائل في وسط البحر
الهندي مُمتدّاً مع ساحل اليمن من الجنوب إلى الشمال في طول
اثني عشر ميلاً ، فيضيق البحر بسبب ذلك إلى أن يصير في عرض
ثلاثة أميال أو نحوها ، ويُسمّى باب المندب وعليه ثمر مراكب
اليمن إلى ساحل السوئيس قريباً من مِصر . وتحت باب المندب
جزيرة سواكين ودهلك وقبالتة من غربيّه مجالات البجة من أمم

(١) الشحر، بكسر الشين: ساحل اليمن، قال الأزهرى: في أقصاها، وقال ابن سيده:
بينها وبين عُمان . ويقال: شحر عُمان (بكسر الشين) وشحر عُمان (بفتح الشين)، وهو ساحل البحر
بين عُمان وعدن . (عن لسان العرب).

(٢) زالغ تسمى: زيلع . والبجة بضم الباء وفتح الجيم ويقال أيضاً البجاة: مجموعة من
القبائل تسكن فيها بين النيل والبحر الأحمر.

السودان كما ذكرناه . ومن شَرْقِيَّه في هذا الجزء تَهَامُ الْيَمَن ، ومنها على ساحلِه بَلَدُ عَلِيٍّ بْنِ يَعْقُوبَ . وفي جِهَةِ الْجَنُوبِ من بَلَدِ زَالِغَ وعلى ساحلِ هَذَا الْبَحْرِ من غَرْبِيَّه قُرَى بَرْبَرٍ يَتَلَوُ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَيَنْعَطِفُ مع جَنُوبِيَّه إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ السَّادِسِ .

ويليها هُنَالِكَ من جِهَةِ شَرْقِيَّهَا بِلَادُ الزُّنْجِ ثُمَّ بِلَادُ سُفَالَةَ عَلَى سَاحِلِ الْجَنُوبِيَّ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ من هَذَا الْإِقْلِيمِ . وفي شَرْقِيَّ بِلَادِ سُفَالَةَ من سَاحِلِ الْجَنُوبِيَّ بِلَادُ الْوَاقِ وَاقٍ مُتَّصِلَةٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ من هَذَا الْإِقْلِيمِ عِنْدَ مَدْخَلِ هَذَا الْبَحْرِ من الْبَحْرِ الْحِيطِ .

وَأَمَّا جَزَائِرُ هَذَا الْبَحْرِ فَكَثِيرَةٌ من أَعْظَمِهَا ، جَزِيرَةُ سَرَنْدِيبَ مَدَوَّرَةُ الشَّكْلِ وَبِهَا أَلْجَبَلُ الْمَشْهُورُ ، يُقَالُ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَعْلَى مِنْهُ ، وَهِيَ قُبَالَةَ سُفَالَةَ . ثُمَّ جَزِيرَةُ الْقُمْرِ وَهِيَ جَزِيرَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ تَبْدَأُ من قُبَالَةِ أَرْضِ سُفَالَةَ وَتَذْهَبُ إِلَى الشَّرْقِ مُنْحَرِفَةً بِكَثِيرٍ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ تَقْرَبَ من سَوَاحِلِ أَعَالِي الصِّينِ ؛ وَتَخْتَفُ بِهَا فِي هَذَا الْبَحْرِ من جَنُوبِيَّهَا جَزَائِرُ الْوَاقِ وَاقٍ ، وَمِنْ شَرْقِيَّهَا جَزَائِرُ السَّيْلَانِ إِلَى جَزَائِرِ آخَرَ فِي هَذَا الْبَحْرِ كَثِيرَةٌ الْعَدَدِ ، وَفِيهَا أَنْوَاعُ الطَّيِّبِ وَالْأَفَاوِيَّةِ ، وَفِيهَا يُقَالُ مَعَادِنُ الذَّهَبِ وَالزُّمُرِّ ، وَعَامَّةُ أَهْلِهَا عَلَى دِينِ الْجَوْسِيَّةِ ، وَفِيهِمْ مُلُوكٌ مُتَعَدِّدُونَ . وَبِهَذِهِ الْجَزَائِرِ من أَحْوَالِ الْعُمَرَانِ عَجَائِبُ ذَكَرَهَا أَهْلُ الْجُغَرَاْفِيَا . وَعَلَى الصِّفَّةِ الشَّمَالِيَّةِ من هَذَا الْبَحْرِ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ من هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ الْيَمَنِ كُلُّهَا . فَمِنْ جِهَةِ بَحْرِ الْقَلْزَمِ بَلَدُ زَبِيدٍ وَالْمُهَجَّمُ وَتِهَامَةُ الْيَمَنِ ؛ وَبَعْدَهَا بَلَدُ صَعْدَةَ مَقَرُّ الْإِمَامَةِ الزَّيْدِيَّةِ ، وَهِيَ

بَعِيدَةٌ عَنِ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَعَنِ الْبَحْرِ الشَّرْقِيِّ . وفيما بعد ذَلِكَ مَدِينَةُ عَدَنَ فِي شَمَالِهَا صَنْعَاءُ ؛ وَبَعْدَهَا إِلَى الْمَشْرِقِ أَرْضُ الْأَحْقَافِ وَظَفَّارُ ؛ وَبَعْدَهَا أَرْضُ حَضْرَمَوْتَ ؛ ثُمَّ بِلَادُ الشَّجَرِ مَا بَيْنَ الْبَحْرِ الْجَنُوبِيِّ وَبَحْرِ فَارِسَ . وَهَذِهِ الْقِطْعَةُ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ هِيَ الَّتِي أَنْكَشَفَ عَنْهَا الْبَحْرُ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْإِقْلِيمِ الْوُسْطَى ، وَيَنْكَشِفُ بَعْدَهَا قَلِيلٌ مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ ، وَأَكْثَرُ مِنْهُ مِنَ الْعَاشِرِ فِيهِ أَعَالِي بِلَادِ الصِّينِ ، وَمِنْ مَدِينَةِ الشَّهِيرَةِ خَايْنِكُو ، وَقُبَالَتُهَا مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ جَزَائِرُ السَّيْلَانِ ؛ وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا . وَهَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلِيُّ التَّوْفِيقِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

الإقليم الثاني

وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالْأَوَّلِ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ . وَقُبَالَةَ الْمَغْرِبِ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ الْحَيْطِ جَزِيرَتَانِ مِنَ الْجَزَائِرِ الْخَالِدَاتِ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا ، وَفِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنْهُ فِي الْجَانِبِ الْأَعْلَى مِنْهَا أَرْضُ قَنُورِيَّةَ ؛ وَبَعْدَهَا فِي جِهَةِ الشَّرْقِ أَعَالِي أَرْضِ غَانَةَ ثُمَّ تَجَالَاتُ زَغَاوَةَ مِنْ السُّودَانِ ؛ وَفِي الْجَانِبِ الْأَسْفَلِ مِنْهُمَا صَحْرَاءُ نَيْسَرَةَ مُتَّصِلَةٌ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الشَّرْقِ ذَاتُ مَفَاوِزَ تَسْلُكُ فِيهَا الشُّجَارُ مَا بَيْنَ بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَبِلَادِ السُّودَانِ ، وَفِيهَا تَجَالَاتُ الْمُشْمِينَ مِنْ صِنَاهَاةَ وَهُمْ شُعُوبٌ كَثِيرَةٌ مَا بَيْنَ كَرْوَلَةَ وَلَتُونَةَ وَمِسْرَاتَةَ وَلَمَطَةَ وَوَرِيكَةَ .

وعلى سَمْتِ هَذِهِ الْمَفَاوِزِ شَرْقًا أَرْضُ فَرَازٍ، ثُمَّ مَجَالَاتُ أَرْكَارٍ^(١) مِنْ قَبَائِلِ الْبَرْبَرِ ذَاهِبَةً إِلَى أَعَالِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ عَلَى سَمْتِهَا فِي الشَّرْقِ وَبَعْدَهَا مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادُ كَوَارٍ مِنْ أُمَمِ السُّودَانِ ؛ ثُمَّ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْبَاجَوِيِّينَ . وَفِي أَسَافِلِ هَذَا الْجُزْءِ الثَّالِثِ وَهِيَ جِهَةُ الشَّمَالِ مِنْهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ وَدَّانَ ، وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا أَرْضُ سِنْتَرِيَّةٍ وَلُتْسَمَى الْوَاحَاتِ الدَّاخِلَةِ .

وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ أَعْلَاهُ بَقِيَّةُ أَرْضِ الْبَاجَوِيِّينَ . ثُمَّ يَمْتَرِضُ فِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ ، بِلَادِ الصَّعِيدِ ، حَافَاتُ النَّيْلِ الذَّاهِبِ مِنْ مَبْدَأِهِ فِي الْإِفْقَلِيمِ الْأَوَّلِ إِلَى مَصَبِّهِ فِي الْبَحْرِ ، فَيَمُرُّ فِي هَذَا الْجُزْءِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ الْحَاجَزَيْنِ ، وَهُمَا جَبَلُ الْوَاحَاتِ مِنْ غَرْبِهِ ، وَجَبَلُ الْمُقَطَّمِ مِنْ شَرْقِهِ ، وَعَلَيْهِ مِنْ أَعْلَاهُ بَلَدٌ أَسْنَا وَأَرَمَنْتَ ، وَيَتَّصِلُ كَذَلِكَ حَافَاتُهُ إِلَى أَسْيُوطَ وَقُوصَ ثُمَّ إِلَى صُولٍ . وَيَفْتَرِقُ النَّيْلُ هُنَاكَ عَلَى شُعْبَيْنِ يَنْتَهِي الْأَيْمَنُ مِنْهُمَا فِي هَذَا الْجُزْءِ عِنْدَ اللَّاهُوتِ وَالْأَيْسَرُ عِنْدَ دِلَاصَ ؛ وَفِيمَا بَيْنَهُمَا أَعَالِي دِيَارِ مِصْرَ .

وَفِي الشَّرْقِ مِنْ جَبَلِ الْمُقَطَّمِ صَحَارَى غَيْذَابَ ذَاهِبَةً فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ السُّوَيْسِ ، وَهُوَ بَحْرُ الْقُلُزْمِ الْهَابِطُ مِنَ الْبَحْرِ الْهِنْدِيِّ فِي الْجَنُوبِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ . وَفِي عُدُوتِهِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ الْحِجَازِ مِنْ جَبَلٍ يَلْمَلَمُ إِلَى بِلَادِ يَثْرَبَ . وَفِي وَسْطِ الْحِجَازِ مَكَّةُ شَرَّفَهَا اللَّهُ ، وَفِي سَاحِلِهَا مَدِينَةُ جُدَّةُ تُقَابِلُ بَلَدَ عَيْذَابَ فِي الْعُدُوتِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ .

(١) كَذَا ، وَفِي نَسْخَةِ لَجْنَةِ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ : أَرْكَارَ .

وفي الجزء السادس من غربيّه بلاد نجد أعلاها في الجنوب
وتبالة وجرش إلى عكاظ من الشمال . وتحت نجد من هذا الجزء
تيقّة أرض الحجاز ؛ وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر ،
وتحتها أرض اليمامة وعلى سمت نجران في الشرق أرض سبأ ومأرب ،
ثم أرض الشحر . وينتهي إلى بحر فارس وهو البحر الثاني الهابط
من البحر الهندي إلى الشمال كما مرّ . ويذهب في هذا الجزء بالخراف
إلى الغرب فيمر ما بين شرقيّه وجوفيّه قطعة مثلثة عليها من
أعلاه مدينة قلّهات وهي ساحل الشحر ، ثم تحتها على ساحله بلاد
عمان ، ثم بلاد البحرين ، وهجر منها في آخر الجزء . وفي الجزء
السابع في الأعلى من غربيّه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة
الأخرى في السادس . ويفتر بحر الهند جانبه الأعلى كله . وعليه
هناك بلاد السند إلى بلاد مكران ويقابلها بلاد الطوران وهي
من السند أيضاً . فيتصل السند كله في الجانب الغربي من هذا
الجزء ، وتحول المفاوز بين أرض الهند ، ويمر فيه نهري الآتي
من ناحية بلاد الهند ، ويصب في البحر الهندي في الجنوب . وأول
بلاد الهند على ساحل البحر الهندي ، وفي سمتها شرقاً بلاد بلّهر ،
وتحتها الملتان بلاد الصنم المعظم عندهم ، ثم إلى أسفل من السند ،
ثم إلى أعالي بلاد سيجستان .

وفي الجزء الثامن من غربيّه تيقّة بلاد بلّهر من الهند ، وعلى
سمتها شرقاً بلاد القندهار ثم بلاد منيبار ، وفي الجانب الأعلى على
ساحل البحر الهندي وتحتها في الجانب الأسفل أرض كابل ،

وَبَعْدَهَا شَرْقًا إِلَى الْبَحْرِ الْحَمِيْطِ بِلَادُ الْقَنُوجِ مَا بَيْنَ قَشْمِيْرَ الدَّاخِلَةِ
وَقَشْمِيْرَ الْخَارِجَةِ عِنْدَ آخِرِ الْإِقْلِيْمِ .

وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ ، ثُمَّ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ الْهِنْدِ
الْأَقْصَى ، وَيَتَّصِلُ فِيهِ إِلَى الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ فَيَتَّصِلُ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى
الْعَاشِرِ ، وَتَبْقَى فِي أَسْفَلِ ذَلِكَ الْجَانِبِ قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ فِيهَا
مَدِينَةُ شِيغُونِ ، ثُمَّ تَتَّصِلُ بِلَادُ الصِّينِ فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ كُلِّهِ إِلَى
الْبَحْرِ الْحَمِيْطِ ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، وَبِهِ سُبْحَانَهُ التَّوْفِيقُ ، وَهُوَ
وَلِيُّ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ .

الْإِقْلِيمُ الثَّالِثُ

وَهُوَ مُتَّصِلٌ بِالثَّانِي مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ . فَفِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْهُ
وَعَلَى نَحْوِ الثَّلَاثِ مِنْ أَعْلَاهُ جَبَلٌ دَرَنٌ مُعْتَرِضٌ فِيهِ مِنْ غَرْبِيَّهِ عِنْدَ
الْبَحْرِ الْحَمِيْطِ إِلَى الشَّرْقِ عِنْدَ آخِرِهِ . وَيَسْكُنُ هَذَا الْجَبَلَ مِنَ
الْبَرَبْرِ أُمَّمٌ لَا يُخْصِيهِمْ إِلَّا خَالِفُهُمْ حَسَبًا يَأْتِي ذِكْرُهُ . وَفِي الْقِطْعَةِ
الَّتِي بَيْنَ هَذَا الْجَبَلِ وَالْإِقْلِيمِ الثَّانِي وَعَلَى الْبَحْرِ الْحَمِيْطِ مِنْهَا رِبَاطُ
مَاسَةٍ ، وَيَتَّصِلُ بِهِ شَرْقًا بِلَادُ سَوْسٍ وَنُولٍ ، وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا بِلَادُ
دَرَعَةٍ ، ثُمَّ بِلَادُ سِجِلْمَاسَةٍ ثُمَّ قِطْعَةٌ مِنْ صَحْرَاءِ نِيْسَتَرِ الْمَفَازَةِ الَّتِي
ذَكَرْنَاهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي . وَهَذَا الْجَبَلُ مُطْلٌ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ
كُلِّهَا فِي هَذَا الْجُزْءِ ، وَهُوَ قَلِيلُ الشَّيْءِ وَالْمَسَالِكِ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ
الْغَرْبِيَّةِ إِلَى أَنْ يُسَامِتَ وَادِي مَلَوِيَّةَ فَتَكْثُرُ ثَنَائِيَاهُ وَمَسَالِكُهَا

إلى أن يَنْتَهِيَ . وفي هذه الناحية منه أَمَمُ المصامدة ثم هِنَاتَةٌ ،
ثم تَيْنَمَلَكُ ، ثم كَذِمِيوَة ، ثُمَّ مَشْكُورَة وَهُمْ آخِرُ المصامدة
فيه ، ثُمَّ قَبَائِلُ صِنهاكَة وَهُمْ صِنهاجَة . وفي آخِرِ هذا الجزء مِنْهُ
بَعْضُ قَبَائِلِ زَنَاتَة . وَيَتَّصِلُ بِهِ هُنَالِكَ مِنْ جَوْفِيهِ جَبَلُ أُوْرَاسَ
وَهُوَ جَبَلُ كُتَامَة . وبعد ذلك أَمَمٌ أُخْرَى مِنَ الْبَرَايِرَةِ نَذَكْرُهُمْ
فِي أَمَاكِنِهِمْ . ثُمَّ إِنَّ جَبَلَ دَرَنْ هَذَا مِنْ جِهَةِ غَرْبِيهِ مُطْلٌ عَلَى يِلَادِ
الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَهِيَ فِي جَوْفِيهِ . ففي الناحية الجنوبيَّة مِنْهَا يِلَادُ
مَرَاكُشَ وَأَغْمَاتَ وَتَادَلَا^(١) . وَعَلَى الْبَحْرِ الْخِيطِ مِنْهَا رِبَاطُ آتْسَى
وَمَدِينَةُ سَلَا . وفي الْجُوفِ عَنْ يِلَادِ مَرَاكُشَ يِلَادُ فَاَسَ وَمَكْنَاَسَة
وَتَاَزَا وَقَصْرُ كُتَامَة . وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى فِي
عُرْفِ أَهْلِهَا . وعلى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْخِيطِ مِنْهَا بُلْدَانُ : أَصِيلا ؛
وَالْعَرَايِشَ . وفي سَمْتِ هَذِهِ الْيِلَادِ شَرْقًا يِلَادُ الْمَغْرِبِ الْأَوْسَطِ
وَقَاعِدَتُهَا تِلْمَسَانُ ، وفي سَوَاحِلِهَا عَلَى الْبَحْرِ الرُّومِيِّ بَلَدُ هُنَيْنَ
وَوَهْرَانُ وَالْجَزَائِرُ . لِأَنَّ هَذَا الْبَحْرَ الرُّومِيَّ يَخْرُجُ مِنَ الْبَحْرِ الْخِيطِ
مِنْ خَلِيجِ طَنْجَة فِي الناحية الْغَرْبِيَّةِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ ، وَيَذْهَبُ
مُشَرَّقًا فَيَنْتَهِي إِلَى يِلَادِ الشَّامِ ، فَإِذَا خَرَجَ مِنَ الْخَلِيجِ الْمُتَضَايِقِ
غَيْرَ بَعِيدٍ انْفَسَحَ جَنُوبًا وَشَمَالًا فَدَخَلَ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ .
فَلِهَذَا كَانَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ الْكَثِيرُ مِنْ يِلَادِهِ .
ثُمَّ يَتَّصِلُ بِيِلَادِ الْجَزَائِرِ مِنْ شَرْقِيَّهَا يِلَادُ بَجَايَة فِي سَاحِلِ الْبَحْرِ ،
ثُمَّ قُسْنَطِينَة فِي الشَّرْقِ مِنْهَا . وفي آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ ، وعلى مَرَحَلَةِ

(١) كَذَا مَضْبُوطَةً فِي جَمِيعِ النُّسخِ ، وَقَدْ وَرَدَتْ فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ : تَادَلَا .

من هذا البحر في جنوب هذه البلاد ومرتفعاً إلى جنوب المغرب الأوسط بلد أشير، ثم بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدتها بسكرة تحت جبل أوراس المتصل بدران كما مر. وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة الشرق.

والجزء الثاني من هذا الإقليم على هيئة الجزء الأول، ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبيه ذاهباً فيه من غرب إلى شرق فيقسمه بقطعتين. ويفترق البحر الرومي مسافة من شماله. فالقطعة الجنوبية عن جبل درن غربيها كله مفاوز، وفي الشرق منها بلد غدامس، وفي سمتها شرقاً أرض ودان التي بقيتها في الإقليم الثاني كما مر. والقطعة الجوفية عن جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل أوراس وتبسة والأوبس، وعلى ساحل البحر بلد بونة. ثم في سمت هذه البلاد شرقاً بلاد إفريقية. فعلى ساحل البحر مدينة تونس، ثم سوسة، ثم ألمدية. وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد: توزر، وقفصة، ونفزاوة. وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وولات وسبيلة. وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقاً بلد طرابلس على البحر الرومي. وبإزائها في الجنوب جبل دمر ونقرة من قبائل هواره متصلة بجبل درن، وفي مقابلة غدامس التي مر ذكرها في آخر القطعة الجنوبية. وآخر هذا الجزء في الشرق سويقة ابن مشكورة على البحر. وفي جنوبها بحالات العرب في أرض ودان.

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم يَرُ أيضاً فيه جَبَلُ دَرَنْ،
إِلَّا أَنَّهُ يَنْعَطِفُ عِنْدَ آخِرِهِ إِلَى الشَّمَالِ وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ
يَدْخُلَ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَيُسَمَّى هُنَاكَ طَرَفَ أَوْتَانٍ . وَالْبَحْرُ
الرُّومِيُّ مِنْ شَمَالِهِ يَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى أَنْ يُضَاقِقَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ
جَبَلِ دَرَنْ . فَالَّذِي وَرَاءَ الْجَبَلِ فِي الْجَنُوبِ فِي الْغَرْبِ مِنْهُ بَقِيَّةُ
أَرْضٍ وَدَّانَ وَمَجَالَاتُ الْعَرَبِ فِيهَا ، ثُمَّ زَوِيلَةُ ابْنِ الْخَطَّابِ ، ثُمَّ رِمَالُ
وَقْفَارُ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ فِي الشَّرْقِ . وَفِي بَيْنِ الْجَبَلِ وَالْبَحْرِ فِي الْغَرْبِ
مِنْهُ بَلَدٌ سُرَتْ عَلَى الْبَحْرِ . ثُمَّ خَلَاءٌ وَقْفَارٌ تَجُولُ فِيهَا الْعَرَبُ . ثُمَّ
أَجْدَابِيَّةٌ ، ثُمَّ بَرَقَةُ عِنْدَ مُنْعَطَفِ الْجَبَلِ ثُمَّ طَلَمَسَةُ عَلَى الْبَحْرِ هُنَاكَ ،
ثُمَّ فِي شَرْقِ الْمُنْعَطَفِ مِنَ الْجَبَلِ مَجَالَاتٌ هَنِيبٌ وَرُوحَاةٌ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ .
وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْأَعْلَى مِنْ غَرْبِيَّةِ
صَحَارَى بَرْقِيقٍ ، وَأَسْفَلُ مِنْهَا بِلَادُ هَنِيبٍ وَرُوحَاةٍ . ثُمَّ يَدْخُلُ
الْبَحْرُ الرُّومِيُّ فِي هَذَا الْجُزْءِ فَيَغْمُرُ طَائِفَةً مِنْهُ إِلَى الْجَنُوبِ ، حَتَّى
يَزَاحِمَ طَرَفَهُ الْأَعْلَى ، وَيَبْقَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ آخِرِ الْجُزْءِ وَقْفَارٌ تَجُولُ فِيهَا
الْعَرَبُ . وَعَلَى سَمْتِهَا شَرْقاً بِلَادُ الْقَيُْومِ وَهِيَ عَلَى مَصَبِّ أَحَدِ الشَّعْبَيْنِ
مِنَ النَّيْلِ^(١) الَّذِي يَمُرُّ عَلَى الْإِلَاهُونَ مِنْ بِلَادِ الصَّعِيدِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ
مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّانِي . وَيَصُبُّ فِي بَحِيرَةِ قَيُْومِ^(٢) وَعَلَى سَمْتِهِ شَرْقاً أَرْضُ
مَضَرَ وَمَدِينَتُهَا الشَّهِيرَةُ عَلَى الشَّعْبِ الثَّانِي الَّذِي يَمُرُّ بِدِلَاصٍ مِنْ

(١) يقصد به بحر يوسف الذي يأخذ مياهه من ترعة الإبراهيمية عند ديروط، ويمر بمديريات
أسيوط والمنيا وبني سويف والفيوم . - عن نسخة لجنة البيان العربي .

(٢) يقصد بها بحيرة قارون، وهي المشهورة في التاريخ باسم «بحيرة موريس» - عن طبعة
لجنة البيان العربي .

بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني . ويفترق هذا الشعب افتراقاً ثائية من تحت مصر على شعبين آخرين من شطوف وذفتي . ويتقسم الأيمن منها من قرمط بشعبين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي . فعلى مصب الغربي من هذا الشعب بلد الإسكندرية ، وعلى مصب الوسط بلد رشيد ، وعلى مصب الشرقي بلد دمياط . وتين مصر والقاهرة ، وتين ههنا السواحل البحرية أسفل الديار المصرية كلها محشوة عمراناً وفلجاً^(١) .

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم بلاد الشام ، وأكثرها على ما أصف ، وذلك لأن بحر القلزم ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه عند السويس ، لأنه في تمره مبتدي من البحر الهندي إلى الشمال ينطفئ أخذاً إلى جهة الغرب ، فتكون قطعة من انعطافه في هذا الجزء طويلة فينتهي في الطرف الغربي منه إلى السويس . وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران ثم جبل الطور ثم أيلة مدين ثم الحوراء في آخرها . ومن هنالك ينطفئ بساحله إلى الجنوب في أرض الحجاز كما مر في الإقليم الثاني في الجزء الخامس منه . وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثيراً من غربيه عليها الرما والعريش ، وقارب طرفها بلد القلزم ، فيضايق ما يتنها من هنالك ، وبقي شبه الباب مفضياً إلى أرض الشام . وفي غربي هذا الباب فخص التيه أرض جرداء لا تُنبت ، كانت مجالاً لبني إسرائيل بعد خروجهم من مصر

(١) الفلج شق الأرض للزراعة (قاموس) وفي بعض النسخ «خلجاً» جمع خلج ..

وَقَبْلَ دُخُولِهِمْ إِلَى الشَّامِ أَرْبَعِينَ سَنَةً كَمَا قَصَّه الْقُرْآنُ . وَفِي هَذِهِ
الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ فِي هَذَا الْجُزْءِ طَائِفَةٌ مِنْ جَزِيرَةِ
قُبْرُصَ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ كَمَا نَذَكَرَهُ . وَعَلَى سَاحِلِ هَذِهِ
الْقِطْعَةِ عِنْدَ الطَّرَفِ الْمُتَضَائِقِ لِبَحْرِ السُّوَيْسِ بَلَدُ الْعَرِيشِ ، وَهُوَ
آخِرُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَعَسَقَلَانُ ؛ وَبَيْنَهُمَا طَرَفُ هَذَا الْبَحْرِ ثُمَّ
تَنْحَطُّ هَذِهِ الْقِطْعَةُ فِي أَنْعَاطِهَا مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ
عِنْدَ طَرَابُلُسَ وَغَزَّةَ . وَهُنَاكَ يَنْتَهِي الْبَحْرُ الرُّومِيُّ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ .
وَعَلَى هَذِهِ الْقِطْعَةِ أَكْثَرُ سَوَاحِلِ الشَّامِ . فَفِي شَرْقِهِ غَزَّةُ ثُمَّ
عَسَقَلَانُ ، بِانْحِرَافٍ يَسِيرُ عَنْهَا إِلَى الشَّامِ بَلَدُ قَيْسَارِيَّةَ . ثُمَّ كَذَلِكَ
بَلَدُ عَكَا ثُمَّ صُورُ ثُمَّ صَيْدَا ثُمَّ يَنْعَطِفُ الْبَحْرُ إِلَى الشَّامِ فِي
الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ . وَيُقَابِلُ هَذِهِ الْبِلَادَ السَّاحِلِيَّةَ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي
هَذَا الْجُزْءِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يُخْرُجُ مِنْ سَاحِلِ أَيْلَةَ مِنْ بَحْرِ الْقُلُزْمِ ،
وَيَذْهَبُ فِي نَاحِيَةِ الشَّامِ مُنْحَرِفًا إِلَى الشَّرْقِ إِلَى أَنْ يُجَاوِزَ هَذَا
الْجُزْءَ وَيُسَمَّى جَبَلُ اللَّكَّامِ ؛ وَكَأَنَّهُ حَاجِزٌ بَيْنَ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ .
فَفِي طَرَفِهِ عِنْدَ أَيْلَةَ الْعَقَبَةُ الَّتِي يُرَى عَلَيْهَا الْحُجَّاجُ مِنْ مِصْرَ إِلَى
مَكَّةَ ، ثُمَّ بَعْدَهَا فِي نَاحِيَةِ الشَّامِ مَذْفَنُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
عِنْدَ جَبَلِ السَّرَاقَةِ يَتَّصِلُ مِنْ عِنْدِ جَبَلِ اللَّكَّامِ الْمَذْكُورِ مِنْ شَمَالِ
الْعَقَبَةِ ذَاهِبًا عَلَى سَمْتِ الشَّرْقِ ؛ ثُمَّ يَنْعَطِفُ قَلِيلًا . وَفِي شَرْقِهِ
هُنَاكَ بَلَدُ الْحَجَرِ وَدِيَارُ ثُمُودَ وَتَيْمَاءَ وَدَوَمَةَ الْجَنْدَلِ وَهِيَ أَسَافِلُ
الْحِجَازِ . وَفَوْقَهَا جَبَلُ رَضْوَى ، وَحُصُونُ خَيْبَرَ فِي جِهَةِ الْجَنُوبِ
عَنْهَا . وَفِيهَا بَيْنَ جَبَلِ السَّرَاقَةِ وَبَحْرِ الْقُلُزْمِ صَخْرَاهُ تَبُوكَ . وَفِي

شمال جبل السراة مدينة القدس عند جبل اللكام ثم الأزدن
ثم طبرية . وفي شرقيها بلاد الفوز الى أذريعات . وفي سمتها شرقاً
دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز . وعند منتطف
جبل اللكام الى الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق
مقابلة صيدا وبيروت من القطعة البحرية ، وجبل اللكام يمتد
بينها وبينها . وعلى سمت دمشق في الشرق مدينة بعلبك ، ثم
مدينة يمحس في الجهة الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل
اللكام . وفي الشرق عن بعلبك ويمحس بلد تدمر ومجالات البادية
الى آخر الجزء .

وفي الجزء السادس من أعلاه مجالات الأعراب تحت بلاد
نجد واليامة ما بين جبل المرج والصمان الى البحرين وهجر على
بحر فارس . وفي أسفل هذا الجزء تحت المجالات بلد الحيرة
والقاديسية ومنايض الفرات . وفيما بعدها شرقاً مدينة البصرة .
وفي هذا الجزء ينتهي بحر فارس عند عبّادان والأبلّة من أسفل
الجزء من شماله . ويصب فيه عند عبّادان نهر دجلة بعد أن
يتقسم بجداول كثيرة وتختلط به جداول أخرى من الفرات ، ثم
تجتمع كلها عند عبّادان وتصب في بحر فارس . وهذه القطعة
من البحر مسمّية في أعلاه متضايقة في آخره في شرقيّه وصيّقة
عند منتهاه مضايقة للحد الشمالي منه . وعلى غربيها الفريضة
منه أسفل البحرين وهجر والأحساء ، وفي غربها أخطب والصمان
وتيقّة أرض اليامة ، وعلى غربيّه الشرقيّة سواحل فارس من

أَعْلَاهَا ، وَهُوَ مِنْ عِنْدِ آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّرْقِ عَلَى طَرَفٍ قَدْ
أَمْتَدَّ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ مُشْرِقًا . وَوَرَاءَهُ إِلَى الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجُزْءِ
جِبَالُ الْقُصَصِ مِنْ كَرْمَانَ وَتَحْتَ هُرْمُزَ عَلَى السَّاحِلِ بَلَدُ سِيرَافَ
وَتَجِيرَمَ عَلَى سَاحِلِ هَذَا الْبَحْرِ . وَفِي شَرْقِيَّهِ إِلَى آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ
وَتَحْتَ هُرْمُزَ بِلَادُ فَارِسَ مِثْلُ سَابُورَ وَدَارَ أَنْجِرْدَ وَلَسَا وَأَصْطَخَرَ
وَالشَّاهِجَانِ وَشِيرَازَ وَهِيَ قَاعِدَتُهَا كُلُّهَا . وَتَحْتَ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى
الشَّمَالِ عِنْدَ طَرَفِ الْبَحْرِ بِلَادُ خُوَزِستَانِ ، وَمِنْهَا الْأَهْوَاذُ وَلُستَرُ
وَصَدَى وَسَابُورُ وَالسُّوسُ وَرَامُ هُرْمُزَ ، وَغَيْرُهَا وَأَرْجَانُ وَهِيَ حَدُّ
مَا بَيْنَ فَارِسَ وَخُوَزِستَانِ . وَفِي شَرْقِيَّ بِلَادِ خُوَزِستَانِ جِبَالُ
الْأَكْرَادِ مُتَّصِلَةٌ إِلَى نَوَاحِي أَصْبَهَانَ وَبِهَا مَسَاكِينُهُمْ وَبَجَالَاتُهُمْ
وَرَاءَهَا فِي أَرْضِ فَارِسَ ، وَلُتْسَمَى الرُّسُومَ .

وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ فِي الْأَعْلَى مِنْهُ مِنَ الْمَغْرِبِ بَقِيَّةُ جِبَالِ
الْقُصَصِ ، وَيَلِيهَا مِنَ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ بِلَادُ كَرْمَانَ وَمَكَرَانَ ،
وَمِنْ مَدِينَةِ الرُّودَانَ وَالشَّيرْجَانَ^(١) وَجِيرَفَتُ وَيَزْدَشِيرُ وَالْبَهْرَجُ .
وَتَحْتَ أَرْضِ كَرْمَانَ إِلَى الشَّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ فَارِسَ إِلَى حُدُودِ أَصْبَهَانَ ،
وَمَدِينَةُ أَصْبَهَانَ^(٢) فِي طَرَفِ هَذَا الْجُزْءِ مَا بَيْنَ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ .
ثُمَّ فِي الْمَشْرِقِ عَنْ بِلَادِ كَرْمَانَ وَبِلَادِ فَارِسَ أَرْضُ سِجِسْتَانَ
وَكُوهِستَانَ^(٣) فِي الْجَنُوبِ . وَأَرْضُ كُوهِستَانَ فِي الشَّمَالِ عَنْهَا .

(١) كَذَا فِي جَمِيعِ النُّسخِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ يَاقُوتُ : الشَّيرْجَانَ ؛ إِنَّمَا ذَكَرَ السَّيرْجَانَ . وَأَظْهَرَ هِيَ
نَفْسُهَا .

(٢) وَرَدَتْ كَذَا : أَصْبَهَانَ ، فِي مَحَلَّاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ، وَكَذَا وَرَدَتْ فِي مَعْجَمِ
الْبُلْدَانِ وَقَدْ تُسَمَّى أَصْفَهَانَ . وَهِيَ اسْمُهَا الْمُتَعَارَفُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ فِي إِيرَانَ .

(٣) وَرَدَتْ فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ : قُوهِستَانَ ، بِالْقَافِ .

وَيَتَوَسَّطُ بَيْنَ كَرْمَانَ وَفَارِسَ وَيَنِينَ سِجِسْتَانَ وَكُوهِسْتَانَ ، فِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ الْمَفَاوِزُ الْعُظْمَى الْقَلِيلَةُ الْمَسَالِكِ لِصُعُوبَتِهَا . وَمِنْ مُدُنِ سِجِسْتَانَ بَسْتُ وَالطَّاقُ . وَأَمَّا كُوهِسْتَانُ فَهِيَ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ . وَمِنْ مَشَاهِيرِ بِلَادِهَا سَرَخْسُ وَكُوهِسْتَانُ آخِرُ الْجُزْءِ .

وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ تَجَالَاتُ الْجُلُحِ مِنْ أَمْرِ التُّرْكِ مُتَّصِلَةً بِأَرْضِ سِجِسْتَانَ مِنْ غَرْبِهَا وَبِأَرْضِ كَابُلِ الْهِنْدِ مِنْ جَنُوبِهَا . وَفِي الشَّامِلِ عَنْ هَذِهِ الْمَجَالَاتِ جِبَالُ الْغُورِ وَبِلَادُهَا وَقَاعِدَتُهَا غَزَنَةُ فَرُصَةُ الْهِنْدِ . وَفِي آخِرِ الْغُورِ مِنَ الشَّامِلِ بِلَادُ أَسْتَرَابَادَ ، ثُمَّ فِي الشَّامِلِ غَرْباً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلَادُ هَرَاةَ أَوْسَطُ خُرَاسَانَ . وَبِهَا أَسْفَرَايْنُ وَقَاشَانُ وَبُوشَنجُ وَمَرُؤُ الرُّؤْدِ وَالطَّالِقَانُ وَالْجُوزْجَانُ . وَتَنْتَهِي خُرَاسَانُ هُنَالِكَ إِلَى نَهْرِ جِيْحُونَ . وَعَلَى هَذَا النَّهْرِ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ مِنْ غَرْبِهِ مَدِينَةُ بَلَخَ ، وَفِي شَرْقِيهِ مَدِينَةُ تَرْمِذَ ، وَمَدِينَةُ بَلَخَ كَانَتْ كُرْسِيَّ مَمْلَكَةِ التُّرْكِ . وَهَذَا النَّهْرُ ، نَهْرُ جِيْحُونَ ، تَخْرُجُهُ مِنْ بِلَادِ وَجَّارَ فِي حُدُودِ بَدَخْشَانَ مِمَّا يَلِي الْهِنْدَ . وَيَخْرُجُ مِنْ جَنُوبِ هَذَا الْجُزْءِ وَعِنْدَ آخِرِهِ مِنَ الشَّرْقِ فَيَنْعَطِفُ عَنْ قُرْبِ مُعَرِّبَا إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ ، وَيُسَمَّى هُنَالِكَ نَهْرَ خَرَنْابَ ؛ ثُمَّ يَنْعَطِفُ إِلَى الشَّامِلِ حَتَّى يَمُرَّ بِخُرَاسَانَ ، وَيَذْهَبُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى أَنْ يَصُبَّ فِي بُحَيْرَةِ خُورِذَمَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ كَمَا نَذَرْنَاهُ . وَيُمِدُّهُ عِنْدَ انْمِطَافِهِ فِي وَسْطِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّامِلِ خَمْسَةُ أَنْهَارٍ عَظِيمَةٍ مِنْ بِلَادِ الْخُتَلِ وَالْوَحْشِ مِنْ شَرْقِيهِ ، وَأَنْهَارُ أُخْرَى مِنْ جِبَالِ الْبُتْمِ مِنْ شَرْقِيهِ

أَيْضاً وَجَوْفِي الْجَبَلِ حَتَّى يَتَّسِعَ وَيَعْظُمَ بِمَا لَا كِفَاءَ^(١) لَهُ ، وَمِنْ هَذِهِ
الْأَنْهَارِ الْحَمْسَةِ الْمِلْدَةِ لَهُ نَهْرُ وَخْشَابَ ، يَخْرُجُ مِنْ بِلَادِ الثُّبَّتِ ، وَهِيَ
بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فَيَمُرُّ مُغْرِباً بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّامِ
إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيباً مِنْ شَمَالِ هَذَا الْجُزْءِ يَغْتَرِضُهُ
فِي طَرِيقِهِ جَبَلٌ عَظِيمٌ يَمُرُّ مِنْ وَسْطِ الْجَنُوبِ فِي هَذَا الْجُزْءِ ، وَيَذْهَبُ
مُشْرِقاً بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّامِ ، إِلَى أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجُزْءِ التَّاسِعِ قَرِيباً
مِنْ شَمَالِ هَذَا الْجُزْءِ ، فَيَجُوزُ بِلَادَ الثُّبَّتِ إِلَى الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ
مِنْ هَذَا الْجُزْءِ . وَيَحُولُ بَيْنَ التُّرْكِ وَبَيْنَ بِلَادِ الْخُتَلِ ؛ وَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا
مَسَلَكٌ وَاحِدٌ فِي وَسْطِ الشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ تَجَلَّ فِيهِ الْفَضْلُ بْنُ
يُحْيَى سُدَّاءُ وَبَنَى فِيهِ بَاباً كَسَدٍ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ . فَإِذَا خَرَجَ نَهْرُ
وَخْشَابَ مِنْ بِلَادِ الثُّبَّتِ وَاعْتَرَضَهُ هَذَا الْجَبَلُ فَيَمُرُّ تَحْتَهُ فِي مَدَى
بَعِيدٍ إِلَى أَنْ يَمُرَّ فِي بِلَادِ الْوَخْشِ ، وَيَصُبُّ فِي نَهْرِ جَنِحُونَ عِنْدَ
حُدُودِ بَلَخَ ، ثُمَّ يَمُرُّ هَابِطاً إِلَى التَّرِيمِ فِي الشَّامِ إِلَى بِلَادِ الْجُوزْجَانِ .
وَفِي الشَّرْقِ عَنْ بِلَادِ الْقَوْرِ فَمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَهْرِ جَنِحُونَ بِلَادُ
النَّاسَانِ مِنْ خُرَاسَانَ . وَفِي الْعُدُودِ الشَّرْقِيَّةِ هُنَالِكَ مِنَ النَّهْرِ بِلَادُ
الْخُتَلِ وَأَكْثَرُهَا جِبَالٌ ، وَبِلَادُ الْوَخْشِ ، وَيَجِدُهَا مِنْ جِهَةِ الشَّامِ
جِبَالُ الْبُتَمِ تَخْرُجُ مِنْ طَرَفِ خُرَاسَانَ غَرْبِيٍّ نَهْرُ جَنِحُونَ ، وَتَذْهَبُ
مُشْرِقَةً إِلَى أَنْ يَتَّصِلَ طَرَفُهَا بِالْجَبَلِ الْعَظِيمِ الَّذِي خَلْفَهُ بِلَادُ الثُّبَّتِ .
وَيَمُرُّ تَحْتَهُ نَهْرُ وَخْشَابَ كَمَا قُلْنَا فَيَتَّصِلُ بِهِ عِنْدَ بَابِ الْفَضْلِ بْنِ يُحْيَى .

(١) وردت في كتب اللغة بمعنى المكافأة ، ومقتضى السياق هنا أن تكون بمعنى : لا مثيل له .
وأظن أنه استعملها هنا مجازاً .

وَيَمُرُّ نَهْرُ جَنْحُونَ بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ ، وَأَنْهَارُ أُخْرَى تَصُبُّ فِيهِ مِنْهَا
نَهْرُ بِلَادِ الْوَتَخْرِ يَصُبُّ فِيهِ مِنَ الشَّرْقِ تَحْتَ التِّزْمِذِ إِلَى جِهَةِ الشَّمَالِ ،
وَنَهْرُ بَلَخٍ يَخْرُجُ مِنْ جِبَالِ الْبُتْمِ مِنْ مَبْدِئِهِ عِنْدَ الْجَوْزَجَانِ وَيَصُبُّ
فِيهِ مِنْ غَرْبِيَّةٍ . وَعَلَى هَذَا النَّهْرِ مِنْ غَرْبِيَّةٍ بِلَادُ آمِدَ مِنْ خُرَاسَانَ .
وَفِي شَرْقِي النَّهْرِ مِنْ هُنَالِكَ أَرْضُ الصُّنْدِ وَأَسْرُوشَنَةَ مِنْ بِلَادِ التُّرْكِ ،
وَفِي شَرْقِهَا أَرْضُ فَرَاغَانَةَ أَيْضاً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً . وَكُلُّ بِلَادِ
التُّرْكِ يَحُوزُهَا جِبَالُ الْبُتْمِ إِلَى شَمَالِهَا .

وَفِي الْجُزْءِ الْتَّاسِعِ مِنْ غَرْبِيَّةِ أَرْضِ التُّبَّتِ إِلَى وَسَطِ الْجُزْءِ ،
وَفِي جَنُوبِيَّهَا بِلَادُ الْهِنْدِ وَفِي شَرْقِيَّهَا بِلَادُ الصِّينِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ .
وَفِي أَسْفَلِ هَذَا الْجُزْءِ شَمَالاً عَنْ بِلَادِ التُّبَّتِ بِلَادُ الْخَزَلَجِيَّةِ مِنْ بِلَادِ
التُّرْكِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً وَشَمَالاً . وَيَتَّصِلُ بَهَا مِنْ غَرْبِيَّهَا أَرْضُ
فَرَاغَانَةَ أَيْضاً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً ، وَمِنْ شَرْقِيَّهَا أَرْضُ التَّتْرُغُرِ مِنْ
التُّرْكِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً وَشَمَالاً .

وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ جَمِيعاً بَقِيَّةُ الصِّينِ وَأَسَافِلُهُ .
وَفِي الشَّمَالِ بَقِيَّةُ بِلَادِ التَّتْرُغُرِ . ثُمَّ شَرْقاً عَنْهُمْ بِلَادُ يَخْرُخِيرَ مِنْ
التُّرْكِ أَيْضاً إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقاً . وَفِي الشَّمَالِ مِنْ أَرْضِ يَخْرُخِيرَ بِلَادُ
كَتْمَانَ مِنَ التُّرْكِ . وَقَبَائِلُهَا فِي الْبَحْرِ الْحَمِيطِ جَزِيرَةُ الْيَاقُوتِ فِي وَسَطِ
جَبَلٍ مُسْتَدِيرٍ لَا مَنَفَذَ مِنْهُ إِلَيْهَا وَلَا مَسَلَكَ ، وَالصُّعُودُ إِلَى أَعْلَاهُ
مِنْ خَارِجِهِ صَنْبٌ فِي الْغَايَةِ . وَفِي الْجَزِيرَةِ حَيَاتٌ قَتَالَةٌ وَحَصَى مِنْ
الْيَاقُوتِ كَثِيرَةٌ ؛ فَيَحْتَالُ أَهْلُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ فِي اسْتِخْرَاجِهِ بِمَا يُلْهِمُهُمُ
اللَّهُ إِلَيْهِ . وَأَهْلُ هَذِهِ الْبِلَادِ فِي هَذَا الْجُزْءِ الْتَّاسِعِ وَالْعَاشِرِ - فِيمَا

وراء خراسان والجبال كلها بحالات للترك - أمم لا تُحصى ؛ وهم
ظواين دحالة أهل إبل وشاة وبقر وخيل للنّاج والركوب
والأكل وطوائفهم كثيرة لا يُحصيهم إلا خالفهم وفيهم مُسلمون
مما يلي بلاد النهر - نهر جیحون - ويغزون الكفار منهم الدائنين
بالمجوسية ، فيبيعون رقيقتهم لمن يليهم ويخرجون إلى بلاد خراسان
والهند والعراق .

الإقليم الرابع

يتصل بالثالث من جهة الشمال

والجزء الأول منه في غربيه قطعة من البحر المحيط مُستطيلة
من أوله جنوباً إلى آخره شمالاً وعليها في الجنوب مدينة طنجة ،
ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط إلى البحر الرومي
في خليج متضيق بمقدار اثني عشر ميلاً ما بين طريف والجزيرة
الخضراء شمالاً وقصر المجاز وسبتة جنوباً ؛ ويذهب مشرقاً إلى
أن ينتهي إلى وسط الجزء الخامس من هذا الإقليم ، وينفسخ في
ذهابه بتدرج إلى أن يغير الأربعة أجزاء وأكثر الخامس .
ويغير عن جانبيه طرفاً من الإقليم الثالث والخامس كما سنذكره .
ويسمى هذا البحر البحر الشامي أيضاً . وفيه جزائر كثيرة
أعظمها في جهة الغرب يابسة ، ثم مايزقة ، ثم منزقة ، ثم سردانية
ثم صقلية وهي أعظمها ، ثم بلونس ، ثم أقرطش ثم قبرص كما

تذكرها كلها في أجزائها التي وقعت فيها . ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه ، وفي الجزء الثالث من الإقليم الخامس ، خليج البنادقة ، يذهب إلى ناحية الشمال ، ثم ينعطف عند وسط الجزء من جوفيه ، ويمر مغرباً إلى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس . ويخرج منه أيضاً في آخر الجزء الرابع شرقاً من الإقليم الخامس خليج القسطنطينية ، يمر في الشمال متضيقاً في عرض رمية السهم إلى آخر الإقليم . ثم يفضي إلى الجزء الرابع من الإقليم السادس ، وينعطف إلى بحر نبطس ذاهباً إلى الشرق في الجزء الخامس كله ونصف السادس من الإقليم السادس كما تذكر ذلك في أماكنه . وعندما يخرج هذا البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة ، ويتفسيح إلى الإقليم الثالث ينقى في الجنوب عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على تجمع البحرين ، وبناها مدينة سبتة على البحر الرومي ثم قطاون ثم باديس . ثم يمر هذا البحر بقية هذا الجزء شرقاً ، ويخرج إلى الثالث . وأكثر العادة في هذا الجزء في شماليه وشمال الخليج منه ، وهي كلها بلاد الأندلس الغربية ، ومنها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي ، أولها طريف عند تجمع البحرين ، وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مألقة ، ثم المنكب ثم المرية . وتحت هذه من لدن البحر المحيط غرباً وعلى مقربة منه شريش ، ثم تلمة ، وقبلتها فيه جزيرة قادس ، وفي الشرق عن شريش وتلمة أشبيلية ، ثم استجة وقرطبة ومديلة ، ثم غرناطة وجيان وأبدة ،

ثم واديّاش وبَسْطَةُ، وتحت هذه شَنْتَمَرِيَّةُ وشَلْبُ على البحر المحيط غرباً، وفي الشرقِ عنهما بَطْلْيُوسُ ومَارِدَةُ وِيَايِرَةُ، ثم غَافِقُ وبَرْجَالَةُ، ثم قلعةُ رِيَاخَ. وتحت هذه أَشْبُونَةُ على البحرِ المحيطِ غرباً، وعلى نهرِ بَاجَةِ، وفي الشرقِ عنها شَنْتَرِينُ وموزِيَّةُ على النهرِ المذكورِ، ثم قَنْطَرَةُ السَّيْفِ. ويساميت أَشْبُونَةُ من جهة الشرقِ جَبَلُ الشاراتِ، يَبْدَأُ من المَغربِ هُنَالِكَ، وَيَذْهَبُ مُشْرِقاً مع آخرِ الجزءِ من شَمَالِيهِ فَيَنْتَهِي إلى مَدِينَةِ سَالِمٍ فيما بَعْدَ النِّصْفِ مِنْهُ. وتحت هذا الجَبَلِ طَلْبِيرَةُ في الشرقِ من فُورِدَةِ، ثم طُلَيْطَلَةُ، ثم وادي الحِجَارَةِ ثم مَدِينَةُ سَالِمٍ. وَعِنْدَ أَوَّلِ هذا الجَبَلِ فيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَشْبُونَةِ بَلَدٌ قَلَمَرِيَّةٌ، وَهَذِهِ غَرْبِيُّ الْأَنْدَلُسِ. وَأَمَّا شَرْقِيُّ الْأَنْدَلُسِ فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْهَا بَعْدَ الْمَرِيَّةِ قَرْطَاجَنَةُ، ثم لَفْتَةُ، ثم دَانِيَّةٌ، ثم بَلَنْسِيَّةُ إلى طَرْطُوشَةِ آخِرِ الجزءِ في الشرقِ، وَتَحْتَهَا شَمَالاً لِيُورَقَةُ وَشَقُورَةُ تُتَاخَمَانِ بَسْطَةُ وَقَلَمَةُ رِيَاخَ مِنْ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ. ثم مَرَسِيَّةُ شَرْقاً، ثم شَاطِبَةُ تَحْتَ بَلَنْسِيَّةِ شَمَالاً، ثم شَقَرُ ثم طَرْطُوشَةُ، ثم طَرْكُونَةُ آخِرُ الجزءِ. ثم تَحْتَ هَذِهِ شَمَالاً أَرْضُ مَنجَالَةٍ وَرِيدَةِ مُتَاخَمَانِ لِشَقُورَةِ وَطُلَيْطَلَةِ مِنَ الْغَرْبِ، ثم أَفْرَاغَةُ شَرْقاً تَحْتَ طَرْطُوشَةِ وَشَمَالاً عَنْهَا. ثم في الشرقِ عَن مَدِينَةِ سَالِمٍ قَلَعَةُ أَيُوبَ ثم سَرْقُسْطَةُ ثم لَارِدَةُ^(١) آخِرُ الجزءِ شَرْقاً وَشَمَالاً.

وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَمَرَ الْمَاءُ جَمِيعَهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنْ

(١) كذا في جميع النسخ كما في معجم البلدان، وفي نسخة لجنة البيان العربي: لإرادة، وهو تحريف.

غَرْبِيَّهِ فِي الشَّمَالِ ، فِيهَا بُقْعَةُ جَبَلِ الْبَرْزَاتِ وَمَعْنَاهُ جَبَلُ الشَّيَا .
وَالسَّالِكُ يُخْرَجُ إِلَيْهِ مِنْ آخِرِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ ،
يَبْدَأُ مِنَ الطَّرَفِ الْمُنْتَهِي مِنَ الْبَحْرِ الْحَبِيطِ عِنْدَ آخِرِ ذَلِكَ الْجُزْءِ
جَنُوبًا وَشَرْقًا ، وَيَمُرُّ فِي الْجَنُوبِ بِالْخُرَافِ إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ فِي
هَذَا الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ مُنْحَرِفًا عَنِ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنْهُ إِلَى هَذَا الْجُزْءِ
الثَّانِي ، فَيَقَعُ فِيهِ قِطْعَةٌ مِنْهُ ، تُنْفِصِي ثَنَائِيهَا إِلَى الْبَرِّ الْمُتَّصِلِ ، وَتُسَمَّى
أَرْضَ غَشْكُونِيَّةَ ، وَفِيهِ مَدِينَةُ خَرِيدَةَ وَقَرْقَشُونَةَ . وَعَلَى سَاحِلِ
الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مَدِينَةُ بَرْشَلُونَةَ ثُمَّ أَرْبُونَةَ . وَفِي
هَذَا الْبَحْرِ الَّذِي غَمَرَ الْجُزْءَ جَزَائِرُ كَثِيرَةٌ ، وَالْكَثِيرُ مِنْهَا غَيْرُ
مَسْكُونٍ لِصِغَرِهَا . فَفِي غَرْبِيَّهِ جَزِيرَةُ سَرْذَانِيَّةَ ، وَفِي شَرْقِيَّهِ
جَزِيرَةُ صِقْلِيَّةَ مُتَّسِعَةً الْأَقْطَارِ يُقَالُ إِنَّ دَوْرَهَا سَبْعُمِائَةِ مِيلٍ ، وَبِهَا
مُدُنٌ كَثِيرَةٌ مَشَاهِيرُهَا سَرْقُوسَةُ وَبَلَرْمُ وَطَرَابِنَةُ وَمَازِدُ وَمُسِينِي
وَهَذِهِ الْجَزِيرَةُ تُقَابِلُ أَرْضَ إِفْرِيْقِيَّةَ ، وَفِيهَا يَتَنَهَّى جَزِيرَةُ أَعْدُوشَ
وَمَالِطَةَ .

وَالْجُزْءُ الثَّلَاثُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَيْضًا بِالْبَحْرِ إِلَّا ثَلَاثَ
قِطْعٍ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهَا أَرْضُ قَلُورِيَّةَ ؛ وَالْوُسْطَى مِنْ
أَرْضِ أَبَكِيرْدَةَ ؛ وَالشَّرْقِيَّةُ مِنْ بِلَادِ الْبَنَادِقَةِ .

وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَغْمُورٌ أَيْضًا بِالْبَحْرِ كَمَا مَرَّ
وَجَزَائِرُهُ كَثِيرَةٌ وَأَكْثَرُهَا غَيْرُ مَسْكُونٍ كَمَا فِي الثَّلَاثِ . وَالْمَغْمُورُ
مِنْهَا جَزِيرَةُ بَلُُّوسَ فِي النَاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ ، وَجَزِيرَةُ أَقْرِيطَشَ
مُسْتَطِيلَةٌ مِنْ وَسْطِ الْجُزْءِ إِلَى مَا بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْهُ .

وَالْجُزْءُ الْخَامِسُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَمَرَ الْبَحْرُ مِنْهُ مُثَلَّثَةً كَبِيرَةً
 بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ ، يَنْتَهِي الصِّلَعُ الْغَرْبِيُّ مِنْهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ
 فِي الشَّمَالِ ، وَيَنْتَهِي الصِّلَعُ الْجَنُوبِيُّ مِنْهَا إِلَى نَحْوِ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْجُزْءِ ،
 وَيَبْقَى فِي الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ الْجُزْءِ قِطْعَةٌ نَحْوِ الثَّلَاثِ ، يُرَى
 الشَّمَالِيُّ مِنْهَا إِلَى الْغَرْبِ مُنْعَطِفًا مَعَ الْبَحْرِ كَمَا قُلْنَا . وَفِي النِّصْفِ
 الْجَنُوبِيِّ مِنْهَا أَسَافِلُ الشَّامِ ، وَيُرَى فِي وَسْطِهَا جَبَلُ الْأَكَّامِ إِلَى
 أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ الشَّامِ فِي الشَّمَالِ فَيَنْعَطِفُ مِنْ هُنَاكَ ذَاهِبًا
 إِلَى الْقَطْرِ الشَّرْقِيِّ الشَّمَالِيِّ ، وَيُسَمَّى بَعْدَ انْعِطَافِهِ جَبَلُ السِّلْسِلَةِ ،
 وَمِنْ هُنَاكَ يَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ . وَيَجُوزُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطِفِهِ
 قِطْعَةٌ مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ إِلَى جِهَةِ الشَّرْقِ . وَيَقُومُ مِنْ عِنْدِ مُنْعَطِفِهِ
 مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ جِبَالٌ مُتَّصِلَةٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى طَرَفٍ
 خَارِجٍ مِنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ مُتَأَخِّرٍ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الشَّمَالِ . وَبَيْنَ
 هَذِهِ الْجِبَالِ ثَنَايَا تُسَمَّى الدُّرُوبَ وَهِيَ الَّتِي تُفْضِي إِلَى بِلَادِ الْأَرَمَنِ
 وَفِي هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْهَا بَيْنَ هَذِهِ الْجِبَالِ وَبَيْنَ جَبَلِ السِّلْسِلَةِ .
 فَأَمَّا الْجِهَةُ الْجَنُوبِيَّةُ الَّتِي قَدَّمْنَا أَنَّ فِيهَا أَسَافِلَ الشَّامِ ، وَأَنَّ جَبَلَ
 الْأَكَّامِ مُعْتَزِّضٌ فِيهَا بَيْنَ الْبَحْرِ الرُّومِيِّ وَآخِرِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ
 إِلَى الشَّمَالِ ، فَعَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مِنْهُ بَلَدٌ أَنْطَرَطُوسٌ^(١) فِي أَوَّلِ الْجُزْءِ
 مِنَ الْجَنُوبِ مُتَاجِمَةٌ لِنَزْوَةِ وَطْرَابُلُسَ عَلَى سَاحِلِهِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ ،
 وَفِي شَمَالِ أَنْطَرَطُوسَ جَبَلَةٌ ثُمَّ اللَّاذِقِيَّةُ ثُمَّ إِسْكَندَرُونَةُ ثُمَّ سَلَوَقِيَّةُ
 وَبَعْدَهَا شِمَالًا بِلَادُ الرُّومِ . وَأَمَّا جَبَلُ الْأَكَّامِ الْمُعْتَزِّضُ بَيْنَ الْبَحْرِ

(١) كذا بالأصل وكذا في معجم البلدان لياقوت ، وهي طرطوس ، وتعرف اليوم بهذا الاسم .

وآخر الجزء بحافاته فيصاقيه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوباً من غربيّه حصن الحواني وهو للحشيشة^(١) الاسماعيلية ؛ ويُعرفون لهذا العهد بالقدادية ، ويُسمى الحصن « مصيف »^(٢) وهو قبالة أنطربلوس . وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية^(٣) في الشمال عن حمص . وفي الشمال عن مصيف بين الجبل والبحر بلد أنطاكية . ويقابلها في شرق الجبل المعرة ، وفي شرقها الراعة ، وفي شمال أنطاكية المصيصة ثم أذنة ثم طرسوس آخر الشام . ويُجاذها من غرب الجبل قنشرين ثم عين زربة^(٤) . وقبالة قنشرين في شرق الجبل حلب . ويقابل عين زربة منبج آخر الشام . وأما الدروب فعن يمينها ما بينها وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركماني وسلاطينها ابن عثمان . وفي ساحل البحر منها بلد أنطاكية وأملايا . وأما بلاد الأذمن التي بين جبل الدروب وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وماطية والمعرة إلى آخر الجزء الشمالي . ويُخرج من الجزء الخامس في بلاد الأذمن نهر جیحان ونهر سيحان في شرقيّه فيمرُّ بها جیحان جنوباً حتى يتجاوز الدروب ، ثم يُر بطرسوس ثم بالمصيصة ، ثم يتعطف هابطاً إلى الشمال ومغرباً حتى

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ ، ورد في لسان العرب : حشّ الحرب إذا أسعرها وهيجها ، وأظنه يعني : أن هذا الحصن للإسماعيلية الذين يحشون الحرب أي يسعرونها .

(٢) في بعض النسخ : مصيات ، وهو تحريف . وقد ذكره ياقوت في معجم البلدان باسم مصياب ، ثم قال : وبعضهم يقول مصيف . ويعرف الآن باسم مصيف .

(٣) كذا ذكرها ياقوت بباء مفتوحة غير مشددة . وتعرف في أنحاء بلاد الشام بباء مشددة وفتح اللام وتسكين الميم .

(٤) كذا بالأصل في جميع النسخ ، وقد ذكرها ياقوت في معجم البلدان : عين زربى .

يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الرُّومِيِّ جَنُوبَ سَلُوقِيَّةَ . وَيَمُرُّ نَهْرُ سَيْنَانَ مُوَازِيًا
لِنَهْرِ جَيْنَانَ فَيُحَازِي الْمَعْرَةَ وَمَرْعَشَ وَيَتَجَاوَزُ جِبَالَ الدَّرُوبِ إِلَى
أَرْضِ الشَّامِ ، ثُمَّ يَمُرُّ بِعَيْنِ زَرْبَةَ وَيَجُوزُ عَنْ نَهْرِ جَيْنَانَ ثُمَّ يَنْعَطِفُ
إِلَى الشَّمَالِ مُغْرِبًا فَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ جَيْنَانَ عِنْدَ الْمَصِيصَةِ ، وَمِنْ غَرْبِهَا .
وَأَمَّا بِلَادُ الْجَزِيرَةِ الَّتِي يُحِيطُ بِهَا مُنْعَطِفُ جَبَلِ أَلْكَّامِ إِلَى جَبَلِ
السَّلْسِلَةِ فَفِي جَنُوبِهَا بَلَدُ الرَّافِضَةِ وَالرَّقَّةُ ، ثُمَّ حَرَّانُ ثُمَّ سَرُوحُ وَالرُّهَا
ثُمَّ نَصِيبِينَ ثُمَّ سُمَيْسَاطُ وَأَمْدُ تَحْتَ جَبَلِ السَّلْسِلَةِ . وَآخِرُ الْجُزْءِ مِنْ
شَمَالِهِ وَهُوَ أَيْضًا آخِرُ الْجُزْءِ مِنْ شَرْقِيَّةِ ، وَيَمُرُّ فِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ
نَهْرُ الْفُرَاتِ وَنَهْرُ دِجْلَةَ يُخْرُجَانِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ وَيَمُرُّانِ فِي
بِلَادِ الْأَزْمَنِ جَنُوبًا إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَا جَبَلِ السَّلْسِلَةِ ؛ فَيَمُرُّ نَهْرُ
الْفُرَاتِ مِنْ غَرْبِيٍّ سُمَيْسَاطَ وَسَرُوحَ وَيَنْحَرِفُ إِلَى الشَّرْقِ فَيَمُرُّ
بِمَرْبِ الرَّافِضَةِ وَالرَّقَّةِ وَيُخْرَجُ إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ . وَيَمُرُّ دِجْلَةُ فِي
شَرْقِ أَمْدَ وَيَنْعَطِفُ قَرِيبًا إِلَى الشَّرْقِ فَيَخْرُجُ قَرِيبًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ .
وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِيَّةِ بِلَادُ الْجَزِيرَةِ ،
وَفِي الشَّرْقِ مِنْهَا بِلَادُ الْعِرَاقِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا تَنْتَهِي فِي الشَّرْقِ إِلَى
قُرْبِ آخِرِ الْجُزْءِ . وَيَعْتَرِضُ مِنْ آخِرِ الْعِرَاقِ هُنَالِكَ جَبَلُ أَصْبَهَانَ
هَاطِطًا مِنْ جَنُوبِ الْجُزْءِ مُنْحَرِفًا إِلَى الْغَرْبِ ، فَإِذَا انْتَهَى إِلَى وَسْطِ
الْجُزْءِ مِنْ آخِرِهِ فِي الشَّمَالِ يَذْهَبُ مُغْرِبًا إِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْجُزْءِ
السَّادِسِ ، وَيَتَّصِلَ عَلَى سَمْتِهِ بِجَبَلِ السَّلْسِلَةِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ ،
فَيَنْقَطِعُ هَذَا الْجُزْءُ السَّادِسُ بِقِطْعَتَيْنِ غَرْبِيَّةٍ وَشَرْقِيَّةٍ ، فَفِي الْغَرْبِيَّةِ
مِنْ جَنُوبِيَّهَا تَخْرُجُ الْفُرَاتُ مِنَ الْخَامِسِ ، وَفِي شَمَالِهَا تَخْرُجُ دِجْلَةُ

منه . أما الفُراتُ فأولُ ما يُخْرُجُ إلى السادسِ يُمرُّ بقرقيسياً ويَخْرُجُ من هُنَالِكَ جَدُولٌ إلى الشَّمالِ يَنْسابُ في أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَيَغوصُ في نَوَاحِيهَا ، وَيُمرُّ من قرقيسياً غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ إلى الْجَنُوبِ فَيَمُرُّ بِقَرْبِ الْخَابُورِ إلى غَرْبِ الرَّحْبَةِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدَاوِلُ من هُنَالِكَ ، يُمرُّ جَنُوباً وَيَبْقَى صِفِينُ في غَرْبِيَّتِهِ . ثُمَّ يَنْعَطِفُ شَرْقاً وَيَنْقَسِمُ بِشُعُوبٍ فَيَمُرُّ بِمَعْظَمِهَا بِالْكُوفَةِ ، وَبِمَعْظَمِهَا بِقَصْرِ ابْنِ هُبَيْرَةَ وَبِالْجَامِعَيْنِ ، وَيَخْرُجُ جَمِيعاً في جَنُوبِ الْجُزْءِ إلى الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ ، فَيَغوصُ هُنَالِكَ في شَرْقِ الْحِيرَةِ وَالْقَادِيسِيَّةِ . وَيَخْرُجُ الْفُراتُ من الرَّحْبَةِ مُشْرِقاً على سَنِيَّتِهِ إلى هَيْتَ من شَمَالِهَا يُمرُّ إلى الزَّابِ وَالْأَنْبَارِ من جَنُوبِهَا ، ثُمَّ يَصُبُّ في دِجْلَةَ عِنْدَ بَنْدَادَ . وَأما نَهْرُ دِجْلَةَ فَإِذَا دَخَلَ من الْجُزْءِ الْخَامِسِ إلى هَذَا الْجُزْءِ يُمرُّ مُشْرِقاً على سَنِيَّتِهِ وَمُخَازِياً لِيَجْلِدَ السَّيْلَةَ الْمُتَّصِلَ بِجَبَلِ الْعِرَاقِ على سَنِيَّتِهِ فَيَمُرُّ بِجَزِيرَةِ ابْنِ عُثْمَرَ على شَمَالِهَا ، ثُمَّ بِالْمَوْصِلِ كَذَلِكَ وَتَكَرُّيْتِ ، وَيَنْتَهِي إلى الْحَدِيثَةِ فَيَنْعَطِفُ جَنُوباً وَتَبْقَى الْحَدِيثَةُ في شَرْقِهِ وَالزَّابُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ كَذَلِكَ ، وَيَمُرُّ على سَنِيَّتِهِ جَنُوباً وفي غَرْبِ الْقَادِيسِيَّةِ إلى أَنْ يَنْتَهِيَ إلى بَنْدَادَ وَيَخْتَلِطُ بِالْفُراتِ ، ثُمَّ يَمُرُّ جَنُوباً على غَرْبِ جَرَنْجَرَايا إلى أَنْ يَخْرُجَ من الْجُزْءِ إلى الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ فَتَنْتَشِرُ هُنَالِكَ شُعُوبُهُ وَجَدَاوِلُهُ ، ثُمَّ يَجْتَمِعُ وَيَصُبُّ هُنَالِكَ في بَحْرِ فَارِسَ عِنْدَ عِبَادَانَ . وفيما بَيْنَ نَهْرِ الدِّجْلَةِ وَالْفُراتِ قَبْلَ تَجَمُّعِهَا بِبَنْدَادَ هِيَ بِلَادُ الْجَزِيرَةِ . وَيَخْتَلِطُ بِنَهْرِ دِجْلَةَ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ بِبَنْدَادَ نَهْرُ آخَرُ يَأْتِي من أَلْجَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّامِلِيَّةِ مِنْهُ وَيَنْتَهِي إلى بِلَادِ النُّهْرِ وَإِنْ

قُبَالَةَ بَغْدَادَ شَرْقًا ثُمَّ يَنْعَطِفُ جَنُوبًا ، وَيَخْتَلِطُ بِدِجْلَةَ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ . وَيَبْقَى مَا بَيْنَ هَذَا النَهْرِ وَبَيْنَ جَبَلِ الْعِرَاقِ وَالْأَعَاجِمِ بِلَادُ جُلُولَاءَ ، وَفِي شَرْقِهَا عِنْدَ الْجَبَلِ بَلَدُ حُلَوَانَ وَصَمِيرَةَ^(١) . وَأَمَّا الْقِطْعَةُ الْغَرْبِيَّةُ مِنَ الْجُزْءِ فَيَعْتَرِضُهَا جَبَلٌ يَبْدَأُ مِنْ جَبَلِ الْأَعَاجِمِ مُشْرِقًا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ وَيُسَمَّى جَبَلُ شَهْرَزُورَ وَيَقْسِمُهَا يَقْطَعَتَيْنِ . وَفِي الْجَنُوبِ مِنْ هَذِهِ الْقِطْعَةِ الصُّغْرَى بَلَدُ خَوَنْجَانٍ فِي الْغَرْبِ وَالشِّمَالِ عَنْ أَصْبَهَانَ ، وَتُسَمَّى هَذِهِ الْقِطْعَةُ بَلَدُ الْهَلُوسِ ، وَفِي وَسْطِهَا بَلَدُ نَهَاوَنْدَ وَفِي شِمَالِهَا بَلَدُ شَهْرَزُورَ غَرْبًا عِنْدَ مُلتَقَى الْجَبَلَيْنِ ، وَالْدِينُورُ شَرْقًا عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ . وَفِي الْقِطْعَةِ الصُّغْرَى الثَّانِيَةِ طَرَفٌ مِنْ بِلَادِ أَرْمِينِيَّةٍ قَاعِدَتُهَا الْمُرَاغَةُ ، وَالَّذِي يُقَالُ بِهَا مِنْ جَبَلِ الْعِرَاقِ يُسَمَّى بَارِيَا وَهُوَ مَسَاكِينُ لِلْأَكْرَادِ ، وَالزَّابُ الْكَبِيرُ وَالصَّغِيرُ الَّذِي عَلَى دِجْلَةَ مِنْ وَرَائِهِ . وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ بِلَادُ أَذْرَبَيْجَانَ وَمِنْهَا تَبْرِيزُ وَالْبَنْدَقَانُ . وَفِي الزَّائِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشِّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نِيطِشَ وَهُوَ بَحْرُ الْخَزَرِ .

وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مِنْ غَرْبِهِ وَجَنُوبِهِ مُعْظَمُ بِلَادِ الْهَلُوسِ ، وَفِيهَا هَمْدَانُ وَقَزْوِينُ وَبَقِيَّتُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ وَفِيهَا هُنَالِكَ أَصْبَهَانُ ، وَيُحِيطُ بِهَا مِنَ الْجَنُوبِ جَبَلٌ يُخْرِجُ مِنْ غَرْبِهَا وَيَمُرُّ بِالْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ مِنَ الْجُزْءِ السَّادِسِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ وَيَتَّصِلُ بِجَبَلِ الْعِرَاقِ فِي شَرْقِيهِ الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ هُنَالِكَ ،

(١) وردت في بعض النسخ: صميرة، وهو تحريف.

وَأَنَّهُ مُحِيطٌ بِبِلَادِ الْهُلُوسِ فِي الْقِطْعَةِ الشَّرْقِيَّةِ . وَيَهِيْطُ هَذَا الْجَبَلُ
 الْحَيْطُ بِأَصْبَهَانَ مِنْ الْأَقْلِيمِ الثَّالِثِ إِلَى جِهَةِ الشَّامِ ، وَيَخْرُجُ إِلَى
 هَذَا الْجُزْءِ السَّابِعِ فَيُحِيطُ بِبِلَادِ الْهُلُوسِ مِنْ شَرْقِهَا وَتَحْتَهُ هُنَاكَ
 قَاشَانَ ثُمَّ قُمْ ، وَيَنْعَطِفُ فِي قُرْبِ النِّصْفِ مِنْ طَرِيقِهِ مُغْرَبًا بَعْضَ
 الشَّيْءِ ، ثُمَّ يَرْجِعُ مُسْتَدِيرًا فَيَذْهَبُ مُشْرِقًا وَمُنْحَرَفًا إِلَى الشَّامِ ، حَتَّى
 يَخْرُجَ إِلَى الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى مُنْعَطِفِهِ وَأَسْتِدَارَتِهِ عَلَى بَلَدِ
 الرَّيِّ فِي شَرْقِيَّهِ ، وَيَبْدَأُ مِنْ مُنْعَطِفِهِ جَبَلٌ آخَرُ يُرْتَفَعُ غَرْبًا إِلَى آخِرِ
 الْجُزْءِ ، وَمِنْ جَنُوبِهِ مِنْ هُنَاكَ قَزْوِينُ ، وَمِنْ جَانِبِهِ الشَّامِلِيَّ
 وَجَانِبِ جَبَلِ الرَّيِّ الْمُتَّصِلِ مَعَهُ ذَاهِبًا إِلَى الشَّرْقِ وَالشَّامِ إِلَى
 وَسَطِ الْجُزْءِ ، ثُمَّ إِلَى الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ بِلَادُ طَبْرِسْتَانَ فِيمَا بَيْنَ هَذِهِ
 الْجِبَالِ وَبَيْنَ قِطْعَةٍ مِنْ بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ . وَيَدْخُلُ مِنَ الْأَقْلِيمِ الْخَامِسِ
 فِي هَذَا الْجُزْءِ ، فِي نَحْوِ النِّصْفِ مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ ، وَيَعْتَرِضُ عِنْدَ
 جَبَلِ الرَّيِّ . وَعِنْدَ أَنْعِطَافِهِ إِلَى الْغَرْبِ جَبَلٌ مُتَّصِلٌ بِرُفْدٍ عَلَى سَمْتِهِ
 مُشْرِقًا وَبَانْحِرَافٍ قَلِيلٍ إِلَى الْجَنُوبِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ
 مِنْ غَرْبِهِ . وَيَبْقَى بَيْنَ جَبَلِ الرَّيِّ وَهَذَا الْجَبَلِ مِنْ عِنْدَ مَبْدَأِهَا
 بِلَادُ جُرْجَانَ فِيمَا بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ ، وَمِنْهَا بِسْطَامُ . وَوَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ
 قِطْعَةٌ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِيهَا بَقِيَّةُ الْمَفَازَةِ الَّتِي بَيْنَ فَارِسَ وَخُرَاسَانَ
 وَهِيَ فِي شَرْقِيَّ قَاشَانَ ، وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ هَذَا الْجَبَلِ بَلَدُ أَسْتَرَابَادَ .
 وَحَافَاتُ هَذَا الْجَبَلِ مِنْ شَرْقِيَّهِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ بِلَادُ نِيسَابُورَ مِنْ
 خُرَاسَانَ . فَفِي جَنُوبِ الْجَبَلِ وَشَرْقِ الْمَفَازَةِ بَلَدُ نِيسَابُورَ ثُمَّ مَرُؤُ
 الشَّاهِجَانَ آخِرَ الْجُزْءِ . وَفِي شَمَالِهِ وَشَرْقِيَّ جُرْجَانَ بَلَدُ مَهْرَجَانَ

وَحَاذَرُونَ وَطُوسَ آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا . وَكُلُّ هَذِهِ تَحْتَ الْجَبَلِ . وَفِي الشَّامِ عَنْهَا بِلَادُ نَسَا ، وَيَحِيطُ بِهَا عِنْدَ زَاوِيَةِ الْجَزَائِنِ الشَّامِي وَالشَّرِيقِيِّ مَفَاوِزُ مُعْطَلَةٌ .

وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ وَفِي غَرْبِيهِ نَهْرُ جَنْحُونَ ذَاهِبًا مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّامِ . فَفِي عُذُوتِهِ الْغَرْبِيَّةِ رَمٌّ وَأَمْلٌ مِنْ بِلَادِ خُرَاسَانَ ، وَالظَّاهِرِيَّةِ وَالْجُرْجَانِيَّةِ مِنْ بِلَادِ خُوارِزْمَ . وَيَحِيطُ بِالزَاوِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ جَبَلٌ أَسْتَرَابَادُ الْمُعْتَرِضُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ قَبْلَهُ ، وَيَخْرُجُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ غَرْبِيهِ وَيَحِيطُ بِهِذِهِ الزَاوِيَّةُ ، وَفِيهَا بَقِيَّةُ بِلَادِ هَرَاةَ ، وَيَمُرُّ الْجَبَلُ فِي الْإِقْلِيمِ الثَّلَاثِ بَيْنَ هَرَاةَ وَالْجَوْزْجَانِ حَتَّى يَتَّصِلَ بِجَبَلِ الْبُتْمِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ هُنَاكَ . وَفِي شَرْقِي نَهْرُ جَنْحُونَ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَفِي الْجَنُوبِ مِنْهُ بِلَادُ بُخَارَى ثُمَّ بِلَادُ الصُّغْدِ وَقَاعِدَتُهَا سَمَرْقَنْدُ ثُمَّ بِلَادُ أُسْرُوشَنَةَ^(١) وَمِنْهَا حَجَنْدَةُ آخِرُ الْجُزْءِ شَرْقًا . وَفِي الشَّامِ عَنْ سَمَرْقَنْدَ وَأُسْرُوشَنَةَ أَرْضُ إِيلاقَ^(٢) . ثُمَّ فِي الشَّامِ عَنْ إِيلاقَ أَرْضُ الشَّاشِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا ، وَيَأْخُذُ قِطْعَةً مِنَ الْجُزْءِ التَّاسِعِ فِي جَنُوبِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ بَقِيَّةُ أَرْضِ فَرَاغَانَةَ ، وَيَخْرُجُ مِنْ تِلْكَ الْقِطْعَةِ أَلَّتِي فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ نَهْرُ الشَّاشِ يَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ إِلَى أَنْ يَنْصَبَّ فِي نَهْرِ جَنْحُونَ عِنْدَ مَخْرَجِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّامِنِ فِي شَمَالِهِ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ . وَيَخْتَلِطُ مَعَهُ فِي أَرْضِ

(١) فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ: الْمَشْهُورُ: أُسْرُوشَنَةَ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَفَتْحِ السِّينِ بَعْدَ الْوَاوِ. وَعَنْ أَبِي سَعْدٍ: أُسْرُوشَنَةُ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ السِّينِ بَعْدَهَا، وَفَتْحِ الشِّينِ بَعْدَ الْوَاوِ.
(٢) فِي الْمَشْتَرِكِ إِقْلِيمٌ إِيلاقَ مُتَّصِلٌ بِإِقْلِيمِ الشَّاشِ لَا فُصْلَ بَيْنَهُمَا وَهُوَ بِكسرِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ الْيَاءِ بَعْدَهَا أَهـ.

إيلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الإقليم الثالث من تخوم بلاد التبت، ويختلط معه قبل تخرجه من الجزء التاسع نهر قرغانة. وعلى سمت نهر الشاش جبل جبراغون، يبدأ من الإقليم الخامس وينطفئ شرقاً ومنحرفاً إلى الجنوب حتى يخرج إلى الجزء التاسع محيطاً بأرض الشاش، ثم ينطفئ في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وقرغانة هناك إلى جنوبه فيدخل في الإقليم الثالث. وتبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط هذا الجزء بلاد فاراب. وتبين أرض بخارى وخوارزم مفاوز معطلة. وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض حجنده وفيها بلد إسبيجاب وطرار.

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في غربيه بعد أرض قرغانة والشاش أرض الخزلجية في الجنوب وأرض الخليجية في الشمال. وفي شرق الجزء كله أرض الكيكية. ويتصل في الجزء العاشر كله إلى جبل قوقيا آخر الجزء شرقاً وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك، وهو جبل ياجوج وماجوج. وهذه الأنام كلها من شعوب الترك، انتهى.

الإقليم الخامس

الجزء الأول منه أكثره مغمور بالماء إلا قليلاً من جنوبه وشرقه لأن البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الإقليم الخامس والسادس والسابع عن الدائرة المحيطة بالإقليم. فأما

أُلْكَشَفُ مِنْ جَنُوبِهِ قِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُتَّصِلَةٌ مِنْ هُنَاكَ
 بِالْأَنْدَلُسِ وَعَلَيْهَا بَقِيَّتُهَا . وَيُحِيطُ بِهَا الْبَحْرُ مِنْ جِهَتَيْنِ كَأَنَّهَا ضِلْعَانِ
 مُحِيطَانِ بِزَاوِيَةِ الْمُثَلَّثِ . فَفِيهَا مِنْ بَقِيَّةِ غَرْبِ الْأَنْدَلُسِ سَعِيرُ
 عَلَى الْبَحْرِ عِنْدَ أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ ، وَسَلْمَنْكَةُ شَرْقًا
 عَنْهَا ، وَفِي جَوْفِهَا سَمُورَةٌ . وَفِي الشَّرْقِ عَنْ سَلْمَنْكَةَ آيَلَةُ آخِرِ
 الْجَنُوبِ ، وَأَرْضُ قَشْتَالَةَ شَرْقًا عَنْهَا ، وَفِيهَا مَدِينَةُ شَقُونِيَّةَ . وَفِي
 شَمَالِهَا أَرْضُ لِيُونٍ وَبَرْغَشَتْ^(١) ، ثُمَّ وَرَاءَهَا فِي الشَّمَالِ أَرْضُ جَلِيقِيَّةَ
 إِلَى زَاوِيَةِ الْقِطْعَةِ . وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْحِيطُ فِي آخِرِ الضِّلْعِ الْغَرْبِيِّ
 بَلَدُ سَلْتِيَاقُو ، وَمَعْنَاهُ يَمْقُوبُ . وَفِيهَا مِنْ شَرْقِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ
 مَدِينَةُ شِطْلِيَّةَ عِنْدَ آخِرِ الْجُزْءِ فِي الْجَنُوبِ وَشَرْقًا عَنْ قَشْتَالَةَ . وَفِي
 شَمَالِهَا وَشَرْقِهَا وَشَقَّةُ وَيَنْبَلُونَةُ عَلَى سَمْتِهَا شَرْقًا وَشَمَالًا . وَفِي غَرْبِ
 وَيَنْبَلُونَةَ قَشْتَالَةَ ثُمَّ نَاجِزَةٌ فَيَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ بَرْغَشَتْ . وَيَعْتَرِضُ وَسَطَ
 هَذِهِ الْقِطْعَةِ جَبَلٌ عَظِيمٌ مُحَازٍ لِلْبَحْرِ وَالضِّلْعِ الشَّمَالِيِّ الشَّرْقِيِّ مِنْهُ
 وَعَلَى قُرْبٍ ، وَيَتَّصِلُ بِهِ وَيَطْرَفُ الْبَحْرُ عِنْدَ وَيَنْبَلُونَةَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ
 الَّذِي ذَكَرْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَتَّصِلَ فِي الْجَنُوبِ بِالْبَحْرِ الرَّوْمِيِّ فِي
 الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ ، وَيَصِيرُ حَجَرًا^(٢) عَلَى بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ
 وَثَنَائِيَاهُ لَهَا أَبْوَابٌ تُفْضِي إِلَى بِلَادِ غَشْكُونِيَّةَ مِنْ أُمَمِ الْفَرَنْجِ . فَبِهَا
 مِنَ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ بَرْشَلُونَةُ وَأَرْبُونَةُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الرَّوْمِيِّ ،
 وَخَرِيدَةُ وَقَرْقَشُونَةُ وَرَاءَهُمَا فِي الشَّمَالِ . وَمِنْهَا مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ

(١) كذا ، وقد ذكرها صاحب معجم البلدان : بَرْغَشَ .

(٢) أي مدافعاً عنها .

طَلُوشَةُ شِمَالاً عَنْ تَحْرِيدَةٍ . وَأَمَّا الْمُنْكَشِفُ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ يَحْيَى
الْشَّرْقِ فِقِطْعَةٌ عَلَى شَكْلِ مُثَلَّثٍ مُسْتَطِيلٍ زَاوِيَتُهُ الْحَادَّةُ وَرَاءَ الْبَرَنَاتِ
شَرْقاً . وَفِيهَا عَلَى الْبَحْرِ الْهَيْطُ عَلَى رَأْسِ الْقِطْعَةِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلُ
الْبَرَنَاتِ بَلَدُ نَيُونَةَ . وَفِي آخِرِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ فِي النَاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ
مِنْ الْجُزْءِ أَرْضُ بَنْطُو مِنْ الْفَرَنْجِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ . وَفِي الْجُزْءِ الثَّانِي
فِي النَاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ أَرْضُ غَشْكُونِيَّةَ ، وَفِي شِمَالِهَا أَرْضُ بَنْطُو
وَبَرْغَشَتْ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُمَا . وَفِي شَرْقِ يِلَادِ غَشْكُونِيَّةِ فِي شِمَالِهَا
قِطْعَةُ أَرْضٍ مِنَ الْبَحْرِ الرَّوْمِيِّ دَخَلَتْ فِي هَذَا الْجُزْءِ كَالصَّرْسِ مَائِلَةً
إِلَى الشَّرْقِ قَلِيلاً ، وَصَارَتْ يِلَادُ غَشْكُونِيَّةِ فِي غَرْبِهَا دَاخِلَةً فِي
جُودِ مِنَ الْبَحْرِ . وَعَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ شِمَالاً يِلَادُ جَنُودَ وَعَلَى
سَنْتِهَا فِي الشَّمَالِ جَبَلُ نَيْتِ جُونِ . وَفِي شِمَالِهِ وَعَلَى سَنْتِهِ أَرْضُ بَرْغُونَةَ .
وَفِي الشَّرْقِ عَنْ طَرَفِ جَنُودَ الْخَارِجِ مِنَ الْبَحْرِ الرَّوْمِيِّ طَرَفٌ آخَرُ
خَارِجٌ مِنْهُ يَبْقَى بَيْنَهُمَا جُونُ دَاخِلٌ مِنَ الْبَرِّ فِي الْبَحْرِ فِي غَرْبِيَّةِ
نَيْسُ وَفِي شَرْقِيَّةِ مَدِينَةِ رُومَةَ الْعَظْمَى كُرْسِيٌّ مَلِكِ الْإِفْرَنْجَةِ وَمَسْكُنُ
الْبَابَا بَطْرِيكَهِمُ الْأَعْظَمِ . وَفِيهَا مِنَ الْمَبَانِي الضَّخْمَةِ وَالْهَيْكَلِ الْهَائِلَةِ
وَالْكَنَائِسِ الْعَادِيَّةِ^(١) مَا هُوَ مَعْرُوفُ الْأَخْبَارِ . وَمِنْ عَجَائِبِهَا النَّهْرُ
الْجَارِي فِي وَسْطِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ مَفْرُوشاً قَاعَهُ بِيَلَاطِ
النُّحَاسِ ، وَفِيهَا كَنِيسَةُ بَطْرُسَ وَبُولُسَ مِنَ الْمَوَارِيثِ وَهُمَا مَذْفُونَانِ
بِهَا . وَفِي الشَّمَالِ عَنْ يِلَادِ رُومَةَ يِلَادُ أَقْرَنْصِيصَةَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ .

(١) أي التي تحتوي على التحف والطرف القديمة . نسبة لعاد .

وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوبيه رومة بلاد نايل^(١) في الجانب الشرقي منه متصلة ببلاد قلورية من بلاد الفرنج . وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا الجزء من الجزء الثالث مغرباً ومحاذاً للشمال من هذا الجزء ، وأنتهى إلى نحو الثلث منه ، وعليه كثير من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبيه فيما بينه وبين البحر المحيط . ومن شماله بلاد أنكلية في الإقليم السادس .

وفي الجزء الثالث من هذا الإقليم في غربيه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي يحيط بها من شرقيها يوصل من برها في الإقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر على سمت الشمال إلى هذا الجزء . وفي شرقي بلاد قلورية بلاد أنكيزدة في جون بين خليج البنادقة والبحر الرومي ، ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الإقليم الرابع وفي البحر الرومي . ويحيط به في شرقيها خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهباً إلى سمت الشمال ، ثم ينعطف إلى الغرب محاذاً لآخر الجزء الشمالي . ويخرج على سمت من الإقليم الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه في الشمال ، ثم يغرب معه في الإقليم السادس إلى أن ينهي قبالة خليج في شماليه في بلاد إنكلية من أمم اللاتين كما نذكر . وعلى هذا الخليج وبينه وبين هذا الجبل

(١) كذا ، وهي مدينة «بابولي» .

ما داما ذاهبين الى الشمال بلاد البنادقة ، فإذا ذهبا إلى المغرب فبينهما بلاد حروايا ثم بلاد الألمانين عند طرف الخليج .

وفي الجزء الرابع من هذا الإقليم قطعة من البحر الرومي خرجت إليه من الإقليم الرابع مفرسة كلها يقطع من البحر . ويخرج منها إلى الشمال وبين كل ضرسين منها طرف من البحر في الجون بينهما ، وفي آخر الجزء شرقا قطع من البحر . ويخرج منها إلى الشمال خليج القسطنطينية ، يخرج من هذا الطرف الجنوبي وتذهب على سمت الشمال إلى أن تدخل في الإقليم السادس ، وينمط من هنالك عن قرب مشرقا إلى بحر نيطن في الجزء الخامس وتبصر الرابع قبله ، والسادس بعده من الإقليم السادس كما تذكر . وتلد القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال . وهي المدينة العظيمة التي كانت كرسي القياصرة وبها من آثار البناء والصفحة ما كثرت عنه الأحاديث . والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء ، وفيها بلاد ممدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم . وفي شرقي هذا الخليج إلى آخر الجزء قطعة من أرض باطوس ، وأهلها لهذا العهد تجالات للتركان ، وبها ملك ابن عثمان وقاعدته بها بورصة ، وكانت من قبلهم للروم وغلبهم عليها الأمم إلى أن صارت للتركان .

وفي الجزء الخامس من هذا الإقليم من غربيته وجنوبه أرض باطوس ، وفي الشمال عنها إلى آخر الجزء بلاد صورية ، وفي شرقي

عُمُورِيَّة نَهْرُ قَبَاقِبَ الَّذِي يُبْدَأُ الْفُرَاتَ ؛ يُخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ هُنَالِكَ وَيَذْهَبُ فِي الْجَنُوبِ حَتَّى يُخَالِطَ الْفُرَاتَ قَبْلَ وَصُولِهِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّانِي إِلَى مَمَرِهِ فِي الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ . وَهُنَالِكَ فِي غَرْبِهِ آخِرُ الْجُزْءِ فِي مَبْدَأِ نَهْرِ سَيْنَحَانَ ثُمَّ نَهْرُ جَنِيحَانَ غَرْبِيَّهِ الدَّاهِبِينَ عَلَى سَمْتِهِ وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهَا . وَفِي شَرْقِهِ هُنَالِكَ مَبْدَأُ نَهْرِ الدَّجَلَةِ الذَّاهِبِ عَلَى سَمْتِهِ ، وَفِي مُوَارَاتِهِ حَتَّى يُخَالِطَهُ عِنْدَ بَغْدَادَ . وَفِي الزَّاوِيَةِ الَّتِي بَيْنَ الْجَنُوبِ وَالشَّرْقِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ دِجْلَةَ بَلَدُ مِيَّافَارِقِينَ . وَنَهْرُ قَبَاقِبَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ يَقْسِمُ هَذَا الْجُزْءَ بِقِطْعَتَيْنِ : إِحْدَاهُمَا غَرْبِيَّةٌ جَنُوبِيَّةٌ وَفِيهَا أَرْضُ بَاطُوسَ كَمَا قُلْنَاهُ وَأَسَافِلُهَا إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شِمَالًا ، وَوَرَاءَ الْجَبَلِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْهُ نَهْرُ قَبَاقِبَ أَرْضُ عُمُورِيَّةَ كَمَا قُلْنَاهُ ؛ وَالْقِطْعَةُ الثَّانِيَّةُ شَرْقِيَّةٌ شِمَالِيَّةٌ عَلَى الثَّلَاثِ فِي الْجَنُوبِ مِنْهَا مَبْدَأُ الدَّجَلَةِ وَالْفُرَاتِ ، وَفِي الشَّمَالِ بِلَادُ الْبَيْلَقَانِ مُتَّصِلَةٌ بِأَرْضِ عُمُورِيَّةَ مِنْ وَرَاءِ جَبَلِ قَبَاقِبَ ، وَهِيَ عَرِيضَةٌ ، وَفِي آخِرِهَا عِنْدَ مَبْدَأِ الْفُرَاتِ بَلَدُ خَرْشَنَةَ . وَفِي الزَّاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ قِطْعَةٌ مِنْ بَحْرِ نَيْطِشَ الَّذِي يُدْعَى خَلِيجُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ .

وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ هَذَا الْأَقْلِيمِ فِي جَنُوبِهِ وَغَرْبِهِ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةٍ مُتَّصِلَةٌ إِلَى أَنْ يَتَجَاوَزَ وَسَطَ الْجُزْءِ إِلَى جَانِبِ الشَّرْقِ . وَفِيهَا بَلَدُ أَرْدُنَ فِي الْجَنُوبِ وَالْغَرْبِ وَفِي شِمَالِهَا تَقْلَيْسُ وَدُبَيْلُ . وَفِي شَرْقِ أَرْدُنَ مَدِينَةٌ خِلَاطَ ثُمَّ بَرْدَعَةُ ، وَفِي جَنُوبِهَا بِأَنْحَافِ إِلَى الشَّرْقِ مَدِينَةُ أَرْمِينِيَّةٍ . وَمِنْ هُنَالِكَ تَخْرُجُ بِلَادُ أَرْمِينِيَّةٍ إِلَى الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ . وَفِيهَا هُنَالِكَ بَلَدُ الْمَرَاغَةِ فِي شَرْقِ جَبَلِ الْأَكْرَادِ الْمُسَمَّى بِأَزْمَى ،

وقد مر ذكره في الجزء السادس منه . ويتأخيم بلاد أزمينية في هذا الجزء وفي الإقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد أذربيجان ، وآخرها في هذا الجزء شرقاً بلاد أردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء السابع ، ويسمى بحر طبرستان . وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر وهم التركمان . ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال يتصل بعضها ببعض على سمت الغرب إلى الجزء الخامس ، فتمر فيه منطقة ومحيطه ببلد ميافارقين . ويخرج إلى الإقليم الرابع عند آمد ، ويتصل بجبل السلسلة في أسافل الشام ، ومن هنالك يتصل بجبل اللكام كما مر . وتبين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثانياً كالأبواب تفضي من الجانبين . ففي جنوبها بلاد الأبواب متصلة في الشرق إلى بحر طبرستان ، وعليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب . وتتصل بلاد الأبواب في الغرب من ناحية جنوبها ببلد أزمينية . وتبينها في الشرق وتبين بلاد أذربيجان الجنوبية بلاد الزاب^(١) متصلة إلى بحر طبرستان . وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها تملكه السري في الزاوية الغربية الشمالية منها . وفي زاوية الجزء كله قطعة أيضاً من بحر نيطن الذي يمدّه خليج القسطنطينية ، وقد مر ذكره . وتيف هذه القطعة من بحر نيطن بلاد السري وعليها منها بلد

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ ، وتقع بلاد الزاب في المغرب الأوسط (الجزائر) ، قد تكون هنا كلمة الزاب معرفة عن كلمة أخرى ، إذ لا صلة لها بالمنطقة التي يتكلم عنها .

أَطْرَافُ بَرْزِيْدَةٍ^(١) وَتَتَّصِلُ بِبِلَادِ السَّرِيْرِ بَيْنَ جَبَلِ الْأَبْوَابِ وَالْجَهَةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ الْجُزْءِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ شَرْقًا إِلَى جَبَلِ حَاجِزٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَرْضِ الْخَزَرِ . وَعِنْدَ آخِرِهَا مَدِينَةُ صَوْلَ . وَوَرَاءَ هَذَا الْجَبَلِ الْحَاجِزِ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ الْخَزَرِ تَنْتَهِي إِلَى الزَاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مِنْ بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ وَآخِرِ الْجُزْءِ شَمَالًا .

وَالْجُزْءُ السَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ غَرْبِيَّةٌ كُلُّهُ مَمْمُورٌ بِبَحْرِ طَبْرِسْتَانَ ، وَخَرَجَ مِنْ جَنُوبِهِ فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ الْقِطْعَةُ الَّتِي ذَكَرْنَا هُنَاكَ أَنَّ عَلَيْهَا بِلَادَ طَبْرِسْتَانَ ، وَجِبَالُ الدَّيْلَمِ إِلَى قَزْوِينَ . وَفِي غَرْبِيَّةِ تِلْكَ الْقِطْعَةِ مُتَّصِلَةٌ بِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ . وَتَتَّصِلُ بِهَا مِنْ شَمَالِهَا الْقِطْعَةُ الَّتِي فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ شَرْقِيَّةِ أَيْضًا . وَيَنْكَشِفُ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ قِطْعَةٌ عِنْدَ زَاوِيَتِهِ الشَّمَالِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ يَصُبُّ فِيهَا نَهْرُ أَثْلٍ^(٢) فِي هَذَا الْبَحْرِ . وَيَبْقَى مِنْ هَذَا الْجُزْءِ فِي نَاحِيَةِ الشَّرْقِ قِطْعَةٌ مُنْكَشِفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ هِيَ بَجَالَاتُ لِلْغُرِّ مِنْ أَمَمِ الثُّرُكِ يُحِيطُ بِهَا جَبَلٌ مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ دَاخِلٌ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ ، وَيَذْهَبُ فِي الْغَرْبِ إِلَى مَا دُونَ وَسَطِهِ فَيَنْعَطِفُ إِلَى الشَّمَالِ إِلَى أَنْ يُلَاقِيَ بَحْرَ طَبْرِسْتَانَ فَيَحْتَفُّ بِهِ ذَاهِبًا مَعَهُ إِلَى تَقِيَّتِهِ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَ طَرَفِهِ وَيُفَارِقُهُ وَيُسَمَّى هُنَاكَ جَبَلِ سِيَاه ، وَيَذْهَبُ مُغْرِبًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ، ثُمَّ يَرْجِعُ جَنُوبًا إِلَى الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ الْإِقْلِيمِ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ ، وَكَذَا فِي مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ ، وَاسْمُهَا الْحَالِي : طَرَابُزُونَ .

(٢) هُوَ نَهْرُ «أَوْرَال» .

الخامس . وهذا الطرف منه هو الذي أعترض في هذا الجزء بين أرض السرير وأرض الخزير . وأتصلت بأرض الخزير في الجزء السادس والسابع حافات هذا الجبل المسمى جبل سياه كما سيأتي . والجزء الثامن من هذا الإقليم الخامس . كلّه تجالات للغز من أمم الترك ؛ وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيحون ؛ دورها ثلثمائة ميل . ويصب فيها أنهار كثيرة من أرض هذه الجالات . وفي الجهة الشمالية الشرقية منه بحيرة عرعون ؛ دورها أربع مائة ميل ؛ وماؤها حلو . وفي الناحية الشمالية من هذا الجزء جبل يرغاد ، ومعناه جبل الثلج لأنه لا يذوب فيه ، وهو متصل بآخر الجزء . وفي الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصلب لا يثبت شيئا يسمى عرعون وبه سميت البحيرة . ويتجلب منه ومن جبل يرغاد شمالي البحيرة أنهار لا تنحصر عدتها فتصب فيها من الجانبين .

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم بلاد أركس من أمم الترك في غرب بلاد الغز وشرق بلاد الكيكية . ويحف به من جهة الشرق آخر الجزء جبل قوقيا المحيط بياجوج ومأجوج ، يفترض هنالك من الجنوب إلى الشمال حتى ينقطع أول دخوله من الجزء العاشر ، وقد كان دخل إليه من آخر الجزء العاشر من الإقليم الرابع قبله وأحتف هنالك بالبحر المحيط إلى آخر الجزء في الشمال ، ثم انمطت مغربا في الجزء العاشر من الإقليم الرابع إلى ما دون نصفه ، وأحاط من أوله إلى هنا ببلاد الكيكية ، ثم خرج

إلى الجزء العاشر من الأقليم الخامس ، فذهب فيه مُتَرَبِّباً إلى آخره ،
وَبَقِيََتْ فِي جَنُوبِيَّهِ مِنْ هَذَا أَلْجُزءِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْغَرْبِ قَبْلَ
آخِرِ بِلَادِ الْكِيْمَاكِيةِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْجُزءِ التَّاسِعِ فِي شَرْقِيَّهِ وَفِي
أَلْعُلَى مِنْهُ وَأَنْعَطَفَ قَرِيباً إِلَى الشَّمَالِ وَذَهَبَ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى الْجُزءِ
التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ . وَفِيهِ السُّدُ هُنَالِكَ كَمَا نَذَكُرُهُ . وَبَقِيََتْ
مِنْهُ الْقِطْعَةُ الَّتِي أَحَاطَ بِهَا جَبَلُ قَوْقِيَا عِنْدَ الزَّوَايَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ
مِنْ هَذَا الْجُزءِ مُسْتَطِيلَةٌ إِلَى الْجَنُوبِ ، وَهِيَ مِنْ بِلَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ .
وَفِي الْجُزءِ الْعَاثِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ أَرْضُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُتَّصِلَةٌ فِيهِ كُلُّهُ إِلَّا قِطْعَةً مِنَ الْبَحْرِ الْحَيْطِ غَمَرَتْ طَرَفًا فِي شَرْقِيَّهِ
مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ ، وَإِلَّا الْقِطْعَةُ الَّتِي يَفْصِلُهَا إِلَى جِهَةِ الْجَنُوبِ
وَأَلْتَقَرَّبَ جَبَلُ قَوْقِيَا حِينَ مَرَّ فِيهِ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَأَرْضُ يَأْجُوجَ
وَمَأْجُوجَ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

الاقليم السادس

فَالْجُزءُ الْأَوَّلُ مِنْهُ غَمَرَ الْبَحْرُ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِهِ وَأُسْتَدَارَ شَرْقًا
مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ ، ثُمَّ ذَهَبَ مَعَ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ إِلَى الْجَنُوبِ
وَأَنْتَهَى قَرِيباً مِنَ النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ ، فَأَنْكَشَفَتْ قِطْعَةٌ مِنْ هَذِهِ
الْأَرْضِ فِي هَذَا الْجُزءِ دَاخِلَةٌ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ ، وَفِي الزَّوَايَةِ الْجَنُوبِيَّةِ
الشَّرْقِيَّةِ مِنَ الْبَحْرِ الْحَيْطِ كَالْجَوْنِ فِيهِ ، وَيَنْفَسِحُ طَوْلًا وَعَرْضًا ،
وَهِيَ كُلُّهَا أَرْضُ بَرِيطَانِيَّةَ . وَفِي بَاهَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ ، وَفِي الزَّوَايَةِ

الْجَنُوبِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادُ صَاقِسَ مَتَّصِلَةٌ بِبِلَادِ بِنَطُو
الَّتِي مَرُّ ذِكْرُهَا فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ .

وَالْجُزْءُ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ دَخَلَ الْبَحْرُ الْمَحِيطُ مِنْ غَرْبِهِ وَشَمَالِهِ ،
فَمِنْ غَرْبِهِ قِطْعَةٌ مُسْتَطِيلَةٌ أَكْبَرُ مِنْ نِصْفِهِ الشَّمَالِيِّ مِنْ شَرْقِ أَرْضِ
بَرِيطَانِيَّةٍ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ ، وَاتَّصَلَتْ بِهَا الْقِطْعَةُ الْأُخْرَى فِي الشَّمَالِ
مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ ، وَأَنْفَسَحَتْ فِي النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بَعْضُ الشَّيْءِ ،
وَفِيهِ هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ جَزِيرَةٍ إِنْكِلَتَرَةٍ ، وَهِيَ جَزِيرَةٌ عَظِيمَةٌ مُتَّسِعَةٌ
مُشْتَمِلَةٌ عَلَى مُدُنٍ وَبِهَا مُلْكٌ صَخْمٌ وَيَقِيسُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ . وَفِي
جَنُوبِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ وَجَزِيرَتِهَا فِي النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بِلَادُ
أَرْمَنْدِيَّةٍ ، وَبِلَادُ أَفْلَادَشَ مُتَّصِلِينَ بِهَا ، ثُمَّ بِلَادُ إِفْرَنْسِيَّةٍ جَنُوبًا
وَعَرَبًا مِنْ هَذَا الْجُزْءِ ، وَبِلَادُ بَرْغُونِيَّةٍ شَرْقًا عَنْهَا ، وَكُلُّهَا لِأَمَمِ
الْإِفْرَنْجِيَّةِ ، وَبِلَادُ اللَّيْمَانِيِّينَ فِي النِّصْفِ الشَّرْقِيِّ مِنْ الْجُزْءِ . فَجَنُوبُهُ
بِلَادُ أَنْكِلَايَّةٍ ثُمَّ بِلَادُ بَرْغُونِيَّةٍ شَمَالًا ثُمَّ أَرْضُ لُهوِيكَّةَ وَشَطُونِيَّةَ .
وَعَلَى قِطْعَةِ الْبَحْرِ الْمَحِيطِ فِي الزَّاوِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ أَرْضُ أَفْرِيرَةٍ
وَكُلُّهَا لِأَمَمِ اللَّيْمَانِيِّينَ .

وَفِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ بِلَادُ
مَرَاتِيَّةٍ فِي الْجَنُوبِ وَبِلَادُ شَطُونِيَّةٍ فِي الشَّمَالِ . وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ
بِلَادُ أَنْكُورِيَّةٍ فِي الْجَنُوبِ وَبِلَادُ بَلُونِيَّةٍ فِي الشَّمَالِ ، يَعْتَرِضُ بَيْنَهُمَا
جَبَلٌ بَلُوطٌ دَاخِلًا مِنَ الْجُزْءِ الرَّابِعِ وَيُرُّ مُغْرَبًا بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ ،
أَنْ يَقِفَ فِي بِلَادِ شَطُونِيَّةٍ آخِرَ النِّصْفِ الْغَرْبِيِّ .

وَفِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ أَرْضُ جَشُولِيَّةَ . وَتَحْتَهَا فِي

الشمال بلاد الروسية . ويفصل بينهما جبل بلواط من أول الجزء غرباً إلى أن ينفذ في النصف الشرقي . وفي شرق أرض جشولية بلاد جرمانيّة . وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية ، ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الروسي ، وعند مدفعه في بحر نيطنش ، فيقع قطعة من بحر نيطنش في أعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء ، ويمدّها الخليج وينتهي في الزاوية بلد مسينا .

وفي الجزء الخامس من الإقليم السادس ، ثم في الناحية الجنوبية عند بحر نيطنش يتصل من الخليج في آخر الجزء الرابع ، ويخرج على سمنه مشرقاً فيمر في هذا الجزء كله ، وفي بعض السادس على طول ألف وثلاثمائة ميل من مبدئه في عرض ستائة ميل . ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء في غربها إلى شرقها برّ مستطيل في غربه هرقلية على ساحل بحر نيطنش متصلة بأرض التيلقان من الإقليم الخامس . وفي شرقه بلاد اللانية وقاعدتها سوتلي على بحر نيطنش . وفي شمال بحر نيطنش في هذا الجزء غرباً أرض ترخان وشرقاً بلاد الروسية وكلها على ساحل هذا البحر . وبلاد الروسية تحيط ببلاد ترخان من شرقها في هذا الجزء شمالها في الجزء الخامس من الإقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الإقليم .

وفي الجزء السادس في غربيّه بقية بحر نيطنش ، وينحرف قليلاً إلى الشمال ، ويبقى بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالاً بلاد قانيّة ، وفي جنوبيّه منفسحاً إلى الشمال بما انحرف هو كذلك

بَقِيَّةُ بِلَادِ اللّائِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ آخِرَ جَنُوبِهِ فِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ . وَفِي
النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مُتَّصِلُ أَرْضِ الْخَزَرِ . وَفِي شَرْقِهَا
أَرْضُ بَرْطَاسَ ، وَفِي الزَاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بُلْغَارَ . وَفِي
الزَاوِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ أَرْضُ بِلَجَرِ يَجُوزُهَا هُنَاكَ قِطْعَةٌ مِنْ
جَبَلِ سِيَاهِ كَوْهِ الْمُنْعَطِفِ مَعَ بَحْرِ الْخَزَرِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ بَعْدَهُ ،
وَيَذْهَبُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ مُقَرَّبًا فَيَجُوزُ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ ، وَيَدْخُلُ إِلَى
الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ ، فَيَتَّصِلُ هُنَاكَ بِجَبَلِ الْأَبْوَابِ
وَعَلَيْهِ مِنْ هُنَاكَ نَاحِيَةُ بِلَادِ الْخَزَرِ .

وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مَا
جَاذَهُ جَبَلُ سِيَاهِ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِ بِحَرَ طَبْرِسْتَانَ . وَهُوَ قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِ
الْخَزَرِ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ غَرْبًا . وَفِي شَرْقِهَا الْقِطْعَةُ مِنْ بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ
الَّتِي يَجُوزُهَا هَذَا الْجَبَلُ مِنْ شَرْقِهَا وَشَمَالِهَا . وَوَرَاءَ جَبَلِ سِيَاهِ فِي
النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ أَرْضُ بَرْطَاسَ . وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ
الْجُزْءِ أَرْضُ شَعْرَبَ وَيَخْنَاكَ وَهُمْ أُمَمُ التُّرْكِ .

وَفِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ وَالنَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ مِنْهُ كُلِّهَا أَرْضُ الْجَوْلَجِ
مِنَ التُّرْكِ فِي النَّاحِيَةِ الشَّمَالِيَّةِ غَرْبًا ، وَالْأَرْضُ الْمُنْتَنَةِ ، وَشَرْقُ
الْأَرْضِ الَّتِي يُقَالُ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَاجُوجَ خَرَبَاهَا قَبْلَ بِنَاءِ السِّدِّ .
وَفِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُنْتَنَةِ مَبْدَأُ نَهْرِ الْأَثَلِ مِنْ أَعْظَمِ أَنْهَارِ الْعَالَمِ
وَتَمَرُّهُ فِي بِلَادِ التُّرْكِ وَمَصَّبُهُ فِي بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ فِي الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ
فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ . وَهُوَ كَثِيرُ الْإِنْعِطَافِ يَخْرُجُ مِنْ جَبَلٍ
فِي الْأَرْضِ الْمُنْتَنَةِ مِنْ ثَلَاثَةِ يَنَابِيعَ تَجْتَمِعُ فِي نَهْرٍ وَاحِدٍ وَيُرُّ

على سَمْتِ الْقَرْبِ إِلَى آخِرِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ ، فَيَنْعَطِفُ
شَمَالاً إِلَى الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ ، فَيَمُرُّ فِي طَرَفِهِ بَيْنَ
الْجَنُوبِ وَالْمَغْرِبِ ؛ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ السَّابِعِ وَيَذْهَبُ
مُغْرِباً غَيْرَ بَعِيدٍ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَانِيَةً إِلَى الْجَنُوبِ ، وَيَرْجِعُ إِلَى الْجُزْءِ
السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهُ جَدُولٌ يَذْهَبُ مُغْرِباً
وَيَصُبُّ فِي بَحْرِ نِيطَشَ فِي ذَلِكَ الْجُزْءِ ، وَيَمُرُّ هُوَ فِي قِطْعَةٍ بَيْنَ
الشَّمَالِ وَالشَّرْقِ فِي بِلَادِ بُلْقَارَ فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ
السَّادِسِ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ ثَالِثَةً إِلَى الْجَنُوبِ ، وَيَنْقُذُ فِي جَبَلٍ سِيَاهٍ وَيَمُرُّ
فِي بِلَادِ الْخَزَرِ وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ فِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْهُ ،
فَيَصُبُّ هُنَاكَ فِي بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ فِي الْقِطْعَةِ الَّتِي أَنْكَشَفَتْ مِنَ الْجُزْءِ
عِنْدَ الزَّائِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ .

وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهُ بِلَادُ
خَفْشَاخَ مِنَ التُّرْكِ وَهُمْ قَفْجَاقُ ، وَبِلَادُ الشَّرْكَسِ مِنْهُمْ أَيْضاً .
وَفِي الشَّرْقِ مِنْهُ بِلَادُ يَأْجُوجَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا جَبَلٌ قَوْقِيَا الْوَحْشِ ،
وَقَدْ مَرَّ ذِكْرُهُ ، يَبْدَأُ مِنَ الْبَحْرِ الْوَحْشِيِّ فِي شَرْقِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ
وَيَذْهَبُ مَعَهُ إِلَى آخِرِ الْإِقْلِيمِ فِي الشَّمَالِ ، وَيُفَارِقُهُ مُغْرِباً وَبِأَنْحِرَافٍ
إِلَى الشَّمَالِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ الْخَامِسِ ،
فَيَرْجِعَ إِلَى سَمْتِهِ الْأَوَّلِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي هَذَا الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ
الْإِقْلِيمِ مِنْ جَنُوبِهِ إِلَى شَمَالِهِ بِأَنْحِرَافٍ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَفِي وَسْطِهِ
هَهُنَا السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الْإِسْكَندَرُ ، ثُمَّ يَخْرُجُ عَلَى سَمْتِهِ إِلَى
الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ وَفِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْهُ ، فَيَمُرُّ فِيهِ إِلَى الْجَنُوبِ

إلى ان يلقى الْبَحْرَ الْوَحِيدَ فِي شَمَالِهِ ، ثُمَّ يَنْعَطِفُ مَعَهُ مِنْ هُنَاكَ مُغْرِباً إِلَى الْإِقْلِيمِ السَّابِعِ إِلَى الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ ، فَيَتَّصِلُ هُنَاكَ بِقِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْوَحِيدِ فِي غَرْبِهِ . وَفِي وَسْطِ هَذَا الْجُزْءِ التَّاسِعِ هُوَ السُّدُّ الَّذِي بَنَاهُ الْإِسْكََنْدَرُ كَمَا قُلْنَا . وَالصَّحِيحُ مِنْ خَبَرِهِ فِي الْقُرْآنِ ؛ وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خُرْدَاذِيَّةٍ فِي كِتَابِهِ فِي الْجُغْرَافِيَا أَنَّ الْوَائِقَ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ السُّدَّ انْفَتَحَ فَانْتَبَهَ فَرِعاً ، وَبَعَثَ سَلَاماً لِلرُّجْمَانِ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ ، وَجَاءَ بِخَبَرِهِ ، وَوَصَفَهُ فِي حِكَايَةِ طَوِيلَةٍ لَيْسَتْ مِنْ مَقَاصِدِ كِتَابِنَا هَذَا .

وَفِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ بِلَادُ مَاجُوجَ مُتَّصِلَةٌ فِيهِ إِلَى آخِرِهِ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هُنَاكَ مِنَ الْبَحْرِ الْوَحِيدِ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ مُسْتَطِيلَةٌ فِي الشَّمَالِ وَعَرِيضَةٌ بَعْضَ الشَّيْءِ فِي الشَّرْقِ .

الْإِقْلِيمُ السَّابِعُ

وَالْبَحْرُ الْوَحِيدُ قَدْ عَمَرَ عَامَّتَهُ مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ إِلَى وَسْطِ الْجُزْءِ الْخَامِسِ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِجَبَلٍ قَوْيَا الْوَحِيدِ بِبَاجُوجَ وَمَاجُوجَ .
فَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ وَالثَّانِي مَمْنُورَانِ بِالْمَاءِ إِلَّا مَا انْكَشَفَ مِنْ جَزِيرَةٍ إِنَّكَ لَتَرَاهُ أَتَتْ مُعْظَمُهَا فِي الثَّانِي . وَفِي الْأَوَّلِ مِنْهَا طَرَفٌ أَنْعَطَفَ بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّمَالِ ، وَتَقَيَّئُهَا مَعَ قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ مُسْتَدِيرَةٌ عَلَيْهِ فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَهِيَ مَذْكُورَةٌ هُنَاكَ . وَالْحَاجُزُ مِنْهَا إِلَى الْبَحْرِ فِي هَذِهِ الْقِطْعَةِ سَعَةٌ اثْنِي

عَشَرَ مِيلًا . وَوَرَاءَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ فِي شِمَالِ الْجُزْءِ الثَّانِي جَزِيرَةُ
رَسْلَانْدَةَ مُسْتَطِيلَةً مِنَ الْقَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ .

وَالْجُزْءُ الثَّالِثُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ مَنُومَرُ أَكْثَرُهُ بِالْبَحْرِ إِلَّا
قِطْعَةً مُسْتَطِيلَةً فِي جَنْوبِهِ وَتَتَّسِعُ فِي شَرْقِهَا ، وَفِيهَا هُنَالِكَ مُتَّصِلُ
أَرْضِ فَلَوْنِيَّةٍ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا فِي الثَّالِثِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ .
وَأَنَّهَا فِي شِمَالِهَا فِي الْقِطْعَةِ مِنَ الْبَحْرِ الَّتِي تَعْمُرُ هَذَا الْجُزْءَ .
ثُمَّ فِي الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْهَا مُسْتَدِيرَةٌ فَسِيحَةٌ ، وَتَتَّصِلُ بِالْبَحْرِ مِنْ
بَابٍ فِي جَنْوبِهَا يُفْضِي إِلَى بِلَادِ فَلَوْنِيَّةٍ . وَفِي شِمَالِهَا جَزِيرَةُ
بُوقَاعَةَ^(١) مُسْتَطِيلَةً مَعَ الشِّمَالِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ .

وَالْجُزْءُ الرَّابِعُ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ شِمَالُهُ كُلُّهُ مَنُومَرُ بِالْبَحْرِ
الْحَيْطِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَجَنْوبُهُ مُنْكَشِفٌ ، وَفِي غَرْبِهِ
أَرْضُ قِيمَاذَكَ مِنَ التُّرْكِ ، وَفِي شَرْقِهَا بِلَادُ طَسْتٍ ، ثُمَّ أَرْضُ
رَسْلَانْدَةَ إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا ، وَهِيَ دَائِمَةُ التَّلُوجِ وَغُمْرَانِهَا
قَلِيلٌ . وَتَتَّصِلُ بِبِلَادِ الرُّوسِيَّةِ فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ فِي الْجُزْءِ
الرَّابِعِ وَالْخَامِسِ مِنْهُ

وَفِي الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْهُ
بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ وَيَنْتَهِي فِي الشِّمَالِ إِلَى قِطْعَةٍ مِنَ الْبَحْرِ الْحَيْطِ الَّتِي
يَتَّصِلُ بِهَا جَبَلٌ قَوْيَا كَمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبْلُ . وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ
مِنْهُ مُتَّصِلُ أَرْضِ الْقِمَانِيَّةِ الَّتِي عَلَى قِطْعَةٍ بِحَرِّ نِيطَشٍ مِنَ الْجُزْءِ
السَّادِسِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ ، وَيَنْتَهِي إِلَى بُحَيْرَةِ طَرْمِي مِنْ هَذَا

(١) فِي نَسْخَةٍ أُخْرَى: بَرَعَاقِبَةُ .

الجزء ، وهي عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ إِلَيْهَا أَنْهَارٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْجِبَالِ عَنْ
الْجَنُوبِ وَالشَّامِلِ . وَفِي شَمَالِ النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ
أَرْضُ التَّتَارِيَّةِ مِنَ التُّرْكَمَانِ^(١) إِلَى آخِرِهِ .

وَفِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْغَرْبِيَّةِ الْجَنُوبِيَّةِ مُتَّصِلُ
بِلَادِ الْقِمَانِيَّةِ ، وَفِي وَسْطِ النَّاحِيَةِ بُحَيْرَةٌ عَشُورَ عَذْبَةٌ تَنْجَلِبُ
إِلَيْهَا الْأَنْهَارُ مِنَ الْجِبَالِ فِي النُّوَاهِي الشَّرْقِيَّةِ ، وَهِيَ جَامِدَةٌ
دَائِمًا لِشِدَّةِ الْبَرْدِ إِلَّا قَلِيلًا فِي زَمَنِ الصَّيْفِ . وَفِي شَرْقِ بِلَادِ
الْقِمَانِيَّةِ بِلَادُ الرُّوسِيَّةِ الَّتِي كَانَ مَبْدُؤُهَا فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ
فِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّامِلِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ الْخَامِسِ مِنْهُ ، وَفِي الزَّوَايَةِ ،
الْجَنُوبِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ بَقِيَّةُ أَرْضِ بُلْغَارَ الَّتِي كَانَ مَبْدُؤُهَا
فِي الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ . وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ الشَّامِلِيَّةِ مِنَ الْجُزْءِ
السَّادِسِ مِنْهُ ، وَفِي وَسْطِ هَذِهِ الْقِطْعَةِ مِنْ أَرْضِ بُلْغَارَ مُنْعَطَفُ نَهْرٍ
أَثَلٌ ، الْقِطْعَةُ الْأُولَى إِلَى الْجَنُوبِ كَمَا مَرَّ . وَفِي آخِرِ هَذَا الْجُزْءِ
السَّادِسِ مِنَ شَمَالِهِ جَبَلٌ قَوِيًّا مُتَّصِلًا مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ .

وَفِي الْجُزْءِ السَّابِعِ مِنْ هَذَا الْإِقْلِيمِ فِي غَرْبِهِ بَقِيَّةُ أَرْضِ يَمْنَاكَ
مِنْ أُمَّمِ التُّرْكِ . وَكَانَ مَبْدُؤُهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّامِلِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنَ
الْجُزْءِ السَّادِسِ قَبْلَهُ ، وَفِي النَّاحِيَةِ الْجَنُوبِيَّةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ .
وَيَخْرُجُ إِلَى الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ مِنْ فَوْقِهِ . وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ بَقِيَّةُ
أَرْضِ سُحْرَبَ ثُمَّ بَقِيَّةُ الْأَرْضِ الْمُنْتَهَى إِلَى آخِرِ الْجُزْءِ شَرْقًا . وَفِي آخِرِ
الْجُزْءِ مِنْ جِهَةِ الشَّامِلِ جَبَلٌ قَوِيًّا مُحِيطٌ مُتَّصِلًا مِنْ غَرْبِهِ إِلَى شَرْقِهِ .

(١) فِي نَسْخَةِ أُخْرَى: مِنَ التُّرْكِ .

وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم في الجنوبية الغربية منه مُتَّصِلُ الْأَرْضِ الْمُنْتَنَةِ . وفي شرقها الْأَرْضُ الْمُخْفُورَةُ ، وَهِيَ مِنْ الْعَجَائِبِ : خَرَقٌ عَظِيمٌ فِي الْأَرْضِ بَعِيدُ الْمَهْوَى فَسِيحُ الْأَقْطَارِ مُتَمَتِّعٌ الْوُصُولِ إِلَى قَمَرِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى عُمرَانِهِ بِالْذُخَانِ فِي النَّهَارِ وَالنِّيرَانِ فِي اللَّيْلِ تُضِيهِ وَتَخْفِي . وَدُبًّا رُؤْيًى فِيهَا نَهْرٌ يَشُقُّهَا مِنْ الْجَنُوبِ إِلَى الشَّمَالِ . وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الْبِلَادُ الْخَزَابُ الْمَتَاخِةُ لِلْسُدِّ . وَفِي آخِرِ الشَّمَالِ مِنْهُ جَبَلٌ قَوْيَا مُتَّصِلًا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ .

وفي الجزء التاسع من هذا الإقليم في الجانب الغربي منه بلادُ خَفْشَاخَ وَهُمْ قَفَّحٌ يَجُوزُهَا جَبَلٌ قَوْيَا حِينَ يَنْعَطِفُ مِنْ شَمَالِهِ عِنْدَ الْبَحْرِ الْحَمِيضِ وَيَذْهَبُ فِي وَسْطِهِ إِلَى الْجَنُوبِ بِانْحِرَافٍ إِلَى الشَّرْقِ ، فَيَخْرُجُ فِي الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنَ الْإِقْلِيمِ السَّادِسِ وَيَمُرُّ مُعْتَرِضًا فِيهِ . وَفِي وَسْطِهِ هُنَاكَ سُدٌّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ . وَفِي النَّاحِيَةِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ أَرْضُ يَأْجُوجَ وَرَاءَ جَبَلٍ قَوْيَا عَلَى الْبَحْرِ قَلِيلَةً أَلْعَرْضِ مُسْتَطِيلَةً أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ شَرْقِهِ وَشَمَالِهِ .

وَالْجُزْءُ الْعَاشِرُ غَمَرَ الْبَحْرِ جَمِيعَهُ .

هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ عَلَى الْجُغْرَافِيَا وَأَقَالِيمِهَا السَّبْعَةِ . ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١) .

(١) هذا كلام من آيتين قرآنتين . جاء في سورة آل عمران آية ١٩٠ قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ وقوله تعالى في سورة الروم آية ٢٢ : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السَّيِّمَاتِ وَالْوَانِكَمِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ .

المقدمة الثالثة

في المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر
والكثير من أحوالهم

قد يَبِينَا أَنَّ الْمَعْمُورَ مِنْ هَذَا الْمُنْكَشِفِ مِنَ الْأَرْضِ إِنَّمَا هُوَ
وَسَطُهُ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ فِي الْجَنُوبِ مِنْهُ وَالْبَرْدِ فِي الشَّمَالِ . وَلَمَّا كَانَ
الْجَانِبَانِ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ مُتَضَادَّيْنِ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ، وَجَبَ أَنْ
تَتَدَرَّجَ الْكَيْفِيَّةُ مِنْ كِلَيْهِمَا إِلَى الْوَسْطِ فَيَكُونُ مُعْتَدِلًا . فَأَلِاقِلِيمُ
الرَّابِعُ أَعْدَلُ^(١) الْعُمُرَانِ وَالَّذِي حَافَاؤُهُ مِنَ الثَّالِثِ وَالْخَامِسِ أَقْرَبُ
إِلَى الْأَعْتِدَالِ ، وَالَّذِي يَلِيهِمَا مِنَ الثَّانِي وَالسَّادِسِ بَعِيدَانِ مِنَ
الْأَعْتِدَالِ . وَالْأَوَّلُ وَالسَّابِعُ أَبْعَدُ بِكَثِيرٍ ؛ فَلِهَذَا كَانَتِ الْعُلُومُ وَالصَّنَائِعُ
وَالْمُبَانِي وَالْمَلَابِسُ وَالْأَقْوَاتُ وَالْقَوَاكِمُ بَلْ وَالْحَيَوَانَاتُ^(٢) ، وَجَمِيعُ
مَا يَتَكُونُ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ مُخْصِوَصَةً بِالْأَعْتِدَالِ .
وَسُكَّانُهَا مِنَ الْبَشَرِ أَعْدَلُ أَجْسَامًا وَأَلْوَانًا وَأَخْلَاقًا وَأَدْيَانًا ، حَتَّى
النُّبُوتَاتُ فَإِنَّمَا تَوْجَدُ فِي الْأَكْثَرِ فِيهَا . وَلَمْ نَقِفْ عَلَى خَبَرٍ بِعَثَّةٍ فِي
الْأَقَالِيمِ الْجَنُوبِيَّةِ وَلَا الشَّمَالِيَّةِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ إِنَّمَا يُخْتَصُّ
بِهِمْ أَكْمَلُ النَّوعِ فِي خَلْقِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

(١) كذا بالأصل ، والأصح : أكثر اعتدالاً ، لأن أعدل من العدل ، وهذا المعنى غير وارد

هنا .

(٢) الأنصح حذف الواو بعد «بل» .

أَخْرَجَتْ لِلنَّاسِ ۖ وَذَلِكَ لِيَتِمَّ الْقَبُولُ لِمَا يَأْتِيهِمْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ أَكْمَلُ لَوْجُودِ الْأَعْتِدَالِ لَهُمْ ؛ فَتَجِدُهُمْ عَلَى غَايَةِ مِنَ التَّوَسُّطِ فِي مَسَاكِينِهِمْ وَمَلَابِسِهِمْ وَأَقْوَاتِهِمْ وَصَنَائِعِهِمْ ، يَتَّخِذُونَ الْبُيُوتَ الْمُنَجَّدَةَ بِالْحِجَارَةِ ، الْمُنَمَّةَ بِالصَّنَاعَةِ ؛ وَيَتَنَاقَشُونَ فِي اسْتِجَادَةِ الْأَسْلَاحِ وَالْمَوَاعِينِ ؛ وَيَذْهَبُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى الْغَايَةِ . وَتُوجَدُ لَدَيْهِمْ الْمَعَادِنُ الطَّبِيعِيَّةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالنُّحَاسِ وَالرَّصَاصِ وَالْقَصْدِيرِ . وَيَتَصَرَّفُونَ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ بِالنَّقْدَيْنِ الْعَزِيزَيْنِ . وَيَتَعُدُّونَ عَنِ الْأَنْحِرَافِ فِي عَامَّةِ أَحْوَالِهِمْ . وَهُؤُلَاءِ أَهْلُ الْمَغْرِبِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ وَالْيَمَنِ وَالْعِرَاقَيْنِ وَالْهِنْدِ وَالسِّندِ وَالصِّينِ ، وَكَذَلِكَ الْأَنْدَلُسُ وَمَنْ قُرْبَ مِنْهَا مِنَ الْفَرَنْجَةِ وَالْجَلَالِقَةِ وَالرُّومِ وَالْيُونَانِيِّينَ ، وَمَنْ كَانَ مَعَ هؤُلَاءِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُمْ فِي هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الْمُعْتَدِلَةِ . وَلِهَذَا كَانَ الْعِرَاقُ وَالشَّامُ أَعَدَلَ هَذِهِ كُلِّهَا لِأَنَّهَا وَسَطٌ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ . وَأَمَّا الْأَقَالِيمُ الْبَعِيدَةُ مِنَ الْأَعْتِدَالِ ؛ مِثْلُ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي وَالْهَادِسِ وَالسَّابِعِ فَأَهْلُهَا أَبْعَدُ مِنَ الْأَعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ . فَيَنَاقِشُهُمْ بِالطِّينِ وَالْقَصَبِ ، وَأَقْوَاتُهُمْ مِنَ الذُّرَّةِ وَالْعُشْبِ ، وَمَلَابِسُهُمْ مِنْ أَوْرَاقِ الشَّجَرِ يَخْصِفُونَهَا عَلَيْهِمْ أَوْ الْجُلُودِ ، وَأَكْثَرُهُمْ عَرَايَا مِنَ الْلِبَاسِ ، وَقَوَاحِكُهُ بِلَادِهِمْ وَأَدْنَاهَا غَرِيبَةُ التَّكْوِينِ مَائِلَةٌ إِلَى الْأَنْحِرَافِ . وَمُعَامَلَاتُهُمْ بِغَيْرِ الْحِجَرَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ مِنْ نَحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ أَوْ جُلُودٍ يُقَدِّرُونَهَا لِلْمُعَامَلَاتِ . وَأَخْلَاقُهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَرِيبَةٌ مِنْ خُلُقِ الْحَيَوَانَاتِ الْمُجَمِّمِ . حَتَّى لَيُنْقَلُ عَنِ الْكَثِيرِ مِنَ السُّودَانِ أَهْلُ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ أَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ الْكُهُوفَ وَالْفَيَاضَ ، وَيَأْكُلُونَ الْعُشْبَ ، وَأَنَّهُمْ مُتَوَحِّشُونَ

غيرُ مُستأْنِسِينَ يَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ؛ وَكَذَا الصَّقَالِبَةُ . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ لِبُعْدِيهِمْ عَنِ الْإِعْتِدَالِ يَتَقَرَّبُ عَرَضُ أَمْزَجَتِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ مِنْ عَرَضِ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ ، وَيَبْعُدُونَ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ بِمَقْدَارِ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ أَحْوَالُهُمْ فِي الدِّيَانَةِ أَيْضًا ؛ فَلَا يَعْرِفُونَ نُبُوَّةَ وَلَا يَدِينُونَ بِشَرِيعَةٍ ، إِلَّا مِنْ قَرَبٍ مِنْهُمْ مِنْ جَوَانِبِ الْإِعْتِدَالِ ، وَهُوَ فِي الْأَقْلِ النَادِرِ ؛ مِثْلُ الْحَبَشَةِ الْمُجَاوِرِينَ لِلْيَمَنِ الدَّائِنِينَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ فِيمَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ . وَمَا بَعْدَهُ لِهَذَا الْعَهْدِ ؛ وَمِثْلُ أَهْلِ مَالِي وَكوكو والتكرورِ الْمُجَاوِرِينَ لِأَرْضِ الْمَغْرِبِ الدَّائِنِينَ بِالْإِسْلَامِ . لِهَذَا الْعَهْدِ ، يُقَالُ إِنَّهُمْ دَانُوا بِهِ فِي الْمَلَأَةِ السَّابِعَةِ ؛ وَمِثْلُ مَنْ دَانَ بِالنَّصْرَانِيَّةِ مِنْ أُمَمِ الصَّقَالِبَةِ وَالْإِفْرَنْجَةِ وَالتُّرْكِ مِنَ الشَّمَالِ . وَمَنْ يَسُوهُ هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْأَقَالِيمِ الْمُنْحَرِفَةِ جَنُوبًا وَشِمَالًا ، فَالَّذِينَ تَجْهَلُونَ عِنْدَهُمْ وَالْعِلْمُ مَفْقُودٌ بَيْنَهُمْ ، وَجَمِيعُ أَحْوَالِهِمْ بَعِيدَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ قَرِيبَةً مِنْ أَحْوَالِ الْبَهَائِمِ : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ بِوُجُودِ الْيَمَنِ وَحَضْرَمَوْتِ وَالْأَحْقَافِ وَبِلَادِ الْحِجَازِ وَالْيَمَامَةِ وَمَا إِلَيْهَا مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ فِي الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي ؛ فَإِنَّ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ كُلَّهَا أَحَاطَتْ بِهَا الْحِجَاذُ مِنْ الْجِهَاتِ الثَّلَاثِ كَمَا ذَكَرْنَا ؛ فَكَانَ لِرُطُوبَتِهَا أَثَرٌ فِي رُطُوبَةِ هَوَائِهَا ؛ فَتَقْصُ ذَلِكَ مِنَ الْيَبَسِ وَالْإِنْخِرَافِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْحَرُّ ، وَصَارَ فِيهَا بَعْضُ الْإِعْتِدَالِ بِسَبَبِ رُطُوبَةِ الْبَحْرِ . وَقَدْ تَوَهَّمُ بَعْضُ النَّسَابِينَ يُمْنُ لَا عِلْمَ لَدَيْهِ بِطَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ أَنَّ السُّودَانَ هُمْ وَلَدُ حَامٍ بْنِ نُوحٍ اخْتَصَّوْا بِلَوْنِ السَّوَادِ لِدَعْوَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَبِيهِ ظَهَرَ أَثَرُهَا

في لَوْنِهِ وفيما جَمَلَ اللَّهُ من الرِّقِ في عَقِيهِ ؛ وَيَتَفَلَّوْنَ في ذلك حِكَايَةً من خُرَافَاتِ الْقُصَّاصِ . ودُعَاهُ نوحٍ على ابْنِهِ حامٍ قد وَقَعَ في التَّوَرَاةِ وَلَيْسَ فيه ذِكْرُ السَّوَادِ وَإِنَّمَا دَعَا عَلَيْهِ بِأَنْ يَكُونَ وَلَدُهُ عَبِيداً لَوْلَدِ إِخْوَتِهِ لا غَيْرُ . وفي الْقَوْلِ بِنِسْبَةِ السَّوَادِ إلى حامٍ غَفْلَةٌ من طَبِيعَةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَأَثَرِيهَا في الْهَوَاءِ وفيما يَتَكَوَّنُ فيه من الْحَيَوَانَاتِ . وذلك أَنَّ هذا اللَّوْنَ شَمَلَ أَهْلَ الْإِقْلِيمِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي من مِزَاجِ هَوَائِهِمُ لِلْحَرَارَةِ الْمُتَضَاعِفَةِ بِالْجَنُوبِ ؛ فَإِنَّ الشَّمْسَ تُسَامِتُ رُؤُوسَهُمْ مَرَّتَيْنِ في كُلِّ سَنَةٍ ، قَرِيبَةً إِحْدَاهُمَا من الْأُخْرَى ، فَتَطُولُ الْمَسَامَتَةُ عَامَّةَ الْفُصُولِ ، فَيَكْثُرُ الضَّوْنُ لِأَجْلِهَا وَيُلِغُ الْقَيْظُ الشَّدِيدُ عَلَيْهِمْ وَتَسْوَدُّ جُلُودُهُمْ لِإِفْرَاطِ الْحَرِّ . وَنَظِيرُ هَذَيْنِ الْإِقْلِيمَيْنِ يَمَّا يُقَابِلُهُمَا من الشَّمَالِ الْإِقْلِيمُ السَّابِعُ وَالسَّادِسُ . شَمَلَ سُكَّانُهَا أَيْضاً الْبَيَاضُ من مِزَاجِ هَوَائِهِمُ لِلْبَرْدِ الْمَفْرِطِ بِالشَّمَالِ ؛ إِذِ الشَّمْسُ لا تَرَالُ بِأَفْقِهِمْ في دَائِرَةِ مَرْثِيَةِ الْعَيْنِ أَوْ ما قَرُبَ مِنْهَا ولا تَرْتَفِعُ إلى الْمَسَامَتَةِ ولا ما قَرُبَ مِنْهَا ، فَيَضَعُفُ الْحَرُّ فيها ، وَيَشْتَدُّ الْبَرْدُ عَامَّةَ الْفُصُولِ ، فَتَبْيَضُّ أَلْوَانُ أَهْلِهَا وَتَنْتَهِي إلى الزُّعُودَةِ (١) . وَيَتَّبِعُ ذلك ما يَقْتَضِيهِ مِزَاجُ الْبَرْدِ الْمَفْرِطِ من زُرْقَةِ الْعُيُونِ وَبَرَشِّ الْجُلُودِ وَضُهُوبَةِ الشُّعُورِ . وَتَوَسَّطَتْ بَيْنَهُمَا الْأَقَالِيمُ الثَّلَاثَةُ : الْخَامِسُ وَالرَّابِعُ وَالثَّالِثُ ؛ فَكَانَ لَهَا في الْإِعْتِدَالِ الَّذِي هُوَ مِزَاجُ الْمُتَوَسَّطِ حَظٌّ وَافِرٌ . وَالرَّابِعُ أَبْلَغُهَا في الْإِعْتِدَالِ غَايَةً لِإِنِّهَا يَتَّبِعُهَا فِي التَّوَسُّطِ كَمَا قَدَّمَناهُ . فَكَانَ لِأَهْلِهَا

(١) يقصد بها هنا شدة البياض، والكلمة ليست من الفصحى .

من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم. وتبعه
عن جانيبه الثالث والخامس وإن لم يبلغا غاية التوسط، لئلا
هذا قليلاً إلى الجنوب الحار، وهذا قليلاً إلى الشمال البارد؛
إلا أنها لم ينتهيا إلى الانحراف. وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة
وأهلها كذلك في خلقهم وخلقهم. فالأول والثاني للحر والسود،
والسابع والسادس للبرد والبياض. ويسمى سكان الجنوب من
الأقليمين الأول والثاني باسم الحبشة والزنج والسودان، أسماء
مترادفة على الأمم المتغيرة بالسود، وإن كان اسم الحبشة مختصاً
منهم بمن تجاه مكة وأيمن، والزنج بمن تجاه بحر الهند.
وليس في هذه الأسماء لهم من أجل انتسابهم إلى آدمي أسود لا
حام ولا غيره. وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن
الرابع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض، فتبيض ألوان
أعقابهم على التدريج مع الأيام. وبالعكس فيمن يسكن من
أهل الشمال أو الرابع بالجنوب، تسود ألوان أعقابهم. وفي
ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء. قال ابن سينا في
أزجوزيته في الطب:

بالزنج حر غير الأجساد حتى كسا جلودها سودا
والصقلب اكتسبت البياضا حتى غدت جلودها بضا

وأما أهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم لأن البياض كان
لوناً لأهل تلك اللغة الواضحة للأسماء. فلم يكن فيه غرابة تحمل

على اعتبارِهِ في التَّسْمِيَةِ لِموَافَقَتِهِ وَأُعْتِيَادِهِ . وَوَجَدْنَا سُكَّانَهُ مِنَ
 التُّرْكِ وَالصَّقَالِبَةِ وَالطُّغُرُغُرِ وَالْخَزَرِ وَاللَّانِ ، وَالكَثِيرِ مِنَ الْإِفْرِنجَةِ
 وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، أَسْمَاءَ مُتَفَرِّقَةٍ وَأَجْيَالًا مُتَعَدِّدَةً مُسَمَّيْنَ بِأَسْمَاءِ
 مُتَوَعَّعَةٍ . وَأَمَّا أَهْلُ الْأَقَالِيمِ الثَّلَاثَةِ الْمُتَوَسِّطَةِ ، أَهْلُ الْإِعْتِدَالِ فِي
 خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ وَسَيْرِهِمْ ، وَكَافَّةُ الْأَحْوَالِ الطَّبِيعِيَّةِ لِلإِعْتِبَارِ لَدَيْهِمْ
 مِنَ الْمَعَاشِ وَالْمَسَاكِينِ وَالصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَالرِّيَاسَاتِ وَالْمُلُوكِ ،
 فَكَانَتْ فِيهِمُ النُّبُوتُ وَالْمُلُوكُ وَالِدُولُ وَالشَّرَائِعُ وَالْعُلُومُ وَالْبُلْدَانُ
 وَالْأَمْصَارُ وَالْأَلْبَانِي وَالْفِرَاسَةُ وَالصَّنَائِعُ الْفَائِضَةُ وَسَائِرُ الْأَحْوَالِ
 الْمُعْتَدِلَةِ . وَأَهْلُ هَذِهِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي وَقَفْنَا عَلَى أَخْبَارِهِمْ ؛ مِثْلُ الْعَرَبِ
 وَالرُّومِ وَفَارِسَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَلْيُونَانِ وَأَهْلِ السِّنْدِ وَالْهِنْدِ
 وَالصِّينِ . وَلَمَّا رَأَى النَّسَابُونَ اخْتِلَافَ هَذِهِ الْأُمَمِ بِسَائِرَتِهَا وَشِعَارِهَا
 حَسِبُوا ذَلِكَ لِأَجْلِ الْأَنْسَابِ : فَجَعَلُوا أَهْلَ الْجَنُوبِ كُلَّهُمُ السُّودَانَ
 مِنْ وَلَدِ حَامٍ وَأَرْتَابُوا فِي أَلْوَانِهِمْ ، فَتَكَلَّفُوا نَقْلَ تِلْكَ الْحِكَايَةِ
 الْوَاهِيَةِ ؛ وَجَعَلُوا أَهْلَ الشَّمَالِ كُلَّهُمْ أَوْ أَكْثَرَهُمْ مِنْ وَلَدِ يَافِثَ ؛
 وَأَكْثَرَ الْأُمَمِ الْمُعْتَدِلَةِ وَأَهْلَ الْوَسْطِ الْمُتَنَحِّلِينَ لِلْعُلُومِ وَالصَّنَائِعِ
 وَالْمَلَلِ وَالشَّرَائِعِ وَالسِّيَاسَةِ وَالْمُلُوكِ مِنْ وَلَدِ سَامٍ . وَهَذَا الزَّعْمُ
 وَإِنْ صَادَفَ الْحَقَّ فِي أَنْتِسَابِ هَؤُلَاءِ فَلَيْسَ ذَلِكَ بِقِيَاسٍ مُطَرِّدٍ ؛
 إِنَّمَا هُوَ إِنْخَارٌ عَنِ الْوَاقِعِ ، لَا أَنَّ تَسْمِيَةَ أَهْلِ الْجَنُوبِ بِالسُّودَانِ
 وَالْجَنْشَانِ مِنْ أَجْلِ أَنْتِسَابِهِمْ إِلَى حَامٍ الْأَسْوَدِ . وَمَا آدَاهُمْ إِلَى هَذَا
 الْغَلَطِ إِلَّا أَعْتِقَادُهُمْ أَنَّ التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْأُمَمِ إِنَّمَا يَقَعُ بِالْأَنْسَابِ فَقَطْ ،
 وَلَيْسَ كَذَلِكَ : فَإِنَّ التَّمْيِيزَ لِلْجِيلِ أَوْ الْأُمَّةِ يَكُونُ بِالنَّسَبِ فِي

بعضهم كما للعرب وبني إسرائيل والفرس ؛ ويكون بالجهة والسمّة
 كالزنج والحبشة والصقالبة والسودان ؛ ويكون بالمواد والشعار
 والنسب كما للعرب ؛ ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وخواصهم
 وتميزاتهم . فتعميم القول في أهل جهة معينة من جنوب أو شمال
 بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نخلة أو لون أو سمة
 وجدت لذلك الأب ، إنما هو من الأغاليط التي أوقع فيها الغفلة
 عن طبائع الأكوان والجهات ، وإن هذيه كلها تتبدل في الأعقاب
 ولا يجب استمرارها : ﴿ سئلت الله التي قد خلعت في عبادة ولكن تجد لسنة
 الله تبديلا ﴾ ؛ والله ورسوله أعلم بغيه وأحكم ؛ وهو المولى المنعم
 الرؤوف الرحيم .

المقدمة الرابعة

في اثر الهواء في اخلاق البشر

قَدْ رَأَيْنَا مِنْ خُلُقِ السُّودَانِ عَلَى الْعُمُومِ الْخَفَّةَ وَالطَّنْشَ
وَكَثْرَةَ الطَّرَبِ ، فَتَجِدُهُمْ مَوْلَعِينَ بِالرَّقْصِ عَلَى كُلِّ تَوَقُّعٍ ،
مَوْصُوفِينَ بِالْحُمُورِ فِي كُلِّ قُطْرٍ . وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُ
تَقَرَّرَ فِي مَوْضِعِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنَّ طَبِيعَةَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ هِيَ
انْتِشَارُ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ وَتَقَشُّيهِ ، وَطَبِيعَةُ الْحُزَنِ بِالْعَكْسِ ، وَهُوَ
انْتِبَاضُهُ وَتَكَاثُفُهُ ، وَتَقَرَّرَ أَنَّ الْحَرَارَةَ مُفْشِيَةً لِلْهَوَاءِ وَالْبُخَارِ
مُخْلِجَةً لَهُ زَائِدَةً فِي كَمِّيَّتِهِ . وَلِهَذَا يَجِدُ الْمُتَنَشِّي مِنَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ
مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ ؛ وَذَلِكَ بِمَا يُدَاخِلُ بُحَارَ الرُّوحِ فِي الْقَلْبِ مِنْ
الْحَرَارَةِ الْفَرِيزِيَّةِ الَّتِي تَبْعُهَا سَوْرَةُ الْخَمْرِ فِي الرُّوحِ مِنْ مِزَاجِهِ ،
فَيَتَقَشَّى الرُّوحُ وَتَجِيءُ طَبِيعَةُ الْفَرَحِ . وَكَذَلِكَ يَجِدُ الْمُتَتَمِّعِينَ
بِالْحَمَامَاتِ إِذَا تَنَفَّسُوا فِي هَوَائِهَا وَأَتَّصَلَتْ حَرَارَةُ الْهَوَاءِ فِي
أَرْوَاحِهِمْ فَتَسَخَّنَتْ لِذَلِكَ ، حَدَّثَ لَهُمْ فَرَحٌ ، وَرُبَّمَا انْبَعَثَ الْكَثِيرُ
مِنْهُمْ بِالْغِنَاءِ النَّاشِئِ عَنِ السُّرُورِ . وَلَمَّا كَانَ السُّودَانُ سَاكِنِينَ
فِي الْإِقْلِيمِ الْحَارِّ وَأَسْتَوَلَى الْحَرُّ عَلَى أَمْزَجَتِهِمْ ، وَفِي أَصْلِ تَكْوِينِهِمْ ،
كَانَ فِي أَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْحَرَارَةِ عَلَى نِسْبَةِ أَبْدَانِهِمْ وَإِقْلِيمِهِمْ ؛

فَتَكُونُ أَزْوَاجُهُمْ بِالْقِيَاسِ إِلَى أَزْوَاجِ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ أَشَدَّ حَرًّا فَتَكُونُ أَكْثَرُ تَقَشُّيًّا ، فَتَكُونُ أَسْرَعَ فَرَحًا وَسُرُورًا وَأَكْثَرُ انْبِسَاطًا ، وَتَجِيءُ الطَّيْسُ عَلَى أَثَرِ هَذِهِ ؛ وَكَذَلِكَ يَلْحَقُ بِهِمْ قَلِيلًا أَهْلُ الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ ، لِمَا كَانَ هَوَاؤُهَا مُتَضَاعِفَ الْحَرَادَةِ بِمَا يَنْعَكِسُ عَلَيْهِ مِنْ أَضْوَاءِ بَسِيطِ الْبَحْرِ وَأَشْعَتِهِ ، كَانَتْ حِصَّتُهُمْ مِنْ تَوَابِعِ الْحَرَادَةِ فِي الْفَرَحِ وَالْخِفَّةِ مَوْجُودَةً أَكْثَرُ مِنْ بِلَادِ الثَّلُولِ وَالْجِبَالِ الْبَارِدَةِ . وَقَدْ تَجِدُ يَسِيرًا مِنْ ذَلِكَ فِي أَهْلِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ مِنْ الْإِقْلِيمِ الثَّالِثِ لِتَوَفُّرِ الْحَرَادَةِ فِيهَا وَفِي هَوَائِهَا ، لِأَنَّهَا عَرِيقَةٌ فِي الْجَنُوبِ عَنِ الْأَزْيَافِ وَالثَّلُولِ . وَاعْتَبَرِ ذَلِكَ أَيْضًا بِأَهْلِ مِصْرَ ، فَإِنَّهَا فِي مِثْلِ عَرْضِ الْبِلَادِ الْجَزِيرِيَّةِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا ، كَيْفَ غَلَبَ الْفَرَحُ عَلَيْهِمْ وَالْخِفَّةُ وَالْعَفْلَةُ عَنِ الْعَوَاقِبِ ؛ حَتَّى إِنَّهُمْ لَا يَدَّخِرُونَ أَقْوَاتَ سَلَتِهِمْ وَلَا شَهْرِيَهُمْ ، وَعَامَّةُ مَا كِلَهُمْ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ . وَلَمَّا كَانَتْ فَاسُ مِنْ بِلَادِ الْمَغْرِبِ بِالْعَكْسِ مِنْهَا فِي التَّوَعُّلِ فِي الثَّلُولِ الْبَارِدَةِ كَيْفَ تَرَى أَهْلَهَا مُطْرَقِينَ إِطْرَاقَ الْحُزَنِ وَكَيْفَ أَفْرَطُوا فِي نَظَرِ الْعَوَاقِبِ ، حَتَّى إِنَّ الرُّجُلَ مِنْهُمْ لَيَدَّخِرُ قُوَّةَ سَلَتَيْنِ مِنْ حُجُوبِ الْخِطَّةِ ، وَيُبَاكِ الْأَسْوَاقَ لِشِرَاءِ قُوَّتِهِ لِيَوْمِهِ مَخَافَةً أَنْ يُرْزَأَ^(١) شَيْئًا مِنْ مُدْخَرِهِ ، وَتَتَّبِعَ ذَلِكَ فِي الْأَقَالِيمِ وَالْبُلْدَانِ تَجْدُ فِي الْأَخْلَاقِ أَثَرًا مِنْ كَيْفِيَّاتِ الْهَوَاءِ . وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ .

وَقَدْ تَعَرَّضَ الْمَسْعُودِيُّ لِلْبَحْثِ عَنِ السَّبَبِ فِي خِفَّةِ السُّودَانِ

(١) أَيِ يَنْقُصُ .

وَطَنِيهِمْ وَكَثْرَةَ الطَّرَبِ فِيهِمْ ، وَحَاوَلَ تَعْلِيلَهُ فَلَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ
 مِنْ أَنَّهُ نَقَلَ عَنْ جَالِينُوسَ وَيَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ الْكِنْدِيِّ أَنَّ ذَلِكَ
 لِيُضْعِفَ أَذْمَتَهُمْ ، وَمَا نَشَأَ عَنْهُ مِنْ ضَعْفِ عُقُولِهِمْ . وَهَذَا كَلَامٌ لَا
 مُحَصَّلَ لَهُ وَلَا بُرْهَانَ فِيهِ . ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

المقدمة الخامسة

في اختلاف أحوال العمران في النصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار
في أبدان البشر وأخلاقهم

إِعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْأَقَالِمَ الْمُتَعَدِّلَةَ لَيْسَ كُلُّهَا يَوْجَدُ بِهَا الْخِصْبُ
وَلَا كُلُّ سُكَّانِهَا فِي رَغَدٍ مِنَ الْعَيْشِ ؛ بَلْ فِيهَا مَا يَوْجَدُ لِأَهْلِهِ
خِصْبُ الْعَيْشِ ، مِنْ الْجُوبِ وَالْأَذَمِ وَالْخِطَّةِ وَالْفَوَاكِهِ لِزَكَاءِ
الْمَنَائِثِ وَأَعْتِدَالِ الطِّينَةِ وَوُفُورِ الْعُمُرَانِ ؛ وَفِيهَا الْأَرْضُ الْحَرَّةُ
الَّتِي لَا تُنْبِتُ زَرْعًا وَلَا عُشْبًا بِالْجُمْلَةِ ، فَسُكَّانُهَا فِي شَطَفٍ مِنَ
الْعَيْشِ : مِثْلُ أَهْلِ الْحِجَازِ وَجَنُوبِ الْيَمَنِ وَمِثْلُ الْمَلْتَمِينَ مِنْ
صَنْهَاجَةِ السَّاكِنِينَ بِصَحْرَاءِ الْمَغْرِبِ وَأَطْرَافِ الرِّمَالِ فِيمَا بَيْنَ
الْبَرْبَرِ وَالسُّودَانِ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَفْقِدُونَ الْجُوبَ وَالْأَذَمَ جُمْلَةً ،
وَلِنَّمَا أَغْذِيَتُهُمْ وَأَقْوَاتُهُمُ الْأَلْبَانُ وَاللُّحُومُ ؛ وَمِثْلُ الْعَرَبِ أَيْضًا
الْجَائِلِينَ فِي الْقِفَارِ ، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ كَانُوا يَأْخُذُونَ الْجُوبَ وَالْأَذَمَ مِنْ
التَّلُولِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِي الْأَحْيَانِ وَتَحْتَ رِبْقَةٍ مِنْ حَامِيَتِهَا ، وَعَلَى
الْإِقْلَالِ لِقَلَّةِ وَجْدِهِمْ ، فَلَا يَتَوَصَّلُونَ مِنْهُ إِلَى سَدِّ الْحِلَّةِ (١) أَوْ

(١) بمعنى الفقر والحاجة - قاموس .

دونها فضلاً عن الرغد والخصب، وتجدُّهم يقتصرون في غالبِ
أحوالهم على الألبان وتعوِّضهم من الخنطة أحسنَ معاضٍ. وتجدُّ
مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأذم من أهل القفار أحسنَ
حالا في جسيمهم وأخلاقهم من أهل الثلول المنغمسين في العيش :
فألوانهم أصفى ؛ وأبدانهم أنقى ؛ وأشكالهم أتم وأحسن ؛
وأخلاقهم أبعد من الانحراف ؛ وأذهانهم أنقى في المعارف
والإذراكات . هذا أمرٌ تشهد له التجربة في كلِّ جيلٍ منهم .
فكثيرٌ ما بين العرب والبربر فيما وصفناه ؛ وبين المثلثين وأهل
الثلول . يعرف ذلك من خبره . والسبب في ذلك والله أعلم
أن كثرة الأغذية وكثرة الخلط الفاسد العفنة ورطوباتها تولد
في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد أقطارها في غير نسبة ،
ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم
كما قلناه ، وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار بما يصعد إلى
الدماغ من أنجريتها الرديئة ، فتجبي البلاد العفنة والانحراف
عن الاعتدال بالجملة . واعتبر ذلك في حيوان الفقر ومواطن
الجدب من الغزال والنعام وألها والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع
أمثالها من حيوان الثلول والأزياق والمراعي الخصبية كيف تجدُّ
بينها بونا بعيداً في صفاء أديمها ؛ وحسن رونقها وأشكالها ؛ وتناسب
أعضائها وحدة مداركها . فالغزال أخو الميز والزرافة أخو
البعير والحمار والبقرة أخو الحمار والبقرة ؛ والبون بينها ما رأيت .
وما ذاك إلا لأنجل أن الخصب في الثلول فعل في أبدان هذه من

الْفَضَلَاتِ الرَدِيَّةِ وَالْأَخْلَاطِ الْفَاسِدَةِ مَا ظَهَرَ عَلَيْهَا أَثَرُهُ ؛ وَالْجُوعُ
لِحَيَوَانِ الْقَفْرِ حَسَنَ فِي خَلْقِهَا وَأَشْكَالِهَا مَا شَاءَ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ
فِي الْآدَمِيِّينَ أَيْضاً : فَإِنَّا نَجِدُ أَهْلَ الْأَقَالِيمِ الْخَصِيْبَةِ الْعَيْشِ
الكَثِيرَةِ الزَّرْعِ وَالضَّرْعِ وَالْأُذْمِ وَالْفَوَاكِهَ يَتَّصِفُ أَهْلُهَا غَالِباً
بِالْبَلَادَةِ فِي أَذْهَانِهِمْ وَالْخَشَوَةِ فِي أَجْسَادِهِمْ . وَهَذَا شَأْنُ الْبَرِّ
الْمُنْعَمِينَ فِي الْأُذْمِ وَالْخِلْطَةِ ، مَعَ الْمُتَشَفِّينَ فِي عَيْشِهِمْ الْمُقْتَصِرِينَ
عَلَى الشَّعِيرِ أَوْ الذَّرَّةِ ، مِثْلُ الْمَصَائِدَةِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ غِمَارَةِ وَالسُّوسِ ؛
فَتَجِدُ هَؤُلَاءِ أَحْسَنَ حَالاً فِي عُقُولِهِمْ وَجُسُودِهِمْ . وَكَذَا أَهْلُ بِلَادِ
الْمَغْرِبِ عَلَى الْجِلَّةِ الْمُتَعَمِّسِينَ فِي الْأُذْمِ وَالْبَرِّ مَعَ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ
الْمُتَّقِدِ بِلَزْضِهِمُ السَّمْنُ بُجْلَةً ، وَغَالِبُ عَيْشِهِمُ الذَّرَّةُ ؛ فَتَجِدُ لِأَهْلِ
الْأَنْدَلُسِ مِنْ ذِكَاةِ الْقَوْلِ وَخِفَّةِ الْأَجْسَامِ وَقَبُولِ التَّعْلِيمِ مَا لَا
يُوجَدُ لِبَنِيهِمْ . وَكَذَا أَهْلُ الضَّوَاحِي مِنَ الْمَغْرِبِ بِالْجِلَّةِ مَعَ أَهْلِ
الْحَضَرِ وَالْأَمْصَارِ . فَإِنَّ أَهْلَ الْأَمْصَارِ وَإِنْ كَانُوا مُكْثَرِينَ مِثْلَهُمْ
مِنْ الْأُذْمِ وَتَخَصُّبِينَ فِي الْعَيْشِ ، إِلَّا أَنَّ اسْتِعْمَالَهُمْ إِيَّاهَا بَعْدَ
الْعِلَاجِ بِالطَّبَخِ وَالتَّلْطِيفِ بِمَا يَخْلُطُونَ مَعَهَا فَيَذْهَبُ لِذَلِكَ غِلْظُهَا
وَيَرْقُ قَوَائِمُهَا ؛ وَعَامَّةُ مَا كِلَهُمْ لِحَوْمِ الضَّأْنِ وَالِدَّجَاجِ ، وَلَا
يُغَيِّطُونَ^(١) السَّمْنَ مِنْ بَيْنِ الْأُذْمِ لِتَفَاهَتِهِ ؛ فَتَقِلُّ الرُّطُوبَاتُ
لِذَلِكَ فِي أَغْذِيَّتِهِمْ وَيَخَفُّ مَا تُؤَدِّيهِ إِلَى أَجْسَادِهِمْ مِنَ الْفَضَلَاتِ
الرَدِيَّةِ . فَلِذَلِكَ تَجِدُ جُسُومَ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَلْطَفَ مِنْ جُسُومِ
أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْخَشَنِينَ فِي الْعَيْشِ . وَكَذَلِكَ تَجِدُ الْمُعَوِّدِينَ بِالْجُوعِ

(١) بمعنى لا يكثرُونَ من استعمال السمن ولا يلتزمونه في أدمهم .

من أهل البادية لا فضلات في جسورهم غليظة ولا لطيفة .
وأعلم أن أثر هذا الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في
حال الدين والعبادة ، فنجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة
يؤمن يأخذ نفسه بالجوع والتجافي عن الملاذ أحسن ديناً وإقبالاً
على العبادة من أهل الترف والخصب . بل نجد أهل الدين قليلين
في المدن والأمصاري لما يعمها من المساوة والغفلة المتصلة بالإكثار
من اللحن والأدم ولباب البر . ويختص وجود العباد والزهاد
لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي . وكذلك نجد
حال أهل المدينة الواحدة في ذلك مختلفاً باختلاف حالها في الترف
والخصب . وكذلك نجد هؤلاء الخصبين في العيش المتعسرين في
طبياتهم من أهل البادية وأهل الحواضر والأمصاري ، إذا تزلت
بهم السنون^(١) وأخذتهم المجاعات يسرع إليهم الهلاك أكثر من
غيرهم ، مثل برايرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يبلغنا ،
لا مثل العرب أهل القفر والصحراء ، ولا مثل أهل بلاد
النخل الذين غالب عيشهم التمر ، ولا مثل أهل إفريقية لهذا
العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت ، وأهل الأندلس
الذين غالب عيشهم الدرة والزيت ، فإن هؤلاء وإن أخذتهم
السنون والمجاعات فلا تنال منهم ما تنال من أولئك ولا يكثر
فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندد . والسبب في ذلك والله أعلم
أن المتعسرين في الخصب ، المتعبدون للأدم والسمن خصوصاً ،

(١) السنة : الجذب والقحط . والجمع : سنون .

تكتسب من ذلك أَمْوَأُهُمْ دُطُوبَةً فَوْقَ دُطُوبَتِهَا الْأَصْلِيَّةِ الْإِزْجَاجِيَّةِ
 حَتَّى تُتَجَاوَزَ حَدُّهَا ، فَإِذَا خُولِفَ بِهَا الْعَادَةُ بِقَلَّةِ الْأَقْوَاتِ وَفَقْدَانِ
 الْأَدَمِ وَاسْتِغْمَالِ الْخَشِنِ غَيْرِ الْمَأْلُوفِ مِنَ الْغِذَاءِ أَسْرَعَ إِلَى الْيَمْرِ
 الْيَسْرِ وَالْإِنْكَشَاشِ ، وَهُوَ عُضْوٌ ضَعِيفٌ فِي الْغَايَةِ ، فَيَنْسَرِعُ إِلَيْهِ
 الْمَرَضُ وَيَهْلِكُ صَاحِبُهُ دَفْعَةً لِأَنَّهُ مِنَ الْمُقَاتِلِ . فَالْهَالِكُونَ فِي
 الْحَجَاعَاتِ إِنَّمَا قَتَلَهُمُ الشَّبَعُ الْمَعْتَادُ السَّابِقُ لَا الْجُوعُ الْحَادِثُ الْلَّاحِقُ .
 وَأَمَّا الْمُتَعَوِّدُونَ لِلْعَيْمَةِ^(١) وَتَرَكَ الْأَدَمِ وَالسَّنَنِ فَلَا تَرَالُ دُطُوبَتُهُمْ
 الْأَصْلِيَّةُ وَاقِفَةٌ عِنْدَ حَدِّهَا مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ ، وَهِيَ قَابِلَةٌ لِجَمِيعِ الْأَغْذِيَّةِ
 الطَّبِيعِيَّةِ ، فَلَا يَقَعُ فِي مَعَاهِمِ بَتَبَدُّلِ الْأَغْذِيَّةِ يَتَسُّ وَلَا انْحِرَافٍ ،
 فَيَسْلَمُونَ فِي الْغَالِبِ مِنَ الْهَلَاكِ الَّذِي يَغْرَضُ لِيَغْيِرَهُمْ بِالْخَضْبِ
 وَكَثْرَةِ الْأَدَمِ فِي الْمَأْكَلِ .

وَأَصْلُ هَذَا كَلِمُهُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْأَغْذِيَّةَ وَالْإِتْلَافَهَا أَوْ تَرَكَهَا إِنَّمَا
 هُوَ بِالْعَادَةِ . فَنَ عَوْدَةَ نَفْسِهِ غِذَاءً وَلَا عَمَّةً تَنَاوَلَهُ كَانَ لَهُ مَأْلُوفًا
 وَصَارَ الْخُرُوجُ عَنْهُ وَالتَّبَدُّلُ بِهِ دَاءً ، مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ غَرَضِ الْغِذَاءِ
 بِالْجَلَّةِ كَالسُّمُومِ وَالْيَتُّوعِ^(٢) وَمَا أَفْرَطَ فِي الانْحِرَافِ . فَأَمَّا مَا وَجَدَ
 فِيهِ التَّغْدِي وَالْمَلَاءَمَةَ فَيَصِيرُ غِذَاءً مَأْلُوفًا بِالْعَادَةِ . فَإِذَا أَخَذَ الْإِنْسَانُ
 نَفْسَهُ بِاسْتِغْمَالِ اللَّبَنِ وَالْبَقْلِ عَوَضًا عَنْ الْخِطْطَةِ حَتَّى صَارَ لَهُ دَيْدَنًا
 فَقَدْ حَصَلَ لَهُ ذَلِكَ غِذَاءً وَاسْتَفْنَى بِهِ عَنْ الْخِطْطَةِ وَالْجُوبِ مِنْ غَيْرِ

(١) العَيْمَةُ : شهوة اللبن (قاموس) .

(٢) قال في القاموس : البتوع كقصير أو تور كل نبات له لبن دار مسهل محرق مقطوع ،
 والمشهور منه سبعة : الشبرم واللاعية والعربيثا والمهودانه والمازريون والفجلشت والعشر . وكل
 البتوعات إذا استعملت في غير وجهها أهلكت . اهـ .

شكّ . وكذا من عَوَدَ نَفْسُهُ الصَّبْرَ على الجوع والاستِغْنَاء عن الطَّعامِ كما يُنْقَلُ عن أَهْلِ الرِّيَاضَاتِ ؛ فَإِنَّا نَسْمَعُ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ أَخْبَاراً غَرِيبَةً يَكَادُ يُنْكِرُهَا مَنْ لَا يَعْرِفُهَا . وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ الْعَادَةُ ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا أَلْقَتْ شَيْئاً صَارَ مِنْ جِلَّتِهَا وَطَبِيعَتِهَا لِأَنَّهَا كَثِيرَةُ التَّلَوْنِ ؛ فَإِذَا حَصَلَ لَهَا اعْتِيَادُ الْجُوعِ بِالتَّدْرِيجِ وَالرِّيَاضَةِ فَقَدْ حَصَلَ ذَلِكَ عَادَةً طَبِيعِيَّةً لَهَا . وَمَا يَتَوَهَّمُهُ الْأَطِبَّاءُ مِنْ أَنَّ الْجُوعَ مُهْلِكٌ فَلَيْسَ عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَهُ إِلَّا إِذَا حَمَلَتِ النَّفْسُ عَلَيْهِ دَفْعَةً ، وَقُطِعَ عَنْهَا الْغِذَاءُ بِالْكُلِّيَّةِ ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَنْحَسِمُ الْمَعَى وَيَنَالُهُ الْمَرَضُ الَّذِي يُخْشَى مَعَهُ الْهَلَاكُ . وَأَمَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْقَدَرُ تَدْرِيجاً وَرِيَاضَةً بِإِقْلَالِ الْغِذَاءِ شَيْئاً فَشَيْئاً ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْمُتَصَوِّفَةُ ، فَهُوَ بِمَزَلٍ عَنْ الْهَلَاكِ . وَهَذَا التَّدْرِيجُ ضَرُورِيٌّ حَتَّى فِي الرَّجُوعِ عَنْ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ . فَإِنَّهُ إِذَا رَجَعَ بِهِ إِلَى الْغِذَاءِ الْأَوَّلِ دَفْعَةً خِيفَ عَلَيْهِ الْهَلَاكُ ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ بِهِ كَمَا بَدَأَ فِي الرِّيَاضَةِ بِالتَّدْرِيجِ . وَلَقَدْ شَاهَدْنَا مِنْ يَصْبِرُ عَلَى الْجُوعِ أَرْبَعِينَ يَوْماً وَصَالاً وَأَكْثَرَ . وَحَضَرَ أَشْيَاخُنَا بِمَجْلِسِ السُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَقَدْ رُفِعَ إِلَيْهِ أَمْرَانِ مِنَ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ وَرَنْدَةَ حَبَسَتْهُمَا عَنْ الْأَكْلِ جُمْلَةً مُنْذُ سِنِينَ ، وَشَاعَ أَمْرُهُمَا وَوَقَعَ اخْتِبَارُهُمَا فَصَحَّ شَأْنُهُمَا ، وَأَتَّصَلَ عَلَى ذَلِكَ حَالُهُمَا إِلَى أَنْ مَاتَتَا . وَرَأَيْنَا كَثِيراً مِنْ أَصْحَابِنَا أَيْضاً مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى حَلِيبِ شَاةٍ مِنَ الْمَعَزِ يَلْتَقِمُ تَدْيِهَا فِي بَعْضِ النَّهَارِ أَوْ عِنْدَ الْإِفْطَارِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ غِذَاءَهُ ، وَاسْتَدَامَ عَلَى ذَلِكَ تَحْمَسَ عَشْرَةِ سَنَةٍ وَغَيْرُهُمْ كَثِيرٌ ، وَلَا يُسْتَكْرَرُ ذَلِكَ .

واعلم أن الجوع أصلح للبدن من إكثار الأغذية بكل وجه، لمن قدير عليه أو على الإقلال منها ، وأن له أثراً في الأجسام والعقول في صفاتها وصلاتها كما قلناه ؛ واعتبر ذلك بآثار الأغذية التي تحصل عنها في الجسوم . فقد رأينا المتغذيين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الجثمان تنشأ أجياهم كذلك . وهذا مُشاهد في أهل البادية مع أهل الحاضرة . وكذا المتغذون باللبان الإبل ولحومها أيضاً ، مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتياط والقدرة على تحمل الأثقال الموجود ذلك للإبل ، وتنشأ أمعاؤهم أيضاً على نسبة أمعاء الإبل في الصحة والغلظ ، فلا يطرقها ألوهن ولا الضعف ، ولا ينالها من مضار الأغذية ما ينال غيرهم فيشربون الشوكلات لا سيطلاق بطونهم غير محبوبة ، كالخنظل قبل طبخه والديراس والقرنيون ، ولا ينال أمعاؤهم منها ضرر . وهي لو تناولها أهل الحضر الرقيقة أمعاؤهم بما نشأت عليه من لطيف الأغذية لكان الهلاك أسرع إليهم من طرفية العين ؛ لما فيها من السمية . ومن تأثير الأغذية في الأبدان ما ذكره أهل الفلاحة وشاهده أهل التجربة أن الدجاج إذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بئر الإبل وأُخذَ بيضها ثم حصنت عليه جاء الدجاج منها أعظم ما يكون . وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البئر مع البيض المحض فيجىء دجاجها في غاية العظم . وأمثال ذلك كثير ، فاذا رأينا هذه الآثار من الأغذية في الأبدان فلا شك أن للجوع أيضاً آثاراً في الأبدان ؛ لأن الضدين على نسبة

وَاجْتَنَّبَ فِي التَّأْيِيرِ وَعَدَمِهِ ؛ فَيَكُونُ تَأْيِيرُ الْجُوعِ فِي نَقَاءِ الْأَبْدَانِ
مِنَ الزِّيَادَاتِ الْفَاسِدَةِ وَالرُّطُوبَاتِ الْمُخْتَلِطَةِ الْمُخَلَّةِ بِالْجِسْمِ وَالْعَقْلِ كَمَا
كَانَ الْغِذَاءُ مُؤَثِّرًا فِي وُجُودِ ذَلِكَ الْجِسْمِ . وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِعِلْمِهِ .

المقدمة السادسة

في اصناف المحركين للغيب من البشر بالفطرة او بالرياضة
ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا

إِعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ اصْطَفَى مِنْ الْبَشَرِ أَشْخَاصًا فَضَّلَهُمْ
بِخُطَايِهِ ، وَقَطَرَهُمْ عَلَى مَعْرِفَتِهِ ، وَجَعَلَهُمْ وَسَائِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ ،
يُعْرِفُونَهُمْ بِمَصَالِحِهِمْ ، وَيُخَوِّضُونَهُمْ عَلَى هِدَايَتِهِمْ ، وَيَأْخُذُونَ
بِجُزَائِهِمْ عَنِ النَّارِ ، وَيَدُلُّونَهُمْ عَلَى طَرِيقِ النِّجَاةِ . وَكَانَ فِيمَا
يُلْقِيهِ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَعَارِفِ وَيُظْهِرُهُ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ مِنَ الْخَوَارِقِ
وَالْأَخْبَارِ الْكَائِنَاتِ الْمُنْقَبَةِ عَنِ الْبَشَرِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهَا
إِلَّا مِنْ اللَّهِ يَوْسَاطِيهِمْ ، وَلَا يَعْلَمُونَهَا إِلَّا بِتَعْلِيمِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ .
قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَلَا وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ » .
وَأَعْلَمَ أَنَّ خَبَرَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ خَاصِيَّتِهِ وَضُرُورَتِهِ الصِّدْقُ ، لِمَا
يَتَبَيَّنُ لَكَ عِنْدَ بَيَانِ حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ .

وَعَلَامَةُ هَذَا الصِّنْفِ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ تَوَجَّدَ لَهُمْ فِي حَالِ الْوَحْيِ
غَيْبَةٌ عَنِ الْحَاضِرِينَ مَعَهُمْ مَعَ غَطِيطٍ كَمَا أَنَّهَا غَشِيَتْ أَوْ إِنْغَاءٌ فِي
رَأْيِ الْعَيْنِ وَلَيْسَتْ مِنْهَا فِي شَيْءٍ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ فِي الْحَقِيقَةِ اسْتِغْرَاقٌ
فِي لِقَاءِ الْمَلِكِ الْروْحَانِيِّ بِإِذْرَاقِهِمُ الْمُنَاسِبِ لَهُمُ الْخَارِجِ عَنْ

مداركِ البشرِ بالكُلِّيَّةِ . ثُمَّ يَنْزَلُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ : إِمَّا بِسَمَاعِ دَوِيِّ مِنْ الْكَلَامِ فَيَتَفَهَّمُهُ ؛ أَوْ يَتَمَثَّلُ لَهُ صَوْرَةُ شَخْصٍ يُخَاطِبُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . ثُمَّ تَنْجَلِي عَنْهُ تِلْكَ الْحَالُ وَقَدْ وَعَى مَا أُلْقِيَ إِلَيْهِ . قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ سُئِلَ عَنْ الْوَحْيِ : « أَحْيَانًا يَأْتِينِي وَمِثْلَ صَلَافَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيُفْصِمُ^(١) عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ ؛ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعْيِي مَا يَقُولُ » . وَيُذَرِّكُهُ أَثْنَاءَ ذَلِكَ مِنْ الشِّدَّةِ وَالنَّعْطِ مَا لَا يُعْبَرُ عَنْهُ . فِي الْحَدِيثِ : « كَانَ يَمَّا يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً^(٢) » . وَقَالَتْ عَائِشَةُ : « كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيُفْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ حَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا » . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ . وَلِأَجْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ فِي تَنْزِيلِ الْوَحْيِ كَانَ الْمَشْرِكَونَ يَزْمُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِالْجُنُونِ ، وَيَقُولُونَ : لَهُ رَدِيٌّ أَوْ تَابِعٌ مِنَ الْجِنِّ . وَإِنَّمَا لُبْسَ عَلَيْهِمْ بِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ ظَاهِرِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ : ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .

وَمِنْ عِلَالِمَاتِهِمْ أَيْضًا أَنَّهُ يَوْجَدُهُمْ قَبْلَ الْوَحْيِ خُلُقُ الْخَيْرِ وَالزَّكَاةِ وَجِبَانَةِ الْمَذْمُومَاتِ وَالرِّجْسِ أَجْمَعٍ . وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْعِصْمَةِ . وَكَأَنَّهُ مَفْطُورٌ عَلَى التَّنْزُّهِ عَنِ الْمَذْمُومَاتِ وَالْمُنَافَقَةِ لَهَا ؛ وَكَأَنَّهَا مُنَافِيَةٌ لِجِلَّتِهِ . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ تَحَمَّلَ الْحِجَارَةَ وَهُوَ غُلَامٌ مَعَ عَمِّهِ الْعَبَّاسِ لِبِنَاءِ الْكُعْبَةِ ، فَجَعَلَهَا فِي إِزَارِهِ ، فَأُنْكَشِفَ ، فَسَقَطَ

(١) يُفْصِمُ عَنِّي : يَفَارِقُنِي وَيَنْقَطِعُ .

(٢) الْحَدِيثُ : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً » .

مَغْشِيًّا عَلَيْهِ حَتَّى اسْتَتَرَ بِإِزَارِهِ ؛ وَدُعِيَ إِلَى مُجْتَمَعٍ وَلِيْمَةٍ فِيهَا
عُرْسٌ وَلَعِبٌ فَأَصَابَهُ غَشْيُ النَّوْمِ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَمْ يَحْضُرْ
شَيْئًا مِنْ شَأْنِهِمْ ؛ بَلْ رَزَّهُهُ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ؛ حَتَّى إِنَّهُ يَجِلُّتُهُ يَتَنَزَّهُ
عَنِ الْمَطْعُمَاتِ الْمُسْتَكْرَهَةِ . فَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَقْرَبُ
الْبَصَلَ وَالثُّومَ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ : « إِنِّي أَنَا جِي مِنْ لَا تُنَاجُونَ » .

وَأَنْظُرْ لِمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ
عنها بِجَالِ الْوَحْيِ أَوَّلَ مَا فَجَّأَتْهُ وَأَرَادَتْ اخْتِبَارَهُ ، فَقَالَتْ : « اجْعَلْنِي
بَيْنَكَ وَبَيْنَ ثَوْبِكَ » ؛ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ ذَهَبَ عَنْهُ ؛ فَقَالَتْ : « إِنَّهُ
مَلَكٌ وَلَيْسَ بِشَيْطَانٍ » ؛ وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَقْرَبُ النِّسَاءَ . وَكَذَلِكَ
سَأَلَتْهُ عَنْ أَحَبِّ الشَّيْبِ إِلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَهُ فِيهَا ، فَقَالَ الْبَيَاضُ وَالْخَضْرَاءُ ،
فَقَالَتْ إِنَّهُ الْمَلَكُ ؛ يَعْنِي أَنَّ الْبَيَاضَ وَالْخَضْرَاءَ مِنْ أَلْوَانِ الْخَيْرِ
وَالْمَلَأَيْكَةِ ، وَالسَّوَادَ مِنْ أَلْوَانِ الشَّرِّ وَالشَّيَاطِينِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ .
وَمِنْ أَعْلَامِهِمْ أَيْضاً دُعَاؤُهُمْ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ مِنَ الصَّلَاةِ
وَالصَّدَقَةِ وَالْعَفَافِ . وَقَدْ اسْتَدَلَّتْ خَدِيجَةُ عَلَى صَدِيقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ بِذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ ، وَلَمْ يَحْتَاجَا فِي أَمْرِهِ إِلَى دَلِيلٍ
خَارِجٍ عَنْ حَالِهِ وَخُلُقِهِ . وَفِي الصَّبَحِ أَنْ هِرَقَلَ حِينَ جَاءَهُ كِتَابُ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ أَحْضَرَ مَنْ وَجَدَ
يَبْلَدِهِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَفِيهِمْ أَبُو سُفْيَانَ لَيْسَ أَلَهُمْ عَنْ حَالِهِ ، فَكَانَ
فِيمَا سَأَلَ أَنْ قَالَ : يَمُّ يَا مُرْكُم ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَا صِلَاةَ وَالزَّكَاةَ
وَالصِّلَةَ وَالْعَفَافِ إِلَى آخِرِ مَا سَأَلَ فَأَجَابَهُ ؛ فَقَالَ : « إِنْ يَكُنْ مَا
تَقُولُ حَقًّا فَهَوُا نَبِيًّا وَسَمِلكُمْ مَا تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ » . وَالْعَفَافُ

الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ هِرَقْلُ^(١) هُوَ الْعِصْمَةُ. فَانْظُرْ كَيْفَ أَخَذَ مِنَ الْعِصْمَةِ
وَالدُّعَاءِ إِلَى الدِّينِ وَالْعِبَادَةِ دَلِيلًا عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ ، وَلَمْ يَخْتِجْ إِلَى
مُعْجَزَةٍ . فَقَدْ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِلَامَاتِ النُّبُوَّةِ .

وَمِنْ عِلَامَاتِهِمْ أَيْضًا أَنَّ يَكُونُوا ذَوِي حَسَبٍ فِي قَوْمِهِمْ .
وَفِي الصَّحِيحِ : « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ » ؛ وَفِي
رِوَايَةٍ أُخْرَى « فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ » ؛ اسْتَدْرَكَهُ الْحَاكِمُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ
وَفِي مُسَاءَلَةِ هِرَقْلَ لِأَبِي سُفْيَانَ كَمَا هُوَ فِي الصَّحِيحِ قَالَ : « كَيْفَ
هُوَ فَيْكُمْ ؟ » ؛ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : « هُوَ فِينَا ذُو حَسَبٍ » ؛ فَقَالَ هِرَقْلُ :
« وَالرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْسَابِ قَوْمِهَا » . وَمَعْنَاهُ أَنَّ تَكُونَ لَهُ عَصَبَةٌ
وَشَوْكَةٌ تُنْعَمُ عَنْ أَذَى الْكُفَّارِ حَتَّى يُبْلَغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَيُثَبِّتَ مُرَادَ
اللَّهِ مِنْ إِكْمَالِ دِينِهِ وَمِلَّتِهِ .

وَمِنْ عِلَامَاتِهِمْ أَيْضًا وَقُوعُ الْخَوَارِقِ لَهُمْ شَاهِدَةٌ بِصِدْقِهِمْ ؛
وَهِيَ أَفْعَالٌ يَعْجِزُ الْبَشَرُ عَنْ مِثْلِهَا فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ مُعْجَزَةً ، وَلَيْسَتْ
مِنْ جِنْسِ مَقْدُورِ الْعِبَادِ ، وَإِنَّمَا تَقَعُ فِي غَيْرِ حُلٍّ قُدْرَتِهِمْ . وَلِلنَّاسِ
فِي كَيْفِيَّةِ وَقُوعِهَا وَدَلَالَتِهَا عَلَى تَصْدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ خِلَافٌ .

فَالْمُتَكَلِّمُونَ بِنَاءً عَلَى الْقَوْلِ بِالْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ قَائِلُونَ بِأَنَّهَا
وَاقِعَةٌ بِثُدْرَةِ اللَّهِ لَا يَفْعَلُ النَّبِيُّ ، وَإِنْ كَانَتْ أَفْعَالُ الْعِبَادِ عِنْدَ
الْمُعْتَرِلَةِ صَادِرَةً عَنْهُمْ إِلَّا أَنَّ الْمُعْجَزَةَ لَا تَكُونُ مِنْ جِنْسِ أَفْعَالِهِمْ .
وَلَيْسَ لِلنَّبِيِّ فِيهَا عِنْدَ سَائِرِ الْمُتَكَلِّمِينَ إِلَّا التَّحْدِيدُ بِهَا بِإِذْنِ اللَّهِ ؛
وَهُوَ أَنْ يَسْتَدِلَّ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وَقُوعِهَا عَلَى

(١) قوله: الذي أشار إليه هرقل، كذا في جميع النسخ. والظاهر أبو سفيان اهـ.

صِدْقِهِ فِي مُدْعَاهُ . فَإِذَا وَقَعَتْ تَنْزَلَتْ مَنَزِلَةً الْقَوْلِ الصَّرِيحِ مِنْ
اللَّهِ بِأَنَّهُ صَادِقٌ ، وَتَكُونُ دَلَالَتُهَا حَيْثُ عَلِيَ الصِّدْقِ قَطْعِيَّةٌ .
فَالْمُعْجَزَةُ دَالَّةٌ بِمَجْمُوعِ الْخَارِقِ وَالتَّحْدِي ؛ وَلِذَلِكَ كَانَ التَّحْدِي
جُزْءًا مِنْهَا . وَعِبَارَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ « صِفَةُ نَفْسِهَا » وَهُوَ وَاحِدٌ ، لِأَنَّهُ
مَعْنَى الذَّاتِيِّ عِنْدَهُمْ .

وَالْتَّحْدِي هُوَ الْفَارِقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْكَرَامَةِ وَالسِّحْرِ ، إِذْ لَا
حَاجَةَ فِيهَا إِلَى التَّصْدِيقِ ، فَلَا وُجُودَ لِلتَّحْدِي إِلَّا إِنْ وَجِدَ
اتِّفَاقًا . وَإِنْ وَقَعَ التَّحْدِي فِي الْكَرَامَةِ عِنْدَ مَنْ يُحْيِيهَا وَكَانَتْ
لَهَا دَلَالَةٌ فَإِنَّمَا هِيَ عَلَى الْوِلَايَةِ وَهِيَ غَيْرُ النُّبُوَّةِ . وَمِنْ هُنَا مَنَعَ
الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُ وَقُوعَ الْخَوَارِقِ كَرَامَةً فِرَارًا مِنْ
الْإِلْتِبَاسِ بِالنُّبُوَّةِ عِنْدَ التَّحْدِي بِالْوِلَايَةِ . وَقَدْ أَرَيْنَاكَ الْمُنَايَرَةَ
بَيْنَهُمَا وَأَنَّهُ يَتَّحْدِي بِغَيْرِ مَا يَتَّحْدِي بِهِ النَّبِيُّ ، فَلَا لَبْسَ ، عَلَى أَنَّ
النُّقْلَ عَنِ الْأُسْتَاذِ فِي ذَلِكَ لَيْسَ صَرِيحًا ؛ وَرُبَّمَا حُجِّلَ عَلَى إِنْكَارِ
أَنْ تَمَعَ خَوَارِقُ الْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ بِنَاءً عَلَى اخْتِصَاصِ كُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ
بِخَوَارِقِهِ .

وَأَمَّا الْمُعْتَزَلَةُ فَالْمَانِعُ مِنْ وَقُوعِ الْكَرَامَةِ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْخَوَارِقَ
لَيْسَتْ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ ، وَأَفْعَالُهُمْ مُعْتَادَةٌ ، فَلَا فَرْقَ .
وَأَمَّا وَقُوعُهَا عَلَى يَدِ الْكَاذِبِ تَلْبِيسًا فَهُوَ مُحَالٌ . أَمَّا عِنْدَ
الْأَشْعَرِيَّةِ فَلِأَنَّ صِفَةَ نَفْسِ الْمُعْجَزَةِ التَّصْدِيقُ وَالْهُدَايَةُ ، فَلَوْ وَقَعَتْ
بِخِلَافِ ذَلِكَ انْقَلَبَ الدَّلِيلُ شُبْهَةً ، وَالْهُدَايَةُ ضَلَالَةً ، وَالتَّصْدِيقُ
كَذِبًا ، وَاسْتَحَالَتِ الْحَقَائِقُ ، وَأَنْقَلَبَتِ صِفَاتُ النَّفْسِ ؛ وَمَا يَلْزَمُ

من فرض وقوعه الحال لا يكون ممكناً . وأما عند المعتزلة فلأن وقوع الدليل شبهة وإلهادية ضلالة قبيح فلا يقع من الله . وأما الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبي ، ولو كان في غير محل القدرية بناء على مذهبيهم في الإيجاب الذاتي ووقوع الحوادث بعضها عن بعض متوقف على الأسباب ؛ والشروط الحادثة مستندة أخيراً إلى الواجب الفاعل بالذات لا بالاختيار ؛ وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية ، منها صدور هذه الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له في التكوين . والنبي عندهم مجبول على التصريف^(١) في ألا يكون معها توجه إليها واستجمع لها بما جعل الله له من ذلك . والخارق عندهم يقع للنبي سواء أكان للتحدّي أو لم يكن ؛ وهو شاهد بصدقه من حيث دلالة على تصرف النبي في ألا يكون الذي هو من خواص النفس النبوية لا بأنه ينزل منزلة القول الصريح بالتصديق . فذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هي عند المتكلمين ؛ ولا يكون التحدي جزءاً من المعجزة ؛ ولم يصح فارقاً لها عن السحر والكرامة . وفارقها عندهم عن السحر أن النبي مجبول على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر فلا يلزم الشر بخوارقه ؛ والساحر على الضد فافعله كلها شر ، وفي مقاصد الشر . وفارقها عن الكرامة أن خوارق النبي مخصوصة كالصعود إلى السماء ، والنفوذ في الأجسام الكشافة ، وإحياء الموتى ، وتكليم الملائكة

(١) صرفه في الأمر: فوض الأمر إليه (قاموس).

وَالطَّيْرَانِ فِي الْهَوَاءِ ؛ وَخَوَارِقُ الْوَلِيِّ دُونَ ذَلِكَ كَثِيرٌ الْقَلِيلُ
وَالْحَدِيثُ عَنْ بَعْضِ الْمُسْتَقْبَلِ وَأَمْثَالِهِ مِمَّا هُوَ قَاصِرٌ عَنْ تَصْرِيفِ
الْأَنْبِيَاءِ . وَيَأْتِي النَّبِيُّ بِجَمِيعِ خَوَارِقِهِ ، وَلَا يَقْدِرُ هُوَ عَلَى مِثْلِ
خَوَارِقِ الْأَنْبِيَاءِ . وَقَدْ قَرَّرَ ذَلِكَ الْمُتَصَوِّفَةُ فِيمَا كَتَبُوهُ فِي طَرِيقَتِهِمْ
وَلَقْنُوهُ عَمَّنْ أَخْبَرَهُمْ .

وَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ أَعْظَمَ الْمُعْجَزَاتِ وَأَشْرَفَهَا وَأَوْضَحَهَا
دَلَالَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْمُنْزَلُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
فَإِنَّ الْخَوَارِقَ فِي الْغَالِبِ تَقَعُ مُغَايِرَةً لِلْوَحْيِ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ النَّبِيُّ
وَيَأْتِي بِالْمُعْجِزَةِ شَاهِدَةً بِصِدْقِهِ ؛ وَالْقُرْآنُ هُوَ بِنَفْسِهِ الْوَحْيُ
الْمُدْعَى وَهُوَ الْخَارِقُ الْمُعْجِزُ ؛ فَشَاهِدُهُ فِي عَيْنِهِ وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ
مُغَايِرٍ لَهُ كَسَائِرِ الْمُعْجَزَاتِ مَعَ الْوَحْيِ ؛ فَهُوَ أَوْضَحُ دَلَالَةٍ لِاتِّحَادِ
الدَّلِيلِ وَالْمُذَلِّلِ فِيهِ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَأُوتِيَ مِنْ آيَاتٍ مَا مِثْلُهُ آمَنَ
عَلَيْهِ الْبَشَرُ » ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أَتَيْتُهُ وَحِيًّا أُوحِيَ إِلَيَّ . فَأَنَا أَرْجُو
أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْمُعْجِزَةَ مَتَى
كَانَتْ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فِي الْوُضُوحِ وَقُوَّةِ الدَّلَالَةِ وَهُوَ كَوْنُهَا نَفْسَ
الْوَحْيِ كَانَ الصِّدْقُ لَهَا أَكْثَرَ لَوْضُوحًا ، فَكَثُرَ الْمُصَدِّقُ الْمُؤْمِنُ
وَهُوَ التَّابِعُ وَالْأُمَّةُ .

تفسير حقيقة النبوة

وانذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شره كثير من المحققين
ثم نذكر حقيقة الكملة ثم الرؤيا ثم شأن الصرافين وغير ذلك
من محارك الغيب فنقول:

إِعْلَمْ أَرْشَدَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ ، أَنَا نُشَاهِدُ هَذَا الْعَالَمَ بِمَا فِيهِ مِنْ
الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا عَلَى هَيْئَةٍ مِنَ التَّرْتِيبِ وَالْإِحْكَامِ ، وَرَبِّطِ الْأَسْبَابَ
بِالْمُسَبَّبَاتِ ، وَاتَّصِلِ الْأَكْوَانِ بِالْأَكْوَانِ ، وَاسْتَحَالَةِ بَعْضِ
الْمَوْجُودَاتِ إِلَى بَعْضٍ ، لَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ فِي ذَلِكَ وَلَا تَنْتَهِي
غَايَتُهُ . وَأَبْدَأْ مِنْ ذَلِكَ بِالْعَالَمِ الْحُشْوَسِ الْجُمَانِيِّ . وَأَوَّلًا عَالَمُ
الْعُنَاصِرِ الْمُشَاهِدَةِ كَيْفَ تَدْرَجُ صَاعِدًا مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْمَاءِ ثُمَّ
إِلَى الْهَوَاءِ ثُمَّ إِلَى النَّارِ مُتَّصِلًا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا
مُسْتَعِدٌّ إِلَى أَنْ يَسْتَحِيلَ إِلَى مَا يَلِيهِ صَاعِدًا وَهَاطِطًا ، وَيَسْتَحِيلُ
بَعْضُ الْأَوْقَاتِ . وَالصَّاعِدُ مِنْهَا أَلْفٌ بِمَا قَبْلَهُ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى
عَالَمِ الْأَفْلَاقِ وَهُوَ أَلْفٌ مِنَ الْكُلِّ عَلَى طَبَقَاتٍ اتَّصَلَ بَعْضُهَا
بِبَعْضٍ عَلَى هَيْئَةٍ لَا يُذَرِّكُ الْحِسُّ مِنْهَا إِلَّا الْحَرَكَاتِ فَقَطْ ، وَبِهَا
يَهْتَدِي بَعْضُهُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَقَادِيرِهَا وَأَوْضَاعِهَا ، وَمَا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ
وُجُودِ الذَّوَاتِ الَّتِي لَهَا هَذِهِ الْأَثَارُ فِيهَا . ثُمَّ انْظُرْ إِلَى عَالَمِ التَّكْوِينِ

كَيْفَ ابْتَدَأَ مِنَ الْمَعَادِينَ ثُمَّ النَّبَاتِ ثُمَّ الْحَيَوَانِ عَلَى هَيْئَةٍ بَدِيعَةٍ
مِنَ التَّذْرِيجِ . آخِرُ أَفْقِ الْمَعَادِينَ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ النَّبَاتِ مِثْلَ
الْحَشَائِشِ ، وَمَا لَا بَذَرَ لَهُ ، وَآخِرُ أَفْقِ النَّبَاتِ مِثْلَ النَّخْلِ
وَالكَرْمِ مُتَّصِلٌ بِأَوَّلِ أَفْقِ الْحَيَوَانِ مِثْلَ الْحَلَزُونِ وَالصَّدَفِ ، وَلَمْ
يُوجَدْ لَهَا إِلَّا قُوَّةُ النَّفْسِ فَقَطْ . وَمَعْنَى الْإِتِّصَالِ فِي هَذِهِ الْمَكُونَاتِ
أَنَّ آخِرَ أَفْقٍ مِنْهَا مُسْتَعِدٌّ بِالْإِسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ^(١) لِأَنَّهُ يَصِيرُ أَوَّلَ
أَفْقٍ آخَرٍ بَعْدَهُ . وَاتَّسَعَ عَالَمُ الْحَيَوَانِ وَتَعَدَّدَتْ أَنْوَاعُهُ ، وَأَنْتَهَى
فِي تَذْرِيجِ التَّكْوِينِ إِلَى الْإِنْسَانِ صَاحِبِ الْفِكْرِ وَالرَّوْيَةِ ، تَرْتَقِعُ
إِلَيْهِ مِنْ عَالَمِ الْمُدَرَّةِ^(٢) الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ الْحِسُّ وَالْإِذْرَاكُ ، وَلَمْ
يَنْتَهَ إِلَى الرَّوْيَةِ وَالْفِكْرِ بِالْفِعْلِ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ أَفْقٍ مِنَ
الْإِنْسَانِ بَعْدَهُ . وَهَذَا غَايَةُ شُهُودِنَا .

ثُمَّ إِنَّمَا نَجِدُ فِي الْعَوَالِمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا آثَاراً مُتَوَّعَةً : فَفِي عَالَمِ
الْحِسِّ آثَارٌ مِنْ حَرَكَاتِ الْأَفْلاكِ وَالْعَنَاصِرِ ؛ وَفِي عَالَمِ التَّكْوِينِ
آثَارٌ مِنْ حَرَكَةِ النُّمُوِّ وَالْإِذْرَاكِ ، تَشْهَدُ كُلُّهَا بِأَنَّ لَهَا مُؤَثَّرًا مُبَايِنًا
لِلْأَجْسَامِ . فَهُوَ رُوحَانِيٌّ وَيَتَّصِلُ بِالْمَكُونَاتِ لِوُجُودِ إِتِّصَالِ هَذَا
الْعَالَمِ فِي وُجُودِهَا ؛ وَذَلِكَ هُوَ النَّفْسُ الْمُدْرِكَةُ وَالْحَرَكَةُ . وَلَا بُدَّ
فَوْقَهَا مِنْ وُجُودٍ آخَرَ يُعْطِيهَا قُوَّةَ الْإِذْرَاكِ وَالْحَرَكَةِ ، وَيَتَّصِلُ بِهَا
أَيْضًا ، وَيَكُونُ ذَاتُهُ إِذْرَاكًا صَرَفًا وَتَمَقُّلاً مُخَصًّا ، وَهُوَ عَالَمٌ

(١) كذا بالأصل ، وفي بعض النسخ : القريب . ولا معنى لكلا اللفظين هنا . وربما كانت
معرفة عن كلمة غريزي .

(٢) كذا بالأصل في جميع النسخ ، وفي نسخة لجنة البيان العربي : القردة . وهي منسجمة مع
سياق معنى العبارة هنا .

الْمَلَايِكَةِ . فَوَجَبَ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ لِلنَّفْسِ اسْتِعْدَادٌ لِلْإِنْسِلَاخِ مِنْ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ لِتَصِيرَ بِالْفِعْلِ مِنْ جِسْرِ الْمَلَايِكَةِ وَقْتاً مِنْ الْأَوْقَاتِ فِي لَحْظَةٍ مِنَ اللَّحَظَاتِ ؛ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَكْمَلَ ذَاتُهَا الرُّوحَانِيَّةُ بِالْفِعْلِ كَمَا نَذَرُوهُ بَعْدُ ، وَيَكُونُ لَهَا اتِّصَالٌ بِالْأَفْقِ الَّذِي بَعْدَهَا ، شَأْنُ الْمَوْجُودَاتِ الْمُرْتَبَةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . فَلَهَا فِي الْإِتِّصَالِ جِهَتَا الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ : فَهِيَ مُتَّصِلَةٌ بِالْبَدَنِ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهَا وَمُكْتَسِبَةٌ بِهِ الْمَدَارِكَ الْحِسِّيَّةَ الَّتِي تَسْتَعِدُّ بِهَا لِلْحُصُولِ عَلَى التَّعَقُّلِ بِالْفِعْلِ ؛ وَمُتَّصِلَةٌ مِنْ جِهَةِ الْأَعْلَى مِنْهَا بِأَفْقِ الْمَلَايِكَةِ وَمُكْتَسِبَةٌ بِهِ الْمَدَارِكَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْعُلْيَا ، فَإِنَّ عَالَمَ الْخَوَاصِّ مَوْجُودٌ فِي تَعَقُّلَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ زَمَانٍ . وَهَذَا مَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ التَّرْتِيبِ الْمَحْكَمِ فِي الْوُجُودِ بِاتِّصَالِ ذَوَاتِهِ وَقَوَاهُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ .

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ غَائِبَةٌ عَنِ الْإِيْيَانِ وَأَثَارُهَا ظَاهِرَةٌ فِي الْبَدَنِ ؛ فَكَأَنَّهُ وَجَمِيعُ أَجْزَائِهِ مُجْتَمِعَةٌ وَمُفْتَرَقَةٌ آتَاتُ لِلنَّفْسِ وَلَقَوَاهَا ، أَمَّا الْفَاعِلِيَّةُ فَالْبَطْشُ بِالْيَدِ وَالْمَشْيُ بِالرِّجْلِ وَالْكَلَامُ بِاللِّسَانِ وَالْحَرَكَةُ الْكُلِّيَّةُ بِالْبَدَنِ مُتَدَاوِلَةً . وَأَمَّا الْمَذْرُوعَةُ . وَإِنْ كَانَتْ قُوَى الْإِذْرَاكِ مُرْتَبَةً وَمُرْتَقِيَّةً إِلَى الْقُوَى الْعُلْيَا مِنْهَا وَمِنْ الْمَفَكَّرَةِ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالنَّاطِقَةِ ؛ فَقُوَى الْحِسِّ الظَّاهِرَةِ بِآلَاتِهِ مِنَ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَسَائِرِهَا يَرْتَقِي إِلَى الْبَاطِنِ ، وَأَوَّلُهُ الْحِسُّ الْمَشْتَرَكُ ؛ وَهُوَ قُوَّةٌ تُذَكِّرُ الْحَسُوسَاتِ مُبْصَرَةً وَمَسْمُوعَةً وَمَمْلُوسَةً وَغَيْرَهَا فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَبِذَلِكَ فَارَقَتْ قُوَّةَ الْحِسِّ الظَّاهِرِ ؛ لِأَنَّ الْحَسُوسَاتِ لَا تَرْتَدِّحُ عَلَيْهَا فِي الْوَقْتِ الْوَاحِدِ . ثُمَّ يُؤَدِّيهِ

الجِسُّ الْمَشْتَرَكُ إِلَى الْخِيَالِ ، وَهِيَ قُوَّةٌ تَمَثِّلُ الشَّيْءَ الْمَحْسُوسَ فِي
النَّفْسِ كَمَا هُوَ مُجَرَّدٌ عَنِ الْمَوَادِّ الْخَارِجَةِ فَقَطْ . وَآلَةُ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ
فِي تَصْرِيفِهَا الْبَطْنُ الْأَوَّلُ مِنَ الدِّمَاغِ : مُقَدِّمَةٌ لِلأُولَى ، وَمُؤَخَّرَةٌ
لِلثَّانِيَةِ . ثُمَّ يَرْتَقِي الْخِيَالُ إِلَى الْوَاهِمَةِ وَالْحَافِظَةِ . فَالْوَاهِمَةُ
لِإِذْرَاكِ الْمَعَانِي الْمُتَعَلِّقَةِ بِالشَّخْصِيَّاتِ كَهَدَاوَةِ زَيْدٍ وَصَدَاقَةِ عَمْرٍو وَرَحْمَةِ
أَبٍ وَافْتِرَاسِ الذُّبِّ . وَالْحَافِظَةُ لِإِيدَاعِ الْمَذْرَكَاتِ كُلِّهَا مُتَخَيِّلَةً
وَعَبْرَ مُتَخَيِّلَةٍ ، وَهِيَ لَهَا كَالْخِزَانَةِ تَحْفَظُهَا لِيَوْقَتِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا .
وَآلَةُ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ فِي تَصْرِيفِهَا الْبَطْنُ الْمُؤَخَّرُ مِنَ الدِّمَاغِ : أَوَّلُهُ
لِلأُولَى ، وَمُؤَخَّرُهُ لِلْأُخْرَى . ثُمَّ تَرْتَقِي جَمِيعُهَا إِلَى قُوَّةِ الْفِكْرِ .
وَآلَتُهُ الْبَطْنُ الْأَوْسَطُ مِنَ الدِّمَاغِ ؛ وَهِيَ الْقُوَّةُ الَّتِي يَمَعُ بِهَا
حَرَكََةُ الرُّوْيَةِ وَالتَّوَجُّهُ نَحْوَ التَّعَقُّلِ ؛ فَتَحْرُكُ النَّفْسُ بِهَا دَائِمًا لِمَا
رُكِبَ فِيهَا مِنَ النُّزُوعِ لِلتَّخَلُّصِ مِنْ دَرَكِ الْقُوَّةِ وَالْإِسْتِمْدَادِ الَّذِي
لِلبَشَرِيَّةِ ، وَتَخْرُجُ إِلَى الْفِعْلِ فِي تَعَقُّلِهَا مُنْشِئَةً بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى
الرُّوحَانِيَّ . وَتَصِيرُ فِي أَوَّلِ مَرَاتِبِ الرُّوحَانِيَّاتِ فِي إِذْرَاكِهَا
بِغَيْرِ الْأَلَاتِ الْجِسْمَانِيَّةِ . فَهِيَ مُتَحَرِّكَةٌ دَائِمًا وَمُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ ذَلِكَ .
وَقَدْ تَنْسَلِخُ بِالْكُلِّيَّةِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى الْمَلَكِيَّةِ مِنْ
الْأَفْقِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ ، بَلْ بِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيهَا مِنْ
الْجِلَّةِ وَالْفِطْرَةِ الْأُولَى فِي ذَلِكَ .

اصناف النفوس البشرية

والنفوسُ البَشَرِيَّةُ على ثلاثة أصنافٍ :

صِنْفٌ عاجِزٌ بالطَّبعِ عن الوُصولِ إلى الإدراكِ الروحانيِّ ،
فَيَنْقَطِعُ بالحَرَكََةِ إلى أَلْهَمَةِ السُّفْلَى نحوَ المَدَارِكِ الحِسِّيَّةِ وَالْخَيَالِيَّةِ ،
وَتَرْكِيبِ المَعَانِي مِنَ الحَافِظَةِ والوَهِمَةِ على قَوَانِينٍ مَحْصُورَةٍ ، وَتَرْتِيبِ
خَاصٍ يَسْتَفِيدُونَ بِهِ المُلُومَ التَّصَوُّرِيَّةَ وَالتَّصْدِيقِيَّةَ الَّتِي لِلْفِكْرِ فِي
الْبَدَنِ ؛ وَكُلُّهَا خَيَالِيٌّ مُنَحْصَرٌ نِطاقُهُ ؛ إِذْ هُوَ مِنْ جِهَةٍ مَبْدِئِهِ يَنْتَهِي
إِلَى الْأَوَّلِيَّاتِ وَلَا يَتَجَاوَزُهَا ، وَإِنْ فَسَدَ فَسَدَ مَا بَعْدَهَا . وَهَذَا هُوَ
فِي الْأَغْلَبِ نِطَاقُ الإدراكِ البَشَرِيِّ الجِسْمَانِيِّ . وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي مَدَارِكُ
الْعُلَمَاءِ وَفِيهِ تَرْسُخُ أَقْدَامُهُمْ .

وَصِنْفٌ مُتَوَجِّهٌ بِتِلْكَ الحَرَكََةِ الفِكْرِيَّةِ نحوَ العَقْلِ الروحانيِّ
وَالإدراكِ الَّذِي لَا يَفْتَقِرُ إِلَى الآلَاتِ البَدَنِيَّةِ بِمَا جُعِلَ فِيهِ مِنْ
الاسْتِعْدَادِ لِذَلِكَ ؛ فَيَتَّسِعُ نِطَاقُ إدراكِهِ عَنِ الْأَوَّلِيَّاتِ الَّتِي هِيَ
نِطَاقُ الإدراكِ الْأَوَّلِ البَشَرِيِّ ، وَيَسْرَحُ فِي فِضَاءِ المُشَاهَدَاتِ البَاطِنِيَّةِ ،
وَهِيَ وَجْدَانٌ كُلُّهَا لَا نِطَاقَ لَهَا مِنْ مَبْدِئِهَا وَلَا مِنْ مُنْتَهَاهَا . وَهَذِهِ
مَدَارِكُ الْعُلَمَاءِ الْأَوَّلِيَاءِ أَهْلِ المُلُومِ اللَّدُنِيَّةِ وَالْمَعَارِفِ الرِّبَانِيَّةِ ، وَهِيَ
الْحَاصِلَةُ بَعْدَ أَلُوتِ لِأَهْلِ السَّعَادَةِ فِي الْبَرَزَخِ .

وَصِنْفٌ مَفْطُورٌ عَلَى الانْسِلَاخِ مِنَ البَشَرِيَّةِ جُمْلَةً جِسْمَانِيَّتِهَا
وَرُوحَانِيَّتِهَا إِلَى المَلَائِكَةِ مِنَ الْأَفُقِ الْأَعْلَى ، لِيَصِيرَ فِي لَحْظَةٍ مِنْ

الْمَحَاتِ مَلَكًا بِالْفِعْلِ ، وَيَحْصُلُ لَهُ شَهَادَةُ الْمَلَأِ الْأَعْلَى فِي أَفْقِهِمْ
وَسَمَاعِ الْكَلَامِ النَّفْسَانِيَّ وَالْخَطَابِ الْإِلَهِيِّ فِي تِلْكَ اللَّحْمَةِ .

الوحي

وَهُؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ ؛ جَعَلَ اللَّهُ لَهُمُ
الْإِنْسِلَاخَ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ فِي تِلْكَ اللَّحْمَةِ ، وَهِيَ حَالَةُ الْوَحْيِ ، فِطْرَةً
فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا وَجِيلَةً صَوَّرَهُمْ فِيهَا ، وَزَوَّجَهُمْ عَنْ مَوَانِعِ الْبَدَنِ
وَعَوَانِيَةِ مَا دَامُوا مُلَابِسِينَ لَهَا بِالْبَشَرِيَّةِ ، بِمَا رَكَّبَ فِي غَرَائِزِهِمْ
مِنَ الْقَصْدِ وَالْإِسْتِقَامَةِ الَّتِي يُحَادِثُونَ بِهَا تِلْكَ الْوُجْهَةَ ، وَرَكَزَ فِي
طَبَائِعِهِمْ رَغْبَةً فِي الْعِبَادَةِ تُكْشِفُ بِتِلْكَ الْوُجْهَةِ وَتَسِيغُ نَحْوَهَا .
فَهُمْ يَتَوَجَّهُونَ إِلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ بِذَلِكَ النُّوعِ مِنَ الْإِنْسِلَاخِ مَتَى
شَاؤُوا بِتِلْكَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فُطِرُوا عَلَيْهَا لَا بِاِكْتِسَابٍ وَلَا صِنَاعَةٍ .
فَلذَا تَوَجَّهُوا وَأَنْسَلَخُوا عَنْ بَشَرِيَّتِهِمْ ، وَتَلَقَّوْا فِي ذَلِكَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى
مَا يَتَلَقَّوْنَهُ ، وَعَاجَبُوا بِهِ عَلَى الْمُدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ مُنْزَلًا فِي قَوَاهَا لِحِكْمَةِ
التَّبْلِيغِ لِلْعِبَادِ . فَتَارَةً يَسْمَعُ أَحَدُهُمْ دَوِيًّا كَأَنَّهُ رَمَزٌ مِنَ الْكَلَامِ
يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَعْنَى الَّذِي أُلْقِيَ إِلَيْهِ ، فَلَا يَتَقَضَى الدَّوِيُّ إِلَّا وَقَدْ وَعَاهُ
وَفَهِمَهُ . وَتَارَةً يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ - الَّذِي يُلْقِي إِلَيْهِ - رُجُلًا فَيُكَلِّمُهُ
وَيَعِي مَا يَقُولُهُ . وَالتَّلَقِّي مِنَ الْمَلَكِ ، وَالرَّجُوعُ إِلَى الْمُدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ ،
وَفَهْمُهُ مَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ كُلُّهُ كَأَنَّهُ فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ أَقْرَبَ مِنْ لَحْظَةِ
الْبَصَرِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي زَمَانٍ ، بَلْ كُلُّهَا تَقَعُ جَمِيعًا فَيُظْهِرُ كَأَنَّهَا
سَرِيعَةٌ ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ وَحْيًا ؛ لِأَنَّ الْوَحْيَ فِي اللُّغَةِ الْإِسْرَاعُ .

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْأُولَى وَهِيَ حَالَةُ الدَّوِيِّ هِيَ رُتَبَةُ الْأَنْبِيَاءِ غَيْرِ
 الْمُرْسَلِينَ عَلَى مَا حَقَّقُوهُ ؛ وَالثَّانِيَّةُ وَهِيَ حَالَةُ تُمَثُّلِ الْمَلِكِ رَجُلًا
 يُخَاطَبُ هِيَ رُتَبَةُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ ؛ وَلِذَلِكَ كَانَتْ أَكْمَلَ مِنْ
 الْأُولَى . وَهَذَا مَعْنَى الْحَدِيثِ الَّذِي فَسَّرَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ الْوَحْيَ لِمَا سَأَلَهُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ ، وَقَالَ وَكَيْفَ يَأْتِيكَ
 الْوَحْيُ ؟ فَقَالَ : « أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلَاطَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ
 فَيُفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ ؛ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلِكُ رَجُلًا
 فَيُكَلِّمُنِي فَأَعْيَ مَا يَقُولُ » . وَإِنَّمَا كَانَتْ الْأُولَى أَشَدَّ لِأَنَّهَا مَبْدَأُ
 الْخُرُوجِ فِي ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ فَيَعْسُرُ بَعْضُ الْعُسْرِ
 وَلِذَلِكَ لَمَّا عَاجَ فِيهَا عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ اخْتَصَّتْ بِالسَّمْعِ وَصَعِبَ
 مَا سِوَاهُ . وَعِنْدَمَا يَتَكَرَّرُ الْوَحْيُ وَيَكْثُرُ التَّلَقِّي يَسْهُلُ ذَلِكَ الْإِتِّصَالُ
 فَعِنْدَمَا يَعْرُجُ إِلَى الْمَدَارِكِ الْبَشَرِيَّةِ ، يَأْتِي عَلَى جَمِيعِهَا وَخُصُوصًا
 الْأَوْضَحَ مِنْهَا وَهُوَ إِذْرَاكُ الْبَصَرِ . وَفِي الْعِبَارَةِ عَنِ الْوَحْيِ فِي
 الْأُولَى بِصِغَةِ الْمَاضِي وَفِي الثَّانِيَّةِ بِصِغَةِ الْمُضَارِعِ لَطِيفَةٌ مِنْ
 الْبَلَاغَةِ ؛ وَهِيَ أَنَّ الْكَلَامَ جَاءَ تَجْمِيءَ التَّمَثُّلِ لِحَالَتِي الْوَحْيِ ،
 تَمَثُّلَ الْحَالَةِ الْأُولَى بِالْدَّوِيِّ الَّذِي هُوَ فِي الْمُتَعَارَفِ غَيْرُ كَلَامٍ ، وَأَخْبَرَ
 أَنَّ الْفَهْمَ وَالْوَحْيَ يَتَّبَعُهُ غَيْبُ انْقِضَائِهِ ، فَتَنَاسَبَ عِنْدَ تَصْوِيرِ انْقِضَائِهِ
 وَانْقِصَالِهِ الْعِبَارَةُ عَنِ الْوَحْيِ بِالْمَاضِي ، الْمُنَاطِقُ لِلْإِنْقِضَاءِ وَالْإِنْقِطَاعِ
 وَمَثَلُ الْمَلِكِ فِي الْحَالَةِ الثَّانِيَّةِ بِرَجُلٍ يُخَاطَبُ وَيَتَكَلَّمُ ، وَالْكَلَامُ
 يُسَاوِقُهُ الْوَحْيُ ، فَتَنَاسَبَ الْعِبَارَةُ بِالْمُضَارِعِ الْمُقْتَضِي لِلتَّجَدُّدِ .

وَأَعْلَمَ أَنَّ فِي حَالَةِ الْوَحْيِ كُلِّهَا صُعُوبَةً عَلَى الْجُمْلَةِ ، وَشِدَّةً

قَدْ أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(١) وَقَالَتْ عَائِشَةُ: «كَانَ يُمْرُ يُعَانِي مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً»^(٢)؛ وَقَالَتْ: «كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيُقْصِمُ عَنْهُ وَإِنْ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا». وَلِذَلِكَ كَانَ يَحْدُثُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ مِنَ الْغَيْبَةِ وَالْعَطِيطِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ. وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْوَحْيَ كَمَا قَرَّرْنَاهُ مُفَارَقَةُ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَدَارِكِ الْمَلَكِيَّةِ وَتَلْقَى كَلَامَ النَّفْسِ، فَيَحْدُثُ عَنْهُ شِدَّةٌ مِنْ مُفَارَقَةِ الذَّاتِ ذَاتِهَا وَأَنْسِلَاحِهَا عَنْهَا مِنْ أَفْقِهَا إِلَى ذَلِكَ الْأَفْقِ الْآخِرِ. وَهَذَا هُوَ مَعْنَى الْغَطِّ الَّذِي عَبَّرَ بِهِ فِي مَبْدَأِ الْوَحْيِ فِي قَوْلِهِ: «فَعَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ»، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ ﴿أَقْرَأْ﴾ فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ، وَكَذَا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً كَمَا فِي الْحَدِيثِ. وَقَدْ يُفْضَى الْإِعْتِيَادُ بِالتَّذْرِيجِ فِيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى بَعْضِ السُّهُولَةِ بِالْقِيَاسِ إِلَى مَا قَبْلَهُ. وَلِذَلِكَ كَانَ تَنْزُلُ الْجُجُمِ الْقُرْآنِ وَسُورِهِ وَآيِهِ حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ أَقْصَرَ مِنْهَا وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ. وَانْظُرْ إِلَى مَا نُقِلَ فِي نُزُولِ سُورَةِ بَرَاءَةِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَأَنَّهَا نُزِلَتْ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا عَلَيْهِ وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى نَاقَتِهِ؛ بَعْدَ أَنْ كَانَ بِمَكَّةَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ بَعْضُ السُّورَةِ مِنْ قِصَارِ الْمَفْصَلِ فِي وَقْتٍ، وَيُنْزَلُ الْبَاقِي فِي حِينَ آخَرَ. وَكَذَلِكَ كَانَ آخِرُ مَا نُزِّلَ بِالْمَدِينَةِ آيَةُ الدِّينِ وَهِيَ مَا هِيَ فِي الطُّولِ؛ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ الْآيَةُ تُنْزَلُ بِمَكَّةَ مِثْلُ آيَاتِ الرَّحْمَنِ وَالذَّارِيَاتِ وَالْمُدَّثِّرِ وَالضُّحَى وَالْفَلَقِ وَأَمْثَالِهَا. وَأَعْتَبِرْ مِنْ ذَلِكَ

(١) نَصُّ الْحَدِيثِ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً» وَهُوَ مَرْوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَلَيْسَ عَنْ عَائِشَةَ.

عَلَامَةٌ تُمَيِّزُ بِهَا بَيْنَ الْمَلَكِيِّ وَالْمَدَنِيِّ مِنَ السُّورِ وَالْآيَاتِ . وَاللَّهُ
الْمُرْشِدُ لِلصَّوَابِ . هَذَا مُحَصَّلُ أَمْرِ النُّبُوَّةِ .

الكلمة

وَأَمَّا الْكِهَانَةُ فَهِيَ أَيْضاً مِنْ خَوَاصِّ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ .
وَذَلِكَ أَنَّهُ وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا فِي جَمِيعِ مَا مَرَّ أَنَّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ
اِسْتِعْدَاداً لِلْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي فَوْقَهَا ، وَأَنَّهُ
يَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ لَمَحَةٌ لِلْبَشَرِ فِي صِنْفِ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا فُطِرُوا عَلَيْهِ مِنْ
ذَلِكَ ، وَتَقَرَّرَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ اكْتِسَابٍ وَلَا اِسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ
مِنَ الْمَدَارِكِ وَلَا مِنَ التَّصَوُّرَاتِ ، وَلَا مِنَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ كَلَاماً
أَوْ حَرَكَةً وَلَا بِأَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ ، إِنَّمَا هُوَ اِنْسِلَاحٌ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ
إِلَى الْمَلَكِيَّةِ بِالْفِطْرَةِ فِي لَحْظَةٍ أَقْرَبَ مِنْ لَمَحِ الْبَصَرِ .

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ، وَكَانَ ذَلِكَ الْاِسْتِعْدَادُ مَوْجُوداً فِي
الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، فَيُعْطَى التَّقْسِيمُ الْعَقْلِيُّ ، وَإِنَّ هُنَا صِنْفاً آخَرَ
مِنَ الْبَشَرِ نَاقِصاً عَنْ رُتَبَةِ الصِّنْفِ الْأَوَّلِ نُقْصَانُ الضِدِّ عَنْ ضِدِّهِ
الْكَامِلِ لِأَنَّ عَدَمَ الْاِسْتِعَانَةِ فِي ذَلِكَ الْإِذْرَاكِ ضِدُّ الْاِسْتِعَانَةِ فِيهِ ،
وَشَتَانٌ مَا بَيْنَهُمَا . فَإِذَا أُعْطِيَ تَقْسِيمُ الْوُجُودِ إِلَى هُنَا صِنْفاً آخَرَ
مِنَ الْبَشَرِ مَفْطُوراً عَلَى أَنْ تَتَحَرَّكَ قُوَّتُهُ الْعَقْلِيَّةُ حَرَكَتَهَا الْفِكْرِيَّةَ
بِالْإِرَادَةِ عِنْدَمَا يَبْعَثُهَا النُّزُوعُ لِذَلِكَ وَهِيَ نَاقِصَةٌ عَنْهُ بِالْجِلَّةِ ،
فَيَكُونُ لَهَا بِالْجِلَّةِ عِنْدَمَا يُعَوِّقُهَا الْعَجْزُ عَنْ ذَلِكَ تَشَبُّهُ بِأُمُورِ

جُزْئِيَّةٌ مُحَسَّسَةٌ أَوْ مُتَخَيَّلَةٌ، كَالْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ وَعِظَامِ الْحَيَوَانَاتِ
وَسَجْعِ الْكَلَامِ وَمَا سَنَحَ مِنْ طَيْرٍ أَوْ حَيَوَانٍ، فَيَسْتَدِيمُ ذَلِكَ
الْإِحْسَاسُ أَوْ التَّخَيُّلُ مُسْتَعِينًا بِهِ فِي ذَلِكَ الْإِنْسِلَاحِ الَّذِي يَقْصِدُهُ
وَيَكُونُ كَالْمُسْتَسْعِرِ لَهُ. وَهَذِهِ الْقُوَّةُ الَّتِي فِيهِمْ مَبْدَأٌ لِذَلِكَ
الْإِذْرَاكِ هِيَ الْكِهَانَةُ. وَلِكُونِ هَذِهِ النُّفُوسِ مَفْطُورَةٌ عَلَى النُّقْصِ
وَالْفُضُورِ عَنِ الْكَمَالِ كَانَ إِذْرَاكُهَا فِي الْجُزْئِيَّاتِ أَكْثَرَ مِنْ
الْكُلِّيَّاتِ. وَلِذَلِكَ تَكُونُ الْخَيَلَةُ فِيهِمْ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ لِأَنَّهَا آلَةُ
الْجُزْئِيَّاتِ، فَتَقْتَفِذُ فِيهَا نَفُودًا تَامًا فِي نَوْمٍ أَوْ يَقْظَةٍ وَتَكُونُ عِنْدَهَا
حَاضِرَةً عَتِيدَةً لِحُضْرِهَا الْخَيَلَةُ وَتَكُونُ لَهَا كَالْمِرَاةِ تَنْظُرُ فِيهَا دَائِمًا.
وَلَا يَقْوَى الْكَاهِنُ عَلَى الْكَمَالِ فِي إِذْرَاكِ الْمَقُولَاتِ لِأَنَّ وَحْيَهُ
مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ. وَأَزْفَعُ أَحْوَالُ هَذَا الصِّنْفِ أَنْ يَسْتَعِينَ
بِالْكَلَامِ الَّذِي فِيهِ السَّجْعُ وَالْمُوازَنَةُ لِيَسْتَعْلِ بِه عَنْ الْحَوَاسِ
وَيَقْوَى بَعْضَ الشَّيْءِ عَلَى ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ النَاقِصِ، فَيَهْجُسُ فِي
قَلْبِهِ عَنْ تِلْكَ الْحَرَكَةِ، وَالَّذِي يُشْعِمُهَا مِنْ ذَلِكَ الْأَجْنَبِيِّ، مَا
يَقْدِفُهُ عَلَى لِسَانِهِ؛ فَرُبَّمَا صَدَقَ وَوَافَقَ الْحَقُّ، وَرُبَّمَا كَذَبَ؛
لِأَنَّهُ يُتِمُّ نَفْسَهُ بِأَمْرِ أَجْنَبِيٍّ عَنْ ذَاتِهِ الْمَذْرُوكَةِ وَمُبَايِنٍ لَهَا
غَيْرِ مُلَائِمٍ، فَيَعْرِضُ لَهُ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا وَلَا يَكُونُ
مَوْثُوقًا بِهِ. وَرُبَّمَا يَفْرَغُ إِلَى الظُّنُونِ وَالتَّخْمِينَاتِ حِرْصًا عَلَى الظَّفَرِ
بِالْإِذْرَاكِ بِزَعْمِهِ، وَتَقْوِيهَا عَلَى السَّائِلِينَ. وَأَصْحَابُ هَذَا السَّجْعِ
هُمْ الْمُخَصَّصُونَ بِاسْمِ الْكُهَّانِ لِأَنَّهُمْ أَزْفَعُ سَائِرِ أَصْنَافِهِمْ. وَقَدْ
قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مِثْلِهِ: «هَذَا مِنْ سَجْعِ الْكُهَّانِ».

فَجَعَلَ السَّجْعَ تَخْتَصُّ بِهِمْ بِمُقْتَضَى الْإِضَافَةِ . وَقَدْ قَالَ لِابْنِ صَيَّادٍ
حِينَ سَأَلَهُ كَاشِفًا عَنْ حَالِهِ بِالْأَخْبَارِ : كَيْفَ يَأْتِيكَ هَذَا الْأَمْرُ ؟
قَالَ : يَأْتِينِي صَادِقًا وَكَاذِبًا . فَقَالَ : خُطِّطَ عَلَيْكَ الْأَمْرُ يَعْنِي أَنَّ
النُّبُوَّةَ خَاصَّتْهَا الصِّدْقُ فَلَا يَعْتَرِيهَا الْكَذِبُ بِحَالٍ لِأَنَّهَا اتِّصَالُ مِنْ
ذَاتِ النَّبِيِّ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى مِنْ غَيْرِ مُشْجِعٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ بِأَجْنَبِيٍّ .
وَالْكِهَانَةُ لَمَّا احتاجَ صَاحِبُهَا بِسَبَبِ عَجْزِهِ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ
بِالتَّصَوُّرَاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ كَانَتْ دَاخِلَةً فِي إِدْرَاكِهِ ، وَالتَّبَسُّتُ
بِالإِدْرَاكِ الَّذِي تَوَجَّهَ إِلَيْهِ ، فَصَارَ مُخْتَلِطًا بِهَا ، وَطَرَقَهُ الْكَذِبُ
مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ ، فَامْتَنَعَ أَنْ تَكُونَ نُبُوَّةً . وَإِنَّمَا قُلْنَا إِنَّ أَرْفَعَ
مَرَاتِبِ الْكِهَانَةِ حَالَةَ السَّجْعِ لِأَنَّ مَعْنَى السَّجْعِ اخْفُتُ مِنْ سَائِرِ
الْمُغَيَّبَاتِ مِنَ الْمَزِينَاتِ وَالْمُسْمُوعَاتِ . وَتَدُلُّ خِفَّةُ الْمَعْنَى عَلَى قُرْبِ
ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ وَالْإِدْرَاكِ ، وَالْبُعْدُ فِيهِ عَنِ الْعَجْزِ بَعْضَ الشَّيْءِ .

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هَذِهِ الْكِهَانَةَ قَدِ انْقَطَعَتْ مِنْذُ
زَمَنِ النُّبُوَّةِ بِمَا وَقَعَ مِنْ شَأْنِ رَجْمِ الشَّيَاطِينِ بِالشُّهُبِ بَيْنَ يَدَيِ
الْبَيْتَةِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ لِمَنْعِهِمْ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ كَمَا وَقَعَ فِي الْقُرْآنِ ؛
وَالْكُهَّانُ إِنَّمَا يَتَعَرَّفُونَ أَخْبَارَ السَّمَاءِ مِنَ الشَّيَاطِينِ ؛ فَبَطَلَتْ الْكِهَانَةُ
مِنْ يَوْمَئِذٍ . وَلَا يَقُومُ مِنْ ذَلِكَ دَلِيلٌ ؛ لِأَنَّ عُلُومَ الْكُهَّانِ كَمَا
تَكُونُ مِنَ الشَّيَاطِينِ تَكُونُ مِنْ نُفُوسِهِمْ أَيْضًا كَمَا قُرْزَنَاهُ . وَأَيْضًا
فَالْآيَةُ إِنَّمَا دَلَّتْ عَلَى مَنْعِ الشَّيَاطِينِ مِنْ تَوْعِ وَاحِدٍ مِنَ أَخْبَارِ
السَّمَاءِ وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِخَبَرِ الْبَيْتَةِ ، وَلَمْ يُنْعَمُوا بِمَا سِوَى ذَلِكَ . وَأَيْضًا
فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْإِنْقِطَاعُ بَيْنَ يَدَيِ النُّبُوَّةِ فَقَطْ ، وَلَمَّا عَادَتْ بَعْدَ

ذَلِكَ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ، وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْمَدَارِكُ
كُلُّهَا تَحْمَدُ فِي زَمَنِ النُّبُوَّةِ ، كَمَا تَحْمَدُ الْكَوَاكِبُ وَالسُّرُجُ عِنْدَ وُجُودِ
الشَّمْسِ ؛ لِأَنَّ النُّبُوَّةَ هِيَ النُّورُ الْأَعْظَمُ الَّذِي يَخْفَى مَعَهُ كُلُّ نُورٍ
وَيَذْهَبُ .

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ أَنَّهَا إِنَّمَا تَوْجَدُ بَيْنَ يَدَيِ النُّبُوَّةِ ، ثُمَّ
تَنْقَطِعُ ؛ وَهَكَذَا مَعَ كُلِّ نُبُوَّةٍ وَقَعَتْ ، لِأَنَّ وُجُودَ النُّبُوَّةِ لَا بُدَّ
لَهُ مِنْ وَضْعٍ فَلِكِيِّ يَمْتَضِيهِ ، وَفِي تَمَامِ ذَلِكَ الْوَضْعِ تَمَامُ تِلْكَ
النُّبُوَّةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا ، وَنَقْصُ ذَلِكَ الْوَضْعِ عَنِ التَّمَامِ يَمْتَضِي
وُجُودَ طَبِيعَةٍ - مِنْ ذَلِكَ النُّوعِ الَّذِي يَمْتَضِيهِ - نَاقِصَةٍ ، وَهُوَ مَعْنَى
الْكَاهِنِ عَلَى مَا قَرَّرْنَاهُ . فَتَقَبَّلَ أَنْ يَتِمَّ ذَلِكَ الْوَضْعُ الْكَامِلُ يَقَعُ
الْوَضْعُ النَاقِصُ ، وَيَمْتَضِي وُجُودُ الْكَاهِنِ إِمَّا وَاحِدًا أَوْ مُتَعَدِّدًا .
فَإِذَا تَمَّ ذَلِكَ الْوَضْعُ تَمَّ وُجُودُ النَّبِيِّ بِكَمَالِهِ ، وَأَنْقَضَتْ الْأَوْضَاعُ
الدَّالَّةُ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الطَّبِيعَةِ ، فَلَا يَوْجَدُ مِنْهَا شَيْءٌ بَعْدُ . وَهَذَا
يُنَاءُ عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْوَضْعِ الْفَلَكِيِّ يَمْتَضِي بَعْضَ أَثَرِهِ ؛ وَهُوَ غَيْرُ
مُسَلَّمٍ . فَلَعَلَّ الْوَضْعَ إِنَّمَا يَمْتَضِي ذَلِكَ الْأَثَرُ بِهَيْئَتِهِ الْخَاصَّةِ ، وَلَوْ
نَقَصَ بَعْضُ أَجْزَائِهَا فَلَا يَمْتَضِي شَيْئًا ، لَا أَنَّهُ يَمْتَضِي ذَلِكَ الْأَثَرُ
نَاقِصًا كَمَا قَالُوهُ .

ثُمَّ إِنَّ هَؤُلَاءِ الْكُهَّانَ إِذَا عَاصَرُوا زَمَنَ النُّبُوَّةِ فَإِنَّهُمْ عَارِفُونَ
بِصِدْقِ النَّبِيِّ وَدَلَالَةِ مُعْجَزَتِهِ ، لِأَنَّ لَهُمْ بَعْضَ الْوُجُودَانِ مِنْ أَمْرِ
النُّبُوَّةِ كَمَا لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أَمْرِ النَّوْمِ . وَمَعْقُولِيَّةُ تِلْكَ النِّسْبَةِ
مَوْجُودَةٌ لِلْكَاهِنِ بِأَشَدِّ مِمَّا لِلنَّائِمِ . وَلَا يَصُدُّهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيُوقِعُهُمْ

في التَّكْذِيبِ إِلَّا قُوَّةَ الْمَطَامِعِ فِي أَنَّهَا نُبُوَّةٌ لَهُمْ ، فَيَقْعُونَ فِي الْعِنَادِ
كَمَا وَقَعَ لِأُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ فَإِنَّهُ كَانَ يَطْمَعُ أَنْ يَتَنَبَّأَ ، وَكَذَا
وَقَعَ لِابْنِ صَيَّادٍ وَالمُسْلِمَةِ وَغَيْرِهِمْ . فَإِذَا غَلَبَ الْإِيمَانُ وَانْقَطَعَتْ
تِلْكَ الْأُمَانِيُّ آمَنُوا أَحْسَنَ إِيْمَانٍ ؛ كَمَا وَقَعَ لِطُلَيْحَةَ الْأَسَدِيِّ وَسَوَادِ
ابْنِ قَارِبٍ ؛ وَكَانَ لُهُمَا فِي الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْأَثَارِ الشَّاهِدَةُ
بِحُسْنِ الْإِيمَانِ .

الرُّؤْيَا

وَأَمَّا الرُّؤْيَا فَحَقِيقَتُهَا مُطَالَعَةُ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ فِي ذَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ
لَحْمَةً مِنْ صُورِ الْوَاقِعَاتِ . فَإِنَّهَا عِنْدَمَا تَكُونُ رُوحَانِيَّةً تَكُونُ
صُورُ الْوَاقِعَاتِ فِيهَا مَوْجُودَةً بِالْفِعْلِ كَمَا هُوَ شَأْنُ الذَّوَاتِ الرُّوحَانِيَّةِ
كُلِّهَا . وَتَصِيرُ رُوحَانِيَّةً بِأَنْ تَتَجَرَّدَ عَنِ الْمَوَادِّ الْجَسَدِيَّةِ وَالْمَدَارِكِ
الْبَدَنِيَّةِ . وَقَدْ يَقَعُ لَهَا ذَلِكَ لَحْمَةً بِسَبَبِ النَّوْمِ كَمَا نَذَكُرُ ، فَتَقْتَبِسُ
بِهَا عِلْمَ مَا تَنْشَوُّفُ إِلَيْهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ وَتَعُودُ بِهِ إِلَى
مَدَارِكِهَا . فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْإِقْتِبَاسُ ضَعِيفاً وَغَيْرَ جَلِيٍّ بِالْمَحَاكَاةِ
وَالْمِثَالِ فِي الْخَيَالِ لِتَخْلُطِهِ فَيَحْتَاجُ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمَحَاكَاةِ إِلَى التَّعْبِيرِ
وَقَدْ يَكُونُ الْإِقْتِبَاسُ قَوِيّاً يُسْتَعْنَى فِيهِ عَنِ الْمَحَاكَاةِ فَلَا يَحْتَاجُ
إِلَى تَعْبِيرٍ مُخْلُوصٍ مِنَ الْمِثَالِ وَالْخَيَالِ . وَالسَّبَبُ فِي وَقُوعِ هَذِهِ
الْلَّحْمَةِ لِلنَّفْسِ أَنَّهَا ذَاتٌ رُوحَانِيَّةٌ بِالْقُوَّةِ ، مُسْتَكْمَلَةٌ بِالْبَدَنِ

وَمَدَارِكِهِ^(١)؛ حَتَّى تَصِيرَ ذَاتُهَا تَمَقُّلاً تَحْضاً وَيَكْمُلَ وُجُودُهَا بِالْفِعْلِ؛ فَتَكُونَ حَيْنُذٍ ذَاتاً رُوحَانِيَّةً مُدْرِكَةً بِغَيْرِ شَيْءٍ مِنَ الْآلَاتِ الْبَدَنِيَّةِ. إِلَّا أَنَّ نَوْعَهَا فِي الرُّوحَانِيَّاتِ دُونَ نَوْعِ الْمَلَائِكَةِ أَهْلِ الْأَفْقِ الْأَعْلَى الَّذِينَ لَمْ يَسْتَكْمِلُوا ذَوَاتِهِمْ بِشَيْءٍ مِنَ مَدَارِكِ الْبَدَنِ وَلَا غَيْرِهِ. فَهَذَا الْإِسْتِعْدَادُ حَاصِلٌ لَهَا مَا دَامَتْ فِي الْبَدَنِ؛ وَمِنْهُ خَاصٌّ كَالَّذِي لِلْأَوْلِيَاءِ؛ وَمِنْهُ عَامٌّ لِلْبَشَرِ عَلَى الْعُمُومِ؛ وَهُوَ أَمْرُ الرُّؤْيَا.

وَأَمَّا الَّذِي لِلْأَنْبِيَاءِ فَهُوَ اسْتِعْدَادٌ بِالْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ الْخَاضِعَةِ الَّتِي هِيَ أَعْلَى الرُّوحَانِيَّاتِ. وَيَخْرُجُ هَذَا الْإِسْتِعْدَادُ فِيهِمْ مُتَكَرِّراً فِي حَالَاتِ الْوَحْيِ؛ وَهُوَ عِنْدَمَا يُعْرَجُ عَلَى الْمَدَارِكِ الْبَدَنِيَّةِ وَيَقَعُ فِيهَا مَا يَقَعُ مِنَ الْإِذْرَاكِ يَكُونُ^(٢) شَبِيهاً بِحَالِ النَّوْمِ شَبِيهاً بَيِّنًا، وَإِنْ كَانَ حَالُ النَّوْمِ أَذْوَنَ مِنْهُ بِكَثِيرٍ. فَلِأَجْلِ هَذَا الشَّبَهِ عَبَّرَ الشَّارِعُ عَنِ الرُّؤْيَا بِأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ، وَفِي رِوَايَةٍ ثَلَاثَةٍ وَأَرْبَعِينَ، وَفِي رِوَايَةٍ سَبْعِينَ. وَلَيْسَ الْعَدَدُ فِي جَمِيعِهَا مَقْصُوداً بِالذَّاتِ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْكَثْرَةُ فِي تَفَاوُتِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ؛ بِدَلِيلِ ذِكْرِ السَّبْعِينَ فِي بَعْضِ طُرُقِهِ وَهُوَ لِلتَّكْثِيرِ عِنْدَ الْعَرَبِ. وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ

(١) فِي نَسْخَةِ لَجْنَةِ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ عِبَارَةٌ بَيْنَ قَوْسَيْنِ وَهِيَ (وَلَا بَدْءٌ مِنْ تَخْلُصِهَا مِنَ الْبَدَنِ وَمَدَارِكِهِ). وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ غَيْرُ وَارِدَةٍ فِي جَمِيعِ النُّسخِ الْآخَرَى وَهِيَ مُتِمَّةٌ لِمَعْنَى الْجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَهَا، وَلَا يَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى بِدُونِهَا.

(٢) وَرَدَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي طَبْعَةِ لَجْنَةِ الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ، وَهِيَ سَاقِطَةٌ فِي جَمِيعِ النُّسخِ؛ وَلَا يَسْتَقِيمُ الْمَعْنَى بِدُونِهَا.

في رواية سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ مِنْ أَنَّ الْوَحْيَ كَانَ فِي مُبْتَدَأِهِ بِالرُّؤْيَا
 سِتَّةَ أَشْهُرٍ وَهِيَ نِصْفُ سَنَةٍ ، وَمُدَّةُ النُّبُوَّةِ كُلُّهَا بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ
 ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً ، فَنِصْفُ السَّنَةِ مِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ ،
 فَكَلَامٌ بَعِيدٌ مِنَ التَّحْقِيقِ . لِأَنَّهُ إِنَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمِنْ أَيْنَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْمُدَّةَ وَقَعَتْ لِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ؛
 مَعَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يُعْطَى نِسْبَةً زَمَنِ الرُّؤْيَا مِنْ زَمَنِ النُّبُوَّةِ ، وَلَا
 يُعْطَى نِسْبَةً حَقِيقَتِهَا مِنْ حَقِيقَةِ النُّبُوَّةِ . وَإِذَا تَبَيَّنَ لَكَ هَذَا بِمَا
 ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا عَلِمْتَ أَنَّ مَعْنَى هَذَا الْجُزْءِ نِسْبَةُ الْإِسْتِعْدَادِ الْأَوَّلِ
 الشَّامِلِ لِلْبَشَرِ إِلَى الْإِسْتِعْدَادِ الْقَرِيبِ الْخَاصِّ بِنِصْفِ الْأَنْبِيَاءِ
 الْفِطْرِيِّ لَهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ؛ إِذْ هُوَ الْإِسْتِعْدَادُ الْبَعِيدُ وَإِنْ
 كَانَ عَامًّا فِي الْبَشَرِ وَمَعَهُ عَوَائِقُ وَمَوَانِعُ كَثِيرَةٌ مِنْ حُصُولِهِ
 بِالْفِعْلِ . وَمِنْ أَعْظَمِ تِلْكَ الْمَوَانِعِ الْحَوَاسُ الظَّاهِرَةُ . فَفَطَرَ اللَّهُ
 الْبَشَرَ عَلَى ارْتِفَاعِ حِجَابِ الْحَوَاسِ بِالنَّوْمِ الَّذِي هُوَ جِيلِيٌّ لَهُمْ ،
 فَتَعَرَّضُ النَّفْسُ عِنْدَ ارْتِفَاعِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا تَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ فِي عَالَمِ
 الْحَقِّ ، فَتَذَرِكُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ مِنْهُ لَمَحَّةً يَكُونُ فِيهَا الظُّقُرُ
 بِالْمَطْلُوبِ . وَلِذَلِكَ جَعَلَهَا الشَّارِعُ مِنَ الْمُبَشِّرَاتِ ، فَقَالَ : لَمْ يَبْقَ
 مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ ؛ قَالُوا وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ
 الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ تُرَى لَهُ .

وَأَمَّا سَبَبُ ارْتِفَاعِ حِجَابِ الْحَوَاسِ بِالنَّوْمِ فَعَلَى مَا أَصِفُهُ
 لَكَ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ النَّاظِقَةَ إِنَّمَا إِذْرَاكُهَا وَأَفْعَالُهَا بِالرُّوحِ
 الْحَيَوَانِيِّ الْجَسْمَانِيِّ ، وَهُوَ بُخَارٌ لَطِيفٌ مَرْكَزُهُ بِالْجَوْفِ

الْأَيَسَرِ مِنَ الْعَلَبِ عَلَى مَا فِي كُتُبِ التَّشْرِيحِ جَالِينُوسَ وَغَيْرِهِ .
وَيَتَّبِعُ مَعَ الدَّمِ فِي الشَّرَيَانَتِ وَالْعُرُوقِ فَيُعْطِي الْحَسَّ وَالْحَرَكَةَ
وَسَائِرَ الْأَفْعَالِ الْبَدَنِيَّةِ . وَيَزْتَفِعُ لَطِيفُهُ إِلَى الدِّمَاغِ فَيَعْدِلُ مِنْ
بَرْدِهِ ، وَتَتِمُّ أَفْعَالُ الْقُوَى الَّتِي فِي بَطُونِهِ . فَالْنَفْسُ النَّاظِقَةُ إِنَّمَا
تُذَرِكُ وَتَعْقِلُ بِهَذَا الرُّوحِ الْبُخَارِيِّ ، وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِهِ لِمَا أَقْتَضَتْهُ
حِكْمَةُ التَّكْوِينِ فِي أَنَّ اللَّطِيفَ لَا يُورَثُ فِي الْكَثِيفِ ؛ وَلِمَا لَطَفَ
هَذَا الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ مِنْ بَيْنِ أَلْوَادِ الْبَدَنِيَّةِ ، صَارَ مَحَلًّا لِأَثَارِ الذَّاتِ
الْمُبَايِنَةِ لَهُ فِي جِسْمَانِيَّتِهِ وَهِيَ النَفْسُ النَّاظِقَةُ ، وَصَارَتْ آثَارُهَا
حَاصِلَةً فِي الْبَدَنِ بِوَاسِطَتِهِ . وَقَدْ كُنَّا قَدَمْنَا أَنَّ إِذْرَاكَهَا عَلَى
نَوْعَيْنِ : إِذْرَاكِ بِالظَّاهِرِ وَهُوَ بِالْحَوَاسِّ الْحَسِّ ، وَإِذْرَاكِ بِالْبَاطِنِ
بِالْقُوَى الدِّمَاغِيَّةِ . وَأَنَّ هَذَا الْإِذْرَاكِ كُلَّهُ صَارِفٌ لَهَا عَنْ إِذْرَاكِهَا
مَا فَوْقَهَا مِنْ ذَوَاتِهَا الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ مُسْتَعِدَّةٌ لَهُ بِالْفِطْرَةِ . وَلَمَّا
كَانَتْ الْحَوَاسُّ الظَّاهِرَةُ جِسْمَانِيَّةً ، كَانَتْ مُعَرَّضَةً لِلْوَسَنِ وَالْفَشَلِ
بِمَا يُذَرِكُهَا مِنَ التَّعَبِ وَالْكَلالِ ، وَتَغْشَى الرُّوحَ بِكَثْرَةِ التَّصَرُّفِ .
فَخَلَقَ اللَّهُ لَهَا طَلَبَ الْإِسْتِجَامِ لِتَجَرُّدِ الْإِذْرَاكِ عَلَى الصُّورَةِ
الْكَامِلَةِ . وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِإِنْخِنَاسٍ " الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ مِنْ
أَلْحَاسِ الظَّاهِرَةِ كُلِّهَا ، وَرَجُوعِهِ إِلَى الْحَسِّ الْبَاطِنِ . وَيَعِينُ عَلَى
ذَلِكَ مَا يَغْشَى الْبَدَنَ مِنَ الْبَرْدِ بِاللَّيْلِ ، فَتَطْلُبُ الْحَرَادَةُ الْغَرِيزِيَّةُ
أَعْمَاقَ الْبَدَنِ ، وَتَذْهَبُ مِنْ ظَاهِرِهِ إِلَى بَاطِنِهِ ، فَتَكُونُ مُشِيعَةً
مُرَكِّبَةً ، وَهُوَ الرُّوحُ الْحَيَوَانِيُّ إِلَى الْبَاطِنِ . وَلِذَلِكَ كَانَ النَّوْمُ

(١) انخس: تأخر وانقبض وتخلف (قاموس).

لِلْبَشَرِ فِي الْغَالِبِ إِنَّمَا هُوَ بِاللَّيْلِ . فَإِذَا انْخَسَ الرُّوحُ عَنْ الْحَوَاسِ
الظَّاهِرَةِ وَدَجَّعَ إِلَى الْقُوَى الْبَاطِنَةِ ، وَخَفَّتْ عَنِ النَّفْسِ شَوَاغِلُ
الْحِسِّ وَمَوَانِعُهُ وَرَجَعَتْ إِلَى الصُّورَةِ الَّتِي فِي الْحَافِظَةِ ، تَمَثَّلَ مِنْهَا
بِالتَّرْكِيبِ وَالتَّحْلِيلِ صُورٌ خَيَالِيَّةٌ ، وَكَثُرَ مَا تَكُونُ مَعْتَادَةً ،
لِأَنَّهَا مُنْتَزَعَةٌ مِنَ الْمَذَرَكَاتِ الْمُتَعَاهَدَةِ قَرِيبًا . ثُمَّ يُنْزِلُهَا الْحِسُّ
الْمَشْتَرَكُ الَّذِي هُوَ جَامِعُ الْحَوَاسِ الظَّاهِرَةِ ؛ فَيَدْرِكُهَا عَلَى أَنْهَاءِ
الْحَوَاسِ الْخَمْسِ الظَّاهِرَةِ . وَرُبَّمَا انْفَتَحَتِ النَّفْسُ لَفَتَةً إِلَى ذَاتِهَا
الروحانيَّةِ مَعَ مُنَازَعَتِهَا الْقُوَى الْبَاطِنِيَّةِ ، فَيُذْرِكُ بِإِذْرَاكِهَا
الروحانيَّ لِأَنَّهَا مَفْطُورَةٌ عَلَيْهِ ، وَتَقْتَبِسُ مِنْ صُورِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي
صَارَتْ مُتَعَلِّقَةً فِي ذَاتِهَا حِينَئِذٍ . ثُمَّ يَأْخُذُ الْخَيَالُ تِلْكَ الصُّورَ
الْمَذَرَكَةَ فَيَمَثِّلُهَا بِالْحَقِيقَةِ أَوْ الْحَاكَاةِ فِي الْقَوَالِبِ الْمَعْمُودَةِ .
وَالْحَاكَاةُ مِنْ هَذِهِ هِيَ الْحَاجَةُ لِلتَّعْبِيرِ ، وَتَصَرُّفُهَا بِالتَّرْكِيبِ
وَالْتَّحْلِيلِ فِي صُورِ الْحَافِظَةِ قَبْلَ أَنْ تُذْرِكَ مِنْ تِلْكَ اللَّحْمَةِ مَا
تُذْرِكُهُ هِيَ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ قَالَ : «الرُّؤْيَا ثَلَاثُ : رُؤْيَا مِنْ اللَّهِ ؛ وَرُؤْيَا مِنْ الْمَلَكِ ؛
وَرُؤْيَا مِنَ الشَّيْطَانِ» . وَهَذَا التَّفْصِيلُ مُطَابِقٌ لِمَا ذَكَرْنَاهُ : فَالْجَلْبِيُّ
مِنْ اللَّهِ ؛ وَالْحَاكَاةُ الدَّاعِيَّةُ إِلَى التَّعْبِيرِ مِنَ الْمَلَكِ ؛ وَأَضْغَاثُ
الْأَحْلَامِ مِنَ الشَّيْطَانِ لِأَنَّهَا كُلُّهَا بَاطِلٌ وَالشَّيْطَانُ يَنْبُوعُ الْبَاطِلِ .
هَذِهِ حَقِيقَةُ الرُّؤْيَا وَمَا يُسَبِّحُهَا وَيُشَيِّعُهَا مِنَ النَّوْمِ وَهِيَ خَوَاصُ
لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ مَوْجُودَةٌ فِي الْبَشَرِ عَلَى الْعُمُومِ لَا يَخْلُو عَنْهَا
أَحَدٌ مِنْهُمْ ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ رَأَى فِي نَوْمِهِ مَا صَدَرَ لَهُ

فِي يَفْظِهِ يَرَارًا غَيْرَ وَاحِدَةٍ ، وَحَصَلَ لَهُ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّ النَّفْسَ مُذْرِكَةُ الْغَيْبِ فِي النَّوْمِ ، وَلَا بَدْ . وَإِذَا جَازَ ذَلِكَ فِي عَالَمِ النَّوْمِ فَلَا يَتَّبِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ ؛ لِأَنَّ الذَّاتَ الْمُذْرِكَةَ وَاحِدَةً ، وَخَوَاصُّهَا عَامَّةٌ فِي كُلِّ حَالٍ . وَاللَّهُ الْهَادِي إِلَى الْحَقِّ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ .

الأخبار بالمغيبات

وَوُقُوعُ مَا يَمَعُ لِلْبَشَرِ مِنْ ذَلِكَ غَالِبًا إِنَّمَا هُوَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا قُدْرَةٍ عَلَيْهِ ؛ وَإِنَّمَا تَكُونُ النَّفْسُ مُتَشَوِّفَةً لِذَلِكَ الشَّيْءِ فَيَقَعُ لَهَا بِتِلْكَ اللَّحَنَةِ فِي النَّوْمِ لَا أَنَّهَا تَقْصِدُ إِلَى ذَلِكَ فَتَرَاهُ . وَقَدْ وَقَعَ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الرِّيَاضَاتِ ذِكْرُ أَسْمَاءِ تُذَكِّرُ عِنْدَ النَّوْمِ فَتُكُونُ عَنْهَا الرُّوْيَا فِيمَا يُتَشَوَّفُ إِلَيْهِ ، وَيُسَمَّوْنَهَا الْحَالُومِيَّةَ . وَذَكَرَ مِنْهَا مَسَلَمَةُ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ حَالُومَةَ سَمَاهَا : « حَالُومَةُ الطَّبَاعِ التَّامِّ » ، وَهُوَ أَنْ يُقَالَ عِنْدَ النَّوْمِ بَعْدَ فَرَاغِ السِّرِّ وَصِحَّةِ التَّوَجُّهِ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْأَعْجَبِيَّةُ وَهِيَ ، « تَمَاسُ بَعْدَ أَنْ يَسُودَ وَغَدَاسُ نَوْفُنَا غَادَسُ »^(١) وَيَذَكِّرُ حَاجَتَهُ ، فَإِنَّهُ يَرَى الْكَشْفَ عَمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ فِي النَّوْمِ .

وَحَكِيٌّ أَنْ رَجُلًا فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَ رِيَاضَةٍ لَيَالٍ فِي مَا أَكَلَهُ وَذَكَرَهُ ، فَتَمَثَّلَ لَهُ شَخْصٌ يَقُولُ لَهُ أَنَا طَبَّاعُكَ التَّامُّ ، فَسَأَلَهُ وَأَخْبَرَهُ

(١) تردد هذه الكلمات لدى المهتمين بهذه الأمور على أشكال مختلفة وهي لا تعني شيئاً في اللغات المعروفة ولعلها أساء أعلام لنفر من الجن .

عَمَّا كَانَ يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ . وَقَدْ وَقَعَ لِي أَنَا بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ مَرَاءَ عَجِيبَةٍ
وَأُطْلَعْتُ بِهَا عَلَى أُمُورٍ كُنْتُ أَتَشَوَّفُ إِلَيْهَا مِنْ أَحْوَالي . وليس
ذلكَ بِدَلِيلٍ عَلَى أَنَّ الْقَصْدَ لِلرُّؤْيَا يُخْدِئُهَا ؛ وَإِنَّمَا هَذِهِ الْحَالُومَاتُ
تُحْدِثُ اسْتِعْدَاداً فِي النَّفْسِ لَوُقُوعِ الرُّؤْيَا ؛ فَإِذَا قَوِيَ الْإِسْتِعْدَادُ
كَانَ أَقْرَبَ إِلَى حُصُولِ مَا يُسْتَعَدُّ لَهُ وَلِلشَّخْصِ أَنْ يَفْعَلَ مِنْ
الْإِسْتِعْدَادِ مَا أَحَبَّ وَلَا يَكُونُ دَلِيلًا عَلَى إِيقَاعِ الْمُسْتَعَدِّ لَهُ .
فَالْقُدْرَةُ عَلَى الْإِسْتِعْدَادِ غَيْرُ الْقُدْرَةِ عَلَى الشَّيْءِ ؛ فَاعْلَمْ ذَلِكَ وَتَدَبَّرْهُ
فَمَا تَجِدُ مِنْ أَمْثَالِهِ . وَاللَّهُ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .

فصل

ثم إنا نجدُ في النَّوعِ الْإِنْسَانِيِّ أَشْخَاصاً يُخْجَرُونَ بِالْكَائِنَاتِ
قَبْلَ وَقُوعِهَا ، بِطَبِيعَةٍ فِيهِمْ يَتَمَيَّزُ بِهَا صِنْفُهُمْ عَنْ سَائِرِ النَّاسِ ، وَلَا
يَرْجِعُونَ فِي ذَلِكَ إِلَى صِنَاعَةٍ ، وَلَا يَسْتَدِلُّونَ عَلَيْهِ بِأَثَرٍ مِنَ النُّجُومِ
وَلَا غَيْرِهَا ؛ إِنَّمَا نَجِدُ مَدَارِكَهُمْ فِي ذَلِكَ بِمُقْتَضَى فِطْرَتِهِمْ الَّتِي فُطِرُوا
عَلَيْهَا ؛ وَذَلِكَ مِثْلُ الْعَرَّافِينَ وَالنَّاظِرِينَ فِي الْأَجْسَامِ الشَّفَافَةِ
كَالْمُرَايَا وَطَسَاسِ الْمَاءِ ، وَالنَّاظِرِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا
وِعِظَامِهَا وَأَهْلِ الزَّجَرِ فِي الطَّيْرِ وَالسِّبَاعِ ، وَأَهْلِ الطَّرِيقِ بِالْحَصَى
وَالْحُبُوبِ مِنَ الْخِنْطَةِ وَالنَّوَى ، وَهَذِهِ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي عَالَمِ الْإِنْسَانِ
لَا يَسَعُ أَحَدًا جَعْدُهَا وَلَا إنْكَارُهَا . وَكَذَلِكَ الْمَجَانِينُ يُلْقَى عَلَى
أَلْسِنَتِهِمْ كَلِمَاتٌ مِنَ الْغَيْبِ فَيُخْجَرُونَ بِهَا . وَكَذَلِكَ النَّائِمُ وَالْمَيِّتُ

لِأَوَّلِ مَوْتِهِ أَوْ تَوَمُّعِهِ يَتَكَلَّمُ بِالْغَيْبِ . وَكَذَلِكَ أَهْلُ الرِّيَاضَاتِ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ لَهُمْ مَدَارِكُ فِي الْغَيْبِ عَلَى سَبِيلِ الْكَرَامَةِ مَعْرُوفَةٌ .

وَنَحْنُ الْآنَ نَتَكَلَّمُ عَلَى هَذِهِ الْإِذْرَاكِاتِ كُلِّهَا ، وَتَبْتَدِي مِنْهَا بِالْكِيَمَانَةِ ، ثُمَّ نَأْتِي عَلَيْهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً إِلَى آخِرِهَا . وَنُعَدِّمُ عَلَى ذَلِكَ مُقَدِّمَةً فِي أَنَّ النَّفْسَ الْإِنْسَانِيَّةَ كَيْفَ تَسْتَعِدُّ لِإِذْرَاكِ الْغَيْبِ فِي جَمِيعِ الْأَصْنَافِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا . وَذَلِكَ أَنَّهَا ذَاتٌ رُوحَانِيَّةٌ مَوْجُودَةٌ بِالْقُوَّةِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الرُّوحَانِيَّاتِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ قَبْلَ ، وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ بِالْبَدَنِ وَأَحْوَالِهِ . وَهَذَا أَمْرٌ مُذَرِّكٌ لِكُلِّ أَحَدٍ . وَكُلُّ مَا بِالْقُوَّةِ فَلَهُ مَادَّةٌ وَصُورَةٌ . وَصُورَةُ هَذِهِ النَّفْسِ الَّتِي بِهَا يَتِمُّ وُجُودُهَا هُوَ عَيْنُ الْإِذْرَاكِ وَالتَّعَقُّلِ . فَهِيَ تَوْجَدُ أَوَّلًا بِالْقُوَّةِ مُسْتَعِدَّةً لِلْإِذْرَاكِ وَقَبُولِ الصُّورِ الْكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ . ثُمَّ يَتِمُّ نَشْؤُهَا وَوُجُودُهَا بِالْفِعْلِ بِمُصَاحَبَةِ الْبَدَنِ وَمَا يُعَوِّدُهَا بِوُرُودِ مُذَرِّكَاتِهَا الْحُسُوسَةِ عَلَيْهَا ، وَمَا تَنْتَزِعُ مِنْ تِلْكَ الْإِذْرَاكِاتِ مِنَ الْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ فَتَتَعَقَّلُ الصُّورَةَ ، مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، حَتَّى يَحْصُلَ لَهَا الْإِذْرَاكِ وَالتَّعَقُّلُ بِالْفِعْلِ ، فَتَتِمُّ ذَاتُهَا ، وَتَبْقَى النَّفْسُ كَالْهَيُولَى ، وَالصُّورُ مُتَعَاقِبَةٌ عَلَيْهَا بِالْإِذْرَاكِ وَاحِدَةً بَعْدَ وَاحِدَةٍ . وَلِذَلِكَ نَجِدُ الصَّبِيَّ فِي أَوَّلِ نَشَأَتِهِ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِذْرَاكِ الَّذِي لَهَا مِنْ ذَاتِهَا لَا يَنُومُ وَلَا يَكْشِفُ وَلَا يَغْيِرُهَا . وَذَلِكَ لِأَنَّ صُورَتَهَا الَّتِي هِيَ عَيْنُ ذَاتِهَا وَهُوَ الْإِذْرَاكِ وَالتَّعَقُّلُ لَمْ يَتِمَّ بَعْدُ ، بَلْ لَمْ يَتِمَّ لَهَا أَنْتِزَاعُ الْكُلِّيَّاتِ . ثُمَّ إِذَا تِمَّتْ ذَاتُهَا بِالْفِعْلِ حَصَلَ لَهَا مَا دَامَتْ مَعَ الْبَدَنِ فَوَعَانٍ مِنَ الْإِذْرَاكِ : إِذْرَاكِ بَالَاتِ الْجِسْمِ تُؤَدِّيهِ إِلَيْهَا الْمَدَارِكُ

البدنيّة ، وإدراك بذاتها من غير واسطة وهي متجوبة عنه
بالإنغماس في البدن والحواس وبشواغلها ، لأن الحواس أبداً
جاذبة لها إلى الظاهر بما فطرت عليه أولاً من الإدراك الجسماني .
وربما تنغمس من الظاهر إلى الباطن ، فيرتفع حجاب البدن لحظة :
إما بالخاصية التي هي للإنسان على الإطلاق مثل النوم ، أو
بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق ، أو بالرياضة
مثل أهل الكشف من الصوفيّة . فتلتفت حينئذ إلى الذات
التي فوقها من الملاء الأعلى لما بين أفتها وأفقيهم من الاتصال في
الوجود كما قرّنه قبل . وتلك الذات روحانيّة وهي إدراك
مخصّ وعقول بالفعل ، وفيها صور الموجودات وحقايقها كما مرّ .
فيتجلى فيها شيء من تلك الصور وتقتبس منها علوماً . وربما دُفعت
تلك الصور المذركة إلى الخيال فيصرّفها في القوالب المعتادة ،
ثم يرجع الحس بما أذكرت إما مجرداً أو في قوالبه فتخير به . هذا
هو شرح استعداد النفس لهذا الإدراك الغيبي . ولترجع إلى ما
وعدنا به من بيان أصنافه :

فأما الناظرون في الأجسام الشفافة من المرايا وطاسر المياه
وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها ، وأهل الطرق بالخصى والتوى ،
فكلهم من قبيل الكهان ، إلا أنهم أضعف رتبة فيه في أصل
خلقهم ، لأن الكهان لا يحتاج في دفع حجاب الحس إلى كثير
معاونة ؛ وهؤلاء يعانونه بالتحصير المدارك الحسية كلها في نوع
واحد منها ، وأشرفها البصر ، فيعكف على المرتئي البسيط حتى

يبدو له مُدْرَكُهُ الَّذِي يُخَيِّرُ بِهِ عَنْهُ . وَرَبَّمَا يُظَنُّ أَنَّ مُشَاهِدَةَ هَؤُلَاءِ
لَمَّا يَرَوْنَهُ هُوَ فِي سَطْحِ الْمِرْآةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ . بَلْ لَا يَزَالُونَ يَنْظُرُونَ
فِي سَطْحِ الْمِرْآةِ إِلَى أَنْ يَغِيبَ عَنِ الْبَصَرِ ، وَيَبْدُو فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
سَطْحِ الْمِرْآةِ حِجَابٌ كَأَنَّهُ غَمَامٌ يَتَمَثَّلُ فِيهِ صُورٌ هِيَ مَدَارِكُهُمْ ،
فَيُشِيرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَقْصُودِ لَمَّا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ تَفْهِيمٍ أَوْ إِثْبَاتٍ ،
فَيُخَيِّرُونَ بِذَلِكَ عَلَى نَحْوِ مَا أَذْرَكُوهُ . وَأَمَّا الْمِرْآةُ وَمَا يُدْرِكُ فِيهَا
مِنَ الصُّورِ فَلَا يُذِيرُ كَوْنَهُ فِي تِلْكَ الْحَالِ ؛ وَإِنَّمَا يَنْشَأُ لَهُمْ بِهَا هَذَا
النَّوعُ الْآخَرُ مِنَ الْإِذْرَاكِ ، وَهُوَ تَفْسَائِيٌّ لَيْسَ مِنْ إِذْرَاكِ الْبَصَرِ ،
بَلْ يَتَشَكَّلُ بِهِ الْمُدْرِكُ التَّفْسَائِيُّ لِلْحِسِّ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ . وَمِثْلُ
ذَلِكَ مَا يَمْرُضُ لِلنَّاطِرِينَ فِي قُلُوبِ الْحَيَوَانَاتِ وَأَكْبَادِهَا ،
وَالنَّاطِرِينَ فِي الْمَاءِ وَالطِّسَاسِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَقَدْ شَهِدْنَا مِنْ هَؤُلَاءِ
مَنْ يَشْتَغِلُ الْحِسَّ بِالْبُخُورِ فَقَطْ ثُمَّ بِالْعَرَاثِمِ لِلِاسْتِعْدَادِ ، ثُمَّ يُخَيِّرُ كَمَا
أَذْرَكُ ؛ وَيَذَعُمُونَ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الصُّورَ مُتَشَخِّصَةً فِي الْهَوَاءِ تَحْكِي
لَهُمْ أَحْوَالَ مَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى إِذْرَاكِهِ بِالْمِثَالِ وَالْإِشَارَةِ . وَغَيْبَةُ
هَؤُلَاءِ عَنِ الْحِسِّ أَخْفُ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَالْعَالَمُ أَبُو الْغَرَائِبِ .

وَأَمَّا الزُّجَرُ وَهُوَ مَا يَخْدُثُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ التَّكَلُّمِ
بِالْغَيْبِ عِنْدَ سُنُوحِ طَائِفٍ أَوْ حَيَوَانٍ ، وَالْفِكْرُ فِيهِ بَعْدَ مَغِيبِهِ ،
وَهِيَ قُوَّةٌ فِي النَّفْسِ تَبْتَثُ عَلَى الْحِرْصِ وَالْفِكْرِ فِيمَا زُجِرَ فِيهِ
مِنْ مَرْنِيٍّ أَوْ مَسْمُوعٍ . وَتَكُونُ قُوَّتُهُ الْمُتَخَيَّلَةُ كَمَا قَدْ مَنَاهُ قَوِيَّةٌ ؛
فَيَبْتَثُ فِي الْبَحْثِ مُسْتَعِينًا بِمَا رَأَى أَوْ سَمِعَ ؛ فَيُؤَيِّدُهُ ذَلِكَ إِلَى
إِذْرَاكِ مَا ، كَمَا تَفْعَلُهُ الْقُوَّةُ الْمُتَخَيَّلَةُ فِي النَّوْمِ . وَعِنْدَ رُكُودِ الْحَوَاسِّ

إِذْ تَتَوَسَّطُ بَيْنَ الْحَسَّاسِ الْمُرْتَبِيِّ فِي يَقْظَتِهِ وَتَجْمَعُهُ مَعَ مَا عَقَلَتْهُ
فَيَكُونُ عَنْهَا الرُّوْيَا . وَأَمَّا الْجَانِينُ فَنَفْسُهُمُ النَّاطِقَةُ الضَّعِيفَةُ التَّعَلُّقُ
بِالْبَدَنِ ، لِفَسَادِ أَمْرِجَتِهِمْ غَالِبًا وَضَعْفِ الرُّوحِ الْحَيَوَانِيِّ فِيهَا ،
فَتَكُونُ نَفْسُهُ غَيْرَ مُسْتَفْرِقَةٍ فِي الْحَوَاسِّ وَلَا مُنْعَمَسَةٍ فِيهَا بِمَا شَغَلَهَا
فِي نَفْسِهَا مِنْ أَلَمِ النَّقْصِ وَمَرَضِهِ ؛ وَرُبَّمَا زَانَتْهَا عَلَى التَّعَلُّقِ بِهِ
رُوحَانِيَّةٌ أُخْرَى شَيْطَانِيَّةٌ تَنْشَبُثُ بِهِ وَتَضَعُفُ هَذِهِ عَنْ مُنَاصَرَّتِهَا ،
فَيَكُونُ عَنْهُ التَّخَبُّطُ . فَإِذَا أَصَابَهُ ذَلِكَ التَّخَبُّطُ إِمَّا لِفَسَادِ مِزَاجِهِ
مِنْ فُسَادٍ فِي ذَاتِهَا أَوْ لِمُزَاحَمَةِ مِنَ النُّفُوسِ الشَّيْطَانِيَّةِ فِي تَعَلُّقِهِ ،
غَابَ عَنْ حِسِّهِ مُجَلَّةٌ ، فَأَذْرَكَ لِحَاةً مِنْ عَالَمِ نَفْسِهِ وَأَنْطَبَعَ فِيهَا
بَعْضُ الصُّوَرِ وَصَرَفَهَا الْخِيَالُ . وَرُبَّمَا نَطَقَ عَلَى لِسَانِهِ فِي تِلْكَ
الْحَالِ مِنْ غَيْرِ إِرَادَةٍ النُّطْقِ .

وَإِذْرَاكَ هُوْلَاءُ كُلِّهِمْ مَشُوبٌ فِيهِ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْصُلُ
لَهُمُ الْإِتِّصَالُ وَإِنْ فَتَدُوا الْحِسَّ إِلَّا بَعْدَ الْإِسْتِعَانَةِ بِالتَّصَوُّرَاتِ
الْأَجْنَبِيَّةِ كَمَا قَرَّرْنَاهُ . وَمِنْ ذَلِكَ يُجِيءُ الْكَذِبُ فِي هَذِهِ الْمَدَارِكِ .
وَأَمَّا الْعَرَّافُونَ فَهُمْ الْمُتَعَلِّقُونَ بِهَذَا الْإِذْرَاكِ وَلَيْسَ لَهُمْ ذَلِكَ الْإِتِّصَالُ ،
فَيُسَلِّطُونَ الْفِكَرَ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي يَتَوَجَّهُونَ إِلَيْهِ ، وَيَأْخُذُونَ فِيهِ
بِالظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ بِنَاءً عَلَى مَا يَتَوَهَّمُونَ مِنْ مَبَادِيءِ ذَلِكَ الْإِتِّصَالِ
وَالْإِذْرَاكِ ، وَيَدْعُونَ بِذَلِكَ مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ ، وَلَيْسَ مِنْهُ عَلَى
الْحَقِيقَةِ .

هَذَا تَحْصِيلُ هَذِهِ الْأُمُورِ . وَقَدْ تَكَلَّمَ عَلَيْهَا الْمُسَوِّدِيُّ فِي
(مُرُوجِ الذَّهَبِ) ، فَمَا صَادَفَ تَحْقِيقًا وَلَا إِصَابَةً . وَيَظْهَرُ مِنْ كَلَامِ

الرَّجُلِ أَنَّهُ كَانَ بَعِيداً عَنِ الرُّسُوحِ فِي الْمَعَارِفِ ، فَيَنْقُلُ مَا سَمِعَ
مِنْ أَهْلِهِ وَمِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ .

وَهَذِهِ الْأِذْرَاكَاتُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا مَوْجُودَةٌ كُلُّهَا فِي نَوْعِ
الْبَشَرِ . فَقَدْ كَانَ الْعَرَبُ يُفَزَعُونَ إِلَى الْكُفَّانِ فِي تَعَرُّفِ الْحَوَادِثِ
وَيَتَنَاقَرُونَ إِلَيْهِمْ فِي الْخُصُومَاتِ لِيُعَرِّفُوهُمْ بِالْحَقِّ فِيهَا مِنْ إِذْرَاكِ
غَيْبِهِمْ . وَفِي كُتُبِ أَهْلِ الْأَدَبِ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ . وَأَشْتَهَرَ مِنْهُمْ
فِي الْجَاهِلِيَّةِ شَيْقُ بْنُ أُنْمَادَ بْنِ يَزَارٍ ، وَسَطِيحُ بْنُ مَازِينَ بْنِ غَسَّانَ ،
وَكَانَ يُدْرَجُ كَمَا يُدْرَجُ الثَّوبُ^(١) ، وَلَا عَظَمُ فِيهِ إِلَّا الْجُمُحَةُ . وَمِنْ
مَشْهُورِ الْحِكَايَاتِ عَنْهَا تَأْوِيلُ رُؤْيَا رَبِيعَةَ بْنِ مُضَرَ ، وَمَا أَخْبَرَهُ
بِهِ مِنْ مُلْكِ الْحَبَشَةِ لِلْيَمَنِ وَمُلْكِ مُضَرَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَظُهُورِ النَّبُوَّةِ
الْحَمْدِيَّةِ فِي قُرَيْشٍ ، وَرُؤْيَا الْمَوْبَذَانِ الَّتِي أَوَّلَهَا سَطِيحُ لَمَّا بَعَثَ
إِلَيْهِ بِهَا كِنْرَى عَبْدَ الْمَسِيحِ فَأَخْبَرَهُ بِشَأْنِ النَّبُوَّةِ وَخَرَابِ مُلْكِ
فَارِسَ . وَهَذِهِ كُلُّهَا مَشْهُورَةٌ . وَكَذَلِكَ الْعَرَّافُونَ كَانَ فِي الْعَرَبِ
مِنْهُمْ كَثِيرٌ وَذَكَرُوهُمْ فِي أَشْعَارِهِمْ ، قَالَ :

قَفَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ دَاوِنِي فَإِنَّكَ إِنِ دَاوَيْتَنِي لَطَيِّبُ

وَقَالَ الْآخَرُ :

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَّافٍ نَجْدٍ إِنِ هُمَا شَفَيَانِي
فَقَالَا شَفَاكَ اللَّهُ وَاللَّهُ مَا لَنَا بِمَا تَحَمَّلْتَ مِنْكَ الضُّلُوعُ^(٢) يَدَانِ

(١) أدرجت الثوب والكتاب : طويته (قاموس) .

(٢) ما لنا قدرة على شفاك من الحب الذي تحمله ضلوعك .

وَعَرَّافُ الْيَمَامَةِ هُوَ رَبَّاحُ بْنُ عِجْلَةَ ؛ وَعَرَّافُ تَجْدِ الْأَنْبَلَقِ
الْأَسَدِيِّ .

ومن هذه المدايرِ الغيَّةُ ، ما يَصْدُرُ لِبَعْضِ النَّاسِ ، عند
مُفَارَقَةِ الْيَقَظَةِ وَالْتِبَاسِهِ بِالنَّوْمِ مِنْ الْكَلَامِ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي
يَتَشَوَّفُ إِلَيْهِ ، بما يُعْطِيهِ غَيْبُ ذَلِكَ الْأَمْرِ كما يُرِيدُ . ولا يَقَعُ
ذلك إِلَّا فِي مَبَادِيءِ النَّوْمِ عند مُفَارَقَةِ الْيَقَظَةِ وَذَهَابِ الْإِخْتِيَارِ
فِي الْكَلَامِ ؛ فَيَتَكَلَّمُ كَأَنَّهُ مُجْبُورٌ عَلَى النُّطْقِ ؛ وَغَايَتُهُ أَنْ يَسْمَعَ
وَيَفْهَمَهُ . وكذلك يَصْدُرُ عن الْمُقْتُولِينَ عند مُفَارَقَةِ رُؤُوسِهِمْ
وَأَوْسَاطِ أَسْدَانِهِمْ كَلَامٌ بِمِثْلِ ذَلِكَ . ولقد بَلَّغْنَا عن بعضِ الْجَبَابِرَةِ
الظَّالِمِينَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا مِنْ سُجُونِهِمْ أَشْخَاصاً لِيَتَعَرَّفُوا مِنْ كَلَامِهِمْ
عند الْقَتْلِ عَوَاقِبَ أُمُورِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ فَأَعْلَمُوهُمْ بِمَا يُسْتَبْشَعُ .
وَذَكَرَ مُسْلِمَةُ فِي كِتَابِ الْغَايَةِ لَهُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ ، أَنَّ آدَمِيًّا إِذَا
جُعِلَ فِي دَنْ تَمْلُوءُ بِدُهْنِ السِّمِيمِ وَمَكَثَ فِيهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يُعْتَدَى
بِالْتِّينِ وَالْجُوزِ حَتَّى يَذْهَبَ لَحْمُهُ وَلَا يَبْقَى مِنْهُ إِلَّا الْعُرُوقُ وَشُؤُنُ
رَأْسِهِ ؛ فَيَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الدُّهْنِ ؛ فَحِينَ يَجْفُ عَلَيْهِ أَلْهَوَاهُ يُجِيبُ
عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ مِنْ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ .
وهذا فِعْلٌ مِنْ مَنَاكِيرِ أَعْمَالِ السَّحَرَةِ لَكِنْ يُفْهَمُ مِنْهُ عَجَائِبُ
الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ .

ومن النَّاسِ مَنْ يُحَاوِلُ حُصُولَ هَذَا الْمَذْرُوكِ الْغَيْبِيِّ بِالرِّيَاضَةِ ؛
فِيُحَاوِلُونَ بِالْمُجَاهَدَةِ مَوْتًا صِنَاعِيًّا بِإِمَاتَةِ جَمِيعِ الْقُوَى الْبَدَنِيَّةِ ،
ثُمَّ يَحْوِرُ آثَارَهَا الَّتِي تَلَوَّنَتْ بِهَا النَّفْسُ ، ثُمَّ تَغْذِيَّتُهَا بِالذِّكْرِ لِتَرْوَدَ

قُوَّةً فِي نَفْسِهَا . وَيَحْصُلُ ذَلِكَ بِتَجَمُّعِ الْفِكْرِ وَكَثْرَةِ الْجُوعِ . وَمَنْ الْمَعْلُومِ عَلَى الْقَطْعِ أَنَّهُ إِذَا نَزَلَ الْمَوْتُ بِالْبَدَنِ ذَهَبَ الْحَسُّ وَحِجَابُهُ وَأُطْلِمَتِ النَّفْسُ عَلَى ذَاتِهَا وَعَالِمِهَا . فَيُحَاوِلُونَ ذَلِكَ بِالْاِكْتِسَابِ ، لِيَقَعَ لَهُمْ قَبْلَ الْمَوْتِ مَا يَقَعُ لَهُمْ بَعْدَهُ ، وَتَطَّلِعُ النَّفْسُ عَلَى الْمَغِيبَاتِ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الرِّيَاضَةِ السَّخَرِيَّةِ يَرْتَاضُونَ بِذَلِكَ لِيَحْصُلَ لَهُمُ الْإِطْلَاجُ عَلَى الْمَغِيبَاتِ وَالتَّصَرُّفَاتِ فِي الْعَوَالِمِ . وَأَكْثَرُ هَؤُلَاءِ فِي الْأَقَالِمِ الْمُتَحَرِّفَةِ جَنُوبًا وَشَمَالًا خُصُوصًا بِبِلَادِ الْهِنْدِ . وَيُسْتَوْنَ هُنَاكَ الْحَوِكِيَّةَ وَلَهُمْ كِتَابٌ فِي كَيْفِيَّةِ هَذِهِ الرِّيَاضَةِ كَثِيرَةٌ ، وَالْأَخْبَارُ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ غَرِيبَةٌ .

وَأَمَّا الْمُتَصَوِّفَةُ فَرِيَاضَتُهُمْ دِينِيَّةٌ وَعَرَبِيَّةٌ عَنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الْمَذْمُومَةِ ؛ وَإِنَّمَا يَقْصِدُونَ جَمْعَ الْهِمَّةِ وَالْإِقْبَالَ عَلَى اللَّهِ بِالْكُلِّيَّةِ لِيَحْصُلَ لَهُمْ أَذْوَاقُ أَهْلِ الْعِرْفَانِ وَالتَّوْحِيدِ ، وَيَزِيدُونَ فِي رِيَاضَتِهِمْ إِلَى الْجُمُوعِ وَالْجُوعِ التَّغْذِيَّةِ بِالذِّكْرِ ، فِيهَا تَتِمُّ وَجْهَتُهُمْ فِي هَذِهِ الرِّيَاضَةِ . لِأَنَّهُ إِذَا لَشَّتِ النَّفْسُ عَلَى الذِّكْرِ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الْعِرْفَانِ بِاللَّهِ ؛ وَإِذَا عُرِّيَتْ عَنِ الذِّكْرِ كَانَتْ شَيْطَانِيَّةً . وَحُصُولُ مَا يَحْصُلُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْغَيْبِ وَالتَّصَرُّفِ لِهَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفَةِ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَرَضِ . وَلَا يَكُونُ مَقْصُودًا مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا قُصِدَ ذَلِكَ كَانَتْ الْوُجْهَةُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ لِقَصْدِ التَّصَرُّفِ وَالْإِطْلَاجِ عَلَى الْغَيْبِ ، وَأَخْبِرُ بِهَا صَفْقَةً فَإِنَّهَا فِي الْحَقِيقَةِ شِرْكٌ . قَالَ بَعْضُهُمْ : « مِنْ آثَرِ الْعِرْفَانِ لِلْعِرْفَانِ فَقَدْ قَالَ بِالثَّانِي ^(١) » . فَهَمَّ

(١) أي فقد قال بأن الله له ثانٍ، أي أشرك بالله .

يَقْصِدُونَ بَوَاجِهَتِهِمُ الْمَعْبُودَ لَا لِشَيْءٍ سِوَاهُ . وَإِذَا حَاصَلَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَا يَحْصُلُ فَيَا لَعَرَضٍ وَغَيْرِ مَقْصُودٍ لَهُمْ . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَفِرُّ مِنْهُ إِذَا عَرَضَ لَهُ وَلَا يَحْفَلُ بِهِ ؛ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِذَاتِهِ لَا لِغَيْرِهِ . وَحُصُولُ ذَلِكَ لَهُمْ مَعْرُوفٌ . وَيُسَمُّونَ مَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ الْغَيْبِ وَالْحَدِيثِ عَلَى الْخَوَاطِرِ فِرَاسَةً وَكُشْفًا ، وَمَا يَقَعُ لَهُمْ مِنَ التَّصَرُّفِ كِرَامَةً ؛ وَلِبَسَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ بِنَكِيرٍ فِي حَقِّهِمْ . وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى إِنْكَارِهِ الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَايِينِيُّ وَأَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي زَيْدٍ الْمَالِكِيُّ فِي آخِرِينَ^(١) فِرَاراً مِنَ التَّبَاسِ الْمُعْجَزَةِ بِغَيْرِهَا . وَالْمَعُولُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ حُصُولُ التَّفْرِيقَةِ بِالتَّحْدِيدِ فَهُوَ كَافٍ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنَّ فِيكُمْ مُحَدِّثِينَ وَإِنَّ مِنْهُمْ عُحْرَةً » . وَقَدْ وَقَعَ لِلصَّحَابَةِ مِنْ ذَلِكَ وَقَائِعٌ مَعْرُوفَةٌ تَشْهَدُ بِذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « يَا سَارِيَّةُ الْجَبَلِ » . وَهُوَ سَارِيَّةُ بْنُ زُنَيْمٍ ، كَانَ قَائِداً عَلَى بَعْضِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ بِالْعِرَاقِ أَيَّامَ الْفُتُوحَاتِ ، وَتَوَرَّطَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَعْرَكَةٍ وَهُمْ بِالْأَنْهَازِ ، وَكَانَ يَقْرُبُهُ جَبَلٌ يَتَجَهَّزُ إِلَيْهِ ، فَرُفِعَ لِعَمَرٍ ذَلِكَ وَهُوَ يَنْخَطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ بِالْمَدِينَةِ فَنَادَاهُ : « يَا سَارِيَّةُ الْجَبَلِ » وَسَمِعَهُ سَارِيَّةُ وَهُوَ بِمَكَانِهِ ، وَرَأَى شَخْصَهُ هُنَالِكَ ؛ وَالْقِصَّةُ مَعْرُوفَةٌ . وَوَقَعَ مِثْلُهُ أَيْضاً لِأَبِي بَكْرٍ فِي وَصِيَّتِهِ عَائِشَةَ أَبْنَتَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

(١) هو استعمال غير صحيح ، إلا أن ابن خلدون استعمله في مواضع متفرقة من كتاب العبر . والأصح : وآخرون .

في شأن ما تحلها^(١) من أوسق^(٢) التمر من حديقته ، ثم نبهها على جذذه لتحوزه^(٣) عن الورثة . فقال في سياق كلامه : « وإنا هما أخوالك وأختالك » فقالت : « إنا هي أسماء فمن الأخرى ؟ » فقال : إن ذا بطن بنت^(٤) خارجة أراها جارية ، فكانت جارية . وقع في الموطأ في باب ما لا يجوز من النحل . ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء . إلا أن أهل التصوف يقولون إنه يقل في زمن النبوة إذ لا يبقى للمريد حالة يحضره النبي ، حتى إنهم يقولون إن المريد إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها . والله يرزقنا الهداية ، ويرشدنا إلى الحق .

فصل

ومن هؤلاء المريدن من المتصوفة قوم بهاليل^(٥) مفتوهون أشبه بالجانين من العقلاء ، وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين ، وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق^(٦) ، مع أنهم غير مكلفين . ويقع لهم من الأخبار

(١) كذا بالأصل ، والأصح أنحلها ، لأنها هنا بمعنى خصها . ومعنى نحلها : أعطاه .

(٢) أوسق : ج وسق ، وهو وزن ستين صاعاً أو حمل بعير .

(٣) أي لتختص به .

(٤) بطن : بمعنى استتر . ويجوز أن تكون العبارة : إن ذا بطن بنت .

(٥) بهاليل : ج . بهلول وهو السيد الجامع لكل خير ، والمعنى المشهور لكلمة بهلول هو

المعتوه .

(٦) أهل الذوق : هم الذين يتاح لهم أن يذوقوا حلاوة المعرفة الإلهية .

عن المُغَيَّبَاتِ عَجَائِبُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَمَيِّدُونَ بِشَيْءٍ فَيُطْلِقُونَ كَلَامَهُمْ فِي ذَلِكَ وَيَأْتُونَ مِنْهُ بِالْعَجَائِبِ . وَرُبَّمَا يُنْكِرُ الْفُقَهَاءُ أَنََّّهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَقَامَاتِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ سُقُوطِ التَّكْلِيفِ عَنْهُمْ ؛ وَالْوِلَايَةُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِالْعِبَادَةِ ، وَهُوَ غَلْطٌ ؛ فَإِنَّ فَضْلَ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ؛ وَلَا يَتَوَقَّفُ حُصُولُ الْوِلَايَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَلَا غَيْرِهَا . وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ ثَابِتَةً الْوُجُودِ فَاللَّهُ تَعَالَى يُخْصُّهَا بِمَا شَاءَ مِنْ مَوَاهِبِهِ . وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَمْ تَعْدَمْ نَفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ وَلَا فَسَدَتْ كَحَالِ الْمَجَانِينِ ؛ وَإِنَّمَا قُفِدَ لَهُمُ الْعَقْلُ الَّذِي يُنَاطُ بِهِ التَّكْلِيفُ ، وَهِيَ صِفَةٌ خَاصَّةٌ لِلنَّفْسِ ، وَهِيَ عُلُومٌ ضَرُورِيَّةٌ لِلْإِنْسَانِ يَشْتَدُّ بِهَا نَظَرُهُ وَيَعْرِفُ أَحْوَالَ مَعَاشِهِ وَاسْتِقَامَةَ مَنْزِلِهِ . وَكَأَنَّهُ إِذَا مَيَّزَ أَحْوَالَ مَعَاشِهِ وَاسْتِقَامَةَ مَنْزِلِهِ لَمْ يَبْقَ لَهُ عُذْرٌ فِي قَبُولِ التَّكْلِيفِ لِإِصْلَاحِ مَعَادِيهِ . وَلَيْسَ مِنْ فَقْدِ هَذِهِ الصِّفَةِ بِفَاقِدٍ لِنَفْسِهِ وَلَا ذَاهِلٍ عَنْ حَقِيقَتِهِ ؛ فَيَكُونُ مَوْجُودَ الْحَقِيقَةِ مَعْدُومَ الْعَقْلِ التَّكْلِفِيِّ الَّذِي هُوَ مَعْرِفَةُ الْمَعَاشِ ؛ وَلَا اسْتِحَالَةَ فِي ذَلِكَ ؛ وَلَا يَتَوَقَّفُ اصْطِفَاءُ اللَّهِ عِبَادَهُ لِلْمَعْرِفَةِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ التَّكْلِيفِ . وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ رُبَّمَا يَلْتَبِسُ حَالُ هَؤُلَاءِ بِالْمَجَانِينِ الَّذِينَ تَفْسُدُ نَفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ وَيَلْتَحِقُونَ بِالْبَهَائِمِ . وَلَكِنْ فِي تَمْيِيزِهِمْ عِلَامَاتٌ : مِنْهَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الْبِهَائِلَ تَجِدُ لَهُمْ وَجْهَةً مَا ، لَا يَخْلُونَ عَنْهَا أَصْلًا مِنْ ذِكْرِ وَعِبَادَةٍ ، لَكِنْ عَلَى غَيْرِ الشُّرُوطِ الشَّرْعِيَّةِ لِمَا قَلَنَاهُ مِنْ عَدَمِ التَّكْلِيفِ ؛ وَالْمَجَانِينُ لَا تَجِدُ لَهُمْ وَجْهَةً أَصْلًا . وَمِنْهَا أَنََّّهُمْ يُخْلَقُونَ عَلَى الْبَلَاءِ مِنْ أَوَّلِ نَشَأَتِهِمْ ، وَالْمَجَانِينُ يَعْرِضُ لَهُمُ الْجُنُونُ بَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ الْعُمُرِ لِعَوَارِضَ بَدَنِيَّةٍ

طَبِيعِيَّةٌ ، فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ ذَلِكَ وَفَسَدَتْ نُفُوسُهُمُ النَّاطِقَةُ ذَهَبُوا بِالْخَبِيَّةِ .
وَمِنْهَا كَثْرَةُ تَصَرُّفِهِمْ فِي النَّاسِ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّفُونَ
عَلَى إِذْنٍ يَلْدَمُ التَّكْلِيفِ فِي حَقِّهِمْ ؛ وَالْمَجَانِينَ لَا تَصَرَّفَتْ لَهُمْ .
وَهَذَا فَصْلٌ انْتَهَى بِنَا الْكَلَامُ إِلَيْهِ ؛ وَاللَّهُ الْمُرْشِدُ لِلصَّوَابِ .

فصل

وَقَدْ يَزْعَمُ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ هُنَا مَدَارِكًا^(١) لِلْغَيْبِ ، مِنْ دُونِ
غَيْبِيَّةٍ عَنِ الْحِسِّ ؛ فَهُمْ الْمُنْجِمُونَ الْقَائِلُونَ بِالدَّلَالَاتِ النُّجُومِيَّةِ
وَمُقْتَضَى أَوْضَاعِهَا فِي الْقَلْكِ ، وَأَثَارِهَا فِي الْعَنَاصِرِ ، وَمَا يَحْصُلُ مِنْ
الْامْتِزَاجِ بَيْنَ طَبَائِعِهَا بِالتَّنَاطُرِ ، وَيَتَأْدَى مِنْ ذَلِكَ الْمِزَاجِ إِلَى الْهَوَاءِ
وَهَؤُلَاءِ الْمُنْجِمُونَ لَيْسُوا مِنَ الْغَيْبِ فِي شَيْءٍ ؛ إِنَّمَا هِيَ ظُنُونٌ
حَدْسِيَّةٌ وَتَحْمِينَاتٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّأْثِيرِ النُّجُومِيَّةِ وَحَصُولِ الْمِزَاجِ مِنْهُ
لِلْهَوَاءِ مَعَ مَزِيدِ حَدْسٍ يَقِفُ بِهِ النَّازِرُ عَلَى تَفْصِيلِهِ فِي الشَّخْصِيَّاتِ
فِي الْعَالَمِ كَمَا قَالَه بَطْلِيمُوسُ . وَنَحْنُ نَبَيِّنُ بُلْطَانَ ذَلِكَ فِي مَجْلَدِهِ إِنْ
شَاءَ اللَّهُ . وَهُوَ لَوْ ثَبَتَ فَنَاقِيَتُهُ حَدْسٌ وَتَحْمِينٌ وَلَيْسَ بِمَا ذَكَرْنَاهُ فِي شَيْءٍ .
وَمِنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنَ الْعَامَّةِ اسْتَبْطَلُوا لِاسْتِخْرَاجِ الْغَيْبِ وَتَعَرَّفَ
الْكَائِنَاتِ صِنَاعَةَ سَمَوِهَا خَطُّ الرَّمْلِ يَنْسَبُ إِلَى الْمَادَّةِ الَّتِي يَضَعُونَ
فِيهَا عَمَلَهُمْ . وَبِحَصُولِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ أَنََّّهُمْ صَيَّرُوا مِنَ النُّقْطِ أَشْكَالًا
ذَاتَ أَرْبَعِ مَرَاتِبٍ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِهَا فِي الزَّوْجِيَّةِ وَالْفَرْدِيَّةِ

(١) كَذَا بِالْأَصُولِ فِي جَمِيعِ النُّسخِ وَالْأَصَحُّ أَنْ يَقَالَ : قَدْ يَطْلُبُ الْمَعْصُ أَنْ هُنَا مِنْ يَدْرِكُ
الْغَيْبِ ، فَتَسْجُمُ الْعَامَّةُ مَعَ مَا يَنْبَغُ .

وَأَسْتَوَاهَا فِيهَا ، فَكَانَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلًا : لِأَنَّهَا إِنْ كَانَتْ
 أَزْوَاجًا كُلُّهَا أَوْ أَفْرَادًا كُلُّهَا فَشَكْلَانِ ؛ وَإِنْ كَانَ الْفَرْدُ فِيهَا
 فِي مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ فَأَرْبَعَةُ أَشْكَالٍ ؛ وَإِنْ كَانَ الْفَرْدُ فِي
 مَرْتَبَتَيْنِ فَسِتَّةُ أَشْكَالٍ ؛ وَإِنْ كَانَ فِي ثَلَاثِ مَرَاتِبَ فَأَرْبَعَةُ
 أَشْكَالٍ . جَاءَتْ سِتَّةَ عَشَرَ شَكْلًا مَيِّزُوهَا كُلُّهَا بِأَسْمَائِهَا وَأَنْوَاعِهَا
 إِلَى سُعُودٍ وَنُحُوسٍ ، شَأْنُ الْكَوَاكِبِ ، وَجَعَلُوا لَهَا سِتَّةَ عَشَرَ
 يَتِيًّا طَبِيعِيَّةً يَزْعِمُهُمْ ، وَكَأَنَّهَا الْبُرُوجُ الْإِثْنَا عَشَرَ الَّتِي لِلْفَلَكَ
 وَالْأَوْتَادِ الْأَرْبَعَةُ ، وَجَعَلُوا لِكُلِّ شَكْلٍ مِنْهَا يَتِيًّا وَخُطُوطًا^(١)
 وَدَلَالَةً عَلَى صِنْفٍ مِنْ مَوْجُودَاتِ عَالَمِ الْعَنَاصِرِ يَخْتَصُّ بِهِ ،
 وَأَسْتَنْبَطُوا مِنْ ذَلِكَ فَنًّا حَازُوا بِهِ فَنَّ النِّجَامَةِ وَتَوَعَّ قَضَائِهِ . إِلَّا
 أَنَّ أَحْكَامَ النِّجَامَةِ مُسْتَنَدَةٌ إِلَى أَوْضَاعٍ طَبِيعِيَّةٍ كَازِعِمِ بَطْلِيمُوسُ ،
 وَهَذِهِ إِنَّمَا مُسْتَنَدُهَا أَوْضَاعٌ تَحْكُمِيَّةٌ وَأَهْوَاءُ إِتْفَاقِيَّةٌ ، وَلَا دَلِيلَ
 يَقُومُ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا . وَيَزْعَمُونَ أَنَّ أَصْلَ ذَلِكَ مِنَ النُّبُوتِ الْقَدِيمَةِ
 فِي الْعَالَمِ ، وَرَبَّمَا نَسَبُوهَا إِلَى دَانِيَالٍ أَوْ إِلَى إِذْرِيسَ صَلَوَاتُ اللَّهِ
 عَلَيْهِمَا ، شَأْنُ الصَّنَائِعِ كُلِّهَا . وَرُبَّمَا يَدْعُونَ مَشْرُوعِيَّتَهَا وَيَحْتَجُّونَ
 بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ ، فَمِنْ وَافَقَ خَطُّهُ
 فَذَاكَ » . وَلَيْسَ فِي الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ خَطِّ الرَّمْلِ كَمَا
 يَزْعُمُهُ بَعْضُ مَنْ لَا تَخْفِيزَ لَهُ ؛ لِأَنَّ مَعْنَى الْحَدِيثِ كَانَ نَبِيٌّ
 يَخْطُ فَيَأْتِيهِ الْوَحْيُ عِنْدَ ذَلِكَ الْخَطِّ ، وَلَا اسْتِحَالَةَ فِي أَنْ يَكُونَ
 ذَلِكَ عَادَةً لِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَمِنْ وَافَقَ خَطُّهُ ذَلِكَ النَّبِيُّ فَهُوَ ذَاكَ ،

(١) كذا في نسخة: وحظوظاً.

أي فهو صحيح من بين الخطّ بما عضده من ألوحى لذلك النبيّ
الذي كالت عادتُهُ ان يأتية ألوحى عند الخطّ . وأما إذا أخذ
ذلك من الخطّ مُجرّداً من غير مُوافقة وحي فلا . وهذا معنى
الحديث والله اعلم . فإذا أرادوا استِخراج مُغيب يزعمهم عمدوا
إلى قِرطاسٍ أو دَمَلٍ أو دَقِيقٍ فَوَضَعُوا النُّقْطَ سُطُوراً على عَدَدِ
المراتب الأذْبَعِ ، ثم كرّروا ذلك أذْبَعَ مرّاتٍ فَتَجِي سِتّة عشرَ
سطراً . ثم يَطْرَحُونَ النُّقْطَ أَزْوَاجاً وَيَضَعُونَ ما بَقِيَ من كلِّ
سَطْرٍ زَوْجاً كان أو فرداً في رَتبته على الترتيب ، فَتَجِي أربعةَ
أشكالٍ يَضَعُونَهَا في سَطْرٍ مُتتالِيَةٍ ؛ ثم يُولَدُونَ منها أربعةَ أشكالٍ
أخرى من جانبِ العَرَضِ بِاعتبارِ كلِّ رَتبةٍ وما قَبْلَهَا من
الشكلِ الَّذِي بِإِزائِهِ ؛ وما يَجْتَمِعُ مِنْهَا من زوجٍ أو فردٍ ،
فتكون ثمانيةَ أشكالٍ مَوْضُوعَةٍ في سَطْرٍ ؛ ثم يُولَدُونَ من كلِّ
شَكْلَيْنِ شَكْلاً تَحْتَهَا بِاعتبارِ ما يَجْتَمِعُ في كلِّ رَتبةٍ من مراتبِ
الشَّكْلَيْنِ أَيْضاً من زوجٍ أو فردٍ فَتَكُونُ أربعةَ أخرى تَحْتَهَا ؛
ثم يُولَدُونَ من الأربعةِ شَكْلَيْنِ كذلك تَحْتَهَا ؛ ثم من الشكْلَيْنِ
شَكْلاً كذلك تَحْتَهَا ؛ ثم من هذا الشكلِ الخَامِسَ عَشَرَ مع
الشكلِ الأوَّلِ شَكْلاً يَكُونُ آخِرَ السِّتَّةِ عَشَرَ . ثم يَحْكُمُونَ على
الخطّ كُلِّهِ بما أَفْتَضَتْهُ أَشْكَالُهُ من السُّعُودَةِ والنُّحُوسَةِ بِالذَّاتِ ،
وَالنَّظَرِ وَالْحُلُولِ وَالْإِمْتِزَاجِ وَالدَّلَالَةِ على أَصْنَافِ الْمَوْجُودَاتِ وَسَائِرِ
ذلك تَحْكُماً غريباً . وَكَثُرَتْ هذه الصَّنَاعَةُ في الْعُمَرَانِ وَوُضِعَتْ
فِيهَا التَّالِيفُ وَاشْتَهَرَ فِيهَا الْأَعْلَامُ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ ، وَهِيَ

كما رأيت تحكّم وهوى. والتّحقيقُ الَّذي يتّبني أن يكون نصبَ
فكرِكَ أنَّ الغُيوبَ لا تُدركُ بصِناعةِ البتّةِ ولا سبيلٍ إلى تعرّفها
إلاّ للخَواصِّ من البَشَرِ المُفطَورينَ على الرجوعِ عن عالمِ الحسِّ
إلى عالمِ الروحِ . ولذلك يسمّي المُنجّمونَ هذا الصِّنفَ كلّمهم
بالزُّهرَينِ نسبةً إلى ما تقتضيه دَلالةُ الزُّهرةِ بِزعمهم في أصلِ
مواليدهم على إذرالكِ الغيبِ . فالخطُّ وغيره من هذه إن كانَ
الناظرُ فيه من أهلِ هذه الخاصيّةِ وقصدَ بهذه الأُمُورِ الّتي ينظرُ
فيها من النّقطِ أو العظامِ أو غيرِها إشغالَ الحسِّ إترجِعَ النفسُ
إلى عالمِ الروحانيّاتِ لحظةً ما ، فهو من بابِ الطّرقِ بالحصى والنّظرِ
في قلوبِ الحيواناتِ والمرايا الشّفافَةِ كما ذكرناه . وإن لم يكن
كذلك ، وإنا قصدَ معرفةَ الغيبِ بهذه الصّناعةِ وأنها تُفيدةُ ذلك
فَهَذَرُ من القولِ والعملِ . واللهُ يهدي من يشاء . والعلامةُ لهذه
الفِطْرَةِ الّتي فُطرَ عليها أهلُ هذا الإذرالكِ الغيبيّ أنهم عند توجّههم
إلى تعرّفِ الكائناتِ يعتريهم خُروجٌ عن حالتهم الطّبيعيّةِ كالشّاؤبِ
والتمطّطِ ومباديء الغيبةِ عن الحسِّ ، ويختلفُ ذلك بالقوّةِ والضعفِ
على اختلافِ وجودِها فيهم . فمن لم توجّدْ له هذه العلامَةُ فليس من
إذرالكِ الغيبِ في شيءٍ وإنا هو ساعٍ في تنفيقِ^(١) كذِبِهِ .

(١) نفق البضاعة: رَوّجها.

فصل

ومنهم طوائف يضعون قوانين لا استخراج الغيب ليست من
الطور الأول الذي هو من مدارك النفس الروحانية، ولا من
القدس المبني على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس، ولا من
الظن والتخمين الذي يحاول عليه العرافون؛ وإنما هي مغالط
يحملونها كالمصائد لأهل القول المستعصمة. ولست أذكر من
ذلك إلا ما ذكره المصنفون وولع به الخواص. فن تلك القوانين
الحساب الذي يسمونه حساب النيم وهو مذكور في آخر كتاب
السياسة المنسوب لأرسطو، يعرف به الغالب من المغلوب في
التحاريين من الملوك. وهو أنه تحسب الحروف التي في أسم
أحدهما بحساب الجمل المصطلح عليه في حروف أبجد^(١) من الواحد
إلى الألف آحاداً وعشرات ومئين وألوفاً. فإذا حسبت الأسم

(١) حساب الجمل المصطلح عليه في حروف أبجد هو أن لكل حرف من الحروف المجانية
رقماً خاصاً على النحو الآتي:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠
س	ت	ث	خ	ذ	ظ	غ	ش												
٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠												

ثانياً - على طريقة المشارقة، وهي الطريقة المشهورة في مصر والعراق وسوريا وغيرها من
البلاد العربية الأخرى:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠
ش	ت	ث	خ	ذ	ظ	غ													
٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠												

ويستعمل حساب الجمل هذا المنجمون والذين يتعاطون تاريخ الأحداث التاريخية والوفيات
والولادات وما شاكل.

وَتَحْصَلَ لَكَ مِنْهُ عَدَدٌ فَاحْسُبِ اسْمَ الْآخِرِ كَذَلِكَ . ثُمَّ أَطْرَحْ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا تِسْعَةً تِسْعَةً ، وَاحْفَظْ بَقِيَّةَ هَذَا وَبَقِيَّةَ هَذَا . ثُمَّ أَنْظِرْ بَيْنَ الْعَدَدَيْنِ الْبَاقِيَيْنِ مِنْ حِسَابِ الْأَسْمَيْنِ : فَإِنْ كَانَ الْعَدَدَانِ مُتَعَلِّقَيْنِ فِي الْكَيْفِيَّةِ وَكَانَا مَعًا زَوْجَيْنِ أَوْ فَرْدَيْنِ مَعًا فَصَاحِبُ الْأَقْلَرِ مِنْهُمَا هُوَ الْغَالِبُ ؛ وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا زَوْجًا وَالْآخَرُ فَرْدًا فَصَاحِبُ الْأَكْثَرِ هُوَ الْغَالِبُ ؛ وَإِنْ كَانَ مُتَسَاوَيْنِ فِي الْكَيْفِيَّةِ وَهُمَا مَعًا زَوْجَانِ فَالْمَطْلُوبُ هُوَ الْغَالِبُ ؛ وَإِنْ كَانَ مَعًا فَرْدَيْنِ فَالطَّالِبُ هُوَ الْغَالِبُ . وَيُقَالُ هُنَاكَ بَيْتَانِ فِي هَذَا الْعَمَلِ اشْتَهَرَ بَيْنَ النَّاسِ وَهُمَا :

أَرَى الزَّوْجَ وَالْأَفْرَادَ يَسْمُو أَقْلَهُمَا

وَأَكْثَرُهَا عِنْدَ التَّخَالُفِ غَالِبٌ

وَيَغْلِبُ مَطْلُوبٌ إِذَا الزَّوْجُ يَسْتَوِي

وَعِنْدَ اسْتِوَاءِ الْفَرْدِ يَغْلِبُ طَالِبٌ

ثُمَّ وَضَعُوا الْمَعْرِفَةَ مَا بَقِيَ مِنَ الْحُرُوفِ بَعْدَ طَرَحِهَا بِتِسْعَةِ قَانُونًا مَعْرُوفًا عِنْدَهُمْ فِي طَرَحِ تِسْعَةٍ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَمَعُوا الْحُرُوفَ الدَّالَّةَ عَلَى الْوَاحِدِ فِي الْمَرَاتِبِ الْأَرْبَعِ وَهِيَ : (أ) الدَّالَّةُ عَلَى الْوَاحِدِ وَ (ي) الدَّالَّةُ عَلَى الْعَشْرِ وَهِيَ وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْعَشْرَاتِ وَ (ق) الدَّالَّةُ عَلَى الْمِائَةِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْمِائِينَ وَ (ش) الدَّالَّةُ عَلَى الْأَلْفِ لِأَنَّهَا وَاحِدٌ فِي مَرْتَبَةِ الْأَلْفِ . وَلَيْسَ بَعْدَ الْأَلْفِ عَدَدٌ يُدَلُّ عَلَيْهِ بِالْحُرُوفِ ، لِأَنَّ الشَّيْنَ هِيَ آخِرُ حُرُوفِ أَنْجَدَ . ثُمَّ رَتَّبُوا هَذِهِ الْأَحْرُفَ الْأَرْبَعَةَ عَلَى نَسَقِ الْمَرَاتِبِ فَكَانَ مِنْهَا كَلِمَةُ رُبَاعِيَّةٌ

وهي (ايقش) . ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب الثلاث وأسقطوا مرتبة الآلاف منها لأنها كانت آخر حروف أبجد ، فكان مجموع حروف الاثنين في المراتب الثلاث ثلاثة حروف : وهي (ب) الدالة على اثنين في الآحاد و (ك) الدالة على اثنين في العشرات وهي عشرون و (ر) الدالة على اثنين في المئين وهي مائتان ؛ وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي (بكر) . ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على ثلاثة فنشأت عنها كلمة (جلس) . وكذلك الى آخر حروف ابجد . وصارت تسع كلمات نهاية عدد الآحاد (وهي : ايقش ، بكر ، جلس ، دمت ، هنت ، وصخ ، زغد ، حفظ ، طضع) . مرتبة على توالي الأعداد ، ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبتها ؛ فالواحد لكلمة ايقش ؛ والاثنان لكلمة بكر ؛ والثلاثة لكلمة جلس ؛ وكذلك الى التاسعة التي هي طضع ، فتكون لها التسعة . فإذا أرادوا طرح الأسم يتسعة نظروا كل حرف منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات ؛ وأخذوا عددها مكانه ، ثم جمعوا الأعداد التي يأخذونها بدلا من حروف الاسم ، فإن كانت رائدة على التسعة أخذوا ما فضل عنها ، وإلا أخذوه كما هو ، ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه . والسر في هذا القانون بين . وذلك أن الباقي من كل عقد من عقود الأعداد يطرح تسعة إنما هو واحد ؛ فكأنه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة ؛ فصارت أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين

والعشرينَ وألْفَيْنِ والْأَلْفَيْنِ وكلُّها اثنان ؛ وكذلك الثلاثةُ والثلاثونَ
والثلاثمائةُ والثلاثةُ الآلافِ كُلُّها ثلاثةُ ثلاثةٍ . فَوُضِعَتِ الأَعْدَادُ
على التَّوَالِي دَالَّةٌ على أَعْدَادِ الْعُقُودِ لا غيرُ ؛ وَجُعِلَتِ الحُرُوفُ
الدَّالَّةُ على أَصْنَافِ الْعُقُودِ في كُلِّ كَلِمَةٍ من الآحادِ والعشراتِ
والمِئِنِ والألوفِ^(١) ، وَصَارَ عَدَدُ الكَلِمَةِ الْمَوْضُوعُ عَلَيْهَا نَائِباً عن
كُلِّ حَرْفٍ فِيهَا سِوَاهُ دَلٌّ على الآحادِ أوِ العشراتِ أوِ المِئِنِ ؛
فَيُؤْخَذُ عَدَدُ كُلِّ كَلِمَةٍ عِوَضاً عن الحُرُوفِ الَّتِي فِيهَا ؛ وَتُجْمَعُ كُلُّهَا
إلى آخِرِهَا كَمَا قُلْنَاهُ . هَذَا هُوَ الْعَمَلُ الْمُتَدَاوِلُ بَيْنَ النَّاسِ مِنْذُ الْأَمْرِ
الْقَدِيمِ . وَكَانَ بَعْضُ مَنْ لَقِينَاهُ مِنْ شُيُوخِنَا يَرَى أَنَّ الصَّحِيحَ فِيهَا
كَلِمَاتٌ أُخْرَى تَسَعَةً مَكَانَ هَذِهِ وَمُتَوَالِيَةٌ كَتَوَالِيهَا ، وَيَفْعَلُونَ
بِهَا فِي الطَّرْحِ يَتَسَعَةً مِثْلَ مَا يَفْعَلُونَهُ بِالْأُخْرَى سِوَاهُ ؛ وَهِيَ هَذِهِ :
أرب ، يسقك ، جزاط ، مدوص ؛ هف ، تحذن ، عش ، خغ ، تضظ ؛
تسعُ كَلِمَاتٍ على تواليِ العَدَدِ ، ولكلِ كَلِمَةٍ مِنْهَا عَدَدُهَا الَّذِي فِي
مَرْتَبَتِهِ ؛ فِيهَا الثَّلَاثِيُّ والرُّبَاعِيُّ والثَّنَائِيُّ . وَلَيْسَتْ جَارِيَةً على أَصْلِ
مَطَرِدٍ كَمَا تَرَاهُ . لَكِنْ كَانَ شُيُوخُنَا يَنْقُلُونَهَا عَنْ شَيْخِ الْمَغْرِبِ فِي هَذِهِ
الْمَعَارِفِ مِنَ السِّمِّيَاءِ وَأَسْرَارِ الحُرُوفِ وَالنِّجَامَةِ وَهُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ
بْنُ الْبَنَاءِ ، وَيَقُولُونَ عَنْهُ إِنَّ الْعَمَلَ بِهِذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي طَرِجِ حِسَابِ
النِّيمِ أَصَحُّ مِنَ الْعَمَلِ بِكَلِمَاتِ آيَقَش . وَاللَّهُ أَعْلَمُ كَيْفَ ذَلِكَ .

(١) علق الهوريني في طبعة بولاق على ذلك بقوله : «قوله والألوف فيه نظر لأن الحروف ليس فيها ما يزيد عن الألف كما سبق في كلامه اهـ» . وعلق الدكتور علي عبد الواحد وافي على هذا التعليق بقوله : «وقد أورد ابن خلدون كلمة الألوف بالجمع للمشكلة مع قوله الآحاد والعشرات والمِئِنِ ، وإن لم يكن في الحروف إلا ألف واحد» .

وهذه كلها مدارك للغيب غير مُستندة إلى بُرهان ولا تحقيق . والكتاب الذي وُجد فيه حساب النيم غير معزٍ إلى أرسطو عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان ؛ يشهد لك بذلك تصفُّحه إن كنت من أهل الرسوخ اهـ . ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج النيوب فيما يزعمون الزايرجة المسماة « بزايرجة العالم » المعزوة إلى أبي العباس سيدي أحمد السبتي من أعلام المتصوفة بالمغرب ، كان في آخر المائة السادسة بمرآكش ولعمد أي يعقوب المنصور من ملوك الموحدين . وهي غريبة العمل صناعة . وكثير من الخواص يولعون بإفادته الغيب منها بعملها المعروف الملقب ؛ فيحرضون بذلك على حل رمزه وكشف غامضه . وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم . وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها : إما البروج وإما العناصر أو غيرهما . وخطوط كل قسم مارة إلى المركز ويسمونها الأوتار . وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة ، فمنها برشوم^(١) الزمام التي هي أشكال الأعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب لهذا العهد ، ومنها يرشوم الغبار المتعارفة في داخل الزايرجة . وبين الدوائر أسماء العلوم ومواضع

(١) علق الهوريني على هذه الكلمة بقوله : « قوله برشوم أي موضوعة برشوم بضم الراء جمع رشم بالشين المعجمة اهـ . ومعنى رشم : كتب . والرشم الكتابة والشكل . ومعنى يرشوم الزمام : أشكال الأعداد المستعملة بالمغرب . ورشم الغبار : أشكال الأرقام الهندية المصطلح عليها في المشرق .

أَلَا كَوَانٍ . وعلى ظاهر الدوائر جَدُولٌ مُتَكَثِّرُ الْبُيُوتِ الْمُتَقَاطِعَةِ طَوْلًا وَعَرْضًا يَشْتَمِلُ عَلَى خَمْسَةِ وَخَمْسِينَ تَيْتًا فِي الْعَرْضِ ، وَمِائَةِ وَاحِدٍ وَثَلَاثِينَ فِي الطَّوْلِ ، جَوَانِبُ مِنْهُ مَعْمُورَةُ الْبُيُوتِ تَادَةً بِالْعَدَدِ وَأُخْرَى بِالْحُرُوفِ ، وَجَوَانِبُ خَالِيَةُ الْبُيُوتِ . وَلَا تُعْلَمُ نِسْبَةُ تِلْكَ الْأَعْدَادِ فِي أَوْضَاعِهَا وَلَا الْقِسْمَةُ الَّتِي عَيَّنَتْ الْبُيُوتَ الْعَايِرَةَ مِنَ الْخَالِيَةِ . وَخَافَاتُ الزَّائِرَجَةِ أَبْيَاتٌ مِنْ عُرُوضِ الطَّوِيلِ عَلَى رَوِيِّ اللَّامِ الْمُنْصُوبَةِ تَتَضَمَّنُ صُورَةَ الْعَمَلِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَطْلُوبِ مِنْ تِلْكَ الزَّائِرَجَةِ . إِلَّا أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ الْأَلْفَاظِ فِي عَدَمِ الْوَضُوحِ وَالْجَلَاءِ . وَفِي بَعْضِ جَوَانِبِ الزَّائِرَجَةِ تَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ مَنْسُوبٌ لِبَعْضِ أَكْبَرِ أَهْلِ الْخِدَانِ^(١) بِالْمَغْرِبِ ، وَهُوَ مَالِكُ ابْنِ وَهَبٍ مِنْ عُلَمَاءِ أَشْبِيلِيَّةَ كَانَ فِي الدَّوْلَةِ الْمَمْلُوكِيَّةِ وَنَصُّ الْبَيْتِ :

سُؤَالٌ عَظِيمٌ الْخَلْقِ حُزْتُ فَصْنُ إِذَنْ

غَرَانِبَ شَكِّ صَنْطُهُ الْجَدُّ مَثَلًا

وَهُوَ الْبَيْتُ الْمَتَدَاوِلُ عِنْدَهُمْ فِي الْعَمَلِ لاسْتِخْرَاجِ الْجَوَابِ مِنَ السُّؤَالِ فِي هَذِهِ الزَّائِرَجَةِ وَغَيْرِهَا . فَإِذَا أَرَادُوا اسْتِخْرَاجَ الْجَوَابِ عَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ مِنَ الْمَسَائِلِ كَتَبُوا ذَلِكَ السُّؤَالَ وَقَطَعُوهُ حُرُوفًا ، ثُمَّ أَخَذُوا الطَّالِيعَ لِذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْ بُرُوجِ الْفَلَكَ وَدَرَجَاتِهَا ، وَاعْتَمَدُوا إِلَى الزَّائِرَجَةِ ثُمَّ إِلَى الْوَتَرِ الْمَكْتَتَفِ فِيهَا بِالْبُرْجِ الطَّالِيعِ مِنْ أَوَّلِهِ مَاذَا إِلَى الْمَرْكَزِ ، ثُمَّ إِلَى مُحِيطِ الدَّائِرَةِ قُبَالَةَ الطَّالِيعِ .

(١) بمعنى : أَنَّهُ مِنْ كِبَارِ الْمُحَدِّثِينَ وَالْمُخْبِرِينَ عَمَّا يَجْبِثُهُ الْغَيْبُ مِنْ أَحْدَاثِ الدَّهْرِ وَشُؤُونِ

الْمُسْتَقْبَلِ .

فَيَأْخُذُونَ جَمِيعَ الْحُرُوفِ الْمَكْتُوبَةِ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ ،
وَالْأَعْدَادِ الْمَرْسُومَةِ بَيْنَهُمَا ، وَيُصَيِّرُونَهَا حُرُوفًا بِحَسَابِ الْجُمْلَةِ .
وَقَدْ يَنْقُلُونَ أَحَادَهَا إِلَى الْعَشَرَاتِ وَعَشْرَاتِهَا إِلَى الْمِائِينَ وَبِالْعَكْسِ
فِيهَا كَمَا يَقْتَضِيهِ قَانُونُ الْعَمَلِ عِنْدَهُمْ . وَيَضَعُونَهَا مَعَ حُرُوفِ
السُّؤَالِ وَيُضِيفُونَ إِلَى ذَلِكَ جَمِيعَ مَا عَلَى الْوَتَرِ الْمَكْتُوفِ بِالْبُرْجِ
الثَّالِثِ مِنَ الطَّالِيعِ مِنَ الْحُرُوفِ وَالْأَعْدَادِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى الْمَرْكَزِ
فَقَطْ لَا يَتَجَاوِزُونَهُ إِلَى الْحَيْطِ . وَيَفْعَلُونَ بِالْأَعْدَادِ مَا فَعَلُوهُ بِالْأَوَّلِ
وَيُضِيفُونَهَا إِلَى الْحُرُوفِ الْأُخْرَى ، ثُمَّ يُقَطِّعُونَ حُرُوفَ الْبَيْتِ
الَّذِي هُوَ أَصْلُ الْعَمَلِ وَقَانُونُهُ عِنْدَهُمْ ، وَهُوَ بَيْتُ مَالِكِ بْنِ وَهَبٍ
الْمُتَقَدِّمِ ، وَيَضَعُونَهَا نَاحِيَةً ؛ ثُمَّ يَضْرِبُونَ عِدَّةَ دَرَجِ الطَّالِيعِ فِي
أَسْرِ الْبُرْجِ . وَأَسْهُ عِنْدَهُمْ هُوَ بُعْدُ الْبُرْجِ عَنْ آخِرِ الْمَرَاتِبِ
عَكْسًا مَا عَلَيْهِ الْأَسُّ عِنْدَ أَهْلِ صِنَاعَةِ الْحِسَابِ ؛ فَإِنَّهُ عِنْدَهُمْ
الْبُعْدُ عَنْ أَوَّلِ الْمَرَاتِبِ . ثُمَّ يَضْرِبُونَهُ فِي عِدَدٍ آخَرَ يُسَمُّونَهُ
الْأَسُّ الْأَكْبَرَ وَالِدَوْرَ الْأَصْلِيَّ . وَيُدْخِلُونَ بِمَا تَجَمَّعَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ
فِي بُيُوتِ الْجَدُولِ عَلَى قَوَانِينٍ مَعْرُوفَةٍ وَأَعْمَالٍ مَذْكُورَةٍ وَأَذْوَارٍ
مَعْدُودَةٍ . وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْهَا حُرُوفًا وَيُسْقِطُونَ أُخْرَى . وَيُقَابِلُونَ
بِمَا مَعَهُمْ فِي حُرُوفِ الْبَيْتِ وَيَنْقُلُونَ مِنْهُ مَا يَنْقُلُونَ إِلَى حُرُوفِ
السُّؤَالِ ، وَمَا مَعَهَا ؛ ثُمَّ يَطْرَحُونَ تِلْكَ الْحُرُوفَ بِأَعْدَادِ مَعْلُومَةٍ
يُسَمُّونَهَا الْأَذْوَارَ ؛ وَيُخْرِجُونَ فِي كُلِّ دَوْرٍ الْحَرْفَ الَّذِي يَنْتَهِي
عِنْدَهُ الدَّوْرُ ، يُعَاوِدُونَ ذَلِكَ بِعَدَدِ الْأَذْوَارِ الْمُعَيَّنَةِ عِنْدَهُمْ لَذَلِكَ ؛
فَيَخْرِجُ آخِرُهَا حُرُوفٌ مُتَقَطَّعَةٌ وَتُؤَلَّفُ عَلَى التَّوَالِي فَتَصِيرُ كَلِمَاتٍ

منظومة في تَيْتٍ وإِحِدٍ على وَرَنِ أَلْبَيْتِ الذي يُقَابِلُ به الْعَمَلُ
وَرَوِيُهُ وهو تَيْتُ مالِكِ بْنِ وَهَيْبِ الْمُتَقَدِّمِ حَسْبَمَا نَذَكُرُ ذلك كله
في فَصْلِ الْعُلُومِ عِنْدَ كَيْفِيَّةِ الْعَمَلِ بِهذه الزايرِجَةِ .

وقد رأينا كثيراً من الخواصِّ يَتَهافتونَ على اُستِخْراجِ الغَيْبِ
منها ببتلك الأعمالِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّ ما وَقَعَ من مُطابَقَةِ الجوابِ
للسؤالِ في توافُقِ الخطابِ دَلِيلٌ على مطابقةِ الواقعِ . وليس ذلك
بصحيحٍ ؛ لأنَّهُ قد مرَّ لك أَنَّ الغَيْبَ لا يُذَكَّرُ بِأمرٍ صناعيٍّ
الْبَيْتَةِ ؛ وإِنَّا الْمُطابَقَةُ الَّتِي فيها بينَ الجوابِ والسؤالِ من حيثِ
الْأَفْهَامُ والتَّوافُقُ في الخطابِ حتى يَكُونَ الجوابُ مُسْتَقِيمًا أو مُوَافِقًا
للسؤالِ . ووقوعُ ذلك بهذه الصِّنَاعَةِ في تَكْسِيرِ الحُرُوفِ الْمُجْتَمِعَةِ
من السؤالِ والأوتارِ . والدُّخُولُ في الجَدُولِ بِالْأَعْدَادِ الْمُجْتَمِعَةِ من
ضَرْبِ الْأَعْدَادِ الْمُفْرُوضَةِ وَاسْتِخْراجِ الحُرُوفِ من الجدولِ بذلك
وَطَرَحِ أُخْرَى وَمُعَاوَدَةِ ذلك في الْأَذْوَارِ الْمَعْدُودَةِ ، وَمُقَابَلَةِ ذلك
كَلِمَةً بِحُرُوفِ الْبَيْتِ على التَّوَالِي ، غيرُ مُسْتَكْرٍ . وقد يَمَعُ الْإِطْلَاعُ
من بعضِ الْأَذْكَاءِ على تَنَاسُبِ بين هذه الْأَشْيَاءِ فَيَقَعُ لَهُ مَعْرِفَةُ
الْمَجْهُولِ . فَالتَّنَاسُبُ بين الْأَشْيَاءِ هو سَبَبُ الْحُصُولِ على الْمَجْهُولِ
من الْمَعْلُومِ الْحَاصِلِ لِلنَّفْسِ ، وَطَرِيقُ الْحُصُولِ ، ولا سِيَّما من أَهْلِ
الرِّيَاضَةِ ، فَإِنَّهَا تُفِيدُ الْعَقْلَ قُوَّةً على الْقِيَاسِ وَزِيَادَةً في الْفِكْرِ .
وَقَدْ مرَّ تَعْلِيلُ ذلك غيرَ مَرَّةٍ .

ومن أَجْلِ هذا الْمَعْنَى يَنْسَبُونَ هذه الزايرِجَةَ في الْغَالِبِ لِأَهْلِ
الرِّيَاضَةِ ؛ فَهِيَ مَنْسُوبَةٌ لِلْسَّبْتِيِّ . ولقد وَقَفْتُ على أُخْرَى مَنْسُوبَةٍ

لِسَهْلٍ بَنِ عَبْدِ اللَّهِ . وَلَعَمْرِي إِنَّهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ وَالْمَعَانَةِ^(١) الْعَجِيبَةِ ، وَالْجَوَابُ الَّذِي يُخْرَجُ مِنْهَا فَالْسِرُّ فِي خُرُوجِهِ مَنْظُومًا يَظْهَرُ لِي إِنَّمَا هُوَ الْمُقَابَلَةُ بِحُرُوفِ ذَلِكَ الْبَيْتِ . وَلِهَذَا يَكُونُ النَّظْمُ عَلَى وَزْنِهِ وَرَوِيهِ . وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَا وَجَدْنَا أَعْمَالًا أُخْرَى لَهُمْ فِي مِثْلِ ذَلِكَ أَسْقَطُوا فِيهَا الْمُقَابَلَةَ بِالْبَيْتِ فَلَمْ يُخْرَجِ الْجَوَابُ مَنْظُومًا كَمَا تَرَاهُ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ . وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ تَضَيُّقُ مَدَارِكُهُمْ عَنِ التَّصَدِيقِ بِهَذَا الْعَمَلِ وَتُفَوِّذِهِ إِلَى الْمَطْلُوبِ ، فَيُنْكِرُ صِحَّتَهَا وَيَجْسَبُ أَنَّهَا مِنَ التَّخَيُّلاتِ وَالْإِلَهَامَاتِ ، وَأَنَّ صَاحِبَ الْعَمَلِ بِهَا يُثَبِّتُ حُرُوفَ الْبَيْتِ الَّذِي يَنْظُمُهُ كَمَا يَرِيدُ بَيْنَ أَثْنَاءِ حُرُوفِ السُّؤَالِ وَالْأَوْتَارِ ، وَيَفْعَلُ تِلْكَ الصِّنَاعَاتِ عَلَى غَيْرِ نِسْبَةٍ وَلَا قَانُونٍ ، ثُمَّ يَجِيءُ بِالْبَيْتِ وَيُؤَيِّمُهُ أَنَّ الْعَمَلَ جَاءَ عَلَى طَرِيقَةٍ مُنْضَبِطَةٍ . وَهَذَا الْحِسَابُ تَوَهُمٌ فَايَسِدُ حَمْلَ عَلَيْهِ الْقُصُورُ مِنْ فَهْمِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ الَّتَوُجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ ، وَالتَّفَاوُتِ بَيْنَ الْمُدَارِكِ وَالْمَقُولِ . وَلَكِنْ مِنْ شَأْنِ كُلِّ مُدْرِكٍ إِنْكَارَ مَا لَيْسَ فِي طَوْقِهِ إِذْرَاكُهُ . وَيَكْفِينَا فِي رَدِّ ذَلِكَ مُشَاهَدَةُ الْعَمَلِ بِهَذِهِ الصِّنَاعَةِ وَالْحَدْسُ الْقَطْعِيُّ ؛ فَإِنَّهَا جَاءَتْ بِعَمَلٍ مُطَرِّدٍ وَقَانُونٍ صَحِيحٍ لَا مِرْيَةَ فِيهِ عِنْدَ مَنْ يُبَاشِرُ ذَلِكَ يَمُنُّ لَهُ ذِكَاةٌ وَحَدْسٌ . وَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُعَايَاةِ فِي الْعَدَدِ الَّذِي هُوَ أَوْضَحُ الْوَاضِحَاتِ يَعْسرُ عَلَى الْفَهْمِ إِذْرَاكُهُ لِبُعْدِ النِّسْبَةِ فِيهِ وَخَفَائِهَا ، فَمَا ظَنُّكَ بِمِثْلِ هَذَا

(١) كذا في جميع النسخ . ولعلها محرفة عن «المعاينة» وهو الإتيان بكلام لا يهتدي لخله . هكذا يقتضي سياق الكلام .

خفاء النسبة فيه وغرايتها . فلندكر مسئلة من المعاينة يتضح لك بها شيء مما ذكرنا . مثاله : لو قيل لك خذ عدداً من الدراهم . وأجعل بإزاء كل درهم ثلاثة من الفلوس ؛ ثم اجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائراً ؛ ثم اشتر بالدراهم كلها طيوراً . يسفر ذلك الطائر ؛ فكم الطيور المشتراة بالدراهم والفلوس ؟ فجوابه أن تقول هي تسعة . لأنك تعلم أن فلوس الدراهم أربعة وعشرون ؛ وأن الثلاثة ثمنها . وأن عدة اثنان الواحد ثمانية ، فإذا جمعت الثمن من الدراهم إلى الثمن الآخر فكان كله ثمن طائر فهي ثمانية طيور عدة اثنان الواحد ، وتريد على الثانية طائراً آخر وهو المشتري بالفلوس المأخوذة أولاً ، وعلى يسره اشتريت بالدراهم ؛ فتكون تسعة . فأنت ترى كيف خرج لك الجواب المضمر بسر التناسب الذي بين أعداد المسئلة . وألوههم أول ما يلقي إليك هذه وأمثالها إنما يجعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته . وظهر أن التناسب بين الأمور هو الذي يخرج مجهولها من معلومها . وهذا إنما هو في الواقع الحاصلة في الوجود أو العلم . وأما الكائنات المستقبلة إذا لم تعلم أسباب وقوعها ولا يثبت لها خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته . وإذا تبين لك ذلك فالأعمال الواقعة في الزايرة كلها إنما هي في استخراج الجواب من ألفاظ السؤال ؛ لأنها كما رأيت استباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر . وسر ذلك إنما هو من تناسب يتيها يطالع عليه بعض

دُونَ بَعْضٍ . فَنَ عَرَفَ ذَلِكَ التَّنَاسُبَ تَيَسَّرَ عَلَيْهِ أُسْتِخْرَاجُ ذَلِكَ
 الْجَوَابِ بِتِلْكَ الْقَوَانِينِ . وَالْجَوَابُ يَدُلُّ فِي مَقَامٍ آخَرَ مِنْ حَيْثُ
 مَوْضُوعُ الْفَافِظِ وَتَرَاكِيْبِهِ عَلَى وَقُوعِ أَحَدِ طَرَفِي السُّؤَالِ مِنْ
 نَفْيٍ أَوْ إِثْبَاتٍ . وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ ؛ بَلْ إِنَّمَا يَرْجِعُ
 لِمُطَابَقَةِ الْكَلَامِ لِمَا فِي الْخَارِجِ . وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ ذَلِكَ مِنْ
 هَذِهِ الْأَعْمَالِ بَلِ الْبَشَرُ مُحْجُوبُونَ عَنْهُ ؛ وَقَدْ أُسْتَأْثَرَهُ اللَّهُ بِعِلْمِهِ ؛
 ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

البَابُ الثَّانِي

في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك
من الاحوال وفيه فصول وتمهيدات

الفصل الأول

في ان احيال البهو والنضر طبيعية

إِعْلَمَنَّ أَنَّ اخْتِلَافَ الْأَجْيَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ إِنَّمَا هُوَ بِاخْتِلَافِ نَحْلَتِهِمْ
مِنَ الْمَعَاشِ ؛ فَإِنَّ أَجْتِمَاعَهُمْ إِنَّمَا هُوَ لِلتَّعَاوُنِ عَلَى تَحْصِيلِهِ وَالْإِنْتِدَاءِ
بِمَا هُوَ ضَرُورِيٌّ مِنْهُ وَبَسِيطٌ قَبْلَ الْحَاجِيِّ وَالْكَمَالِيِّ . فَهُمْ مِنْ
يَسْتَعْمِلُ الْفَلَحَ مِنَ الْغِرَاسَةِ وَالزَّرَاعَةِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَحِلُ الْقِيَامَ عَلَى
الْحَيَوَانِ مِنَ الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَالْمَعَزِ وَالنَّحْلِ وَالِدَوْدِ لِنَتَاجِهَا وَاسْتِخْرَاجِ
فَضْلَاتِهَا . وَهَؤُلَاءِ الْقَائِمُونَ عَلَى الْفَلَحِ وَالْحَيَوَانِ تَدْعُوهُمْ الضَّرُورَةُ ،
وَلَا بَدَّ ، إِلَى الْبَذْوِ لِأَنَّهُ مُتَّسِعٌ لَمَّا لَا يَتَّسِعُ لَهُ الْحَوَاضِرُ مِنَ الْمَزَارِعِ
وَالْقُدُنِ وَالْمَسَارِحِ لِلْحَيَوَانِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . فَكَانَ اخْتِصَاصُ هَؤُلَاءِ
بِالْبَذْوِ أَمْرًا ضَرُورِيًّا لَهُمْ ؛ وَكَانَ حِينَئِذٍ أَجْتِمَاعُهُمْ وَتَعَاوُنُهُمْ فِي
حَاجَاتِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ وَغُرَائِهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْكَيْفِ وَالذَّفَاعَةِ إِنَّمَا هُوَ

بالمقدار الذي يَحْفَظُ الْحَيَاةَ ، وَيُحْصِلُ بُلْغَةَ الْعَيْشِ مِنْ غَيْرِ مَزِيدٍ عَلَيْهِ
لِلْعَجْزِ عَمَّا وَرَاءَ ذَلِكَ .

ثم إذا اتَّسَعَتْ أحوالُ هؤلاء الْمُتَحِيلِينَ لِلْمَعَاشِ وَحَصَلَ لَهُمْ مَا
فَوْقَ الْحَاجَةِ مِنَ الْغِنَى وَالرَّفَةِ ، دَعَاهُمْ ذَلِكَ إِلَى السَّكُونِ وَالِدَّعَةِ ،
وَتَعَاوَنُوا فِي الزَّائِدِ عَلَى الضَّرُورَةِ ، وَاسْتَكْتَرَوْا مِنَ الْأَقْوَاتِ
وَالْمَلَائِسِ ، وَالتَّائِقِ فِيهَا وَتَوْسِعَةِ الْبُيُوتِ وَاخْتِطَاطِ الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ
لِلتَّحَضُّرِ . ثم تَرِيدُ أحوالُ الرَّفَةِ وَالِدَّعَةِ فَتَجِيءُ عَوَائِدُ التَّرَفِ الْبَالِغَةِ
مَبَالِغَهَا فِي التَّائِقِ فِي عِلَاجِ الْقَوْتِ وَاسْتِجَادَةِ الْمَطَايِخِ وَالْإِنْتِقَاءِ
الْمَلَائِسِ الْفَائِخَةِ فِي أَنْوَاعِهَا مِنَ الْحَرِيرِ وَالْدِيْبَاجِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ،
وَمُعَالَاةِ الْبُيُوتِ وَالصُّرُوحِ وَإِحْكَامِ وَضْعِهَا فِي تَنْجِيدِهَا^(١) ، وَالْإِنْتِهَاءِ
فِي الصَّنَائِعِ فِي الْخُرُوجِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ إِلَى غَايَتِهَا ، فَيَتَّخِذُونَ
الْقُصُورَ وَالْمَنَازِلَ ، وَيُجْرُونَ فِيهَا الْمِيَاهَ وَيُعَالُونَ فِي صَرْحِهَا ، وَيُبَالِغُونَ
فِي تَنْجِيدِهَا ، وَيَخْتَلِقُونَ فِي اسْتِجَادَةِ مَا يَتَّخِذُونَهُ لِمَعَايِشِهِمْ مِنْ مَلْبُوسٍ
أَوْ فِرَاشٍ أَوْ آيَةٍ أَوْ مَاعُونٍ . وهؤلاءُ هُمُ الْحَضَرُ ، وَمَعْنَاهُ
الْحَاضِرُونَ ، أَهْلُ الْأَمْصَارِ وَالْبُلْدَانِ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَتَّحِيلُ فِي
مَعَاشِهِ الصَّنَائِعَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّحِيلُ التِّجَارَةَ . وَتَكُونُ مَكَايِسُهُمْ أَثْمَى
وَأَزْفَةً مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ ؛ لِأَنَّ أحوالَهُمْ زَائِدَةٌ عَلَى الضَّرُورِيِّ وَمَعَاشُهُمْ
عَلَى نِسْبَةِ وَجْدِهِمْ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَجْيَالَ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ طَبِيعِيَّةٌ لَا
بُدَّ مِنْهَا كَمَا قُلْنَا .

(١) بمعنى التزئين .

الفصل الثاني

في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي

قد قدّمنا في الفصل قبله أن أهل البدو هم المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام ، وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملايس والمساكن وسائر الأحوال والموائد ومقتصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كالي يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة ، إنما هو قصد الإستغلال والكن لا ما وراءه ؛ وقد يأوون إلى الغيران والكهوف . وأما أقوائهم فيتناولون بها يسيراً بعلاج أو يغير علاج ألبتة إلا ما مسته النار . فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أولى من الظن ؛ وهؤلاء سكان المدر والثرى والجبال ، وهم عامة البربر والأعاجم . ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لازتياد المسارح والمياه لحيواناتهم ؛ فالتقلب في الأرض أصلح بهم ؛ ويسمون شايئة ومعناه القاثون على الشاء والبقر ؛ ولا يُبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة ؛ وهؤلاء مثل البربر والترك وإخوانهم من التركمان والصقالبة ؛ وأما من كان معاشهم في الأبل فهم أكثر ظناً وأبعد في القفر بجالا ؛ لأن مسارح الثول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الأبل في قوام حياتها عن

مراعي الشجر بالقتل وورود مياهه الملهة^(١) والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فراراً من أذى البرد إلى دفء هوائه وطلباً لما يخفض النتاج في رماله؛ إذ الإبل أصعب الحيوان فصلاً ومخاضاً وأحوجها في ذلك إلى الدفء؛ فأضطروا إلى إبعاد النجعة . وربما ذابتهم الحامية عن الثول أيضاً، فأوغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم؛ فكانوا لذلك أشد الناس توحشاً، وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمقتدر من الحيوان العجم؛ وهؤلاء هم العرب، وفي معناهم ظعون البرز ورناتة المغرب والأكراد والترك بالشرق . إلا أن العرب أبعد نجمة وأشد بدواة لأنهم مختصون بالقيام على الإبل فقط؛ وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها . فقد تبين لك أن جيل العرب طبعي لا بد منه في العمران . والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث

في أن البدو أقدم من الحضرة وسابق عليه وإن البادية أصل العمارة

والأصناف مدد لها

قد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عما فوقه، وأن الحضرة المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعواييدهم . ولا شك أن الضروري أقدم من الحاجي.

(١) يقال أملح الماء: صار «ملحاً» بعد أن كان عذبةً. (قاموس).

وَالْكَمَالِيَّ وَسَابِقُ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ الصَّرُورِيَّ أَصْلُ وَالْكَمَالِيَّ فَرَعٌ نَاشِي عَنْهُ . فَالْبَدْوُ أَصْلُ لِلْمُدُنِ وَالْحَضَرِ وَسَابِقُ عَلَيْهَا لِأَنَّ أَوَّلَ مَطَالِبِ الْإِنْسَانِ الصَّرُورِيَّ ، وَلَا يَنْتَهِي إِلَى الْكَمَالِ وَالتَّرَفِ إِلَّا إِذَا كَانَ الصَّرُورِيُّ حَاصِلًا . فَخُشُونَةُ الْبِدَاوَةِ قَبْلَ رِقَةِ الْحَضَارَةِ . وَلِهَذَا تَجِدُ التَّمَدُّنَ غَايَةً لِلْبَدَوِيِّ يُجْرِي إِلَيْهَا ، وَيَنْتَهِي بِسَعْيِهِ إِلَى مُقْتَرَحِهِ مِنْهَا . وَمَتَى حَصَلَ عَلَى الرِّيشِ الَّذِي يَحْصُلُ لَهُ بِهِ أَحْوَالُ التَّرَفِ وَعَوَائِدُهُ عَاجَ إِلَى الدَّعَةِ ، وَأَمَكْنَ نَفْسَهُ إِلَى قِيَادِ الْمَدِينَةِ . وَهَكَذَا شَأْنُ الْقَبَائِلِ الْمُتَبَدِّيَةِ كُلِّهِمْ . وَالْحَضَرِيُّ لَا يَتَشَوَّفُ إِلَى أَحْوَالِ الْبَادِيَّةِ إِلَّا لِضَرُورَةٍ تَدْعُوهُ إِلَيْهَا أَوْ لِتَقْصِيرٍ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ مَدِينَتِهِ .

وَمَا يَشْهَدُ لَنَا أَنَّ الْبَدَوَ أَصْلُ لِلْحَضَرِ وَمُقَدِّمٌ عَلَيْهِ ، أَنَّا إِذَا فَتَشْنَا أَهْلَ مِصْرَ مِنَ الْأَمْصَارِ وَجَدْنَا أَوَّلِيَّةَ أَكْثَرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ الَّذِينَ بِنَاحِيَةِ ذَلِكَ الْبُحْرِ وَفِي قُرَاهِ ، وَأَنَّهُمْ أَلْسَرُوا فَسَكَنُوا الْبُحْرَ وَعَدَلُوا إِلَى الدَّعَةِ وَالتَّرَفِ الَّذِي فِي الْحَضَرِ . وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَحْوَالَ الْحَضَارَةِ نَاشِئَةٌ عَنْ أَحْوَالِ الْبِدَاوَةِ وَأَنَّهَا أَصْلُ لَهَا ، فَتَقَهَّمُ . ثُمَّ إِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْبَدَوِ وَالْحَضَرِ مُتَفَاوِتُ الْأَحْوَالِ مِنْ جِلْسِهِ : قُرْبُ حَيٍّ أَعْظَمُ مِنْ حَيٍّ ؛ وَقَبِيلَةٌ أَعْظَمُ مِنْ قَبِيلَةٍ ؛ وَمِصْرٌ أَوْسَعُ مِنْ مِصْرٍ ؛ وَمَدِينَةٌ أَكْثَرُ عُمرَانًا مِنْ مَدِينَةٍ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ وُجُودَ الْبَدَوِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى وُجُودِ الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ وَأَصْلُ لَهَا ؛ بِمَا أَنَّ وُجُودَ الْمُدُنِ وَالْأَمْصَارِ مِنْ عَوَائِدِ التَّرَفِ وَالدَّعَةِ الَّتِي هِيَ مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ عَوَائِدِ الصَّرُورَةِ الْمَعَايِشِيَّةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الفصل الرابع

في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة

وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ؛ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . ويقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين تبعاً عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه ؛ فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته تبعاً عن الشر وصعب عليه طريقه ؛ وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضاً عوائده . وأهل الحضرة لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها ، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر ، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك . حتى لقد ذهبت عنهم مزايا الجسمانية في أحوالهم ، فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبارائهم وأهل محارمهم ، لا يصدّهم عنه وازع الجسمانية ، لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً . وأهل البدو وإن كانوا مثيلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات

ودواعيها . فَعَوَائِدُهُمْ فِي مَعَامَلَاتِهِمْ عَلَى نَفْسِهَا وَمَا يَخْصُلُ فِيهِمْ
 مِنْ مَذَاهِبِ السُّوءِ وَمَذْمُومَاتِ الْخُلُقِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ
 أَقَلُّ بِكَثِيرٍ . فَهْمُ أَقْرَبُ إِلَى الْفِطْرَةِ الْأُولَى وَأَبْعَدُ عَمَّا يَنْطَبِعُ
 فِي النَّفْسِ مِنْ سُوءِ الْمَلَكَاتِ بِكَثْرَةِ الْعَوَائِدِ الْمَذْمُومَةِ وَقَبْحِهَا ؛
 فَيَسْهُلُ عِلَاجُهُمْ عَنْ عِلَاجِ الْحَضَرِ ، وَهُوَ ظَاهِرٌ . وَقَدْ يَتَوَضَّحُ
 فِيهَا بَعْدُ أَنَّ الْحَضَارَةَ هِيَ نِهَايَةُ الْعُمَرَانِ وَخُرُوجُهُ إِلَى الْقِسَادِ ،
 وَنِهَايَةُ الشَّرِّ وَالْبُعْدُ عَنِ الْخَيْرِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ الْبَدْوِ أَقْرَبُ
 إِلَى الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ . وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ .

وَلَا يُعْتَرَضُ عَلَى ذَلِكَ بِمَا وَرَدَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ
 قَوْلِ الْحَجَّاجِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَكْوَعِ وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى سُكْنَى
 الْبَادِيَةِ ، فَقَالَ لَهُ : « ارْتَدَدْتَ عَلَى عَقَبَيْكَ ؟ تَعَرَّبْتَ ؟ » فَقَالَ :
 « لَا ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَذِنَ لِي فِي الْبَدْوِ » . فَأَعْلَمَ أَنَّ
 الْهَجْرَةَ أَفْتَرَضَتْ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ لِيَكُونُوا مَعَ
 النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ حَلَّ مِنَ الْمَوَاطِنِ يَنْصُرُونَهُ وَيُظَاهِرُونَهُ عَلَى
 أَمْرِهِ وَيُخْرِسُونَهُ ، وَلَمْ تَكُنْ وَاجِبَةً عَلَى الْأَعْرَابِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ ؛
 لِأَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ يَمْسُهُمْ مِنْ عَصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمُظَاهَرَةِ
 وَالْحِرَاسَةِ مَا لَا يَمَسُّ غَيْرَهُمْ مِنَ الْبَادِيَةِ الْأَعْرَابِ . وَقَدْ كَانَ
 الْمُهَاجِرُونَ يَسْتَعِيدُونَ بِاللَّهِ مِنَ التَّعَرُّبِ وَهُوَ سُكْنَى الْبَادِيَةِ حَيْثُ
 لَا تَجِبُ الْهَجْرَةُ . وَقَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عِنْدَ
 مَرَضِهِ بِمَكَّةَ : « اللَّهُمَّ أَمْضِ لِأَصْحَابِي هُجْرَتَهُمْ وَلَا تَرُدَّهُمْ عَلَى
 أَعْقَابِهِمْ » ؛ وَمَعْنَاهُ أَنَّ يُؤَفِّقَهُمْ لِلْمَلَاذِمَةِ الْمَدِينَةِ وَعَدَمِ التَّحَوُّلِ

عنها ، فلا يَزِجِعُوا عَنْ هُجْرَتِهِمُ الَّتِي ابْتَدَأُوا بِهَا ، وهو من باب
الرُّجُوعِ عَلَى الْعَقَبِ فِي السَّعْيِ إِلَى وَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ . وقيل إنَّ
ذلك كَانَ خَاصًّا بِمَا قَبْلَ الْفَتْحِ حينَ كَانَتِ الْحَاجَةُ دَاعِيَةً إِلَى
الْهَجْرَةِ لِغَلَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَمَّا بَعْدَ الْفَتْحِ وَحينَ كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ
وَأَعْتَزُّوا وَتَكَمَّلَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ بِالْعِصْمَةِ مِنَ النَّاسِ فَإِنَّ الْهَجْرَةَ سَاقِطَةٌ
حِينَئِذٍ ، لِقَوْلِهِ ﷺ لَا هُجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ . وقيل سَقَطَ إِنْشَاؤها
عَمَّنْ يُسَلِّمُ بَعْدَ الْفَتْحِ . وقيل سَقَطَ وَجُوبُهَا عَمَّنْ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ
قَبْلَ الْفَتْحِ . وَالْكَفْلُ يُجْمَعُونَ عَلَى أَنَّهَا بَعْدَ الْوَفَاةِ سَاقِطَةٌ لِأَنَّ
الصَّحَابَةَ أَفْتَرَقُوا مِنْ يَوْمِئِذٍ فِي الْأَفَاقِ وَانْتَشَرُوا وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا
فَضْلُ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ هُجْرَةٌ . فَقَوْلُ الْحَجَّاجِ لِسَلَمَةَ حينَ
سَكَنَ الْبَادِيَةَ ارْتَدَدَتْ عَلَى عَقَبَيْكَ ؟ تَعَرَّبَتْ ؟ نَعَى عَلَيْهِ فِي تَرْكِ
السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ بِالْإِشَارَةِ إِلَى الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ الَّذِي قَدَّمَاهُ ، وَهُوَ
قَوْلُهُ : « وَلَا تَرُدُّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ » . وقوله تَعَرَّبَتْ إِشَارَةٌ إِلَى
أَنَّهُ صَارَ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَا يُهَاجِرُونَ . وَأَجَابَ سَلَمَةُ بِإِنْكَارِ
مَا أَلْزَمَهُ مِنَ الْأَمْرَيْنِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَذِنَ لَهُ فِي الْبَدْوِ . وَيَكُونُ
ذلكَ خَاصًّا بِهِ كَشَهَادَةِ خُزَيْمَةَ^(١) وَعَنَاقِ أَبِي بُرْدَةَ^(٢) . وَيَكُونُ
الْحَجَّاجُ إِذَا نَعَى عَلَيْهِ تَرْكُ السُّكْنَى بِالْمَدِينَةِ فَقَطْ ، لَعَلَّهُ يَسْقُوطُ
الْهَجْرَةُ بَعْدَ الْوَفَاةِ ، وَأَجَابَهُ سَلَمَةُ بِأَنَّهُ اغْتِنَامُهُ لِإِذْنِ النَّبِيِّ

(١) هو خزيمة بن ثابت الأنصاري ، صحابي ؛ وقد جعل الرسول ﷺ شهادته بشهادة

رجلين .

(٢) العناق : الأنثى من ولد المعز قبل استكمالها الحول ؛ وقد أجاز النبي ﷺ لأبي بردة بن نيار

خاصة أن يضحي بها . يقصد ابن خلدون أن الخصوصيات مستثناة من عموم الأحكام ، لما ورد
بشأنها في أحاديث الرسول .

أولى وأفضل؛ فما آثره به وأختصه إلا لمعنى علمه فيه . وعلى كل تقدير فليس دليلاً على مذمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب؛ لأن مشروعية الهجرة إنما كانت كما علمت لمظاهرة النبي ﷺ وجراسيته ، لا لمذمة البدو . فليس في النعمي عليه ترك هذا الواجب بالتعرب دليل على مذمة التعرب . والله سبحانه أعلم وبه التوفيق .

الفصل الخامس

في ان اهل البحر اقرب الى الشبلعة من اهل الحضر

والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مياه الراحة والدعة ، وأنغمسوا في النعيم والترف واكلوا أمرهم في المداقة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت جراستهم ، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم ، فلا تهيجهم هيمة^(١) ولا ينقر لهم صيد^(٢) ؛ فهم غارون^(٣) آمنون ، قد ألقوا السلاح ، وتوالت على ذلك منهم الأجيال ، وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مشواهم ؛ حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطبيعة .

(١) الهيمة : الصوت المفزع .

(٢) كناية عن اطمئنانهم

(٣) غارون : غافلون مطمئنون .

وَأَهْلُ الْبَدْوِ لِيَتَفَرَّدِيهِمْ عَنِ الْمَجْتَمَعِ ، وَتَوَحُّشِهِمْ فِي الصَّوَاهِي ، وَيُعَدِّهِمْ
 عَنِ الْحَامِيَةِ ، وَأَنْتَبِذِيهِمْ عَنِ الْأَسْوَارِ وَالْأَبْوَابِ قَائِمُونَ بِالْمَدَافِعَةِ عَنْ
 أَنْفُسِهِمْ ، لَا يَكِلُونَهَا إِلَى سِوَاهُمْ ، وَلَا يَشْقُونَ فِيهَا بِغَيْرِهِمْ . فَهُمْ
 دَائِمًا يَحْمِلُونَ السِّلَاحَ وَيَتَلَقَّتُونَ عَنْ كُلِّ جَانِبٍ فِي الطَّرِيقِ ، وَيَتَجَافَوْنَ
 عَنِ الْمَجُوعِ إِلَّا غَرَارًا فِي الْمَجَالِسِ وَعَلَى الرِّحَالِ وَفَوْقَ الْأَقْتَابِ ،
 وَيَتَوَجَّسُونَ لِلنَّبَاتِ^(١) وَالْمُهَيْعَاتِ ، وَيَتَفَرَّدُونَ فِي الْقَفْرِ وَالْبَيْدَاءِ ،
 مُدْلِينَ بِبَأْسِهِمْ ، وَاثْقِينَ بِأَنْفُسِهِمْ ؛ قَدْ صَادَ لَهُمُ الْبَأْسُ خُلُقًا
 وَالشَّجَاعَةُ سَجِيَّةً يَزْجُمُونَ إِلَيْهَا مَتَى دَعَاهُمْ دَاعٍ أَوْ اسْتَفَرَّهُمْ
 صَارِخٌ . وَأَهْلُ الْحَضَرِ مَهْمَا خَالَطُوهُمْ فِي الْبَادِيَةِ أَوْ صَاحَبُوهُمْ فِي
 السَّفَرِ عِيَالٌ عَلَيْهِمْ لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُمْ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ أَنْفُسِهِمْ . وَذَلِكَ
 مُشَاهِدٌ بِالْعِيَانِ حَتَّى فِي مَعْرِفَةِ النُّوَاحِي وَالْجِهَاتِ وَمَوَارِدِ الْمِيَاهِ
 وَمَشَارِعِ السُّبُلِ . وَسَبَبُ ذَلِكَ مَا شَرَحْنَاهُ . وَأَصْلُهُ أَنَّ الْإِنْسَانَ
 ابْنُ عَوَانِيهِ وَمَأْلُوفِهِ لَا ابْنَ طَبِيعَتِهِ وَمِزَاجِهِ . فَالَّذِي أَلْفَهُ فِي
 الْأَحْوَالِ حَتَّى صَارَ خُلُقًا وَمَلَكَةً وَعَادَةً تَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الطَّبِيعَةِ
 وَالْجِلَّةِ . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي الْآدَمِيِّينَ تَجِدُهُ كَثِيرًا صَحِيحًا . وَاللَّهُ
 يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ .

(١) يتوجسون: يتسمعون. والنبات: الأصوات الخفية.

الفصل السادس

في ان معاناة اهل الحضر الاحكام مفسدة للبأس فيهم
ذاهبة بالمنة منهم

وذلك أنه ليس كل أحد مَالِكٌ أَمْرٍ نَفْسِهِ ؛ إِذِ الرُّؤَسَاءُ
وَالْأَمْراءُ الْمَالِ كَوْنٌ لِأَمْرِ النَّاسِ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى غَيْرِهِمْ ؛ فَمِنْ
الْغَالِبِ أَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ فِي مَلَكَةٍ غَيْرِهِ ، وَلَا بُدَّ فَإِنْ كَانَتْ
الْمَلَكَةُ رَفِيقَةً وَعَادِلَةً ، لَا يُعَانِي مِنْهَا حُكْمٌ وَلَا مَنَعٌ وَصَدُّ كَانَ
مَنْ تَحْتَ يَدَيْهَا مُدِيرِينَ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ جُبْنٍ ، وَاثْقِينَ
يَعْدَمُ الْوَاظِعَ ، حَتَّى صَارَ لَهُمْ الْإِذْلَالُ جِلَّةً لَا يَعْرِفُونَ سِوَاهَا .

أَمَّا إِذَا كَانَتْ الْمَلَكَةُ وَأَحْكَامُهَا بِالْقَهْرِ وَالسَّطْوَةِ وَالْإِخَافَةِ
فَتَكْسِرُ حَيْثُ مِنْ سَوَرَةٍ بِأَيْسِهِمْ ، وَتُذْهِبُ الْمَنَّةَ عَنْهُمْ ، لَمَّا
يَكُونُ مِنَ التَّكَاسُلِ فِي النُّفُوسِ الْمُضْطَهَدَةِ كَمَا نُبَيِّنُهُ . وَقَدْ نَهَى
عُمَرُ سَعْدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ مِثْلِهَا ، لَمَّا أَخَذَ زَهْرَةَ بِنُ جَوْرِيَّةَ
سَلْبَ الْجَالِنُوسَ ، وَكَانَتْ قِيَمَتُهُ ثَمْسَةَ وَسَبْعِينَ أَلْفًا مِنَ الذَّهَبِ ،
وَكَانَ أَتْبَعَ الْجَالِنُوسَ يَوْمَ الْقَادِيسِيَّةِ فَقَتَلَهُ وَأَخَذَ سَلْبَهُ ، فَأَنْتَزَعَهُ
مِنْهُ سَعْدٌ وَقَالَ لَهُ : « هَلَّا أَنْتَظَرْتَ فِي أَتْبَاعِهِ إِذْنِي ؟ » وَكَتَبَ إِلَى
عُمَرَ يَسْتَأْذِنُهُ ؛ فَكَتَبَ إِلَيْهِ عُمَرُ : « تَعَمَّدُ إِلَى مِثْلِ زَهْرَةَ وَقَدْ

صَلِّيَ بِمَا صَلِّيَ بِهِ^(١)، وَتَقِيَّ عَلَيْكَ مَا يَقِيَّ مِنْ حَرْبِكَ وَتَكْسِرُ قُوَّةَ^(٢) وَتُفْسِدُ قَلْبَهُ^(٣)» وَأَمْضَى لَهُ عُمرُ سَلْبِهِ .

وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْأَحْكَامُ بِالْعِقَابِ فُذِيبَتْ لِلْبَاسِ بِالْكُلِّيَّةِ ؛ لِأَنَّ وَقُوعَ الْعِقَابِ بِهِ وَلَمْ يُدَافِعْ عَنْ نَفْسِهِ يُكْسِبُهُ الْمَذَلَّةَ الَّتِي تَكْسِرُ مِنْ سُورَةِ بَاسِهِ بِلاَ شَكٍّ . وَأَمَّا إِذَا كَانَتْ الْأَحْكَامُ تَأْدِيبِيَّةً وَتَعْلِيمِيَّةً وَأُخِذَتْ مِنْ عَهْدِ الصِّبَا أَثَرَتْ فِي ذَلِكَ بَعْضَ الشَّيْءِ لِمَرْبَاهُ عَلَى الْخَافَةِ وَالْأَنْقِيَادِ ، فَلَا يَكُونُ مُدِلًّا بِبَاسِهِ^(٤) . وَلِهَذَا نَجِدُ الْمُتَوَحِّشِينَ مِنَ الْعَرَبِ^(٥) أَهْلَ الْبَدْوِ أَشَدَّ بَاسًا مِنْ تَأْخِذِهِ الْأَحْكَامُ . وَنَجِدُ أَيْضًا الَّذِينَ يُعَانُونَ الْأَحْكَامَ وَمَلَكَتْهَا مِنْ لَدُنْ مَرْبَاهُمْ فِي التَّأْدِيبِ وَالتَّعْلِيمِ فِي الصَّنَائِعِ وَالْعُلُومِ وَالِدِّيَّاتِ يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ بَاسِهِمْ كَثِيرًا ، وَلَا يَكَادُونَ يَذْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ عَادِيَّةً يَوْجِدُ مِنَ الْوُجُوهِ . وَهَذَا شَأْنُ طَلَبَةِ الْعِلْمِ الْمُتَحِلِّينَ لِلْقِرَاءَةِ وَالْأَخْذِ عَنِ الْمَشَايِخِ وَالْأَيُّمَةِ الْمُبَارِسِينَ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ فِي تَجَالِسِ الْوَقَارِ وَالْهَيْبَةِ ؛ فِيهِمْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ وَذَهَابُهَا بِالْمُنْعَةِ وَالْبَاسِ .

وَلَا تَسْتَنْكِزُ ذَلِكَ بِمَا وَقَعَ فِي الصَّحَابَةِ مِنْ أَخْذِهِمْ بِأَحْكَامِ الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ ، وَلَمْ يُنْقِصْ ذَلِكَ مِنْ بَاسِهِمْ ، بَلْ كَانُوا أَشَدَّ

(١) بمعنى : قاسى شدائد الحرب .

(٢) بمعنى : تثبط همته .

(٣) يدلُّ بشيء ؛ يعتز به . والمعنى يعتز بقوة بآسه .

(٤) بمعنى الأعراب أو سكان البادية . استعملها ابن خلدون في أماكن كثيرة من كتابه بهذا

المعنى .

الناس بآساً ؛ لِأَنَّ الشَّارِعَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا أَخَذَ الْمُسْلِمُونَ عَنْهُ دِينَهُمْ كَانَ وَارِغُهُمْ فِيهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، لِمَا تَلَا عَلَيْهِمْ مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَعَلَّمُ صِنَاعِيٍّ وَلَا تَأْدِيبٍ تَعْلِيمِيٍّ ؛ إِنَّمَا هِيَ أَحْكَامُ الدِّينِ وَأَدَابُهُ الْمُتَلَقَّاةُ نَقْلًا يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِهَا بِمَا رَسَخَ فِيهِمْ مِنْ عَقَائِدِ الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ . فَلَمْ تَرَلْ سَوْرَةَ بِأَيْسِهِمْ مُسْتَحْكِمَةً ، كَمَا كَانَتْ وَلَمْ تَخْذِشْهَا أَظْفَارُ التَّأْدِيبِ وَالْحُكْمِ . قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « مَنْ لَمْ يُؤَدِّبْهُ الشَّرْعُ لَا أَدَبَهُ اللَّهُ » ، حَرْصًا عَلَى أَنْ يَكُونَ الْوَارِغُ لِكُلِّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ وَيَقِينًا بِأَنَّ الشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ . وَلَمَّا تَنَاقَصَ الدِّينُ فِي النَّاسِ وَأَخَذُوا بِالْأَحْكَامِ الْوَارِغَةِ ، ثُمَّ صَادَ الشَّرْعُ عِلْمًا وَصِنَاعَةً يُؤْخَذُ بِالتَّعْلِيمِ وَالتَّأْدِيبِ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى الْحَضَارَةِ وَخُلِقَ الْإِنْقِيَادُ إِلَى الْأَحْكَامِ نَقَصَتْ بِذَلِكَ سَوْرَةُ الْبَاسِ فِيهِمْ .

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْأَحْكَامَ السُّلْطَانِيَّةَ وَالتَّعْلِيمِيَّةَ مُفْسِدَةٌ لِلْبَاسِ لِأَنَّ الْوَارِغَ فِيهَا أَجْنَبِيٌّ ؛ وَأَمَّا الشَّرْعِيَّةُ فَغَيْرُ مُفْسِدَةٍ لِأَنَّ الْوَارِغَ فِيهَا ذَاتِيٌّ . وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْكَامُ السُّلْطَانِيَّةُ وَالتَّعْلِيمِيَّةُ مِمَّا تُؤَثِّرُ فِي أَهْلِ الْحَوَاضِرِ فِي ضَعْفِ نَفُوسِهِمْ وَخَضَعِ الشُّوْكَةِ مِنْهُمْ بِمَعَانِيَّتِهِمْ فِي وَلَدِيَّتِهِمْ وَكُهُولِهِمْ ؛ وَالْبَدْوُ يَمْعَزِلُ عَنْ هَذِهِ الْمُنْزِلَةِ لِبُعْدِيَّتِهِمْ عَنْ أَحْكَامِ السُّلْطَانِ وَالتَّعْلِيمِ وَالْآدَابِ . وَلِهَذَا قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي زَيْدٍ فِي كِتَابِهِ فِي أَحْكَامِ الْمُتَعَلِّمِينَ وَالتَّعَلِّمِينَ : « إِنَّهُ لَا يَتَّبِعِي لِلْمُؤَدِّبِ أَنْ يَضْرِبَ أَحَدًا مِنْ الصِّبْيَانِ فِي التَّعْلِيمِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَسْوَاطٍ » ؛ نَقْلُهُ عَنْ شُرَيْحٍ

القاضي ، وأحتج له بعضهم بما وقع في حديث بدء التوحيد من شأن النبط وأنه كان ثلاث مرات ؛ وهو ضعيف ، ولا يصلح شأن النبط أن يكون دليلاً على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف . والله الحكيم الخبير .

الفصل السابع

فمن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية

إعلم أن الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر ، كما قال تعالى ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ ، وقال : ﴿ فَأَلَمَهَا لُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ . والشر أقرب الخلال إليه إذا أهمل في رعى عوائده ولم يهتد به الأفتداء بالدين . وعلى ذلك ألجم الفير ، إلا من وقعه الله . ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والمُدوان بعض على بعض . فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه امتدت يده إلى أخيه إلا أن يصله وازرع كما قال :

والظلم من شيم النفوس فإن تجذ ذا عفة فليعلم لا يظلم

فأما المدن والأمصا فمدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على أيدي من تحتهم من الكافة أن يمتد بعضهم على بعض ، أو يعدو عليه ؛ فإنهم مكبوحو

بِحَكْمَةٍ^(١) الْقَهْرِ وَالسُّلْطَانِ عَنِ الظُّلْمِ ، إِلَّا إِذَا كَانَ مِنْ أَحْلَاكِهِمْ
 بِنَفْسِهِ . وَأَمَّا الْعُدَّانُ مِنَ الَّذِي خَارَجَ الْمَدِينَةَ فَيَدْفَعُهُ سِيَاحُ
 الْأَسْوَارِ عِنْدَ الْغَفْلَةِ أَوْ الْغِرَّةِ لَيْلًا أَوْ الْعَجْزِ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ نَهَارًا ،
 أَوْ يَدْفَعُهُ زِيَادُ الْحَاكِمِيَّةِ مِنْ أَعْوَانِ الدَّوْلَةِ عِنْدَ الْإِسْتِعْدَادِ وَالْمَقَاوِمَةِ .
 وَأَمَّا أَحْيَاءُ الْبَدْوِ فَيَزَعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ مُسَايِحُهُمْ وَكِبَرَاؤُهُمْ بِمَا
 وَقَرَّ فِي نَفُوسِ الْكَافَّةِ لَهُمْ مِنَ الْوَقَارِ وَالتَّجَلُّةِ . وَأَمَّا حِلَّهْمُ
 فَإِنَّمَا يَذُودُ عَنْهَا مِنْ خَارِجِ حَامِيَّةِ الْحَيِّ مِنْ أَنْجَادِهِمْ وَفِتْيَانِهِمْ
 الْمَعْرُوفِينَ بِالشَّجَاعَةِ فِيهِمْ . وَلَا يَصْدُقُ دِفَاعُهُمْ وَذِيَادُهُمْ إِلَّا إِذَا
 كَانُوا عَصِيَّةً وَأَهْلَ نَسَبٍ وَاحِدٍ ؛ لِأَنَّهُمْ بِذَلِكَ تَشْتَدُّ شَوْكَتُهُمْ
 وَيُخْشَى جَانِبُهُمْ ؛ إِذْ نُعْرَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى نَسَبِهِ وَعَصِيَّتِهِ أَهْمٌ ؛
 وَمَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ مِنَ الشَّفَقَةِ وَالنُّعْرَةِ^(٢) عَلَى ذَوِي
 أَرْحَامِهِمْ وَقُرْبَائِهِمْ مَوْجُودَةً فِي الطَّبَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَبِهَا يَكُونُ
 التَّعَاوُضُ وَالتَّنَاصُرُ ، وَتَعْظُمُ رَهْبَةُ الْعَدُوِّ لَهُمْ ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِيمَا
 حَكَاهُ الْقُرْآنُ عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حِينَ قَالُوا لِأَبِيهِ .
 ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَّيْسِرُونَ﴾ ؛ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ
 لَا يُتَوَكَّلُ الْعُدَّانُ عَلَى أَحَدٍ مَعَ وُجُودِ الْعِصْبَةِ لَهُ .

وَأَمَّا الْمُتَفَرِّدُونَ فِي الْأَنْسَابِ فَقُلَّ أَنْ تُصِيبَ أَحَدًا مِنْهُمْ
 نُعْرَةٌ عَلَى صَاحِبِيهِ ، فَإِذَا أَظْلَمَ الْجَوُّ بِالشَّرِّ يَوْمَ الْحَرْبِ تَسَلَّلَ كُلُّ

(١) الحكمة ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه ، والكلام هنا مجازي .

(٢) النعرة والنعار بالضم فيها والنعر: الصراخ والصياح في حرب أو شركا في القاموس .

والمقصود بها هنا معنى مجازي وهو التعصب لأولي الأرحام ونجدتهم .

وَإِحْدٍ مِنْهُمْ يَبْغِي النِّجَاةَ لِنَفْسِهِ خِيفَةً وَاسْتِحْشَاءً مِنَ التَّخَاذُلِ .
فَلَا يَقْدِرُونَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ عَلَى سُكْنَى الْقَفْرِ لَمَّا أَنَّهُمْ حِينَئِذٍ
طُعْمَةٌ لِمَنْ يَلْتَهُمُهُمْ مِنَ الْأُمَمِ سِوَاهُمْ .

وَإِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي السُّكْنَى الَّتِي تَحْتَاجُ لِلْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ
فَبِمِثْلِهِ يَتَّبِعُ لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ نُبُوَّةٍ أَوْ
إِقَامَةِ مِلْكٍ أَوْ دَعْوَةٍ ؛ إِذْ بُلُوغُ الْفَرَضِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا يَتِمُّ
بِالْقِتَالِ عَلَيْهِ ، لَمَّا فِي طَبَائِعِ الْبَشَرِ مِنَ الْإِسْتِعْصَاءِ ، وَلَا بُدَّ فِي
الْقِتَالِ مِنَ الْعَصِيَّةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا ؛ فَالْخِذُّهُ إِمَامًا تَقْتَدِي بِهِ فِيمَا
نُورِدُهُ عَلَيْكَ بَعْدَ ، وَاللَّهُ أَلْوَفُّ لِلصَّوَابِ .

الفصل الثامن

فِي أَنَّ الْعَصَبِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْإِتِّحَادِ بِالنِّسْبِ أَوْ مَا فِي مَعْنَاهُ

وَذَلِكَ أَنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ طَبِيعِيٌّ فِي الْبَشَرِ إِلَّا فِي الْأَقْلِ .
وَمِنْ صِلَتِهَا الثَّرَّةُ عَلَى ذَوِي الْقُرْبَى وَأَهْلِ الْأَزْهَامِ أَنْ يَنَالَهُمْ
ضَرَرٌ أَوْ تُصِيبَهُمْ هَلَكَةٌ . فَإِنَّ الْقَرِيبَ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ غَضَاضَةً مِنْ
ظُلْمِ قَرِيبِهِ أَوْ الْعَدَاءِ عَلَيْهِ ، وَيَوَدُّ لَوْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَصِلُهُ مِنَ
الْمُعَاطَبِ وَالْمَهَالِكِ ؛ تَرْغَةً طَبِيعِيَّةً فِي الْبَشَرِ مَذْكَوْرًا . فَإِذَا كَانَ
النِّسْبُ الْمُتَوَاصِلُ بَيْنَ الْمُتَنَاصِرِينَ قَرِيبًا جَدًّا يَحِثُّ حَصْلُ بِهِ الْإِتِّحَادِ
وَالْإِتِّحَامُ كَانَتْ الْوُصْلَةُ ظَاهِرَةً ؛ فَاسْتَدْعَتْ ذَلِكَ بُحْرَدُهَا

ووضوحها . وإذا بَعَدَ النَّسَبُ بَعْضَ الشَّيْءِ فَرُبَّمَا تُنَوِيهِ بَعْضُهَا وَيَبْقَى مِنْهَا شُهْرَةٌ فَتَحْمِلُ عَلَى النُّصْرَةِ لَذَوِي نَسَبِهِ بِالْأَمْرِ الْمَشْهُورِ مِنْهُ ، فِرَاراً مِنَ الْغَضَاظَةِ الَّتِي يَتَوَهَّمُهَا فِي نَفْسِهِ مِنْ ظُلْمٍ مَنْ هُوَ مُنْسَوْبٌ إِلَيْهِ بِوَجْهِهِ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الْوَلَاءُ وَالْخِلْفُ إِذْ نُعْرَةُ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى أَهْلِهِ وَلِأَيِّهِ وَخِلْفِهِ لِلْأَلْفَةِ الَّتِي تَلْحَقُ النَّفْسَ مِنْ أَهْتِضَامٍ جَارِهَا أَوْ قَرِيبِهَا أَوْ نَسَبِهَا بِوَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ النَّسَبِ ؛ وَذَلِكَ لِأَجْلِ اللَّحْمَةِ الْحَاصِلَةِ مِنَ الْوَلَاءِ مِثْلَ لَحْمَةِ النَّسَبِ أَوْ قَرِيباً مِنْهَا . وَمِنْ هَذَا تَفَهُمُ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ » ؛ بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِنَّمَا فَائِدَتُهُ هَذَا الْإِلْتِحَامُ الَّذِي يُوجِبُ صَلَاةَ الْأَرْحَامِ حَتَّى تَقَعَ الْمُنَاصَرَةُ وَالنُّعْرَةُ وَمَا فَوْقَ ذَلِكَ مُسْتَغْنَى عَنْهُ ، إِذِ النَّسَبُ أَمْرٌ وَهَمِيٌّ لَا حَقِيقَةً لَهُ ؛ وَتَنْفَعُهُ إِنَّمَا هُوَ فِي هَذِهِ الْوُصْلَةِ وَالْإِلْتِحَامِ . فَإِذَا كَانَ ظَاهِراً وَاضِحاً تَحَمَّلَ النُّفُوسَ عَلَى طَبِيعَتِهَا مِنَ النُّعْرَةِ كَمَا قَلْنَاهُ . وَإِذَا كَانَ إِنَّمَا يُسْتَفَادُ مِنَ الْخَبَرِ الْبَعِيدِ ضَعْفَ فِيهِ الْوَهْمُ وَذَهَبَتْ فَائِدَتُهُ وَصَارَ الشُّغْلُ بِهِ سَجَاناً^(١) ، وَمِنْ أَعْمَالِ اللَّهِ الْمُنْهِي عَنْهُ . وَمِنْ هَذَا الْإِعْتِبَارِ مَعْنَى قَوْلِهِمْ : النَّسَبُ عِلْمٌ لَا يَنْفَعُ وَجَهَالَةٌ لَا تَضُرُّ ؛ بِمَعْنَى أَنَّ النَّسَبَ إِذَا خَرَجَ عَنِ الْوُضُوحِ وَصَارَ مِنْ قَبِيلِ الْعُلُومِ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ الْوَهْمِ فِيهِ عَنِ النَّفْسِ ، وَانْتَفَتِ النُّعْرَةُ الَّتِي تَحْمِلُ عَلَيْهَا الْعَصِيَّةُ فَلَا مَنَفْعَةَ فِيهِ حِينَئِذٍ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ .

(١) كذا بالأصول، والصواب: مجانة أو مجوناً.

الفصل التاسع

في أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر
من العرب ومن في معانهم

وذلك لما أختصوا به من تكدي العيش وشطف الأحوال وسوء
المواطن، حملتهم عليها الضرورة التي عيئت لهم تلك القسمة؛ وهي
لما كان معاشهم من القيام على الإبل ونتاجها ورعايتها، والأبل
تدعوهم إلى التوحش في القفر لرعيها من شجره ونتاجها في
رمايه كما تقدم، والقفر مكان الشطف والسنب^(١)؛ فصار لهم ألفاً
وعادة وريت فيه أجيالهم، حتى تمكنت خلقاً وجيلة؛ فلا ينزع
إليهم أحد من الأمم أن يساهمهم في حالهم، ولا يأنس بهم أحد
من الأجيال. بل لو وجد واحد منهم السبيل إلى الفرار من حاله
وأمكنه ذلك لما تركه؛ فيؤمن عليهم لأجل ذلك من اختلاط
أنسابهم وفسادها، ولا تزال بينهم محفوظة. واعتبر ذلك في مضر
من قریش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من
خزاعة؛ لما كانوا أهل شطف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع،
وبعدوا من أزياف الشام والعراق ومعادين الأدم والجوب، كيف
كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم

(١) بمعنى الجوع مع التعب.

شَوَّبُ^(١) . وَأَمَّا الْعَرَبُ الَّذِينَ كَانُوا بِالثَّلُولِ وَفِي مَعَادِنِ الْخَصْبِ لِلْمَرَاعِي وَالْعَيْشِ مِنْ خَيْرِ وَكِهْلَانٍ يَمِثَلُ لَحْمٍ وَجُذَامٌ وَغَسَّانٌ وَطَيْيٌّ وَقُضَاعَةٌ وَإِيَادٌ فَأَخْتَلَطَتْ أَنْسَابُهُمْ وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ . فَفِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ مِنْ الْخِلَافِ عِنْدَ النَّاسِ مَا تَعْرِفُ . وَإِنَّمَا جَاءَهُمْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْعَجَمِ وَنَحْلَاطِهِمْ . وَهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ الْحَافِظَةَ عَلَى النَّسَبِ فِي بُيُوتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ ؛ وَإِنَّمَا هَذَا لِلْعَرَبِ فَقَطْ . قَالَ عُمرُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ : « تَعَلَّمُوا النَّسَبَ وَلَا تَكُونُوا كَنَبَطِ السَّوَادِ ، إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ أَصْلِهِ قَالَ مِنْ قَرْيَةٍ كَذَا » . هَذَا إِلَى مَا يَلْحَقُ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ أَهْلَ الْأَزْيَافِ مِنَ الْإِزْدِجَامِ مَعَ النَّاسِ عَلَى الْبَلَدِ الطَّيِّبِ وَالْمَرَاعِي الْخَصِيبَةِ ؛ فَكَثُرَ الْإِخْتِلَاطُ وَتَدَاخَلَتْ الْأَنْسَابُ . وَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ الْإِنْتِهَاءُ إِلَى الْمَوَاطِنِ ، فَيُقَالُ جُنْدُ قَسْرِينَ^(٢) ، جُنْدُ دِمَشْقَ ، جُنْدُ الْعَوَاصِمِ ، وَانْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ؛ وَلَمْ يَكُنْ لِإِطْرَاحِ الْعَرَبِ أَمْرَ النَّسَبِ ، وَإِنَّمَا كَانَ لِإِخْتِصَاصِهِمْ بِالْمَوَاطِنِ بَعْدَ الْفَتْحِ حَتَّى عُرِفُوا بِهَا ، وَصَارَتْ لَهُمْ عَلَامَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى النَّسَبِ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عِنْدَ أُمَرَائِهِمْ . ثُمَّ وَقَعَ الْإِخْتِلَاطُ فِي الْحَوَاضِرِ مَعَ الْعَجَمِ وَغَيْرِهِمْ ، وَفَسَدَتْ الْأَنْسَابُ بِالْجَلَّةِ وَفَقَدَتْ ثَمَرَتَهَا مِنَ الْعَصِيَّةِ فَأُطْرِحَتْ . ثُمَّ تَلَاشَتْ الْقَبَائِلُ وَدَثَّرَتْ فَدَثَّرَتْ الْعَصِيَّةُ بِدَثُورِهَا ؛ وَبَقِيَ ذَلِكَ فِي الْبَدْوِ كَمَا كَانَ . وَاللَّهُ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا .

(١) بمعنى اختلاط النسب .

(٢) استعملت لفظة «جند» بمعنى الولاية ، في العصر العباسي .

الفصل العاشر

في اختلاط الأنساب كيف يقع

إِذْ عَلِمَ أَنَّهُ مِنَ الْبَيْنِ أَنَّ بَعْضًا مِنْ أَهْلِ الْأَنْسَابِ يَسْقُطُ إِلَى أَهْلِ نَسَبٍ آخَرَ بِقَرَابَةٍ إِلَيْهِمْ أَوْ حِلْفٍ أَوْ وِلَاءٍ أَوْ لِفِرَارٍ مِنْ قَوْمِهِ بِجَنَاحِيَةِ أَصَابِهَا ، فَيُدْعَى بِنَسَبِ هَؤُلَاءِ وَيُعَدُّ مِنْهُمْ فِي ثَمَرَاتِهِ مِنَ النُّفَرَةِ وَالْقَوَدِ^(١) وَتَحُلُّ الدِّيَاتِ وَسَائِرِ الْأَحْوَالِ . وَإِذَا وَجِدَتْ ثَمَرَاتُ النَسَبِ فَكَأَنَّهُ وَجِدَ ؛ لِأَنَّهُ لَا مَعْنَى لَكُونِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا جَرَيَانُ أَحْكَامِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَلَيْهِ ، وَكَأَنَّهُ اتَّحَمَ بِهِمْ . ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ يَتَنَاسَى النَسَبَ الْأَوَّلَ بِطَوْلِ الزَّمَانِ وَيَذْهَبُ أَهْلُهُ الْعِلْمُ بِهِ فَيَخْفَى عَلَى الْأَكْثَرِ . وَمَا زَالَتْ الْأَنْسَابُ تَسْقُطُ مِنْ شُعْبٍ إِلَى شُعْبٍ وَيَلْتَحِمُ قَوْمٌ بِآخَرِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ وَالْعَجَمِ . وَانْظُرْ خِلَافَ النَّاسِ فِي نَسَبِ آلِ الْمُنْذِرِ وَغَيْرِهِمْ يَتَّبِعُونَ لَكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ . وَمِنْهُ شَأْنُ بَجِيلَةَ فِي عَرْفَجَةَ بْنِ هَرْثَمَةَ لَمَّا وَلَّاهُ عُمَرُ عَلَيْهِمْ فَسَأَلُوهُ الْإِعْفَاءَ مِنْهُ ، وَقَالُوا هُوَ فِينَا لَزِيْقٌ ، أَيِ دَخِيلٌ وَلَصِيقٌ ، وَطَلَبُوا أَنْ يُؤْتَى عَلَيْهِمْ جَرِيرًا . فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ عَرْفَجَةُ : « صَدَقُوا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ أَصْنَبْتُ دِمَاءَ فِي قَوْمِي وَلِحِقْتُ بِهِمْ » . وَانْظُرْ مِنْهُ كَيْفَ اخْتَلَطَ عَرْفَجَةُ بِبَجِيلَةَ وَلَيْسَ جِلْدَتُهُمْ وَدُعَايُ نَسَبِهِمْ حَتَّى تَرَشَّحَ لِلرِّيَاسَةِ عَلَيْهِمْ ، لَوْلَا عِلْمُ

(١) القود: القصاص في القتل.

بَعْضِهِمْ يَوْشَائِيهِ ؛ وَلَوْ غَفَلُوا عَنْ ذَلِكَ وَامْتَدَّ الزَّمَنُ لَتَنَوَّسِي بِأَجْمَلَةٍ
وَعَدَّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهِ وَمَذْهَبٍ . فَافْهَمَهُ وَاعْتَبَرَ سِرَّ اللَّهِ فِي خَلِيقَتِهِ .
وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلَمَّا قَبْلَهُ مِنَ الْعُهودِ . وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ
لِلصَّوَابِ بَيْنَهُ وَفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ .

الفصل الحادي عشر

ففي ان الرياسة لا تنال في نصابها المخصوص من اهل العصبية^(١)

إِعْلَمَنَّ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ أَوْ بَطْنٍ مِنْ الْقَبَائِلِ وَإِنْ كَانُوا عِصَابَةً
وَاحِدَةً لِنَسَبِهِمُ الْعَامِّ فَفِيهِمْ أَيْضاً عَصَبِيَّاتٌ أُخْرَى لِأَنْسَابٍ خَاصَّةٍ
هِيَ أَشَدُّ التَّحَاماً مِنَ النَّسَبِ الْعَامِّ لَهُمْ ، مِثْلَ عَشِيرَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ
أَهْلِ بَيْتٍ وَاحِدَةٍ أَوْ إِخْوَةٍ بَنِي أَبِي وَاحِدَةٍ لَا مِثْلَ بَنِي الْعَمِّ
الْأَقْرَبِينَ أَوْ الْأَبْعَدِينَ . فَهَؤُلَاءِ أَقَمَدُ بِنَسَبِهِمُ الْخُصُوصِ وَيُشَارُ كَوْنُ
مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْمَصَائِبِ فِي النَّسَبِ الْعَامِّ . وَالنُّعْرَةُ تَقَعُ مِنْ
أَهْلِ نَسَبِهِمُ الْخُصُوصِ وَمِنْ أَهْلِ النَّسَبِ الْعَامِّ ؛ إِلَّا أَنَّهَا فِي
النَّسَبِ الْخَاصِّ أَشَدُّ لِقُرْبِ اللَّحْمَةِ . وَالرِّيَاسَةُ فِيهِمْ إِنَّمَا تَكُونُ فِي
نِصَابٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وَلَا تَكُونُ فِي الْكُلِّ . وَلَمَّا كَانَتْ الرِّيَاسَةُ
إِنَّمَا تَكُونُ بِالْغَلْبِ وَجَبَ أَنْ تَكُونَ عَصِيَّةٌ ذَلِكَ النِّصَابِ أَقْوَى
مِنْ سَائِرِ الْعَصَائِبِ لِيَقَعَ الْغَلْبُ بِهَا وَتَتَمَّ الرِّيَاسَةُ لِأَهْلِهَا . فَإِذَا

(١) كتب الهوريني في هامش طبعة بولاق التعليق التالي: هذا الفصل ساقط من النسخ
الفارسية وموجود في النسخة التونسية وإثباته أولى ليطابق كلامه أول الفصل (١٢) اهـ.

وَجَبَ ذَلِكَ تَعَيَّنَ أَنَّ الرِّيَاسَةَ عَلَيْهِمْ لَا تَرَالُ فِي ذَلِكَ النِّصَابِ
الْمُخْصُوصِ بِأَهْلِ الْقَلْبِ عَلَيْهِمْ ؛ إِذْ لَوْ خَرَجَتْ عَنْهُمْ وَصَادَتْ فِي
الْعَصَائِبِ الْأُخْرَى النَّازِلَةِ عَنْ عِصَابَتِهِمْ فِي الْقَلْبِ لَمَا تَمَّتْ لَهُمْ
الرِّيَاسَةُ . فَلَا تَرَالُ فِي ذَلِكَ النِّصَابِ مُتَنَاقِلَةً مِنْ فَرْعٍ مِنْهُمْ إِلَى
فَرْعٍ ، وَلَا تَنْتَقِلُ إِلَّا إِلَى الْأَقْوَى مِنْ فُرُوعِهِ ، لِأَنَّ قُلْنَاهُ مِنْ سِرِّ
الْقَلْبِ . لِأَنَّ الْأَجْتِمَاعَ وَالْعَصِيَّةَ بِمَثَابَةِ الْمِزَاجِ فِي الْمَتَكُونِ ؛
وَالْمِزَاجُ فِي الْمَتَكُونِ لَا يَصْلُحُ إِذَا تَكَافَأَتِ الْعُنَاصِرُ ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ
غَلَبَةِ أَحَدِهَا وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ التَّكُونُ . فَهَذَا هُوَ سِرُّ اشْتِرَاطِ الْقَلْبِ
فِي الْعَصِيَّةِ . وَمِنْهُ تَعَيَّنَ اسْتِمْرَادُ الرِّيَاسَةِ فِي النِّصَابِ الْمُخْصُوصِ
بِهَا كَمَا قَرَّرْنَاهُ .

الفصل الثاني عشر

ففي ان الرياسة على اهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

وذلك أَنَّ الرِّيَاسَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالْقَلْبِ ، وَالْقَلْبُ إِنَّمَا
يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ كَمَا قَدَّمْنَاهُ . فَلَا بُدَّ فِي الرِّيَاسَةِ عَلَى الْقَوْمِ أَنَّ
تَكُونُ مِنْ عَصِيَّةٍ غَالِبَةٍ لِعَصِيَّاتِهِمْ وَاحِدَةً وَاحِدَةً ، لِأَنَّ كُلَّ
عَصِيَّةٍ مِنْهُمْ إِذَا أَحَسَّتْ بِغَلَبِ عَصِيَّةِ الرَّئِيسِ لَهُمْ أَقْرَبُوا
بِالْإِذْعَانِ وَالْإِتِّبَاعِ . وَالسَّاقِطُ فِي نَسَبِهِمْ بِالْجُمْلَةِ لَا تَكُونُ لَهُ
عَصِيَّةٌ فِيهِمْ بِالنَّسَبِ ، إِنَّمَا هُوَ مُلَصَّقٌ لَزِيْقٍ ، وَغَايَةُ التَّعَصُّبِ لَهُ
بِالْوِلَاءِ وَالْخُلْفِ ؛ وَذَلِكَ لَا يُوجِبُ لَهُ غَلَبًا عَلَيْهِمُ الْبَتَّةَ ، وَإِذَا فَرَضْنَا

أَنَّهُ قَدْ التَحَمَ بِهِمْ وَأَخْتَلَطَ وَتُنَوِّسِي عَهْدَهُ الْأَوَّلَ مِنَ الْإِلْتِصَاقِ ،
وَلَيْسَ جِلْدَتُهُمْ وَدُعَايَ بِنَسَبِهِمْ ، فَكَيْفَ لَهُ الرِّيَاسَةُ قَبْلَ هَذَا
الْإِلْتِصَامِ أَوْ لِأَحَدٍ مِنْ سَلَفِهِ . وَالرِّيَاسَةُ عَلَى الْقَوْمِ إِنَّمَا تَكُونُ
مُتَنَاقِلَةً فِي مَنْبِتٍ وَاحِدٍ تَعَيَّنَ لَهُ الْغَلَبُ بِالْعَصِيَّةِ . فَأَلَاؤِيَّةُ الَّتِي
كَانَتْ لِهَذَا الْمُلُصِقِ قَدْ عُرِفَ فِيهَا التِّصَاقُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَمَنْعَهُ
ذَلِكَ الْإِلْتِصَاقُ مِنَ الرِّيَاسَةِ حِينَئِذٍ ؛ فَكَيْفَ تُنَوِّقِلْتُ عَنْهُ ، وَهُوَ
عَلَى حَالِ الْإِلْتِصَاقِ ؟ وَالرِّيَاسَةُ لَا بُدَّ وَأَنْ تَكُونَ مَوْزُوثةً عَنْ
مُسْتَحِقِّهَا يَأْخُذُهَا مِنَ التَّغَلُّبِ بِالْعَصِيَّةِ . وَقَدْ يَتَشَوَّفُ كَثِيرٌ مِنَ
الرُّؤَسَاءِ عَلَى الْقَبَائِلِ وَالْعَصَائِبِ إِلَى أَنْسَابٍ يُلَهَّجُونَ بِهَا ، أَمَّا
لِخُصُوصِيَّةِ فَضِيلَةٍ كَانَتْ فِي أَهْلِ ذَلِكَ النَّسَبِ مِنْ شَجَاعَةٍ أَوْ
كَرَمٍ ، أَوْ ذِكْرِ كَيْفَ اتَّفَقَ ؛ فَيَنْزَعُونَ إِلَى ذَلِكَ النَّسَبِ ،
وَيَتَوَرَّطُونَ بِالِدَّعَاوَى فِي شُعُوبِهِ ؛ وَلَا يَعْلَمُونَ مَا يُوْقَعُونَ فِيهِ
أَنفُسُهُمْ مِنَ الْقَذْحِ فِي رِيَاسَتِهِمْ وَالطَّغْنِ فِي شَرَفِهِمْ . وَهَذَا كَثِيرٌ
فِي النَّاسِ لِهَذَا الْعَهْدِ .

فَمَنْ ذَلِكَ مَا يَدَّعِيهِ زَنَاتُهُ "جَمَلَةٌ أَنَّهُمْ مِنَ الْعَرَبِ . وَمِنْهُ ادِّعَاءُ
أَوْلَادِ رَبَّابِ الْعُرُوفِينَ بِالْحِجَازِيِّينَ مِنْ بَنِي عَامِرٍ أَحَدِ شُعُوبِ زُعْبَةَ
أَنَّهُمْ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ ثُمَّ مِنَ الشَّرِيدِ مِنْهُمْ ، لِحَقِّ جَدُّهُمْ بَنِي عَامِرٍ
فَجَارًا يَصْنَعُ الْحِرْجَانُ^(١) وَأَخْتَلَطَ بِهِمْ وَأَلْتَحَمَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى رَأَسَ
عَلَيْهِمْ ، وَيُسَمُّونَهُ الْحِجَازِيَّ .

وَمِنْ ذَلِكَ ادِّعَاءُ بَنِي عَبْدِ الْقَوِيِّ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ تَوْجِينَ أَنَّهُمْ

(١) الحرجان بكسر الحاء جمع حرج بفتح الحاء ، نعش الموتى (قاموس) .

من وُلِدَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَغْبَةً فِي هَذَا النَّسَبِ الشَّرِيفِ
وَعَلَطًا بِاسْمِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَطِيَّةَ ، أَبِي عَبْدِ الْقَوِيِّ . وَلَمْ يُعْلَمْ دُخُولُ
أَحَدٍ مِنَ الْعَبَّاسِيِّينَ إِلَى الْمَغْرِبِ ، لِأَنَّهُ كَانَ مِنْذُ أَوَّلِ دَوَلَتِهِمْ عَلَى
دَعْوَةِ الْعَلَوِيِّينَ أَعْدَائِهِمْ مِنَ الْأَدَارِسَةِ وَالْعُبَيْدِيِّينَ ؛ فَكَيْفَ
يَكُونُ مِنْ سِبْطِ الْعَبَّاسِ أَحَدٌ مِنْ شِيعَةِ الْعَلَوِيِّينَ ؟

وَكَذَلِكَ مَا يَدَّعِيهِ أَبْنَاءُ زَيَّانَ مُلُوكُ تِلْمَسَانَ مِنْ بَنِي عَبْدِ
الْوَاحِدِ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ الْقَاسِمِ بْنِ إِدْرِيسَ ، ذَهَابًا إِلَى مَا اشْتَهَرَ فِي
نَسَبِهِمْ أَنَّهُمْ مِنْ وُلْدِ الْقَاسِمِ ، فَيَقُولُونَ بِلِسَانِهِمُ الزَّنَاتِيِّ أَنْتَ
الْقَاسِمُ أَيُّ بَنُو الْقَاسِمِ ، ثُمَّ يَدَّعُونَ أَنَّ الْقَاسِمَ هَذَا هُوَ الْقَاسِمُ
ابْنُ إِدْرِيسَ أَوْ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ . وَلَوْ كَانَ ذَلِكَ صَحِيحًا
فَعَنَاءَةُ الْقَاسِمِ هَذَا أَنَّهُ فَرَّ مِنْ مَكَانِ سُلْطَانِهِ مُسْتَجِيرًا بِهِمْ ،
فَكَيْفَ تَتِمُّ لَهُ الرِّيَاسَةُ عَلَيْهِمْ فِي بَادِيَتِهِمْ ؟ وَإِنَّمَا هُوَ غَلَطٌ مِنْ
قَبْلِ أَسْمِ الْقَاسِمِ ؛ فَإِنَّهُ كَثِيرُ الْوُجُودِ فِي الْأَدَارِسَةِ ، فَتَوَهَّمُوا
أَنَّ قَاسِمَهُمْ مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ ؛ وَهُمْ غَيْرُ مُتَحَاجِينَ لِذَلِكَ ، فَإِنَّ
مَنَاهُمْ لِلْمُلْكِ وَالْعِزَّةِ إِنَّمَا كَانَ بِمَصَيَّتِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ بِإِدْعَاءِ عُلُوِّيَّةٍ
وَلَا عَبَّاسِيَّةٍ وَلَا شَيْءٍ مِنَ الْأَنْسَابِ . وَإِنَّمَا يَحْمِلُ عَلَى هَذَا الْمُتَقَرَّبُونَ
إِلَى الْمُلُوكِ بِمَنَازِعِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ وَيَشْتَهَرُ حَتَّى يَبْعُدَ عَنِ الرَّدِّ . وَلَقَدْ
بَلَّغَنِي عَنْ يَغْمَرِاسَنَ بْنِ زَيَّانَ مُوَثَّلِ سُلْطَانِهِمْ ، أَنَّهُ لَمَّا قِيلَ لَهُ
ذَلِكَ أَنْكَرَهُ ، وَقَالَ بَلَّغْتِهِ الزَّنَاتِيَّةَ مَا مَعْنَاهُ : أَمَّا الدُّنْيَا وَالْمُلْكُ
فَنِلْنَاهُمَا بِسُيُوفِنَا لَا بِهَذَا النَّسَبِ ، وَأَمَّا نَفْعُهُ فِي الْآخِرَةِ فَرَدُّهُ
إِلَى اللَّهِ . وَأَعْرِضَ عَنِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِذَلِكَ .

ومن هذا الباب ما يدّعيه بنو سعدٍ شيوخ بني يزيد من
 زُغَبَة أَنهم من وَلَدِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه ؛ وبنو
 سَلَامَة شيوخ بني يَذَلَّتَنَ من تَوْجِينِ أَنهم من سُلَيْمٍ والزَّوَادَة
 شيوخ رِيَّاح أَنهم من أَعْقَابِ الْبَرَامِكَة ؛ وكذا بنو مَهْي أَمرأه
 طِيءٍ بِالْمَشْرِقِ يدَّعون فيما بَلَّغْنَا أَنهم من أَعْقَابِهِمْ ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ
 كَثِيرٌ ؛ وَرِيَّاسَتُهُمْ فِي قَوْمِهِمْ مَائِعَةٌ من ادِّعَاءِ هَذِهِ الْأَنْسَابِ كَمَا
 ذَكَرْنَاهُ ؛ بَلْ تَعَيَّنَ إِنْ يَكُونُوا مِنْ صَرِيحِ ذَلِكَ النَّسَبِ وَأَقْوَى
 عَصِيَّاتِهِ . فَاعْتَبِرْهُ وَاجْتَنِبِ الْمَغَالِطَ فِيهِ . وَلَا تَجْمَلْ مِنْ هَذَا
 الْبَابِ إِلَّا طَائِفَةً مَهْدِيٍّ الْمُوَحِّدِينَ بِنَسَبِ الْعَلَوِيَّةِ ، فَإِنَّ الْمَهْدِيَّ لَمْ
 يَكُنْ مِنْ مَنَبَتِ الرِّيَّاسَةِ فِي هَرْمَةِ قَوْمِهِ ، وَإِنَّمَا رَأْسَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ
 اِشْتِهَارِهِ بِالْعِلْمِ وَالدين ، وَدُخُولِ قِبَائِلِ الْمُصَائِدَةِ فِي دَعْوَتِهِ ؛
 وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْمُنَابِتِ الْمُتَوَسِّطَةِ فِيهِمْ . وَاللَّهُ عَالِمُ
 الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ .

الفصل الثالث عشر

فِي أَنَّ الْبَيْتَ وَالشَّرَفَ بِالْإِصْلَاحِ وَالْحَقِيقَةِ لِأَهْلِ الْعَصْبِيَّةِ
 وَيَكُونُ لغيرهم بِالْمَجَازِ وَالشَّبَهِ

وَذَلِكَ أَنَّ الشَّرَفَ وَالْحَسَبَ إِنَّمَا هُوَ بِالْإِخْلَالِ ؛ وَمَعْنَى الْبَيْتِ
 أَنَّ يَعُدُّ الرَّجُلُ فِي آبَائِهِ أَشْرَافًا مَذْكُورِينَ ، تَكُونُ لَهُ بَوْلَادَتُهُمْ
 إِيَّاهُ وَالْإِنْتِسَابُ إِلَيْهِمْ تَجَلَّةً فِي أَهْلِ جِلْدَتِهِ ، لَمَّا وَقَرَ فِي نُفُوسِهِمْ

من تَجَلَّةِ سَلَفِهِ وَشَرَفِهِمْ بِخِلَالِهِمْ . والناسُ في نَسَائِهِمْ وَتَنَاسُلِهِمْ
مَعَادِينُ ؛ قَالَ ﷺ : «الناسُ معادينُ : خيارُهُمْ في الجاهِلِيَّةِ خيارُهُمْ
في الإسلامِ ، إذا قَفَّهوا» . فمعنى الحَسَبِ راجِعٌ إلى الْأَنْسَابِ .
وقد بَيَّنَّا أَنَّ ثَمَرَةَ الْأَنْسَابِ وفائِدَتُهَا إِنَّمَا هي العَصَبِيَّةُ لِلنَّعْرَةِ
والتَّنَاصُرِ ؛ فحيث تكونُ العَصَبِيَّةُ مَرهُوبَةً وَخَشِيَّةً وَأَلْبَتُ فيها
زَكِيٌّ تُحْمِيُّ تكونُ فائِدَةُ النَسَبِ أَوْضَحَ وَثَمَرَتُهَا أَقْوَى . وَتَعْدِيدُ
الْأَشْرَافِ من الْأَبَاءِ زَائِدٌ في فائِدَتِهَا ؛ فَيَكُونُ الْحَسَبُ وَالشَّرَفُ
أَصْلَيْنِ في أهلِ العَصَبِيَّةِ لَوُجُودِ ثَمَرَةِ النَسَبِ . وَتَفَاوُتُ البيوتِ
في هذا الشَّرَفِ بِتَفَاوُتِ العَصَبِيَّةِ ؛ لِأَنَّهُ يَسْرُهَا . ولا يكونُ
لِلْمُنْفَرِدِينَ من أهلِ الْأَمْصَارِ نَيْتٌ إِلَّا بِالْمَجَازِ ؛ وَإِنْ تَوَهَّمُوهُ
فَزُخْرُفٌ من الدَّعَاوَى . وَإِذَا اعتَبَرْتَ الْحَسَبَ في أهلِ الْأَمْصَارِ ،
وَجَدْتَ مَعْنَاهُ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يُمَدُّ سَلَفًا في خِلَالِ الْخَيْرِ وَخُلَاطَةِ
أَهْلِهِ مع الرُّكُونِ إلى العَافِيَةِ ما أُسْتَطَاعَ ؛ وَهَذَا مُنَايِرٌ لِيَسِرَّ
العَصَبِيَّةُ الَّتِي هي ثَمَرَةُ النَسَبِ وَتَعْدِيدِ الْأَبَاءِ ؛ وَلَكِنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ
حَسَبٌ وَنَيْتٌ بِالْمَجَازِ ، لِمَلَاقَةِ ما فِيهِ من تَعْدِيدِ الْأَبَاءِ الْمُتَعَاقِبِينَ
على طَرِيقَةٍ وَاحِدَةٍ من الْخَيْرِ وَمَسَالِكِهِ ؛ وَلَيْسَ حَسَبًا بِالْحَقِيقَةِ
وعلى الإِطْلَاقِ ؛ وَإِنْ ثَبَتَ أَنَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِمَا بِالْوَضْعِ اللَّغَوِيِّ
فَيَكُونُ من الْمَشْكُوكِ الَّذِي هو في بعضِ مواضعِهِ أَوَّلِي .

وقد يكونُ للبيتِ شَرَفٌ أَوَّلٌ بالعَصَبِيَّةِ وَالْخِلَالِ ثُمَّ يَنْسَلِخُونَ
مِنْهُ لِذَهَابِهَا بِالْخِضَارَةِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَيَخْتَلِطُونَ بِالْغَمَارِ وَيَبْقَى في نفوسِهِمْ
وَسُوسُ ذَلِكَ الْحَسَبِ يَعُدُّونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ من أَشْرَافِ الْبُيُوتَاتِ أَهْلُ

العصائبِ وَلَيْسُوا مِنْهَا فِي شَيْءٍ ، لِذَهَابِ الْعَصِيَّةِ جُمْلَةً . وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ النَّاشِئِينَ فِي بِيوتِ الْعَرَبِ أَوْ الْعَجَمِ لِأَوَّلِ عَهْدِهِمْ مُوسُوسُونَ بِذَلِكَ . وَأَكْثَرُ مَا رَسَخَ الْوَسْوَاسُ فِي ذَلِكَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ . فَإِنَّهُ كَانَ لَهُمْ بَيْتٌ مِنْ أَعْظَمِ بُيُوتِ الْعَالَمِ بِالْمُنْبِتِ :
أَوَّلًا لِمَا تَعَدَّدَ فِي سَلَفِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ لَدُنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، إِلَى مُوسَى صَاحِبِ مِلَّتِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ ؛ ثُمَّ بِالْعَصِيَّةِ ثَانِيًا وَمَا آتَاهُمُ اللَّهُ بِهَا مِنَ الْمُلْكِ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ . ثُمَّ انْسَلَخُوا مِنْ ذَلِكَ أَجْمَعٍ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ ، وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ فِي الْأَرْضِ ، وَأَنْفَرَدُوا بِالْإِسْتِعْبَادِ لِلْكَافِرِ آلَافًا مِنَ السِّنِينَ . وَمَا زَالَ هَذَا الْوَسْوَاسُ مُصَاحِبًا لَهُمْ فَتَجِدُهُمْ يَقُولُونَ : هَذَا هَارُونِي ؛ هَذَا مِنْ نَسْلِ يَوْشَعَ ؛ هَذَا مِنْ عَقَبِ كَالِبَ ؛ هَذَا مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا ؛
مَعَ ذَهَابِ الْعَصِيَّةِ وَرُسُوخِ الدَّلِّ فِيهِمْ مِنْذُ أَثْقَابِ مُتَطَاوِلَةٍ . وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ وَغَيْرِهِمُ الْمُنْقَطِعِينَ فِي أَنْسَابِهِمْ عَنِ الْعَصِيَّةِ يَذْهَبُ إِلَى هَذَا الْهَذْيَانِ .

وقد غلطَ أَبُو الْوَلِيدِ بْنُ رَشْدٍ فِي هَذَا لَمَّا ذَكَرَ الْحَسْبَ فِي كِتَابِ الْخُطَابَةِ مِنْ تَلْخِيصِ كِتَابِ الْمُعَلِّمِ الْأَوَّلِ^(١) . « وَالْحَسْبُ هُوَ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْمٍ قَدِيمٍ نُزُلُهُمْ بِالْمَدِينَةِ » ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِمَا ذَكَرْنَاهُ . وَلَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي يَنْفَعُهُ قَدَمُ نُزُلِهِمْ بِالْمَدِينَةِ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عِصَابَةٌ يُرْهَبُ بِهَا جَانِبُهُ وَتَحْمِلُ غَيْرَهُمْ عَلَى الْقَبُولِ مِنْهُ ؟ فَكَأَنَّهُ

(١) المعلم الأول: أرسطو، وأطلق عليه هذا الاسم الباحثون الأولون من العرب. كما أطلقوا على الفارابي اسم المعلم الثاني.

أطلق الحسب على تعديد الآباء فقط . مع أن الخطابة إنما هي استمالة من توتر استمالتهم وهم أهل الحل والعقد . وأما من لا قدرة له البتة فلا يلتفت إليه ولا يقدر على استمالة أحد ولا يستمال هو . وأهل الأنصار من الحضرة بهذه المثابة ؛ إلا أن ابن رشد ربي في جيل وبلد لم يمارسوا العصبية ولا أنسوا أحوالها ؛ فبقي في أمر البيت والحسب على الأمر المشهور من تعديد الآباء على الإطلاق ، ولم يراجع فيه حقيقة العصبية وسيرها في الخليقة . والله بكل شيء عليم اهـ .

الفصل الرابع عشر

في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بانسابهم

وذلك أننا قدمنا أن الشرف بالأصالة ، والحقيقة إنما هو لأهل العصبية . فإذا اصطنع أهل العصبية قوماً من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي ، والتحموا بهم كما قلناه ، ضرب معهم أولئك الموالي والمصطنعون بنسبهم في تلك العصبية ولبسوا جلدها كأنها عصبيتهم ، وحصل لهم من الانتظام في العصبية مساهمة في نسبها ؛ كما قال ﷺ : « مولى القوم منهم » ؛ وسواء كان مولى رقيقاً أو مولى اصطناع وحلف^(١) ، وليس نسب ولادته بنافع له في تلك

(١) مولى الرق هو العبد يعتقه سيده فيصبح ولاؤه له ، ثم يرثه إذا مات ولم يترك عصبية . ومولى الحلف : الرجل الحر الأصل يتخذ له مولى بعقد صريح ، فيصبح بمنزلة عضو في أسرة مولاه .

العَصَبِيَّةُ ، اذ هي مُبَايِنَةٌ لذلك النسبِ ، وَعَصَبِيَّةٌ ذَلِكَ النسبِ مَفْقُودَةٌ لِذَهَابِ سِرِّهَا عندَ التَّحَامِيهِ بهذا النسبِ الآخرِ ، وَفَقْدَانُهُ أَهْلَ عَصَبِيَّتِهَا ، فَيَصِيرُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَيَنْدَرِجُ فِيهِمْ . فَإِذَا تَعَلَّدَتْ لَهُ الْآبَاءُ فِي هَذِهِ الْعَصَبِيَّةِ كَانَ لَهُ بَيْنَهُمْ شَرَفٌ وَبَيْتٌ عَلَى نِسْبَتِهِ فِي وَلَائِهِمْ وَاصْطِنَاعِهِمْ لَا يَتَجَاوِزُهُ إِلَى شَرَفِهِمْ ، بَلْ يَكُونُ أَذْوَنَ مِنْهُمْ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

وهذا شأنُ الموالي في الدُّوَلِ وَالْخِدْمَةِ كُلِّهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَشْرَفُونَ بِالرُّسُوخِ فِي وِلَاءِ الدُّوَلَةِ وَيَخْدَمَتِهَا ، وَتَعَلُّدِ الْآبَاءِ فِي وِلَايَتِهَا . أَلَا تَرَى إِلَى مَوَالِي الْأَتْرَاكِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَإِلَى بَنِي بَزْمَكٍ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَبَنِي نُوْبَخْتٍ كَيْفَ أَدْرَكُوا الْبَيْتَ وَالشَّرَفَ وَبَنُوا الْجَدَّ وَالْأَصَالََةَ بِالرُّسُوخِ فِي وِلَاءِ الدُّوَلَةِ . فَكَانَ جَعْفَرُ بْنُ يُحْيَى بْنِ خَالِدٍ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ بَيْتًا وَشَرَفًا بِالْإِنْتِسَابِ إِلَى وِلَاءِ الرُّشَيْدِ وَقَوْمِهِ ، لَا بِالْإِنْتِسَابِ فِي الْفُرْسِ . وَكَذَا مَوَالِي كُلِّ دَوْلَةٍ وَخَدَمُهَا إِنَّمَا يَكُونُ لَهُمُ الْبَيْتُ وَالْحَسَبُ بِالرُّسُوخِ فِي وِلَايَتِهَا وَالْأَصَالََةَ فِي اصْطِنَاعِهَا . وَيَضْمَعِلُ نَسَبُهُ الْأَقْدَمُ مِنْ غَيْرِ نَسَبِهَا وَيَبْقَى مُلغًى لَا عِبْرَةَ بِهِ فِي أَصَالَتِهِ وَتَجْدِيدِهِ . وَإِنَّمَا الْمُعْتَبَرُ نِسْبَةُ وِلَايَتِهِ وَاصْطِنَاعِهِ إِذْ فِيهِ سِرُّ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي بِهَا الْبَيْتُ وَالشَّرَفُ ؛ فَكَانَ شَرَفُهُ مُشْتَقًّا مِنْ شَرَفِ مَوَالِيهِ وَبِنَاوِهِ مِنْ بَنَائِهِمْ ، فَلَمْ يَنْفَعَهُ نَسَبُ وِلَادَتِهِ ؛ وَإِنَّمَا بَنَى جَدَّهُ نَسَبُ الْوِلَاءِ فِي الدُّوَلَةِ ، وَلَحْمَةُ الْإِصْطِنَاعِ فِيهَا ، وَالتَّرْبِيَّةُ . وَقَدْ يَكُونُ نَسَبُهُ الْأَوَّلُ فِي لَحْمَةِ عَصَبِيَّتِهِ وَدَوْلَتِهِ ، فَإِذَا ذَهَبَتْ وَصَارَ وِلَاؤُهُ وَاصْطِنَاعُهُ فِي أُخْرَى لَمْ تَنْفَعَهُ الْأَوَّلَى

لِذَهَابِ عَصَبِيَّتِهَا . وانتفعَ بِالثَّانِيَةِ لوجودِهَا . وهذا حالُ بني بَرَمَكْ ،
إِذِ الْمُنْقُولُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ تَيْتٍ فِي الْفُرسِ مِنْ سِدَّةِ بُيُوتِ النَّارِ
عندهم ، ولما صاروا إلى وِلاءِ بني الْعَبَّاسِ لم يكنْ بِالْأَوَّلِ اعْتِبَارُ ،
وإنَّما كانَ شَرَفُهُمْ مِنْ حَيْثُ وَلايَتُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ واضْطِنَاعُهُمْ . وما
يسوى هذا فَوْنُهُمْ تُوسُّوسُ بِهِ النُّفُوسُ الْجَائِحَةُ وَلَا حَقِيقَةُ لَهُ .
وَالْوَجُودُ شَاهِدٌ بِمَا قُلْنَاهُ . ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾^(١) . وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَعْلَمُ .

الفصل الخامس عشر

في أن نملية الصب في العقب الواحد أربعة آباء.

إِعْلَمْ أَنَّ الْعَالَمَ الْمُتَصَرِّيَّ بِمَا فِيهِ كَائِنٌ فَايِدٌ ، لَا مِنْ ذَوَاتِهِ
وَلَا مِنْ أَحْوَالِهِ . فَالْمُكُونَاتُ مِنَ الْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَجَمِيعِ الْحَيَوَانَاتِ :
الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ ، كَائِنَةٌ فَايِدَةٌ بِالْمَعَايِنَةِ . وَكَذَلِكَ مَا يَعْرِضُ لَهَا
مِنَ الْأَحْوَالِ ، وَخُصُوصاً الْإِنْسَانِيَّةِ . فَالْعُلُومُ تَنْشَأُ ثُمَّ تُدْرَسُ ،
وَكَذَا الصَّنَائِعُ وَأَمْثَالُهَا . وَالْحَسْبُ مِنَ الْعَوَاضِ أَلَّتِي تَعْرِضُ
لِلْأَدَمِيِّينَ ؛ فَهُوَ كَائِنٌ فَايِدٌ لَا مَحَالَةَ . وَلَيْسَ يَوْجَدُ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ
الْخَلْقَةِ شَرَفٌ مُتَّصِلٌ فِي آبَائِهِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَيْهِ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ
ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَرَامَةً بِهِ وَحَيَاةٌ عَلَى السَّرِّ فِيهِ . وَأَوَّلُ كُلِّ

(١) مِنْ آيَةِ (١٣) مِنْ سُورَةِ الْحَجَرَاتِ .

شَرَفٍ خَارِجِيَّةٌ^(١) كما قيل ، وهي الخروجُ عن الرِياسَةِ والشَّرَفِ
إلى الضِّعَةِ والإِبتدالِ وعدمِ الحَسَبِ ، ومعناه أن كلَّ شَرَفٍ
وحَسَبٍ قَدَمُهُ سَابِقٌ عَلَيْهِ ، شَأْنُ كُلِّ مُحَدِّثٍ .

ثم إنَّ نِهَايَتَهُ أَرْبَعَةُ آبَاءَ ، وذلك أن بَنيَ الحِجْدِ عَالَمٌ بِمَا عَانَاهُ
فِي بِنَائِهِ وَحَافِظٌ عَلَى الْخِلَالِ أَلْتِي هِيَ أَسْبَابُ كَوْنِهِ وَبَقَائِهِ .
وَابْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ مُبَاشِرٌ لِأَبِيهِ ، قَدْ سَمِعَ مِنْهُ ذَلِكَ وَأَخَذَهُ عَنْهُ ،
إِلَّا أَنَّهُ مُقَصِّرٌ فِي ذَلِكَ تَقْصِيرَ السَّامِعِ بِالشَّيْءِ عَنِ الْمَعِينِ لَهُ . ثم
إِذَا جَاءَ الثَّالِثُ كَانَ حَظُّهُ الْاِقْتِفَاءُ وَالتَّقْلِيدُ خَاصَّةً ، فَقَصَّرَ عَنِ
الثَّانِي تَقْصِيرَ الْمُقَلِّدِ عَنِ الْمُجْتَهِدِ . ثم إِذَا جَاءَ الرَّابِعُ قَصَّرَ عَنِ
طَرِيقَتِهِمْ جَمَلَةً وَأَضَاعَ الْخِلَالَ الْخَافِظَةَ لِبِنَاءِ مُجِدِّهِمْ وَاحْتَقَرَهَا ،
وَتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ الْبُيَانُ لَمْ يَكُنْ يُعَانَاةً وَلَا تَكْلُفٍ وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ
وَجَبَ لَهُمْ مِنْذُ أَوَّلِ النِّشَاطِ بِمَجَرَّدِ انْتِسَائِهِمْ ، وَلَيْسَ بِعِصَابَةٍ وَلَا
بِخِلَالٍ ، لَمَا يَرَى مِنَ التَّجَلُّةِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَلَا يَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ
حُدُوثُهَا وَلَا سَبَبُهَا ، وَيَتَوَهَّمُ أَنَّهُ النِّسْبُ فَقَطْ ؛ فَيَرِبُأُ بِنَفْسِهِ عَنِ
أَهْلِ عَصَبِيَّتِهِ ، وَيَرَى الْفَضْلَ لَهُ عَلَيْهِمْ وَثُوقًا بِمَا رُبِّيَ فِيهِ مِنْ
اسْتِتْبَاعِهِمْ ، وَجَهْلًا بِمَا أَوْجَبَ ذَلِكَ الْاسْتِتْبَاعُ مِنَ الْخِلَالِ أَلْتِي
مِنْهَا التَّوَاضُّعُ لَهُمْ ، وَالْاِخْذُ بِمَجَامِعِ قُلُوبِهِمْ . فَيَحْتَقِرُهُمْ بِذَلِكَ ؛
فَيَنْغِيصُونَ عَلَيْهِ ، وَيَحْتَقِرُونَهُ وَيَدِيلُونَ مِنْهُ^(٢) سِوَاهُ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ
الْأَنْبِتِ ، وَمِنْ فُرُوعِهِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ الْعَقَبِ لِلْاِذْعَانِ لِعَصَبِيَّتِهِمْ كَمَا

(١) الخارجي من يسود بنفسه من غير أن يكون له قدم في السيادة أو يكون شجاعاً وهو ابن

جبان .

(٢) بمعنى ينتصرون لغيره ليتغلب عليه . لأن معنى الأدلة : الغلبة .

قُلْنَاهُ، بعد الوثوق بما يَرْضُونَهُ من خِلالِهِ، فتنمو فروعُ هذا وتذوي فروعُ الْأَوَّلِ، وينهدمُ بناءُ بَيْتِهِ. هذا في الملوكِ؛ وهكذا في بُيُوتِ القبائلِ والأُمراءِ وَأَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ أَجْمَعٍ؛ ثم في بُيُوتِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ إِذَا انْخَطَّتْ بُيُوتٌ نَشَأَتْ بُيُوتٌ أُخْرَى من ذَلِكَ النَسَبِ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١﴾

واشْتِراطُ الْأَرْبَعَةِ فِي الْأَحْسَابِ إِنَّمَا هُوَ فِي الْغَالِبِ وَإِلَّا فَقَدْ يَدْرُؤُ الْبَيْتُ من دُونِ الْأَرْبَعَةِ وَيَتَلَاشَى وَيَنْهَدِمُ. وقد يَتَّصِلُ أَمْرُهَا إِلَى الْخَامِسِ وَالسَّادِسِ، إِلَّا أَنَّهُ فِي انْخِطَاطٍ وَذَهَابٍ. واعتبارُ الْأَرْبَعَةِ من قَبْلِ الْأَجْيَالِ الْأَرْبَعَةِ بَانٍ؛ ومباشرُ له؛ ومُتَلَدٍّ؛ وهادمٌ. وهو أَقْلُ ما يُمكنُ. وقد اعتُبرتِ الْأَرْبَعَةُ في نِهَايةِ الْحَسَبِ في بابِ المدحِ والثناءِ. قالَ ﷺ: «إِنَّمَا الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنِ الْكَرِيمِ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ»، إِشَادَةً إِلَى أَنَّهُ بَلَغَ الْغَايَةَ من المجدِّ. وفي التَّورَةِ ما معناه: أَنَا اللَّهُ رَبُّكَ طَائِقٌ^(٢) غَيُورٌ مُطَالِبٌ بِذُنُوبِ الْآبَاءِ لِلْبَنِينَ عَلَى الثَّوَالِثِ وَعَلَى الرَّوَابِعِ وهذا يدلُّ على أَنَّ الْأَرْبَعَةَ الْأَعْقَابَ غَايَةً فِي الْأَنْسَابِ وَالْحَسَبِ.

ومن كِتَابِ الْأَغَانِي فِي أَخْبَارِ عَزِيفِ الْعَوَانِي أَنَّ كِسْرَى قَالَ لِلنُّعْمَانِ: هَلْ فِي الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ تَشْرُفُ عَلَى قَبِيلَةٍ. قالَ نعم؛ قالَ بَأَيِّ

(١) سورة فاطر: ١٦ و ١٧.

(٢) طائِقٌ: قَادِرٌ.

شيء؟ قال من كان له ثلاثة آباء مُتَوَالِيَةٍ رؤساء، ثم اتصل ذلك
بكمال الرابع، فالتبّت من قبيلته؛ وَطَلَبَ ذلك فلم يجده إلا في
الْحَذِيفَةَ بْنِ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ، وهم بيت قيس، وآل ذي الجدين
بيت شيبان، وآل الأشعث بن قيس من كندة، وآل حاجب
ابن زُرَادَةَ، وآل قيس بن عاصم الْمُنَقَرِيّ من بني تميم، فجمع
هؤلاء الرهطَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ من عشائِرِهِمْ وأَقْعَدَ لَهُمُ الْحُكَّامَ وَالْعُدُولَ.
فقام حَذِيفَةُ بْنُ بَدْرِ، ثُمَّ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ لِقَرَابَتِهِ مِنَ النُّعْمَانِ،
ثُمَّ يَسْطَامُ بْنُ قَيْسٍ بْنِ شَيْبَانَ، ثُمَّ حَاجِبُ بْنُ زُرَادَةَ، ثُمَّ قَيْسُ
ابْنِ عَاصِمٍ، وخطبوا ونثروا. فقال كسرى: كلُّهُمْ سَيِّدٌ يَصْلُحُ
لمَوْضِعِهِ. وكانت هذه الْبُيُوتَاتُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْعَرَبِ بَعْدَ بَنِي
هَاشِمٍ، وَمَعَهُمُ بَيْتُ بَنِي الذُّبْيَانِ مِنْ بَنِي الْحَرْثِ بْنِ كَعْبٍ
الْيَمَنِيِّ. وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْأَزْبَمَةَ الْآبَاءَ نَهَايَةُ فِي الْحَسَبِ.
وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الفصل السادس عشر

ففي أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب من سواها

اعلم أنه لما كانت الْبَدَاوَةُ سَبَبًا فِي الشَّجَاعَةِ كَمَا قُلْنَا فِي الْمَقْدَمَةِ
الثَّالِثَةِ^(١)، لَا جَرَمَ كَانَ هَذَا الْجِيلُ الْوَحْشِيُّ أَشَدَّ شَجَاعَةً مِنَ الْجِيلِ
الْآخِرِ، فَهَمُ أَقْدَرُ عَلَى التَّغْلِبِ وَانْتِزَاعِ مَا فِي أَيْدِي سَوَاهِمٍ مِنْ

(١) ورد عنوان: «فصل في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضرة» وكان ترتيبه:
«الفصل الخامس» فيكون الصواب هنا: «المقدمة الخامسة».

الأمم ؛ بل الجيل الواحد تختلف أحواله في ذلك باختلاف الأعصار .
فكلما نزلوا الأرياف وتفنقوا^(١) النعيم وألفوا عوائد الخصب في
المعاش والنعيم ، نقص من شجاعتهم بمقدار ما نقص من توحشهم
وبداوتهم . واعتبر ذلك في الحيوانات المجهمة بدواجن الطباء والبقر
الوحشية والحمر إذا زال توحشها بمخالطة الأدميين وأخصب عيشها ،
كيف يختلف حالها في الانتهاض^(٢) والشدق حتى في مشيتها وحسن
أدبها ؛ وكذلك الأديمي المتوحش إذا أُنس وألف . وسببه أن
تكون السجايا والطباع إنما هو عن المألوفات والعوائد . وإذا كان
الغلب للأمم إنما يكون بالإقدام والبسالة فمن كان من هذه
الأجيال أعرق في البداوة وأكثر توحشاً كان أقرب إلى التغلب
على سواه إذا تقاربا في المدد وتكافأ في القوة والمصيبة . وانظر
في ذلك شأن مضر مع من قبلهم من حمير وكمهلان السابقين إلى
الملك والنعيم ، ومع ربيعة المتوطنين أرياف العراق ونعيمه ، لما
بقي مضر في بداوتهم وتقدمهم الآخرون إلى خصب العيش
وغضارة^(٣) النعيم ، كيف أزهقت البداوة حدتهم في التغلب ،
فغلبوهم على ما في أيديهم وانتزعوه منهم . وهذا حال بني طيء
وبني عاير بن صعصعة وبني سليم بن منصور من بعدهم ، لما
تأخروا في باديتهم عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يتلبسوا بشيء
من دنياهم ، كيف أمسكت حال البداوة عليهم قوة عصبيتهم

(١) تفنق: تنعم ؛ تأنق .

(٢) الانتهاض: القيام بالأمر .

(٣) الغضارة: النعمة والخصب (قاموس) .

ولم تُخْلِفْهَا ^(١) مذاهبُ الترفِ حتَّى صاروا أَغْلَبَ على الأَمْرِ منهم . وكذا كلُّ حيٍّ من العَرَبِ يَلي نَعِيماً وَعَيْشاً يَخْصِباً دُونَ الحَيِّ الآخر . فانَّ الحَيَّ المُتَبَدِّي ^(٢) يَكُونُ أَغْلَبَ لَهُ وَأَقْدَرَ عَلَيْهِ إِذَا تَكَافَأَ فِي القُوَّةِ والعَدَدِ . سُنَّةُ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ .

الفصل السابع عشر

في أن الغلبة التي تجري اليها العصبية هي الملك

وذلك لِأَنَّا قَدَّمْنَا أَنَّ العَصَبِيَّةَ بِهَا تَكُونُ الحِمَايَةُ وَالْمُدَافَعَةُ وَالْمُطَالَبَةُ وَكُلُّ أَمْرٍ يُجْتَمَعُ عَلَيْهِ ؛ وَقَدَّمْنَا أَنَّ الْأَدِمِّيْنَ بِالطَّبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَحْتَاجُونَ فِي كُلِّ أَجْتِمَاعٍ إِلَى وَازِعٍ وَحَاكِمٍ يَزْعُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ ؛ فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَغَلِّباً عَلَيْهِمْ بِتِلْكَ العَصَبِيَّةِ ، وَإِلَّا لَمْ تَتِمَّ قُدْرَتُهُ عَلَى ذَلِكَ . وَهَذَا التَّغْلِبُ هُوَ الْمُلْكُ وَهُوَ أَمْرٌ زَائِدٌ عَلَى الرِّئَاسَةِ ؛ لِأَنَّ الرِّئَاسَةَ إِنَّمَا هِيَ سُودْدٌ وَصَاحِبُهَا مُتَبَوِّعٌ ، وَلَيْسَ لَهُ عَلَيْهِمْ قَهْرٌ فِي أَحْكَامِهِ ؛ وَأَمَّا الْمُلْكُ فَهُوَ التَّغْلِبُ وَالْحُكْمُ بِالْقَهْرِ . وَصَاحِبُ العَصَبِيَّةِ إِذَا بَلَغَ إِلَى رَتْبَةٍ طَلَبَ مَا فَوْقَهَا ؛ فَإِذَا بَلَغَ رُتْبَةَ السُّودْدِ وَالِاتِّبَاعِ وَوَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى التَّغْلِبِ وَالْقَهْرِ لَا يَتْرُكُهُ لِأَنَّهُ مَطْلُوبٌ لِلنَّفْسِ . وَلَا يَتِمُّ اقْتِدَارُهَا عَلَيْهِ إِلَّا

(١) بمعنى : لم تضعفها .

(٢) المتبدِّي : المقيم في البادية .

بِالْمَصَبِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ بِهَا مَتْبُوعًا . فَالْتَّغْلُبُ الْمُلْكِيُّ غَايَةً
لِلْمَصَبِيَّةِ كَمَا رَأَيْتَ . ثُمَّ إِنَّ الْقَبِيلَ الْوَاحِدَ وَإِنْ كَانَتْ فِيهِ بِيُوتَاتُ
مُتَفَرِّقَةً وَعَصَبِيَّاتُ مُتَعَدِّدَةً ، فَلَا بُدَّ مِنْ عَصَبِيَّةٍ تَكُونُ أَقْوَى مِنْ
جَمِيعِهَا ، تَغْلِبُهَا وَتَسْتَتِيعُهَا وَتَلْتَجِمُ جَمِيعَ الْعَصَبِيَّاتِ فِيهَا ، وَتَصِيرُ
كَأَنَّهَا عَصَبِيَّةٌ وَاحِدَةٌ كَبِيرَةٌ ؛ وَإِلَّا وَقَعَ الْإِفْتِرَاقُ الْمُنْفِضِي إِلَى
الْإِخْتِلَافِ وَالتَّنَازُعِ : ﴿ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ
لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ ^(١) .

ثُمَّ إِذَا حَصَلَ التَّغْلُبُ بِتِلْكَ الْعَصَبِيَّةِ عَلَى قَوْمِهَا طَلَبَتْ بِطَبْعِهَا
التَّغْلِبَ عَلَى أَهْلِ عَصَبِيَّةٍ أُخْرَى بَعِيدَةٍ عَنْهَا . فَإِنْ كَافَأَتْهَا أَوْ
مَانَعَتْهَا كَانُوا أَقْتَالًا وَأَنْظَارًا ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا التَّغْلِبُ عَلَى
حَوَازِئِهَا وَقَوِيَّهَا ، شَأْنُ الْقِبَائِلِ وَالْأُمَمِ الْمُفْتَرِقَةِ فِي الْعَالَمِ . وَإِنْ
غَلِبَتْهَا وَاسْتَتَبَعَتْهَا أَلْتَحَمَتْ بِهَا أَيْضًا ، وَزَادَتْهَا قُوَّةً فِي التَّغْلِبِ إِلَى
قُوَّتِهَا ، وَطَلَبَتْ غَايَةً مِنَ التَّغْلِبِ وَالتَّحْكُمِ أَعْلَى مِنَ الْغَايَةِ الْأُولَى
وَأَبْعَدَ . وَهَكَذَا دَائِمًا حَتَّى تَكْفِيَ بِقُوَّتِهَا قُوَّةَ الدَّوْلَةِ : فَإِنْ
أَذْرَكَتِ الدَّوْلَةَ فِي هَرَمِهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مَمَانِعٌ مِنْ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ
أَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ اسْتَوَلَتْ عَلَيْهَا وَأَنْتَزَعَتْ الْأَمْرَ مِنْ يَدِهَا ، وَصَارَ
الْمُلْكُ أَجْمَعُ لَهَا ؛ وَإِنْ انْتَهَتْ إِلَى قُوَّتِهَا وَلَمْ يَقَارِنْ ذَلِكَ هَرَمُ الدَّوْلَةِ ،
وَإِنَّمَا قَارَنَ حَاجَتُهَا إِلَى الْإِسْتِظْهَارِ بِأَهْلِ الْعَصَبِيَّاتِ انْتِظَمَتِ الدَّوْلَةُ
فِي أَوْلِيَائِهَا تَسْتَظْهِرُ بِهَا عَلَى مَا يَبِينُ مِنْ مَقَاصِدِهَا . وَذَلِكَ مُلْكُ
آخَرُ دُونَ الْمُلْكِ الْمُسْتَدِّ ، وَهُوَ كَمَا وَقَعَ لِلتُّرْكِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ ،

وَلِصَنَاهَا وَزَنَاتَةٍ مَعَ كُتَامَةٍ ، وَلِابْنِي تَخْدَانِ مَعَ مَلُوكِ الشَّيْعَةِ مِنَ الْعَلَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ .

فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ الْمُلْكَ هُوَ غَايَةُ الْعَصِيَّةِ وَأَنَّهَا إِذَا بَلَغَتْ إِلَى غَايَتِهَا حَصَلَ لِلْقَبِيلَةِ الْمُلْكُ ، إِمَّا بِالِاسْتِبْدَادِ أَوْ بِالْمُظَاهَرَةِ عَلَى حَسَبِ مَا يَسْمُوهُ الْوَقْتُ الْمَقَارِنُ لِذَلِكَ . وَإِنْ عَاقَبَهَا عَنْ بُلُوغِ الْغَايَةِ عَوَاقِقُ كَمَا نُبَيِّنُهُ وَقَعَتْ فِي مَقَامِهَا إِلَى أَنْ يَقْضِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ .

الفصل الثامن عشر

فِي أَنَّ مِنْ عَوَاقِقِ الْمُلْكِ حُصُولُ التَّرَفِّ وَانْغَمَاسُ الْقَبِيلِ فِي النِّعَمِ

وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْقَبِيلَ إِذَا غَلَبَتْ بِعَصِيَّتِهَا بَعْضَ الْقَلْبِ اسْتَوْلَتْ عَلَى النِّعْمَةِ بِمَقْدَارِهِ وَشَارَكَتْ أَهْلَ النِّعَمِ وَالْخَصْبِ فِي نِعْمَتِهِمْ وَخَصْبِهِمْ ، وَضَرَبَتْ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ بِسَهْمٍ وَحِصَّةٍ بِمَقْدَارِ غَلَبِهَا وَاسْتَظْهَارِ الدَّوْلَةِ بِهَا . فَإِنْ كَانَتْ الدَّوْلَةُ مِنَ الْقُوَّةِ بَحِثُ لَا يَطْمَعُ أَحَدٌ فِي أَنْتِزَاعِ أَمْرِهَا وَلَا مِشَارَكَتِهَا فِيهِ ، أَذْعَنَ ذَلِكَ الْقَبِيلُ لَوْلَايَتِهَا ، وَالْقُنُوعُ بِمَا يَسُوِّغُونَ مِنْ نِعْمَتِهَا وَيَشْرَكُونَ^(١) فِيهِ مِنْ جِبَايَتِهَا ، وَلَمْ تَسْمُ أَمَالُهُمْ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَنَازَعِ الْمُلْكِ وَلَا أَسْبَابِهِ ، إِنَّمَا هِمَّتُهُمُ النِّعْمُ وَالْكَسْبُ ، وَخَصْبُ الْعَيْشِ وَالسَّكُونُ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ إِلَى الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ وَالْأَخْذِ بِمَذَاهِبِ الْمُلْكِ فِي الْمَبَانِي وَالْمَلَابِسِ ،

(١) شَرَكْتُهُ فِي الْبَيْعِ وَالْمِيرَاثِ وَالْأَمْرِ ، أَشْرَكَهُ ، إِذَا صَرَتْ لَهُ شَرِيكاً (قَامُوسٌ) .

والاستكثار من ذلك والتأثُّق فيه بمقدار ما حصلَ من الرياشِ
 والتَّرفِ وما يدعو اليه من توابِعِ ذلك . فتذهبُ خشونةُ البداوةِ
 وتضعُفُ المصيبةُ والبسالةُ ، ويتنعمونَ فيما آتاهم الله من البسطةِ .
 وتنشأُ بنوهم وأعقابُهم في مثل ذلك من الترفُّع عن خدمةِ أنفسهم
 وولاية حاجاتهم ، ويستكفونَ عن سائر الأمور الضروريةِ في
 المصيبةِ ، حتى يصيرَ ذلك خُلُقاً لهم وسجيةً فتنفُصُ عصبيتهم
 وبسالتهم في الأجيال بعدهم يتعاقبها إلى أن تنقرضَ العصبيةُ ،
 فيأذنونَ بالانقراضِ . وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكونُ إشرافهم على
 الفناء فضلاً عن الملكِ ؛ فإنَّ عوارِضَ الترفِّ والفرقِ في النعيمِ كاسرٌ
 من سورةِ العصبيةِ التي بها التعلُّبُ . وإذا انقرضتِ العصبيةُ قصَّرتِ
 القبيلُ عن المدافعةِ والحماية فضلاً عن المطالبةِ ، والتهمَّتْ الأُممُ
 سواهم . فقد تبينَ أنَّ الترفَّ من عوائقِ الملكِ . واللهُ يُؤتي مُلكه
 مَنْ يَشاءُ .

الفصل التاسع عشر

ففي أن من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم

وسببُ ذلك أنَّ المذلةَ والانقيادَ كإيرانِ لسورةِ العصبيةِ
 وشِدَّتْها ؛ فإنَّ انقيادهم ومذلتهم دليلٌ على فقدانها ؛ فإِرمُوا للمذلةِ
 حتى عجزوا عن المدافعةِ ، ومن عجزَ عن المدافعةِ فأولى أن يكونَ
 عاجزاً عن المقاومةِ والمطالبةِ . واعتبر ذلك في بني إسرائيلَ لما

دعاهم موسى عليه السلام إلى مُلكِ الشام ؛ وأخبرهم بأن الله قد كتبَ لهم مُلكَها ، كيف عجزوا عن ذلك ، وقالوا : ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا ﴾ ^(١) ، أي يُخْرِجَهُم اللهُ تعالى منها بِضَرْبٍ مِنْ قُدْرَتِهِ غَيْرِ عَصِيَّتِنَا وَتَكُونُ مِنْ مُعْجَزَاتِكَ يَا مُوسَى . ولما عَزَمَ عَلَيْهِمْ لَحْجُوا وَارْتَكَبُوا الْعِصْيَانَ وَقَالُوا لَهُ : ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا ﴾ ^(٢) . وما ذلك إِلَّا لِمَا آَنَسُوا مِنْ انْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمَقَاوِمَةِ وَالْمَطَالِبَةِ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْآيَةُ ^(٣) ، وما يُوَثِّرُ فِي تَفْسِيرِهَا ؛ وَذَلِكَ بِمَا حَصَلَ فِيهِمْ مِنْ خُلُقِ الْإِنْتِقَادِ وَمَا رَغُوا مِنَ الذَّلِيلِ لِلْقَبْطِ أَحْقَابًا ، حَتَّى ذَهَبَتِ الْعَصِيَّةُ مِنْهُمْ مُجْلَةً ؛ مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا حَقَّ الْإِيمَانِ بِمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مُوسَى مِنْ أَنَّ الشَّامَ لَهُمْ ، وَأَنَّ الْعَامِلَةَ الَّذِينَ كَانُوا بِأَرْبَعَاءَ فَرِيَسَتُهُمْ يُحْكَمُ مِنَ اللَّهِ قُدْرَةُ لَهُمْ ؛ فَأَقْصَرُوا عَنْ ذَلِكَ ، وَعَجَزُوا تَعْوِيلًا عَلَى مَا عَلِمُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَجْزِ عَنِ الْمَطَالِبَةِ ، لَمَّا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ خُلُقِ الْمَذَلَّةِ ، وَطَعَنُوا فِيهَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَمَا أَمَرَهُمْ بِهِ . فَعَاقَبَهُمُ اللهُ بِالنَّيْبِ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ تَاهُوا فِي قَفَرٍ مِنَ الْأَرْضِ مَا بَيْنَ الشَّامِ وَمِصْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَأْوُوا فِيهَا لِعُمُرَانٍ ، وَلَا تَزَلُوا مِصْرًا وَلَا خَالَطُوا بَشَرًا ، كَمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ لِنِغْلَظَةِ الْعَامِلَةِ بِالشَّامِ وَالْقَبْطِ بِمِصْرَ عَلَيْهِمْ ، لِعَجْزِهِمْ عَنْ مَقَاوِمَتِهِمْ كَمَا زَعَمُوهُ . وَيُظْهَرُ مِنْ مَسَاقِ الْآيَةِ

(١) آية ٢٢ من سورة المائدة .

(٢) من آية ٢٤ من سورة المائدة .

(٣) أنظر آية ٦ ، من سورة المائدة . واختتمت هذه القصّة في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين
خَرَجُوا من قبضة الدلّ والقهر والقوة، وتخلّقوا به وأفسدوا من
عصبيتهم حتى نشأ في ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف
الأحكام والقهر ولا يُسامُ بالمذلة؛ فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى
اقتدروا بها على المطالبة والتغلب. ويظهر لك من ذلك أن
الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر.
سبحان الحكيم العليم.

وفي هذا أوضح دليل على شأن العصبية، وأنها هي التي
تكونُ بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة، وأن من فقدَها
عجزَ عن جميع ذلك كله. ويلحقُ بهذا الفصل فيما يوجبُ المذلة
للقبيل شأنُ المغارم والضرائب. فإن القبيل الغارمين ما أعطوا
اليَدَ من ذلك حتى دُضُوا بالمذلة فيه؛ لأن في المغارم والضرائب
ضيمًا ومذلة لا تحتلها النفوسُ الأيية إلا إذا استهوتته عن
القتل والتلف، وأن عصبيتها حينئذٍ ضعيفة عن المدافعة والحماية؛
ومن كانت عصبيتها لا تدفعُ عنه الضيم فكيف له بالمقاومة
والمطالبة وقد حصل له الانقياد للدلّ، والمذلة عاقبة كما قدّمناه.
ومنه قوله ﷺ في شأن الحرث لما رأى سكة الحرث في بعض
دور الأنصار: «ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الدلّ»، فهو
دليل صريح على أن المغرم موجب للمذلة^(١). هذا إلى ما يصحبُ

(١) لأن المشتغلين بالزراعة كانوا يدفعون غالباً الخراج للدولة، وهناك حديث شائع على
السنة العامة: «إذا غضب الله على قوم أسكنهم القرى أو المزارع» وهو مثل قديم سببه أن الدولة
العثمانية التي كانت تسيطر على بلادنا كان جل اعتمادها على الضرائب الزراعية.

ذُلُّ المغارم من خُلُقِ المكرِ والحديعةِ بسببِ مَلَكَةِ القهرِ . فإذا
رَأَيْتَ القبيلَ بالمغارمِ في رِبْقَةٍ من الذِّلِّ فلا تَطْمَعَنَّ لها بُمْلَكِ
آخِرِ الدهرِ .

ومن هنا يَتَبَيَّنُ لك غَلَطُ من يَزْعُمُ أن زَنَاتَةَ بالمغربِ كانوا
شَاوِيَةً يُوَدُّونَ المغارِمَ لمن كان على عَهْدِهِم من المُلُوكِ . وهو غَلَطٌ
فَاحِشٌ كما رَأَيْتَ ؛ إذ لو وَقَعَ ذلك لما اسْتَتَبَ لهم مُلْكٌ ولا
تَمَتَّ لهم دَوْلَةٌ . وانظر فيما قاله شَهْرَبَرَاذُ ملكَ البابِ لعبدِ الرحمنِ
ابنِ ربيعةَ لما أَطْلَّ عليه ، وسألَ شَهْرَبَرَاذُ أَمَانَهُ على أن يكونَ له ،
فقال : أنا اليومَ منكم يدي في أيديكم ، وصَعَرِي معكم فرحاً بكم ،
وباركَ الله لنا ولكم ، وجزَيْنَا اليكم النصرَ لكم والقيامُ بما
تُحِبُّونَ ، ولا تُذِلُّونَا بالجزيةِ فتوهنونا لعدوِّكم . فاعتَبَرْ هذا فيما
قلناه فَإِنَّهُ كافٍ .

الفصل العشرون

في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحديثة وبالعكس

لَمَّا كَانَ المُلْكُ طَبِيعِيًّا لِلإِنْسَانِ لِمَا فِيهِ من طَبِيعَةِ الاجْتِمَاعِ كما
قلناه ، وكان الإنسانُ أَقْرَبَ إلى خِلَالِ الخيرِ من خِلَالِ الشرِّ بأصلِ
فِطْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ النَاطِقَةِ العَاقِلَةِ ، لِأَنَّ الشرَّ إِنَّمَا جَاءَهُ من قِبَلِ القُوَى
الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي فِيهِ ، وَأَمَّا من حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ فَهُوَ إلى الخيرِ
وخلاله أَقْرَبُ ، وَالْمُلْكُ وَالسِّيَاسَةُ إِنَّمَا كَانَا له من حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ،

لأنها خاصة للإنسان لا للحيوان ؛ فإذا خلال الخير فيه هي التي
تناسب السياسة والملك ، إذ الخير هو المناسب للسياسة . وقد
ذكرنا أن المجد له أصل ينبني عليه ، وتحقق به حقيقة وهو العصبية
والعشيرة ، وفرع يُتم وجوده ويكملوه وهو الخلال . وإذا كان الملك
غاية للعصبية فهو غاية لفروعها وامتدادها ، وهي الخلال ؛ لأن
وجوده دون امتداداته كوجود شخص مقطوع الأعضاء أو ظهوره
عزياً بين الناس . وإذا كان وجود العصبية فقط من غير انتحال
الخلال الحميدة نقصاً في أهل البيوت والأحساب ، فما ظنك بأهل
الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب ؟

وأيضاً فالسياسة والملك هي كفالة للخلق ، وخلافة لله في
العباد لتنفيذ أحكامه فيهم ؛ وأحكام الله في خلقه وعباده إنما هي
بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع ؛ وأحكام البشر إنما
هي من الجهل والشر والفساد بخلاف قدرة الله سبحانه وقدره ، فإنه
فاعل للخير والشر معاً ومقدرهما إذ لا فاعل سواه . فن حصلت
له العصبية الكفيلة بالقدرة وأورست منه خلال الخير المناسبة
 لتنفيذ أحكام الله في خلقه فقد تهيأ للخلافة في العباد وكفالة
الخلق ، ووُجدت فيه الصلاحية لذلك .

وهذا البرهان أوثق من الأول وأصح مبنى . فقد تبين أن
خلال الخير شاهدة بوجود الملك لمن وُجدت له العصبية . فإذا نظرنا
في أهل العصبية ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي
والأهم ، فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفو

عن الزلات ، والإحتيال من غير القادر ، والقرى للضيوف ، وحمل الكل^(١) وكسب المعلم ، والصبر على المكاره وألوفاء بالعهد ، وبذل الأموال في صون الأعراض وتمظيم الشريعة وإجلال العلماء الحاملين لها ، والوقوف عندما يحدوثة لهم من فعل أو ترك وحسن الظن بهم ، واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم ، ورغبة الدعاء منهم ، والحياء من الأكابر والمشايخ وتوقيرهم وإجلالهم ، والإنقياد إلى الحق مع الداعي إليه ، وإنصاف المستضعفين من أنفسهم ، والتبذل^(٢) في أحوالهم ، والانقياد للحق والتواضع للمسكين ، واستماع شكوى المستغيثين ، والتدين بالشرائع والعبادات ، والقيام عليها وعلى أسباها والتجاني عن القدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثال ذلك ، علمنا أن هذه خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم ، أو على العموم ، وأنه خير ساقه الله تعالى إليهم مناسيب لعصبيتهم وغلبيهم ، وليس ذلك سدى فيهم ، ولا وجد عبثاً منهم ؛ والمملك أنسب المراتب والخيرات لعصبيتهم ؛ فعلمنا بذلك أن الله تأذن لهم بالمملك وساقه إليهم . وبالعكس من ذلك إذا تأذن الله بانقراض المملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الذائل ، وسلوك طرقها ؛ ففقد الفضائل السياسية منهم جملة ، ولا تزال في انتقاص إلى

(١) الكل : البيتيم ، العيّل على غيره ، من لا يقدر على القيام بشؤون نفسه (قاموس) .

(٢) التبذل : الذي يلي العمل بنفسه ، والتبذل ترك التزيّن والتهيوء بالهيئة الحسنة على جهة

التواضع .

أَنْ يُخْرِجَ الْمَلِكُ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَيَتَبَلَّلَ بِهِ سِوَاهُمْ لِيَكُونَ نَعِيًّا عَلَيْهِمْ فِي سَلْبٍ مَا كَانَ اللَّهُ قَدْ آتَاهُمْ مِنَ الْمَلِكِ ، وَجَعَلَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْخَيْرِ : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ ^(١) . وَاسْتَقْرَى . ذَلِكَ وَتَبَعَهُ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ تَجِدُ كَثِيرًا مِمَّا قَلْنَاهُ وَرَسَمْنَاهُ . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ .

وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ خِلَالِ الْكَمَالِ الَّتِي يَتَنَاقَسُ فِيهَا الْقَبَائِلُ أُولُو الْعَصْبِيَّةِ - وَتَكُونُ شَاهِدَةً لَهُمْ بِالْمَلِكِ - إِكْرَامُ الْعُلَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْأَشْرَافِ وَأَهْلِ الْأَحْسَابِ وَأَصْنَافِ الشُّجَارِ وَالْغُرَبَاءِ وَإِزْأَالِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ . وَذَلِكَ أَنَّ إِكْرَامَ الْقَبَائِلِ وَأَهْلِ الْعَصْبِيَّاتِ وَالْعَشَائِرِ لِمَنْ يَنَاضِيهِمْ فِي الشَّرَفِ وَبِحَاجِزِهِمْ حَبْلَ الْعَشِيرِ وَالْعَصْبِيَّةِ ، وَيُشَارِكُهُمْ فِي اتِّسَاعِ الْجَاهِ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ يَحْمِلُ عَلَيْهِ فِي الْأَكْثَرِ الرُّغْبَةُ فِي الْجَاهِ أَوْ الْخَافَةُ مِنْ قَوْمِ الْمَكْرَمِ أَوْ التَّمَسُّ بِمِثْلِهَا مِنْهُ . وَأَمَّا أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ يُمْنُ لَيْسَ لَهُمْ عَصْبِيَّةٌ تُتَّقَى وَلَا جَاهٌ يُزْتَجَى فَيَنْدَفِعُ الشُّكُّ فِي شَأْنِ كِرَامَتِهِمْ ، وَيَتَمَحَّضُ الْقَصْدُ فِيهِمْ أَنَّهُ لِلْمَجْدِ ، وَانْتِحَالِ الْكَمَالِ فِي الْخِلَالِ وَالْإِقْبَالِ عَلَى السِّيَاسَةِ بِالْكَلِيَّةِ . لِأَنَّ إِكْرَامَ أَقْتَالِهِ ^(٢) وَأَمْثَالِهِ ضَرُورِيٌّ فِي السِّيَاسَةِ الْخَاصَّةِ بَيْنَ قَبِيلِهِ وَنُظَرَائِهِ ، وَإِكْرَامُ الطَّارِثِينَ مِنْ أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالْخُصُوصِيَّاتِ كَمَالٌ فِي السِّيَاسَةِ الْعَامَّةِ . فَالصَّالِحُونَ لِلدِّينِ ، وَالْعُلَمَاءُ لِلْجَأِ إِلَيْهِمْ فِي إِقَامَةِ مَرَامِهِمْ .

(١) آية ١٦ من سورة الإسراء .

(٢) أَقْتَالُ جَمْعُ قَتْلٍ بِكَسْرِ الْقَافِ : الْعَدُو ، الصَّدِيق ، الْقَرْن ، النُّظِير . وَهِيَ هُنَا جَمْعُ النُّظِيرِ

(قَامُوسُ) .

الشرعية ، والتجأ للترغيب حتى تَمَّ المنفعة بما في أيديهم ؛ والهرب من مكارم الأخلاق ؛ وإزال الناس منازلهم من الإنصاف وهو من العدل . فيعلم بوجود ذلك من أهل عصبية انتاؤهم للسياسة العامة وهي الملك ، وأن الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها . ولهذا كان أول ما يذهب من القبيل أهل الملك إذا تأذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم اكرام هذا الصنف من الخلق . فإذا رأيت قد ذهب من أمة من الأمم فاعلم أن الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم ، وارتقب زوال الملك منهم : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ أَفْلًا مَرَدَّلًا ﴾ . والله تعالى أعلم .

الفصل الحادي والعشرون

ففي انه اذا كانت الامة وحشية كل ملكها اوسع

وذلك لأنهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه ، واستعباد الطوائف ، لقدريتهم على محاربة الأمم سواهم ولأنهم يتنزلون من الأهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم ، وهؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في معناهم من الأكراد والتركمان وأهل اللثام من صنهاجة . وأيضاً فهؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون^(١)

(١) بمعنى يعيشون منه . ورد في لسان العرب : راف البدوي ، يريف إذا أتى الريف . ولم يذكر ارتاف .

منه ، ولا بلدٌ يَحْتَوِي اليه ؛ فَنَسَبَةُ الْأَقْطَارِ وَالْمَوَاطِنِ إِلَيْهِمْ عَلَى السَّوَاءِ . فلهذا لا يَقْتَصِرُونَ عَلَى مَلَكَيةِ قُطْرِهِمْ وَمَا جَاوَزَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ ، وَلَا يَقِفُونَ عِنْدَ حُدُودِ أَفْقِهِمْ ، بَلْ يَطْفِرُونَ إِلَى الْأَقْلِيمِ الْبَعِيدَةِ وَيَتَغَلَّبُونَ عَلَى الْأُمَمِ النَّائِيَةِ . وَأَنْظُرْ مَا يُخْشَى فِي ذَلِكَ عَنْ تَمَرِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَوَّيَعَ وَقَامَ يَحْرِضُ النَّاسَ عَلَى الْعِرَاقِ فَقَالَ : إِنَّ الْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بَدَارٍ إِلَّا عَلَى النُّجْعَةِ وَلَا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذَلِكَ ، أَيْنَ الْفُرَّاءُ الْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعِدِ اللَّهِ ، سِيرُوا فِي الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَ كُمْ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ أَنْ يورِثَكُمُوهَا فَقَالَ : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ^(١) . واعتبر ذلك أيضاً بِجَالِ الْعَرَبِ السَّالِفَةِ مِنْ قَبْلِ ، مِثْلَ التَّبَايَعَةِ وَجَمِيرٍ ، كَيْفَ كَانُوا يَخْطُونَ ^(٢) مِنْ الْيَمَنِ إِلَى الْمَغْرِبِ مَرَّةً وَإِلَى الْعِرَاقِ وَالْهِنْدِ أُخْرَى . وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِغَيْرِ الْعَرَبِ مِنَ الْأُمَمِ . وَكَذَا حَالُ الْمُتَمِّينَ مِنَ الْمَغْرِبِ لَمَّا تَزَعُّوا إِلَى الْمُلْكِ طَفَرُوا مِنَ الْأَقْلِيمِ الْأَوَّلِ ، وَبِجَالَتِهِمْ مِنْهُ فِي جَوَارِ السُّودَانِ ، إِلَى الْأَقْلِيمِ الرَّابِعِ وَالْخَامِسِ فِي مَمَالِكِ الْأَنْدَلُسِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةٍ . وَهَذَا شَأْنُ هَذِهِ الْأُمَمِ الْوَحْشِيَّةِ . فَلِذَلِكَ تَكُونُ دَوْلَتُهُمْ أَوْسَعَ نَطاقاً ، وَأَبْعَدَ مِنْ مَرَكَزِهَا نِهَايَةً . ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ الْإِثْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ^(٣) وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ لَا شَرِيكَ لَهُ .

(١) مِنْ آيَةِ ٩ مِنْ سُورَةِ الصَّف.

(٢) خَطَا يَخْطُو خَطَوًا : مَشَى (لِسَانُ الْعَرَبِ).

(٣) مِنْ آيَةِ ٢٠ مِنْ سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ.

الفصل الثاني والعشرون

في أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة
فلا بد من عودة إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

والسبب في ذلك أن الملك إنما حصل لهم بعد سورة الغلب
والأذعان لهم من سائر الأمم سواهم ، فيتعين منهم المباشرون
للأمر الحاملون لسرير الملك . ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه
من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المراحة والغيرة التي تجذع أنوف
كثير من المتطاولين للرتبة . فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة
أنغمسوا في النعم ، وغرقوا في بحر الترف والخصب واستعبدوا
إخوانهم من ذلك الجيل ، وأنفقوهم في وجوه الدولة ومذاهيها .
وبقي الذين بعدوا عن الأمر وكبحوا عن المشاركة في ظل من
عز الدولة التي شاركوها بنسبهم ، وبمنجاة من الهرم لبغديهم عن
الترف وأسبابه . فاذا استولت على الأولين الأيام ، وأباد خضراءهم
الهرم فطبختهم الدولة ، وأكل الدهر عليهم وشرب ، بما أزهقت
النعم من حديهم واشتقت غريزة الترف من ماثمهم ، وبلغوا غايتهم
من طبيعة التمدن الإنساني والتغلب السياسي ، شعر :

كدود القر ينسج ثم يفنى بمرکز نسجه في الانعكاس .

كانت حينئذ عصبية الآخرين موفورة ، وسورة غلبيهم من

الكايسر محفوظةً وشادتهم في القلب معلومةً ؛ فتسمو آماهم إلى الملك الذي كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم ، وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم ، فيستولون على الأمر ويصير إليهم . وكذا يتفق فيهم مع من بقي أيضاً منتبذاً عنه من عشائر أمتهم ، فلا يزال الملك ملجأ في الأمة إلا أن تنكسر سودة العصبية منها أو يفنى سائر عشائرها . سنة الله في الحياة الدنيا ، ﴿ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ^(١) .

واعتبر هذا بما وقع في العرب لما انقرض ملك عادٍ قام به من بعدهم إخوانهم من نمود ، ومن بعدهم إخوانهم العمالة ومن بعدهم إخوانهم من خيبر ، ومن بعدهم إخوانهم التابعة من حمير أيضاً ، ومن بعدهم الأذواء كذلك ، ثم جاءت الدولة لمصر . وكذا الفرس لما انقرض أمر الكينية ، ملك من بعدهم الساسانية ، حتى تأذن الله بانقراضهم أجمع بالإسلام . وكذا اليونانيون انقرض أمرهم وانتقل إلى إخوانهم من الروم . وكذا البربر بالغرب لما انقرض أمر مغراوة وكتامة الملوك الأول منهم رجع إلى صنهاجة ثم الملثمين من بعدهم ، ثم المصامدة ، ثم من بقي من شعوب زناتة وهكذا . سنة الله في عبادِهِ وَخَلْقِهِ .

وأصل هذا كله إنما يكون بالعصبية ، وهي متفاوتة في الأجيال ؛ والملك يُخلقه الترف ويذهبه كما سنذكره ^(٢) بعد . فإذا انقرضت

(١) آخر آية ٣٥ من سورة الزخرف .

(٢) ذكر هذا في الفصلين السادس عشر والثامن عشر . ولعل ابن خلدون غير ترتيب الفصول ؛ فكان هذا الفصل سابقاً للفصلين المذكورين ثم أصبح لاحقاً . وسها بالتالي عن حذف هذه الكلمة أو تبديلها .

دَوْلَةٌ فَإِنَّمَا يَتَنَاولُ الْأَمْرَ مِنْهُمْ مَنْ لَهُ عَصَبِيَّةٌ مُشَارِكَةٌ لِعَصَبِيَّتِهِمْ الَّتِي عُرِفَ لَهَا التَّسْلِيمُ وَالْإِنْقِيَادُ، وَأُوْنِسَ مِنْهَا الْغَلْبُ لِجَمِيعِ الْعَصَبِيَّاتِ . وَذَلِكَ إِنَّمَا يَوْجَدُ فِي النَّسَبِ الْقَرِيبِ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّ تَفَاوُتَ الْعَصَبِيَّةِ بِحَسَبِ مَا قُرْبَ مِنْ ذَلِكَ النَّسَبِ الَّتِي هِيَ فِيهِ أَوْ بَعْدُ . حَتَّى إِذَا وَقَعَ فِي الْعَالَمِ تَبْدِيلٌ كَبِيرٌ مِنْ تَحْوِيلِ مِلَّةٍ أَوْ ذَهَابِ عُثْرَانٍ أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ قُدْرَتِهِ ، فَحِينَئِذٍ يُخْرَجُ عَنْ ذَلِكَ الْجِيلِ إِلَى الْجِيلِ الَّذِي يَأْذَنُ اللَّهُ بِقِيَامِهِ بِذَلِكَ التَّبْدِيلِ . كَمَا وَقَعَ لِمُضَرَ حِينَ غَلَبُوا عَلَى الْأُمَمِ وَالْدُّوْلِ وَأَخَذُوا الْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي أَهْلِ الْعَالَمِ ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَكْبُوحِينَ عَنْهُ أَحْقَابًا .

الفصل الثالث والعشرون

فِي أَنَّ الْمَغْلُوبَ يُولَعُ أَبَدًا بِالْإِقْتِدَاءِ بِالْغَالِبِ فِي شَعَائِهِ وَزِينَةِ
وَنَحْوَتِهِ وَسُلَمِ أحوَالِهِ وَعَوَانِدِهِ

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ أَبَدًا تَعْتَقِدُ الْكَمَالَ فِيمَنْ غَلَبَهَا وَانْقَادَتْ إِلَيْهِ : إِنَّمَا لِنَظَرِهِ بِالْكَمَالِ بِمَا وَقَرَّ^(١) عِنْدَهَا مِنْ تَعْظِيمِهِ ؛ أَوْ لِمَا تُغَايِطُ بِهِ مِنْ أَنَّ انْقِيَادَهَا لَيْسَ لِنَلْبِ طَبِيعِيٍّ إِنَّمَا هُوَ لِكَمَالِ الْغَالِبِ ، فَإِذَا غَالَطَتْ بِذَلِكَ وَاتَّصَلَ لَهَا حَاصِلُ اعْتِقَادٍ فَانْتَحَلَتْ جَمِيعَ مَذَاهِبِ الْغَالِبِ وَتَشَبَّهَتْ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْإِقْتِدَاءُ ؛ أَوْ لِمَا

(١) بِمَعْنَى سَبَكَنِ أَوْثَبَتْ .

تراه ، والله أعلم ، مِنْ أَنْ غَلَبَ الْغَالِبُ لَهَا لَيْسَ بِعَصْبِيَّةٍ وَلَا قُوَّةٍ
بِأَسْرِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَا انْتَحَلَتْهُ مِنَ الْعَوَائِدِ وَالْمَذَاهِبِ تُغَالِطُ أَيْضاً
بِذَلِكَ عَنِ الْغَلَبِ ، وَهَذَا رَاجِعٌ لِلأَوَّلِ . وَلِذَلِكَ تَرَى الْمَغْلُوبَ يَنْشَبُهُ
أَبْدأً بِالْغَالِبِ فِي مَلْبَسِهِ وَمَرْكَبِهِ وَسِلَاحِهِ فِي اتِّخَاذِهَا وَأَشْكَالِهَا ، بَلْ
وَفِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ . وَانْظُرْ ذَلِكَ فِي الْأَبْنَاءِ مَعَ آبَائِهِمْ كَيْفَ
تَجِدُهُمْ مُتَشَبِّهِينَ بِهِمْ دَائِماً ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِاعْتِقَادِهِمْ الْكَمَالَ فِيهِمْ .
وَانْظُرْ إِلَى كُلِّ قُطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ كَيْفَ يَغْلِبُ عَلَى أَهْلِهِ زِيُّ
الْحَامِيَّةِ وَجُنْدِ السُّلْطَانِ فِي الْأَكْثَرِ لِأَنَّهُمْ الْغَالِبُونَ لَهُمْ ؛ حَتَّى إِنَّهُ
إِذَا كَانَتْ أُمَّةٌ تَجَاوُرُ أُخْرَى ، وَلَهَا الْقَلْبُ عَلَيْهَا ، فَيَسْرِي إِلَيْهِمْ
مِنْ هَذَا التَّشْبِهِ وَالْإِقْتِدَاءِ حِظٌّ كَبِيرٌ ، كَمَا هُوَ فِي الْأَنْدَلُسِ لِهَذَا
الْعَهْدِ مَعَ أُمَّةِ الْجَلَالِيَّةِ ، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ يَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ فِي مَلَابِسِهِمْ
وَشَارَايَتِهِمْ وَالْكَثِيرِ مِنْ عَوَائِدِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ ، حَتَّى فِي رَتَبِ
التَّمَاثِيلِ فِي الْجُدْرَانِ وَالْمَصَانِعِ وَالْبُيُوتِ ، حَتَّى لَقَدْ يَسْتَشْعِرُ مِنْ
ذَلِكَ النَّاضِرُ بَعَيْنَ الْحِكْمَةِ أَنَّهُ مِنْ عِلَامَاتِ الْاسْتِيلَاءِ ؛ وَالْأَمْرُ لِلَّهِ .
وَتَأَمَّلْ فِي هَذَا يَسَّرَ قَوْلُهُمْ : « الْعَامَّةُ عَلَى دِينِ الْمَلِكِ » ؛ فَإِنَّهُ مِنْ
بَابِهِ ، إِذِ الْمَلِكُ غَالِبٌ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ ، وَالرَّعِيَّةُ مُقْتَدُونَ بِهِ لِاعْتِقَادِ
الْكَمَالِ فِيهِ اعْتِقَادَ الْأَبْنَاءِ بِآبَائِهِمْ وَالْمُتَعَلِّمِينَ بِمُعَلِّمِيهِمْ . وَاللَّهُ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ؛ وَبِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التَّوْفِيقُ .

الفصل الرابع والعشرون

في أن الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع اليها الفناء.

والسبب في ذلك ، والله أعلم ، ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا مُلك أمرها عليها وصارت بالانستعباد آلة لسواها وعالة عليهم ، فيقصر الأمل ويضعف التناسل ، والاعتبار إنما هو عن جذوة الأمل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية . فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم ، تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيمهم ، وعجزوا عن المداومة عن أنفسهم ، بما خصد القلب من شوكتهم ، فأصبحوا مغلبين لكل مغلوب وطعمة لكل آكل ، وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا .

وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الإنسان رئيس بطبيعته يقتضى الاستخلاف الذي خلق له ؛ والرئيس إذا غلب على رئاسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه وري كيده ؛ وهذا موجود في أخلاق الأناسي . ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة ، وإنها لا تسافد إذا كانت في ملكة الأديميين . فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء . والبقاء لله وحده .

واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرةً، ولما فنيت حاميتهم في أيام العرب، بقي منهم كثيرٌ وأكثر من الكثير. يقال إن سعداً أحصى ما وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً، منهم سبعة وثلاثون ألفاً ربّيت. ولما تحصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً، ودثروا كأن لم يكونوا. ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم؛ فلكة الإسلام في العدل ما علمت؛ وإنما هي طبيعة في الإنسان إذا غلب على أمره، وصار آلة لغيره. ولهذا إنما تدعن الرّق في الغالب أمم السودان لنقص الإنسانية فيهم، وقريتهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه؛ أو من يرجو بانتظامه في ربة الرّق حصول رتبة أو إفادة مالٍ أو عزٍّ كما يقع لمالك الترك بالشرق والعلوج^(١) من الجلالة والإفرنجية بالاندلس؛ فإن العادة جارية باستخلاص الدولة لهم، فلا يأنفون من الرّق لما يأملونه من آلاء والرتبة باصطفاء الدولة. والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق.

(١) بمعنى كفار العجم، وهي من معاني العلج.

الفصل الخامس والعشرون

فإن العرب لا يتغلّبون إلا على البسائط

وذلك أنّهم بطبيعة التّوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيش،
يتّهبون ما قدروا عليه من غير مُغالبة ولا دُكوبٍ خطرٍ،
ويُفرون إلى مُنتجبيهم بالفقر؛ ولا يذهبون إلى المزاخمة والمُحاربة
إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم. فكلُّ مُعقل^(١) أو مُستصعب
عليهم فهم تاركوه إلى ما يسهُلُ عنه، ولا يعرضون له. والقبائل
المُتّعة عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيهم وفسادهم؛ لأنهم
لا يتسّمون إليهم المضاب، ولا يركبون الصّعب ولا يُحاولون
الخطر. وأمّا البسائط متى اقتدروا عليها يفقدان الحامية وضمف
الدولة فهي نهبٌ لهم وطعمة لا كليم، يردّدون عليها الفارة
والنهب والزحف لسهولة عليها، إلى أن يُصبح أهلها مُغلبين
لهم، ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة، إلى
أن ينقرض نمرائهم. والله قادرٌ على خلقه، وهو الواحد القهار
لا ربّ غيره.

(١) بمعنى مشكوك في نجاحه (لسان العرب).

الفصل السادس والعشرون

في أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب

والسبب في ذلك أنهم أمةٌ وخشيةٌ باستحكامِ عوائدِ التوحشِ .
 وأسبابه فيهم فصارَ لهم خُلُقاً وجبلةً ، وكانَ عندهم مَلذوذاً لما فيه
 من الخروجِ عن رِبقةِ الحكمِ ، وعدمِ الانقيادِ للسياسةِ . وهذه
 الطبيعةُ مُنافيةٌ للعُمرانِ ومُناقضةٌ له . ففأيةُ الأحوالِ العاديّةِ كلّها
 عندهم الرّحلةُ والتّغلبُ ^(١) وذلك مُناقضٌ للسُّكونِ الَّذي به
 العُمرانُ ومُنافٍ له . فالحجرُ مثلاً إنّما حاجتهمُ إليه لنُصيه أثافيّ للقدرِ ،
 فيَنقلونه من المَباني ويُخرّبونها عليه ، ويُعدّونه لذلك . والحشْبُ أيضاً
 إنّما حاجتهمُ إليه ليَعْمِدوا ^(٢) به خِيامهم ويتَّخذوا الأوتادَ منه لبيوتهم
 فيُخرّبون السَّقْفَ عليه لذلك . فصارت طبيعةُ وجودِهِم مُنافيةً
 لِلبناء الَّذي هو أصلُ العُمرانِ . هذا في حالهم على العمومِ .

وأيضاً فطبيعتهمُ انتهابُ ما في أيدي الناسِ ، وأنَّ رِزقهمُ في
 ظلالِ رِماجِهِم ، وليس عندهم في أخذِ أموالِ الناسِ حَدٌّ يَتَّقونَ
 إليه ، بل كما أمتَدَّتْ أعينُهُم إلى مالٍ أو متاعٍ أو ماعونٍ انتَهَبوهُ .
 فإذا تمَّ اقتدارُهُم على ذلك بالتّغلبِ والمُلْكِ بطلتِ السِّياسةُ في حِفْظِ
 أموالِ الناسِ وخربَ العُمرانُ .

(١) بمعنى الانتقال .

(٢) عمد السقف : أقامه بهما ودعمه .

وأيضاً فلائهم يُتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والجرف أعمالهم ، لا يرون لها قيمة ولا قسطاً من الأجر والثمن ؛ والأعمال كما سذكروه هي أصل المكاسب وحقيقتها ؛ وإذا فسدت الأعمال وصارت مجاناً ، ضعفت الآمال في المكاسب ، وانقضت الأيدي عن العمل ؛ وأبدع السالكين ، وفسد العمران .

وأيضاً فإنهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض ؛ إنما همهم ما يأخذونه من أموال الناس يهبها أو مفرماً ؛ فإذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد . وربما فرضوا العقوبات في الأموال جزواً على تحصيل الفائدة والجباية والاستيثار منها كما هو شأنهم ؛ وذلك ليس بغير في دفع المفاسد وزجر المتعرض لها ؛ بل يكون ذلك زائداً فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض ؛ فتبقى الرعايا في ملكيتهم كأنها قوضى^(١) دون حكم^(٢) . والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران ، بما ذكرناه من أن وجود الملك خاصة طبيعية للإنسان لا يستقيم وجودهم واجتماعهم إلا بها ؛ وتقدم ذلك أول الفصل .

وأيضاً فهم متنافسون في الرياسة ، وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته ، إلا في الأقل

(١) وبما يعزى إلى سيدنا علي (ع) :

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهلهم سادوا

وعلى كُرمٍ من أجل الحياء ؛ فَيَتَمَدَّدُ الْحُكَّامُ مِنْهُمْ وَالْأَسْرَاءُ ،
وَيُخْتَلَفُ الْأَيْدِي عَلَى الرِّعْيَةِ فِي الْجَبَايَةِ وَالْأَحْكَامِ ، فَيُفْسَدُ الْعُمَرَانُ
وَيَنْتَقِضُ . قَالَ الْأَعْرَابِيُّ الْوَافِدُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ
الْحِجَاجِ وَأَرَادَ الشَّاءَ عَلَيْهِ عِنْدَهُ يُحَسِّنِ السِّيَاسَةَ وَالْعُمَرَانِ ، فَقَالَ :
« تَرَكْتُهُ يَظْلِمُ وَحْدَهُ » . وَانْظُرْ إِلَى مَا مَلَكَوهُ وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهِ مِنْ
الْأَوْطَانِ مِنْ لَدُنِ الْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقْوُضُ عُمرَانُهُ ، وَأَقْفَرَ سَاكِنُهُ ،
وَبُدِّلَتِ الْأَرْضُ فِيهِ غَيْرَ الْأَرْضِ : فَالْيَمْنُ قَرَادُهُمْ خَرَابٌ إِلَّا
قَلِيلًا مِنَ الْأَمْصَارِ ؛ وَعِراقُ الْعَرَبِ كَذَلِكَ قَدْ خَرِبَ عُمرَانُهُ
الَّذِي كَانَ لِلْفُرسِ أَجْمَعُ ؛ وَالشَّامُ لِهَذَا الْعَهْدِ كَذَلِكَ ؛ وَإِفْرِيقِيَّةُ
وَالْمَغْرِبُ لَمَّا جَاَزَ إِلَيْهَا بَنُو هِلَالٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ مُنْذُ أَوَّلِ أَلْسَانَةِ
الْحَامِسَةِ وَتَمَرَّسُوا بِهَا لَثَلْمَانَةً وَخَمْسِينَ مِنَ السِّنِينَ قَدْ لَحِقَ بِهَا
وَعَادَتْ بِسَائِطَةِ خَرَابٍ كُلِّهَا ، بَعْدَ أَنْ كَانَ مَا بَيْنَ السُّودَانِ وَالْبَحْرِ
الرُّومِيِّ كُلُّهُ عُمرَانًا ، تَشْهَدُ بِذَلِكَ آثَارُ الْعُمَرَانِ فِيهِ مِنَ الْمَعَالِمِ
وَقِثَائِلِ الْبِنَاءِ وَشَوَاهِدِ الْقُرَى وَالْمَدَرِ ^(١) . وَاللَّهُ يَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ
عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

(١) بمعنى القرى، كذا تسميها العرب لأن بنيانها في الغالب من المدر؛ وهو قطع الطين.

الفصل السابع والعشرون

ففي ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصيغة جينية من نبوة
او ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة

والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب
الأمم أنقياداً بعضهم لبعض للغلبة والأنفة وبُعْدُ الهمة والمنافسة
في الرياسة؛ فقلما تجتمع أهواؤهم . فإذا كان الدين بالنسبة أو
الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة
منهم ، فسهل أنقيادهم واجتماعهم ، وذلك بما يشغلهم من الدين
الذي يذهب للغلبة والأنفة الوازع عن التحاسد والتنافس . فإذا
كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله ،
ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ، ويؤلف
كلماتهم لإظهار الحق ، تم اجتماعهم وحصل لهم التقلب والملك .
وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق وأهدى لسلامة طباعهم
من عوج الملكات وبرائتها من ذمير الأخلاق ؛ إلا ما كان
من خلق التوحش القريب المعاناة المنتهي لقبول الخير ، ببقائه
على الفطرة الأولى ، وبُعْدِهِ عما ينطبع في النفوس من قبيح
العوائد وسوء الملكات ؛ فإن « كل مولود يولد على الفطرة » كما
ورد في الحديث وقد تقدم .

الفصل الثامن والعشرون

في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

والسبب في ذلك أنهم أكثر بدوّة من سائر الأمم ، وأبعد مجالاً في القفر ، وأغنى عن حاجات الثلّول وجوبها لاعتيادهم الشّطف وخشونة العيش ؛ فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لا يلافيهم ذلك وللتوحش ؛ ورئيسهم محتاج إليهم غالباً للعصبية التي بها المدافعة ، فكان مضطراً إلى إحسان ملكتهم وترك مُراغمتهم^(١) ، لئلا يختل عليه شأن عصبته ، فيكون فيها هلاكه وهلاكهم . وسياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون الساسُ وازعاً بالقهر وإلا لم تستقيم سياسته .

وأيضاً فإن من طبيعتهم كما قدّمناه أخذ ما في أيدي الناس خاصة والتجافي عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض . فإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم . وربما جعلوا العقوبات على المفاسد في الأموال حرصاً على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد ؛ فلا يكون ذلك وازعاً ؛ وربما يكون باعشاً بحسب الأغراض الباعثة على المفاسد ، واستهانة ما يُعطي

(١) المراغمة : العداء والهجران .

من ماله في جانب غرضه . فتَنَمَّوْا المفايِدُ بذلك وَيَقَعُ تَحْرِيبُ العُمَرَانِ ؛
فَتَبْقَى تلك الأُمَّةُ كَأَنَّهَا قَوْضَى مُسْتَطِيلَةٌ أَيْدِي بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ ؛
فَلَا يَسْتَقِيمُ لَهَا عُمْرَانٌ وَتَحْرَبُ سَرِيعاً شَأْنُ القَوْضَى كَمَا قَدَّمْنَا .
فَبَعْدَتْ طِبَاعُ العَرَبِ لِذَلِكَ كُلِّهِ عَنِ سِيَاسَةِ المُلْكِ . وَإِنَّمَا يَصِيرُونَ
إِلَيْهَا بَعْدَ انْقِلَابِ طِبَاعِهِمْ ، وَتَبْدِيلِهَا بِصِبْغَةِ دِينِيَّةٍ تَمَحُّوْا ذَلِكَ مِنْهُمْ ،
وَتَجْعَلُ الوَازِعَ لَهُمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَتَحْمِلُهُمْ عَلَى دِفَاعِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ
عَنْ بَعْضٍ كَمَا ذَكَرْنَاهُ . وَاعْتَبَرْ ذَلِكَ بِدَوْلَتِهِمْ فِي المِلَّةِ لَمَّا شَيْدَ لَهُمْ
الدِّينُ . أَمَرَ السِّيَاسَةَ بِالشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا المَرَاغِيَّةِ لِصَالِحِ العُمَرَانِ ظَاهِراً
وَبَاطِناً ، وَتَتَابَعَ فِيهَا الخُلَفَاءُ ، عَظُمَ حِينَئِذٍ مُلْكُهُمْ وَقَوِيَ سُلْطَانُهُمْ .
كَانَ رُسُومُهُ^(١) إِذَا رَأَى المُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ لِلصَّلَاةِ يَقُولُ : أَكَلْ
عُمُرُ كَبْدِي ، يُعَلِّمُ الكَلَالَ الآدَابَ .

ثُمَّ إِنَّمَا بَعْدَ ذَلِكَ انْقَطَعَتْ مِنْهُمْ عَنِ الدَّوْلَةِ أَجْيَالٌ نَبَذُوا
الدِّينَ ، فَنَسُوا السِّيَاسَةَ ، وَرَجَعُوا إِلَى قَفَرِهِمْ ، وَجَهِلُوا شَأْنَ
عَصَبِيَّتِهِمْ مَعَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ بُبُعِيهِمْ عَنِ الانْقِيَادِ وَإِعْطَاءِ النِّصْفَةِ ،
فَتَوَحَّشُوا كَمَا كَانُوا ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنْ اسْمِ المُلْكِ إِلَّا أَنَّهُمْ مِنْ
جَنْسِ الخُلَفَاءِ وَمِنْ جِيلِهِمْ . وَلَمَّا ذَهَبَ أَمْرُ الخِلَافَةِ وَانْتَهَى رُسْمُهَا
انْقَطَعَ الْأَمْرُ جُلَّةً مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الْعَجَمُ دُونَهُمْ ،
وَأَقَامُوا فِي بَادِيَةِ قِفَارِهِمْ ، لَا يَعْرِفُونَ المُلْكَ وَلَا سِيَاسَتَهُ ، بَلْ قَدْ
يَجْهَلُ الكَثِيرُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ كَانَ لَهُمْ مُلْكٌ فِي القَدِيمِ ، وَمَا كَانَ
فِي القَدِيمِ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ فِي الخَلِيقَةِ مَا كَانَ لِأَجْيَالِهِمْ مِنْ

(١) هُوَ قَائِدُ جِيُوشِ الفَرَسِ فِي مَوْقِعَةِ القَادِسِيَّةِ الَّتِي نَشَبَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ المُسْلِمِينَ فِي عَهْدِ عُمَرَ

الملك ؛ ودُولُ عادٍ وثمودَ والمالِقةَ وخِيزَ والتَّبايعةَ شاهدةً بذلك ،
ثم دَوْلَةُ مُضَرَ في الإسلامِ بني أُمَيَّةَ وبني العباسِ . لكن بَعْدَ
عَهْدِهِمْ بِالسِّيَاسَةِ لَمَّا نَسُوا الدِّينَ فَرَجَعُوا إِلَى أَصْلِهِمْ مِنَ الْبِدَاوَةِ .
وَقَدْ يَحْصُلُ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ غَلَبٌ عَلَى الدُّوَلِ الْمُسْتَضْمَّةِ
كَمَا فِي الْمَغْرِبِ لِهَذَا الْعَهْدِ ، فَلَا يَكُونُ مَا لَهُ غَايَتُهُ إِلَّا تَخْرِيبَ
مَا يَسْتَوِلُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْعُمَرَانِ كَمَا قَدَّمَاهُ . ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ
مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

الفصل التاسع والعشرون

في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار

قد تقدّم لنا أن 'عمرانَ الباديةِ ناقصٌ عن 'عمرانِ الحواضرِ
والأمصارِ ؛ لِأَنَّ الْأُمُورَ الضَّرُورِيَّةَ فِي الْعُمَرَانِ لَيْسَ كُلُّهَا مَوْجُودَةً
لِأَهْلِ الْبَدْوِ ؛ وَإِنَّمَا تَوْجَدُ لَدَيْهِمْ فِي مَوَاطِنِهِمْ أُمُورُ الْقَلْحِ ، وَمَوَادُّهَا
مَعْدُومَةٌ وَمُعْظَمُهَا الصَّنَائِعُ ، فَلَا تَوْجَدُ لَدَيْهِمْ بِالْكُلِّيَّةِ مِنْ تِجَارٍ
وَحِطَاطٍ وَحَدَادٍ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِمَّا يُقِيمُ لَهُمْ ضَرُورِيَّاتِ مَعَايِشِهِمْ فِي
الْقَلْحِ وَغَيْرِهِ . وَكَذَا الدَّنَانِيرُ وَالْدَّرَاهِمُ مَفْقُودَةٌ لَدَيْهِمْ ؛ وَإِنَّمَا
بِأَيْدِيهِمْ أَعْوَاضُهَا مِنْ مُغَلِّزِ الزَّرَاعَةِ وَأَعْيَانِ الْحَيَوَانِ أَوْ فَضْلَاتِهِ
أَبَانًا وَأَوْبَارًا وَأَشْعَارًا وَإِهَابًا مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْأَمْصَارِ ،
فَيَعَوِّضُونَهُمْ عَنْهُ بِالْدَّنَانِيرِ وَالْدَّرَاهِمِ . إِلَّا أَنَّ حَاجَتَهُمْ إِلَى الْأَمْصَارِ

في الضروري وحاجة أهل الأمصار إليهم في الحاجي^(١) والكمالي .
فهم محتاجون إلى الأمصار بطبيعة وجودهم . فما داموا في البادية
ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الأمصار فهم محتاجون إلى
أهلها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعواهم إلى ذلك ،
وطالبوهم به . وإن كان في المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم
لقلب الملك . وإن لم يكن في المصر ملك فلا بد فيه من رئاسة
وتوقع استبداد من بعض أهلها على الباقيين وإلا انتقض عمرانه .
وذلك الرئيس يحيلهم على طاعته والسعي في مصالحه : إما طوعاً
ببذل المال لهم ، ثم يبذل لهم ما يحتاجون إليه من الضروريّات
في مصره فيستقيم عمرانهم ؛ وإما كرهاً إن قمت قدرته على ذلك
ولو بالتفريق بينهم ، حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقيين
فيضطرّ الباقيون إلى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم .
وربما لا يسمهم مفارقة تلك النواحي إلى جهات أخرى ، لأن كل
الجهات معمود البدو الذين غلبوا عليها ومنعوا من غيرهم ، فلا
يحدّ هؤلاء ملجأً إلا طاعة المصر . فهم بالضرورة مغلوبون لأهل
الأمصار . والله قاهر فوق عباده ، وهو الواحد الأحد القهار .



(١) كلمة حاجي اصطلاح خاص لابن خلدون ، يطلقها على ما يقابل الضروري . وقد كثر استعمالها بهذا المعنى .

البَابُ الثَّالِثُ من الكِنَاجِ الأول

في الدول الصلحة والملك والذخافة والمرايب السلطانية
وما يعرض في ذلك كله من الأحوال وفيه قواعد ومتممات

الفصل الأول

في أن الملك والدولة الصلحة إنما يحطلان بالقبيل والعصبية

وذلك أننا قررنا في الفصل الأول أن المغالبة والممانعة إنما تكون
بالمصيبة لما فيها من الشرّة والتذامر^(١) واستماتة كل واحد منهم
دون صاحبه . ثم إن الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع
الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذ النفسانية فيقع فيه
التنافس غالباً ؛ وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه ؛
فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة ؛ وشيء منها لا
يقع إلا بالمصيبة كما ذكرناه آنفاً . وهذا الأمر بعيد عن أفهام
الجمهور بالجملة ومُتناسون له ، لأنهم نسوا عهد تهديد الدولة منذ

(١) تذامر القوم : حض بعضهم بعضاً على القتال .

أولها ، وطالَ أمدُ مَرَبَاهُم في الحضارةِ وتعاقبُهُم فيها جيلاً بعد جيلٍ ؛ فلا يعرفونَ ما فعلَ اللهُ أولَ الدولةِ ؛ إنما يُدرِكونَ أصحابَ الدولةِ وقد استحكمتْ صِبغَتُهُم ووقعَ التسليمُ لهم ، والاستغناءُ عن العصبيةِ في تمهيدِ أمرِهِم ، ولا يعرفونَ كيفَ كانَ الأمرُ من أولِهِ ، وما لقيَ أولُهُم من المتاعبِ دونه ؛ وخصوصاً أهلَ الأندلسِ في نسيانِ هذه العصبيةِ وأثرِها لطولِ الأمدِ واستغنائهم في الغالبِ عن قُوَّةِ العَصِيَّةِ بما تلاشى وطَنُهُم وخلا من العصائبِ . واللهُ قادرٌ على ما يشاءُ ، وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ ، وهو حَسْبُنَا ونِعْمَ الوَكِيلُ .

الفصل الثاني

في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية

والسببُ في ذلك أن الدُّوَلَ العامَّةَ في أولِها يصعبُ على النفوسِ الانقيادُ لها إلا بقُوَّةٍ قويَّةٍ من القلبِ ، للغرابةِ ، وأنَّ الناسَ لم يألفوا مُلْكُها ولا اعتادوه . فإذا استقرَّت الرِّئاسَةُ في أهلِ النِّصابِ الخصوصِ بالملكِ في الدُّوَلَةِ وتوارثوه وإحداً بعد آخرٍ في أعقابِ كثيرين ودولٍ متعاقبةٍ نسيَت النفوسُ شأنَ الأوليَّةِ ، واستحكمت لأهلِ ذلك النِّصابِ صِبْغَةُ الرِّئاسَةِ ، ورسَخَ في العقائدِ دينُ الانقيادِ لهم والتسليمِ ، وقاتلَ الناسُ معهم على أمرِهِم قِتالهم على العقائدِ الإيمانيَّةِ ؛ فلم يحتاجوا حينئذٍ في أمرِهِم إلى كبيرِ عِصَابَةٍ ؛ بل كأنَّ طاعتها كتابٌ من الله لا يُبدَلُ ولا يُعلمُ خلافُهُ . ولأمرِ ما يوضعُ الكلامُ

في الإمامة آخر الكلام على العقائد الإيمانية ، كأنه من جملة عقودها . ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة : إما بالموالي والمصطنعين الذين نشأوا في ظل العصبية وغيرها ؛ وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها . ومثل هذا وقع لبني العباس . فإن عصبية العرب كانت فسدت لمهد دولة المعتصم وابنه الواثق ، واستظهارهم بعد ذلك إنما كان بالموالي من العجم والتürk والديلم والسلجوقية وغيرهم . ثم تغلب العجم الأولياء على النواحي وتقلص ظل الدولة فلم تكن تعدو أعمال بغداد ، حتى زحف إليها الديلم وملكوها ، وصار الخلائق في حكمهم . ثم أنقرض أمرهم وملك السلجوقية من بعدهم فصاروا في حكمهم . ثم أنقرض أمرهم وزحف آخر التتار فقتلوا الخليفة ومحو رسم الدولة .

وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها ، واستمرت لهم الدولة مملصة الظل بالمهدية وبجاية والقلمة وسائر ثغور إفريقية . وربما انتزى^(١) بتلك الثغور من نازعهم الملك واعتصم فيها ؛ والسلطان والملك مع ذلك مسلم لهم ؛ حتى تآذن الله بانقراض الدولة ، وجاء الموحدون بقوة قوية من العصبية في المصامدة ، فحوا آثارهم .

وكذا دولة بني أمية بالأندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمرها ، واقتسموا خطتها

(١) بمعنى توتب ، والأصح : تنزى .

وتنافسوا بينهم ، وتوزعوا ممالك الدولة ، وانتزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بأنفه . وبلغهم شأن العجم مع الدولة العباسية ، فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شاراته ، وأمنوا بمن ينقض ذلك عليهم أو يغيره ؛ لأن الأندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سذكروه ، واستمر لهم ذلك ، كما قال ابن شرف :

مما يُزهدني في أرض أندلس أسماء مُعتصم فيها ومعتصدي ألقاب تملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

فاستظفروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطراء^(١) على الأندلس من أهل الدولة من قبائل البربر وزناتة وغيرهم ، اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم ، حين ضعفت عصبية العرب ، واستبد ابن أبي عامر على الدولة . فكان لهم دول عظيمة استبدت كل واحدة منها بجانب من الأندلس وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها ، ولم يزلوا في سلطانهم ذاك ، حتى جاز إليهم البحر المرباطون أهل العصبية القوية من لئوننة ؛ فاستبدلوا بهم وأزالوهم عن مراكزهم ونحو آثارهم ، ولم يقدروا على مدافعتهم لفقدان العصبية لديهم .

فهذه العصبية يكون تمهيد الدولة وحمايتها من أولها . وقد ظن الطرطوشي أن حامية الدول بإطلاقهم الجند أهل العطاء المفروض مع الأهلّة ، ذكر ذلك في كتابه الذي سماه (سراج

(١) بمعنى الذين أتوا من أماكن أخرى .

المملك)؛ وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها ، وإنما هو مخصوص بالدول الأخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واستحكام الصبغة لأهله . فالرجل إنما أدرك الدولة عند هزمها وخلق جدتها ورجوعها الى الاستظهار بالموالي والصنائع ، ثم إلى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدافعة . فإنه إنما أدرك دول الطوائف ، وذلك عند اختلال دولة بني أمية ، وانقراض عصبيتها من العرب ، واستبداد كل أمير بقطره . وكان في إيالة المستعين بن هود وابنه المظفر أهل سرقسطة ، ولم يكن بقي لهم من أمر العصبة شيء ؛ لاستيلاء الترف على العرب منذ ثلثمائة من السنين وهلاكهم ، ولم ير إلا سلطاناً مستبدًا بالملك عن عشاره ، قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبة ؛ فهو لذلك لا يُنارَع فيه ، ويستعين على أمره بالأجراء من المرتزقة ؛ فأطلق الطرطوشي القول في ذلك ، ولم يتفطن لكيفية الأمر منذ أول الدولة وأنه لا يتم إلا لأهل العصبة . فتفطن أنت له وافهم سر الله فيه . ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكُومَن يَشَاءُ﴾ .

الفصل الثالث

في أنه قد يحدث لبعض أهل النطب الملكي دولة تستغني عن العصبة

وذلك أنه إذا كان لمصيته غلب كثير على الأمم والأجيال وفي نفوس القائمين بأمره من أهل القاصية إذعان لهم وانقياد ،

فَإِذَا نَزَعَ إِلَيْهِمْ هَذَا الْخَارِجُ وَانْتَبَذَ عَنْ مَقَرِّ مُلْكِهِ وَمَنْبَتِ عِزِّهِ ،
 اشْتَمَلُوا عَلَيْهِ وَقَامُوا بِأَمْرِهِ وَظَاهَرُوهُ عَلَى شَأْنِهِ ، وَغُنُوا بِتَمْهِيدِ
 دَوْلَتِهِ ، يَرْجُونَ اسْتِقْرَارَهُ فِي نِصَابِهِ ، وَتَنَاوَلَهُ الْأَمْرَ مِنْ يَدِ
 أَعْيَاصِهِ^(١) ، وَجَزَاءَهُ لَهُمْ عَلَى مَظَاهِرَتِهِ بِاصْطِفَائِهِمْ لِرُتَبِ الْمُلْكِ
 وَخُطَطِهِ مِنْ وِزَارَةٍ أَوْ قِيَادَةٍ أَوْ وِلَايَةٍ تَغْنِيهِ ، وَلَا يَطْمَعُونَ فِي
 مُشَارَكَتِهِ فِي شَيْءٍ مِنْ سُلْطَانِهِ تَسْلِيماً لِعَصِيَّتِهِ ، وَانْقِيَاداً لِمَا
 اسْتَحْكَمَ لَهُ وَلِقَوْمِهِ مِنْ صِبْغَةِ الْقَلْبِ فِي الْعَالَمِ ، وَعَقِيدَةِ إِيْمَانِيَّةٍ
 اسْتَقَرَّتْ فِي الْإِذْعَانِ لَهُمْ ، فَلَوْ رَامُوهَا مَعَهُ أَوْ دُونَهُ لَزُلْزِلَتْ
 الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا .

وهذا كما وَقَعَ لِلْأَدَارِسَةِ بِالْمَغْرِبِ الْأَقْصَى وَالْمُبِيدِينَ بِإِفْرِيقِيَّةٍ
 وَمِصْرَ ، لَمَّا انْتَبَذَ الطَّالِبِيُّونَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْقَاصِيَةِ ، وَابْتَعَدُوا
 عَنْ مَقَرِّ الْخِلَافَةِ وَسَمَوْا إِلَى طَلْحِيهَا مِنْ أَيْدِي بَنِي الْعَبَّاسِ ، بَعْدَ أَنْ
 اسْتَحْكَمَتِ الصِّبْغَةُ لِبَنِي عَبْدِ مَنَافٍ : لِبَنِي أُمَيَّةَ أَوَّلًا ، ثُمَّ لِبَنِي
 هَاشِمٍ مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَخَرَجُوا بِالْقَاصِيَةِ مِنَ الْمَغْرِبِ وَدَعَوْا لَأَنْفُسِهِمْ ،
 وَقَامَ بِأَمْرِهِمُ الْبَرَايِرَةُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى ، فَأَوْرُثَتْهُ مَغِيلَةُ لِلْأَدَارِسَةِ
 وَكِتَامَةُ وَصِنَهَاجَةُ وَهَوَّارَةُ لِلْمُبِيدِينَ ، فَشَيَّدُوا دَوْلَتَهُمْ وَهَدَّوْا
 بِعَصَائِيهِمْ أَمْرَهُمْ ، وَاقْتَطَعُوا مِنْ مَمَالِكِ الْعَبَّاسِيِّينَ الْمَغْرِبَ كُلَّهُ ثُمَّ
 إِفْرِيقِيَّةَ ، وَلَمْ يَزَلْ ظِلُّ الدَّوْلَةِ يَتَقَلَّصُ وَيُظَلُّ الْمُبِيدِينَ يَتَنَدُّ إِلَى أَنْ
 مَلَكَوا مِصْرَ وَالشَّامَ وَالْحِجَازَ ، وَقَاسَمُوهُمْ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ

(١) أعياص، جمع عيص والعيص: الأصل. أي يرجون انتقال الملك إليه من أصوله أي من
 أبائته وأجداده.

شَقَّ الْأَبْلَمَةَ . وَهُوَ لَاءُ الْبَرَايَةِ الْقَائِمُونَ بِالذُّوْلَةِ مَعَ ذَلِكَ كُلُّهُمْ مُسْلِمُونَ لِلْعَبِيدِينَ أَمْرُهُمْ مُذْعِنُونَ لِلْمَكِيهِمْ . وَإِنَّمَا كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِي الرُّتَبَةِ عِنْدَهُمْ خَاصَّةً تَسْلِيمًا لِمَا حَصَلَ مِنْ صِبْغَةِ الْمَلِكِ لِبَنِي هَاشِمٍ . وَلَمَّا اسْتَحْكَمَ مِنَ الْقَلْبِ الْفُرَيْشِ وَمُضَرَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ . فَلَمْ يَزَلِ الْمَلِكُ فِي أَعْقَابِهِمْ إِلَى أَنْ انْقَرَضَتْ دَوْلَةُ الْعَرَبِ بِأَسْرِهَا . ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ .

الفصل الرابع

نبي ان الدول العاتية الاستيلاء العظيمة الملك

اصلها الدين اما من نبوة او دعوة حق

وذلك لِأَنَّ الْمَلِكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالتَّغْلِبِ ، وَالتَّغْلِبُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْعَصِيَّةِ وَاتِّفَاقِ الْأَهْوَاءِ عَلَى الْمَطَالَبَةِ . وَجَمْعُ الْقُلُوبِ وَتَأْلِيفُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِمَعُونَةِ مَنْ أَلَّفَ فِي إِقَامَةِ دِينِهِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، وَسِرُّهُ أَنَّ الْقُلُوبَ إِذَا تَدَاعَتْ إِلَى أَهْوَاءِ الْبَاطِلِ وَالْمِيلَ إِلَى الدُّنْيَا حَصَلَ التَّنَافُسُ وَفُشَا الْخِلَافُ ؛ وَإِذَا انْصَرَفَتْ إِلَى الْحَقِّ وَرَفَضَتِ الدُّنْيَا وَالْبَاطِلَ وَأَقْبَلَتْ عَلَى اللَّهِ اتَّحَدَتْ وَجْهَتِهَا فَذَهَبَ التَّنَافُسُ وَقَلَّ الْخِلَافُ وَحَسُنَ التَّعَاوُنُ وَالتَّمَاضُدُ ، وَاتَّسَعَ نِطاقُ الْكَلِمَةِ لِذَلِكَ ، فَعَظُمَتِ الدُّوْلَةُ ، كَمَا بُيِّنَ لَكَ بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَبِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ سِوَاهُ .

الفصل الخامس

في ان الدعوة الحينية تزيد الحولة في اصلها
قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها

والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرّد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم ، وهم مستميتون عليه ؛ وأهل الدولة التي هم طالبوها وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل ، وتحاذلهم لتقية الموت حاصل ؛ فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم ، بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل كما قدمناه .

وهذا كما وقع للعرب صدر الإسلام في الفتوحات . فكانت جيوش المسلمين بالقاديسية واليرموك بضعا وثلاثين ألفا في كل معسكر ؛ وجيوش فارس مائة وعشرين ألفا بالقاديسية ، وجموع هرقل على ما قاله الواقدي أربعمائة ألف ؛ فلم يقف للعرب أحد من الجانبين ، وهزمواهم وغلبواهم على ما بأيديهم .

وأعتبر ذلك أيضا في دولة لتونة ودولة الموحدين . فقد كان بالمغرب من القبائل كثير يمن يقاومهم في العدة والعصبية أو يشف^(١)

(١) شف هنا بمعنى زاد ، وتستعمل كذلك بمعنى نقص وتحرك .

عليهم ، إِلَّا أَنْ الْأَجْتِمَاعَ الدِّينِيَّ ضَاعَفَ قُوَّةَ عَصِيَّتِهِمْ بِالْإِسْتِبْصَارِ
وَالْإِسْتِيَاتَةِ كَمَا قَلَنَاهُ ، فَلَمْ يَقِفْ لَهُمْ شَيْءٌ .
واعتبر ذلك إذا حالت صِبْغَةُ الدِّينِ ، وَفَسَدَتْ ، كَيْفَ
يَنْتَقِضُ الْأَمْرُ وَيَصِيرُ الْقَلْبُ عَلَى نِسْبَةِ الْعَصِيَّةِ وَحَدَّهَا دُونَ زِيَادَةِ
الدِّينِ ؛ فَتَغْلِبُ الدَّوْلَةُ مَنْ كَانَ تَحْتَ يَدِهَا مِنَ الْعَصَابِ الْمَكْفُوتَةِ
لَهَا أَوْ الزَّائِدَةِ الْقُوَّةِ عَلَيْهَا الَّذِينَ غَلَبَتْهُمْ بِمُضَاعَفَةِ الدِّينِ لِقُوَّتِهَا ،
وَلَوْ كَانُوا أَكْثَرَ عَصِيَّةً مِنْهَا وَأَشَدَّ بِدَاوَةً .

واعتبر هذا في الْمُوَحِّدِينَ مَعَ زِنَاتَةٍ ؛ لِمَا كَانَتْ زِنَاتُهُ أَبْدَى^(١)
مِنَ الْمَصَامِدَةِ وَأَشَدَّ تَوَحُّشًا ، وَكَانَ لِلْمَصَامِدَةِ الدَّعْوَةُ الدِّينِيَّةُ بِاتِّبَاعِ
الْمُهْدِيِّ فَلَبَسُوا صِبْغَتَهَا وَتَضَاعَفَتْ قُوَّةُ عَصِيَّتِهِمْ بِهَا ، فَغَلَبُوا عَلَى
زِنَاتَةٍ أَوَّلًا وَاسْتَتَبَعُوهُمْ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ حَيْثُ الْعَصِيَّةُ وَالْبِدَاوَةُ
أَشَدَّ مِنْهُمْ ؛ فَلَمَّا خَلَوْا عَنْ تِلْكَ الصِّبْغَةِ الدِّينِيَّةِ انْتَقَضَتْ عَلَيْهِمْ
زِنَاتُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَغَلَبُوهُمْ عَلَى الْأَمْرِ وَانْتَرَعَوْهُ مِنْهُمْ ﴿وَاللَّهُ
عَالِمٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ .

الفصل السادس

في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وهذا لِمَا قَدَّمَناهُ مِنْ أَنَّ كُلَّ أَمْرٍ تُحْمَلُ عَلَيْهِ الْكَافَّةُ فَلَا بُدَّ
لَهُ مِنَ الْعَصِيَّةِ . وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ كَمَا مَرَّ . « مَا بَعَثَ اللَّهُ

(١) أي أشدَّ بدَاوَةً ، أَفْعَلُ تَفْضِيلٌ مِنْ فَعَلَ بِدَا بِمَعْنَى خَرَجَ إِلَى الْبَادِيَةِ وَأَقَامَ بِهَا .

نَبِيًّا إِلَّا فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ» وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ أُولَى النَّاسِ بِحَرْقِ الْعَوَائِدِ، فَا ظَنُّكَ بِغَيْرِهِمْ إِلَّا تُحْرَقَ لَهُ الْعَادَةُ فِي الْقَلْبِ بِغَيْرِ عَصِيَّةٍ .

وقد وَقَعَ هَذَا لِابْنِ قَسِيٍّ شَيْخِ الصُّوفِيَّةِ وَصَاحِبِ كِتَابِ خَلْعِ الثَّعْلَيْنِ فِي التَّصَوُّفِ؛ ثَادَ بِالْأَنْدَلُسِ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ وَسُمِّيَ أَصْحَابُهُ بِالْمُرَابِطِينَ قُبِيلَ دَعْوَةِ الْمُهْدِيِّ، فَاسْتَتَبَ لَهُ الْأَمْرُ قَلِيلًا لَشُغْلِهِ لِمَتُونَةٍ بَمَا دَهَمَهُمْ مِنْ أَمْرِ الْمُوَحِّدِينَ، وَلَمْ تَكُنْ هُنَاكَ عَصَائِبُ وَلَا قَبَائِلُ يَدْفَعُونَهُ عَنْ شَأْنِهِ؛ فَلَمْ يَلْبَثْ حِينَ اسْتَوْلَى الْمُوَحِّدُونَ عَلَى الْمَغْرِبِ أَنْ أَدْعَنَ لَهُمْ وَدَخَلَ فِي دَعْوَتِهِمْ، وَتَابَعَهُمْ مِنْ مَعْقِلِهِ بِحِصْنِ أَرْكِش^(١)، وَأَمَكْنَهُمْ مِنْ ثَغْرِهِ، وَكَانَ أَوَّلَ دَاعِيَةٍ لَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ، وَكَانَتْ ثَوْرَتُهُ تُسَمَّى ثَوْرَةَ الْمُرَابِطِينَ .

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَحْوَالُ الثَّوَارِ الْقَائِمِينَ بِتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ مِنَ الْعَامَّةِ وَالْفُتَّهَاءِ . فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُنْتَجِلِينَ لِلْعِبَادَةِ وَسُلُوكِ طُرُقِ الدِّينِ يَذْهَبُونَ إِلَى الْقِيَامِ عَلَى أَهْلِ الْجَوْرِ مِنَ الْأَمْرَاءِ دَاعِينَ إِلَى تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ وَالنَّهْيِ عَنْهُ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ رَجَاءً فِي الثَّوَابِ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ؛ فَيَكْثُرُ اتِّبَاعُهُمْ وَالْمُنْتَشِطُونَ بِهِمْ مِنَ الْقَوَّغَاءِ وَالِدَّهَاءِ، وَيُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ لِلْمَهَالِكِ، وَأَكْثَرُهُمْ يَهْلِكُونَ فِي تِلْكَ السَّبِيلِ مَازُورِينَ^(٢) غَيْرَ مَاجُورِينَ، لِأَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ لَمْ يَكْتُبْ

(١) لم يذكر صاحب معجم البلدان حصن أركش، ولم نعثر على هذا الاسم في المراجع التي بين أيدينا. ولعله حصن أركون؛ وهو حصن منيع بالأندلس من أعمال شتمرية.

(٢) كذا بالأصل، والأصح موزورين.

ذلك عليهم ، وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه ؛ قال ﷺ :
« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ،
فإن لم يستطع فبقلبه » وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا
تُحزحها ويهدم بناءها إلا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية
القبائل والعشائر كما قدّمناه .

وهكذا كان حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم
إلى الله بالعشائر والعصائب ، وهم المؤيدون من الله بالكون كله
لو شاء ؛ لكنه إنما أجرى الأمور على مستقر العادة . والله حكيم
عليم .

فإذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه حيقاً قصر
به إلا نفراداً عن المصيبة ، فطاح في هوة الهلاك . وأما إن كان من
الملتسين بذلك في طلب الرئاسة ، فأجدد أن تعوقه العوائق وتنقطع
به الممالك ؛ لأنه أمر الله لا يتم إلا برضاه وإعانيته والإخلاص
له والنصيحة للمسلمين ؛ ولا يشك في ذلك مسلم ، ولا يرتاب فيه
ذو بصيرة .

وأول ابتداء هذه النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة
طاهر^(١) وقيل الأمين وأبطل المأمون بخراسان عن مقدم العراق ،
ثم عهد لعلي بن موسى الرضا من آل الحسين ، فكشف بنو العباس
عن وجه التكبر عليه وتداعوا للقيام وخلع طاعة المأمون

(١) هو طاهر بن الحسين ، خرج أيام الأمين . وكان قائد جيش المأمون زمن الخلاف بين
الاخوين : الأمين والمأمون .

وَالْإِسْتِبْدَالِ مِنْهُ ، وَبُيْعَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ ، فَوْقَ الْهَرَجِ^(١) بِبَغْدَادَ
وَانْطَلَقَتْ أَيْدِي الزَّعَرَةِ^(٢) بِهَا مِنَ الشُّطَارِ^(٣) وَالْحَرِيَّةِ^(٤) عَلَى أَهْلِ
الْعَافِيَةِ وَالصُّونِ ، وَقَطَعُوا السَّبِيلَ ، وَأَمْتَلَأَتْ أَيْدِيهِمْ مِنْ نَهَابِ
النَّاسِ وَبَاعُوهَا عِلَائِيَّةً فِي الْأَسْوَاقِ ، وَاسْتَعْدَى أَهْلُهَا الْحُكَّامَ فَلَمْ
يُعْذَوْهُمْ^(٥) . فَتَوَافَرَ^(٦) أَهْلُ الدِّينِ وَالصَّلَاحِ عَلَى مَنَعِ الْفُسَاقِ وَكَفِّ
عَادِيَتِهِمْ . وَقَامَ بِبَغْدَادَ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِخَالِدِ الدُّزْيُوسِ ، وَدَعَا النَّاسَ
إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَأَجَابَهُ خَلْقٌ وَقَاتَلَ أَهْلَ
الزَّعَارَةِ فَغَلَبَهُمْ ، وَأَطْلَقَ يَدَهُ فِيهِمْ بِالضَّرْبِ وَالتَّكْيِيلِ .

ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ رَجُلٌ آخَرُ مِنْ سَوَادِ أَهْلِ بَغْدَادَ يُعْرَفُ بِسَهْلِ
ابْنِ سَلَامَةَ الْأَنْصَارِيِّ ، وَيُكْنَى أَبَا حَاتِمٍ ، وَعَلَّقَ مُصْحَفًا فِي عُنُقِهِ
وَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْعَمَلِ
بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ، فَاتَّبَعَهُ النَّاسُ كَافَّةً مِنْ بَيْنِ شَرِيفٍ
وَوَضِيعٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ثَمَّ دُونَهُمْ ، وَنَزَلَ قَصْرَ طَاهِرٍ ، وَاتَّخَذَ
الدِّيَّوَانَ وَطَافَ بِبَغْدَادَ ، وَمَنَعَ كُلَّ مَنْ أَخَافَ الْمَارَّةَ ، وَمَنَعَ

(١) هرج الناس هرجاً: وقعوا في فتنه واختلاط وقتل (قاموس).

(٢) يقال: في خلقه زعارة أي شراسة وسوء خلق. وزعرة جمع زعر: عامية، مثل أزعر
جمعها زعران. يقال للأحداث ذوي الأخلاق السيئة.

(٣) كانت تطلق كلمة الشطار على طوائف اللصوص والمجرمين. وفي القاموس: شطار جمع
شاطر وهو من أعصى أهله خبثاً.

(٤) الحرّبة: من الحرب (بفتح الراء) وهو نهب مال الإنسان وتركه لا شيء له. وفي
الحديث: الحارب المشلّح أي الغاصب الناهب، الذي يعزّي الناس ثيابهم.

(٥) الاستعداد: طلب النظرة.

(٦) في لسان العرب: وفّر عرضه وفوراً: كرم ولم يتنذل، والوفر، المال الكثير الوافر
واستعملت هنا بمعنى اجتمعوا جماعة وافرة أي كثيرة.

الحفارة^(١) لأولئك الشُّطَّارِ . وقال له خالد الدُّيُوسُ : أنا لا أعيبُ على السُّلطانِ ؛ فقال له سهلٌ : لكنِّي أقاتِلُ كلَّ من خالفَ الكتابَ والسُّنةَ كائناً من كانَ . وذلك سنة إحدى ومائتين . وجَهَّزَ له إبراهيمُ بنُ المَهْدِيِّ العساكرَ ففَلَبَهُ وأسرَهُ وانحَلَّ أمرُهُ سريعاً وذَهَبَ ونجا بِنَفْسِهِ .

ثم أَقْتَدَى بهذا العَمَلِ بعدُ كثيرٌ من المُوسُوسِينَ يَأْخُذُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاقَامَةِ الْحَقِّ ولا يَعْرِفُونَ ما يَحْتَاجُونَ إليه في إقامَتِهِ من العصبية ، ولا يَشْعُرُونَ بِمَغْبَةِ أَمْرِهِمْ ومالِ أحوالِهِمْ . والذي يُحْتَاجُ إليه في أمرٍ هوَلاءُ إما المداواةُ إن كانوا من أَهْلِ الجُنُونِ ، وإما التَّنْكِيلُ بالقتلِ أو الضَّرْبِ إن أَحْدَثُوا هَرْجاً ؛ وإما إِذَاعَةُ السُّخْرِيَّةِ منهم وعدُّهُمْ من جُمْلَةِ الصَّقَاعِينَ^(٢) .

وقد يَنْتَسِبُ بَعْضُهُمْ إلى الفاطِمِيِّ الْمُنْتَظَرِ إما بآئِهِ هو أو بآئِهِ داعٍ له ، وليس مع ذلك على عِلْمٍ من أَمْرِ الفاطِمِيِّ ، ولا ما هو . وأكثرُ الْمُنْتَظَرِينَ لمثلِ هذا يَجِدُّهُمْ مُوسُوسِينَ أو مجانينَ أو مُلْتَسِينَ يَطْلُبُونَ بمثلِ هذه الدَّعوةِ رِئاسةً امْتَلَأَتْ بها جَواهِرُهُمْ وَعَجَزُوا عن التَّوَصُّلِ إليها بِشَيْءٍ من أسبابِها العاديَّةِ ، فيَحْسِبُونَ أَنَّ هذا من الأسبابِ البالِغَةِ بِهِمْ إلى ما يُؤْمَلُونَهُ من ذلك ، ولا يَحْسِبُونَ ما يَنَالُهُمْ فيه من المَلَكَةِ ، فيُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْقَتْلُ بما يُجِدُّونَهُ من الفِتْنَةِ ، وتسوءُ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ .

(١) أي منع الحياة عنهم .

(٢) الصَّقَاعِينَ : الكذابين .

وقد كان لِأَوَّلِ هذه المائة خَرَجَ بالسُّوسِ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ يُدْعَى التَّوْبَذَرِيُّ، عَمَدَ إِلَى مَسْجِدِ مَاسَّةَ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ هُنَاكَ، وَزَعَمَ أَنَّهُ الْفَاطِمِيُّ الْمُنْتَظَرُ، تَلْبِيسًا عَلَى الْعَامَّةِ هُنَاكَ، بِمَا مَلَأَ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْحِدَاثَانِ بِانْتِظَارِهِ هُنَاكَ، وَأَنَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَسْجِدِ يَكُونُ أَصْلُ دَعْوَتِهِ. فَتَهَاوَتْ عَلَيْهِ طَوَائِفُ مِنْ عَامَّةِ الْبَرَبْرِ تَهَاوَتْ الْفَرَّاشِ. ثُمَّ خَشِيَ رُؤُوسَاؤُهُمْ اتِّسَاعَ نِطَاقِ الْفِتْنَةِ؛ فَدَسَّ إِلَيْهِ كَبِيرُ الْمَصَائِدِ يَوْمَئِذٍ عُمَرُ السَّكْسِيَوِيُّ مَن قَتَلَهُ فِي فِرَاشِهِ.

وَكَذَلِكَ خَرَجَ فِي غِمَارَةٍ أَيْضًا لِأَوَّلِ هذه المائة رَجُلٌ يُعْرَفُ بِالْعَبَّاسِ، وَادَّعَى مِثْلَ هذه الدَّعْوَةِ وَاتَّبَعَ نَعِيقَهُ الْأَرْدَلُونَ مِنْ سُفْهَاءِ تِلْكَ الْقَبَائِلِ وَأَغْمَارِهِمْ^(١)، وَزَحَفَ إِلَى بَادِسَ مِنْ أَمْصَارِهِمْ وَدَخَلَهَا عَنُودَةً ثُمَّ قُتِلَ لِأَرْبَعِينَ يَوْمًا مِنْ ظُهُورِ دَعْوَتِهِ، وَمَضَى فِي الْهَالِكِينَ الْأَوَّلِينَ.

أَمْثَالُ ذَلِكَ كَثِيرٌ، وَالْغُلَطُ فِيهِ مِنَ الْغَفْلَةِ عَنِ اعْتِبَارِ الْعَصِيَّةِ فِي مِثْلِهَا. وَأَمَّا إِنْ كَانَ التَّلْبِيسُ فَأُخْرَى أَلَّا يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ وَأَنْ يَبْهَتَ بِإِيْمِهِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ. وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ.

(١) أغمار جمع غمر، بضم الغين؛ وهو الذي لم يجرب الأمور.

الفصل السابع

ففي أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها

والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقوتها القائمين بها الممهدين لها لا بُدَّ من توزيعهم حصصاً على الممالك والثغور التي تصير إليهم ، ويستولون عليها لحمايتها من العدو ، وإمضاء أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك . فاذا توزعت المصائب كلها على الثغور والممالك فلا بُدَّ من نفاد عددها ، وقد بلغت الممالك حينئذٍ إلى حدٍّ يكون ثغراً^(١) للدولة ، وتحملاً^(٢) لوطنها ، ونطاقاً لمركز ملكها . فان تكلفت الدولة بعد ذلك زيادةً على ما بيدها بقي دون حامية وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو والمجاور ، ويعود وبال ذلك على الدولة ، بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة .

وما كانت العصابة موفورة ولم ينفذ عددها في توزيع الحصص على الثغور والنواحي ، بقي في الدولة قوة على تناول ما وراء الغاية ، حتى يتفسيح نطاقها إلى غايتها . والعلة الطبيعية في ذلك هي قوة العصبية من سائر القوى الطبيعية ؛ وكل قوة يصدر عنها فعل من الأفعال فشاؤها ذلك في فعلها . والدولة في مركزها أشدُّ مما يكون

(١) الثغر: الموضع الذي يخاف منه هجوم العدو.

(٢) التحمل: حد الأرض.

في الطَّرَفِ والنِّطاقِ . وإذا أُنْتَهَتْ إلى النِّطاقِ الَّذِي هُوَ الغَايَةُ عَجَزَتْ
وأَقْصَرَتْ عما وراءَهُ ؛ شَأْنُ الْأَشْعةِ وَالْأَنْوارِ إذا أُنْبَعَثَتْ من المراكزِ
والدوائرِ الْمُتَفَسِّحَةِ على سَطْحِ الماءِ من النُّقْرِ عليه . ثم إذا أَدْرَكها
الْهَرَمُ وَالضَّعْفُ فَأَما تَأْخُذُ في التَّنَاقُصِ من جِهَةِ الْأَطْرافِ وَلَا يَزَالُ
الْمَرْكُزُ مُحْفُوظاً إلى أَنْ يَتَأَذَّنَ اللهُ بِانْقِرَاضِ الْأَمْرِ جُمْلَةً ، فحينئذٍ
يَكُونُ انْقِرَاضُ الْمَرْكُزِ . وإذا غُلِبَ على الدَّوْلَةِ من مَرْكُزِها فلا
يَنْفَعُها بقاءُ الْأَطْرافِ والنِّطاقِ بل تَضْمَحِلُّ لَوَقْتِها ؛ فَإِنَّ الْمَرْكُزَ كَالْقَلْبِ
الَّذِي تَنْبَعِثُ مِنْهُ الرُّوحُ ، فاذا غُلِبَ الْقَلْبُ وَمُلِكَ أَنْهَزَمَ جَمِيعُ
الْأَطْرافِ .

وأنظرَ هذا في الدَّوْلَةِ الفارِسيَّةِ . كان مَرْكُزُها المَدائنَ ؛ فَلَمَّا
غَلَبَ الْمُسْلِمُونَ على المَدائنِ انْقَرَضَ أَمْرُ فارسَ أَجْمَعٍ ، ولم يَنْفَعِ
يَزْدَجَرْدَ ما بَقِيَ بِيَدِهِ من أَطْرافِ مَمْلِكَتهِ .

وبالعكسِ من ذلك الدَّوْلَةُ الرُّومِيَّةُ بِالشَّامِ ؛ لَمَّا كانَ مَرْكُزُها
الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ ، وَغَلَبَهُمُ الْمُسْلِمُونَ بِالشَّامِ تَحَيَّزُوا إلى مَرْكُزِهِمْ
بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ولم يَضُرَّهُمْ انْتِزاعُ الشَّامِ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، فلم يَزَلْ مُلْكُهُمْ
مُتَّصِلاً بِها إلى أَنْ تَأَذَّنَ اللهُ بِانْقِرَاضِهِ .

وأنظرَ أَيْضاً شَأْنَ الْعَرَبِ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ لَمَّا كَانَتْ عَصائِهِمْ
مَوْفُورَةً ، كيفَ غَلَبُوا على ما جَاوَزَهُمْ مِنَ الشَّامِ وَالْعِراقِ وَمِصرَ
لِأَسْرَعِ وَقْتٍ ، ثُمَّ تَجَاوَزُوا ذلكَ إلى ما وراءَهُ مِنَ السِّندِ وَالْجَنْشَةِ
وإفريقيَّةِ وَالْمَغْرِبِ ، ثُمَّ إلى الْأَنْدَلُسِ . فَلَمَّا تَفَرَّقُوا حِصَصاً على الممالكِ
وَالشُّغُورِ ، وَزَلُّوها حَامِيَةً ، وَنَفَدَ عَدَدُهُمْ في تلكَ التَّوْزِيعاتِ ، أَقْصَرُوا

عن الفتوحاتِ بعدُ ، وانتهى أمرُ الإسلامِ ، ولم يتجاوز تلكَ الحدودَ ؛ ومنها تراجعتِ الدولةُ حتى تأذنَ اللهُ بانقراضِها .
وكذا كانَ حالُ الدولِ من بعدِ ذلكَ ؛ كلُّ دولةٍ على نسبةِ القائمينَ بها في القلَّةِ والكثرةِ ، وعند نفاذِ عدديهم بالتوزيعِ ينقطعُ لهم الفتحُ والاستيلاءُ . سنةُ اللهُ في خلقِهِ .

الفصل الثامن

في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها

على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة

والسببُ في ذلكَ أنَّ المُلُكَ إنما يكونُ بالعَصَبِيَّةِ . وأهلُ العصبيةِ همُ الحاميةُ الذينَ ينزلونَ بمالِكِ الدولةِ وأقطارِها ، وينقسمونَ عليها ؛ فإِذَا كَانَ مِنَ الدَّوْلَةِ الْعَامَّةِ قَبِيلُهَا وَأَهْلُ عِصَابَتِهَا أَكْثَرَ ، كَانَتْ أَقْوَى وَأَكْثَرَ مَمَالِكَ وَأَوْطَانًا ، وَكَانَ مُلْكُهَا أَوْسَعَ لِذَلِكَ .
واعتبرَ ذلكَ بالدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَمَّا أَلْفَ اللَّهُ كَلِمَةَ الْعَرَبِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَكَانَ عَدَدُ الْمُسْلِمِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، آخِرَ غَزَوَاتِ النَّبِيِّ ﷺ ، مِائَةَ أَلْفٍ وَعِشْرَةَ أَلْفٍ مِنْ مُضَرَ وَقَحْطَانَ ، مَا بَيْنَ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ ، إِلَى مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الْوَفَاةِ . فَلَمَّا تَوَجَّهُوا لَطَلَبِ مَا فِي أَيْدِي الْأُمَمِ مِنَ الْمُلُكِ لَمْ يَكُنْ دُونَهُ رَحْمَى وَلَا وَزَرٌ^(١) ، فَاسْتَبِيحَ رَحْمَى فَارِسَ وَالرُّومِ أَهْلُ الدَّوْلَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ

(١) الْوَزَرُ: الْمُعْقِلُ وَالْمُلْجَأُ وَالْمُعْتَصِمُ (قَامُوسٌ).

في العالم لمهديهم ، والتُّرك بالشرق والإفرنجية والبربر بالمغرب ،
والقوط بالأندلس ، وخطّوا من الحجاز إلى الشّوس الأقصى ،
ومن اليمن إلى التُّرك بأقصى الشمال ، واستولوا على الأقاليم
السبعة .

ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيديين
قبلهم ؛ لما كان قبيل كُتامة القانون بدولة العبيديين أكثر من
صنهاجة ومن المصامدة ، كانت دولتهم أعظم ؛ فملكوا إفريقية
والمغرب والشام ومصر والحجاز . ثم انظر بعد ذلك دولة زنّاتة
لما كان عددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين
لفُصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم ثم اعتبر
بعد ذلك حال الدّولتين لهذا العهد لزّناتة بني مرين وبني عبد
الواد ؛ لما كان عدد بني مرين لأول ملكهم أكثر من بني عبد
الواد ، كانت دولتهم أقوى منها وأوسع نطاقاً وكان لهم عليهم
القلب مرة بعد أخرى . يقال إن عدد بني مرين لأول ملكهم
كان ثلاثة آلاف ، وإن بني عبد الواد كانوا ألفاً ، إلا أن الدولة
بالرفه وكثرة التابع كثرت من أعدادهم .

وعلى هذه النسبة في أعداد المتغلبين لأول الملك يكون
اتساع الدولة وقوتها . وأما طول أمدها أيضاً فعلى تلك النسبة ؛
لأن عمر الحادّث من قوّة مزاجه ؛ ومزاج الدّول إنّما هو بالعصية ؛
فاذا كانت العصيّة قويّة كان المزاج تابعاً لها وكان أمد العمر
طويلاً ؛ والعصيّة إنّما هي بكثرة العدد ووفوره كما قلناه .

وَالسَّبَبُ الصَّحِيحُ فِي ذَلِكَ أَنَّ النِّقْصَ إِنَّمَا يَبْدُو فِي الدَّوْلَةِ مِنْ الْأَطْرَافِ ؛ فَإِذَا كَانَتْ مَمَالِكُهَا كَثِيرَةً كَانَتْ أَطْرَافُهَا بَعِيدَةً عَنْ مَرْكَزِهَا وَكَثِيرَةً ؛ وَكُلُّ نِقْصٍ يَتَّعُ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ زَمَنٍ ؛ فَتَكْثُرُ أَزْمَانُ النِّقْصِ لِكَثْرَةِ الْمَمَالِكِ ، وَاخْتِصَاصِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِنِقْصٍ وَزَمَانٍ فَيَكُونُ أَمْدُهَا طَوِيلًا .

وَانْظُرْ ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الْعَرَبِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَيْفَ كَانَ أَمْدُهَا أَطْوَلَ الدُّوَلِ^(١) ، لَا بَنُو الْعَبَّاسِ أَهْلُ الْمَرْكَزِ وَلَا بَنُو أُمَيَّةِ الْمُسْتَبْدُونَ بِالْأَنْدَلُسِ . وَلَمْ يَنْقُصْ أَمْرُ جَمِيعِهِمْ إِلَّا بَعْدَ الْأَرْبَعِمِائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ . وَدَوْلَةُ الْعُبَيْدِيِّينَ كَانَ أَمْدُهَا قَرِيبًا مِنْ مِائَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً . وَدَوْلَةُ صِنَهَاجَةَ دَوْنَهُمْ مِنْ لَدُنْ تَقْلِيدِ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ أَمْرِ إِفْرِيقِيَّةَ لِبُلْكَيْنَ بْنِ زَيْرِي فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِينَ ، إِلَى حِينَ اسْتِيلَاءِ الْمُوَحِّدِينَ عَلَى الْقَلْعَةِ وَبِجَايَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ . وَدَوْلَةُ الْمُوَحِّدِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ تُنَازِعُ مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ سَنَةً . وَهَكَذَا نَسَبُ الدُّوَلِ فِي أَعْمَارِهَا عَلَى نِسْبَةِ الْقَائِمِينَ بِهَا . سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ .

(١) هَكَذَا وَرَدَ فِي الْأَصْلِ وَرَبَّمَا تَكُونُ الْعِبَارَةُ هَكَذَا : يَتَسَاوَى فِي ذَلِكَ بَنُو الْعَبَّاسِ أَهْلَ الْمَرْكَزِ وَبَنُو أُمَيَّةِ الْمُسْتَبْدُونَ بِالْأَنْدَلُسِ إلخ .

الفصل التاسع

في ان الاوطان الكثيرة القبائل والصلب

قل ان تستحكم فيها دولة

والسبب في ذلك اختلاف الآراء والأهواء، وأن وراء كل رأي منها وهوى عصبية تمنع دونها؛ فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت، وإن كانت ذات عصبية؛ لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن في نفسها منعة وقوة. وأنظر ما وقع من ذلك بافريقية والمغرب منذ أول الإسلام. ولهذا العهد. فإن ساكن هذه الأوطان من البربر أهل قبائل وعصبيات؛ فلم يُغن فيهم القلب الأول الذي كان لابن أبي سرح عليهم وعلى الإفريقية شيئاً. وعاودوا بعد ذلك الثورة والردة مرة بعد أخرى، وعظم الإثخان^(١) من المسلمين فيهم. ولما استقر الدين عندهم عادوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الخوارج مرات عديدة.

قال ابن أبي زيد: ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة. ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لمهد ولاية موسى بن نصير فما بعده. وهذا معنى ما يُنقل عن عمر أن إفريقية مفرقة لقلوب

(١) انخن في العدو وفي الأرض: سار إلى العدو وأوسعهم قتلاً. ورد في الآية ٦٧ من سورة الأنفال: ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾.

أهلها ، إشارة الى ما فيها كثرة العصائب والقبائل الحاملة لهم على عدم الإذعان والانقياد . ولم يكن العراق لذلك العهد بتلك الصفة ولا الشام ، إنما كانت حاميتهما من فارس والروم ؛ والكافة ذمها أهل مدني وأمصار . فلما غلبهم المسلمون على الأمر وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيها ثمانع ولا مُشاق^(١) . والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى ، وكلهم بادية وأهل عصائب وعشائر . وكما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من الخلاف والردة ؛ فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب . وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل : كان فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم واليونان والعمالة وأكريش ، والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتنوعاً في العصبية . فصعب على بني إسرائيل تمهيد دولتهم ورؤسوخ أمرهم واضطرب عليهم الملك مرة بعد أخرى . وسرى ذلك الخلاف إليهم فاختلّفوا على سلطانهم وخرجوا عليه ، ولم يكن لهم ملك موطد سائر أيّامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم عند الجلاء . والله غالب على أمره .

وبعكس هذا أيضاً الأوطان الحالية من العصبية يسهل تمهيد الدولة فيها ، ويكون سلطانها وإزعاً لقلّة أخرج وإلانتقاض ، ولا تحتاج الدولة فيها إلى كثير من العصبية ، كما هو الشأن في

(١) بمعنى المخالف . وفي آية ٤ من سورة الحشر : ﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾ .

مِصْرَ والشَّامَ لهذا العهد، اذ هي خَلُوْ من القَبَائِلِ والعَصَبِيَّاتِ،
كَأَنَّ لَمْ يَكُنِ الشَّامُ مَعْدِنًا لَهُمْ كَمَا قَلَنَاهُ . فَمَلِكُ مِصْرَ فِي غَايَةِ
الدَّعَةِ والرسوخِ لِقَلَّةِ الخَوَارِجِ وَأَهْلِ العَصَائِبِ، إِنَّمَا هُوَ
سُلْطَانٌ وَرَعِيَّةٌ، ودولتها قَائِمَةٌ بِمُلُوكِ التُّرْكِ وَعَصَائِبِهِمْ يَغْلِبُونَ عَلَى
الْأَمْرِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، وَيَنْتَقِلُ الْأَمْرُ فِيهِمْ مِنْ مَنبَتٍ إِلَى
مَنبَتٍ، وَالْخِلَافَةُ مُسَمَّاةٌ لِلْعَبَّاسِيِّ مِنْ أَعْقَابِ الْخُلَفَاءِ بِبَغْدَادَ .

وَكَذَا شَأْنُ الْأَنْدَلُسِ لهذا العهد . فَإِنَّ عَصَبِيَّةَ ابْنِ الْأَحْمَرِ سُلْطَانِهَا
لَمْ تَكُنْ لِأَوَّلِ دَوْلَتِهِمْ بِقُوَّةٍ وَلَا كَانَتْ كَرَّاتٍ ^(١)، إِنَّمَا يَكُونُ أَهْلُ
بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الْعَرَبِ أَهْلُ الدَّوْلَةِ الْأُمُورِيَّةِ بِقَوَا، مِنْ ذَلِكَ، الْقَلَّةُ
وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ لَمَّا انْقَرَضَتِ الدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ مِنْهُ وَمَلِكُهُمْ
الْبَرْبَرُ مِنْ لَمْتُونَةَ وَالْمُوَحِّدِينَ سَتَمُوا مَلِكَتَهُمْ، وَثَقُلَتْ وَطَائِفَتُهُمْ عَلَيْهِمْ،
فَأَشْرَبَتْ الْقُلُوبُ بِغَضَائِهِمْ؛ وَأَمَكْنَ الْمُوَحِّدُونَ وَالسَّادَةُ فِي آخِرِ
الدَّوْلَةِ كَثِيرًا مِنَ الْخُصُونِ لِلطَّاعِيَةِ ^(٢) فِي سَبِيلِ الْإِسْتِظْهَارِ بِهِ عَلَى
شَأْنِهِمْ، مِنْ تَمْلِكِ الْحَضَرَةِ مَرَاكُشَ . فَاجْتَمَعَ مِنْ كَانَ بَقِيَ بِهَا مِنْ
أَهْلِ الْعَصَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ، مَعَادُنُ مِنْ بِيُوتِ الْعَرَبِ، تَجَافَى بِهِمُ الْمَنبَتُ
عَنِ الْحَاضِرَةِ وَالْأَمْصَارِ بَعْضَ الشَّيْءِ، وَرَسَخُوا فِي الْعَصَبِيَّةِ مِثْلَ
ابْنِ هُودٍ وَابْنِ الْأَحْمَرِ وَابْنِ مَرْدَنِشَ وَأَمْثَالِهِمْ . فَقَامَ ابْنُ هُودٍ
بِالْأَمْرِ، وَدَعَا بِدَعْوَةِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِالْمَشْرِقِ، وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَى
الْخُرُوجِ عَلَى الْمُوَحِّدِينَ فَجَبَذُوا إِلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَأَخْرَجُوهُمْ، وَاسْتَقَلَّ

(١) بمعنى متتابعة .

(٢) كَانَ عَرَبُ الْأَنْدَلُسِ يَطْلُقُونَ لِقَبِ الطَّاعِيَةِ عَلَى مُلُوكِ الْفَرَنْجَةِ فِي الْبَرْتِغَالِ وَقِشْتَالَةِ .

ابن هود بالامر بالاندلس. ثم سما ابن الأحمر للأمر، وخالف ابن هود في دعوتيه، فدعا هؤلاء لابن أبي حفص صاحب إفريقية من الموحدين وقام بالامر، وتناولت بعصاة قليلة من قرابته كانوا يُسمون الرؤساء ولم يَتَجَبَّحْ لأكثر منهم لِقَلَّةِ العصائب بالاندلس، وأنها سلطان ورعية. ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية بمن يُجيزُ إليه البحر من أعياص زناتة، فصاروا معه عصبة على المشاغرة^(١) والرياط. ثم سما لصاحب المغرب من ملوك زناتة أمل في الاستيلاء على الأندلس، فصار أولئك الأعياص عصابة ابن الأحمر على الإمتناع منه إلى أن تأثّل^(٢) أمره ورسخ، وألقت النفوس، وعجز الناس عن مطالبته وورثته أعقابُه لهذا العهد. فلا تظن أنه بغير عصاة فليس كذلك؛ وقد كان مبدؤه بعصاة إلا أنها قليلة، وعلى قدر الحاجة؛ فإن فطر الأندلس لِقَلَّةِ العصائب والقبائل فيه يَفْنَى عن كثرة العصبية في التغلب عليهم. والله غني عن العالمين.

الفصل العاشر

في أن من طبيعة الملك الانفراد بالهجد

وذلك أن الملك كما قدّمناه إنما هو بالعصية، والعصية متألفة من عصابات كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها

(١) بمعنى إقامة العساكر في الثغور.

(٢) تأثّل: تأصل.

فتغلّبها وتستولي عليها ، حتى تُصيرَها جميعاً في ضمنها ، وبذلك يكون
 الاجتماع والغلب على الناس والدول . وسرُّه أن العصبية العامة
 للقبيل هي مثل المزاج للمتكون ؛ والمزاج إنما يكون عن العناصر ،
 وقد تبين في موضعه أن العناصر إذا اجتمعت متكافئة فلا يقع
 منها مزاج أصلاً ، بل لا بد أن تكون واحدة منها هي الغالبة على
 الكل حتى تجمعها وتؤلفها وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع
 العصاب ، وهي موجودة في ضمنها . وتلك العصبية الكبرى إنما
 تكون لقوم أهل بيت ورياسة فيهم ؛ ولا بد أن يكون واحد
 منهم رئيساً لهم غالباً عليهم ؛ فيتعين رئيساً للعصبيات كلها لغلب
 منيته لجميعها . وإذا تعين له ذلك فإن الطبيعة الحيوانية خلق
 الكبير والأنفة ؛ فيأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استبعادهم
 والتحكّم فيهم ؛ ويحيي خلق التآله الذي في طباع البشر مع ما
 تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم ، لفساد الكل باختلاف الحكام :
 ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١) . فتجدع حينئذ أنوف
 العصبيات وتفلج شكائهم عن أن يسئوا إلى مشاركتهم في التحكّم ،
 وتقرع عصبيتهم عن ذلك ، وينفرد به ما استطاع ، حتى لا يترك
 لاحد منهم في الأمر لا ناقة ولا جمل . فينفرد بذلك المجدي
 بكليته ويدفعهم عن مساهمته . وقد يتم ذلك للأول من ملوك
 الدولة ، وقد لا يتم إلا للثاني والثالث على قدر ممانعة العصبيات

(١) آية ٢٢ من سورة الأنبياء .

وقوتها . إلا أنه أمرٌ لا بد منه في الدول . ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ
خَلَقَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الفصل الحادي عشر

في أن من طبيعة الملك الترف

وذلك أن الأئمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك
قبلها كثر رياسها ونعمتها فتكثر عوائدهم ، ويتجاوزون ضرورات
العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته . ويذهبون الى اتباع
من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم ، وتصير لتلك النوافل عوائد
ضرورية في تحصيلها ، وينزعون مع ذلك الى رقة الأحوال في
المطاعم والملابس والفرش والآنية ، ويتفاخرون في ذلك ويفخرون
فيه غيرهم من الأمم ، في أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب
الفاره^(١) ، وينبغي خلفهم في ذلك سلفهم الى آخر الدولة . وعلى قدر
ملكهم يكون حظهم من ذلك ، وترفعهم فيه ؛ إلى أن يبلغوا من
ذلك الغاية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها وعوائده من قبلها .
سنة الله في خلقه والله تعالى أعلم .

(١) الفاره في الفرس والبرذون والحمار: الجيد السير.

الفصل الثاني عشر

في أن من طبيعة الملك الحجة والسكون

وذلك أن الأئمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة ، والمطالبة غايتها القلب والملك ، وإذا حصلت الغاية انقضى السعي إليها .
قال الشاعر :

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فلما انقضى ما بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

فاذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة ، ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس ، فيبنون القصور ، ويحجرون المياه ، ويفرسون الرياض ، ويستمتعون بأحوال الدنيا ، ويؤثرون الراحة على المتاعب ، ويتأنقون في أحوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش^(١) ما استطاعوا ، ويألفون ذلك ويؤثرونه من بعدهم من أجيالهم . ولا يزال ذلك يتزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره ، وهو خير الحاكمين ، والله تعالى أعلم .

(١) الفرش بفتح الفاء وسكون الراء: المفروش من متاع البيت، وهو المقصود هنا والفرش بضم الفاء والراء، جمع فراش: ما افترش (لسان العرب).

الفصل الثالث عشر

ففي انه اذا استحكم طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف
والدعة اقبلت الدولة على الهرم

وبياؤه من وجوم :

الأول أنها تقتضي الانفراد بالمجد كما قلناه . وما كان المجد
مشتراً كما بين العصابة وكان سعيهم له واحداً ، كانت همهم في التغلب
على الغير والذب عن الخوزة أسوة في طموحها وقوة شكايتها ،
ومرماهم الى العز جميعاً ، وهم يستطيعون الموت في بناء مجديهم
ويؤثرون الهلكة على فسادهم . واذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع
عصيتهم وكبح من أعنتهم ، واستأثر بالاموال دونهم ؛ فتكاسلوا عن
الغزو وفشل ريجهم وديقوا^(١) المذلة والاستعباد . ثم ربي الجيل الثاني
منهم على ذلك ، يحسبون ما ينالهم من العطاء أجراً من السلطان لهم
على الحماية والمعونة ، لا يجري في عقولهم سواه ، وقل أن يستأجر
أحد نفسه على الموت ؛ فيصير ذلك وهناً في الدولة وخسداً من
الشوكة ، وتقبل به على مناحي الضعف والهرم لفساد العصية
بذهاب البأس من أهلها .

والوجه الثاني أن طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه ،
فتكثر عوائدهم وتريد نفقاتهم على أعطياتهم ، ولا يفي دخلهم

(١) ألفوا .

بُخْرِجَهُمْ ؛ فالفقيرُ منهم يهلكُ والمُتَرَفُّ يستغرقُ عطاءه بترفه ؛ ثم يزدادُ ذلك في أجيالهم المتأخِّرةِ الى أن يقصُرَ العطاءُ كُلُّهُ عن الترفِ وعوائدهِ ، وتمسَّهم الحاجةُ وتطالِبَهم ملوكُهم بحصرِ نفقاتهم في الغزو والحروبِ ؛ فلا يجدون وليجةً^(١) عنها ، فيوقعون بهم العقوباتِ ، وينتزعون ما في أيدي الكثيرِ منهم يستأثرون به عليهم ، أو يؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم ؛ فيضعفونهم لذلك عن إقامة أحوالهم ، ويضعفُ صاحبُ الدولة بضعفهم . وأيضاً إذا كثر الترفُ في الدولة وصارَ عطاؤهم مقصراً عن حاجاتهم ونفقاتهم ، احتاج صاحبُ الدولة الذي هو السلطانُ إلى الزيادةِ في إعطياتهم حتى يسدَّ خللهم^(٢) ويُزيحَ عنهم . والجبايةُ مقدارُها معلومٌ ، ولا تريدُ ولا تنقصُ وإن زادتُ بما يُستحدثُ من المكوسِ فيصيرُ مقدارُها بعد الزيادةِ محدوداً . فإذا وُزِّعتِ الجبايةُ على الأعطياتِ وقد حدثت فيها الزيادةُ لكل واحدٍ بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم ، نقص عددُ الحاميةِ حينئذٍ عما كان قبلَ زيادةِ الأعطياتِ . ثم يعظمُ الترفُ وتكثرُ مقاديرُ الأعطياتِ لذلك ، فينقصُ عددُ الحاميةِ ، وثالثاً ورابعاً إلى أن يعودَ العسكرُ إلى أقلِّ الأعدادِ ؛ فتضعفُ الحمايةُ لذلك ، وتسقطُ قوةُ الدولةِ ويتجاسرَ عليها من يجاورُها من الدولِ أو من هو تحت يديها من القبائلِ والعصائبِ ، ويأذنَ اللهُ فيها بالفناء الذي كتبه على خليقته .

(١) يستعمل ابن خلدون كلمة وليجة بمعنى المنتدخ ، وهو استعمال غير سليم . ومعنى الوليجة : البطانة والخاصة ومن يتخذها الإنسان معتمداً عليه من غير أهله (قاموس) .

(٢) لعل كلمة خلل هنا محرفة عن خلَّة وهي الحاجة والخصاصة . والخلل الوهن في الأمر والرقعة في الناس (قاموس) .

وأيضاً فالترف مُفسِدٌ للخلق بما يحصلُ في النفس من ألوانِ الشرِّ والسفسفةِ وعوائدها كما يأتي في فصلِ الحضارةِ ، فتذهبُ منهم خلالُ الخير التي كانت علامةً على الملك ودليلاً عليه ، ويتصفون بما يناقضها من خلالِ الشرِّ ، فتكونُ علامةً على الإذبارِ والانتقراضِ بما جعل الله من ذلك في خليقته ، وتأخذُ الدولةُ مبادئَ العطبِ وتتضععُ أحوالها وتنزلُ بها أمراضُ مُزمنةٌ من الهرمِ الى أن يُقضى عليها .

الوجهُ الثالثُ : أن طبيعة الملك تقتضي الدعة كما ذكرناه ؛ وإذا اتخذوا الدعة والراحة مألفاً وخلقاً صارَ لهم ذلك طبيعةً وجيلةً شأنَ العوائدِ كُلِّها وإيلافها ، فتربى أجيالهم الحادثةُ في غُضارةِ العيشِ وبهاذِ الترفِ والدعةِ ، وينقلبُ خلقُ التوحشِ وينسونَ عوائدَ البداوةِ التي كان بها الملكُ من شدّةِ البأسِ ، وتعودُ الافتراسِ ودُكوبِ البداءِ وهدايةِ القفرِ . فلا يُفرّقُ بينهم وبين السوقةِ من الحضَرِ إلا في الثقافةِ والشارقةِ فتضعفُ حمايتهم ويذهبُ بأسهمُ وتنخضدُ شوكتهم ويعودُ وبالُ ذلك على الدولةِ بما تلبسُ به من ثيابِ الهرمِ . ثم لا يزالونَ يتلونونَ بعوائدِ الترفِ والحضارةِ والسكونِ والدعةِ ورقّةِ الحاشيةِ في جميعِ أحوالهم ، وينغمسونَ فيها ، وهم في ذلك يبعدونَ عن البداوةِ والخشونةِ ، وينسلخونَ عنها شيئاً فشيئاً ، وينسونَ خلقَ البسالةِ التي كانت بها الحمايةُ والمدافعةُ ، حتى يعودوا عيالاً على حاميةٍ أخرى إن كانت لهم . واعتبرَ ذلك في الدولِ التي أخبارُها في الصحفِ لديك تجد ما قلتهُ لك من ذلك صحيحاً من غيرِ ريبةٍ .

ورُبَّما يحدثُ في الدَّولةِ ، إذا طرَقها هذا ألَهرَمُ بالترَفِ والراحَةِ ، أن يَتَخَيَّرَ صاحِبُ الدَّولةِ أنصاراً وشيعةً من غير جِلْدَتِهِمْ يَمْنُ تَعَوُّدَ الخُسوفَةِ فيَتَّخِذَهُمْ جُنْداً يَكُونُ أَصْبَرَ على الحَرْبِ وأَقْدَرَ على مُعَانَاةِ الشَّدَائِدِ من أَجْلوعِ والشَّظَفِ ، ويَكُونُ ذلك دواءً للدَّولةِ من ألَهرَمِ الَّذي عساهُ أن يطرُقها حتى يأذنَ اللهُ فيها بأمرِهِ . وهذا كما وَقَعَ في دولةِ التُّركِ بالْمَشْرِقِ ؛ فَإِنَّ غالِبَ جُنْدِها الموالِي من التُّركِ . فتَتَخَيَّرُ ملوكُهُمْ من أولئك المماليكِ المجلوبين إليهم فُرساناً وجُنْداً ، فيَكُونُونَ أَجْراً على الحَرْبِ وأَصْبَرَ على الشَّظَفِ من أبناءِ الملوكِ الَّذِينَ كانوا قَبْلَهُمْ وَرَبَّوا في ماءِ النِّعَمِ والسُّلْطَانِ وَظِلِّهِ . وكذلك في دولةِ الموحِّدين بِإفريقيةَ ؛ فَإِنَّ صاحِبَها كَثيراً ما يَتَّخِذُ أَجْنادَهُ من زَنائَةِ والعَرَبِ وَيَسْتَكْثِرُ مِنْهُمْ ، وَيَتْرَكُ أَهْلَ الدَّولةِ الْمُتَعَوِّدِينَ للترَفِ فتَسْتَحِدُّ الدَّولةُ بِذلك عَمراً آخراً سالماً من ألَهرَمِ . واللهُ وارثُ الأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْها .

الفصل الرابع عشر

في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص

اعْلَمَ أَنَّ العُمَرَ الطَّبِيعِيَّ للأشخاصِ على ما زعم الأَطِبَّاءُ والمنجِّمونَ مائةٌ وعشرونَ سنةً ، وهي سِنُو القَمَرِ الكَبْرَى عندَ المنجِّمينَ . ويَتَخَلَّفُ العُمَرُ في كُلِّ جِيلٍ بِحَسَبِ القِراناتِ ؛ فيزيدُ عن هذا وينقصُ منه ، فتَكُونُ أعمارُ بعضِ أَهْلِ القِراناتِ مائةً

تامةً وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة
القرائن عند الناظرين فيها . وأعمار هذه المئة ما بين الستين الى
السبعين كما في الحديث . ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو
مائة وعشرون إلا في الصور النادرة وعلى الأوضاع الغريبة من
الفلك كما وقع في شأن نوح عليه السلام ، وقليل من قوم عاد
وثمود . وأما أعمار الدول أيضاً وإن كانت تختلف بحسب القرائن ،
إلا أن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال . وأجل
هو عمر شخص واحد من العمر الوسيط ، فيكون أربعين الذي
هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته . قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ
أَشَدَّهُم بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ ^(١) . ولهذا قلنا إن عمر الشخص الواحد
هو عمر أجيل . ويؤيده ما ذكرناه في حكمة التيه الذي وقع في
بني اسرائيل ، وأن المقصود بالأربعين فيه فناء أجيل الأحياء
ونشأة جيل آخر لم يعمدوا الذل ولا عرفوه ؛ فدل على اعتبار
الأربعين في عمر الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد .

وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال :
لأن الجيل الأول لم يذالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها
من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد ، فلا
ترال بذلك سورة العصية محفوظة فيهم ، فحدثهم مرهف ، وجانبهم
مرهوب ، والناس لهم مغلوبون .

والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفع من البداوة الى

(١) من آية ١٥ من سورة الأحقاف .

أَلْخَضَارَةِ وَمِنَ الشَّظَفِ إِلَى التَّرَفِ وَالْخَصْبِ ، وَمِنَ الْإِشْتِرَاكِ فِي
الْمَجْدِ إِلَى انْفِرَادِ الْوَاحِدِ بِهِ ، وَكَسَلَ الْبَاقِينَ عَنِ السَّيِّئِ فِيهِ ، وَمِنَ
عِزِّ الْإِسْطِطَالَةِ إِلَى ذُلِّ الْإِسْتِكَانَةِ ، فَتَكْسِرُ سَوَادَةُ الْعَصَبِيَّةِ بَعْضَ
الشَّيْءِ ، وَتُوَلِّسُ مِنْهُمْ أَلْمَهَانَةَ وَالْخُضُوعَ . وَيَبْقَى لَهُمُ الْكَثِيرُ مِنْ
ذَلِكَ ، بَمَا أَدْرَكَوا الْجَيْلَ الْأَوَّلَ وَبَاشَرُوا أَحْوَالَهُمْ وَشَاهَدُوا مِنْ
اعْتِرَازِهِمْ وَسَعْيِهِمْ إِلَى الْمَجْدِ وَمِرَامِيهِمْ فِي الْمُدَافَعَةِ وَالْحِمَايَةِ ، فَلَا
يَسْمَعُونَ تَرْكُ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ ، وَإِنْ ذَهَبَ مِنْهُ مَا ذَهَبَ ، وَيَكُونُونَ
عَلَى رَجَاءٍ مِنْ مَرَاجَعَةِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانَتْ لِلجَيْلِ الْأَوَّلِ ، أَوْ عَلَى
ظَنِّهِ مِنْ وَجُودِهَا فِيهِمْ .

وَأَمَّا الْجَيْلُ الثَّالِثُ فَيَنْسَوْنَ عَهْدَ الْيَدَاوَةِ وَالْخُشُونَةِ كَأَنَّهُمْ
تَكُنْ ، وَيَفْقِدُونَ حِلَاوَةَ الْعِزِّ وَالْعَصَبِيَّةِ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ مَلَكَةِ الْقَهْرِ
وَيَبْلُغُ فِيهِمُ التَّرَفُ غَايَتَهُ بِمَا تَفْتَقُوهُ (١) مِنَ النِّعَمِ وَغَضَارَةِ الْعِيشِ ،
فَيَصِيرُونَ عِيَالًا عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَمِنْ جِلَّةِ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الْمُحْتَاجِينَ
لِلْمُدَافَعَةِ عَنْهُمْ ، وَتَسْقُطُ الْعَصَبِيَّةُ بِالْجِلَّةِ ، وَيَنْسَوْنَ الْحِمَايَةَ وَالْمُدَافَعَةَ
وَالْمُطَالِبَةَ ، وَيُلْبَسُونَ عَلَى النَّاسِ فِي الشَّارِقِ وَالزَّيْ وَرَكُوبِ الْخَيْلِ
وَحَسَنِ الثَّقَافَةِ يَمْوَهُونَ بِهَا ، وَهُمْ فِي الْأَكْثَرِ أَجْبَنُ مِنَ النِّسْوَانِ
عَلَى ظُهُورِهَا . فَإِذَا جَاءَ الْمُطَالِبُ لَهُمْ لَمْ يُقَاوِمُوا مُدَافَعَتَهُ ، فَيَحْتَاجُ
صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِلَى الْإِسْتِظْهَارِ بِسِوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ النُّجْدَةِ ،
وَيَسْتَكْثِرُ بِالْمَوَالِي ، وَيَصْطَلِّعُ مَنْ يَنْغِي عَنِ الدَّوْلَةِ بِبَعْضِ الْفَنَاءِ ،

(١) تَفْتَقُ : تَنْعَم (قَامُوس)

حتى يتأذن الله بانقراضها ، فتذهب الدولة بما حملت . فهذه كما
تراه ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلُّفها .

ولهذا كان انقراض الحسب في الجيل الرابع كما مر في أن
الجد والحسب إنما هو في أربعة آباء . وقد أتيناك فيه بيزهان
طبيعي كاف ظاهر مبني على ما مهدناه قبل من المقدمات ؛ فتأمل
فلن تعدو وجه الحق ان كنت من أهل الانصاف .

وهذه الأجيال الثلاثة عُمرها مائة وعشرون سنة على ما مر .
ولا تعدو الدول في الغالب هذا العُمر بتقريب قبله أو بعده ، إلا
إن عَرَضَ لها عارض آخر من فقدان المطالب ، فيكون أهرم
حاصلاً مستولياً والمطالب لم يخضرها ، ولو قد جاء الطالب لما
وجد مدافعاً . ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ .

فهذا العمر للدولة بمثابة عُمر الشخص من التَّيْد إلى سن
الوقوف ، ثم إلى سن الرجوع . ولهذا يجري على ألسنة الناس
في المشهور أن عُمر الدولة مائة سنة ، وهذا معناه . فاعتبره واتخذ
منه قانوناً يُصَحِّحُ لك عدد الآباء في عمود النسب الذي تريده من
قبل معرفة السنين الماضية إذا كنت قد استرثيت في عديهم ،
وكانت السنين الماضية مُنْذُ أُولَئِكَ مُحْصَلَةٌ لَدَيْكَ فَمُدْ لِكُلِّ مائة
من السنين ثلاثة من الآباء ؛ فان نقلت على هذا القياس مع
نُفُودٍ^(١) عديهم فهو صحيح ، وإن نقصت عنه بجيل فقد غلط

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ ، والأصح : نفاد عددهم .

عَدَّهُمْ بِزِيَادَةٍ وَاحِدَةٍ فِي عُمُودِ النَّسَبِ ، وَإِنْ زَادَتْ بِمِثْلِهِ فَقَدْ سَقَطَ وَاحِدٌ . وَكَذَلِكَ تَأْخُذُ عَدَّةُ السِّنِينَ مِنْ عَدَدِهِمْ إِذَا كَانَ مُحْصَلًا لَدَيْكَ ، فَتَأْمَلُهُ تَجِدُهُ فِي الْغَالِبِ صَحِيحًا . ﴿وَاللَّهُ يُفَقِّدُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ .

الفصل الخامس عشر

فِي انْتِقَالِ الدَّوْلَةِ مِنَ الْبُحَاوَةِ إِلَى الْحَضَارَةِ

اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَطْوَارَ طَبِيعِيَّةٌ لِلدُّوْلِ . فَإِنَّ الْغَلَبَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْمُلْكُ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَصَبِيَّةِ وَبِمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ شِدَّةِ الْبَاسِ وَتَعَوُّدِ الْإِفْتِرَاسِ ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ غَالِبًا إِلَّا مَعَ الْبِدَاوَةِ ، فَطَوْرُ الدَّوْلَةِ مِنْ أَوَّلِهَا بِدَاوَةٌ . ثُمَّ إِذَا حَصَلَ الْمُلْكُ تَبِعَهُ الرَّفْعُ وَاتَّسَعَ الْأَحْوَالُ ، وَالْحَضَارَةُ إِنَّمَا هِيَ تَفْتَنُ فِي التَّرَفِ وَإِحْكَامِ الصَّنَائِعِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي وَجْهِهِ وَمَذَاهِبِهِ مِنَ الْمَطَابِخِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمُبَانِي وَالْقُرَشِ وَالْأَبْنِيَةِ وَسَائِرِ عَوَائِدِ الْمَنْزِلِ وَأَحْوَالِهِ ؛ فَلَكَلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا صَنَائِعُ فِي اسْتِجَادَتِهِ وَالتَّائِقُ فِيهِ تَخْتَصُّ بِهِ وَيَتَلَوُّ بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَتَتَكَثَّرُ بِاخْتِلَافِ مَا تَنْزِعُ إِلَيْهِ النُّفُوسُ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ وَالْتَنَعْمِ بِأَحْوَالِ التَّرَفِ ، وَمَا تَتَلَوَّنُ بِهِ مِنَ الْعَوَائِدِ . فَصَارَ طَوْرُ الْحَضَارَةِ فِي الْمُلْكِ يَتَّبِعُ طَوْرَ الْبِدَاوَةِ ضَرُورَةً ، لِمُضْرُورَةِ تَبَعِيَّةِ الرَّفْعِ لِلْمُلْكِ .

وَأَهْلُ الدُّوْلِ أَبَدًا يَقْلِدُونَ فِي طَوْرِ الْحَضَارَةِ وَأَحْوَالِهَا لِلدَّوْلَةِ السَّابِقَةِ قَبْلَهُمْ . فَأَحْوَالُهُمْ يُشَاهِدُونَ ، وَمِنْهُمْ فِي الْغَالِبِ يَأْخُذُونَ ، وَمِثْلُ هَذَا وَقَعَ لِلْعَرَبِ لَمَّا كَانَ الْفَتْحُ وَمَلَكَوا فَارِسَ وَالرُّومَ

واستخدموا بنائهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة . فقد حكي أنه قديم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رِقاعاً ، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحاً ، وأمثال ذلك .

فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم أفادوهم علاج ذلك ، والقيام على عمله ، والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية في ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترّف في الأحوال ، واستجادت المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والحريّ ؛ وكذلك أحوالهم في أيام المباحة والولائم وليالي الإعراس^(١) ، فأثروا من ذلك وراء الغاية .

وانظر ما نقله المسعودي والطبري وغيرهما في إعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل ، وما بذل أبوها حاشية المأمون حين وافاه في خطبتها إلى داره بفهم الصلح ، وركب إليها في السفين ، وما أنفق في إملاكها^(٢) ، وما أنفقه المأمون وأنفق في عرسها ، تقف من ذلك على العجب . فمنه أن الحسن بن سهل نثر يوم الإملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون ، فنثر

(١) أعرس بامراته إعراساً: دخل بها .

(٢) الإملاك: النكاح والتزويج ، وأملكه امرأة: زوجه إياها . يقال: شهدنا إملاكه أي حفل

زواجه .

على الطَبَقَةِ الْأُولَى مِنْهُمْ بِنَادِقِ الْمَسَكِ مَلْتَوْتَةً^(١) عَلَى الرِّقَاعِ
بِالضِّيَاعِ وَالْمَقَارِ، مَسْوُغَةً لِمَنْ حَصَلَتْ فِي يَدِهِ، يَقَعُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
مَا آدَاهُ إِلَيْهِ الْإِتِّفَاقُ وَالْبَحْتُ؛ وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ بِدَرٍّ^(٢)
الدَّنَانِيرِ فِي كُلِّ بَدْرَةٍ عَشْرَةُ آلَافٍ؛ وَفَرَّقَ عَلَى الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ
بِدَرِّ الدَّرَاهِمِ. كَذَلِكَ؛ بَعْدَ أَنْ أَنْفَقَ فِي مُقَامَةٍ^(٣) الْمَأْمُونِ بِدَارِهِ
أَضْعَافَ ذَلِكَ. وَمِنْهُ أَنَّ الْمَأْمُونَ أَعْطَاهَا فِي تَهْرِهَا لَيْلَةَ زِفَافِهَا
أَلْفَ حَصَاقَةٍ مِنَ الْيَاقُوتِ، وَأَوْقَدَ شَمْعَ الْعَنْبَرِ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ
مِائَةً مِنْهُ وَهُوَ رِطْلٌ وَثَلَاثَانُ^(٤) وَبَسَطَ لَهَا قَرَشًا كَانَ الْحَصِيرُ مِنْهَا
مَنْسُوجًا بِالذَّهَبِ مَكَلَّلًا بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ. وَقَالَ الْمَأْمُونُ حِينَ رَأَاهُ:
«قَاتِلَ اللَّهُ أَبَا نُوَّاسٍ، كَأَنَّهُ أَبْصَرَ هَذَا حَيْثُ يَقُولُ فِي صِفَةِ الْحَمْرِ:
كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ قَوَاقِمِهَا حَصْبَاءَ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

وَأَعَدَّ بِدَارِ الطَّبْخِ مِنَ الْحَطْبِ لِلَّيْلَةِ الْوَلِيمَةِ نَقْلَ مِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ
بَغْلًا مَدَّةَ عَامٍ كَامِلٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كُلَّ يَوْمٍ. وَفَنِيَ الْحَطْبُ لِلْيَتِيمِينَ،
وَأَوْقَدُوا الْجَرِيدَ يَصُبُّونَ عَلَيْهِ الزَّيْتَ. وَأَوْعَزَ إِلَى النَوَائِيَّةِ بِاحْضَارِ
السُّفْنِ لِإِجَازَةِ الْخَوَاصِرِ مِنَ النَّاسِ بِدِجْلَةٍ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى قُصُورِ

(١) اللت: الشد والإيثاق. والمعنى أن بنادق المسك مشدودة على الرقاع ومثبتة عليها، في صورة يتكون منها في كل رقعة جملة تهب من وقعت في يده ضيعة أو عقاراً من أملاك الحسن بن سهل.

(٢) بدر جمع بدرة وهي عشرة آلاف درهم.

(٣) المقامة بالضم الإقامة.

(٤) علق الموريني على كلمة (وثلاثان) بقوله: «قوله وثلاثان الذي في كتب اللغة أن المن رطل وقيل رطلان ولم يوجد في النسخة التونسية الثلاثان اهـ». وفي القاموس: «المن كيل معروف أو ميزان أو رطلان».

الملك بمدينة المأمون لحضورِ أُوليمية ، فكانت الحِرَاقَات^(١) المَعْدَّةُ لذلك ثلاثين ألفاً ، أجازوا الناسَ فيها أخرياتِ نهارهم . وكثيرٌ من هذا وأمثاله . وكذلك عرسُ المأمون بن ذي النون بطليطلة ؛ نقله ابنُ بَسَّامٍ في كتابِ الذخيرة وابنُ جَبَّانٍ بعد أن كانوا كلهم في الطورِ الأوَّلِ من البداوة عاجزينَ عن ذلك جَلَّةً ، لِفَقْدانِ أسبابه والقائمينَ على صنائعِهِ في غَضاضَتِهِمْ^(٢) وسَدَاجَتِهِمْ .

ويُذكرُ أن الحِجَّاجَ أُولمَ في اختِتانٍ بعضٍ وُلده فاستحضرَ بعضَ الدهاقينِ^(٣) يسألهُ عن ولائمِ الفُرسِ ؛ وقال : أخبرني بأعظمِ صنيعٍ شهدتهُ ، فقال له : نعم أيُّها الأمير ، شهدتُ بعضَ مرازيةٍ كسرى ، وقد صنع لأهلِ فارسَ صنيعاً أحضر فيه صحافَ الذهبِ على أخوثةِ الفِضَّةِ ، أربعاً على كلِّ واحدٍ ، وتحمله أربعُ وصائفَ ، ويجلسُ عليه أربعةٌ من الناسِ ، فإذا طَلِمُوا أَتَبَعُوا أَرْبَعَتُهُم المائدةُ بصِحَافِها ووصائفِها . فقال الحِجَّاجُ : يا غلام انحرِ الجُزَّ وأطِمْ الناسَ . وعِلِمَ أنه لا يستَقِلُّ بهذه الأبهة . وكذلك كان .

ومن هذا البابِ أعطِيَةُ بني أُمَيَّةَ وجوازُهم . فإنَّما كان أكثرها الأبلَ أخذاً بمذاهبِ العَرَبِ وبداوتهم . ثم كانت الجوازُ

(١) الحِرَاقَات بالفتح جمع حِرَاقَة : سفينة فيها مرامي نار يرمى بها العدوُّ في البحر . ومنها على ما يظهر نوع كان يستعمل للنزعة في البحار والأنهار . وهذا النوع هو المقصود هنا حسب مقتضى السياق .

(٢) بمعنى الضلالة .

(٣) جمع دهقان ، بضم الدال وكسرهما : معرب يطلق على رئيس القرية والتاجر وصاحب العقارات .

في دولة بني العباسِ والعُبَيْدِيِّينَ من بعدهم ما علمت من احوالِ
 المالِ ونخوتِ الثيابِ وإعدادِ الخيلِ بمراكبها .
 وهكذا كان شأنُ كُتامةٍ مع الْأَغَالِبَةِ بأفريقيةَ ، وكذا بنو
 طَنْجٍ بِمِصْرَ ، وشأنُ لَمْتُونَةَ مع مُلوكِ الطوائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ ،
 والمُوحِدِينَ كذلك وشأنُ زَنَاتَةَ مع المُوحِدِينَ وهلمَّ جراً ؛ تنتقلُ
 الحضارةُ من الدولِ السالِفةِ الى الدولِ الخالِفةِ ؛ فانتقلتْ حضارةُ
 الْفُرسِ لِلْعَرَبِ بني أُمَيَّةَ وبني العباسِ ؛ وانتقلتْ حضارةُ بني أُمَيَّةَ
 بِالْأَنْدَلُسِ إلى مُلوكِ المغربِ من المُوحِدِينَ وزَنَاتَةَ لهذا العهد ؛
 وانتقلتْ حضارةُ بني العباسِ الى الدَّيْلَمِ ثم الى التُّركِ ، ثم إلى
 السُّلْجُوقِيَّةِ ، ثم الى التُّركِ المماليكِ بِمِصْرَ ، والتَّترِ بِالْعِرَاقِينَ . وعلى
 قَدَرِ عِظَمِ الدولةِ يكونُ شأنُها في الحضارةِ ؛ إذ أمورُ الحضارةِ من
 تَوَابِعِ التَّرَفِ ، والتَّرَفُ من تَوَابِعِ الثَّرْوَةِ والنِّعْمَةِ ، والثَّرْوَةُ والنِّعْمَةُ
 من تَوَابِعِ الْمُلْكِ ، ومقدارِ ما يستولي عليه أهلُ الدولةِ . فعلى
 نسبةِ الملكِ يكونُ ذلكُ كُلُّهُ . فاعتبرهُ وتفهمهُ وتأملهُ تجذهُ
 صحيحاً في العُمرانِ . وَاللَّهُ وارثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا ، وهو
 خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل السادس عشر

في ان الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها

والسبب في ذلك أن القبيل إذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد والعمومية، فكثرت العصابة؛ واستكثروا أيضاً من الموالى والصنائع، وريبت أجيالهم في جور ذلك النعيم والرّفه^(١)، فازدادوا بهم عدداً إلى عديهم وقوة إلى قوتهم بسبب كثرة العصاب حينئذ بكثرة العدد. فإذا ذهب الجيل الأول والثاني وأخذت الدولة في الهرم لم تستقل أولئك الصنائع والموالى بأنفسهم في تأسيس الدولة وتمهيد ملكها، لأنهم ليس لهم من الأمر شيء، إنما كانوا عيالاً على أهلها ومعونة لها؛ فإذا ذهب الأصل لم يستقل الفرع بالرسوخ فيذهب ويتلاشى، ولا تبقى الدولة على حالها من القوة.

واعتبر هذا بما وقع في الدولة العربية في الإسلام. كان عدد العرب كما قلناه لمعهد النبوة والخلافة مائة وخمسين ألفاً أو ما يقاربها من مضر وقحطان؛ ولما بلغ الترف مبالغته في الدولة وتوفر ثموتهم بتوفر النعمة، واستكثر الخلفاء من الموالى والصنائع، بلغ ذلك العدد إلى أضعافه. يقال: إن المعتصم نازل عمورية لما

(١) رفه: لان عيشه.

افتتحها في تسعمائة ألف . ولا يبعدُ مثلُ هذا العدد أن يكون صحيحاً إذا اعتبرت حاميَّتهم في الثغور الدائنية والقاصية شرقاً وغرباً إلى الجند الحاملين سرير الملك والموالي والمصطنعين . وقال المسعودي : أحصى بنو العباس بن عبد المطلب خاصة أيام المأمون للإنفاق عليهم ، فكانوا ثلاثين ألفاً بين ذكران وإناث ؛ فانظر مبالغ هذا العدد لأقل من مئتي سنة ؛ واعلم أن سببه الرفة والنعم الذي حصل للدولة وزيي فيه أجيالهم ؛ وإلا فعدد العرب لأول الفتح لم يبلغ هذا ولا قريباً منه . والله الخالق العليم .

الفصل السابع عشر

في أطوار الدولة واقتلاف احوالها وخلق اهلها باقتلاف الاطوار

اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة ، ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر ، لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه . وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار :

الطور الأول : طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع ، والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السابقة قبلها . فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب

المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية ، لا ينفردونهم بشيء لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها القلب وهي لم تزل بعد بحالها .

الطور الثاني : طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكيهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة . ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنياً باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والصنائع ، والاستكثار من ذلك ليلدع أنوف أهل عصبية وعشيرته المقاسمين له في نسبه ، الضارين في الملك بمثل سهمه . فهو يدايهم عن الأمر ويصدّهم عن موارد ويردّهم على أعقابهم ، أن يخلصوا اليه ، حتى يُقرّ الأمر في نصايه ، ويُفرد أهل بيته بما يبني من مجده ؛ فيعاني من مدافعتهم ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشدّ ؛ لأن الأولين دافعوا الأجانب فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية بأجمعهم ؛ وهذا يدافع الأقارب لا يظهره على مدافعتهم الا الأقل من الأبعد ، فيركب صعباً من الأمر .

الطور الثالث : طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعده الصيت ؛ فيستفرغ وسعته في الجباية وضبط الدخل والخرج وإحصاء النفقات والقصد فيها ، وتشديد المباني الحافلة والمصانع العظيمة والأمصار المتسعة وأهياكل المرتفعة ، وإجازة الوفود من أشراف الأمم ووجوه القبائل وبث المعروف في أهله ، هذا مع

التوسعة على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه ، واعتراض^(١) جُودِهِ وإذْرائِ أَرْزاقِهِمْ وإنْصافِهِمْ في أعْطِيائِهِمْ لِكُلِّ هَلاَلٍ ، حتَّى يَظْهَرَ أَثَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ في مَلابِسِهِمْ وَشِكَايَتِهِمْ^(٢) وَشَارَاتِهِمْ يَوْمَ الزِينَةِ ، فَيَبْأِهُمُ الدُّوْلَ الْمَسْأَلَةَ ، وَيُزْهِبُ الدُّوْلَ الْحَارِبَةَ . وَهَذَا الطُّورُ آخِرُ أَطْوَارِ الْإِسْتِبدَادِ مِنْ أَصْحَابِ الدُّوْلَةِ . لِأَنَّهُمْ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ كُلِّهَا مُسْتَقْلُونَ بِأَرَائِهِمْ ، بَانُونَ لِعِزِّهِمْ ، مُوضِحُونَ الطُّرُقَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ .

الطور الرابع : طُورُ الْقَنُوعِ وَالْمَسْأَلَةِ . وَيَكُونُ صَاحِبُ الدُّوْلَةِ فِي هَذَا قَانِعاً بِمَا بَنَى أَوَّلُهُ ، سَلْماً لِأَنْظَارِهِ مِنَ الْمُلُوكِ وَأَقْتَالِهِ ، مَقْلِداً لِلْمَاضِينَ مِنْ سَلَفِهِ ، فَيَتَّبِعُ آثَارَهُمْ حَذْوَ النَعْلِ بِالنَعْلِ ، وَيَقْتَفِي طُرُقَهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَاجِزِ الْإِقْتِدَاءِ ، وَيَرَى أَنَّ فِي الْخُرُوجِ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فُسَادَ أَمْرِهِ وَأَنَّهُمْ أَبْصَرُوا بِمَا بَنَوْا مِنْ تَجْدِيدِهِ .

الطور الخامس : طُورُ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ . وَيَكُونُ صَاحِبُ الدُّوْلَةِ فِي هَذَا الطُّورِ مُتْلِفاً لِمَا جَمَعَ أَوَّلُهُ فِي سَبِيلِ الشَّهَوَاتِ وَالْمَلَاذِ وَالكَرَمِ عَلَى بَطَانَتِهِ وَفِي مَجَالِسِهِ ، وَاضْطِنَاعِ أَخْدَانِ السُّوءِ وَخَضْرَاءِ الدِّمَنِ^(٣) ، وَتَقْلِيدِهِمْ عَظِيمَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَسْتَقِلُّونَ بِحَمْلِهَا ، وَلَا يَعْرِفُونَ مَا يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ مِنْهَا ، مُسْتَفْسِداً لِكِبَارِ الْأَوْلِيَاءِ مِنْ قَوْمِهِ وَصَنَائِعِ سَلَفِهِ ، حتَّى يَضْطَغِنُوا عَلَيْهِ ، وَيَتَخَاذَلُوا

(١) بمعنى العرض . ولا يقال : اعترض القائد الجند ، بل يقال عرض الجند بمعنى دعاهم يَمْرُونَ أَمَامَهُ لِيَنْظُرَ حَالَهُمْ .

(٢) الشكّة : السلاح .

(٣) بمعنى الجميل في مظهره ، الوضيع في مخبره . وفي الحديث : «إياكم وخضراء الدمن» ؛ قالوا وما خضراء الدمن يا رسول الله ! قال : «المرأة الحسناء في المنبت السوء» .

عن نُصْرَتِهِ ، مَضِيْعًا مِنْ جَنْدِهِ بِمَا أَنْفَقَ مِنْ أَعْطِيَايَتِهِمْ فِي شَهَوَاتِهِ ، وَحُجِبَ عَنْهُمْ وَجْهَ مِبَاشَرَتِهِ وَتَفْقُذِهِ ؛ فَيَكُونُ مُخْرِبًا لِمَا كَانَ سَلْفُهُ يُؤَيِّسُونَ ، وَهَادِمًا لِمَا كَانُوا يَبْنُونَ ، وَفِي هَذَا الطَّوْرِ تَحْصُلُ فِي الدَّوْلَةِ طَبِيعَةُ الْهَرَمِ ، وَيَسْتَوْلِي عَلَيْهَا الْمَرَضُ الْمَزِيْمُ الَّذِي لَا تَكَادُ تَخْلُصُ مِنْهُ ، وَلَا يَكُونُ لَهَا مَعَهُ بُرَّةٌ ، إِلَى أَنْ تَنْعَرِضَ كَمَا نَبِيْنَهُ فِي الْأَحْوَالِ الَّتِي نَسَرُدُهَا . وَاللَّهُ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

الفصل الثامن عشر

في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها

والسببُ في ذلك أَنَّ الْأَثَارَ إِنَّمَا تَحْدُثُ عَنِ الْقُوَّةِ الَّتِي بِهَا كَانَتْ أَوَّلًا وَعَلَى قَدِيرِهَا يَكُونُ الْأَثَرُ . فَمِنْ ذَلِكَ مَبَانِي الدَّوْلَةِ وَهِيَ كُلُّهَا الْعَظِيمَةُ . فَإِنَّمَا تَكُونُ عَلَى نِسْبَةِ قُوَّةِ الدَّوْلَةِ فِي أَصْلِهَا ، لِأَنَّهَا لَا تَتِمُّ إِلَّا بِكَثْرَةِ الْفَعْلَةِ وَاجْتِمَاعِ الْأَيْدِي عَلَى الْعَمَلِ وَالتَّعَاوُنِ فِيهِ . فَإِذَا كَانَتِ الدَّوْلَةُ عَظِيمَةً فَسِيحَةً الْجَوَانِبِ كَثِيرَةَ الْمَمَالِكِ وَالرَّعَايَا ، كَانَ الْفَعْلَةُ كَثِيرِينَ جَدًّا وَحُشِرُوا مِنْ آفَاقِ الدَّوْلَةِ وَأَقْطَارِهَا ، فَتَمَّ الْعَمَلُ عَلَى أَعْظَمِ هَيَاكِلِهِ .

أَلَا تَرَى إِلَى مَصَانِعِ قَوْمِ عَادٍ وَثَمُودَ وَمَا قَصَّه الْقُرْآنُ عَنْهُمَا . وَانْظُرْ بِالْمُشَاهَدَةِ إِيوَانَ كِسْرَى وَمَا اقْتَدَرَ فِيهِ الْفُرسُ حَتَّى إِنَّهُ عَزَمَ

الرشيْدُ على هدمه وتخريره فتكاهد^(١) عنه، وشرع فيه ثم أدركه العجز، وقصة استشارته ليحيى بن خالد في شأنه معروفة. فانظر كيف تقتدر دولة على بناء لا تستطيع أخرى على هدمه مع بون ما بين الهدم والبناء في السهولة تعريف من ذلك بون ما بين الدولتين. وانظر الى بلاط الوليد بدمشق وجامع بني أمية بقرطبة والقنطرة التي على واديها، وكذلك بناء الحنايا جلب الماء الى قرطاجنة في القناة الراكبة عليها، وآثار شرشال بالمغرب والأهرام بمصر وكثير من هذه الآثار الماثلة للعيان، تعلم منه اختلاف الدول في القوة والضعف.

واعلم أن تلك الأفعال للأقدمين إنما كانت بالهندام^(٢) واجتماع الفعلة وكثرة الأيدي عليها؛ فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع. ولا تتوهم ما تتوهمه العامة أن ذلك لعظم أجسام الأقدمين عن أجسامنا في أطرافها وأقطارها؛ فليس بين البشر في ذلك كبير بون كما تجدد بين الهياكل والآثار. ولقد ولع الفصاض بذلك وتغالوا فيه، وسطروا عن عاد وثمود والعمالق في ذلك أخباراً عريقة في الكذب، من أغربها ما يحكون عن عوج ابن عناق^(٣) رجل من العمالق الذين قاتلهم بنو اسرائيل في الشام؛

(١) كذا في الأصول، والأصح فتكاهده.

(٢) بمعنى: التنظيم والإصلاح. وقد يكون ابن خلدون عني بها نوعاً من الآلات الرافعة، كما ورد في مكان آخر من كتابه.

(٣) كذا بالأصول، وفي القاموس في باب الجيم عوج بن عوق بالواو والمشهور على السنة الناس عوق بالنون. وهو رجل ولد في منزل آدم، فعاش إلى زمن موسى. وذكر من عظم خلقه ما لا يصدق العقل.

زعموا أنه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه إلى الشمس .
 ويزيدون إلى جهلهم بأحوال البشر الجهل بأحوال الكواكب لما
 اعتقدوا أن للشمس حرارة وإنما شديدة فيما قرب منها ؛ ولا
 يعلمون أن الحر هو الضوء ؛ وأن الضوء فيما قرب من الأرض أكثر
 لانعكاس الأشعة من سطح الأرض بمقابلة الأضواء ، فتتضاعف
 الحرارة هنا لأجل ذلك ، وإذا تجاوزت مطارح الأشعة المنعكسة
 فلا حر هنالك ، بل يكون فيه البرد حيث مجاري السحاب ، وأن
 الشمس في نفسها لا حارة ولا باردة وإنما هي جسم بسيط مضي
 لا يزاج له^(١) . وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكروه من العاقبة
 أو من الكنعانيين الذين كانوا فريسة بني اسرائيل عند فتحهم
 الشام ، وأطوال بني اسرائيل وجسامهم لذلك العهد قريبة من
 هياكلنا . يشهد لذلك أبواب بيت المقدس ؛ فإنها وإن خربت
 وجددت لم تزل محافظة على أشكالها ومقادير أبوابها . وكيف
 يكون التفاوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار . وإنما
 مشار غلطهم في هذا أنهم استعظموا آثار الأمم ولم يفهموا حال
 الدول في الاجتماع والتعاون ، وما يحصل بذلك وبالهندام من
 الآثار العظيمة ، فصرفوه إلى قوة الأجسام وشدهتها بعظم هياكلها ،
 وليس الأمر كذلك .

وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة مزعمًا لا مستند له
 إلا التحكم ، وهو أن الطبيعة التي هي جيلة للأجسام ، لما برأ

(١) كذا ، والذي يقرره العلم الحديث أن الشمس جسم ملتهب ، وأنها محتفظة بحرارتها
 والتهابها .

الله الخلق كانت في تمام المدة^(١) ونهاية القوة والكمال ، وكانت الأعمار أطول والاجسام أقوى لكمال تلك الطبيعة ؛ فان طروء الموت إنما هو بانحلال القوى الطبيعية ؛ فاذا كانت قوية كانت الأعمار أزيد . فكان العالم في أولية نشأته تام الأعمار كامل الأجسام ، ثم لم يزل يتناقص لنقصان المادة الى أن بلغ الى هذه الحال التي هو عليها ؛ ثم لا يزال يتناقص الى وقت الانحلال وانقراض العالم وهذا رأي لا وجه له إلا التحكم كما تراه ؛ وليس له علة طبيعية ولا سبب برهاني . ونحن نشاهد مساكن الأولين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن ، كديار ثمود المنحوتة في الصلدة من الصخر ، بيوتاً صغاراً وأبوابها ضيقة . وقد أشار ﷺ إلى أنها ديارهم ، ونهى عن استعمال مياههم وطرح ما عجن به وأهرقه وقال : « لا تدخلوا مساكن الذي ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم » . وكذلك أرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الأرض شرقاً وغرباً . والحق ما قررناه .

ومن آثار الدول أيضاً حالها في الإعراس والولائم كما ذكرناه في وليمة بوران وصنيع الحجاج وابن ذي النون ، وقد مر ذلك كله .

ومن آثارها أيضاً عطايا الدول وأنها تكون على نسبتها .

(١) بمعنى القوة . قال تعالى في آيتي ٥ و ٦ من سورة النجم : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ .

ويظهر ذلك فيها ولو أشرقت على الحرم ، فان الهمم التي لأهل الدولة تتكون على نسبة قوة ملكهم وغلبهم للناس ، والهمم لا تزال مصاحبة لهم الى انقراض الدولة . واعتبر ذلك بجوانر ابن ذي يزن لو فدي قريش ، كيف أعطاهم من أرتال الذهب والفضة والأعبد والوصائف عشراً عشراً ، ومن كرش^(١) العنبر واحدة ، وأضعف ذلك بشرة أمثاله لعبد المطلب ؛ وإنما ملكه يومئذ قرارة اليمن خاصة تحت استبداد فارس ، وإنما حملته على ذلك همة نفسه بما كان لقومه التبابعة من الملك في الأرض والغلب على الأمم في العراقيين والهندي والمغرب . وكان الصنهاجيون بإفريقية أيضاً إذا أجازوا الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم ، فإنما يعطونهم المال أحمالاً والكساء نخوتاً مملوءة ، والحمالان^(٢) نجائب عديدة . وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك أخبار كثيرة . وكذلك كان عطاء البرامكة وجوائزهم ونفقاتهم ، وكانوا إذا كسبوا مُعديماً فإنما هو الولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي يستنفده يوم أو بعض يوم . وأخبارهم في ذلك كثيرة مسطودة وهي كلها على نسبة الدول جارية . هذا جوهر الصقلي الكاتب قائد جيش العبيدين لما ارتحل الى فتح مصر استعد من القيروان بألف حمل من المال . ولا تنتهي اليوم دولة إلى مثل هذا .

(١) الكرش : وعاء الطيب (قاموس) .

(٢) الحملان : ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة (قاموس) .

موارد بيت المال ببغداد أيام المأمون

وكذلك وُجِدَ بِحِطِّ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْحَمِيدِ عَمَلٌ بِمَا يُحْمَلُ
إِلَى بَيْتِ الْمَالِ بِبَغْدَادَ أَيَّامَ الْمَأْمُونِ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي ، نَقْلَتْهُ مِنْ
جِرَابِ الدَّوْلَةِ :

(غَلَاتُ السَّوَادِ^(١)) سَبْعٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ،
وِثْمَانَاةٌ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَمِنْ الْحُلَلِ النَّجْرَانِيَّةِ مَائَتَا حُلَّةٍ^(٢) وَمِنْ طِينِ
الْحَتَمِ مَائَتَانِ وَأَرْبَعُونَ رَطْلًا .

(كِنَكَّرُ)^(٣) أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ وَسِتِّمِائَةِ أَلْفِ

دِرْهَمٍ .

(كُورِدِجَلَةُ) عِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَثْمَانَاةٌ دِرْهَمٍ .

(حُلْوَانُ)^(٤) أَرْبَعَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ ، وَثْمَانَاةٌ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

(الْأَهْوَاذُ) خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ مَرَّةً ، وَمِنْ السُّكَّرِ

ثَلَاثُونَ أَلْفَ رَطْلٍ .

(فَارِسُ) سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، وَمِنْ مَاءِ الْوَرْدِ

ثَلَاثُونَ أَلْفَ قَارُورَةٍ ، وَمِنْ الزَّيْتِ الْأَسْوَدِ عِشْرُونَ أَلْفَ رَطْلٍ .

(١) كانت العرب تسمي الأخضر أسود لأنه يرى كذلك على بعد؛ ومنه سواد العراق لخضرة
أشجاره وزروعه (المصباح) .

(٢) الحلة ثوبان من جنس واحد، جمعها حلل .

(٣) كذا في جميع النسخ، وفي معجم البلدان لياقوت: كنكور بكسر الكافين وسكون النون

وفتح الواو .

(٤) حلوان: مقاطعة في العراق غير حلوان مصر . وهي من طرف العراق من الشرق .

(كُرمَان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومائتا ألف درهم،
ومن المتاع اليافى خمسمائة ثوب، ومن التمر عشرون ألف رطل.
(مكران) أربعمائة ألف درهم مرة.

(السند وما يليه) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة
ألف درهم، ومن العود الهندي مائة وخمسون رطلاً.

(سجستان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين، ومن الثياب
المعينة ثلاثمائة ثوب، ومن الفانيد^(١) عشرون رطلاً.

(خراسان) ثمانية وعشرون ألف ألف درهم مرتين، ومن
نقر الفضة ألفا نقر^(٢)، ومن البراذن أربعة آلاف، ومن الرقيق
ألف دأس، ومن المتاع عشرون ألف ثوب، ومن الإهليلج^(٣) ثلاثون
ألف رطل.

(جرجان) اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين، ومن الإبريسم
ألف شقة.

(قومس) ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف من نقر الفضة.
(طبرستان وأربان ونهاوند) ستة آلاف ألف مرتين وثلاثمائة
ألف، ومن القرش الطبري ستمائة قطعة، ومن الأكسية مائتان،
ومن الثياب خمسمائة ثوب، ومن المناديل ثلاثمائة، ومن الجامات
ثلاثمائة.

(١) الفانيد: ضرب من الحلوى.

(٢) القطعة المذابة من الذهب والفضة.

(٣) ثمر معروف، واحدته إهليلجة.

(الرّي) اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين ، ومن العسل عشرون ألف رطل .

(همدان) أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف ، ومن رُبِّ الزَّمانِ ألف رطل ومن العسل اثنا عشر ألف رطل .

(ما بين البصرة والكوفة) عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم .

(ماسبدان والدينار^(١)) أربعة آلاف ألف درهم مرتين .

(شهرزور) ستة آلاف ألف درهم مرتين وسبعمائة ألف درهم .

(الموصل وما إليها) أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين ، ومن العسل الأبيض عشرون ألف ألف رطل .

(أذربيجان) أربعة آلاف ألف درهم مرتين .

(الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات) أربعة وثلاثون ألف ألف درهم مرتين ، ومن الرقيق ألف رأس ، ومن العسل اثنا عشر ألف زق ، ومن البزاق^(٢) عشرة ، ومن الأكسية عشرون .

(أرمينية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن القسط^(٣) المحفور عشرون ، ومن الزَّقم خمسمائة وثلاثون رطلاً ، ومن المسايح

(١) علق الهوريني على هذه الكلمة بما يأتي :

قوله والدينار، الظاهر أنها الدينور وفي الترجمة التركية ما سندان وربان اهـ .

(٢) علق الهوريني على هذه الكلمة بما يأتي :

قوله ومن البزاق الخ في الترجمة التركية : ومن السكر عشرة صناديق اهـ .

(٣) في نسخة أخرى البسط ، والقسط : عود يتداوى به .

السورماهي عشرة آلاف رطل ، ومن الصونج عشرة آلاف رطل ، ومن البغال مائتان ومن المهرة ثلاثون .

(قسرين) أربعمئة ألف دينار ، ومن الزيت ألف جمل .

(دمشق) أربعمئة ألف دينار وعشرون ألف دينار .

(الأردن) سبعة وتسعون ألف دينار .

(فلسطين) ثلاثمئة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ، ومن الزيت ثلثمئة ألف رطل .

(مصر) ألف ألف دينار وتسعمئة ألف دينار وعشرون ألف دينار .

(بركة) ألف ألف درهم مرتين .

(إفريقية) ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ، ومن البسط مائة وعشرون .

(اليمن) ثلثمئة ألف دينار وسبعون ألف دينار سوى المتاع .

(الحجاز) ثلثمئة ألف دينار . انتهى .

وأما الاندلس فالذي ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف دينار مكررة ثلاث مرات ، يكون جلها بالقناطير خمسمئة ألف قنطار . ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن المحمول الى بيت المال في أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمئة قنطار في كل سنة .

فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض ، ولا تُنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله ، فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات . فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادر بالإنكار ؛ وليس ذلك من الصواب ؛ فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة ، ومن أدرك منها رتبة سُفلى أو وُسْطى فلا يحصر المداير كلها فيها . ونحن إذا اعتبرنا ما يُنقل لنا عن دولة بني العباس وبني أمية والعبيديين ، وناسبنا الصحيح من ذلك والذي لا شك فيه بالذي نشاهد من هذه الدول التي هي أقل بالنسبة إليها وجدنا بينها بؤناً ؛ وهو لما بينها من التفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها ؛ فالأثار كلها جارية على نسبة الأصل في القوة كما قدمناه ؛ ولا يسعنا إنكار ذلك عنها ؛ إذ كثير من هذه الأحوال في غاية الشهرة والوضوح ؛ بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر ، وفيها المعائن والمشاهد من آثار البناء وغيره . فخذ من الأحوال المنقولة مراتب الدول في قوتها أو ضعفها وضخامتها أو صغرها ، واعتبر ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستظرفة . وذلك أنه ورد بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يُعرف بابن بطوطة^(١) كان رحل منذ عشرين سنة قبلها إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ، ودخل مدينة دهلي^(٢) حاضرة

(١) علق الهوريني على هذه الكلمة بقوله : كان ابتداء رحلة ابن بطوطة سنة ٧٢٥ وانتهائها سنة ٧٥٤ وهي عجيبة ومختصرة نحو ٧ كراريس هـ .
(٢) كذا ، والمشهور اليوم : دهلي .

مَلِكِ الْهِنْدِ ، وَهُوَ السُّلْطَانُ مُحَمَّدُ شَاهَ ، وَاتَّصَلَ بِمَلِكِهَا لِذَلِكَ الْعَهْدِ وَهُوَ فَيَرُوزْجُوهُ ، وَكَانَ لَهُ مِنْهُ مَكَانٌ ، وَاسْتَعْمَلَهُ فِي خُطَّةِ الْقَضَاءِ بِمَذْهَبِ الْمَالِكِيَّةِ فِي عَمَلِهِ ، ثُمَّ انْقَلَبَ إِلَى الْمَغْرِبِ وَاتَّصَلَ بِالسُّلْطَانِ أَبِي عِيْنَانَ ، وَكَانَ يُحَدِّثُ عَنْ شَأْنِ رَحْلَتِهِ وَمَا رَأَى مِنَ الْعَجَائِبِ بِمَالِكِ الْأَرْضِ . وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُحَدِّثُ عَنْ دَوْلَةِ صَاحِبِ الْهِنْدِ ، وَيَأْتِي مِنْ أَحْوَالِهِ بِمَا يَسْتَفْرِبُهُ السَّامِعُونَ ، مِثْلَ أَنَّ مَلِكَ الْهِنْدِ إِذَا خَرَجَ إِلَى السَّفَرِ أَحْصَى أَهْلَ مَدِينَتِهِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ ، وَفَرَضَ لَهُمْ رِزْقَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ تُدْفَعُ لَهُمْ مِنْ عَطَائِهِ ، وَأَنَّهُ عِنْدَ رَجُوعِهِ مِنْ سَفَرِهِ يَدْخُلُ فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ يَبْرُزُ فِيهِ النَّاسُ كَافَّةً إِلَى صَحْرَاءِ الْبَلَدِ وَيَطُوفُونَ بِهِ ، وَيُنْصَبُ أَمَامَهُ فِي ذَلِكَ الْحَفْلِ مَنْجَنِقَاتٌ عَلَى الظُّلَمِ تُرْمَى بِهَا شَكَارُ الدَّرَاهِمِ وَالذَّنَانِيرِ عَلَى النَّاسِ ، إِلَى أَنْ يَدْخُلَ ابْوَانُهُ ، وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْحِكَايَاتِ ؛ فَتَنَاجَى النَّاسُ بِتَكْذِيبِهِ . وَلَقِيتُ أَيَّامُنْدِ وَزِيرَ السُّلْطَانِ فَارِسَ بْنَ وَزْدَادَ الْبَعِيدَ الصِّيتِ ، ففَاوَضْتُهُ فِي هَذَا الشَّأْنِ وَأَرَيْتُهُ إِنْكَارَ أَخْبَارِ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، لَمَّا اسْتِفَاضَ فِي النَّاسِ مِنْ تَكْذِيبِهِ . فَقَالَ لِي الْوَزِيرُ فَارِسُ : إِيَّاكَ أَنْ تَسْتَنْكِرَ مِثْلَ هَذَا مِنْ أَحْوَالِ الدُّوَلِ بِمَا أَنَّكَ لَمْ تَرَهُ ، فَتَكُونَ كَابْنَ الْوَزِيرِ النَّاشِئِ فِي السِّجْنِ . وَذَلِكَ أَنَّ وَزِيرًا اعْتَقَلَهُ سُلْطَانُهُ وَمَكَّنَهُ فِي السِّجْنِ سَنِينَ رُبِي فِيهَا أَبْنَهُ فِي ذَلِكَ الْحَبْسِ ، فَلَمَّا أَدْرَكَ وَعَقَلَ سَأَلَ عَنِ اللَّحْمِ الَّذِي كَانَ يَتَغَذَّى بِهِ ، فَقَالَ أَبُوهُ هَذَا لَحْمُ الْغَنَمِ ، فَقَالَ وَمَا الْغَنَمُ ؟ فَيَصِفُهَا لَهُ أَبُوهُ بِشَيَاطِينِهَا وَنُعُوتِهَا ؛ فَيَقُولُ يَا أَبَتِ تَرَاهَا مِثْلَ الْفَأْرِ فَيُنْكِرُ عَلَيْهِ ، وَيَقُولُ أَيْنَ الْغَنَمُ مِنَ الْفَأْرِ ؛ وَكَذَا

في لحم الأيل والبقر؛ إذ لم يعاين في محبسِهِ من الحيوانات إلا الفأر فيحسبها كلها أبناء جنسِ الفأر . وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار كما يعتريهم الوسواسُ في الزيادة عن قصد الإغراب كما قدمناه أوّل الكتاب . فليرجع الإنسان إلى أصولِهِ ، وليكن مهتماً على نفسه ، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقلهِ ومُستقيم فطريهِ . فما دخل في نطاق الإمكان قبلَهُ ، وما خرج عنه رفضُهُ . وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق ، فإن نطاقهُ أوسعُ شيء ، فلا يُفرضُ حداً بين الواقعات ؛ وإنما مرادنا الإمكان بحسبِ المادّةِ الّتي للشيء . فإننا إذا نظرنا أصلَ الشيء وُجنته وصنفته ومقدارَ عظميهِ وقوّتهِ أجرينا الحكمَ من نسبة ذلك على أحواله ، وحكمنا بالإمتناع على ما خرجَ من نطاقهِ ؛ ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ ، وأنتَ أرحمُ الراحمين . والله سبحانه وتعالى أعلم .

الفصل التاسع عشر

في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبته بالموالي والمصطنعين

اعلم أن صاحب الدولة إنما يَتِمُّ أمرُهُ كما قلناه بقومِهِ ، فهم عصبته وظهراؤه على شأنيهِ ، وبهم يُقَارِعُ الخوارج على دولته ، ومنهم من يُقِلِّدُ أعمالَ مملكته ووزارة دولته ، وجباية أموالهِ لأنهم أعوانهُ على الغلب ، وشركاؤه في الأمر ، ومساهموهُ في سائر

مُهَيَّاتِهِ . هذا ما دام الطَّورُ الْأَوَّلُ لِلدَّوْلَةِ كما قلناه . فإذا جاء الطَّورُ الثَّانِي وَظَهَرَ الْإِسْتِبْدَادُ عَنْهُمْ ، وَالْإِنْفِرَادُ بِالْحَجْدِ ، وَدَافَعَهُمْ عَنْهُ بِالرَّاحِ ، صَارُوا فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ مِنْ بَعْضِ أَعْدَائِهِ ، وَاحْتِاجَ فِي مُدَافَعَتِهِمْ عَنِ الْأَمْرِ وَصَدِيهِمْ عَنِ الْمَشَارَكَةِ إِلَى أَوْلِيَاءِ آخَرِينَ مِنْ غَيْرِ جِلْدَتِهِمْ يَسْتَظْهِرُ بِهِمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَتَوَلَّاهُمْ دُونَهُمْ ، فَيَكُونُونَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ سَائِرِهِمْ ، وَأَخْصَّ بِهِ قُرْبًا وَاصْطِنَاعًا ، وَأُولَى إِثَارًا وَجَاهًا ، لِأَنَّهُمْ يَسْتَمِيتُونَ دُونَهُ فِي مُدَافَعَةِ قَوْمِهِ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ لَهُمْ ، وَالرُّتَبَةِ الَّتِي أَلْفَوْهَا فِي مُشَارَكَتِهِمْ . فَيَسْتَخْلِصُهُمْ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ ، وَيُخْصِمُهُمْ بِزَيْدِ التَّكْرِمَةِ وَالْإِثَارِ ، وَيَقْسِمُ لَهُمْ مِثْلَ مَا لِلكَثِيرِ مِنْ قَوْمِهِ وَيُقَلِّدُهُمْ جَلِيلَ الْأَعْمَالِ وَالْوِلَايَاتِ مِنَ الْوِزَارَةِ وَالْقِيَادَةِ وَالْجَبَايَةِ وَمَا يُخْتَصُّ بِهِ لِنَفْسِهِ ، وَتَكُونُ خَالِصَةً لَهُ دُونَ قَوْمِهِ مِنَ أَلْقَابِ الْمَمْلَكَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ أَوْلِيَاؤُهُ الْأَقْرَبُونَ وَنُصَحَاؤُهُ الْمُخْلِصُونَ . وَذَلِكَ حِينَئِذٍ مُؤَذِّنٌ بِاهْتِضَامِ الدَّوْلَةِ وَعِلَامَةٌ عَلَى الْمَرَضِ الْمَزْمَنِ فِيهَا ؛ لِفَسَادِ الْعَصِيَّةِ الَّتِي كَانَ بِنَاءُ الْقَلْبِ عَلَيْهَا ، وَمَرَضُ قُلُوبِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ مِنَ الْإِمْتِهَانِ وَعَدَاوَةِ السُّلْطَانِ فَيَضْطَظُّونَ عَلَيْهِ ، وَيَتَرَبَّصُونَ بِهِ الدَّوَائِرَ ، وَيَعُودُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَلَا يُطْمَعُ فِي بُرْئِهَا مِنْ هَذَا الدَّاءِ ، لِأَنَّ مَا مَضَى يَتَأَكَّدُ فِي الْأَعْقَابِ إِلَى أَنْ يَذْهَبَ رَسْمُهَا . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ كَيْفَ كَانُوا إِذَا يَسْتَظْهِرُونَ فِي حُرُوبِهِمْ وَوِلَايَةِ أَعْمَالِهِمْ بِرِجَالِ الْعَرَبِ مِثْلَ عُمرَ بْنِ سَعْدٍ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، وَعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، وَالْحُجَّاجِ بْنِ يَوْسَفَ ، وَالْمُهَلَّبِ بْنِ

أبي صُفرة، وخالد بن عبد الله القسري، وابن هُبيرة، وموسى
ابن نُصير، وبلال بن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري، ونصر
ابن سيار، وأمثالهم من رجالات العرب. وكذا صدر من دولة
بني العباس كان ألاستظهار فيها أيضاً برجالات العرب؛ فلما
صارت الدولة للانفراد بالجد وكبح العرب عن التطاول للولايات،
وصارت الوزارة للمعجم والصنائع من البرامكة وبني سهل بن
نوحته وبني طاهر، ثم بني بويه وموالي التُّرك مثل بُنا ووصيف
وأتامش وباكناك وابن طولون وأبنائهم، وغير هؤلاء من موالي
المعجم، فتكون الدولة لغير من مهّدها والعز لغير من اجتلبه.
سنة الله في عباده، والله تعالى أعلم.

الفصل العشرون

في احوال الموالى والمصطنعين في الدول

اعلم أن المصطنعين في الدول يتفاوتون في الالتحام بصاحب
الدولة بتفاوت قديمهم وحديثهم في الالتحام بصاحبها. والسبب
في ذلك أن المقصود في المصيبة من المدافعة والمغالبة إنما يتم
بالنسب، لأجل التناصر في ذوي الأرحام والقربى، والتخاذل
في الأجانب والبعداء كما قدمناه. وألولاية والمخالطة بالرق أو
بالخلف تنزل منزلة ذلك؛ لأن أمر النسب وإن كان طبيعياً فإنما

هو وهمي، والمعنى الذي كان به الالتحام إنما هو العشرة والمدافعة وطول الممارسة والصحة بالمربي والرضاع وسائر أحوال الموت والحياة. وإذا حصل الالتحام بذلك جاءت النعمة والتناصر، وهذا مشاهد بين الناس. واعتبر مثله في الاصطناع؛ فإنه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من الوصلة تنزل هذه المنزلة وتؤكد اللحمة؛ وإن لم يكن نسب فثمرات النسب موجودة. فإذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين أوليائهم قبل حصول الملك لهم، كانت عروقتها أوشج، وعقائدها أصح، ونسبها أصرح لوجهين: أحدهما أنهم قبل الملك أسوة في حالهم، فلا يتميز النسب عن الولاية إلا عند الأقل منهم فيتزلون منهم منزلة ذوي قرابتهم وأهل أرحابهم. وإذا اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبة الملك تميزاً للسيد عن المولى، ولأهل القرابة عن أهل الولاية والاصطناع، لما تقتضيه أحوال الرياسة والملك من تميز الرتب وتفاوتها، فتتميز حالتهم ويتزلون منزلة الأجانب، ويكون الالتحام بينهم أضعف والتناصر لذلك أبعد، وذلك أنقص من الاصطناع قبل الملك.

الوجه الثاني: أن الاصطناع قبل الملك يبعد عهد عن أهل الدولة بطول الزمان، ويخفي شأن تلك اللحمة، ويطن بها في الأكثر النسب فيقوى حال العصبية. وأما بعد الملك فيقرب العهد ويستوي في معرفته الأكثر، فتبتين اللحمة وتتميز عن النسب، فتضعف العصبية بالنسبة إلى الولاية التي كانت قبل الدولة. واعتبر ذلك

في الدول والرياسات تجده . فكل من كان اصطناعه قبل حصول
الرياسة والملك لمصطنعه تجده أشد التحاماً به ، وأقرب قرابة إليه ،
ويتنزل منه منزلة أبنائه وإخوانه وذوي رحمه . ومن كان اصطناعه
بعد حصول الملك والرياسة لمصطنعه لا يكون له من القرابة
واللحمة ما للأولين . وهذا مُشاهد بالعيان ؛ حتى إن الدولة في
آخر عمرها ترجع الى استعمال الأجانب واصطناعهم ، ولا يُبنى
لهم مجد كما بناه المصطنعون قبل الدولة ، لقرب العهد حينئذ
باوليئتهم ومشاركة الدولة على الإنقراض ، فيكونون منحطين في
مهاوي الضعة . وإنما يتحمل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول
اليهم عن أوليائها الأقدمين وصنائعها الأولين ، ما يعترتهم في أنفسهم
من العزة على صاحب الدولة ، وقلة الخضوع له ، ونظيره بما ينظره
به قبيله وأهل نسبه ، لتأكيد اللحمة منذ العصور المتطاولة بالربى
والإتصال بأبائه وسلف قومه ، والإلتظام مع كبراء أهل بيته ؛
فيحصل لهم بذلك دالة عليه واعتزاز ، فينافرهم بسببها صاحب
الدولة ، ويعيل عنهم الى استعمال سواهم ؛ ويكون عهد استخلاصهم
واصطناعهم قريباً ، فلا يبلغون رتبة المجد ، ويبقون على حالهم من
الخارجية ، وهكذا شأن الدول في أواخرها . وأكثر ما يطلق اسم
الصنائع والأولياء على الأولين . وأما هؤلاء المحدثون فخدم وأعوان .
والله ولي المؤمنين ، وهو على كل شيء وكيل .

الفصل الحادي والعشرون

فيما يعرض في الدول من دحر السلطان والاستبداد عليه

إذا استقرَّ الملكُ في نِصابٍ مُعَيَّنٍ ومنبتٍ واحدٍ من القبيلِ
القائمينَ بالدولةِ ، وأنفردوا به ودفعوا سائرَ القبيلِ عنه ، وتداوله
بنوهم واحداً بعد واحدٍ بحسبِ الترشيحِ ، فربَّما حدثَ التغلُّبُ
على المنصبِ من وُزرائِهِم وحاشيتِهِمْ . وسبُّهُ في الأكثرِ ولايةُ صبيٍّ
صغيرٍ أو مُضعَّفٍ من أهلِ المنبتِ ، يترشَّحُ للولايةِ بعهدِ أبيه أو
بترشيحِ ذويه وخوَلِهِ ، ويؤنَّسُ منه العجزُ عن القيامِ بالملكِ ، فيقومُ
به كافلةً من وزراءِ أبيه وحاشيتِهِ ومواليهِ أو قبيلِهِ ، ويُورَثِي عنه^(١)
بحفظِ أمرِهِ عليه حتى يؤنَّسَ منه الاستبدادُ ، ويجعلَ ذلكَ ذريعةً
للملكِ . فيحجُبُ الصبيَّ عن الناسِ ويعودُّهُ اللذاتِ التي يدعوه
إليها تَرَفُ أحوالِهِ ، ويُسيِّمُهُ في مراعيها متى أمكنهُ ، ويُنسيهِ النظرَ
في الأمورِ السُّلطانيَّةِ ، حتى يستبدَّ عليه . وهو بما عودُّهُ يعتقِدُ أنَّ
حظَّ السُّلطانِ من الملكِ إنما هو جلوسُ السريرِ وإعطاءُ الصَّفقةِ
وخطابُ التهويلِ ، والقعودُ مع النساءِ خلفَ الحجابِ ، وأنَّ الحُلَّ
والربطَ والامرَ والنهيَ ، ومباشرةَ الأحوالِ الملوكيَّةِ ، وتَقَقُّدَها
من النظرِ في الجيشِ والمالِ والثغورِ إنما هو للوزيرِ ؛ وَيُسَلِّمُ لَهُ في

(١) ورَى عنه: نصره .

ذلك ، إلى أن تستحكم له صيغة الرياسة والاستبداد ، ويتحوّل الملك إليه ويؤثّر به عشيرته وأبناءه من بعده . كما وقع لبني بويه والترك وكافور الإخشيدية وغيرهم بالشرق ، وللمنصور ابن أبي عامر بالأندلس . وقد يتقطن ذلك الحضور القلب لشأبه فيحاول على الخروج^(١) من ربة الحجر والاستبداد ، ويرجع الملك إلى نصابه ، ويضرب على أيدي المتغلبين عليه ، إما بقتل أو برفع عن الرتبة فقط ، إلا أن ذلك في النادر الأقل ، لأن الدولة إذا أخذت في تغلب الوزراء والأولياء استمر لها ذلك ، وقل أن تخرج عنه ، لأن ذلك إنما يوجد في الأكثر عن أحوال الترف ونشأة أبناء الملك منغمسين في نعيمه ، قد نسوا عهد الرجولة وألفوا أخلاق الدايات والظالمين^(٢) ، وربوا عليها ، فلا ينزعون إلى رياسة ولا يعرفون استبداداً من تغلب ، إنما همهم في القنوع بالآبهة والتفتن في الذات وأنواع الترف . وهذا التغلب يكون للموالي والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قويمهم وانفرادهم به دونهم . وهو عارض للدولة ضروري كما قدّمناه . وهذان مرضان لا بُدّ للدولة منهما إلا في الأقل النادر . ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

(١) هكذا في الأصل وربما كانت على زائدة .

(٢) أظار جمع ظئر : المرضع ، وظئر القصر : ركنه . (قاموس) .

الفصل الثاني والعشرون

في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك

وذلك أَنَّ الْمَلِكَ وَالسُّلْطَانَ حَصَلَ لِأَوَّلِيهِ مُذْ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ بَعْصِيَّةُ قَوْمِهِ ، وَعَصَبِيَّةُ الَّتِي اسْتَبَعَتْهُمْ حَتَّى اسْتَحْكَمَتْ لَهُ وَلِقَوْمِهِ صِبْغَةُ الْمَلِكِ وَالْعَلْبِ ؛ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ بَاقِيَةً ، وَبِهَا انْحَفَظَ رِسْمُ الدَّوْلَةِ وَبَقَاؤُهَا وَهَذَا الْمَتَغَلِّبُ وَإِنْ كَانَ صَاحِبَ عَصِيَّةٍ مِنْ قَبِيلِ الْمَلِكِ أَوْ الْمَوَالِي وَالصَّنَائِعِ فَعَصِيَّتُهُ مُنْدرِجَةٌ فِي عَصِيَّةِ أَهْلِ الْمَلِكِ وَتَابِعَةٌ لَهَا ، وَلَيْسَ لَهُ صِبْغَةٌ فِي الْمَلِكِ . وَهُوَ لَا يَحَاوِلُ فِي اسْتِبْدَادِهِ انْتِرَاعَ الْمَلِكِ ظَاهِرًا ، وَإِنَّمَا يَحَاوِلُ انْتِرَاعَ ثَمَرَاتِهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَالْحُلِّ وَالْعَقْدِ وَالْإِبْرَامِ وَالنَّقْضِ ، يَوْمُهُمْ فِيهَا أَهْلَ الدَّوْلَةِ أَنَّهُ مُتَصَرِّفٌ عَنْ سُلْطَانِهِ ، مُنْفَذٌ فِي ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ لِأَحْكَامِهِ . فَهُوَ يَتَجَافَى عَنْ سِمَاتِ الْمَلِكِ وَشَارَاتِهِ وَأَلْقَابِهِ جُهْدُهُ وَيُبْعِدُ نَفْسَهُ عَنِ التُّهْمَةِ بِذَلِكَ وَإِنْ حَصَلَ لَهُ الْإِسْتِبْدَادُ لِأَنَّهُ مُسْتَتِرٌ فِي اسْتِبْدَادِهِ ذَلِكَ بِالْحِجَابِ الَّذِي ضَرَبَهُ السُّلْطَانُ وَأَوَّلُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ عَنِ الْقَبِيلِ مِنْذُ أَوَّلِ الدَّوْلَةِ ، وَمُغَالَطٌ عَنْهُ بِالنِّيَابَةِ . وَلَوْ تَعَرَّضَ لشيءٍ مِنْ ذَلِكَ لَنَفَسَهُ^(١) عَلَيْهِ أَهْلُ الْعَصَبِيَّةِ وَقَبِيلُ الْمَلِكِ ، وَحَاوَلُوا الْإِسْتِثَارَ بِهِ دُونَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ تَسْتَحْكَمْ لَهُ فِي ذَلِكَ صِبْغَةُ تَحْمِلُهُمْ عَلَى التَّسْلِيمِ لَهُ وَالْإِنْقِيَادِ ؛ فَيَهْلِكُ لِأَوَّلِ

(١) لنفسه بفتح اللام والنون وكسر الفاء يقال : نفس عليه الشيء كفرح لم يره أهلاً له (كما

في القاموس).

وهلة. وقد وقع مثل هذا لعبد الرحمن بن الناصر بن المنصور بن أبي عامر، حين سما إلى مشاركة هشام وأهل بيته في لقب الخلافة، ولم يقنع بما قنع به أبوه وأخوه من الاستبداد بالحل والعقد والمراسم المتتابعة. فطلب من هشام خليفته أن يعهد له بالخلافة، فنفس ذلك عليه بنو مروان وسائر قریش، وبايعوا لابن عم الخليفة هشام محمد بن عبد الجبار بن الناصر، وخرجوا عليه. وكان في ذلك خراب دولة العائرين وهلاك المؤيد خليفته، واستبدل منه سواه من أعياص^(١) الدولة إلى آخرها، واختلت مراسم ملكهم. والله خير الوارثين.

الفصل الثالث والعشرون

في حقيقة الملك وأصله

الملك منصب طبيعي للإنسان؛ لأننا قد بينا أن البشر لا يمكن حياتهم ووجودهم إلا باجتماعهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضرورياتهم. وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات، ومد كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه، لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والمدوان بعضهم على بعض، ويمانة الآخر عنها بمقتضى الغضب والأنفة ومقتضى القوة البشرية

(١) أعياص جمع عيص: منبت خيار الشجر، ويقال هو من عيص كريم: أي من أصل كريم. (قاموس).

في ذلك ، فيقعُ التنازعُ المُفْضِي إلى المقاتلة ، وهي تؤدي إلى الهزج وسفك الدماء وإذْهابِ النفوس ، المُفْضِي ذلك إلى انقطاع النوع ، وهو يَما خَصَّهُ الباري سبحانه بالمحافظة ، وأستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزعُ بعضهم عن بعض ؛ وأحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع وهو الحاكم عليهم ، وهو بمقتضى الطبيعة البشرية أَلَمَلِكُ القاهرُ أَلْتَحَكِّمُ . ولا بُدُّ في ذلك من العصبية لما قدَّمناه ، من أن المطالبات كلها والمدافعات لا تتمُّ إلا بالعصبية . وهذا أَلَمَلِكُ كما تراه منصبٌ شريفٌ تتوجُّه نحوه المطالبات ويحتاجُ إلى المدافعات ؛ ولا يتمُّ شيءٌ من ذلك إلا بالعصبية كما مرَّ . والعصبية متفاوتة ، وكلُّ عصبيةٍ فلها تحكُّمٌ وتغلبٌ على من يليها من قوميها وعشيرها . وليس أَلَمَلِكُ لكلِّ عصبية ، وإنما أَلَمَلِكُ على الحقيقة لمن يستعيد الرعية ويحيي الأموال ويبعث البعث ويحيي الثغور ، ولا تكون فوق يده يدُ قاهرة . وهذا معنى أَلَمَلِكُ وحقيقته في المشهور . فمن قصرت به عصبية عن بعضها ، مثل حماية الثغور أو جباية الأموال أو بث البعث فهو مُلْكٌ ناقصٌ لم تتمَّ حقيقته ؛ كما وقع لكثير من ملوك البربر في دولة الأغالبة بالقيروان والملوك العجم صدر الدولة العباسية . ومن قصرت به عصبية أيضاً عن الاستعلاء على جميع العصبية ، والضرب على سائر الأيدي ، وكان فوقه حكمٌ غيره ، فهو أيضاً مُلْكٌ ناقصٌ لم تتمَّ حقيقته ؛ وهؤلاء مثل أمراء النواحي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة . وكثيراً ما يوجد هذا في الدولة المتسعة النطاقي ، أعني توجد ملوك على

قومهم في النواحي القاصية يدينون بطاعة الدولة التي جمعهم؛ مثل صنهاجة مع العبيديين، وزناتة مع الأمويين تارة والعبيديين تارة أخرى؛ ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس؛ ومثل أمراء البربر وملوكهم مع الفرنجة قبل الإسلام، ومثل ملوك الطوائف من الفرس مع الإسكندر وقومه اليونانيين، وكثير من هؤلاء فاعتبره تيمده. والله القاهر فوق عباده.

الفصل الرابع والعشرون

في ان اهلاك البدن مضر بالملك وينفذ له في الاكثر

اعلم أن مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجسمه من حسن شكله أو ملاحه وجهه أو عظم جثمانه أو اتساع عمله أو جودة خطه أو ثقب ذهنه، وإنما مصلحتهم فيه من حيث إضافته إليهم؛ فإن الملك والسلطان من الأمور الإضافية، وهي نسبة بين منتسبين. فحقيقة السلطان أنه المالك للرعية القائم في أمورهم عليهم، فالسلطان من له رعية والرعية من لها سلطان؛ والصفة التي له من حيث إضافته لهم هي التي تسمى الملكة وهي كونه يملكهم فإذا كانت هذه الملكة وتوايها من الجودة بكان حصل المقصود من السلطان على أتم الوجوه؛ فإنها إن كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم؛ وإن كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضرراً عليهم وإهلاكاً لهم.

ويعودُ حسنُ الْمَلَكَةِ إِلَى الرِّفْقِ . فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا كَانَ قَاهِرًا ،
 بَاطِشًا بِالْعُقُوبَاتِ ، مُنْقَبًا عَنْ عَوْرَاتِ النَّاسِ وَتَعْدِيدِ ذُنُوبِهِمْ ، شَمِلَهُمُ
 الْخَوْفُ وَالذُّلُّ ، وَلَا ذُوا مِنْهُ بِالْكَذِبِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فَتَخَلَّقُوا
 بِهَا ، وَفَسَدَتْ بَصَائِرُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ ؛ وَرُبَّمَا خَذَلُوهُ فِي مَوَاطِنِ
 الْحُرُوبِ وَالْمَدَافِعَاتِ ، فَفَسَدَتْ الْحِمَايَةُ بِفَسَادِ النِّيَّاتِ ، وَرُبَّمَا أَجْمَعُوا
 عَلَى قَتْلِهِ لِذَلِكَ فَتَفْسُدُ الدَّوْلَةُ وَيُخْرَبُ السِّيَاحُ ؛ وَإِنْ دَامَ أَمْرُهُ عَلَيْهِمْ
 وَقَهْرُهُ فَسَدَتْ الْعَصِيَّةُ لَمَّا قَلَنَاهُ أَوَّلًا ، وَفَسَدَ السِّيَاحُ مِنْ أَصْلِهِ
 بِالْعَجْزِ عَنِ الْحِمَايَةِ . وَإِذَا كَانَ رَفِيقًا بِهِمْ مُتَجَاوِزًا عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ
 اسْتَنَامُوا إِلَيْهِ وَلَا ذُوا بِهِ وَأَشْرَبُوا مَحَبَّةً وَاسْتَمَاتُوا دُونَهُ فِي مُحَارَبَةِ
 أَعْدَائِهِ ، فَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ .

وَأَمَّا تَوَابِعُ حُسْنِ الْمَلَكَةِ فَهِيَ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْمَدَافَعَةُ عَنْهُمْ
 فَالْمَدَافَعَةُ بِهَا تَتِمُّ حَقِيقَةُ الْمَلِكِ ؛ وَأَمَّا النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ وَالْإِحْسَانُ لَهُمْ
 فَمِنْ جَمَلَةِ الرِّفْقِ بِهِمْ ، وَالنَّظَرِ لَهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ ، وَهِيَ أَصْلُ كَبِيرٍ
 فِي التَّحَبُّبِ إِلَى الرِّعْيَةِ . وَاعْلَمْ أَنَّهُ قَلْبًا تَكُونُ مَلَكَةُ الرِّفْقِ فِيمَنْ
 يَكُونُ يَقْظًا شَدِيدَ الذِّكَاءِ مِنَ النَّاسِ ؛ وَأَكْثَرُ مَا يَوْجَدُ الرِّفْقُ فِي
 الْغُلِّ وَالْمُتَغَلِّ (١) . وَأَقْلُ مَا يَكُونُ فِي الْيَقْظِ أَنَّهُ يُكَلِّفُ الرِّعْيَةَ
 فَوْقَ طَاقَتِهِمْ لِنُفُوزِ نَظَرِهِ فِيهَا وَرَاءَ مَدَائِرِكِهِمْ وَإِطْلَاعِهِ عَلَى عَوَاقِبِ
 الْأُمُورِ فِي مَبَادِيهَا بِالْمَعِيَّةِ فِيهِ لِكُونِ . لِذَلِكَ قَالَ ﷺ : « سِرُّوا عَلَيَّ
 سِرِّي أَوْضَعِكُمْ » . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ اشْتَرَطَ الشَّارِعُ فِي الْحَاكِمِ قِلَّةَ
 الْإِفْرَاطِ فِي الذِّكَاءِ ؛ وَمَا أَخَذَهُ مِنْ قِصَّةِ زِيَادِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ لَمَّا عَزَلَهُ

(١) كَذَا بِالْأَصُولِ ، وَلَعَلَّهَا مَحْرُفَةٌ عَنْ : الْمَغْلِ .

عُمَرُ عن العِراقِ ، وقال : « لِمَ عَزَلْتَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ أَلْعَجَزُ أَمْ لِحَيَانَةٍ ؟ » ؛ فقال عُمَرُ : « لِمَ أَعَزَلْتَ لَوَاحِدَةً مِنْهُمَا ؛ وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَجْعَلَ فَضْلَ عَقْلِكَ عَلَى النَّاسِ . فَأُخِذَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْحَاكِمَ لَا يَكُونُ مُفْرِطَ الذِّكَاةِ وَالْكَيْسِ . مِثْلَ زِيَادِ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، وَعَمْرُو ابْنِ الْعَاصِ ، لَمَّا يَتَّبِعُ ذَلِكَ مِنَ التَّعَسُّفِ وَسُوءِ الْمَلَكَةِ ، وَتَخَلُّرِ الْوُجُودِ عَلَى مَا لَيْسَ فِي طَبْعِهِ ، كَمَا يَأْتِي فِي آخِرِ هَذَا الْكِتَابِ . وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَالِكِينَ .

وَتَقَرَّرَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْكَيْسَ وَالذِّكَاةَ عَيْبٌ فِي صَاحِبِ السِّيَاسَةِ ، لِأَنَّهُ إِفْرَاطٌ فِي الْفِكْرِ ، كَمَا أَنَّ الْبَلَادَةَ إِفْرَاطٌ فِي الْجُودِ . وَالطَّرْفَانِ مَذْمُومَانِ مِنْ كُلِّ صِفَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ ، وَالْحَمُودُ هُوَ التَّوَسُّطُ : كَمَا فِي الْكَرَمِ . مَعَ التَّبَذِيرِ وَالْبُخْلِ ؛ وَكَمَا فِي الشَّجَاعَةِ مَعَ الْهَوَجِ وَالْجُبْنِ ؛ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ . وَلِهَذَا يُوصَفُ الشَّدِيدُ الْكَيْسِ بِصِفَاتِ الشَّيْطَانِ ، فَيَقَالُ شَيْطَانٌ وَمَتَشَيْطِنٌ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَاللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ .

الفصل الخامس والعشرون

فِي مَعْنَى الْخَافَةِ وَالْإِهْلَةِ

لَمَّا كَانَتْ حَقِيقَةُ الْمُلْكِ أَنَّهُ لَااجْتِمَاعُ الصَّرُورِيِّ لِلْبَشَرِ ، وَمَقْتَضَاهُ التَّغْلُبُ وَالْهَرُ الْإِذَا نَ هَا مِنْ آثَارِ الْفَضْبِ وَالْجَوَانِيَّةِ ، كَانَتْ أَحْكَامُ صَاحِبِهِ فِي الْمَغَالِبِ جَائِزَةً عَنِ الْحَقِّ ، مُجِغَةً بَيْنَ تَحْتِ يَدِهِ

من الخلق في أحوال دنياهم ، لحله إياهم في الغالب على ما ليس في طوقهم من أغراضه وشهواته ، ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف منهم ؛ فتعسر طاعته لذلك ، وتجي العصبية المفضية إلى الهرج والقتل . فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم . وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ، ولا يتم استيلاؤها : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾

فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية ؛ وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة . وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط ، فإنها كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء ؛ والله يقول : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ ؛ فالمقصود بهم إنما هو دينهم المنفذي بهم إلى السعادة في آخرتهم . ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَكُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ . فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة ؛ حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني ، فأجرتة على منهاج الدين ليكون الكل تحوطاً ينظر الشارع .

(١) صراط : بدل من (صراط) في آخر الآية السابقة : ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ . والهدل يتبع المبدل منه ؛ وقد تبعه (هنا) في الجر .

فما كان منه يُمَقْتَضَى المَهْر والتَّغْلِبَ وإِهْمَالِ القُوَّةِ الصَّيِّئَةِ في
مَرَجَاها فَجَوْرٌ وَعُدْوَانٌ وَمَذْمُومٌ عنده كما هو مُقْتَضَى الحِكْمَةِ
السِّيَاسِيَّةِ . وما كان منه يُمَقْتَضَى السِّيَاسَةِ وَأَحْكَامُهَا فَمَذْمُومٌ أَيْضاً ،
لِأَنَّهُ نَظَرٌ يَغْيِرُ نَوْرَ اللَّهِ : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَعَالِمٌ مِنْ
ثُورٍ ﴾ . لِأَنَّ الشَّارِعَ أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الكَافَّةِ فِيهَا هُوَ مُنْتِزِعٌ عَنْهُمْ مِنْ
أُمُورِ آخِرَتِهِمْ ؛ وَأَعْمَالُ الْبَشَرِ كُلُّهَا عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ فِي مَعَادِهِمْ ، مِنْ
مُلْكٍ أَوْ غَيْرِهِ ؛ قَالَ ﷺ : « إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ » ؛
وَأَحْكَامُ السِّيَاسَةِ إِنَّمَا تُطْلَعُ عَلَى مَصَالِحِ الدُّنْيَا فَقَطْ . « يَعْلَمُونَ
ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ؛ وَمَقْصُودُ الشَّارِعِ بِالنَّاسِ صَلَاحَ آخِرَتِهِمْ
فَوَجِبَ بِمَقْتَضَى الشَّرَائِعِ حُلُّ الكَافَّةِ عَلَى الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فِي
أَحْوَالِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ . وَكَانَ هَذَا الْحُكْمُ لِأَهْلِ الشَّرِيعَةِ وَهُمْ
الْأَنْبِيَاءُ وَمَنْ قَامَ فِيهِ مَقَامُهُمْ وَهُمْ الْخُلَفَاءُ .

فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ مِنْ ذَلِكَ مَعْنَى الْخِلَافَةِ ، وَأَنَّ الْمُلْكَ الطَّبِيعِيَّ هُوَ
حَمْلُ الكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى الْغَرَضِ وَالشَّهْوَةِ ، وَالسِّيَاسِيَّ هُوَ حَمْلُ
الكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى النِّظَرِ الْعَقْلِيِّ فِي جَلْبِ الْمَصَالِحِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَدَفْعِ
الْمَضَارِّ ، وَالْخِلَافَةُ هِيَ حَمْلُ الكَافَّةِ عَلَى مُقْتَضَى النِّظَرِ الشَّرْعِيِّ فِي
مَصَالِحِهِمُ الْآخِرَوِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ الرَّاجِعَةِ إِلَيْهَا ، إِذْ أَحْوَالُ الدُّنْيَا
تَرْجِعُ كُلُّهَا عِنْدَ الشَّارِعِ إِلَى اعْتِبَارِهَا بِمَصَالِحِ الْآخِرَةِ ، فَهِيَ فِي
الْحَقِيقَةِ خِلَافَةٌ عَنْ صَاحِبِ الشَّرْعِ فِي حِرَاسَةِ الدِّينِ وَسِّيَاسَةِ الدُّنْيَا
بِهِ . فَافْهَمْ ذَلِكَ وَاعْتَبِرْهُ فِيمَا نَوْرِدُهُ عَلَيْكَ ، مِنْ بَعْدِ . وَاللَّهُ
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ .

الفصل السادس والعشرون

في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه

وإذ قد بينا حقيقة هذا المنصب ، وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين ، وسياسة الدنيا به ، تسمى خلافة وإمامة ، والقائم به خليفة وإماماً . فأما تسميته إماماً فتشبيهاً بإمام الصلاة في اتباعه والإقتداء به ؛ ولهذا يُقال : الإمامة الكبرى . وأما تسميته خليفة فأكونه يخلف النبي في أمته ، فيُقال : خليفة باطلاق ، وخليفة رسول الله . واختلفت في تسميته خليفة الله . فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التي للأدَمِيِّين في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ وقوله : ﴿ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ ﴾ . ومُنِعَ الجمهور منه ؛ لأنَّ معنى الآية ليس عليه ؛ وقد نهى أبو بكر عنه لما دُعِيَ به ، وقال : « لَسْتُ خَلِيفَةَ اللَّهِ وَلَكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ » ؛ ولأنَّ الاستِخْلَافَ إنما هو في حقِّ الغائب ، وأما الحاضر فلا . ثم إنَّ نَصَبَ الإمام واجبٌ قد عُرِفَ وجوبُهُ في الشرع بانجاء الصحابة والتابعين ؛ لأنَّ أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعَةِ أبي بكرٍ رضي الله عنه وتسليمِ النَّظَرِ إليه في أموريهم . وكذا في كل عصرٍ من بعد ذلك . ولم تُتركِ الناسُ فوضى في عصرٍ من الأعصارِ . وأستقرَّ ذلك إجماعاً دالاً على وجوبِ نصبِ الإمام . وقد ذهب بعضُ الناسِ إلى أن مُدْرِكَ وجوبه العقل ، وأن الإجماع

الذي وقع إنما هو قضاء بحكم العقل فيه ؛ قالوا وإنما وجب بالعقل
 لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين ،
 ومن ضرورة الاجتماع التنازع لاردحام الأغراض . فما لم يكن
 الحاكم الوازع أفضى ذلك الى الهرج المؤذين بهلاك البشر وانقطاعهم ؛
 مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية . وهذا المعنى بعينه
 هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في البشر . وقد نبهنا
 على فساد ، وأن إحدى مقدماته أن الوازع إنما يكون بشرع من
 الله تسلم له الكافة تسليم إيمان واعتقاد وهو غير مسلم ؛ لأن
 الوازع قد يكون بسطوة الملك وقهر أهل الشوكة ولو لم يكن
 شرع ، كما في أمم الجوس وغيرهم ممن ليس له كتاب أو لم تبلغه
 الدعوة ؛ أو نقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم
 الظلم عليه بحكم العقل . فادعاهم أن ارتفاع التنازع إنما يكون
 بوجود الشرع هناك ، ونصب الإمام هنا غير صحيح ؛ بل كما
 يكون بنصب الإمام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكة أو
 بامتناع الناس عن التنازع والتظالم ؛ فلا ينهض دليلهم العقلي
 المبني على هذه المقدمة . فدل على أن مدرك وجوبه إنما هو بالشرع
 وهو الإجماع الذي قدمناه .

وقد شد بعض الناس فقال بعدم وجوب هذا النصب رأساً
 لا بالعقل ولا بالشرع ؛ منهم الأصم من المعتزلة وبعض الخوارج
 وغيرهم ؛ والواجب عند هؤلاء إنما هو إمضاء أحكام الشرع ؛
 فإذا تواطأت الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتاج إلى

إمام ولا يجبُ نصبُهُ . وهؤلاء مجتوجون بالإجماع . والذي حملهم على هذا المذهب إنما هو الفرار عن الملك ومذاهبه من الاستيالة والتغلب والاستمتاع بالدنيا ، لما رأوا الشريعة ممثلة بدم ذلك ، والنعمي على أهله ، ومُرغبة في رفضه .

واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به ، وإنما ذم المفاسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع بالذات ؛ ولا شك أن في هذه مفسد محظورة وهي من توابعه ؛ كما أثنى على العدل والنصفة وإقامة مراسم الدين والذب عنه ، وأوجب بإزائها الثواب وهي كلها من توابع الملك . فإذا إنما وقع الذم للملك على صفة وحال دون حال أخرى ، ولم يذمه لذاته ، ولا طلب تركه ؛ كما ذم الشهوة والغضب من المكلفين ، وليس مراده تركهما بالكلية لدعاية الضرورة إليهما ، وإنما المراد تصريفهما على مقتضى الحق .

وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهما الملك الذي لم يكن لغيرهما ، وهما من أنبياء الله تعالى وأكرم الخلق عنده . ثم نقول لهم إن هذا الفرار عن الملك بعدم وجوب هذا النصب^(١) لا يغنيكم شيئا ، لأنكم موافقون على وجوب إقامة أحكام الشريعة ، وذلك لا يحصل إلا بالعصبية والشوكة ، والعصبية مقتضية بطبعها للملك ، فيحصل الملك وإن لم ينصب إمام ، وهو عين ما فررتُم^(٢) .

(١) أي نصب الإمام .

(٢) يشير هنا إلى المثل : «إن الجواد عينه فراره» ؛ وإلا وجب أن يقول : عين ما فررتم عنه .

وإذا تقررَ أنَّ هذا المنصبَ واجبٌ باجماعٍ ، فهو من فروض الكفاية وراجعٌ الى اختيارِ أهلِ المقدِّ والحلِّ ، فيتعيَّنُ عليهم نصبُهُ ، ويجبُ على الخلقِ جميعاً طاعتهُ ، لقوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾

وأما شروطُ هذا المنصبِ فهي أربعةٌ : العلمُ والعدالةُ والكفايةُ وسلامةُ الحواسِّ والأعضاءِ ؛ مما يؤثرُ في الرأيِ والعملِ . واختلفَ في شرطِ خامسٍ وهو النسبُ القرشيُّ .

فأما اشتراطُ العلمِ فظاهرٌ ؛ لأنه إنَّما يكونُ منفذاً لأحكامِ الله تعالى إذا كان عالماً بها ، وما لم يعلمها لا يصحُّ تقديمه لها . ولا يكفي من العلمِ إلا أن يكونَ مجتهداً ، لأنَّ التقليدَ نقصٌ ؛ والإمامةُ تستدعي الكمالَ في الأوصافِ والأحوالِ .

وأما العدالةُ فلأنَّه منصبٌ دينيٌّ ينظرُ في سائرِ المناصبِ التي هي شرطٌ فيها ، فكان أولى باشتراطها فيه . ولا خلافَ في انتفاءِ العدالةِ فيه بفسقِ الجوارحِ من ارتكابِ المحظوراتِ وأمثالها . وفي انتفائها بالبدعِ الاعتقاديةِ خلافٌ .

وأما الكفايةُ فهو أن يكونَ جريئاً على إقامةِ الحدودِ واقتحامِ الحروبِ بصيراً بها ، كفيلاً بحملِ الناسِ عليها ، عارفاً بالعصبيَّةِ وأحوالِ الدهاءِ ، قوياً على معاناةِ السياسةِ ؛ ليصحَّ له بذلك ما جُلِّلَ إليه من حمايةِ الدينِ ، وجهادِ العدوِّ ، وإقامةِ الأحكامِ ، وتدبيرِ المصالحِ .

وَأَمَّا سَلَامَةُ الْحَوَاسِ وَالْأَعْضَاءِ مِنَ النِّقْصِ وَالْعُطْلَةِ^(١) كَالْجُنُونِ
وَالْعَمَى وَالصَّمَمِ وَالْخَرَسِ ، وَمَا يُؤَثِّرُ فَقْدَهُ مِنَ الْأَعْضَاءِ فِي الْعَمَلِ
كَفَقْدِ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ وَالْأَنْثَيْنِ فَتَشْتَرِطُ السَّلَامَةُ مِنْهَا كُلَّهَا ،
لِتَأْثِيرِ ذَلِكَ فِي تِمَامِ عَمَلِهِ وَقِيَامِهِ بِمَا جُعِلَ إِلَيْهِ . وَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يَشِينُ
فِي الْمَنْظَرِ فَقَطْ ؛ كَفَقْدِ إِحْدَى هَذِهِ الْأَعْضَاءِ ، فَشَرَطُ السَّلَامَةِ مِنْهُ
شَرَطُ كَمَالٍ . وَيُلْحَقُ بِفَقْدَانِ الْأَعْضَاءِ الْمَنْعُ مِنَ التَّصَرُّفِ . وَهُوَ
ضَرْبَانِ : ضَرْبٌ يُلْحَقُ بِهِ فِي اشْتِرَاطِ السَّلَامَةِ مِنْهُ شَرَطُ وَجُوبِ
وَهُوَ الْقَهْرُ وَالْعَجْزُ عَنِ التَّصَرُّفِ جَمَلَةً بِالْأَسْرِ وَشَبْهَهُ ؛ وَضَرْبٌ لَا
يُلْحَقُ بِهِ وَهُوَ الْحَجْرُ بِاسْتِيلَاءِ بَعْضِ أَعْوَانِهِ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ
عَصِيَانٍ وَلَا مُشَاقَّةٍ ، فَيَنْتَقِلُ النَّظَرُ فِي حَالِ هَذَا الْمُسْتَوِيِّ ، فَإِنْ
جَرَى عَلَى حُكْمِ الدِّينِ وَالْعَدْلِ وَحَمِيدِ السِّيَاسَةِ جَازَ قَرَارُهُ ، وَإِلَّا
اسْتَنْصَرَ الْمُسْلِمُونَ بِمَنْ يَقِضُ يَدَهُ عَنْ ذَلِكَ وَيَدْفَعُ عِلَّتَهُ ، حَتَّى يُنْفَذَ
فِعْلُ الْخَلِيفَةِ .

وَأَمَّا النِّسْبُ الْقُرَيْشِيُّ فَلِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ عَلَى ذَلِكَ ،
وَأَخْتَجَّتْ قُرَيْشٌ عَلَى الْأَنْصَارِ لَمَّا هُمَا يَوْمُئِذٍ بَيْعَةَ سَعْدِ بْنِ
عُبَادَةَ وَقَالُوا : « مَنَا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ » بِقَوْلِهِ ﷺ : « الْأَنْثَى مِنْ
قُرَيْشٍ » وَبِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَانَا بِأَنْ نُحْسِنَ إِلَى مُحْسِنِكُمْ وَنَتَجَاوَزَ
عَنْ مُسِيئِكُمْ ، وَلَوْ كَانَتْ الْإِمَارَةُ فِيكُمْ لَمْ تَكُنِ الْوَصِيَّةُ بِكُمْ ؛

(١) ورد في لسان العرب : « وتعطل الرجل إذا بقي لا عمل له ، والاسم العطلة . وفلان ذو
عطلة إذا لم تكن له صنعة يمارسها » . واستعملها ابن خلدون هنا على المجاز بمعنى : فقد الحواس أو
تعطيلها .

فحجُّوا الأنصارَ، ورجعوا عن قولهم : « منا أميرٌ ومنكم أميرٌ » ،
وعَدَلُوا عما كانوا هموا به منبيعةٍ سعدٍ لذلك . وثَبَّتَ أيضاً في
الصحيح : « لا يزالُ هذا الأمرُ في هذا الحَيِّ من قريشٍ » وأمثالُ
هذه الأدلةِ كثيرةٌ .

إِلاَّ أَنَّهُ لما ضَعُفَ أمرُ قريشٍ وتلاشت عصبيتُهُم بما نالهم من
التَّرفِ والنَّعيمِ ، وبما أَنْفَقَتْهُمُ الدَّولةُ في سائرِ أَقطارِ الأَرْضِ عَجَزُوا
بذلك عن حملِ الخِلافةِ ، وتَغَلَّبَتْ عَلَيْهِمُ الْأَعاجِمُ وصارَ الحُلُّ
والعَقْدُ لهم ، فاشتَبَهَ ذلكَ على كثيرٍ من المُحَقِّقِينَ حتى ذهبوا الى
نفي اشتراطِ القُرَيشِيَّةِ وعوَّلُوا على ظواهر في ذلك ، مثلَ قوله
ﷺ : « اسمعوا وأطيعوا وان وُلِّيَ عليكم عبدٌ حَبَشِيٌّ ذُو زَبِيَّةٍ » ،
وهذا لا تقومُ به حُجَّةٌ في ذلك ، فَإِنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ التَّمثِيلِ
وَالْفَرْضِ لِلْمَبالَغَةِ في إيجابِ السَّمْعِ والطاعةِ ؛ وَمِثْلَ قولِ عُمرَ « لو
كانَ سالمٌ مولى حُذَيْفَةَ حَيًّا لَوَلَّيْتُهُ » أو « لما دخلتني فيه الظَّنَّةُ » ،
وهو أيضاً لا يُفِيدُ ذلكَ لما علمت أَنَّ مذهبَ الصحابيِّ ليس بحُجَّةٍ ،
وأيضاً قَوْلُ القومِ منهم ، وَعَصبيَّةُ الولاءِ حاصِلَةٌ لسالمٍ في
قريشٍ ، وهي الفائدةُ في اشتراطِ النَّسَبِ . ولما استعظَمَ عمرُ أمرَ
الخِلافةِ ورأى شروطها كَأَنَّها مَفْقُودَةٌ في ظَنِّهِ ، عدَلَ الى سالمٍ
لتوفُّرِ شروطِ الخِلافةِ عنده فيه ، حتى من النَّسَبِ المفيدِ للعصبيَّةِ
كما نذكر ، ولم يبقَ إِلاَّ صِراحةُ النَّسَبِ فَرآه غير محتاجٍ إليه ، إذ
الفائدةُ في النَّسَبِ إِنَّمَا هي العَصبيَّةُ وهي حاصِلَةٌ من الولاءِ . فكان
ذلكَ حرصاً من عُمرَ رضي الله عنه على النظرِ للمسلمينَ وتقليدِ أمرهم

لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه عهدة .

ومن القائلين بنفي اشتراطِ القرشيّة القاضي ابو بكر الباقليّ ،
لما أدرك عليه عصبية قريش من التلاشي والأضمحلال واستبداد
ملوك العجم على الخلفاء ، فأسقط شرطَ القرشيّة ، وإن كان موافقاً
لرأي الخوارج ، لما رأى عليه حال الخلفاء لعهده . وبقي الجمهور على
القول باشتراطها وصحة الإمامة للقرشيّ ، ولو كان عاجزاً عن القيام
بأمور المسلمين . وردّ عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقوى بها
على أمره ؛ لأنّه إذا ذهبت الشوكة بذهاب العصبية فقد ذهبت
الكفاية ؛ وإذا وقع الأخلال بشرط الكفاية تطرّق ذلك ايضاً الى
العلم والدين ، وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الأجماع .
ولنتكلم الآن في حكمة اشتراط النسب ليتحقّق به الصواب
في هذه المذاهب فنقول : إنّ الأحكام الشرعيّة كلّها لا بد لها
من مقاصد وحكم تشتمل عليها ، وتشرّع لأجلها . ونحن إذا بحثنا
عن الحكمة في اشتراط النسب القرشيّ ومقصد الشارع منه ، لم
يقتصر فيه على التبرك بوصول النبي ﷺ كما هو في المشهور ، وإن
كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلًا ؛ لكن التبرك ليس
من المقاصد الشرعيّة كما علمت ، فلا بدّ إذن من المصلحة في اشتراط
النسب وهي المقصودة من مشروعيتها . وإذا سبرنا وقسمنا لم نجدنا
إلا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة ، ويرتفع الخلاف
والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكنُ إليه الملة وأهلها ، وينتظم
حبل الألفة فيها . وذلك أنّ قريشاً كانوا عصبّة مُصرّة وأصلهم وأهل

القلب منهم ، وكان لهم على سائر مُضَرَّ العِزَّةُ بالكثرة والعصبية والشرف . فكان سائرُ العربِ يعترفُ لهم بذلك ويستكينون لغلَبهم . فلو جُمِلَ الأمرُ في سواهم لتَوَقَّعَ افتراقُ الكلمة بمخالفتهم ، وعدمِ انقيادهم ؛ ولا يقدرُ غيرُهم من قبائلِ مُضَرَّ أن يرُدَّهم عن الخلاف ، ولا يجمِلُهم على الكثرة ، فتفترقُ الجماعةُ وتختلفُ الكلمة . والشارعُ محذِّرٌ من ذلك حريصٌ على اتفائهم ، ورفعِ التنازعِ والشتاتِ بينهم ، لتحصلَ اللُّحمةُ والعصبيةُ وتحسنَ الحماية . بخلافِ ما إذا كان الأمرُ في قریش ، لأنَّهم قادرون على سوقِ الناسِ بعضا القلبِ إلى ما يراؤ منهم ، فلا يُخشى من أحدي خلافِ عليهم ولا فرقةٌ ؛ لأنَّهم كفيلون حينئذٍ بدفعها ومنعِ الناسِ منها . فاشترطَ نسبُهم القرشيُّ في هذا المنصب ، وهم أهلُ العصبيةِ القويةِ ليكونَ أبلغَ في انتظامِ الملةِ واتفاقِ الكلمة ؛ وإذا انتظمت كلُّهم انتظمت بانتظاها كلمةُ مُضَرَّ أجمع ، فأذعنَ لهم سائرُ العربِ ، وانقادت الأُممُ سواهم إلى أحكامِ الملةِ ، ووطئت جنودُهم قايسةَ البلادِ كما وقع في أيامِ الفتوحاتِ ، واستمرَّ بعدها في الدولتين إلى أن اضمحلَّ أمرُ الخلافةِ ، وتلاشت عصبيةُ العربِ . ويعلمُ ما كان لقریش من الكثرةِ والتغلبِ على بطونِ مُضَرَّ ، من مارسَ أخبارَ العربِ وسيرتهم وتفطنَ لذلك في أحوالهم . وقد ذكر ذلك ابنُ اسحق في كتابِ السيرِ وغيره . فاذا تَبَّتْ أَنَّ اشتراطَ القرشيةِ إنما هو لدفعِ التنازعِ بما كان لهم من العصبيةِ والقلبِ ، وعلمنا أن الشارعَ لا يُخصُّ الأحكامَ بجيلٍ ولا عصرٍ ولا أمةٍ ، علمنا أن ذلك إنما

هو من الكفاية فرددناه إليها ، وطردنا العلة المشتمة على المقصود من القرشية وهي وجود العصبية ، فاشتطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أولي عصبية قوية غالبية على من معها لمصرها ، ليستشيخوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية . ولا يعلم ذلك في الأقطار والآفاق كما كان في القرشية ، إذ الدعوة الإسلامية التي كانت لهم كانت عامة ، وعصبية العرب كانت وافية بها فغلبوا سائر الأمم وإنما يخص لهذا العهد كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة . وإذا نظرت سير الله في الخلافة لم تعد هذا ؛ لانه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه في القيام بأمور عباده ليحييهم على مصالحهم ويردّهم عن مضارهم ، وهو مخاطب بذلك ، ولا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه . ألا ترى ما ذكره الإمام ابن الخطيب^(١) في شأن النساء وأنهن في كثير من الأحكام الشرعية جعلن تبعاً للرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وإنما دخلن عنده بالقياس ، وذلك لما لم يكن لهن من الأمر شيء وكان الرجال قوامين عليهن ، اللهم إلا في العبادات التي كل أحد فيها قائم على نفسه ، فخطأهن فيها بالوضع لا بالقياس . ثم إن الوجود شاهد بذلك ؛ فإنه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم . وقل ان يكون الأمر الشرعي مخالفاً للأمر الوجودي . والله تعالى أعلم .

(١) الإمام ابن الخطيب هو الفخر الرازي قاله نصر اهـ .

الفصل السابع والعشرون

في مذاهب الشيعة في حكم الإمامة

اعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والاتباع، ويُطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين^(١) من الخلف والسلف على أتباع عليّ وبنيه رضي الله عنهم . ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبيٍّ إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوماً من الكبار والصغار، وأنّ علياً رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفها جهايزة السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة . وتنقسم هذه النصوص عندهم إلى جليّ وخفيّ: فالجليّ مثل قوله: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» . قالوا: ولم تطرد هذه الولاية إلا في عليّ، ولهذا قال له عمر: «أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة» . ومنها قوله: أقضاكم عليّ، ولا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولي

(١) المتكلمون هم علماء «التوحيد» المسمى بعلم الكلام.

الامر الواجبة طاعتهم بقوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ، والمراد الحكم والقضاء . ولهذا كان حكماً في قضية الإمامة يوم السقيفة دون غيره . ومنها قوله : « من يبايعني على روحه وهو وصي وولي هذا الامر من بعدي » ، فلم يبايعه إلا علي .

ومن الخفي عندهم بعث النبي ﷺ علياً لقراءة سورة براءة في الموسم حين أتركت ؛ فإنه بعث بها أولاً بأب بكر ثم أوجي إليه ليلفقه رجل منك أو من قومك ، فبعث علياً ليكون القاريء المبلغ . قالوا : وهذا يدل على تقديم علي . وأيضاً فلم يعرف أنه قدم أحداً على علي . وأما أبو بكر وعمر فقدّم عليهما في غزاتين^(١) ، أسامة بن زيد مرة وعمر بن العاص أخرى . وهذه كلها أدلة شاهدة بتعيين علي للخلافة دون غيره . فيها ما هو غير معروف ومنها ما هو بعيد عن تأويلهم .

ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل على تعيين علي وتشخيصه ، وكذلك تنتقل منه الى من بعده وهؤلاء هم الإمامية ، ويتبرأون من الشيخين حيث لم يُقدّموا علياً ويبايعوه بمقتضى هذه النصوص ، ويغيصون^(٢) في إمامتهما . ولا يلتفت الى نقل القدح فيها من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم .

(١) كذا بالأصل في جميع النسخ ، والأصح : غزوتين جمع غزوة ، كما في القاموس .

(٢) غمص عليه قوله : كذب عليه كلامه ، عابه عليه . وغمصه : حقره واستصغره . وهذا الفعل يتعدى بنفسه ، لذلك كان الأولى حذف في .

ومنها من يقول : إن هذه الأدلة إنما اقتضت تعيين عليّ بالوصف لا بالشخص ، والناس مقصرون حيث لم يضعوا الوصف موضعه ، وهؤلاء هم الزيدية ، ولا يتبرأون من الشيخين ولا يغمصون في إمامتهما مع قولهم بأن علياً أفضل منهما ، لكنهم يجوزون إمامة المفضل مع وجود الأفضل .

ثم اختلفت أقول هؤلاء الشيعة في مساق الخلاف بعد عليّ : فمنهم من ساقها في ولد فاطمة بالنص عليهم واحداً بعد واحد على ما يذكر بعد ؛ وهؤلاء يُسمّون الإمامية نسبة إلى مقاتلهم باشرط معرفة الإمام وتعيينه في الأيمان ، وهي أصل عندهم ؛ ومنهم من ساقها في ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوخ ؛ ويُشترط أن يكون الإمام منهم عالماً زاهداً جواداً شجاعاً داعياً إلى إمامته ؛ وهؤلاء هم الزيدية نسبة إلى صاحب المذهب ، وهو زيد بن عليّ ابن الحسين السبط^(١) ، وقد كان يناظر أخاه محمداً الباقر على اشتراط الخروج في الإمام ، فيلزمه الباقر أن لا يكون أبوها زين العابدين إماماً لأنه لم يخرج ولا تعرض للخروج . وكان مع ذلك ينمى عليه مذاهب المعتزلة وأخذها عطاء . ولما ناظر الإمامية زيدا في إمامة الشيخين وراؤه يقول بإمامتهما ولا يتبرأ منهما رفضوه ولم يجعلوه من الأئمة ، وبذلك سموا رافضة . ومنهم من ساقها بعد عليّ وابنيه السبطين على اختلافهم في ذلك إلى أخيها

(١) السبط : ولد البنت . ولذلك يطلق اسم السبطين على الحسن والحسين ابني الإمام علي بن أبي طالب (ع) من فاطمة الزهراء (ع) بنت رسول الله ﷺ . فكل منهما سبط الرسول ﷺ .

محمد بن الحنفية ، ثم إلى ولده ، وهم الكيسانية نسبة إلى كيسان مولاة . وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركناها اختصاراً .

ومنهم طوائف يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والايان في القول بالوهمية هؤلاء الأئمة . إما على أنهم بشر تصفوا بصفات الألوهية ؛ أو أن الإله حل في ذاتهم البشرية ، وهو قول بالخلول يوافق مذهب النصارى في عيسى صلوات الله عليه . ولقد حرق علي رضي الله عنه بالنار من ذهب فيه إلى ذلك منهم ، وسخط^(١) محمد بن الحنفية المختار بن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك عنه ، فصرح بلعنته والبراءة منه ، وكذلك فعل جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه بمن بلفه مثل هذا عنه . ومنهم من يقول : إن كمال الإمام لا يكون لغيره ، فإذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر ليكون فيه ذلك الكمال ؛ وهو قول بالتناسخ .

ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزهُ إلى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم ، وهؤلاء هم الواقفية . فبعضهم يقول هوحى لم يمت إلا أنه غائب عن أعين الناس ، ويستشهدون لذلك بقبصة الخضر^(٢) ، قيل مثل ذلك في علي رضي الله عنه وإنه في السحاب ، والرعد صوته ، والبرق في سوطه .

(١) يتعدى فعل سخط بنفسه ، ويتعدى بالحرف «على» أيضاً . والشائع تعديته بعلى . وربما يكون الحرف المذكور قد سقط . وعندنا يكون الأصل «وسخط محمد بن الحنفية على المختار» .
(٢) ورد ذكر هذه القصة في القرآن الكريم في الآيات ٦٥ - ٨٢ من سورة الكهف .

وقالوا مثله في محمد بن الحنفية وإنه في جبل رضى من أرض الحجاز ، وقال شاعرهم :

ألا إن الأئمة من قرين
علي والثلاثة من بنيه
فسيبسط سبط إيمان وبر
وسبسط لا يدوق الموت حتى
تغيب لا يرى فيهم زماناً
برضى عنده غسل وماء

وقال مثله غلاة الإمامية ، وخصوصاً الاثني عشرية منهم يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم ، وهو محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه المهدي دخل في سرداب بدارهم بالجللة^(١) وتغيب حين اعتقل مع أمه وغاب هنالك ، وهو يخرج آخر الزمان فيملا الأرض عدلاً ؛ يشيرون بذلك الى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي ؛ وهم الى الآن ينتظرونه ويسمون المنتظر لذلك ، ويقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب ، وقد قوموا مركباً فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج ، حتى تشتبك النجوم ، ثم ينفضون ويرجعون الامر الى الليلة الآتية ، وهم على ذلك لهذا العهد . وبعض هؤلاء الواقفية يقول : إن الامام الذي مات يرجع الى حياته الدنيا . ويستشهدون لذلك بما وقع في القرآن الكريم من قصة أهل الكهف ، والذي مر على قرية ، وقتل بني اسرائيل

(١) المعروف أنه غاب في سامراء (سر من رأى) . ومقامه معروف إلى الآن .

حين ضُربَ بعظامِ البقرة التي أمروا بذبحها . ومثل ذلك من الخوارق التي وقعت على طريق المعجزة ، ولا يصحُّ الاستشهادُ بها في غير مواضعها . وكان من هؤلاء السيدُ الحميريُّ ، ومن شعره في ذلك :

إذا ما المرءُ شابَ له قَذالٌ وعَلَّلهُ المواشِطُ بالخضابِ^(١)
فقد ذهبتْ بِشاشَتِهِ وأودى فقم يا صاحِ نبكِ على الشابِ
الى يومٍ تووبُ الناسُ فيه الى دنياهمو قبلَ الحسابِ
فليس بعائِدٍ ما فاتَ منه الى أحدٍ الى يومِ الإيابِ
أدينُ بأنَّ ذلكَ دينٌ حقٌّ وما أنا في النُّشورِ بذِي ارتيابِ
كذلكَ اللهُ أخبرَ عن أناسٍ حيُّوا من بعدِ دَرسٍ في الترابِ

وقد كفانا مؤونة هؤلاء الغلاةِ أئمةُ الشيعةِ ، فانهم لا يقولون بها ويُبطلون احتجاجاتهم عليها .

وأما الكيسانيةُ فساقوا الإمامةَ من بعد محمدٍ بنِ الحنفيةِ إلى ابنهِ أبي هاشمٍ ، وهؤلاء هم الهاشميةُ . ثم افترقوا فنهم من ساقها بعده الى أخيه عليٍّ ثم الى ابنهِ الحسنِ بنِ عليٍّ . وآخرون يزعمون أنَّ أبا هاشمٍ لما ماتَ بأرضِ السَّراةِ منصرفاً من الشامِ أوصى إلى محمدٍ بنِ عليٍّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ ، وأوصى محمدٌ الى ابنهِ إبراهيمَ المعروفِ بالإمامِ ، وأوصى إبراهيمُ الى أخيه عبدِ اللهِ بنِ الحارثيةِ

(١) القذال: جماع مؤخر الرأس ، والخضاب: صباغ يلون به الشعر وبعض أعضاء الجسم كالأظافر وما شاكل .

الْمُلَقَّبُ بِالسَّفَاحِ ، وَأَوْصَى هُوَ إِلَى أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمُلَقَّبِ
بِالْمَنْصُورِ ، وَانْتَقَلَتْ فِي وَلَدِهِ بِالنَّصْرِ وَالْعَهْدِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ إِلَى
آخِرِهِمْ . وَهَذَا مَذْهَبُ الْهَاشِمِيَّةِ الْقَائِمِينَ بِدَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ . وَكَانَ
مِنْهُمْ أَبُو مُسْلِمٍ وَسُلَيْمَانُ بْنُ كَثِيرٍ ، وَأَبُو سَلَمَةَ الْخَلَّالُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ
شِيعَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ . وَرَبَّمَا يَعْضُدُونَ ذَلِكَ بِأَنَّ حَقَّهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ يَصِلُ
إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَبَّاسِ لِأَنَّهُ كَانَ حَيًّا وَقَتَ الْوَفَاةِ ، وَهُوَ أَوْلَى بِالْوَرَاثَةِ
بِعَصْبِيَّةِ الْعُمُومَةِ .

وَأَمَّا الزَيْدِيَّةُ فَسَاقُوا الْإِمَامَةَ عَلَى مَذْهَبِهِمْ فِيهَا وَأَنَّهَا بِاخْتِيَارِ
أَهْلِ الْحِلِّ وَالْعَقْدِ لَا بِالنَّصْرِ . فَقَالُوا بِإِمَامَةِ عَلِيٍّ ، ثُمَّ ابْنِهِ الْحُسَيْنِ ،
ثُمَّ أَخِيهِ الْحُسَيْنِ ، ثُمَّ ابْنِهِ عَلِيِّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ، ثُمَّ ابْنِهِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ
وَهُوَ صَاحِبُ هَذَا الْمَذْهَبِ . وَخَرَجَ بِالْكُوفَةِ دَاعِيًا إِلَى الْإِمَامَةِ
فُقُتِلَ وَصُلِبَ بِالْكُنَاسَةِ . وَقَالَ الزَيْدِيَّةُ بِإِمَامَةِ ابْنِهِ يَحْيَى مِنْ بَعْدِهِ ،
فَنُضِيَ إِلَى خُرَاسَانَ وَقُتِلَ بِالْجُوزْجَانِ ، بَعْدَ أَنْ أَوْصَى إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ الْحَسَنِ السَّبْطِ ، وَيُقَالُ لَهُ النَّفْسُ الزَّكِيَّةُ ،
فَخَرَجَ بِالْحِجَازِ وَتَلَقَّبَ بِالْمُهْدِيِّ وَجَاءَتْهُ عَسَاكِرُ الْمَنْصُورِ فَقُتِلَ ، وَعُهِدَ
إِلَى أَخِيهِ إِبْرَاهِيمَ ، فَقَامَ بِالبَصْرَةِ وَمَعَهُ عَيْسَى بْنُ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ ،
فَوَجَّهَ إِلَيْهِمُ الْمَنْصُورُ عَسَاكِرَهُ فَهَزِمَ ، وَقُتِلَ إِبْرَاهِيمُ وَعَيْسَى ، وَكَانَ
جَعْفَرُ الصَّادِقُ أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ كُلِّهِ ، وَهِيَ مَعْدُودَةٌ فِي كِرَامَاتِهِ .

وَذَهَبَ آخَرُونَ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ الْإِمَامَ بَعْدَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّفْسِ
الزَّكِيَّةِ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عُمرَ ، وَعَمْرُوهُ هُوَ أَخُو زَيْدِ بْنِ
عَلِيٍّ ، فَخَرَجَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بِالطَّالِقَانِ ، فَمُضِيَ عَلَيْهِ وَيُسَيَّقُ إِلَى

الملتصم فحبسه ومات في حبسه . وقال آخرون من الزيدية : إن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع إبراهيم ابن عبدالله في قتاله مع المنصور ، ونقلوا الإمامة في عقبه ، وإليه أنسب دعي الزنج كما نذكره في أخبارهم .

وقال آخرون من الزيدية : إن الإمام بعد محمد بن عبدالله أخوه إدريس الذي فر إلى المغرب ومات هناك ، وقام بأمره ابنه إدريس واختط مدينة فاس ، وكان من بعده عقبه ملوكا بالمغرب إلى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم .

وبقي أمر الزيدية بعد ذلك غير منتظم . وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان ، وهو الحسن بن زيد بن محمد بن اسماعيل ابن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط ، وأخوه محمد بن زيد . ثم قام بهذه الدعوة في الديلم الناصر الأطروش منهم ، وأسلموا على يده ، وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر ، وعمر أخو زيد بن علي ، فكانت لبيه بطبرستان دولة ، وتوصل الديلم من نسبهم إلى الملك والاستبداد على الخلفاء ببغداد كما نذكر في أخبارهم .

وأما الإمامية فساقوا الإمامة من علي الرضا^(١) إلى ابنه الحسن الوصي ، ثم إلى أخيه الحسين ، ثم إلى ابنه علي زين العابدين ، ثم إلى ابنه محمد الباقر ، ثم إلى ابنه جعفر الصادق . ومن هنا

(١) المقصود هنا ، هو أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام .

افترقوا فرقتين : فرقة ساقوها الى ولده اسماعيل ويعرفونه بينهم بالإمام وهم الإسماعيلية ؛ وفرقة ساقوها الى ابنه موسى الكاظم وهم الإثنا عشرية لوقوفهم عند الثاني عشر من الأئمة وقولهم بغيته إلى آخر الزمان كما مر.

فأما الإسماعيلية فقالوا بإمامة اسماعيل الإمام بالنص من أبيه جعفر . وفائدة النص عليه عندهم ، وإن كان قد مات قبل أبيه إنما هو بقاء الإمامة في عقبه كقصة هرون مع موسى صلوات الله عليهما . قالوا : ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل الى ابنه محمد المكتوم ، وهو أول الأئمة المستورين ؛ لأن الإمام عندهم قد لا يكون له شوكة فيستتر وتكون دعائه ظاهرين إقامة للحجة على الخلق ، وإذا كانت له شوكة ظهر وأظهر دعوته . قالوا وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق ^(١) وبعده ابنه محمد الحبيب وهو آخر المستورين ؛ وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي أظهر دعوته أبو عبد الله الشيعي في كتامة ، وتتابع الناس على دعوته ، ثم أخرجه من معتقله بسجلماسة ، وملك القيروان والمغرب وملك بنوه من بعده مصر كما هو معروف في أخبارهم .

ويسمى هؤلاء الإسماعيلية ، نسبة الى القول بإمامة إسماعيل ، ويسمّون أيضاً بالباطنية نسبة الى قولهم بالإمام الباطن أي المستور ، ويسمّون أيضاً الملحدة لما في ضمن مقالاتهم من الإلحاد .

(١) قد لُقِبَ الإسماعيلية جعفر بن محمد المكتوم بلقب جده الثاني الإمام جعفر الصادق .

ولهم مقالاتٌ قديمةٌ ومقالاتٌ جديدةٌ دعا اليها الحسنُ بن محمدٍ الصَّبَّاحِ في آخرِ أُمَّةِ الخَامِسةِ ، وملكٌ حُصُونًا بالشَّامِ والعِراقِ ، ولم تزل دعوتهُ فيها إلى أن توزَّعَها أَهْلَاكُ بَيْنَ ملوكِ التُّركِ بِمِصرَ ، وملوكِ التَّترِ بالعِراقِ فانقَرَضَتْ . ومقالةٌ هذا الصَّبَّاحِ في دعوتهِ مذكورةٌ في كتابِ « المِللِ والنِّحَلِ » للشَّهْرَسْتَانِي .

وأما الإثْنَا عَشْرِيَّةُ فربَّما خُصُّوا بِاسْمِ الإِمَامِيَّةِ عِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ ، فقالوا بِإِمَامَةِ مُوسَى الكَاضِمِ بن جَعْفَرِ الصَّادِقِ لوفاتهِ أَخِيهِ الْكَبِيرِ إِسْمَاعِيلَ الْإِمَامِ فِي حَيَاةِ أَبِيهِمَا جَعْفَرِ ، فنَصَّ عَلَى إِمَامَةِ مُوسَى هَذَا ، ثُمَّ ابْنِهِ عَلِيٍّ الرِّضَا الَّذِي عَهِدَ إِلَيْهِ الْأُمَمُونَ وَمَاتَ قَبْلَهُ فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ أَمْرٌ ، ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ التَّقِيُّ ، ثُمَّ ابْنُهُ عَلِيٌّ الْهَادِي ، ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِيُّ ، ثُمَّ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ الْمُهْدِي الْمُنْتَظَرُ الَّذِي قَدَّمَناهُ قَبْلُ .

وفي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ لِلشَّيْعَةِ اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ ؛ إِلَّا أَنَّ هَذِهِ أَشْهُرُ مَذَاهِبِهِمْ ، وَمَنْ أَرَادَ اسْتِعَايَها وَمُطَالَعَتَها فَعَلِيهِ بِكِتَابِ « المِللِ والنِّحَلِ » لِابْنِ حَزْمٍ ^(١) وَالشَّهْرَسْتَانِيِّ وَغَيْرِهِمَا ، ففِيهَا بَيَانُ ذَلِكَ . وَاللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ .

(١) كتاب ابن حزم هو كتاب «الفصل، في الملل والنحل» .

الفصل الثامن والعشرون

في انقلاب الخليفة إلى الملك

إِعْلَمَ أَنَّ الْمُلْكَ غَايَةُ طَبِيعَةٍ لِلْعَصْبِيَّةِ ، لَيْسَ وَقُوعُهُ عَنْهَا بِاخْتِيَارٍ ،
إِنَّمَا هُوَ بِضَرُورَةِ الْوُجُودِ وَتَرْتِيبِهِ كَمَا قَلْنَاهُ مِنْ قَبْلَ ، وَأَنَّ الشَّرَائِعَ
وَالدِّيَانَاتِ وَكُلَّ أَمْرٍ يُجْمَلُ عَلَيْهِ الْجَهْلُورُ فَلَا بَدَّ فِيهِ مِنَ الْعَصْبِيَّةِ ،
إِذَا الْمَطْلَبَةُ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِهَا كَمَا قَدَّمْنَاهُ ؛ فَالْعَصْبِيَّةُ ضَرُورِيَّةٌ لِلْمِلَّةِ
وَبُجُودِهَا يَتِمُّ أَمْرُ اللَّهِ مِنْهَا . وَفِي الصَّحِيحِ : « مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا
فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ » . ثُمَّ وَجَدْنَا الشَّارِعَ قَدْ ذَمَّ الْعَصْبِيَّةَ وَنَدَبَ إِلَى
إِطْرَاحِهَا وَتَرْكِهَا فَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيَّةً ^(١) الْجَاهِلِيَّةَ وَفَخَّرَهَا
بِالْأَبَاءِ ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ » ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ
عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ ، وَوَجَدْنَاهُ أَيْضًا قَدْ ذَمَّ الْمُلْكَ وَأَهْلَهُ وَنَعَى عَلَى أَهْلِهِ
أَحْوَالَهُمْ مِنَ الْإِسْتِمْتَاعِ بِالْخِلَاقِ ^(٢) ، وَالْإِسْرَافِ فِي غَيْرِ الْقَصْدِ
وَالْتَنَكُّبِ عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ . وَإِنَّمَا حُضُّ عَلَى الْأُلْفَةِ فِي الدِّينِ وَحَذَرُ
مِنَ الْخِلَافِ وَالْفِرْقَةِ .

وَعَلِمَ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا وَأَحْوَالَهَا عِنْدَ الشَّارِعِ مَطْيَةٌ لِلْآخِرَةِ ،
وَمِنْ فَقْدِ الْمَطْيَةِ فَقَدْ أُلْوِصُولَ . وَلَيْسَ مَرَادُهُ فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ أَوْ يَذْمُهُ

(١) العيبة بضم العين وكسر الموحدة مشددة وفتح المثناة التحتية : الكبر والفخر
والنخوة اهـ . (قاموس) .

(٢) النصيب الوافر من الخير ، والخلاق بكسر الخاء ضرب من الطيب أعظم أجزائه
الزعفران .

من أفعال البشر أو يندب إلى تركه إهماله بالكلية أو اقتلاعاً من أصله ، وتعطيل القوى التي ينشأ عليها بالكلية ؛ إنما قصدهُ تصرّفها في أغراض الحق جهد الاستطاعة ، حتى تصير المقاصد كلها حقاً وتتحد الوجهة ؛ كما قال ﷺ : « من كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » . فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الإنسان ، فإنه لو زالت منه قوة الغضب لفقده منه الانتصار للحق وبطل الجهاد وإعلاء كلمة الله ؛ وإنما يذم الغضب للشيطان وللأغراض الذميمة ؛ فإذا كان الغضب لذلك كان مذموماً وإذا كان الغضب في الله والله كان ممدوحاً ؛ وهو من شمائله ﷺ .

وكذا ذم الشهوات أيضاً ليس المراد إبطالها بالكلية ؛ فإن من بطلت شهوته كان نقصاً في حقه ؛ وإنما المراد تصرّفها فيما أبيح له بأشتماله على المصالح ؛ ليكون الإنسان عبداً مُتَصَرِّفاً طوعاً أو إكراهاً ، وكذا العصبية حيث ذمها الشارع ، وقال : ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ﴾ ، فإنما مراده حيث تكون العصبية على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية ، وأن يكون لأحدٍ فخرٌ بها أو حقٌّ على أحدٍ ، لأن ذلك يجانب^(١) من أفعال العقلاء وغير نافع في الآخرة التي هي دار القرار . فأمّا إذا كانت العصبية في الحق وإقامة أمر الله فائزٌ مطلوبٌ ، ولو بطل لبطلت الشرائع إذ لا يتم قواؤها إلا بالعصبية كما قلناه من قبل . وكذا

(١) الصواب أن يقول : نجاة أو مجون أو مجن . (القاموس) .

أَلَمَّا لَمْ يَزَلْ دَمُهُ الشَّارِعُ لَمْ يَنْمُ مِنْهُ الْقَلْبَ بِالْحَقِّ وَقَهَرَ الْكَافَةَ عَلَى الدِّينِ ، وَمِرَاعَاةَ الْمَصَالِحِ ؛ وَإِنَّمَا دَمُهُ لَمْ يَفِهِ مِنَ التَّغْلِبِ بِالْبَاطِلِ وَتَصْرِيفِ الْأَدَمِيِّينَ طَوْعَ الْأَغْرَاضِ وَالشَّهَوَاتِ كَمَا قَلَنَاهُ . فَلَوْ كَانَ أَلَمَّا مَخْلَصًا فِي غَلْبِهِ لِلنَّاسِ أَنَّهُ لِلَّهِ وَلِحَمْلِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَجِهَادِ عَدُوِّهِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَذْمُومًا .

وَقَدْ قَالَ سَلِيمَانُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ ؛ لَمَّا عَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ بِمَعَزَلٍ عَنِ الْبَاطِلِ فِي النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ .

وَلَمَّا لَقِيَ مَعَاوِيَةَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ قُدُومِهِ إِلَى الشَّامِ فِي أَهْبَةِ الْمُلْكِ وَزِيَةِ مِنَ الْعَدِيدِ وَالْعُدَّةِ اسْتَنْكَرَ ذَلِكَ وَقَالَ : « أَكِسْرَوِيَّةُ يَا مَعَاوِيَةُ ؟ » ؛ فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّا فِي تَغَرُّبِ تَجَاهِ الْعَدُوِّ وَبَنَّا إِلَى مِبَاهَاتِهِمْ بِزِينَةِ الْحَرْبِ وَالْجِهَادِ حَاجَةٌ » ؛ فَسَكَتَ وَلَمْ يَخْطِئْهُ لَمَّا أُحْتَجَّ عَلَيْهِ بِمَقْصِدِهِ مِنْ مَقَاصِدِ الْحَقِّ وَالْدِّينِ . فَلَوْ كَانَ الْقَصْدُ رَفْضَ الْمُلْكِ مِنْ أَصْلِهِ لَمْ يُثْنِ لَهُ هَذَا الْجَوَابُ فِي تِلْكَ الْكِسْرَوِيَّةِ وَأَنْتَحَالِهَا ، بَلْ كَانَ يَحْرُضُ عَلَى خُرُوجِهِ عَنْهَا بِالْجَمَلَةِ . وَإِنَّمَا أَرَادَ عُمَرُ بِالْكِسْرَوِيَّةِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَهْلُ فَارِسَ فِي مُلْكِهِمْ مِنْ ارْتِكَابِ الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَسُلُوكِ سُبُلِهِ وَالْغَفْلَةِ عَنِ اللَّهِ ؛ وَأَجَابَهُ مَعَاوِيَةُ بِأَنَّ الْقَصْدَ بِذَلِكَ لَيْسَ كِسْرَوِيَّةَ فَارِسَ وَبَاطِلُهُمْ ، وَإِنَّمَا قَصْدُهُ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ ، فَسَكَتَ . وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ الصَّحَابَةِ فِي رَفْضِ الْمُلْكِ وَأَحْوَالِهِ وَنَسْيَانِ عَوَائِدِهِ حَذَرًا مِنَ التَّبَاسُّهِ بِالْبَاطِلِ .

فأما استحضير^(١) رسول الله ﷺ استخلف أبا بكرٍ على الصلاة، إذ هي أهمُّ أمورِ الدينِ وارتضاهُ الناسُ للخلافةِ وهي تحملُ الكافةَ على أحكامِ الشريعةِ؛ ولم يجرِ للملكِ ذكرٌ، لما أنه مظنةٌ للباطلِ ونحلةٌ يومئذٍ لأهلِ الكفرِ وأعداءِ الدينِ . فقام بذلك أبو بكرٍ ما شاء الله متبعاً سننَ صاحبه ، وقاتلَ أهلَ الردّةِ حتى اجتمعَ العربُ على الإسلامِ .

ثم عهد إلى عمرَ فاقتضى أثره ، وقاتلَ الأُممَ فغلبهم ، وأذنَ للعربِ في انتزاعِ ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه ، وأنزعوه منهم . ثم صارت إلى عثمان بن عفان ؛ ثم إلى عليٍّ رضي الله عنهما ؛ والكلُّ متبرِّئون من أُلُوكِ مُتَكَبِّونَ عن طُرُقِهِ .

وأكد ذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضةِ الإسلامِ وبدعوةِ العربِ ، فقد كانوا أبعدَ الأُممِ عن أحوالِ الدنيا وترفها ، لا من حيثُ دينهم الذي يدعوهم إلى الزهدِ في النعيمِ ، ولا من حيثُ بدائيتهم ومواطنتهم ، وما كانوا عليه من خشونةِ العيشِ وشظفهِ الذي ألفوه .

فلم تكن أمةٌ من الأُممِ أَسْفَبَ عَيْشاً من مضراً لما كانوا بالحجازِ في أرضٍ غيرِ ذاتِ زرعٍ ولا ضرعٍ ، وكانوا ممنوعينَ من الأريافِ وجبوبها لبعديها واختصاصها بمن وليها من ربعةٍ واليمنِ ؛ فلم يكونوا يتطاولونَ إلى خصبها . ولقد كانوا كثيراً

(١) الصواب: احتضير. والمعنى: حضره الموت.

ما يأكلون العقارب والخنافس، ويفخرون بأكل العليز وهو وبرّ
الإبل يمهونه^(١) بالحجارة في الدم ويطحونه. وقريباً من هذا كانت
حال قریش في مطاعهم ومنساكنهم.

حتى اذا اجتمعت عصبية العرب على الدين بما أكرمهم الله
من نبوة محمد ﷺ، زحفوا الى أمم فارس والروم، وطلبوا ما
كتب الله لهم من الأرض بوعده الصديق. فابتزوا ملكهم وأستباحوا
دنائهم، فزخرت بحار الرقة لديهم، حتى كان الفارس الواحد يقسم
له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب أو نحوها. فاستولوا
من ذلك على ما لا يأخذه الحصر. وهم مع ذلك على خشونة عيشهم،
فكان عمريرقع ثوبه بالجلد، وكان علي يقول: «يا صفراء يا بيضاء
عري غري». وكان أبو موسى يتجافى عن أكل الدجاج لانه لم
يعهد لها للعرب لقلتها يومئذ. وكانت المناخل مفقودة عندهم بالجملة؛
وإنما كانوا يأكلون الخطة بنخالها. ومكاسبهم مع هذا أتم ما
كانت لأحد من أهل العالم.

قال المسعودي: في أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال،
فكان له يوم قتل عند خازنيه خمسون ومائة ألف دينار وألف
ألف درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرها مائة^(٢)
ألف دينار، وخلف إبلاً وخيلاً كثيرة. وبلغ الثمن الواحد من

(١) يمهونه: يضربونه ضرباً شديداً، وتأتي يمهو: بمعنى يرق أيضاً، كما في قولهم: يمهو اللبن:

يرق. (أقرب الموارد).

(٢) في نسخة أخرى مائتا ألف.

متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس وألف أمة . وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ، ومن ناحية السراق أكثر من ذلك . وكان على مربي عبد الرحمن ابن عوف ألف فرس ، وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً . وخلف زيد ابن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الأموال والضيايع بمائة ألف دينار . وبني الزبير داره بالبصرة وكذلك بني بمصر والكوفة والانسكندرية . وكذلك بني طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبنائها بالحص والاجر والساج . وبني سعد ابن أبي وقاص داره بالعقيق ، ورفع سحكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات . وبني ألقدا داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن وخلف يعلى بن منبه^(١) خمسين ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم اهـ . كلام المسعودي .

فكانت مكاسب القوم كما تراه ، ولم يكن ذلك منيعاً عليهم في دينهم ، إذ هي أموال حلال لأنها غنائم وفيه ، ولم يكن تصرفهم فيها بإسراف ، إنما كانوا على قصد في أحوالهم كما قلناه ؛ فلم يكن ذلك بقادح فيهم ، وإن كان الاستكثار من الدنيا مذموماً فإنما يرجع إلى ما أشرنا إليه من الإسراف والخروج به عن القصد . وإذا كان حالهم قصداً ونفقاتهم في سبل الحق ومذاهبه

(١) كذا بالأصول وفي اعلام الرجال : يعلى بن منية أو يعلى بن أمية .

كان ذلك الأستكثار عوناً لهم على طُرُقِ الحقِّ واكتسابِ الدارِ الآخِرَةِ . فلما تدرّجتِ البِدَاوَةُ والغَضَاضَةُ إلى نِهَايَتِهَا ، وجاءتْ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ التي هي مقتضى العصبِيَّةِ كما قلناه ، وحصلَ التَّغْلُبُ والقَهْرُ كَانَ حُكْمُ ذَلِكَ الْمُلْكِ عِنْدَهُمْ حُكْمَ ذَلِكَ الرَّفِيعِ وَالْأَسْتَكْثَارِ مِنَ الْأَمْوَالِ ؛ فلم يصرفوا ذلك التَّغْلُبَ في باطلٍ ولا خرجوا به عن مقاصدِ الدِّيَانَةِ ومذاهبِ الْحَقِّ .

ولما وقعتِ الْفِتْنَةُ بين عليٍّ ومُعاوِيَةَ وهي مقتضى العصبِيَّةِ كان طَرِيقُهُمْ فِيهَا الْحَقُّ وَالْإِجْتِهَادُ ، ولم يكونوا في محاربتِهِمْ لِنَظَرٍ دُنْيَوِيٍّ أَوْ لِإِثَارٍ بَاطِلٍ أَوْ لاسْتِشْعَارٍ حَقْدٍ ، كما قد يتوَهَّمُ متَوَهِّمٌ وينزِعُ إليه مُلْحِدٌ . وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ اجْتِهَادُهُمْ فِي الْحَقِّ وَسَفَهُ كُلِّ وَاحِدٍ نَظَرَ صَاحِبِهِ بِاجْتِهَادِهِ فِي الْحَقِّ فَاقْتَتَلُوا عَلَيْهِ . وَإِنْ كَانَ الْمَصِيبُ عَلِيّاً فَلَمْ يَكُنْ مُعَاوِيَةُ قَائِماً فِيهَا بِقَصْدِ الْبَاطِلِ ؛ إِنَّمَا قَصَدَ الْحَقَّ وَأَخْطَأَ . وَالْكُلُّ كَانُوا فِي مَقَاصِدِهِمْ عَلَى حَقٍّ .

ثم اقتضت طَبِيعَةُ الْمُلْكِ الْأَنْفِرَادَ بِالْمَجْدِ ، واستشَارَ الْوَاحِدَ بِهِ . ولم يكن لِمُعَاوِيَةَ أَنْ يَدْفَعَ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ فَهُوَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ سَاقَتْهُ الْعَصْبِيَّةُ بِطَبِيعَتِهَا ، واستشعرته بنو أُمَيَّةَ ، ومن لم يكن على طَرِيقَةِ مُعَاوِيَةَ فِي اقْتِفَاءِ الْحَقِّ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ فَاعَصَوْا عَلَيْهِ ، واستماتوا دُونَهُ . ولو حملهم مُعَاوِيَةُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ وَخَالَفَهُمْ فِي الْأَنْفِرَادِ بِالْأَمْرِ لَوَقَعَ فِي افْتِرَاقِ الْكَلِمَةِ الَّتِي كَانَ جَمْعُهَا وَتَأْلِيفُهَا أَهَمُّ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ لَيْسَ وَرَاءَهُ كَبِيرٌ مُخَالَفَةٍ . وقد كان عُمرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ إِذَا رَأَى الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنَ أَبِي

بكر: «لو كان لي من الأمر شيء؛ لوليتُه الخلافة». ولو أراد أن يعهد إليه لفعل؛ ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل والعقد لما ذكرناه؛ فلا يقدر أن يحول الأمر عنهم، لئلا تقع الفرقة. وهذا كله إنما حمل عليه منازع الملك التي هي مقتضى العصبية. فالملك إذا حصل وفرضنا أن الواحد انقرده به وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك نكير عليه. ولقد انقرده سليمان وأبوه داود صلوات الله عليهما بملك بني إسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به، وكانوا ما علمت من النبوة والحق. وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى من سواهم. فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه؛ مع أن ظنهم كان به صالحاً، ولا يرتاب أحد في ذلك، ولا يُظن بمعاوية غيره؛ فلم يكن ليعهد إليه، وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق، حاشا لله لمعاوية من ذلك.

وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه وإن كانوا ملوكاً فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة^(١) والبغي؛ إنما كانوا متحررين ليقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحيلهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد. يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والافتداء، وما علم السلف من أحوالهم ومقاصدهم. فقد احتج مالك في الموطأ^(٢) بعمل عبد الملك.

(١) البطالة: الهزل.

(٢) الموطأ: لملك بن أنس. وهو كتاب في الحديث مشهور.

وَأَمَّا مروانُ فَكَانَ مِنَ الطَّبَقَةِ الْأُولَى مِنَ التَّابِعِينَ ، وَعَدَلْتُهُمْ
مَعْرُوفَةً . ثُمَّ تَدَرَّجَ الْأَمْرُ فِي وَلَدِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَكَانُوا مِنَ الدِّينِ
بِالْمَكَانِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ . وَتَوَسَّطَهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَتَزَعَّ إِلَى
طَرِيقَةِ الْخُلَفَاءِ الْأَذْبَعَةِ وَالصَّحَابَةِ جُهْدَهُ ، وَلَمْ يَهْلِك . ثُمَّ جَاءَ خَلْفُهُمْ
وَأَسْتَعْمَلُوا طَبِيعَةَ الْمَلِكِ فِي أَغْرَاضِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ وَمَقَاصِدِهِمْ وَتَسُوا
مَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُهُمْ مِنْ تَحْرِي الْمَقْصِدِ فِيهَا وَاعْتِمَادِ الْحَقِّ فِي مَذَاهِبِهَا .
فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا دَعَا النَّاسَ إِلَى أَنْ تَعَمُّوا عَلَيْهِمْ أَفْعَالَهُمْ وَأَدَالُوا
بِالدَّعْوَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ مِنْهُمْ . وَوَلَّى رِجَالُهَا الْأَمْرَ فَكَانُوا مِنَ الْعَدَالَةِ
يَمُكِّنُ ، وَصَرَفُوا الْمُلُوكَ فِي وُجُوهِ الْحَقِّ وَمَذَاهِبِهِ مَا اسْتَطَاعُوا ؛
حَتَّى جَاءَ بَنُو الرَّشِيدِ مِنْ بَعْدِهِ فَكَانَ مِنْهُمْ الصَّالِحُ وَالطَّالِحُ . ثُمَّ
أَفْضَى الْأَمْرُ إِلَى بَنِيهِمْ فَأَعْطَوْا الْمُلُوكَ وَالتَّرَفَ حَقَّهُ ، وَانْتَفَسُوا فِي
الدُّنْيَا وَبَاطِلِهَا ، وَتَبَدَّلُوا الدِّينَ وَرَأَاهُمْ ظَهْرِيًّا ، فَتَأَذَّنَ اللَّهُ بِمُحَرِّبِهِمْ ،
وَأَنْتَزَعَ الْأَمْرَ مِنْ أَيْدِي الْعَرَبِ جُمْلَةً ، وَأَمَكَّنَ سِوَاهُمْ مِنْهُ . وَاللَّهُ
لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .

وَمَنْ تَأَمَّلَ سِيرَ هَؤُلَاءِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ وَأَخْتِلَافِهِمْ فِي تَحْرِي
الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ عَلِمَ صِحَّةَ مَا قُلْنَاهُ . وَقَدْ حَكَى الْمُسْعُودِيُّ مِثْلَهُ
فِي أَحْوَالِ بَنِي أُمَيَّةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ ، وَقَدْ حَضَرَ عُمُومَتُهُ
وَذَكَرُوا بَنِي أُمَيَّةَ فَقَالَ : « أَمَّا عَبْدُ الْمَلِكِ فَكَانَ جَبَّارًا لَا يَبَالِي بِمَا
صَنَعَ ، وَأَمَّا سُلَيْمَانُ فَكَانَ هُمًّا بَطْنُهُ وَفَرْجُهُ ، وَأَمَّا عُمَرُ فَكَانَ
أَعْوَدَ بَيْنَ نُحُمِيَانٍ ، وَكَانَ رَجُلَ الْقَوْمِ هَشَامٌ » . قَالَ : وَلَمْ يَزَلْ بَنُو
أُمَيَّةَ ضَابِطِينَ لِمَا مُهِّدَ لَهُمْ مِنَ السُّلْطَانِ بِحُوطُونُهُ وَيَصُونُونَ مَا وَهَبَ

الله لهم منه ، مع تسنيهم معالي الأمور ، ورفضهم دينياتها ، حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المترفين ، فكانت همّتهم قصد الشهوات ، وركوب اللذات من معاصي الله جهلاً باستدراجيه وأمناً لمكره ، مع أطراحهم صيانة الخلافة ، واستخفافهم بحق الرياسة وضعفهم عن السياسة ، فسلبهم الله العزّ والبسهم الذلّ ، ونفى عنهم النعمة . ثم استحضّر عبد الله^(١) بن مروان فقص عليه خبره مع ملك النوبة لما دخل أرضهم فأراد أيام السفاح ، قال : « أقتُ ملياً ثم أتاني ملكهم فقعده على الأرض وقد بسطت له فرش ذات قيمة ، فقلت له ما منعك من القعود على ثيابنا^(٢) » ، فقال : إني ملك أوحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله . ثم قال : لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم ؟ فقلت : اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا يجهلهم ا قال : فلم تطأون الزرع بدوابكم والفساد تحرم عليكم ؟ قلت : فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا يجهلهم ا قال : فلم تلبسون الديباج والذهب والحري وهو محرم عليكم في كتابكم ؟ قلت : ذهب منا الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكرو منا . فأطرق ينكت بيده في الأرض ويقول :

(١) علق الهوريبي على ذلك بقوله : « قوله عبدالله كذا في النسخة التونسية وبعض الفاسية وفي بعضها عبد الملك ، وأظنه تصحيفاً (قاله نصر) » . والفاسية صوابها : الفارسية .

وعلق الدكتور علي عبد الواحد وإي بقوله : « استحضّر أبو جعفر المنصور عبدالله بن مروان أي استدعاه في هذا المجلس الذي كان يتناقش فيه مع عمومته ، ليذكر قصته مع ملك النوبة » حتى تأتي هذه القصة مؤيدة لما ذكره المنصور بشأن بني أمية وأسباب انهيار ملكهم .

(٢) كذا بالأصل في جميع النسخ ، ومقتضى السياق : ما منعك من القعود على الفرش مثلنا ؟

عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا ! ثم رفع رأسه إلي وقال :
« ليس كما ذكرت ! بل أنتم قومٌ استحللتم ما حرم الله عليكم ،
وأتيتم ما عنه نهيتهم ، وظلمتم فيما ملكتم ، فسلبكم الله العزَّ والبسكم
الذلَّ بذنوبكم . والله نعمةٌ لم تبلغ غايتها فيكم . وأنا خائفٌ أن
يحلَّ بكم العذابُ وأنتم ببلدي فينا لي معكم . وإنما الضيافةُ
ثلاثٌ . فتزوّد ما احتجت إليه وأرتحل عن أرضي » . فتمعجبَ
المنصورُ وأطرقَ .

فقد تبين لك كيف أنقلبتِ الخلافةُ الى الملك ، وأن الأمرَ
كان في أوله خلافةً ، ووازع كلِّ أحدٍ فيها من نفسه وهو الدين ،
وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وان افضت إلى هلاكهم وحدتهم
دون الكفاية . فهذا عثمان لما حُصر في الدار جاءه الحسنُ والحسينُ
وعبد الله بنُ عمرُ وابنُ جعفرٍ وأمثالهم يريدون المدافعة عنه ، فإي
ومنع من سلّ السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظاً للألفة
التي بها حفظُ الكلمة ، ولو أدى الى هلاكه . وهذا عليُّ أشار عليه
المغيرةُ لأوّل ولايته باستبقاء الزبيرِ ومعاويةَ وطلحةَ على أعمالهم
حتى يجتمع الناسُ على بيعته ، وتتفق الكلمة ، وله بعد ذلك ما
شاء من أمره ، وكان ذلك من سياسة الملك فابى فراراً من الغش
الذي ينافيه الإسلام . وغدا عليه المغيرةُ من الغداة فقال : لقد
أشرتُ عليك بالأمس بما أشرتُ ثم عدتُ الى نظري فعملتُ أنه
ليس من الحقِّ والنصيحة ، وأن الحقَّ فيما رأيته أنت ، فقال عليُّ :
لا والله ، بل أعلمُ أنك نصحتني بالأمس وغششتني اليوم . ولكن

منعني مما أشرت به ذائدُ الحق . وهكذا كانت أحوالهم في اصلاح دينهم بفسادِ دنياهم ونحن :

نُزِقَ دُنْيَانَا بَتَمْزِيقِ دِينِنَا فَلَا دِينُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُزِقُ

فقد رأيت كيف صارَ الأمرُ الى المُلْكِ وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ، ولم يظهر التغيرُ إلا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلبَ عصبيةً وسيفاً . وهكذا كان الأمرُ لعهدِ معاويةَ ومروانَ وابنه عبد الملك ، والصدر الأول من خلفاء بني العباسِ إلى الرشيدِ وبعض ولده . ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبقَ إلا اسمها ، وصارَ الأمرُ مُلكاً بحتاً ، وجرت طبيعةُ التغلبِ إلى غايتها ، واستُعِيلَت في أغراضها من القهرِ والتغلبِ في الشهواتِ والملاذ . وهكذا كان الأمرُ لوُلِدَ عبد الملك ، ولمن جاء بعد الرشيدِ من بني العباسِ ، واسمُ الخلافةِ باقياً فيهم لبقاء عصبيةِ العربِ . والخلافةُ والمُلْكُ في الطورينِ مُلتَبَسٌ بعضها ببعض . ثم ذهبَ رسمُ الخلافةِ وأثرُها بذهابِ عصبيةِ العربِ وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم ، وبقيَ الأمرُ مُلكاً بحتاً كما كان الشأنُ في ملوكِ العجمِ بالشرقِ ، يدينونَ بطاعةِ الخليفةِ تبرُّكاً ، والمُلْكُ بجميع ألقابه ومناحيه لهم ، وليس للخليفةِ منه شيءٌ . وكذلك فعلَ ملوكُ زَنَاتةَ بالمغربِ مثلُ صنهاجةَ مع العبيديينَ ، ومغراوةَ وبني يفرنَ أيضاً مع خلفاء بني أُمِّةَ بالأندلسِ ، والعبيديينَ بالقيروانِ . فقد تبينَ أنَّ الخلافةَ قد وُجِدَت بدونِ المُلْكِ أولاً ، ثم التبتت معانيها

واختلطت ، ثم انفردَ الملوكُ ، حيثُ افترقت عصبيةُ من عصبيةٍ
والخلافةُ . واللهُ مقدرُ الليل والنهارِ ، وهو الواحدُ القهارُ .

الفصل التاسع والعشرون

في معنى البيعة

اعلم أنَّ البيعةَ^(١) هي العهدُ على الطاعةِ ؛ كأنَّ المبايعَ يعاهدُ
أميرَهُ على أَنَّهُ يُسلمُ له النَّظرَ في أمرِ نفسه وأُمُورِ المسلمينَ ، لا
يُنازعُهُ في شيءٍ من ذلك ، ويُطيعُهُ فيما يكلفُهُ به من الأمرِ على
المنشطِ والمكروه^(٢) . وكانوا إذا بايعوا الأميرَ وعقدوا عهده جعلوا
أيديهم في يده تأكيداً للعهدِ ؛ فأشبه ذلك فعلَ البائع والمشتري ؛
فسميَ بيعةً ؛ مصدر باع ؛ وصارت البيعةُ مصافحةً بالأيدي . هذا
مدلولها في عُرف اللغةِ ومعهودِ الشرعِ ؛ وهو المرادُ في الحديثِ في
بيعةِ النَّبيِّ ﷺ ليلةَ العقبةِ وعندَ الشجرةِ ، وحيثُ وردَ هذا اللفظُ ،
ومنه بيعةُ الخلفاءِ . ومنه أيمانُ البيعةِ . كان الخلفاءُ يُستخلفونَ على
العهدِ ويستوعبونَ الأيمانَ كلها لذلك ، فسميَ هذا الاستيعابُ أيمانَ
البيعةِ ؛ وكان الاكراهُ فيها أكثرَ وأغلبَ . ولهذا لما أفتى مالكٌ
رضيَ اللهُ عنه بسقوطِ يمينِ الإكراهِ أنكرها الولايةُ عليه ،

(١) البيعة بفتح الموحدة ، أمَّا بكسرها على وزن شيعه يسكون الياء فيها فهي معبد النصراري

ا هـ .

(٢) المنشط : ما ينشط له الإنسان ويحبّه ، والمكروه : ما يكرهه .

ورأوها قادمة في أيمان البيعة ، ووقع ما وقع من محنة الإمام . رضي الله عنه .

وأما البيعة المشهورة لهذا العهد فهي تحية الملوك الكسروية من تقبيل الأرض أو اليد أو الرجل أو الذيل ، أطلق عليها اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازاً لما كان هذا الخضوع في التحية ، والتزام الآداب ، من لوازم الطاعة وتوابعها ؛ وغلب فيه حتى صارت حقيقة عُرِفَتْ واستغني بها عن مصافحة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الأصل ، لما في المصافحة لكل أحد من التنزل والابتدال المنافين للرياسة ، وصون المنصب الملوكي ؛ إلا في الأقل ممن يقصد التواضع من الملوك ، فيأخذ به نفسه مع خواصه ومشاهير أهل الدين من رعيته . فافهم معنى البيعة في العرف ؛ فانه أكيد على الإنسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وإمامه ، ولا تكون أفعاله عبثاً وبجائاً ؛ واعتبر ذلك من أفعالك مع الملوك . والله القوي العزيز

الفصل الثاني

في ولاية العهد

اعلم أننا قدّمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة ، وأن حقيقة النظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم ؛ فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته ، ويتبع ذلك

أَن يَنْظَرَ لَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِ ، وَيُقِيمَ لَهُمْ مِنْ يَتَوَلَّى أُمُورَهُمْ كَمَا كَانَتْ هُوَ يَتَوَلَّاها ، وَيَثْقُونَ بِنَظَرِهِ لَهُمْ فِي ذَلِكَ كَمَا وَثَقُوا بِهِ فِيمَا قَبْلُ . وَقَدْ عُرِفَ ذَلِكَ مِنَ الشَّرْعِ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى جَوَازِهِ وَانْعِقَادِهِ إِذْ وَقَعَ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِعُمَرَ بِحَضْرَةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَأَجَازَوْهُ وَأَوْجَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِهِ طَاعَةَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ .

وَكذلكَ عَهْدَ عُمَرَ فِي الشُّرَى إِلَى السِّتَةِ : بِقِيَمَةِ الْعَشْرَةِ ، وَجَعَلَ لَهُمْ أَنْ يَخْتَارُوا لِلْمُسْلِمِينَ فَفَوْضَ بَعْضَهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، حَتَّى أَفْضَى ذَلِكَ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، فَاجْتَهَدَ وَنَظَرَ الْمُسْلِمِينَ فَوَجَدَهُمْ مُتَّفَقِينَ عَلَى عُثْمَانَ وَعَلَى عَلِيٍّ ، فَأَثَرُ عُثْمَانَ بِالْبَيْعَةِ عَلَى ذَلِكَ لِمُوافَقَتِهِ إِيَّاهُ عَلَى لُزُومِ الْاِقْتِدَاءِ بِالشَّيْخِينَ فِي كُلِّ مَا يَعْنُ دُونَ اجْتِهَادِهِ ، فَانْعَقَدَ أَمْرُ عُثْمَانَ لِذَلِكَ وَأَوْجَبُوا طَاعَتَهُ . وَأَمَّا مِنَ الصَّحَابَةِ حَاضِرُونَ لِلأُولَى وَالثَّانِيَةِ ، وَلَمْ يَنْكُرْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ . فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ مُتَّفَقُونَ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْعَهْدِ عَارِفُونَ بِمَشْرُوعِيَّتِهِ ؛ وَالْإِجْمَاعُ حُجَّةٌ كَمَا عُرِفَ . وَلَا يُتَّهَمُ الْإِمَامُ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَإِنْ عَهْدَ إِلَى أَبِيهِ أَوْ ابْنِهِ لِأَنَّهُ مَأْمُونٌ عَلَى النَّظَرِ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ ، فَأَوْلَى أَنْ لَا يَحْتَمَلَ فِيهَا تَبَعَةً بَعْدَ مَمَاتِهِ ، خِلَافًا لِمَنْ قَالَ بِاتِّهَامِهِ فِي الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ ، أَوْ لِمَنْ خَصَّصَ التُّهْمَةَ بِالْوَلَدِ دُونَ الْوَالِدِ ، فَإِنَّهُ بَعِيدٌ عَنِ الظَّنِّ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، لِأَسْمَا إِذَا كَانَتْ هُنَاكَ دَاعِيَةٌ تَدْعُو إِلَيْهِ . مِنْ إِيْثَارِ مَصْلَحَةٍ أَوْ تَوَقُّعِ مَفْسَدَةٍ فَتَنْتَفِي الظَّنُّ عِنْدَ ذَلِكَ رَأْسًا ، كَمَا وَقَعَ فِي عَهْدِ مُعَاوِيَةَ لابْنِهِ يَزِيدَ ، وَإِنْ كَانَ فَعَلُ مُعَاوِيَةَ مَعَ وَفَاقِ النَّاسِ لَهُ حُجَّةٌ فِي الْبَابِ . وَالَّذِي دَعَا مُعَاوِيَةَ لِإِيْثَارِ ابْنِهِ يَزِيدَ بِالْعَهْدِ دُونَ

من سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس ، وإتفاق أهوائهم بإتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني أمية ؛ إذ بنو أمية يومئذ ، لا يرضون سواهم ، وهم عصاة قريش وأهل الملة أجمع ، وأهل القلب منهم . فأثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها ، وعدل عن الفاضل الى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع ؛ وإن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالتة وصحبته مانعة من سوى ذلك .

وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوته عن دليل على انتفاء الريب فيه ؛ فليسوا بمن يأخذهم في الحق هواة ، وليس معاوية بمن تأخذ العزة في قبول الحق ؛ فإنهم كلهم أجل من ذلك ، وعدالتهم مانعة منه . وفراؤ عبد الله بن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول في شيء من الأمور مباحاً كان أو محظوراً ، كما هو معروف عنه . ولم يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير ، وتدور الخالف معروف . ثم إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية ، والسفاح والمنصور والمهدي والرشيد من بني العباس ، وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين ، والنظر لهم ؛ ولا يعاب عليهم إيثار أبنائهم وإخوانهم ، وخروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة في ذلك ؛ فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء ، فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك ، وكان الوازع دينياً ، فعند كل أحد وازع

من نفسه ، فعهدوا إلى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على غيره ،
ووكلوا كل من يسمو إلى ذلك إلى وإزيعه . وأما من بعدهم من
لدن معاوية فكانت العصية قد أشرفت على غايتها من الملك ،
والوازع الديني قد ضعف واحتيج إلى الوازع السلطاني والعصبي .
فلو عهد إلى غير من ترتضيه العصية لردت^(١) ذلك العهد وانتقض
أمره سريعاً وصارت الجماعة إلى الفرقة والاختلاف .

سأل رجل علياً رضي الله عنه : ما بال المسلمين اختلفوا عليك ،
ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر ، فقال : لأن أبا بكر وعمر كانا
واليين على مثلي وأنا اليوم والي على مثلك ، يشير إلى وازع
الدين . أفلا ترى إلى المأمون لما عهد إلى علي بن موسى بن جعفر
الصادق وسماه الرضا كيف انكرت العباسية ذلك ، ونقضوا
بيعته وبايعوا لمعه إبراهيم بن المهدي ، وظهر من ألخرج والخلاف
وانقطاع السبل وتعدد الثوار والخوارج ما كاد أن يصطلم الأمر
حتى بادد المأمون من خراسان إلى بغداد ورد أمرهم لمعايده ، فلا
بد من اعتبار ذلك في العهد ، فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث
فيها من الأمور والقبائل والعصيات ، وتختلف باختلاف المصالح
ولكل واحد منها حكم يخصه ، لطفاً من الله بعباده .

وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ التراث على الأبناء فليس
من المقاصد الدينية ؛ إذ هو أمر من الله يخص به من يشاء من

(١) هكذا في الأصل . ولا يبعد أن تكون التاء زائدة .

عباده ، ينبغي أن تُحَسَّنَ فِيهِ النِّيَّةُ ما أمكنَ خوفاً من العَبَثِ
بِالْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ . وَالْمُلْكُ لِلَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ .

وعرضَ هنا أمورٌ تدعو الضرورةُ إلى بيانِ الحقِّ فيها :
فَالْأَوَّلُ منها ما حَدَثَ في يزيدَ من الفسقِ أيامَ خلافتِهِ . فَإِيَّاكَ
أَنْ تَظُنَّ بِمَعَاوِيَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ عِلْمَ ذَلِكَ مِنْ يَزِيدَ ؛ فَإِنَّهُ أَعْدَلَ
مِنْ ذَلِكَ وَأَفْضَلُ ؛ بَلْ كَانَ يَعِذُّهُ أَيَّامَ حَيَاتِهِ فِي سَمَاعِ الْغِنَاءِ وَبَيْنَاهُمْ
عَنْهُ ، وَهُوَ أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ ، وَكَانَتْ مَذَاهِبُهُمْ فِيهِ مُخْتَلِفَةً . وَلَمَّا
حَدَثَ فِي يَزِيدَ مَا حَدَثَ مِنَ الْفُسْقِ اخْتَلَفَ الصَّحَابَةُ حِينَئِذٍ فِي
شَأْنِهِ . فَتَنَّهُمْ مَنْ رَأَى الْخُرُوجَ عَلَيْهِ وَنَقَضَ بَيْعَتَهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ،
كَما فَعَلَ الْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّبِيرِ رضي الله عَنْهُمَا وَمَنْ أَتَّبَعَهُمَا
فِي ذَلِكَ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ أَبَاهُ لِمَا فِيهِ مِنْ إِثَارَةِ الْفِتْنَةِ وَكَثْرَةِ الْقَتْلِ مَعَ
الْعَجْزِ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ ؛ لِأَنَّ شَوْكَةَ يَزِيدَ يَوْمِئِذٍ هِيَ عِصَابَةُ بَنِي أُمَيَّةَ
وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَتَسْتَبِيعُ عَصِيَّةَ مُضَرٍّ
أَجْمَعٍ ، وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَوْكَةٍ ، وَلَا تَطَاقُ مَقَاوِمَتُهُمْ ؛ فَأَقْصَرُوا
عَنْ يَزِيدَ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، وَأَقَامُوا عَلَى الدَّعَاءِ بِهَدَايَتِهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ ؛
وَهَذَا كَانَ شَأْنُ جُمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ . وَالْكُلُّ مُجْتَهِدُونَ وَلَا يَنْكُرُ عَلَى
أَحَدٍ مِنَ الْقَرِيبَيْنِ ، فَقَاصِدُهُمْ فِي الْبِرِّ وَتَحْرِيقِ الْحَقِّ مَعْرُوفَةٌ
وَقَفْنَا لِلَّهِ لِلْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ .

وَالْأَمْرُ الثَّانِي هُوَ شَأْنُ الْعَهْدِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا تَدْعِيهِ الشَّيْعَةُ
مِنْ وَصِيَّتِهِ لِمَلِيٍّ رضي الله عنه . وَهُوَ أَمْرٌ لَمْ يَصِحَّ وَلَا نَقْلُهُ أَحَدٌ
مِنْ أَئِمَّةِ النُّقْلِ . وَالَّذِي وَقَعَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ طَلَبِ الدَّوَاةِ وَالْقِرْطَاسِ

لِيَكْتَبَ الْوَصِيَّةَ وَأَنْ عُمَرَ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ فَدَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ ، وَكَذَا قَوْلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ طُعِنَ وَسُئِلَ فِي الْعَهْدِ فَقَالَ : إِنْ أَعِذْتُ فَقَدْ عَهِدَ مِنْهُ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ ، وَإِنْ أَتْرَكْتُ فَقَدْ تَرَكْتُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنِّي يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَعْهَدْ . وَكَذَلِكَ قَوْلُ عَلِيٍّ لِلْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ دَعَاهُ لِلدُّخُولِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُسْأَلَانِهِ عَنْ شَأْنِهِمَا فِي الْعَهْدِ ، فَأَبَى عَلِيٌّ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ : إِنَّهُ إِنْ مُنِعْنَا مِنْهَا فَلَا نَطْمَعُ فِيهَا آخِرَ الدَّهْرِ ؛ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ عَلِيًّا عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَوْصَ وَلَا عَهِدَ إِلَى أَحَدٍ . وَشَبْهَةُ الْإِمَامِيَّةِ فِي ذَلِكَ إِنَّمَا هِيَ كَوْنُ الْإِمَامَةِ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ كَمَا يُزْعَمُونَ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ وَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الْمَفُوضَةِ إِلَى نَظَرِ الْخَلْقِ . وَلَوْ كَانَتْ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ لَكَانَ شَأْنُهَا شَأْنَ الصَّلَاةِ ، وَلَكَانَ يَسْتَخْلَفُ فِيهَا كَمَا اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي الصَّلَاةِ ، وَلَكَانَ يَشْتَهَرُ كَمَا اشْتَهَرَ أَمْرُ الصَّلَاةِ .

وَاحْتِجَاجُ الصَّحَابَةِ عَلَى خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ بِقِيَاسِهَا عَلَى الصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِمْ ارْتِضَاهُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِدِينِنَا أَفْلا نَرْضَاهُ لِدِينَانَا ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْوَصِيَّةَ لَمْ تَقَعْ . وَبَدَلُ ذَلِكَ أَيْضاً عَلَى أَنَّ أَمْرَ الْإِمَامَةِ وَالْعَهْدَ بِهَا لَمْ يَكُنْ مَهْماً كَمَا هُوَ الْيَوْمَ ، وَشَأْنُ الْعَصْبِيَّةِ الْمُرَاعَاةُ فِي الْاجْتِمَاعِ وَالْإِفْتِرَاقِ فِي مَجَارِي الْعَادَةِ لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ بِذَلِكَ الْإِعْتِبَارِ ؛ لِأَنَّ أَمْرَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ كَانَ كُلُّهُ بِخَوَارِقِ الْعَادَةِ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ عَلَيْهِ ، وَاسْتِمَاتَةِ النَّاسِ دُونَهُ ؛ وَذَلِكَ مِنْ أَجْلِ الْأَحْوَالِ الَّتِي كَانُوا يَشَاهِدُونَهَا فِي حُضُورِ الْمَلَائِكَةِ لِنَصْرِهِمْ ، وَتَرَدُّدِ خَيْرِ السَّمَاءِ بَيْنَهُمْ ، وَتَجَدُّدِ خُطَابِ اللَّهِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ تُتْلَى عَلَيْهِمْ . فَلَمْ يُحْتَجْ إِلَى مُرَاعَاةِ

العصبية لما شمل الناس من صبغة الانقياد والأذعان ، وما يستفهم من تتابع المعجزات الخارقة والأحوال الإلهية الواقعة ، والملائكة المترددة التي وجوا منها ، ودُهِشوا من تتبعها . فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصبية ، وسائر هذه الأنواع مُندرجاً في ذلك القبيل ، كما وقع . فلما انحصَرَ ذلك المدة بذهاب تلك المعجزات ، ثم بفناء القرون الذين شاهدوها ، فاستحالت تلك الصبغة قليلاً قليلاً وذُهِبَت الخوارق وصار الحكم للعادة كما كان . فاعتُبر أمر العصبية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنها من المصالح والمفاسد ، وأصبح الملك والخلافة والعهد بهما مهماً من المهمات الأكيدة كما زعموا ، ولم يكن ذلك من قبل .

فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي ﷺ غير مهمة ، فلم يعهد فيها . ثم تدرجت الأهمية زمان الخلافة بعض الشيء بما دعت الضرورة إليه في الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات ، فكانوا بالخيار في الفعل والترك كما ذكرنا عن عمر رضي الله عنه . ثم صارت اليوم من أهم الأمور للألفة على الحماية ، والقيام بالمصالح ؛ فاعتُبرت فيها العصبية التي هي سرُّ الوازع عن الفرقة والتخاذل ، ومنشأ الاجتماع والتوافق ، الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها .

والأمر الثالث شأن الحروب الواقعة في الإسلام بين الصحابة والتابعين . فاعلم أن اختلافهم إنما يقع في الأمور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الأدلة الصحيحة والمدارك المعتبرة ، والمجتهدون إذا اختلفوا : فإن قلنا إن الحق في المسائل الاجتهادية واحد من

الطرفين ، ومن لم يصادفه فهو مخطي ، فإن جهته لا تتعين باجماع ، فيبقى الكل على احتمال الإصابة ، ولا يتعين المخطي منها ، والتأثم مدفوع عن الكل اجماعاً ؛ وان قلنا إن الكل على حق وإن كل مجتهد مصيب ، فأحرى بنفي الخطأ والتأثم . وغاية الخلاف الذي بين الصحابة والتابعين انه خلاف اجتهادي في مسائل دينية ظنية . وهذا حكمه .

والذي وقع من ذلك في الإسلام إنما هو واقعة علي مع معاوية ومع الزبير وعائشة وطلحة ، وواقعة الحسين مع يزيد ، وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك :

فأما واقعة علي فإن الناس كانوا عند مقتل عثمان مفترقين في الأمصار ، فلم يشهدوا بيعة علي . والذين شهدوا فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا على إمام كسعيد وسعيد ، وابن عمر ، وأسامة بن زيد ، والمغيرة بن شعبة ، وعبد الله ابن سلام ، وقدامة بن مظعون ، وأبي سعيد الخدري ، وكعب بن عجرة ، وكعب بن مالك ، والثمان بن بشير ، وحسان بن ثابت ، ومسلمة بن مخلد ، وفضالة بن عبيد وأمثالهم من أكابر الصحابة . والذين كانوا في الأمصار عدلوا عن بيعته أيضاً الى الطلب بدم عثمان وتركوا الأمر فوضى ، حتى يكون شورى بين المسلمين لمن يؤولونه . وظنوا بعلي هواده في السكوت عن نصر عثمان من قاتليه ، لا في الملامة عليه ، فحاش لله من ذلك . ولقد كان معاوية إذا صرح بلامته إنما يوجهها عليه في سكوته فقط . ثم اختلفوا

بعد ذلك ، فرأى عليٌّ أَنَّ بيعته قد انعقدت ، ولزمت من تأخر عنها ، باجتماع من اجتمع عليها بالمدينة : دار النبي ﷺ وموطن الصحابة ، وأرجأ الأمر في المطالبة بدم عثمان إلى اجتماع الناس وأتفاق الكلمة ، فيتمكن حينئذ من ذلك . ورأى الآخرون أَنَّ بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة أهل الحل والعقد بالافاق ، ولم يحضر إلا قليل ولا تكون البيعة إلا باتفاق أهل الحل والعقد ، ولا تلزم بعقد من تولاها من غيرهم أو من القليل منهم ، وأن المسلمين حينئذ فوضى ، فيطالبون أولاً بدم عثمان ثم يجتمعون على إمام . وذهب إلى هذا معاوية وعمر بن العاص وأُمُّ المؤمنين عائشة والزبير وابنه عبدالله ، وطلحة وابنه محمد ، وسعد وسعيد ، والنعمان بن بشير ومعاوية بن خديج ، ومن كان على رأيهم من الصحابة الذين تحلفوا عن بيعة عليٍّ بالمدينة كما ذكرنا . إلا أنَّ أهل العصر الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة عليٍّ ولزومها للمسلمين أجمعين ، وتصويب رأيه فيما ذهب إليه ، وتعيين الخطأ من جهة معاوية ومن كان على رأيه ، وخصوصاً طلحة والزبير لانتقاضهما على عليٍّ بعد البيعة له فيما نقل ، مع دفع التائيم عن كل من الفريقين ، كالشأن في المجتهدين . وصار ذلك إجماعاً من أهل العصر الثاني على أحد قولَي أهل العصر الأول ، كما هو معروف . ولقد سئل عليٌّ رضي الله عنه عن قتلى الجمل وصفين ، فقال : « والذي نفسي بيده لا يموتن أحدٌ من هؤلاء وقلبه نقيُّ إلا دخل الجنة » يشير إلى الفريقين ؛ نقله الطبري وغيره . فلا يقعن عندك ريبٌ في

عدالةٍ أحدٍ منهم ولا قدحٌ في شيءٍ من ذلك ، فهم من علمت ، وأقوالهم وأفعالهم إنما هي عن المستندات ، وعدالتهم مفروغٌ منها عند أهل السنة ، إلا قولاً للمعتزلة فيمن قاتلَ علياً لم يلتفت إليه أحدٌ من أهل الحق ولا عرج عليه .

وإذا نظرت بعين الإنصاف عذرت الناس أجمعين في شأن الاختلاف في عثمان ، واختلاف الصحابة من بعد ، وعلمت أنها كانت فتنةً ابتلى الله بها الأمة ، بينما المسلمون قد أذهب الله عدوهم وملكتهم أرضهم وديارهم ، ونزلوا الأنصار على حدودهم بالبصرة والكوفة والشام ومصر . وكان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأنصار جفاةً لم يستكثروا من صحبة النبي ﷺ ، ولا هذبتهُم سيرته وآدابه ولا ارتاضوا بحلقه ، مع ما كان فيهم في الجاهلية من ألقاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكية الأيمان . وإذا بهم عند استيفحال الدولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والأنصار من قریش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب السابقين الأولين إلى الأيمان ، فاستنكفوا من ذلك وغصوا به ، لما يرون لأنفسهم من التقدم بأنسابهم وكثرتهم ، ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة وقبائل كندة والأزد من اليمن وتميم ، وقيس من مضر . فصاروا إلى الغضب من قریش والآنفة عليهم ، والتمريض^(١) في طاعتهم ، والتعلل في ذلك بالتظلم منهم والاستعداد عليهم ، والطعن فيهم بالعجز عن

(١) التمريض هنا : بمعنى التوهين والإضعاف .

السوية ، والعدل في القسَم عن التَّسْوِيَةِ ، وفشت المقالةُ بذلك ،
وانتهت الى المدينة ، وهم من علمت . فأعظموه وأبلغوه عثمان ،
فبعثَ الى الأمصارِ من يكشفُ له الخبر . بعثَ ابنَ عمرَ ومحمدَ بنَ
مسلمَةَ وأسامةَ بنَ زيدٍ وأمثالهم فلم يُنكِروا على الأُمراء شيئاً ولا
رأوا عليهم طعناً ، وأدوا ذلك كما علموه . فلم ينقطع الطعنُ من أهل
الأمصارِ . وما زالت الشناعاتُ تنمو . ورُمي الوليدُ بنُ عُقْبَةَ وهو
على الكوفةِ بشرب الخمرِ ، وشهدَ عليه جماعةٌ منهم وحده عثمانُ
وعزله . ثم جاء الى المدينة من أهلِ الأمصارِ يسألونَ عزَلَ العمالِ ،
وشكوا الى عائشةَ وعليٍّ والزبيرِ وطلحةَ ، وعزَلَ لهم عثمانُ بعضَ
العمالِ . فلم تنقطعَ بذلك ألسنتهم ؛ بل وفد سعيدُ بنُ العاص وهو
على الكوفةِ ، فلما رجعَ اعترضوه بالطريق وردَّوه معزولاً . ثم انتقلَ
الخلافُ بين عثمانَ ومن معه من الصحابةِ بالمدينة ونَقَمُوا عليه
امتناعه عن العزْلِ ، فأبى إلا أن يكونَ على جُرْحَةٍ^(١) . ثم نقلوا
النكيرَ الى غيرِ ذلك من أفعاله وهو متمسِكٌ بالاجتهادِ ، وبهم
أيضاً كذلك . ثم تَجَمَّعَ قومٌ من الغوغاءِ وجاؤوا الى المدينة يُظهرونَ
طلبَ النَّصْفَةِ من عثمانَ وهم يُضمرونَ خلافَ ذلك من قتله . وفيهم
من ألبَصَرَ والكوفةَ ومِصرَ . وقامَ معهم في ذلك عليٌّ وعائشةُ
والزبيرُ وطلحةُ وغيرهم ، يحاولونَ تسكينَ الأمورِ ورجوعَ عثمانَ
الى رأيهم . وعزَلَ لهم عاملَ مِصرَ فانصرفوا قليلاً . ثم رجعوا
وقد لبَّسوا بكتابٍ مُدَّلسٍ يزعمونَ أنَّهم لقوه في يدِ حاملِهِ الى

(١) ما تجرح به شهادة خصمك أو حجته .

عاملٍ مِصرَ بَأَن يَقْتُلُهُمْ ، وَحَلَفَ عِثَانُ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَقَالُوا : مَكِنَّا مِنْ مِرْوَانَ فَإِنَّهُ كَاتِبُكَ ، فَحَلَفَ مِرْوَانُ ؛ فَقَالَ عِثَانُ لَيْسَ فِي الْحُكْمِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا . فَحَاصِرُوهُ بِدَارِهِ ثُمَّ بَيَّتُوهُ^(١) عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنَ النَّاسِ وَقَتْلُوهُ ، وَأَنْفَتَحَ بَابُ الْفِتْنَةِ .

فَلِكُلِّ مَنْ هُوَ لَاءٌ عُذْرٌ فِيمَا وَقَعَ وَكُلُّهُمْ كَانُوا مُهْتَمِّينَ بِأَمْرِ الدِّينِ وَلَا يُضَيِّعُونَ شَيْئًا مِنْ تَعَلُّقَاتِهِ . ثُمَّ نَظَرُوا بَعْدَ هَذَا الْوَاقِعِ وَاجْتَهَدُوا . وَاللَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَعَالَمٌ بِهِمْ . وَنَحْنُ لَا نَظُنُّ بِهِمْ إِلَّا خَيْرًا لَمَا شَهِدَتْ بِهِ أَحْوَالُهُمْ ، وَمَقَالَاتُ الصَّادِقِ فِيهِمْ .

مقتل الحسين بن علي

وَأَمَّا الْحُسَيْنُ فَانْهَ لَمَّا ظَهَرَ فِسْقُ يُزَيْدٍ عِنْدَ الْكَافَةِ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ ، بَعَثَتْ شِيعَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ بِالْكَوْفَةِ لِلْحُسَيْنِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ فَيَقُومُوا بِأَمْرِهِ . فَرَأَى الْحُسَيْنُ أَنَّ الْخُرُوجَ عَلَى يُزَيْدٍ مُتَعَمِّنٌ مِنْ أَجْلِ فِسْقِهِ لَا يَسِيًّا مَنْ لَهُ الْفُدْرَةُ عَلَى ذَلِكَ ، وَظَنَهَا مِنْ نَفْسِهِ بِأَهْلِيَّتِهِ وَشَوْكَتِهِ . فَأَمَّا الْأَهْلِيَّةُ فَكَانَتْ كَمَا ظَنُّ وَزِيَادَةٌ . وَأَمَّا الشَّوْكَةُ فَغَلِطَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ فِيهَا ؛ لِأَنَّ عَصِيَّةَ مُضَرَ كَانَتْ فِي قُرَيْشٍ وَعَصِيَّةَ قُرَيْشٍ فِي عَبْدِ مُنَافِرٍ ، وَعَصِيَّةَ عَبْدِ مُنَافِرٍ إِنَّمَا كَانَتْ فِي بَنِي أُمَيَّةَ ، تَعْرِفُ ذَلِكَ لَهُمْ قُرَيْشٌ وَسَاوَرُ النَّاسِ ، وَلَا يَنْكُرُونَهُ

(١) بمعنى أوقعوا به ليلاً .

وإنما نُسيَ ذلكَ أَوَّلَ الاسلامِ لما ^(١) شُغِلَ الناسُ من الذهولِ بالخوارقِ،
وأمرِ الوحي وتَرُدُّ الملائكةِ لِنُصرةِ المسلمين . فأغفلوا أُمُورَ
عَوائِدِهِمْ وَذَهَبَتْ عَصِيَّةُ الجاهِلِيَّةِ وَمَنَازِعُها وَنُسِيتْ ، ولم يَبْقَ
إِلَّا العَصِيَّةُ الطَبِيعِيَّةُ في الحمايَةِ والدِّفاعِ يُنتَفِعُ بها في إقامَةِ الدينِ
وِجْهادِ المُشركينَ ، والدينُ فيها مُحَكَّمٌ والعادَةُ مَعزُولَةٌ . حتى إذا
أَنقَطَعَ أَمْرُ النُّبُوَّةِ وَالْخَوَارِقِ أَلْمَهُولَةِ تَراجَعَ الحُكْمُ بَعْضُ الشَّيْءِ
لِلْمَوائِدِ ؛ فَعَادَتِ العَصِيَّةُ كما كَانَتْ وَلَمَن كَانَتْ ، وَأَصْبَحَتْ مُضَرُّ
أَطْوَعَ لِبَنِي أُمَيَّةٍ مِنْ سِوَاهُمْ بما كانَ لَهُمْ مِنْ ذلكَ قَبْلُ .

فَقَدْ تَبَيَّنَ لَكَ غَلَطُ الحُسَيْنِ ؛ إِلَّا أَنَّهُ في أَمْرِ دُنْيَوِيٍّ لا يَضُرُّهُ
الغَلَطُ فِيهِ . وَأَمَّا الحُكْمُ الشرعيُّ فَلَمْ يَغْلَطْ فِيهِ لِأَنَّهُ مَنُوطٌ بِظَنِّهِ ،
وَكانَ ظَنُّهُ القُدْرَةَ على ذلكَ . وَلقد عَذَّلَهُ ابنُ العَبَّاسِ وابنُ الزُّبَيْرِ
وابنُ عُمَرَ وابنُ الحَنَفِيَّةِ أَخُوهُ وَغَيرُهُ في مَسِيرِهِ الى الكُوفَةِ ، وَعَلِمُوا
غَلَطُهُ في ذلكَ وَلَمْ يَرجِعْ عَمَّا هو بِسَبِيلِهِ لما أَرادَهُ اللهُ .

وَأَمَّا غَيرُ الحُسَيْنِ مِنَ الصَّحابةِ الَّذِينَ كانوا بِالْحِجازِ وَمَعَ يَزِيدَ
بِالشَّامِ وَالْعِراقِ وَمِنَ التَّابِعِينَ لَهُمْ ، فَراؤا أَنَّ الخُروجَ على يَزِيدَ
وَإِنْ كانَ فَاسِقاً لا يَجُوزُ لما يَنشَأُ عَنْهُ مِنَ الهَرَجِ وَالدماءِ فَأَقصَروا
عَنِ ذلكَ وَلَمْ يَتابعُوا الحُسَيْنَ ، وَلَما أنكَروا عَلَيْهِ ، وَلَما أثَمَوْهُ ،
لأنَّهُ مُجْتَهِدٌ وَهُوَ أَسوَةُ المُجْتَهِدِينَ .

وَلَما يَذْهَبُ بِكَ الغَلَطُ أَنَّ تَقولَ بِتَأْثِيمِ هَؤُلاءِ بِمُخالِفَةِ الحُسَيْنِ
وَقُعودِهِمْ عَنِ نَصْرِهِ ؛ فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُ الصَّحابةِ وَكانُوا مَعَ يَزِيدَ وَلَمْ يَروا

(١) قوله لما: ما مصدرية . فتكون (ما) وما بعدها في تأويل مصدر: شغل الناس .

الخروج عليه ، وكان الحسينُ يستشهدُ بهم وهو يقاتل بكر بلاءٍ على فضله وحقه ، ويقول : سلوا جابرَ بنَ عبدِ الله وأبا سعيدَ الخدريَّ وأنسَ بنَ مالكٍ ، وسهلَ بنَ سعيدٍ ، وزيدَ بنَ أرقمَ وأمثالهم . ولم يُنكرْ عليهم قعودُهم عن نصرِهِ ولا تعرُّضَ لذلك ، لعلَّه أنه عن اجتهادٍ منهم كما كان فعلُهُ عن اجتهادٍ منه . وكذلك لا يذهبُ بك الغلطُ أن تقولَ بتصويبِ قتله لما كانَ عن اجتهادٍ وإن كان هو على اجتهادٍ ، ويكون ذلك كما يَحُدُّ الشافعيُّ والمالكيُّ الحنفيُّ على شربِ النبيذِ . واعلم أن الأمرَ ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهادٍ هؤلاء وإن كان خلافُهُ عن اجتهادهم ؛ وإنما انفرد بقتاله يزيدُ وأصحابُهُ . ولا تقولنَّ إنَّ يزيدَ وإن كان فاسقاً ولم يُجزْ هؤلاء الخروجَ عليه فأفعاله عندهم صحيحةٌ . واعلم أنَّه إنما ينفذُ من أعمالِ الفاسقِ ما كانَ مشروعاً . وقاتلُ البُغاةِ عندهم من شرطه أن يكونَ مع الإمامِ العادلِ ، وهو مفقودٌ في مسألتنا ؛ فلا يجوزُ قتالُ الحسينِ مع يزيدَ ولا ليزيدَ ، بل هي من فملاته المؤكدةِ لفسقيه ؛ والحسينُ فيها شهيدٌ مُثابٌ ، وهو على حقٍّ واجتهادٍ ، والصحابَةُ الذين كانوا مع يزيدَ على حقٍّ أيضاً واجتهادٍ .

وقد غلطَ القاضي أبو بكرٍ بنَ العَرَبِيِّ المالكيُّ في هذا فقال في كتابه الذي سماه بالعواصمِ والقواصمِ ما معناه أنَّ الحسينَ قُتِلَ بشرعٍ جديهِ ؛ وهو غلطٌ حملته عليه الغفلةُ عن اشتراطِ الإمامِ العادلِ ؛ ومن أعدلُ من الحسينِ في زمانهِ في إمامتِهِ وعدالتِهِ في قتالِ أهلِ الآراءِ ؟

وأما ابنُ الزُّبَيْرِ فَإِنَّهُ رَأَى فِي قِيَامِهِ مَا رَأَاهُ الْحُسَيْنُ وَظَنَّ كَمَا
 ظَنَّ ؛ وَغَلَطَهُ فِي أَمْرِ الشُّوْكَةِ أَعْظَمُ ؛ لِأَنَّ بَنِي أَسَدٍ لَا يُقَاوِمُونَ
 بَنِي أُمَيَّةَ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ . وَالْقَوْلُ بِتَعَيُّنِ الْخَطَا فِي جِهَةٍ مُخَالَفَةٌ
 كَمَا كَانَ فِي جِهَةٍ مُعَاوِيَةَ مَعَ عَلِيٍّ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ ، لِأَنَّ الْإِجْمَاعَ
 هُنَاكَ قَضَى لَنَا بِهِ وَلَمْ نَجِدْهُ هَهُنَا . وَأَمَّا يُزِيدُ فَعَيْنُ خَطَاؤُهُ فَسَقَتْهُ .
 وَعَبْدُ الْمَلِكِ صَاحِبُ ابْنِ الزُّبَيْرِ أَعْظَمُ النَّاسِ عَدَالَةً ، وَنَاهِيكَ بَعْدَ ذَلِكَ
 احْتِجَاجُ مَالِكٍ بِفَعْلِهِ وَعَدُولُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ ثُمَرٍ إِلَى بَيْعَتِهِ عَنْ
 ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهَمَّ مَعَهُ بِالْحِجَازِ ؛ مَعَ أَنَّ الْكَثِيرَ^(١) مِنَ الصَّحَابَةِ كَانُوا
 يَرَوْنَ أَنَّ بَيْعَةَ ابْنِ الزُّبَيْرِ لَمْ تَنْعَقِدْ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَحْضُرْهَا أَهْلُ الْعَقْدِ
 وَالْحَلِّ كَبَيْعَةِ مَرْوَانَ ؛ وَابْنُ الزُّبَيْرِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ ؛ وَالْكُلُّ
 مُجْتَهِدُونَ مُحْمِلُونَ عَلَى الْحَقِّ فِي الظَّاهِرِ ؛ وَإِنْ لَمْ يَتَّعَيْنِ فِي جِهَةٍ
 مِنْهُمَا . وَالْقَتْلُ الَّذِي نَزَلَ بِهِ بَعْدَ تَقْرِيرِ مَا قَرَّرْنَاهُ يُجِئُ عَلَى قَوَاعِدِ
 الْفِقْهِ وَقَوَائِنِهِ ؛ مَعَ أَنَّهُ شَهِيدٌ مُثَابٌ بِاعْتِبَارِ قَصْدِهِ وَتَحْرِيرِهِ الْحَقَّ .
 هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تُحْمَلَ عَلَيْهِ أَفْعَالُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ
 وَالتَّابِعِينَ ، فَهَمَّ خِيَارُ الْأُمَّةِ ، وَإِذَا جَعَلْنَاهُمْ عُرْضَةً لِلْقُدْحِ فَمَنْ الَّذِي
 يَخْتَصُّ بِالْعَدَالَةِ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي^(٢) » ، ثُمَّ الَّذِينَ
 يَلُونَهُمْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ » ، فَجَعَلَ الْخِيَرَةَ ، وَهِيَ

(١) كَذَا فِي جَمِيعِ الْأَصُولِ ، وَمَقْتَضَى السِّيَاقِ : هَذَا إِلَى أَنَّ الْكَثِيرَ . . .

(٢) وَرَدَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ قَوْلُ الْأَزْهَرِيِّ : وَالَّذِي يَقَعُ عِنْدِي ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، أَنَّ الْقَرْنَ أَهْلُ كُلِّ
 مَدَّةٍ كَانَ فِيهَا ، أَوْ كَانَ فِيهَا طَبَقَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، قَلَّتِ السَّنُونَ أَوْ كَثُرَتْ ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى هَذَا قَوْلُ
 النَّبِيِّ ﷺ : « خَيْرُكُمْ قَرْنِي » ، يَعْنِي أَصْحَابِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، يَعْنِي التَّابِعِينَ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ،
 يَعْنِي الَّذِينَ أَخَذُوا عَنِ التَّابِعِينَ » ، قَالَ : وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْقَرْنُ لُجْمَةً الْأُمَّةِ ، وَهَؤُلَاءِ قُرُونٌ فِيهَا .

العدالة مختصة بالقرن الأول والذي يليه . فإياك أن تعوذ نفسك أو لسانك التعرض لأحدٍ منهم ، ولا تُشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم ؛ والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك ؛ وما اختلفوا إلا عن بينة ، وما قاتلوا أو قتلوا إلا في سبيل جهادٍ أو إظهار حق ، واعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الأئمة ، ليقتردي كل واحدٍ بمن يختاره منهم ، ويحمّله إمامه وهاديه ودليله . فافهم ذلك ؛ وتبين حكمة الله في خلقه وأكوانه ، واعلم أنه على كل شيء قدير واليه الملقأ والمصير . والله تعالى أعلم .

الفصل الحادي والثلاثون

في النقط الحينية الخلفية

لما تبين أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا ، فصاحب الشرع مُتصرف في الأمرين : أما في الدين فبمقتضى التكليف الشرعية التي هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها ؛ وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري . وقد قدّمنا أن هذا العمران ضروري للبشر وأن رعاية مصالحه كذلك ، لئلا يفسد إن أهملت ؛ وقدّمنا أن الملك وسطوته كافٍ في حصول هذه المصالح . نعم إنما تكون أكل إذا

كانت بالأحكام الشرعية لآئته^(١) أعلم بهذه المصالح . فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة إذا كان إسلامياً ويكون من تابعها . وقد ينفرد إذا كان في غير الملة . وله على كل حال مراتب خادمة ووظائف تابعة تتعين خطاً وتوزع على رجال الدولة ووظائف ، فيقوم كل واحد بوظيفته حسبما يمينه الملك الذي تكون يده عالية عليهم ، فيتم بذلك أمره ، ويحسن قيامه بسلطانه . وأما المنصب الخلافي وإن كان الملك يندرج تحته بهذا الاعتبار الذي ذكرناه فتصرفه الديني يختص بخطط ومراتب لا تعرف إلا للخلفاء الإسلاميين . فلندكر الآن الخطط الدينية المختصة بالخلافة ، ونرجع إلى الخطط الملوكية السلطانية .

فأعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة ، فكأنها الإمام الكبير والأصل الجامع ، وهذه كلها متفرعة عنها وداخله فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدنيوية ، وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم .

فأما (إمامة الصلاة) فهي أرفع هذه الخطط كلها وأرفع من الملك بخصوصه المندرج معها تحت الخلافة . ولقد يشهد لذلك

(١) الضمير، هنا، يعود على الشارع وهو الله تعالى . ولولم يذكر قبل . وكثيراً ما يعود الضمير على معلوم لا على مذكور في التراكيب العربية .

استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة في قولهم : ارتضاه رسول الله ﷺ لديننا ، أفلا نرضاه لدنيانا ؟ فلو لا أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس . وإذا ثبت ذلك فأعلم أن المساجد في المدينة صنفان : مساجد عظيمة كثيرة الغاشية^(١) معدة للصلاة المشهودّة ، وأخرى دونها مختصة بقوم أو محلة وليست للصلاة العامة . فأمّا المساجد العظيمة فأمرها راجع إلى الخليفة أو من يفوض إليه من سلطان أو وزير أو قاض ، فينصب لها الإمام في الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء . وتعين ذلك إنما هو من طريق الأولى والاستحسان ولثلا يفتات^(٢) الرعايا عليه في شيء من النظر في المصالح العامة . وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول بوجوب إقامة الجمعة ، فيكون نصب الإمام لها عنده واجبا . وأمّا المساجد المختصة بقوم أو محلة فأمرها راجع إلى الجيران ولا تحتاج إلى نظر خليفة ولا سلطان . وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروفة في كتب الفقه ومبسوطة في كتب الأحكام السلطانية للماوردي وغيره ، فلا نطوّل بذكرها . ولقد كان الخلفاء الأولون لا يقلّدونها لغيرهم من الناس . وأنظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الأذان بالصلاة وترصدّهم لذلك في أوقاتها ، يشهد لك ذلك بمباشرتهم لها وأنهم

(١) الغاشية : الذين يغشونها .

(٢) يفتات عليه : يخالفه .

لم يكونوا يستخلفون فيها . وكذا كان رجال الدولة الأموية من بعدهم استثناءً بها واستعظاماً لرتبتها .

يُحكى عن عبد الملك أنه قال لحاجبه : قد جعلت لك حجابةً بابي إلا عن ثلاثة : صاحب الطعام فإنه يفسد بالتأخير ؛ والأذن بالصلاة فإنه داعٍ إلى الله ؛ والبريد فإن في تأخيرهِ فسادَ القاصية . فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم ودنياهم ، استنابوا في الصلاة ، فكانوا يستأثرون بها في الأحيان ، وفي الصلوات العامة كالعيدين والجمعة إشادةً وتنويهاً . فعل ذلك كثيرٌ من خلفاء بني العباس والعبيديين ، صدرَ دولتهم .

وأما « الفتيا » فللخليفة ، تصفح أهل العلم والتدريس ، وردُّ الفتيا إلى من هو أهل لها وإعانتُهُ على ذلك ، ومنع من ليس أهلاً لها وزجره ، لأنها من مصالح المسلمين في أديانهم ، فتجبُ عليه مراعاتُها لئلا يتعرضَ لذلك من ليس له بأهلٍ فيُضِلُّ الناس . والمدريس الانتصابُ لتعليم العلم وبثه وأجلوسُ لذلك في المساجد . فإن كانت من المساجد العظام ، التي للسلطانِ الولاية عليها أو النظرُ في أمتها كما مر ، فلا بد من استئذانه في ذلك ؛ وإن كانت من مساجد العامة ، فلا يتوقفُ ذلك على إذن . على أنه ينبغي أن يكون لكلِّ أحدٍ من المفتين والمدرسين زاجرٌ من نفسه يمنعُه عن التصدي لما ليس له بأهلٍ فيُبدلُ^(١) به المستهدي ويضِلُّ به

(١) يُبدلُ بالشيء : يتق به ويعتز .

المسترشد . وفي الأثر : « أجروكم على الفتيا أجروكم على جرائم جهنم » . فللسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجبُهُ المصلحة من إجازة أو رد .

وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع ؛ إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة ؛ فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجاً في عمومها . وكان الخلفاء في صدر الإسلام يباشرونه بأنفسهم ولا يجعلون القضاء إلى من سواهم . وأول من دفعه إلى غيره وفوضه فيه عمر رضي الله عنه فولى أبا الدرداء منه بالمدينة ، وولى شريحاً بالبصرة وولى أبا موسى الأشعري بالكوفة . وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام الفضاة وهي مستوفاة فيه .

يقول : « أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدي إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يياس ضعيف من عدلك . البيئة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . ولا يملك قضاء قضيتة أمس ، فراجعت اليوم فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ؛ أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل . الفهم الفهم فيما تلجج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة . ثم اعرف الأمثال

والأشباه ؛ وقس الأمور بنظائرها . واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمدأ ينتهي إليه ، فان أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت القضية عليه ، فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنياً في نسب أو ولاء ؛ فان الله سبحانه عفا عن الأيمان ، ودرأ بالبينات . وإياك والقلق والضجر والتأفف بالخصوم ؛ فان استقرار الحق في موطن الحق يُعظم الله به الأجر ويُحسِن به الذكر والسلام . انتهى كتابُ عمر .

وإنما كانوا يُقلِّدون القضاء لغيرهم وإن كان مما يتعلّق بهم ، لقيامهم بالسياسة العامة وكثرة أشغالها ، من الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البينة^(١) ، ولم يكن ذلك مما يقوم به غيرهم لعظم العناية . فاستحقوا القضاء في الواقع بين الناس ، وأستخلفوا فيه من يقوم به تخفيفاً على أنفسهم . وكانوا مع ذلك إنما يُقلِّدونه أهل عصبيتهم بالنسب أو الولاء ولا يُقلِّدونه لمن بُعد عنهم في ذلك . وأما أحكام هذا المنصب وشروطه فعروفة في كتب الفقه ، وخصوصاً كتب الأحكام السلطانية . إلا أن القاضي إنما كان له في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ؛ ثم دُفع لهم بعد ذلك أمور أخرى على التدرّج بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى . وأستقر منصب القضاء آخر الأمر على أنه يجمع مع

(١) بمعنى حوزة كل شيء .

الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أموال^(١) المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه، وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وترويح الأيامي عند فقد الأولياء على رأي من رآه، والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب، واستيفاء العلم والخبرة فيهم، بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع ولايته .

وقد كان الخلفاء من قبل يحملون للقاضي النظر في المظالم، وهي وظيفة ممتزجة، من سطوة السلطنة ونصفه القضاء . وتحتاج الى علو يد وعظيم رتبة تقمع الظالم من الخصمين، وترجر المعتدي وكأنه يمضي ما عجز القضاء أو غيرهم عن إمضائه . ويكون نظره في البيّنات والتقارير واعتماد الأمارات والقرائن، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق، وحمل الخصمين على الصلح، واستحلاف الشهود؛ وذلك أوسع من نظر القاضي .

وكان الخلفاء الأوّلون يباشرونها بأنفسهم الى أيام المهدي من بني العباس، وربما كانوا يجعلونها لقضايتهم كما فعل عمر رضي الله عنه مع قاضيه أبي ادريس الخولاني، وكما فعله المأمون ليحيى بن أكرم، والمعتصم لأحمد بن أبي دؤاد. وربما كانوا يحملون للقاضي قيادة الجهاد في عساكر الطوائف^(٢). وكان يحيى بن أكرم يخرج أيام

(١) كذا، وفي بعض النسخ: في أمور.

(٢) كذا في الأصول، ويظهر أن هذه الكلمة محرّفة عن كلمة: الصوائف أي الغزوي

أَلْمَأْمُونِ بِالصَّائِقَةِ إِلَى أَرْضِ الرُّومِ ، وَكَذَا مَنْذَرُ بْنُ سَعِيدٍ قَاضِي
عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ . فَكَانَتْ تَوَلِيَّةُ هَذِهِ
الْوِظَائِفِ إِمَّا تَكُونُ لِلْخُلَفَاءِ أَوْ مَنْ يَجْعَلُونَ ذَلِكَ لَهُ مِنْ وَزِيرٍ مُفَوَّضٍ
أَوْ سُلْطَانٍ مُتَغَلِّبٍ .

وَكَانَ أَيْضاً النَّظَرُ فِي الْجَرَائِمِ وَإِقَامَةُ الْحُدُودِ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ
وَالْأُمَوِيَّةِ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَالْعُبَيْدِيِّينَ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ ، رَاجِعاً إِلَى
صَاحِبِ الشَّرْطَةِ ؛ وَهِيَ وَظِيفَةٌ أُخْرَى دِينِيَّةٌ كَانَتْ مِنَ الْوِظَائِفِ
الشَّرْعِيَّةِ فِي تِلْكَ الدَّوْلِ ، تَوْسَعُ النَّظَرُ فِيهَا عَنْ أَحْكَامِ الْقَضَاءِ
قَلِيلاً ، فَيَجْعَلُ لِلتُّهْمَةِ فِي الْحُكْمِ مَجَالاً وَيُفْرِضُ الْعُقُوبَاتِ الزَّاجِرَةَ
قَبْلَ ثَبُوتِ الْجَرَائِمِ ، وَيُقِيمُ الْحُدُودَ الثَّابِتَةَ فِي مَحَالِّهَا ، وَيَحْكُمُ
فِي الْقَوَدِ^(١) وَالْقِصَاصِ ، وَيُقِيمُ التَّعْزِيرَ وَالتَّأْدِيبَ فِي حَقِّ مَنْ
لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الْجَرِيمَةِ .

ثُمَّ تُنَوِّسُ شَأْنُ هَاتَيْنِ الْوِظِيفَتَيْنِ فِي الدَّوْلِ الَّتِي تُنَوِّسِي فِيهَا
أَمْرُ الْخِلَافَةِ ؛ فَصَارَ أَمْرُ الْمَظَالِمِ رَاجِعاً إِلَى السُّلْطَانِ ، كَانَ لَهُ تَفْوِيزُ
مِنَ الْخِلَافَةِ أَوْ لَمْ يَكُنْ . وَانْقَسَمَتِ وَظِيفَةُ الشَّرْطَةِ قِسْمَيْنِ : مِنْهَا
وَظِيفَةُ التُّهْمَةِ عَلَى الْجَرَائِمِ ، وَإِقَامَةُ حُدُودِهَا ، وَمُبَاشَرَةُ الْقَطْعِ
وَالْقِصَاصِ حَيْثُ يَتَعَيَّنُ ؛ وَنُصِبَ لِذَلِكَ فِي هَذِهِ الدَّوْلِ حَاكِمٌ يَحْكُمُ
فِيهَا بِمَوْجِبِ السِّيَاسَةِ دُونَ مَرَاجِعَةِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَيُسَمَّى
تَارَةً بِاسْمِ الْوَالِي ، وَتَارَةً بِاسْمِ الشَّرْطَةِ . وَبَقِيَ قِسْمُ التَّعَازِيرِ وَإِقَامَةِ
الْحُدُودِ فِي الْجَرَائِمِ الثَّابِتَةِ شَرْعاً ، فَجُمِعَ ذَلِكَ لِلْقَاضِي مَعَ مَا

(١) قَتْلُ الْقَاتِلِ بِدَلِّ الْقَتِيلِ ؛ وَفَعْلُهُ قَوْدَ بِكَسْرِ الْعَيْنِ .

تقدّم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته . واستقرّ الأمر لهذا العهد على ذلك . وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة . لأنّ الأمر لما كان خلافة دينية ، وهذه الخطّة من مراسيم الذين فكانوا لا يؤثرون فيها إلّا من أهل عصبيتهم من العرب مواليهم بالهلف أو بالرق أو بالاصطناع ممن يوثق بكفايته أو غناؤه فيما يُدفع إليه . ولما انقضى شأن الخلافة وطورها وصار الأمر كلّهُ ملكاً أو سلطاناً صارت هذه الخطّة الدينيّة بعيدة عنه بعض الشيء ، لأنّها ليست من ألقاب الملك ولا مراسيمه ، ثم خرج الأمر جملةً من العرب وصار الملك لسواهم من أمم الترك والبربر ، فازدادت هذه الخطّة الخلافية بعداً عنهم بمنحها وعصبيتها . وذلك أنّ العرب كانوا يرون أنّ الشريعة دينهم ، وأنّ النبيّ ﷺ منهم ، وأحكامه وشرائعه يخلّصهم بين الأمم وطريقهم ، وغيرهم لا يرون ذلك ، إنّما يولونها جانباً من التعظيم لما دانوا بالملّة فقط . فصاروا يقلّدونها من غير عصبيتهم ممن كان تأهل لها في شؤل الخلفاء السالفة . وكان أولئك المتأهلون لما أخذهم ترف الدول منذُ مئتين من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها ، والتبسوا بالحضارة في عوائد ترفهم ودعّتهم ، وقلة الممانعة عن أنفسهم ، وصارت هذه الخطّة في الدول الملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين في أهل الأمصار ، ونزل أهلها عن مراتب العزّ لفقد الأهلية بأنسابهم وما هم عليه من الحضارة ، فلحقهم من الاحتقار ما لحق الحضرة المنغسين في الترف والدعة ، البعداء عن عصبية

أُلِّمَّكَ الَّذِينَ هُمْ عِيَالٌ عَلَى الْحَامِيَةِ ، وَصَارَ اعْتِبَارُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ مِنْ أَجْلِ قِيَامِهَا بِالْمِلَّةِ وَأَخْذِهَا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، لِمَا أَنَّهُمْ الْحَامِلُونَ لِلْأَحْكَامِ الْمُقْتَدُونَ بِهَا . وَلَمْ يَكُنْ إِثَارُهُمْ فِي الدَّوْلَةِ حِينَئِذٍ إِكْرَاماً لِدَوَاتِهِمْ ، وَإِنَّمَا هُوَ لِمَا يُتَلَمَّحُ مِنَ التَّجَلُّلِ بِمَكَانِهِمْ فِي مَجَالِسِ أُلْمَلِكٍ لِعَظِيمِ الرُّتَبِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ شَيْءٌ ، وَإِنْ حُضْرُهُ فَحُضُورٌ رَسْمِيٌّ لَا حَقِيقَةً وَرَاءَهُ ، إِذْ حَقِيقَةُ الْحُلِّ وَالْعَقْدِ إِنَّمَا هِيَ لِأَهْلِ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ ، فَمَنْ لَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ فَلَا حُلَّ لَهُ وَلَا عَقْدَ لَهُ . اللَّهُمَّ إِلَّا أَخَذَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَنْهُمْ ، وَتَلْقَى الْفَتَاوَى مِنْهُمْ فَنَعَمْ . وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ .

وَرَبَّمَا يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الْحَقَّ فِيهَا وَرَاءَ ذَلِكَ ، وَأَنْ فَعَلَ الْمُلُوكُ فِيهَا فَعَلُوهُ مِنْ إِخْرَاجِ الْفُقَهَاءِ وَالْقُضَاةِ مِنَ الشُّورَى مَرْجُوحٌ ، وَقَدْ قَالَ ﷺ : « الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ » . فَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ كَمَا ظَنَّهُ (١) . وَحُكْمُ أُلْمَلِكٍ وَالسُّلْطَانِ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْعُمَرَانِ وَإِلَّا كَانَ بَعِيداً عَنِ السِّيَاسَةِ . فَطَبِيعَةُ الْعُمَرَانِ فِي هَؤُلَاءِ لَا تَقْضِي لَهُمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ ، لِأَنَّ الشُّورَى وَالْحُلَّ وَالْعَقْدَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِصَاحِبِ عَصَبِيَّةٍ يَقْتَدِرُ بِهَا عَلَى حُلِّ أَوْ عَقْدٍ أَوْ فَعَلٍ أَوْ تَرْكِ ، وَأَمَّا مَنْ لَا عَصَبِيَّةَ لَهُ وَلَا يَمْلِكُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهِ شَيْئاً وَلَا مِنْ حِمَايَتِهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ عِيَالٌ عَلَى غَيْرِهِ فَأَيُّ مَدْخَلٍ لَهُ فِي الشُّورَى أَوْ أَيُّ مَعْنَى يَدْعُو إِلَى اعْتِبَارِهِ فِيهَا ؟ اللَّهُمَّ إِلَّا شُورَاهُ فَيَا يَعْلَمُهُ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ فَوْجُودُهُ فِي الْاسْتِفْتَاءِ خَاصَّةً . وَأَمَّا شُورَاهُ

(١) أَيُّ كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُ النَّاسِ .

في السياسة فهو بعيدٌ عنها لفقدانه العصبية والقيام على معرفة أحوالها وأحكامها . وإنما إكراؤهم من تبرعات الملوك والأمراء الشاهدة لهم بجميل الاعتقاد في الدين وتعظيم من ينتسب إليه بأي جهة انتسب . وأما قوله ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء » ، فاعلم أن الفقهاء في الأغلب لهذا العهد وما احتف به إنما حملوا الشريعة أقوالاً في كيفية الأعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات ، ينصونها على من يحتاج إلى العمل بها ؛ هذه غاية أكابرهم ولا يتصفون إلا بالأقل منها ، وفي بعض الأحوال . والسلف رضوان الله عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة إتصافاً بها وتحققاً بمذاهبها .

فمن حملها إتصافاً وتحققاً دون نقل فهو من الوارثين ، مثل أهل رسالة الفُشيري . ومن اجتمع له الأمران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة ، مثل فقهاء التابعين والسلف والأئمة الأربعة ومن اقتفى طريقهم ، وجاء على أثرهم . وإذا انفرد واحد من الأئمة بأحد الأمرين فالعابد أحق بالوراثية من الفقيه الذي ليس بعابد ؛ لأن العابد ورث بصفة والفقيه الذي ليس بعابد لم يرث شيئاً ، إنما هو صاحب أقوال ينصها علينا في كفيات العمل ؛ وهؤلاء أكثر فقهاء عصرنا ، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ .

العدالة

وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن مواد تصريفه . وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم ، تحملاً عند الإشهاد وأداء عند النزاع ، وكتباً في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم . وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح ، ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عبارتها وأنظام فصولها ، ومن جهة إحكام شروطها الشرعية وعقودها ؛ فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من الفقه . ولأجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من الميراث^(١) على ذلك والممارسة له أخص ذلك ببعض الدول ، وصار الصنف القانون به كأهم تختصون بالعدالة ، وليس كذلك ، وإنما العدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة .

ويجب على القاضي تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم ، وأن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس ، فالمهدة عليه في ذلك كله ، وهو ضامن دركه . وإذا تعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تحفى عدالته على القضاء بسبب اتساع الأمصار واشتباها

(١) المراد بكسر الميم التمرن واعتياد الشيء .

الْأَحْوَالِ ، وَأَضْطِرَارِ الْفُضَاةِ إِلَى الْفَصْلِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ بِالْبَيِّنَاتِ الْمُوثُوقَةِ ، فَيُعَوَّلُونَ غَالِبًا فِي الْوُثُوقِ بِهَا عَلَى هَذَا الصَّنْفِ . وَلَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَمْصَارِ دُكَاكِينُ وَمَصَاطِبُ يُخْتَصُّونَ بِالْجُلُوسِ عَلَيْهَا فَيَتَعَاهَدُهُمْ أَصْحَابُ الْمَاعْمَلَاتِ لِلْإِشْهَادِ وَتَقْيِيدِهِ بِالْكِتَابِ .

وَصَارَ مَدْلُولُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ مُشْتَرَكًا بَيْنَ هَذِهِ الْوَظِيفَةِ الَّتِي تَبَيَّنَ مَدْلُولُهَا وَبَيْنَ الْعَدَالَةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي هِيَ أُخْتُ الْجَرْحِ . وَقَدْ يَتَوَارَدَانِ وَيَفْتَرِقَانِ . وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ .

الحسبة والسكة

أَمَّا الْحُسْبَةُ فَهِيَ وَظِيفَةٌ دِينِيَّةٌ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ الَّذِي هُوَ فَرْضٌ عَلَى الْقَائِمِ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ ؛ يُعَيَّنُ لَذَلِكَ مَنْ يَرَاهُ أَهْلًا لَهُ ، فَيَتَعَيَّنُ فَرْضُهُ عَلَيْهِ ، وَيَتَّخِذُ الْأَعْوَانَ عَلَى ذَلِكَ ، وَيُبْحَثُ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَيُعَزِّرُ وَيُؤَدِّبُ عَلَى قَدْرِهَا ، وَيَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فِي الْمَدِينَةِ : مِثْلَ الْمَنَعِ مِنَ الْمُضَايِقَةِ فِي الطَّرِيقَاتِ ؛ وَمَنْعِ الْحَمَالِينَ وَأَهْلِ السُّفُنِ مِنَ الْإِكْثَارِ فِي الْحُلِيِّ وَالْحُكْمِ عَلَى أَهْلِ الْمُبَانِي الْمَتَدَاعِيَةِ لِلسُّقُوطِ بِهَدْيِهَا ، وَإِزَالَةِ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْ ضَرَرِهَا عَلَى السَّائِلَةِ ؛ وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الْمُعْلِمِينَ فِي الْمَكَاتِبِ وَغَيْرِهَا فِي الْإِبْلَاجِ فِي ضَرْبِهِمُ اللَّصْبِيَّانِ الْمُتَعْلِمِينَ . وَلَا يَتَوَقَّعُ حُكْمُهُ عَلَى تَنَازُعٍ أَوْ اسْتِعْدَاءٍ ، بَلْ لَهُ النَّظَرُ وَالْحُكْمُ فِيمَا يَصِلُ إِلَى عِلْمِهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَيُرْفَعُ إِلَيْهِ . وَلَيْسَ لَهُ إِمْضَاءُ الْحُكْمِ

في الدعاوى مطلقاً ؛ بل فيما يَتَعَلَّقُ بِالْغِشِّ والتدليسِ في أَلْعَاشِـ
وغيرها ، وفي الْمَكَايِلِ وَالْمَوَازِينِ ، وله أيضاً حِجْلُ المَاطِلِينَ على
الْإِنْصَافِ ، وأمثالُ ذلكَ يَمَّا لَيْسَ فِيهِ سَمَاعُ يَتَنَّةٍ ، ولا إِنْفَاضُ حَكَمِـ

وَكَمَا نَهَا أَحْكَامُ يُنَزَّهُ الْقَاضِي عَنْهَا لِعُمُومِهَا وسهولةِ أَغْرَاضِهَا ،
فَتَدْفَعُ إِلَى صَاحِبِ هَذِهِ الْوَضِيفَةِ لِيَقُومَ بِهَا . فَوْضَعُهَا عَلَى ذَلِكَ أَنْ
تَكُونَ خَادِمَةً لِمَنْصِبِ الْقَضَاءِ . وقد كَانَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدُولِ
الْإِسْلَامِيَّةِ مِثْلَ الْعُبَيْدِيِّينَ بِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ وَالْأُمَوِيِّينَ بِالْأَنْدَلُسِـ
دَاخِلَةً فِي عُمُومِ وَلَايَةِ الْقَاضِي يُؤَلَّى فِيهَا بِاخْتِيَارِهِ . ثُمَّ لَمَّا أَنْفَرَدَتْ
وَضِيفَةُ السُّلْطَانِ عَنِ الْخِلَافَةِ وَصَارَ نَظَرُهُ عَامًّا فِي أُمُورِ السِّيَاسَةِ
أُنْدَرَجَتْ فِي وَظَائِفِ الْمَلِكِ وَأُفْرِدَتْ بِالْوَلَايَةِ .

وَأَمَّا السِّكَّةُ فَهِيَ النِّظَرُ فِي النُّقُودِ الْمُتَعَامَلِ بِهَا بَيْنَ النَّاسِ ،
وَحِفْظُهَا يَمَّا يُدَاخِلُهَا مِنَ الْغِشِّ أَوْ النِّقْصِ إِنْ كَانَ يُتَعَامَلُ بِهَا عَدَدًا
أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَيُوصَلُ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْإِعْتِبَارَاتِ ، ثُمَّ فِي
وَضْعِ عِلَامَةِ السُّلْطَانِ عَلَى تِلْكَ النُّقُودِ بِالْإِسْتِجَادَةِ وَالْخُلُوصِ بِرِسْمِ
تِلْكَ الْعِلَامَةِ فِيهَا مِنْ خَاتَمِ حَدِيدٍ أُلْخِذَ لِذَلِكَ ، وَنُقِشَ فِيهِ نَقُوشٌ
خَاصَّةٌ بِهِ ، فَيُوضَعُ عَلَى الدِّينَارِ بَعْدَ أَنْ يُقَدَّرَ وَيُضْرَبَ عَلَيْهِ بِالْمِطْرَقَةِ
حَتَّى تُرْسَمَ فِيهِ تِلْكَ النُّقُوشُ ، وَتَكُونَ عِلَامَةً عَلَى جُودَتِهِ بِحَسَبِ
الْعَاقِبَةِ الَّتِي وَقَفَ عِنْدَهَا السِّبْكُ وَالتَّخْلِيصُ فِي مُتَعَارَفِ أَهْلِ الطُّغْرِ
وَمَذَاهِبِ الدَّوْلَةِ الْحَاكِمَةِ ؛ فَإِنَّ السِّبْكَ وَالتَّخْلِيصَ فِي النُّقُودِ لَا يَقِفُ
عِنْدَ غَايَةٍ ، وَإِنَّمَا تَرْجِعُ غَايَتُهُ إِلَى الْاجْتِهَادِ ؛ فَإِذَا وَقَفَ أَهْلُ أَفْقِـ

أَوْ قُطِرَ عَلَى غَايَةٍ مِنَ التَّخْلِيسِ وَقَفُوا عِنْدَهَا وَسَمَّوْهَا إِمَامًا وَعِيَارًا
يَعْتَبِرُونَ بِهِ نَقُودَهُمْ وَيَنْتَقِدُونَهَا بِمِثْلَتِهِ ، فَإِنْ نَقَصَ عَنْ ذَلِكَ
كَانَ زَيْفًا .

وَالنَّظَرُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ لَصَاحِبِ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ . وَهِيَ دِينِيَّةٌ بِهَذَا
الاعتبارِ ، فَتَنْدَرِجُ تَحْتَ الْخِلَافَةِ . وَقَدْ كَانَتْ تَنْدَرِجُ فِي عُمُومِ
وَلَايَةِ الْقَاضِي ، ثُمَّ أُفْرِدَتْ لِهَذَا الْمَهْدِ كَمَا وَقَعَ فِي الْحِسْبَةِ .

هَذَا آخِرُ الْكَلَامِ فِي الْوُظَائِفِ الْخِلَافِيَّةِ ، وَبَقِيََتْ مِنْهَا وَظَائِفُ
ذَهَبَتْ بِذَهَابٍ مَا يُنْظَرُ فِيهِ وَآخَرَى صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً : فَوُظَيْفَةُ
الإِمَارَةِ وَالْوِزَارَةِ وَالْحَرْبِ وَالْخِرَاجِ صَارَتْ سُلْطَانِيَّةً ، نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا
فِي أَمَّا كُنْهَا بَعْدَ وَظَيْفَةِ الْجِهَادِ ؛ وَوُظَيْفَةُ الْجِهَادِ بَطَلَتْ بِبُطْلَانِهِ إِلَّا
فِي قَلِيلٍ مِنَ الدُّوَلِ يَمَارِسُونَهُ وَيُدْرِجُونَ أَحْكَامَهُ غَالِبًا فِي
السُّلْطَانِيَّاتِ .

وَكَذَا نِقَابَةُ الْإِنْسَابِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْخِلَافَةِ أَوْ الْحَقِّ
فِي بَيْتِ الْمَالِ قَدْ بَطَلَتْ لِدُورِ الْخِلَافَةِ وَرُسُومِهَا . وَبِالْجَمْلَةِ قَدْ ائْتَرَجَتْ
رُسُومُ الْخِلَافَةِ وَوُظَائِفُهَا فِي رُسُومِ الْمُلْكِ وَالسِّيَاسَةِ فِي سَائِرِ الدُّوَلِ
لِهَذَا الْمَهْدِ . وَاللَّهُ مُصَرِّفُ الْأُمُورِ كَيْفَ يَشَاءُ .

الفصل الثاني والثلاثون

في اللقب بالأمير المؤمنين وأنه من سمات الخلافة وهو محدث
منذ عهد الخلفاء.

وذلك أنه لما بويع أبو بكر رضي الله عنه ، كان الصحابة رضي الله عنهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله ﷺ ؛ ولم يزل الأمر على ذلك الى أن هلك . فلما بويع لعمر بعده إليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله ﷺ . وكانهم استعملوا هذا اللقب بكثرة وطول إضافته وأنه يتزايد فيما بعد دائماً الى أن ينتهي إلى الهجنة ، ويذهب منه التمييز بتعدد الإضافات وكثرتها ، فلا يعرف . فكانوا يعدلون عن هذا اللقب إلى ما سواه مما يناسبه ويدعى به مثله . وكانوا يسمون قواد البعث باسم الأمير وهو فعيل من الإمارة . وقد كان الجاهلية يدعون النبي ﷺ أمير مكة وأمير الحجاز ؛ وكان الصحابة أيضاً يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لإمارته على جيش القادسية ، وهم معظم المسلمين يومئذ .

واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه يا أمير المؤمنين ، فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به ، يقال : إن أول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش ؛ وقيل : عمرو بن العاص والمغيرة بن

شُعْبَةً ؛ وقيل : بريدٌ جاء بالفتح من بعض البُعوثِ ودخلَ المدينة وهو يسألُ عن عُمرَ ويقولُ أين أميرُ المؤمنين ، وسمِعها أصحابُه فاستحسنوه ، وقالوا أَصَبْتَ وَاللَّهِ اسْمُهُ ، إِنَّهُ وَاللَّهِ أميرُ المؤمنينَ حقاً ، فدَعَوْهُ بذلك ، وذهبَ لقباً له في الناس . وتوارثهُ الخلفاء من بعده سِمَةً لا يُشارِكُهُم فيها أَحَدٌ سِوَاهُمْ سائرَ دَوْلَةِ بني أُمَيَّة .

ثمَّ إِنَّ الشَّيْعَةَ خَصُّوا عَلِيّاً بِاسْمِ الْإِمَامِ نعتاً له بِالْإِمَامَةِ التي هِيَ أَخْتُ الْخِلَافَةِ ، وتعريضاً بذهبيهم في أَنَّهُ أَحَقُّ بِإِمَامَةِ الصَّلَاةِ من أَبِي بكرٍ لما هو مَذْهَبُهُمُ وبتَعَتُّهُمْ ، فخصُّوه بهذا اللَّقَبِ ولمن يسوقونَ إِلَيْهِ مَنْصِبَ الْخِلَافَةِ من بعده ؛ فكانوا كُلُّهُمْ يُسَمُّونَ بِالْإِمَامِ ما داموا يَدْعُونَ لَهُم في الخلفاء ، حتى إذا استولوا على الدَوْلَةِ يَحْوِلُونَ^(١) اللَّقَبَ فيمن بعده إلى أميرِ المؤمنينَ ، كما فعله شَيْعَةُ بني العباسِ ، فَإِنَّهُمْ ما زالوا يَدْعُونَ أئِمَّتَهُم بِالْإِمَامِ إلى إبراهيم الذي جهرُوا بالدَّعَاءِ له ، وعَقَدُوا الراياتِ للحربِ عَلَى أَمْرِهِ ، فَلَمَّا هَلَكَ دُعِي أَخُوهُ السَّفَاحُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . وكذا الرافضةُ بِإِفْرِيقَةِ فَإِنَّهُمْ ما زالوا يَدْعُونَ أئِمَّتَهُم من وَلَدِ اسماعيلَ بِالْإِمَامِ ، حتى أَنتَهَى الْأَمْرُ إلى عُبيدِ اللَّهِ المَهْدِيِّ وكانوا أيضاً يَدْعُونَهُ بِالْإِمَامِ ، ولابنِهِ أَبِي القاسم من بعده . فَلَمَّا اسْتَوْثِقَ لَهُمُ الْأَمْرُ دَعُوا من بعدهما بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . وكذا الْأَدَارِسَةُ بِالْمَغْرِبِ كانوا يُلقَّبُونَ إِدْرِيسَ بِالْإِمَامِ ، وابْنُهُ إِدْرِيسَ الْأَصْغَرَ كذلك ، وهكذا شَأْنُهُمْ .

(١) هكذا في النسخ التي بين أيدينا ومقتضى السياق : حتى إذا استولوا على الدولة حولوا اللَّقَبَ .

وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمر المؤمنين ، وجعلوه سمة لمن يملك ألبجاز والشام والعراق : المواطن التي هي ديار العرب ، ومراكز الدولة وأهل الملة والفتح . وازداد كذلك في عتقوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفاء يتميز بعضهم عن بعض لما في أمير المؤمنين من الاشتراك بينهم ، فاستحدث ذلك بنو العباس ، حجاباً ، لأسمائهم الأعلام ، عن امتيازها في السنة السوقية وصوناً لها عن الابتذال ، فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد إلى آخر الدولة . واقتفى أثرهم في ذلك العبيديون بإفريقية ومصر ، وتجافى بنو أمية عن ذلك في المشرق قبلهم من الغضاضة والسذاجة ، لأن العروبية ومنازعتها لم تفارقهم حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة . وأما بالاندلس فتلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالصور عن ملك ألبجاز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصية ، وأنهم إنما منعوا بإماراة القاصية أنفسهم من مهالك بني العباس . حتى إذا جاء عبد الرحمن (الداخل) الآخر منهم (وهو الناصر بن محمد بن الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط) لأول المائة الرابعة ، واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الحجز واستبداد الموالى وعييتهم في الخلفاء بالجزل والاستبدال والقتل والسمل ، ذهب عبد الرحمن هذا إلى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وإفريقية ، وتسمى بأمر المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله ، وأخذت من بعده عادة ومذهباً لئن

عنه ، ولم يكن لأبائه وسلف قومه .

واستمر الحال على ذلك إلى أن انقرضت عصية العرب أجمع
 وذهب رسم الخلافة وتغلب الموالى من العجم على بني العباس ،
 والصنائع على العبيديين بالقاهرة ، وصنهاجة على أمراء إفريقية ،
 وزناتة على المغرب ، وملوك الطوائف بالأندلس على أمر بني أمية ،
 واقتسموه ، واقترق أمر الإسلام ، فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب
 والمشرق في الاختصاص بالألقاب بعد أن تسموا جميعاً باسم
 السلطان .

فأما ملوك المشرق من العجم فكان الخلفاء يختصونهم بالألقاب
 تشريفية حتى يستشعر منها أنقيادهم وطاعتهم وحسن ولايتهم ،
 مثل شرف الدولة وعز الدولة وركن الدولة وميز الدولة
 ونصير الدولة ونظام الملك وبهاء الدولة وذخيرة الملك وأمثال
 هذه . وكان العبيديون أيضاً يختصون بها أمراء صنهاجة . فلما
 استبدوا على الخلافة قنعوا بهذه الألقاب وتجاؤا عن ألقاب
 الخلافة أدباً معها ، وعدولاً عن سمتها المختصة بها ، شأن المتغلبين
 المستبدين كما قلناه قبل .

ونزع المتأخرون أعاجم المشرق ، حين قوي استبدادهم على
 الملك ، وعلا كبرهم في الدولة والسلطان ، وتلاشت عصية الخلافة
 واضمحلت بالجملة ، إلى أن تحال الألقاب الخاصة بالملك ، مثل الناصر
 والمنصور زيادة على ألقاب يختصون بها قبل هذا الانتحال مشعرة

بالخروج عن رِبْقَةِ الْوَلَاءِ وَالْأَصْطِنَاعِ بِمَا أَضَافُوهَا إِلَى الدِّينِ فَقَطْ ،
فَيَقُولُونَ : صَلَاحُ الدِّينِ ، أَسَدُ الدِّينِ ، نُورُ الدِّينِ .

وَأَمَّا مُلُوكُ الطَّوَانِفِ بِالْأَنْدَلُسِ فَأَقْتَسَمُوا أَلْقَابَ الْخِلَافَةِ
وَتَوَرَّعُوهَا لِقُوَّةِ اسْتِبْدَادِهِمْ عَلَيْهَا بِمَا كَانُوا مِنْ قَبِيلِهَا وَعَصِيَّتِهَا ،
فَتَلَقَّبُوا بِالنَّاصِرِ وَالْمَنْصُورِ وَالْمُعْتَدِ وَالْمُظَفَّرِ وَأَمْثَالِهَا ، كَمَا قَالَ ابْنُ
(أَبِي^(١)) شَرْفٍ يَنْعَى عَلَيْهِمْ :

مِمَّا يُزْهَدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ أَسْمَاءُ مُعْتَدٍ فِيهَا وَمُعْتَصِدٍ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا كَالْهَرِّ يَحْكِي انْتِفَاحاً صُورَةَ الْأَسَدِ

وَأَمَّا صَنْهَاجَةُ فَأَقْتَصَرُوا عَلَى الْأَلْقَابِ الَّتِي كَانَ الْخُلَفَاءُ الْعُبَيْدِيُّونَ
يُلَقَّبُونَ بِهَا لِلتَّنْوِيهِ : مِثْلَ نَصِيرِ الدَّوْلَةِ ، وَمَعَزِ الدَّوْلَةِ . وَاتَّصَلَ
لَهُمْ ذَلِكَ لَمَّا أَدَالُوا مِنْ دَعْوَةِ الْعُبَيْدِيِّينَ بِدَعْوَةِ الْعَبَّاسِيِّينَ . ثُمَّ
بَعُدَتْ الشُّقَّةُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخِلَافَةِ وَنَسُوا عَهْدَهَا ، فَنَسُوا هَذِهِ
الْأَلْقَابَ وَاقْتَصَرُوا عَلَى اسْمِ السُّلْطَانِ . وَكَذَا شَأْنُ مُلُوكِ مَغْرَاوَةِ
بِالْمَغْرِبِ لَمْ يَنْتَحِلُوا شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْأَلْقَابِ إِلَّا اسْمَ السُّلْطَانِ جَرِياً
عَلَى مَذَاهِبِ الْبِدَاوَةِ وَالنَّضَاضَةِ .

وَلَمَّا يُحْيِي رِسْمُ الْخِلَافَةِ وَتَعَطَّلَ دَسْتُهَا^(٢) ، وَقَامَ بِالْمَغْرِبِ مِنْ
قِبَالِ الْهَرِيرِ يَوْسُفُ بْنُ تَائِشِفِينَ مَلِكُ لَمْتُونَةِ فَلَمَّا كَانَتِ الدَّوَلَتَيْنِ ، وَكَانَ

(١) كَذَا بِالْأَصُولِ ، وَاسْمُهُ ابْنُ شَرْفٍ .

(٢) اسْتَعْمَلَ ابْنُ خُلْدُونِ الدَّسْتَ هُنَا بِمَعْنَى الْمَرَّاسِمِ عَلَى الْمَجَازِ . الدَّسْتُ كَلِمَةٌ أَعْجَمِيَّةٌ
مَعْرَبَةٌ ، لَمْ تَرُدَّ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ . وَمَعْنَاهَا : صَدْرُ الْبَيْتِ أَوِ الْمَجْلِسِ ، الْوَسَادَةُ ، وَالدَّسْتُ مِنَ الثِّيَابِ
مَا يَكْفِي حَاجَةَ الْإِنْسَانِ .

من أهل الخير والافتداء، نَزَعَتْ به هِمَّتُهُ إلى الدُّخُولِ في طَاعَةِ الخَلِيفَةِ تَكْمِيلاً لمَراسِمِ دينِهِ . فحَاطَبَ المُسْتَظْهَرَ العَبَّاسِيَّ وأُوفِدَ عليه بِبَيْعَتِهِ عبدَ اللَّهِ بنَ العَرَبِيِّ وابْنَهُ القاضي أَبَا بَكْرٍ من مَشِيخَةِ إِشْبِيلِيَّةٍ يَطْلُبَانِ تَوَلِيَّتَهُ إِيَّاهُ على المَغربِ وتَقْلِيدَهُ ذلكَ ، فانقلبوا إِلَيْهِ ^(١) بِعَهْدِ الخَلِيفَةِ لَهُ على المَغربِ واستشعارِ زِيَّيِهِمْ في لَبُوسِهِ ^(٢) وَرُتَبَتِهِ ، وخطبه فيه بِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ تَشْرِيفاً لَهُ واختصاصاً فَاتَّخَذَهَا لِقَباً . ويقال : إِنَّهُ كَانَ دُعِيَ لَهُ بِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ من قَبْلِ ^(٣) ، أدباً مع رُتْبَةِ الخَلِيفَةِ ، لما كَانَ عليه هو وقومه المَرابطُونَ من انْتِحَالِ الدينِ واتِّبَاعِ السُّنَّةِ .

وجاء المَهْدِيُّ على أَثَرِهِمْ داعياً إِلَى الحقِّ أَخِذاً بِمَذَاهِبِ الْأَشْعَرِيَّةِ نَاعِياً على أَهْلِ المَغربِ عدولَهُمْ عنها إِلَى تَقْلِيدِ السَّلَفِ في تَرْكِ التَّأْوِيلِ لظواهر الشريعة ، وما يؤولُ إِلَيْهِ ذلكَ من التَّجْسِيمِ ، كما هو معروفٌ من مذهبِ الْأَشْعَرِيَّةِ . وسمى اتِّبَاعَهُ الْمُوَحِّدِينَ تعريضاً بِذلكَ النِّكِيرِ . وَكَانَ يرى رَأْيَ أَهْلِ البيتِ في الإِمَامِ المَعصُومِ وَأَنَّهُ لَا بَدْءَ مِنْهُ في كُلِّ زَمَانٍ يُحْفَظُ بِوُجُودِهِ نِظَامُ هَذَا العَالَمِ ؛ فَسَمَّى بِالْإِمَامِ لما قَلَنَاهُ أَوَّلًا من مذهبِ الشَّيعَةِ

(١) كذا بالأصل والصحيح : «فانقلبوا إليه» .

(٢) اللبوس : الثياب والسلاح ، مذكر ، فإن ذهبت بها إلى الدرع أنثى . وقال الله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ ؛ قالوا : هي الدرع تلبس في الحروب (لسان العرب) .

(٣) كذا بالأصول ، والعبارة لا تخلو من اضطراب ، فقد تكون هنا جملة ساقطة من النسخ . ومقتضى السياق : «ويقال أنه كان دعي له بأمر المؤمنين من قبل (ثم أهمل ذلك) أدباً مع رتبة الخلافة . . . إلخ» .

في ألقاب خلفائهم ، وأُردِفَ بالمعصومِ إشادةً إلى مذهبه في عصمة الإمام . وتنزّه عند أتباعه عن أمير المؤمنين أخذاً بمذهب المتقدمين من الشيعة ، ولما فيها من مشاركة الأغمار والولدان من أعقاب أهل الخلافة يومئذٍ بالمشرق . ثم انتحل عبد المؤمن وليّ عهده اللقب بأمر المؤمنين ، وجرى عليه من بعده خلفاء بني عبد المؤمن وآل أبي حفص من بعدهم ، استشاراً به عمّن سواهم ، لما دعا إليه شيخهم المهديّ من ذلك ، وأنه صاحب الأمر وأولياؤه من بعده كذلك دون كلّ أحدٍ ، لانتفاء عصبيّة قريش وتلاشيها . فكان ذلك دائماً .

ولمّا انتقض الأمر بالمغرب وانتزعه زناتة ذهب أولهم مذاهب البداوة والسذاجة وإتباع لتونة في انتحال اللقب بأمر المؤمنين^(١) أدباً مع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني عبد المؤمن أولاً ولبني أبي حفص من بعدهم . ثم نزع المتأخرون منهم إلى اللقب بأمر المؤمنين وانتحلوه لهذا العهد استبلاغاً في منازع الملك وتتميماً لمذاهبه وسماته . والله غالبٌ على أمره .

(١) كذا بالأصول ، والأصح : « وإتباع لتونة في (عدم) انتحال اللقب بأمر المؤمنين » فهو يعني هنا : أن زناتة سلكوا في مبدأ أمرهم مسلك لتونة في مبدأ أمرها حيال اللقب بأمر المؤمنين ؛ فلم ينتحلوا لأنفسهم هذا اللقب . . . إلخ .

الفصل الثالث والثلاثون

في شرح اسم البابا والبطرك في الملة النصرانية
واسم الكوهن عند اليهود

اعلم أنَّ المِلَّة لا بُدَّ لها من قائمٍ عند غيبة النبيِّ يحملُهم على أحكامها وشرائعها، ويكونُ كالخليفة فيهم للنبيِّ فيما جاء به من التكليف. والنوعُ الإنسانيُّ أيضاً، بما تقدَّم من ضرورة السياسة فيهم للاجتماعِ البشريِّ، لا بدَّ لهم من شخصٍ يحملهم على مصالحهم ويذعنهم عن مفاييدهم بالقهر، وهو المسمى بالملك.

والمِلَّةُ الإسلاميةُ لما كان الجهادُ فيها مشروعاً لعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الإسلام طوعاً أو كرهاً اتَّخَذَتْ^(١) فيها الخلافةَ والملكُ لتوجُّه الشوكة من القائمين بها إليهما معاً.

وأما ما سوى المِلَّةِ الإسلاميةِ فلم تكن دعوتُهم عامَّةً ولا الجهادُ عندهم مشروعاً إلا في المدافعة فقط؛ فصارت القائمُ بأمر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك؛ وإنما وقع الملكُ لمن وقع منهم بالعرض ولأمرٍ غير ديني، وهو ما اقتضته لهم العصبية لما فيها من الطلب للملك بالطبع لما قدَّمناه، لأنهم غير مكلفين بالتغلب على الأمم كما في المِلَّةِ الإسلاميةِ، وإنما هم مطلوبون بإقامة دينهم في خاصيتهم.

(١) كذا في الأصول، ومقتضى السياق: «اتَّخَذَتْ فيها الخلافة والملك... إلخ».

ولذلك بقي بنو اسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله
عليهما نحو أربعائة سنة لا يعتنون بشيء من أمر الملك ، انما همهم
إقامة دينهم فقط . وكان القائم به بينهم يسمى الكوهن كأنه
خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقرآن ،
ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه ،
لأن موسى لم يُعقب . ثم اختاروا لإقامة السياسة التي هي للبشر
بالطبع سبعين شيخاً كانوا يتولون أحكامهم العامة . والكوهن
أعظم منهم رتبة في الدين ، وأبعد عن شغب الأحكام . واتصل
ذلك فيهم الى أن استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة
للملك ؛ فغلبوا الكنعانيين على الأرض التي أورثهم الله - بيت
المقدس وما جاورها - كما يُبين لهم على لسان موسى صلوات الله
عليه ، فحاربته أمم الفلستين والكنعانيين والأرمن وأردن وعمان
ومأرب ، ورأسته في ذلك راجعة الى شيوخهم وأقاموا على
ذلك نحواً من أربعائة سنة ، ولم تكن لهم صولة الملك . وضجر
بنو إسرائيل من مطالبة الأمم ، فطلبوا على لسان شمويل^(١) من
أنبيائهم أن يأذن الله لهم في تملك رجل عليهم فولي عليهم
طالوت ، وغلب الأمم وقتل جالوت ملك الفلستين . ثم ملك
بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهما . واستفحل ملكه وامتد
إلى الحجاز ، ثم أطراف اليمن ، ثم إلى أطراف بلاد الروم . ثم
افترق الأسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العصبية

(١) هو صموئيل ، كما في التوراة .

في الدول كما قدّمناه ، الى دولتين كانت احدهما بالجزيرة والموصل
للأسباط العشرة ، والأخرى بالقدس والشام لبني يهوذا وبنيامين .
ثم غلبهم بختنصر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك ،
أولا الأسباط العشرة ، ثم ثانياً لبني يهوذا وبيت المقدس بعد اتصال
ملكهم نحو ألف سنة ، وخرّب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات
دينهم ، ونقلهم الى أصبهان وبلاد العراق ، الى أن ردّهم بعض
ملوك الكيانية من الفرس الى بيت المقدس من بعد سبعين سنة
من خروجهم ، فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول
للكنة فقط والملك للفرس . ثم غلب^(١) الاسكندر وبنو يونان
على الفرس وصار اليهود في ملكهم . ثم فشل أمر اليونانيين ،
فاعتزّ اليهود عليهم بالعصبية الطبيعية ودفعوهم عن الاستيلاء
عليهم ، وقام بملكهم الكهنة الذين كانوا فيهم من بني حشمتاي ،
وقاتلوا اليونان حتى انقرض أمرهم ، وغلبهم الروم فصاروا تحت
أمرهم . ثم رجّعوا الى بيت المقدس وفيها بنو هيرودس اصهار
بني حشمتاي ، وبقيت دولتهم ، فحاصروهم مدة ، ثم افتتحوها
عنوة ، وأفحشوا في القتل والهدم والتحريق ، وخرّبوا بيت
المقدس وأجلّوهم عنها الى رومة وما وراءها ، وهو الحراب الثاني
للمسجد ، ويسمّيه اليهود بالجلوة^(٢) الكبرى . فلم يبق لهم بعدها

(١) كذا في الأصول ، والأصح : « تغلب الاسكندر . . . إلخ » .

(٢) كذا بالأصول ، والأصح : الجلاء أو الجلوة ؛ مصدر جلا . وأما الجلوة فتأتي بمعنى زفاف

العروس .

مَلِكٌ لِفَقْدَانِ الْعَصْبِيَّةِ مِنْهُمْ وَبَقُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي مَلَكَةِ الرُّومِ وَمِنْ بَعْدَهُمْ ، يَقِيمُ لَهُمْ أَمْرَ دِينِهِمُ الرَّئِيسُ عَلَيْهِمُ الْمَسْمِيُّ بِالْكُوهَنِ .

ثم جاء المسيحُ صلواتُ الله وسلامه عليه بما جاءهم به من الدينِ والنسخِ لبعضِ أحكامِ التوراةِ ، وظهرت على يديه الخوارقُ العجيبةُ من إبراءِ الأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ وإحياءِ الموتي ، واجتمعَ عليه كثيرٌ من الناسِ وآمنوا به ، وأكثرُهم الحواريونَ من أصحابِهِ وكانوا اثني عشرَ ، وبعثَ منهم رُسُلًا إلى أَلْفَاقٍ داعينَ إلى مِلَّتِهِ ، وذلكَ أَيَّامَ أَوْغُسْطُسَ أَوَّلِ مَلُوكِ الْقِيَاصِرَةِ ، وفي مَدَّةِ هِيرُودَسَ ، مَلِكِ الْيَهُودِ ، الَّذِي انْتَرَعَ الْمَلِكُ مِنْ بَنِي حَشمَنَائِ أَصْهَارِهِ . فَحَسَدَهُ الْيَهُودُ وَكَذَّبُوهُ ^(١) ، وَكَاتَبَ هِيرُودُسُ مَلِكُهُمْ مَلِكَةَ الْقِيَاصِرَةِ أَوْغُسْطُسَ يُغْرِيه بِهِ ، فَأَذِنَ لَهُمْ فِي قَتْلِهِ ، وَوَقَعَ مَا تَلَاهُ الْقُرْآنُ مِنْ أَمْرِهِ . وَافْتَرَقَ الْحَوَارِيُّونَ شِيعًا وَدَخَلَ أَكْثَرُهُمْ بِلَادَ الرُّومِ دَاعِينَ إِلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ . وَكَانَ بَطْرُسُ كَبِيرَهُمْ فَتَزَلَّ بِرُومَةٍ ، دَارِ مَلِكِ الْقِيَاصِرَةِ . ثُمَّ كَتَبُوا الْإِنْجِيلَ الَّذِي أُتْرِلَ عَلَى عِيسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فِي نَسْخِ أَرْبَعٍ عَلَى اخْتِلَافِ رِوَايَاتِهِمْ : فَكُتِبَ مَتَّى إِنْجِيلُهُ فِي نِيْنَتِ الْمَقْدِسِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ ، وَنَقْلَهُ يَوْحَنَّا بْنُ زَبْدَى مِنْهُمْ إِلَى اللِّسَانِ اللَّاطِينِيِّ ، وَكُتِبَ لُوقَا مِنْهُمْ إِنْجِيلُهُ بِاللَّاطِينِيِّ ^(٢) إِلَى بَعْضِ أَكْبَرِ الرُّومِ ، وَكُتِبَ يَوْحَنَّا بْنُ زَبْدَى مِنْهُمْ

(١) أَيِ حَسَدُوا الْمَسِيحَ وَكَذَّبُوهُ .

(٢) كَذَا بِالْأَصُولِ ، وَالْأَصَحُّ : اللِّسَانُ اللَّاطِينِيُّ . وَقَدْ كُتِبَ مَتَّى إِنْجِيلُهُ بِالْأَرَامِيَّةِ لَا بِالْعِبْرِيَّةِ ، وَتُرْجِمَ إِلَى اللُّغَةِ الْيُونَانِيَّةِ ، لَا إِلَى اللُّغَةِ اللَّاطِينِيَّةِ . وَكُتِبَ لُوقَا إِنْجِيلُهُ بِالْيُونَانِيَّةِ لَا بِاللَّاطِينِيَّةِ ، كَمَا وَرَدَ هُنَا .

إنجيله برومة؛ وكتب بطرس إنجيله بالطيني ونسبه الى مرقاس^(١) تلميذه . وأختلفت هذه النسخ الأربعة من الإنجيل ؛ مع أنها ليست كلها حياً صرفاً، بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام ، وبكلام الحواريين ؛ وكلها مواظ و قصص ؛ والأحكام فيها قليلة جداً . واجتمع الحواريون الرسل لذلك العهد برومة ، ووضعوا قوانين الملة النصرانية ، وصيروها بيد أقليمطس تلميذ بطرس ، وكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بها .

فمن شريعة اليهود القديمة التوراة ، وهي خمسة أسفار ، وكتاب يوشع ، وكتاب القضاة ، وكتاب راعوث ، وكتاب يهوذا ، وأسفار الملوك أربعة ، وسفر بنيامين ، وكتب المقابيين لابن كليون ثلاثة^(٢) وكتاب عزرا الإمام ، وكتاب اوشير^(٣) وقصة هامان ، وكتاب أيوب الصديق ، ومزامير داود عليه السلام ، وكتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ، ونبوات الأنبياء الكبار والصغار ستة عشر ، وكتاب يشوع بن شارح^(٤) وزير سليمان .

ومن شريعة عيسى صلوات الله عليه الملتقاة من الحواريين نسخ الأناجيل الأربعة وكتاب القتاليقون سبع رسائل ، وثامنها

(١) كذا بالأصول ، وهو الرسول مرقس .

(٢) كذا بالأصول ، وفي التوراة : سفر المكابيين (بتشديد الميم والكاف) الأول والثاني . وليس هناك ثالث . ولم يرد ذكر ابن كليون . وهي هنا محرفة عن اسم رجل اختصر أسفار المكابيين هذه اسمه : (يس الكريوني) نسبة إلى (كريان) وهم اسم قديم لمقاطعة برقة من أعمال ليبيا .

(٣) كذا ، وهو سفر استير ، كما في التوراة .

(٤) كذا بالأصول ، وهو يشوع بن سيراخ ، كما في التوراة .

الأنريكيكيس في قِصَصِ الرُّسُلِ وكتابُ بولس أربع عشرة رسالةً ،
وكتابُ اقليمنطسَ وفيهِ الأحكامُ ، وكتابُ أبوغالميس ، وفيهِ
رؤيا يوحنا بن زَبْدَى .

وأختلف شأنُ القياصرةَ في الأخذِ بهذه الشريعةِ تارةً وتعظيمِ
أهلها ، ثم تركها أخرى والتسلطَ عليهم بالقتل والبغي ؛ إلى أن جاء
قُسطنطينُ وأخذ بها واستمرُّوا عليها .

وكان صاحبُ هذا الدين والمقيمُ لمراسمِهِ يسمونه البطرِكَ ، وهو
رئيسُ أُمَّلَةٍ عندهم وخليفةُ المَسِيحِ فيهم ، يبعثُ نُوَّابَهُ وخلفاءَهُ إلى
ما بَعْدَ عنه من أُمَمِ النَصْرَانِيَّةِ ، ويسمونه^(١) الأسقفَ اي نائبَ
البطركِ ، ويسمونَ الإمامَ الذي يقيمُ الصلواتِ ويُفتيهم في الدين
بالقسيس . ويسمونَ المنقطعَ الذي حبسَ نفسه في الخلوة للعبادةِ
بالراهب . وأكثرُ خلواتهم في الصوامع . وكان بُطْرُسُ الرسولُ
رأسُ الحواريينَ وكبيرُ التلاميذِ برومةَ يقيمُ بها دينَ النَصْرَانِيَّةِ إلى
أن قَتَلَهُ نِرونُ خامسُ القياصرةَ ، فيمن قتل من البطارِقِ والأساقفةِ ؛
ثم قام بخلافَتِهِ في كَريسيِّ رومةَ أريوس^(٢) . وكان مُرقاسُ الإنجيلي
بالإسكندرِيَّةِ ومِصرَ والمَغْرِبِ دَاعِيًا سبعَ سنينَ ؛ فقام بعده حَنَانِيًا
وتسمَّى بالبطركِ وهو أَوَّلُ البطارقةِ فيها . وجعلَ معه اثني عَشَرَ

(١) أي يسمون من يبعثه البطرك إلى ما بعد عنه من أمم النصرانية .

(٢) كذا بالأصول وهو خطأ ، لأن أريوس قسيس ، لم يتول مطلقاً كرسي البابويه ولا ما يقرب
منها ، وله مذهب خاص يقول بنفي الطبيعة اللاهوتية للمسيح . ولذلك حكم مجمع نيقية بتجريده
من ألقابه الكهنوتية سنة ٣٢٥ للميلاد .

قَسّاً على أَنَّهُ إِذَا مَاتَ الْبَطْرِكُ يَكُونُ وَاحِدٌ مِنَ الْإِثْنِي عَشَرَ مَكَانَهُ وَيَخْتَارُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِداً مَكَانَ ذَلِكَ الثَّانِي عَشَرَ . فَكَانَ أَمْرُ الْبَطَارِكَةِ إِلَى الْفُسُوسِ . ثُمَّ لَمَّا وَقَعَ الْإِخْتِلَافُ بَيْنَهُمْ فِي قَوَاعِدِ دِينِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ واجتمعوا بِنِيقِيَّةَ أَيَّامِ قُسْطَنْطِينَ لِتَحْرِيرِ الْحَقِّ فِي الدِّينِ ، وَاتَّفَقَ ثَلَاثَةَ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِنْ أَسَاقِفَتِهِمْ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ فِي الدِّينِ ، فَكَتَبُوهُ وَسَمَّوْهُ الْإِمَامَ ، وَصَيَّرُوهُ أَصْلاً يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ . وَكَانَ فِيهِمَا كِتَابُهُ أَنَّ الْبَطْرِكَ الْقَائِمَ بِالْدِّينِ لَا يُرْجَعُ فِي تَعْيِينِهِ إِلَى اجْتِهَادِ الْأَقْسَةِ كَمَا قَرَّرَهُ حَنَانِيَا تَلْمِذُ رُقَاسَ ، وَأَبْطَلُوا ذَلِكَ الرَّأْيَ ، وَإِنَّمَا يَقْدَمُ عَنْ مَلَأٍ وَاخْتِيَارٍ^(١) مِنْ أُمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَرُؤُسَائِهِمْ ؛ فَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ ذَلِكَ فِي تَقْرِيرِ قَوَاعِدِ الدِّينِ وَكَانَتْ لَهُمْ مَجْتَمَعَاتٌ فِي تَقْرِيرِهِ . وَلَمْ يَخْتَلَفُوا فِي هَذِهِ الْقَاعِدَةِ ؛ فَبَقِيَ الْأَمْرُ فِيهَا عَلَى ذَلِكَ . وَاتَّصَلَ فِيهِمْ نِيَابَةُ الْأَسَاقِفَةِ عَنِ الْبَطَارِكَةِ .

وَكَانَ الْأَسَاقِفَةُ يُدْعَوْنَ الْبَطْرِكَ بِالْأَبِّ أَيْضاً تَعْظِيماً لَهُ . فَاشْتَبَهَ الْأِسْمُ فِي أَعْصَارٍ مُتَطَاوِلَةٍ ، يُقَالُ آخِرُهَا بَطْرِكِيَّةٌ هِرَقْلُ بَالَا سَكَنْدَرِيَّةَ ؛ فَأَرَادُوا أَنْ يُمَيِّزُوا الْبَطْرِكَ عَنِ الْأُسْقُفِ فِي التَّعْظِيمِ فَدَعَوْهُ الْبَابَا ، وَمَعْنَاهُ أَبُو الْأَبَاءِ . وَظَهَرَ هَذَا الْأِسْمُ أَوَّلَ ظُهُورِهِ بِمِصْرَ عَلَى مَا زَعَمَ جَرَجِيسُ بْنُ الْعَمِيدِ فِي تَارِيخِهِ . ثُمَّ نَقَلُوهُ إِلَى صَاحِبِ الْكُرْسِيِّ الْأَعْظَمِ عِنْدَهُمْ وَهُوَ كُرْسِيُّ رُومَةَ لِأَنَّهُ كُرْسِيُّ بَطْرُسَ الرَّسُولِ كَمَا قَدَّمَاهُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَسَمَّى عَلَيْهِ إِلَى الْآنَ .

(١) فِي نَسْخَةِ ثَانِيَةِ عَنْ بِلَاءٍ وَاخْتِيَارٍ الْخ .

ثم اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك ، وفيما يعتقدونه في المسيح ، وصاروا طوائفَ وفاقاً ، واستظهروا بملوك النصارية كلُّ على صاحبه ؛ فاختلف الحال في العصور في ظهورِ فرقةٍ دون فرقةٍ ، إلى أن استقرتْ لهم ثلاثُ طوائفَ هي فرقتهم ولا يلتفون الى غيرها ، وهم المَلِكِيَّةُ واليَعْقُوبِيَّةُ والنَّسْطُورِيَّةُ .

ثم اخْتُصَّتْ كلُّ فرقةٍ منهم ببطركٍ ؛ فبطركُ رومةَ اليوم المسمى بالبابا على رأي المَلِكِيَّةِ ، ورومةُ اللافرنجيةِ وملكهم قائمٌ بتلك الناحية . وبَطْرِكُ المعاهدينِ بِمَصْرَ على رأي اليَعْقُوبِيَّةِ وهو ساكنٌ بينَ ظهريهم ؛ وألبسةُ يدينون بدينهم ؛ ولبطركِ مَصْرَ فيهم أَسَاقِفَةُ يَنْبُون عته في إقامة دينهم هنالك . واخْتُصَّ اسمُ البابا ببطركِ رومةَ لهذا العهد . ولا تسمى اليَعَاقِبَةُ بطركهم بهذا الاسم . وَضَبَطُ هذه اللفظةِ بباءينِ مَوْحَدَتَيْنِ من أسفل ، والنطقُ بها مَفْخَمَةٌ والثانيةُ مُشَدَّدَةٌ . ومن مذاهبِ البابا عند الافرنجيةِ أَنه يَحْضُرُهُمْ على الانقيادِ لِمَلِكٍ واحدٍ يَرْجِعُونَ إليه في اختلافهم واجتماعهم تَحْرُجاً من افتراقِ الكلمةِ ، وَيُتَحَرَّى به العصبيةُ الَّتِي لا فوقها منهم ، لِتَكُونَ يَدُهُ عَالِيَةً على جميعهم ، ويسمونه الْإِنْبَرْدُورَ^(١) وحرفه الوسطُ بينِ الذالِ والطاءِ المعجمتين ؛ ومُبَايَرُهُ يَضَعُ التاجَ على رأسه للتبرُّكِ فيسمى المتَوَجَّحَ^(٢) ؛ ولعله معنى لفظه

(١) المشهور قديماً إمبراطور بالطاء المهملة والفرنسيس تقول «أمبرور» ومعناها عندهم ملك الملوك.

(٢) أي الذي يباشر كرسي البابوية في روما يضع التاج على رأس الإمبراطور، ثم يباركه .

الانبرذور^(١) . وهذا ملخص ما أوردناه من شرح هذين الإسمين اللذين هما البابا والكوهن ؛ ﴿ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

الفصل الرابع والثلاثون

في مراتب الملك والسلطان والقابها

اعلم أن السلطان في نفسه ضعيفٌ يُخِلُّ أماً ثقيلاً، فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه . وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر يهنه^(٢) فما ظنك بسياسة نوعه ومن استرعه الله من خلقه وعباده . وهو محتاجٌ إلى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم ، وإلى كفِّ عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم بإمضاء الأحكام الوازنة فيهم ، وكفِّ العدوان عليهم في أموالهم بإصلاح سائلتهم^(٣) ، وإلى حملهم على مصالحهم ، وما تعمهم به البلوى في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعاش والمكايل والموازن ، حذراً من التطفيف ، وإلى النظر في السكة بحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش ، وإلى سياستهم بما يريد منهم من الانقياد له والرضا بمقاصده منهم وانفرادهم بالمجد دونهم . فيتحمل من ذلك

(١) أخذت هذه لفظة من امبراطور من كلمة لاتينية معناها: الحكم والأمر.

(٢) المهنة: الخدمة وجمعها مهن بكسر الميم.

(٣) السبيل السالبة: الطريق السلوكية . والسالبة أبناء السبيل المختلفون على الطرقات في

حوادثهم . وابن السبيل: الغريب الذي أتى به الطريق . (لسان العرب).

فوق الغاية من معاناة القلوب . قال بعضُ الأشرافِ من الحكماء :
 «لَمُعَانَةُ نَقْلِ الْجِبَالِ مِنْ أَمَاكِئِهَا أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ مُعَانَةِ قُلُوبِ الرِّجَالِ» .
 ثم إنَّ الاستعانةَ إذا كانت بأولي القُربى من أهلِ النسبِ أو
 التربيةِ أو الاصطناعِ القديمِ للدولة كانت أكملَ ، لما يقعُ في ذلك
 من مُجانسةِ خُلُقِهِمْ لَخُلُقِهِ ، فتتمُّ المشاكلةُ في الاستعانة . قال تعالى :
 ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴾ (٣٩) هَؤُلَاءِ أَخِي ﴿ ٣٠ ﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿ ٣١ ﴾
 وَأَشْرَكُهُ فِي أَمْرِى ﴿ ١١ ﴾ .

وهو إما أن يستعينَ في ذلك بسيفه أو قلعه أو رأيه أو
 معارفه أو بحجابه عن الناس أن يزدحموا عليه ، فيشغلوه عن
 النظرِ في مهماتهم ^(٢) . أو يدفعَ النظرَ في الملِكِ كله ^(٣) ، ويعوّلَ
 على كفايته في ذلك واضطلاعه . فلذلك قد توجدُ في رجلٍ واحدٍ
 وفد تفرقُ في أشخاصٍ ^(٤) . وقد يتفرّعُ كلُّ واحدٍ منها الى
 فروعٍ كثيرةٍ : كالقلمِ يتفرّعُ الى قلمِ الرسائلِ والمحاطباتِ ، وقلمِ
 الصكوكِ والإقطاعاتِ ، وإلى قلمِ المحاسباتِ ، وهو صاحبُ الجبايةِ
 والعطاءِ وديوانِ الجيشِ ؛ وكالسيفِ يتفرّعُ الى صاحبِ الحربِ ،
 وصاحبِ الشرطةِ ، وصاحبِ البريدِ ، وولايةِ الثغورِ .

ثم اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه المِلَّةِ الإسلاميةِ

(١) الكلام هنا على لسان موسى داعياً ربه . وهي الآيات (٢٩ - ٣٢) من سورة طه .

(٢) في هذه العبارة اضطراب ومجمل معناها : أن الملك يستعين بسيف هذا في شؤون الحرب ، وقلم ذلك في شؤون الكتابة ، ورأي آخر في شؤون السياسة .

(٣) كذا في الأصول ، ومقتضى سياق العبارة : «يدفع النظر إليه في الملك كله» ، أي يجمع وظائف الملك كلها في شخص واحد إذا اطمأن لحسن كفايته واضطلاعه .

(٤) أي توجد الوظائف كلها في رجل واحد يقوم بمهامها أو توزع على أشخاصٍ .

مندرجة تحت الخلافة لاشتغال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه . فالأحكام الشرعية متعلقة بجميعها وموجودة لكل واحدة منها في سائر وجوهها ، لعموم تعلق الحكم الشرعي بجميع أفعال العباد . والفقيه ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقليدها استبعاداً على الخلافة وهو معنى السلطان ، أو تعويضاً منها وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي ، وفي نظره في الأحكام والأموال وسائر السياسات مطلقاً أو مقيداً ، أو في موجبات العزل إن عرّضت ، وغير ذلك من معاني الملك والسلطان وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة أو جباية أو ولاية . لا بد للفقيه من النظر في جميع ذلك لما قدمناه من انسحاب حكم الخلافة الشرعية في الأمة الإسلامية على رتبة الملك والسلطان . إلا أن كلامنا في وظائف الملك والسلطان ورتبته ، إنما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا بما يخصها من أحكام الشرع فليس من غرض كتابنا كما علمت ، فلا نحتاج إلى تفصيل أحكامها الشرعية ؛ مع أنها مستوفاة في كتب الأحكام السلطانية مثل كتاب القاضي أبي الحسن الماوردي وغيره من أعلام الفقهاء ؛ فإن أردت استيفاءها فعليك بمطالعها هنالك . وإنما تكلمنا في الوظائف الخلافية وأفردناها لنميز بينها وبين الوظائف السلطانية فقط ، لا لتحقيق أحكامها الشرعية ، فليس من غرض كتابنا ، وإنما نتكلم في ذلك بما تقتضيه طبيعة العمران في الوجود الإنساني . والله الموفق .

الوزارة

وهي أمُّ الخطِّ السلطانية والرُّتب الملوكية، لأنَّ اسمها يدلُّ على مُطلق الإعانة؛ فإنَّ الوزارة مأخوذة إمَّا من المؤازرة وهي المعاونة، أو من الوزر وهو الثقلُ كأنه يحملُ مع مُفاعله أوزاره وأثقاله، وهو راجعٌ الى المعاونة المطلقة . وقد كنَّا قدَّمنا في أوَّل الفصل أنَّ أحوالَ السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة : لأنَّها إمَّا أن تكونَ في أمورٍ حماية الكافة وأسبابها من النظر في الجُنْد والسِّلاح والحروب وسائر أمورِ الحماية والمطالبة، وصاحبُ هذا هو الوزيرُ المتعارفُ في الدُّول القديمة بالشرق، ولهذا العهد بالمغرب؛ وإمَّا أن تكونَ في أمورٍ مخاطباته لمن بُعدَ عنه في المكان أو في الزمان وتنفيذه الأوامر فيمن هو محبوب عنه وصاحبُ هذا هو الكاتب؛ وإمَّا أن تكونَ في أمورٍ جباية المال وإنفاقه، وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكونَ بمضيعة، وصاحبُ هذا هو صاحبُ المال والجباية وهو المسمى بالوزير لهذا العهد بالشرق؛ وإمَّا أن يكونَ في مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن فهمه، وهذا راجعٌ لصاحب الباب الذي يحجبه . فلا تعدو أحواله هذه الأربعة بوجه . وكل خُطَّة أو رُتبة من رُتب الملوك والسلطان فإنَّها ترجعُ . إلا أنَّ الأرفع منها ما كانت الإعانة فيه عامةً فيما تحت يد السلطان

من ذلك الصنف؛ إذ هو يقتضي مباشرة السلطان دائماً ومُشارَكته في كل صنف من أحوال مُلكه، وأمّا ما كان خاصاً ببعض الناس أو ببعض الجهات فيكون دون الرتبة الأخرى كقيادة ثغر أو ولاية جباية خاصة أو النظر في أمر خاص، كحسبة الطعام أو النظر في السكة؛ فإن هذه كلها نظر في أحوال خاصة، فيكون صاحبها تبعاً لاهل النظر العام، وتكون رتبته رؤوساً لأولئك.

وما زال الأمر في الدول قبل الإسلام هكذا حتى جاء الإسلام وصار الأمر خلافة، فذهبت تلك الخطط كلها يذهب رسم الملك إلا ما هو طبيعي من المعاونة بالرأي، والمفاوضة فيه فلم يكن زواله، إذ هو أمر لا بُد منه. فكان ﷺ يُشاور أصحابه ويفاضهم في مهماته العامة والخاصة، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى؛ حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها في كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره. ولم يكن لفظ الوزير يُعرف بين المسلمين لذهب رتبة الملك بسداجة الإسلام. وكذا عُمر مع أبي بكر، وعلي وعثمان مع عُمر. وأمّا حال الجباية والإنفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة؛ لأنّ القوم كانوا عرباً أميين لا يُحسبون الكتاب^(١) والحساب فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب^(٢) أو أفراداً من موالي

(١) الكتاب هنا بمعنى الكتابة: مصدر لفعل كتب.

(٢) الكتاب هنا: الكتاب المنزل. وأهل الكتاب أصحاب الكتاب المنزل كالنصارى

واليهود.

الْعَجْمِ مَنْ يُحِيدُهُ، وَكَانَ قَلِيلاً فِيهِمْ . وَأَمَّا أَشْرَافُهُمْ فَلَمْ يَكُونُوا يُحِيدُونَهُ، لِأَنَّ الْأُمِّيَّةَ كَانَتْ صِفَتَهُمُ الَّتِي أَمْتَاوُا بِهَا . وَكَذَا حَالُ الْمَخَاطَبَاتِ وَتَنْفِيذِ الْأُمُورِ لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُمْ رُتَبَةً خَاصَّةً لِلْأُمِّيَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِمْ، وَالْأَمَانَةُ الْعَامَّةُ فِي كِتَابِ الْقَوْلِ وَتَأْدِيتِهِ، وَلَمْ تَخْرُجِ السِّيَاسَةُ إِلَى اخْتِيَارِهِ^(١)، لِأَنَّ الْخِلَافَةَ إِنَّمَا هِيَ دِينٌ لَيْسَتْ مِنَ السِّيَاسَةِ الْمُلْكِيَّةِ فِي شَيْءٍ . وَأَيْضاً فَلَمْ تَكُنِ الْكِتَابَةُ صِنَاعَةً فَيُسْتَجَادُ لِلْخَلِيفَةِ أَحْسَنُهَا؛ لِأَنَّ الْكُلَّ كَانُوا يُعَيِّرُونَ عَنْ مَقَاصِدِهِمْ بِأَنْبَلِغِ الْعِبَارَاتِ . وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْخَطُّ فَكَانَ الْخَلِيفَةُ يُسْتَنْبِئُ فِي كِتَابَتِهِ، مَتَى عَنْ لَهُ، مَنْ يُحْسِنُهُ . وَأَمَّا مُدَافَعَةُ ذَوِي الْحَاجَاتِ عَنْ أَبْوَابِهِمْ، فَكَانَ مُحْظُوراً بِالشَّرِيعَةِ فَلَمْ يَفْعَلُوهُ .

فَلَمَّا انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ إِلَى الْمُلْكِ وَجَاءَتْ رُسُومُ السُّلْطَانِ وَالْقَابِئَةِ كَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ بُدِئَ بِهِ فِي الدَّوْلَةِ شَأْنُ الْبَابِ وَسُدُّهُ دُونَ الْجُمْهُورِ بِمَا كَانُوا يَنْجَشُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْ اغْتِيَالِ الْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ كَمَا وَقَعَ بِعُمَرَ وَعَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ وَعُمَرُو بْنِ الْعَاصِ وَغَيْرِهِمْ، مَعَ مَا فِي فَتْحِهِ مِنْ أَزْدِحَامِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ وَشُغْلِهِمْ بِهِمْ عَنِ الْمُهَمَّاتِ . فَأَتَّخَذُوا مَنْ يَقُومُ لَهُمْ بِذَلِكَ وَسَمَّوْهُ الْحَاجِبَ . وَقَدْ جَاءَ أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ لَمَّا وَلِيَ حَاجِبُهُ قَالَ لَهُ : قَدْ وَلَيْتُكَ حِجَابَةَ بَابِي إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةٍ : الْمُؤَدِّنِ لِلصَّلَاةِ فَإِنَّهُ دَاعِي اللَّهِ ؛ وَصَاحِبِ الْبَرِيدِ فَأَمْرٌ مَا جَاءَ بِهِ ؛ وَصَاحِبِ الطَّعَامِ لِئَلَّا يَفْسُدَ . ثُمَّ اسْتَفْحَلَ الْمُلْكُ بَعْدَ ذَلِكَ فَظَهَرَ الْمَشَاوِرُ

(١) عبارة غامضة، ويبدو أن فيها تحريفاً أو نقص كلام أثناء النسخ . ومقتضى السياق : لم تكن هناك حينئذ حاجة إلى اختيار من يشرف على شؤون المخاطبات والكتابة، لعدم وجود سياسة ملكية تدعو إلى ذلك .

والمعين في أمور القبايل والعصائب واستئلافهم؛ وأطلق عليه اسم الوزير. وبقي أمر الحسبان في الموالي والذميين. وأُنْخِذَ للسجلات كاتبٌ مخصوصٌ حَوَظَةٌ على أسرار السلطان أن تشتتَه فتفسد سياسته مع قومه؛ ولم يكن بمثابة الوزير لأنه إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام؛ إذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد. فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ. هذا في سائر دولة بني أمية. فكان النظر للوزير عاماً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الحمايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء بالأهلية وغير ذلك.

فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل الملك وعظمت مراتبها وارتفعت، عظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة في إنفاذ الحل والعقد وتعيين مرتبته في الدولة، وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب، وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات في الجند، فاحتاج إلى النظر في جمعه وتفريقه، وأضيف إليه النظر فيه. ثم جعل له النظر في القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة، لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور. وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذباع والشياع^(١) ودفع إليه. فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي السيف

(١) الذباع والشياع: ليسا من مصادر ذاع وشاع. ولكنها مصدران قياسيان لذباع وشايح. فكان الأصح أن يقال: الذبوع والشيوع.

والقلم ، وسائر معاني الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دُعي جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة . ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها الا الحجابة التي هي القيام على الباب فلم تكن له ، لاستنكافه عن مثل ذلك .

ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان^(١) ، وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى . وصار الوزير إذا استبد محتاجاً الى استنابة الخليفة إياه لذلك لتصح الأحكام الشرعية وتجيء على حالها كما تقدم . فانقسمت الوزارة حينئذ الى وزارة تنفيذ ، وهي حال ما يكون السلطان قائماً على نفسه ، وإلى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبداً عليه . ثم استمر الاستبداد وصار الأمر للملوك العجم وتعطل رسم الخلافة . ولم يكن لأولئك المتغلبين أن ينتحلوا ألقاب الخلافة ، واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب لانهم خول لهم ، فتسموا بالإمارة والسلطان . وكان المستبد على الدولة يُسمى أمير الأمراء أو بالسلطان ، الى ما يُحلي به الخليفة من ألقابه كما تراه في ألقابهم ، وتركوا اسم الوزارة الى من يتولاها للخليفة في خاصته . ولم يزل هذا الشأن عندهم الى آخر دولتهم . وفسد اللسان خلال ذلك كله ، وصارت صناعة ينتحلها بعض الناس ، فامُتنت وترفع الوزراء عنها لذلك ، ولأنهم عجم ، وليست تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم ، فتُخبر لها من سائر الطبقات واختصت به ،

(١) كذا ، والأصح : الاستبداد على الخليفة ، كما يتضح من العبارة التالية .

وصارت خادمة للوزير . واختص اسم الأمير بصاحب الحروب والجند وما يرجع إليها ، ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب ، وأمره نافذ في الكل إما نيابة أو استبداداً . واستمر الأمر على هذا .

ثم جاءت دولة الترك آخرًا بمصر فأوّا أن الوزارة قد ابتذلت بترفع أولئك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ، ونظره مع ذلك متمقب بنظر الأمير ، فصارت مروسة ناقصة ، فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة . وصار صاحب الأحكام والنظر في الجند يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد ، وبقي اسم الحاجب في مدلوله ، واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية .

وأما دولة بني أمية بالأندلس فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ؛ ثم قسموا خطته أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً : فجعلوا لحسبان المال وزيراً ؛ وللترسيل وزيراً ؛ وللنظر في حوائج المتظلمين وزيراً ؛ وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له . وأفردوا للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم مباشرة السلطان في كل وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ؛ ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم ؛ فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب ،

حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها فأكثرهم يومئذ يسمى
الحاجب كما نذكره .

ثم جاءت دولة الشيعة بإفريقية والقيروان وكان للقائمين بها
رسوخ في اليداوة فأغفلوا أمر هذه الخطط أولاً وتقيح أسماها
حتى أدركت دولتهم الحضارة فصاروا إلى تقليد الدولتين قبلهم في
وضع أسماها كما تراه في أخبار دولتهم .

ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذاك أغفلت الأمر أولاً
لليداوة ، ثم صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب . وكان اسم
الوزير في مدلوله . ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها في
مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان في
مجلسه ، ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في
تحيتهم وخطابهم والآداب التي تلزم في الكون بين يديه ، ورفعوا
خطة الحجابة عنه ما شاؤوا ولم يزل الشأن ذلك^(١) إلى هذا العهد .

وأما في دولة الترك بالشرق فيُسَمون هذا الذي يقف بالناس
على حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم
بالوفود بين يديه الدويدار ، ويضيفون إليه استتباع كاتب السر
وأصحاب البريد المتصرفين في حاجات السلطان بالقاصية وبالخاضرة .
وحالهم على ذلك لهذا العهد . والله مولي الأمور لمن يشاء .

(١) هكذا في الأصل . وربما كانت كذلك .

الحجابه

قد قدّمنا أنّ هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأمويّة والعباسيّة بمن يجبُ السلطان عن العامّة ويُعلّقُ بابَهُ دونهم أو يفتحهُ لهم على قدره في مواقيته . وكانت هذه مُنزلةً يومئذٍ عن الخطّطِ مروّسةً لها ؛ إذ الوزيرُ مُتصرّفٌ فيها بما يراه . وهكذا كانت ؛ سائرَ أيام بني العباس ، وإلى هذا العهد ؛ فهي بمصرَ مروّسةٌ لصاحب الخطّة العُليا المسمّى بالنائب .

وأما في الدولة الأمويّة بالأندلس فكانت الحجابه لمن يجبُ السلطان عن الخاصّة والعامّة ، ويكونُ واسطةً بينهُ وبين الوزراء ، فمن دونهم . فكانت في دولتهم رفيعةً غايةً كما تراه في أخبارهم ، كابن حديد وغيره من حُجّابهم . ثم لما جاء الاستبدادُ على الدولة اختصَّ المستبدُّ باسم الحجابه لِشرفها . فكان المنصورُ بنُ أبي عامر وأبناؤه كذلك . ولما بدأوا في مظاهرِ الملوكِ وأطوارِهِ جاءَ مَنْ بعدهم من ملوكِ الطوائف فلم يتركوا لقبها ، وكانوا يعدّونها شرفاً لهم ، وكان أعظمهم مُلكاً بعد انتحالِ القابِ الملِكِ وأسمائه لا بُدَّ له من ذكرِ الحاجبِ وذي الوزارتينِ يعنون به السيفَ والقلمَ ، ويدلّون بالحجابه على حجابيّة السلطان عن العامّة والخاصّة ، وبذي الوزارتينِ على جميعه لخطّتي السيفِ والقلمِ .

ثم لم يكن في دولِ المغربِ وإفريقيّة ذكرٌ لهذا الاسمِ للبدوة

التي كانت فيهم . وربما يوجد في دولة العبيدين بمصر عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليل .

ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتمييز الخطط وتعيينها بالأسماء إلا آخراً . فلم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير ؛ فكانوا أولاً يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره ، كابن عطية وعبد السلام الكويجي . وكان له مع ذلك النظر في الحساب والأشغال المالية . ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره . ولم يكن اسم الحاجب معروفاً في دولتهم يومئذ .

وأما بنو أبي حفص بإفريقية فكانت الرئاسة في دولتهم أولاً والتقديم لوزير الرأي والمشورة . وكان يخص باسم شيخ الموحدين . وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب ؛ واختص الحسبان والديوان برتبة أخرى ، ويسمى متوليها بصاحب الأشغال ، ينظر فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ، ويجاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط ، وكان من شرطه أن يكون من الموحدين . واختص عندهم القلم أيضاً بمن يجيد الترسيل ويؤمن على الأسرار ؛ لأن الكتابة لم تكن من منتحل القوم ولا الترسيل بلسانهم ؛ فلم يشترط فيه النسب . واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتقين بداره إلى قهرمان خاص بداره في أحواله يجرها على قدرها وترتيبها ، من رزق وعطاء

وكسوة ونفقة في المطابخ والاصطبلات وغيرها، وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية؛ فخصّوه باسم الحاجب. وربما أضافوا إليه كتابة العلامة على السجلات إذا اتفق أنه يُحسن صناعة الكتابة، وربما جعلوه لغيره. واستمر الأمر على ذلك، وحجّب السلطان نفسه عن الناس، فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كلهم. ثم جُمع له آخر الدولة السيف والحرب، ثم الرأى والمشورة؛ فصارت الخطّة أرفع الرتب وأوعبها^(١) للخطّط. ثم جاء الاستبداد والحجرُ مُدّة من بعد السلطان الثاني عشر منهم. ثم استبدّ بعد ذلك حفيده السلطان أبو العبّاس على نفسه وأذهب آثار الحجر والاستبداد بإذهاب خطّة الجباية التي كانت سُلماً إليه، وبإشراك أموره كلها بنفسه من غير استعانة بأحد. والأمر على ذلك لهذا العهد.

وأما دولة زنّانة بالمغرب: وأعظمها دولة بني مرين، فلا أثر لاسم الحاجب عندهم. وأما رياسة الحرب والعساكر فهي للوزير. ورُتبة القلم في الحسبان والرسائل راجعة إلى من يُخسِنها من أهلها، وإن اختصّت ببعض البيوت المصطنعين في دولتهم. وقد تُجمَع عندهم وقد تفرّق. وأما باب السلطان وحجّبه عن العامة فهي رُتبة عندهم، يسمى صاحبها بالمزوار ومعناه المقدم على الجنادرية المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره وتصريف عقوباته وإنزال سطواته وحفظ المعتقلين في سجونهم، والعريف عليهم في

(١) بمعنى الاستيعاب: أي أجمعها.

ذلك . فالبابُ له ، وأخذُ الناس بالوقوفِ عندَ الحدودِ في دارِ
العامةِ راجعٌ إليه ، فكأَنَّها وزارةٌ صُغرى .

وأما دولةُ بني عبد الواد : فلا أثرَ عندهم لشيءٍ من هذه
الالقابِ ولا تمييزِ الخطَطِ ليدَاوِةِ دولتهم وقُصورِها . وإنما يَخْصُونَ
باسمِ الحاجِبِ في بعضِ الأحوالِ مُنْفَذَ الخاصِّ بالسلطانِ في دارِهِ ،
كما كان في دولةِ بني أبي حفصٍ ، وقد يُجْمَعُونَ له الحُسابانِ والسِّجِلُ
كما كان فيها ؛ حَمَلَهُمْ على ذلك تقليدُ الدولةِ بما كانوا في تَبِعِها
وقائمينَ بدعوَتِها منذُ أوَّلِ أمرهم .

وأما أهلُ الأندلسِ لهذا العهدِ فالْخُصوصُ عندهم بالحُسابانِ
وتنفيذِ خاصِّ السلطانِ وسائرِ الأمورِ الماليَّةِ يسمونه بالوكيلِ ،
وأما الوزيرُ فكالوزيرِ ، إلا أَنَّهُ قد يُجْمَعُ له الترسيلُ . والسلطانُ
عندهم يضعُ خَطَّهُ على السِّجَلاتِ كُلِّها ، فليس هناك خُطَّةُ العلامةِ
كما لغيرهم من الدول .

وأما دولةُ التركِ بمصرَ : فاسمُ الحاجِبِ عندهم موضوعٌ لحاكمِ
من أهلِ الشوكَةِ وهم التركُ ، يُنْفَذُ الأحكامَ بين الناسِ في
المدينةِ ، وهم متعدِّدون . وهذه الوظيفةُ عندهم تحتَ وظيفةِ
النيابةِ التي لها الحكمُ في أهلِ الدولةِ وفي العامةِ على الإطلاقِ .
وللنائبِ التوليةُ والعزلُ في بعضِ الوظائفِ على الأحيانِ ، ويقطَعُ
القليلَ من الأرزاقِ ، ويُسَيِّتُها وتُنْفَذُ أوامِرُهُ كما تُنْفَذُ المراسيمُ
السلطانيَّةُ . وكان له النيابةُ المطلقةُ عن السلطانِ . وللحُجَّابِ
الحكمُ فقط في طبقاتِ العامةِ والجنْدِ عند الترافعِ إليهم ، وإجبارُ

من أبى الانقياد للحكم ؛ وطورهم تحت طور النيابة . والوزير في دولة الترك هو صاحبُ جبايةِ الأموال في الدولة على اختلاف أصنافها من خراج أو مكس أو جزية ثم في تصريفها في الانفاقات السلطانية أو الجرايات المقدرة ، وله مع ذلك التولية والعزل في سائر العُمال المباشرين لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم . ومن عوائدهم أن يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحُساب والجباية لاختصاصهم بذلك في مصر منذُ عصور قديمة . وقد يُوليها السلطان بعض الأحيان لأهل الشوكة من رجالات الترك أو أبنائهم على حسب الداعية لذلك . والله مدبرُ الأمور ومصرُها بحكمته ، لا إله إلا هو ربُّ الأولين والآخرين .

ديوان الأعمال والجبايات

اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك ، وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم ، وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم في إبانيتها ، والرجوع في ذلك الى القوانين التي يُرتبها قومة تلك الأعمال ، وقهارة الدولة ، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب ، لا يقوم به الا المهرة من أهل تلك الأعمال ؛ ويُسمى

ذلك الكتابُ بالديوانِ ، وكذلك مكانُ جلوسِ العمالِ المباشرين لها . ويقالُ : إنَّ أصلَ هذه التسمية أنَّ كسرى نظَرَ يوماً الى كتابِ ديوانِهِ وهم يحسبونَ على أنفُسِهِمْ كأَنَّهم يُجَادِثُونَ فقال : (ديوانه) أي (مجانين) بلغةِ الفُرسِ ، فسَيَّ مَوْضِعَهُمْ بذلك ، وحُذِفَتِ الهاءُ لكثرةِ الاستعمالِ تخفيفاً فقلَّ ديوانٌ ، ثم نُقِلَ هذا الاسمُ الى كتابِ هذه الأعمالِ المتضمينِ للقوانينِ والحساباتِ ، وقيل : إنَّه أَسْمُ للشياطينِ بالفارسيَّةِ ؛ سُمِّيَ الكُتَّابُ بذلك لِسُرْعَةِ نفوذِهِمْ في فَمِ الْأُمُورِ ووقوفِهِمْ على الْجَلِيِّ والخفيِّ منها ، وجميعِهِمْ لما شَدَّ وتَفَرَّقَ . ثم نُقِلَ إلى مكانِ جُلُوسِهِمْ لتلك الأعمالِ . وعلى هذا فَيَتَنَوَّلُ أَسْمُ الديوانِ كُتَّابَ الرسائلِ ومكانَ جُلُوسِهِمْ ببابِ السُّلْطَانِ على ما يأتي بعدُ . وقد تُفَرَّدُ هذه الوظيفةُ بناظرٍ واحدٍ ينظرُ في سائرِ هذه الأعمالِ ، وقد يُفَرَّدُ كُلُّ صِنْفٍ منها بناظرٍ ، كما يُفَرَّدُ في بعضِ الدُّوَلِ النظرُ في العساكرِ وإقطاعيَتِهِمْ وحسبانِ إعطياتِهِمْ ، أو غير ذلك على حَسَبِ مُصْطَلَحِ الدولةِ وما قَرَّرَهُ أَوَّلُهَا . وأَعْلَمُ أَنَّ هذه الوظيفةَ إِنَّمَا تَحْدُثُ في الدُّوَلِ عندَ تَمَكُّنِ الغلبِ والاستيلاءِ والنظرِ في أعْطَافِ الْمُلْكِ وفنونِ التمهيدِ .

وأوَّلُ من وضعَ الديوانَ في الدولةِ الإسلاميَّةِ عُمرُ رضي الله عنه يقالُ لَسَبَبِ مالٍ أَتَى بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه من الْبَحْرَيْنِ فَاسْتَكْثَرُوهُ وَتَعَبُوا فِي قَسْمِهِ ، فَسَمَوْا الى إِحْصَاءِ الْأَمْوَالِ وَضَبْطِ الْعَطَاءِ وَالْحَقُوقِ ؛ فَأَشَارَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِالْديوانِ ، وقال : رَأَيْتُ مُلُوكَ الشَّامِ يُدَوِّنُونَ ؛ فَقَبِلَ مِنْهُ عُمرُ . وقيل : بل أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ

الهُزْمَانُ لما رَأَى يَبْعَثُ البُعْوثَ بغيرِ ديوانٍ ؛ ففَقِيلَ لَهُ : وَمَنْ يَعْلَمُ
بَغِيْبَةٍ مِنْ يَغِيْبُ مِنْهُمْ ؟ فَإِنْ مِنْ تَخَلَّفَ أَخْلٍ بِمَكَانِهِ ، وَإِنَّمَا يَضْبُطُ
ذَلِكَ الْكِتَابُ ؛ فَأَثْبَتَ لَهُمْ دِيوَانًا . وَسَأَلَ عُمَرُ عَنْ أَسْمِ الدِّيَوَانِ ،
فَعَبَّرَ لَهُ . وَلَمَّا اجْتَمَعَ ذَلِكَ أَمْرَ عَقِيلَ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَعَمْرَةَ بْنِ نَوْفَلٍ
وَجُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ، وَكَانُوا مِنْ كِتَابِ قُرَيْشٍ ، فَكَتَبُوا دِيوَانَ
الْمَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى تَرْتِيبِ الْأَنْسَابِ مُبْتَدَأً مِنْ قَرَابَةِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ وَمَا بَعْدَهَا ، الْأَقْرَبُ فالْأَقْرَبُ . هَكَذَا كَانَ ابْتِدَاءُ
دِيَوَانِ الْجَيْشِ . وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ ذَلِكَ
كَانَ فِي الْحَرَمِ سَنَةَ عَشْرِينَ .

وَأَمَّا دِيوَانُ الْخُرَاجِ وَالْجَبَايَاتِ فَبَقِيَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ عَلَى مَا
كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ : دِيوَانُ الْعِرَاقِ بِالْفَارِسِيَّةِ ؛ وَدِيوَانُ الشَّامِ
بِالرُّومِيَّةِ . وَكِتَابُ الدَّوَاوِينِ مِنْ أَهْلِ الْعَهْدِ مِنَ الْقَرَيْقَتَيْنِ . وَلَمَّا جَاءَ
عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُرْوَانَ وَاسْتَحَالَ الْأَمْرُ مُلْكًا ، وَانْتَقَلَ الْقَوْمُ مِنْ
غَضَاضَةِ الْبِدَاوَةِ إِلَى رَوْنَقِ الْخَضَارَةِ ، وَمِنْ سَدَاجَةِ الْأُمِّيَّةِ إِلَى
حِذْقِ الْكِتَابَةِ ، وَظَهَرَ فِي الْعَرَبِ وَمَوَالِيهِمْ مَهَرَةٌ فِي الْكِتَابِ
وَالْحُسْبَانِ ، فَأَمَرَ عَبْدُ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ بْنَ سَعِيدٍ وَالْيَاسَدُ بْنُ الْأَزْدَنْ لِعَهْدِهِ
أَنْ يَنْقُلَ دِيوَانَ الشَّامِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، فَأَكَلَهُ لِسَنَةٍ مِنْ يَوْمِ ابْتِدَائِهِ ،
وَوَقَفَ عَلَيْهِ سَرَجُونُ كَاتِبُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ لِكِتَابِ الرُّومِ :
اطْلُبُوا الْعَيْشَ فِي غَيْرِ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ فَقَدْ قَطَعَهَا اللَّهُ عَنْكُمْ .

وَأَمَّا دِيوَانُ الْعِرَاقِ فَأَمَرَ الْجَجَّاجُ كَاتِبُ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ،
وَكَانَ يَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْفَارِسِيَّةِ ، وَلَقِّنَ ذَلِكَ عَنْ زَادَانَ قَرُوحَ

كَاتِبِ الْحِجَاجِ قَبْلَهُ ، وَلَمَّا قُتِلَ زَادَانُ فِي حَرْبِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
الْأَشْعَثِ اسْتَخْلَفَ الْحِجَاجُ صَالِحًا هَذَا مَكَانَهُ ، وَأَمَرَ أَنْ يَنْفُلَ الدِّيوانَ
مِنَ الْفَارِسيَّةِ إِلَى الْعَرَبِيَّةِ فَفَعَلَ ، وَرِغْمَ لَذَلِكَ كَتَّابُ الْفُرسِ . وَكَانَ
عَبْدُ الْحَمِيدِ بْنُ يُحْيَى يَقُولُ لِلَّهِ دَرُّ صَالِحٍ ، مَا أَعْظَمَ مِتْنَتُهُ عَلَى الْكُتَّابِ !
ثُمَّ جُعِلَتْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةُ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ مُضَافَةً إِلَى مَنْ
كَانَ لَهُ النَّظَرُ فِيهِ ، كَمَا كَانَ شَأْنُ بَنِي بَرْمَكٍ وَبَنِي سَهْلٍ بْنِ نُوْبَخْتٍ
وغيرِهِمْ مِنْ وَزَرَاءِ الدَّوْلَةِ .

وَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْوُظَيْفَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِمَّا يَخْتَصُّ
بِالْجِيشِ أَوْ بَيْتِ الْمَالِ فِي الدَّخْلِ وَالْخُرْجِ وَتَقْيِيزِ النُّوَاحِي بِالْصُّلْحِ
وَالْعُنُودِ ، وَفِي تَقْلِيدِ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ لِمَنْ يَكُونُ ، وَشُرُوطِ النَّاضِرِ
فِيهَا وَالْكَاتِبِ وَقَوَانِينِ الْحُسْبَانَاتِ ، فَأَمْرٌ رَاجِعٌ إِلَى كُتُبِ الْأَحْكَامِ
الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَهِيَ مَسْطُورَةٌ هُنَاكَ وَلَيْسَتْ مِنْ غَرَضِ كِتَابِنَا ،
وَإِنَّمَا نَتَكَلَّمُ فِيهَا مِنْ حَيْثُ طَبِيعَةُ الْمُلْكِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ
الْكَلَامِ فِيهِ .

وَهَذِهِ الْوُظَيْفَةُ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنَ الْمُلْكِ ، بَلْ هِيَ ثَالِثَةُ أَرْكَانِهِ ؛
لِأَنَّ الْمُلْكَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ الْجُنْدِ وَالْمَالِ وَالْمُخَاطَبَةِ لِمَنْ غَابَ عَنْهُ ،
فَاحْتِاجَ صَاحِبِ الْمُلْكِ إِلَى الْأَعْوَانِ فِي أَمْرِ السِّيفِ وَأَمْرِ الْقَلَمِ
وَأَمْرِ الْمَالِ ، فَيَنْفَرِدُ صَاحِبُهَا لِذَلِكَ بِجُزْءٍ مِنْ رِيَاسَةِ الْمُلْكِ .

وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ وَالطَّوَانِفِ

بَعْدَهُمْ .

وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها إنما يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظرها الولاء والعمال فيها ، ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها . وكان يُعرف بصاحب الأشغال ، وكان دُنياً يليها في الجهات غير الموحدين ممن يُحسنها .

ولما استبد بنو أبي حفص بإفريقية وكان شأن الجالية من الأندلس ، فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان يستعمل ذلك في الأندلس ، مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني أبي الحسن ، فاستكفوا بهم في ذلك ، وجعلوا لهم النظر في الأشغال ، كما كان لهم بالأندلس ، ودالوا فيها بينهم وبين الموحدين . ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب وخرجت عن الموحدين . ثم لما استغلا أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم ، وصار صاحب رؤوسا للحاجب ، وأصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرياسة التي كانت له في الدولة .

وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد ؛ وصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسابات كلها ، ويرجع إلى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير ؛ وخطه معتبر في صحة الحساب في الخراج والعطاء .

هذه أصول الرتب والخطط السلطانية ، وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة للسلطان .

وأما هذه الرتبة في دولة الترك فمتنوعة . وصاحب ديوان العطاء يُعرفُ بناظر الجيش وصاحب المال مخصوصُ باسم الوزير ، وهو الناظر في ديوان الجباية العامة للدولة ، وهو أعلى رتبة الناظرين في الأموال ؛ لأنَّ النظرَ في الأموال عندهم يتنوعُ إلى رتب كثيرة لانفساح دولتهم ، وعظمة سلطانهم ، واتساع الأموال والجبایات عن أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ، ولو بلغ في الكفاية مبالغته ، فتعين للنظر العام منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان وأهل عصبية وأرباب السيوف في الدولة ، يرجعُ نظرُ الوزير الى نظره ، ويجهدُ جهده في متابعتِه ، ويُسمى عندهم أستاذ الدولة ؛ وهو أحدُ الأمراء الأكابر في الدولة من الجند وأرباب السيوف . ويتبعُ هذه الخطة خططُ عندهم أخرى كلها راجعةٌ إلى الأموال والحسبان ، مقصورةُ النظر على أمور خاصةٍ مثل ناظر الخاص ، وهو المباشرُ لأموال السلطان الخاصة به من إقطاعه أو سُهمائه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من أموال المُسلمين العامة . وهو تحت يد الأمير أستاذ الدار .

وإن كان الوزير من الجند فلا يكونُ لأستاذ الدار نظرٌ عليه . وناظرُ الخاص تحت يد الخازن لأموال السلطان من ممالكه المسمى خازن الدار لاختصاص وظيفتهما بمال السلطان الخاص . وهذا بيانُ هذه الخطة بدولة الترك بالشرق بعدما قدّمناه من أمرها بالمغرب . والله مصرّفُ الأمور لا ربَّ غيره .

ديوان الرسائل والكتابة

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأساً كما في الدول العريقة في البداوة، التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع. وإنما أكّدت الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد. فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الأكثر. وكان الكاتب للأمير يكون من أهل نسيه ومن عظماء قبيله، كما كان للخلفاء وأمرء الصحابة بالشام والعراق، لعظم أمانتهم وخلوص أسرارهم. فلما فسدت اللسان وصارت صناعة اختص بن يئسسه. وكانت عند بني العباس رفعة. وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقاً، ويكتب في آخرها اسمه، ويختتم عليها بخاتم السلطان، وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارتة، يغمس في طين أحمر مذاب بالماء، ويسمى طين الختم، ويطلع به على طرفي السجل عند طيه، وإصاقه.

ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان، ويضع الكاتب فيها علامته أولاً أو آخراً على حسب الاختيار في محلها وفي لفظها. ثم قد تنزل هذه الخطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد وزير عليه، فتصير علامة هذا الكتاب ملغاة الحكم بعلامة الرئيس عليه،

يَسْتَدِلُّ بِهَا فِي كُتُبِ صُورَةِ عِلَامَتِهِ الْمَعْمُودَةِ ، وَأُلْحِكُمُ لِعِلَامَةِ ذَلِكَ الرَّئِيسِ . كَمَا وَقَعَ آخِرَ الدَّوْلَةِ الْخَفِصِيَّةِ لَمَّا ارْتَفَعَ شَأْنُ الْحِجَابَةِ ، وَصَادَ أَمْرُهَا إِلَى التَّفْوِيزِ ثُمَّ الْإِسْتِدَادِ ، صَادَ حُكْمُ الْعِلَامَةِ الَّتِي لِلْكَاتِبِ مُلغًى وَصُورُهَا ثَابِتَةٌ ، اتِّبَاعًا لِمَا سَلَفَ مِنْ أَمْرِهَا . فَصَادَ الْحَاجِبُ يَرِيسُمُ لِلْكَاتِبِ إِمضَاءَ كِتَابِهِ ، ذَلِكَ بِخَطِّ يَصْنَعُهُ وَيَتَخَيَّرُ لَهُ مِنْ صِيغِ الْإِنْفَازِ مَا شَاءَ ، فَيَأْتِمُرُ الْكَاتِبُ لَهُ ، وَيَضَعُ الْعِلَامَةَ الْمَعْتَادَةَ . وَقَدْ يُخْتَصُّ السُّلْطَانُ بِنَفْسِهِ بَوْضِعَ ذَلِكَ إِذَا كَانَ مُسْتَبِدًّا بِأَمْرِهِ قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ ، فَيُرْسِمُ الْأَمْرَ لِلْكَاتِبِ لِيَضَعَ عِلَامَتَهُ . وَمَنْ خُطِّطَ الْكِتَابَةُ التَّوْقِيعُ ، وَهُوَ أَنْ يَجْلِسَ الْكَاتِبُ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ فِي مَجَالِسِ حُكْمِهِ وَفَصْلِهِ وَيُوقَّعَ عَلَى الْقِصَصِ الْمَرْفُوعَةِ إِلَيْهِ أَحْكَامُهَا وَالْفَصْلِ فِيهَا^(١) ، مُتَلَقَاةً مِنَ السُّلْطَانِ بِأَوْجَزِ لَفْظٍ وَأَبْلَغِهِ : فَإِمَّا أَنْ تُصَدَّرَ كَذَلِكَ ؛ وَإِمَّا أَنْ يُحْدِثَ الْكَاتِبُ عَلَى مِثْلِهَا فِي سَجَلٍ يَكُونُ بِيَدِ صَاحِبِ الْقِصَّةِ . وَبِحِجَابِ الْمَوْقِعِ إِلَى عَارِضَةٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ يَسْتَقِيمُ بِهَا تَوْقِيعُهُ ، وَقَدْ كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى يُوَقِّعُ الْقِصَصَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ وَيُرْمِي بِالْقِصَّةِ إِلَى صَاحِبِهَا ، فَكَانَتْ تَوْقِيعَاتُهُ يَتَنَافَسُ الْبُلَغَاءُ فِي تَحْصِيلِهَا لِلْوُقُوفِ فِيهَا عَلَى أَسَالِبِ الْبَلَاغَةِ وَفَنُونِهَا ، حَتَّى قِيلَ : إِنَّهَا كَانَتْ تُبَاعُ كُلُّ قِصَّةٍ مِنْهَا بِدِينَارٍ . وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُ الدُّوَلِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ صَاحِبَ هَذِهِ الْخُطَّةِ لَا بَدَّ أَنْ يُتَخَيَّرَ مِنْ أَرْفَعِ

(١) كَذَا بِالْأَصُولِ ، وَالْعِبَارَةُ مَشْوُشَةٌ ، وَمَقْتَضَى السِّيَاقِ لِإِيضَاحِ الْعِبَارَةِ أَنْ يَقُولَ : «لِلْفَصْلِ

فِيهَا» .

طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم وعارضة
 البلاغة ؛ فإنه مُعرّضٌ للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس
 الملوك ومقاصد أحكامهم ، من أمثال ذلك مع ما تدعو إليه عشرة
 الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ، مع ما يضطر
 إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها .
 وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة الى أبواب
 السيوف ، لما يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم .
 لأجل سداجة العصبية فيختص السلطان أهل عصبته بخطط دولته
 وسائر رتبته ، فيقلد المال والسيف والكتابة منهم . فأما رتبة
 السيف فتستغني عن معاناة العلم ؛ وأما المال والكتابة فيضطر
 إلى ذلك للبلاغة في هذه والحسبان في الأخرى ؛ فيختارون لها
 من هذه الطبقة ما دعت إليه الضرورة ويقلدونه ، إلا أنه لا
 تكون يد آخر من أهل العصبية غالباً على يده ، ويكون نظره
 مُتصرفاً عن نظره . كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالشرق ؛ فإن
 الكتابة عندهم وإن كانت لصاحب الإنشاء إلا أنه تحت يد أمير
 من أهل عصبية السلطان يُعرف بالدويدار ، وتعويل السلطان
 ووثوقه به واستنামته في غالب أحواله إليه ، وتعويله على الآخر
 في أحوال البلاغة وتطبيق المقاصد وكتان الأسرار وغير ذلك
 من توابعها .

وأما الشروط المعتبرة في صاحب هذه الرتبة التي يلاحظها
 السلطان في اختياره وانتقائه من أصناف الناس فهي كثيرة ،

وَأَحْسَنُ مِنْ اسْتَوْعَبَهَا عَبْدُ الْحَمِيدِ الْكَاتِبُ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى الْكِتَابِ ،
وَهِيَ :

رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب

أَمَّا بَعْدُ حَفِظَكُمُ اللَّهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ ، وَحَاطَكُمُ
وَوَفَّقَكُمُ وَأَرْشَدَكُمُ . فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ
وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ
الْمَكْرُمِينَ أَصْنَافًا وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً ، وَصَرَفَهُمْ فِي صُنُوفِ
الصِّنَاعَاتِ ، وَضُرُوبِ الْمَحَاوَلَاتِ ، إِلَى أَسْبَابِ مَعَاشِهِمْ وَأَبْوَابِ
أَرْزَاقِهِمْ ؛ فَجَعَلَكُمْ مَعْشَرَ الْكِتَابِ فِي أَشْرَفِ الْجِهَاتِ أَهْلَ الْأَدَبِ
وَالْمُرُوءَاتِ ، وَالْعِلْمِ وَالرِّزَانَةِ . يَكُمُ يَنْتَظِمُ لِلْخِلَافَةِ مُحَاسِنُهَا وَتَسْتَقِيمُ
أُمُورُهَا . وَيُنْصَحَاتُكُمْ يُصْلِحُ اللَّهُ لِلْخَلْقِ سُلْطَانَهُمْ وَتَقَرُّ بِلَدَائِهِمْ .
لَا يَسْتَفْنِي الْمَلِكُ عَنْكُمْ ، وَلَا يَوْجِدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ . فَوْقَكُمْ
مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعَ أَسْمَاعِهِمْ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ ، وَأَبْصَارُهُمُ الَّتِي بِهَا
يَنْبَصِرُونَ ، وَالسَّلَاطِينُ الَّتِي بِهَا يَنْطِقُونَ ، وَأَيْدِيهِمُ الَّتِي بِهَا يَنْبِطِشُونَ .
فَأَمَتَّكُمْ اللَّهُ بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ ، وَلَا تَزْعَ عَنْكُمْ
مَا أَضْفَاهُ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ . وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصِّنَاعَاتِ كُلِّهَا
أَحْوَجَ إِلَى اجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمَحْمُودَةِ ، وَخِصَالِ الْفَضْلِ الْمَذْكُورَةِ
الْمَعْدُودَةِ مِنْكُمْ .

أَيُّهَا الْكِتَابُ : إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ

صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره أن يكون حليماً في موضع الحلم ، فهِماً في موضع الحكم ، مقدماً في موضع الإقدام ، مُحجماً في موضع الانحجام ، مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف ، كئوماً للأسرار ، وفيماً عند الشدائد ، عالماً بما يأتي من النوازل ، يضع الأمور مواضعها ، والطوارق في أماكنها ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه ، وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به ، يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته ، ما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل أمر عُدته وعَتَادَه ، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته .

فتنافسوا يا معشر الكتّاب في صنوف الآداب ، وتفقهوا في الدين . وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية فانها ثقاف السنتكم ، ثم اجيدوا الخط فانه حلية كُتُبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ؛ فان ذلك مُعين لكم على ما تسمو إليه هممكم ، ولا تُضيعوا النظر في الحساب فإنه قوام كُتُب الخراج .

وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها وذنبيها ، وسفساف الأمور ومحاورها ، فإنها مُذِلَّة للرقاب ، مُفسِدة للكتّاب . وثرّوها صناعاتكم عن الدناءة ، وأربأوا بأنفسكم عن السعاية والتسمة وما فيه أهل الجملات . وإياكم والكبر والسُّخف والعظمة ، فإنها عداوة مُجْتَلَبَة من غير إحنة . وتجاؤا في الله عز وجل في صناعتكم ، وقواصوا

عليها بالذي هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم
وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه ، وواسوه حتى يرجع
إليه حاله ويثوب إليه أمره . وإن أقعد أحداً منكم الكبر عن
مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا
بفضل تجربته وقديم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من
اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه أحوط منه على ولده وأخيه .
فإن عرّضت في الشغل مَحْمَدَةً فلا يصرفها إلا إلى صاحبه ، وإن
عرّضت مَذْمُومَةً فليحملها هو من دونه . وليحذر السقطة والزلة
والملل عند تغير الحال . فإن العيب اليكم معشر الكتاب أسرع
منه إلى القراء ، وهو لكم أفسد منه لهم . فقد علمتم أن الرجل
منكم إذا صحبه من يبدل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه ،
فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره
ونصيحته وكتمان سرّه وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه ، ويصدق
ذلك بفعاله عند الحاجة إليه ، والاضطرار إلى ما لديه . فاستشعروا
ذلك . وفقكم الله من أنفسكم . في حالة الرخاء والشدة والحرمان
والمؤاساة والإحسان والسراء والضراء . فنعمت الشيمة هذه ،
من وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة . وإذا ولي الرجل
منكم أو صير إليه من أمر خلق الله وعياله أمرٌ فليراقب الله
عز وجل ، وليؤثر طاعته وليكن مع الضعيف رفيقاً وللمظلوم
مُنِيفاً ؛ فإن الخلق عيال الله ، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله .

ثم ليكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف مُكرِماً ، وللفيء مُوقِراً ،

وللبلاذ عامراً ، وللرعيّة متألّفاً ، وعن أذاهم متخلّفاً ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ، وفي سجلّات خراجهِ واستقضاء حقوقهِ رفيقاً .
 وإذا صحّبَ أحدُكم رجلاً فليختبرْ خلائِقَهُ ، فإذا عرفَ حسنَها وقبيحَها أعانهُ على ما يُوافِقُهُ من الحُسنِ ، واحتالَ على صرفهِ عما يهواهُ من الفُبحِ بِالطُفِ حيلةً وأَجَلَ وسيلةً . وقد علمتُم أن سائسَ البهيمةِ إذا كان بصيراً بسياسَتِها التَمَسَ معرفةَ أخلاقِها : فإن كانت رموحاً^(١) لم يهيجها إذا ركبها ؛ وإن كانت شبوباً^(٢) اتقاها من بين يديها ؛ وإن خافَ منها شُروداً توقّأها من ناحية رأسها ؛ وإن كانت حرونأً قع برفقٍ هواها في طَرَقِها^(٣) ، فإن استمرّت عَطَفَها يسيراً فيسلَسَ له قيادُها . وفي هذا الوصفِ من السياسةِ دلائلٌ لمن ساسَ الناسَ وعاملَهُم وجَرَّ بِهِم ودَاخَلَهُم . والكاتبُ ، لفضلِ أدبه وشريفِ صنعتِهِ ولطيفِ حيلَتِهِ ومعاملتِهِ لمن يجاورُهُ من الناسِ ويُناظرُهُ ، ويفهمُ عنه أو يخافُ سطوتَهُ ، أولى بالرفقِ لصاحِبِهِ ، ومُداراتِهِ وتقويمِ أَوْدِهِ من سائسِ البهيمةِ التي لا تُحيرُ جواباً ، ولا تعرفُ صواباً ، ولا تفهمُ خطاباً ، إلّا بقدرِ ما يُصَيِّرُها اليه صاحبُها الراكبُ عليها . ألا فارقوا رحمكم الله في النظرِ ، واعملوا ما أمكنكم فيه من الرويّة والفكرِ تأمنوا بإذنِ الله ممن صحبُموهُ النّبوةَ والاستئقالَ والجفوةَ ، ويصيرُ منكم الى الموافقةِ ، وتصيروا منه الى المواخاةِ والشققةِ ان شاء الله .

(١) كثرة الرفس .

(٢) كثرة رفع اليدين .

(٣) بمعنى الضرب .

ولا يُجَاوِزَنَّ الرجلُ منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه، وغير ذلك من فنون أمره قدرَ حقّه؛ فإنَّكم مع ما فضَّلَكمُ اللهُ به من شرفِ صنعيتكم خَدَمَةٌ لا تُحْمَلُونَ في خدمتكم على التقصير، حَفَظَةٌ لا تُحْتَمَلُ منكم أفعالُ التضييع والتبذير. واستعينوا على عَفَافِكُمْ بالقصدِ في كلِّ ما ذكرته لكم وقصصته عليكم. واحذروا متالِفَ السَّرَفِ وسوءَ عاقبة الترف، فانهما يُعَقِّبانِ الفقرَ ويذِلَّانِ الرِّقَابَ ويفضَحانِ أهلها ولا سِيا الكُتَّابِ وأربابِ الآداب.

وللأمور أشباهُ وبعضها دليلٌ على بعضٍ، فاستدِلُّوا على مؤتَنَفٍ^(١) أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم. ثم اسلكوا من مسالكِ التدبيرِ أوضَحَها حُجَّةً، وأصدقها حُجَّةً، وأحمدَها عاقبةً. واعلموا أنَّ للتدبيرِ آفةً مُتَلِفَةً وهو الوصفُ الشاغلُ لصاحبه عن انفاذِ علمه ورويَّته. فليَقْصِدِ الرجلُ منكم في مجلسه قَصْدَ الكافي من منطقهِ؛ وليوجِزْ في ابتدائه وجوابه، وليأخذ بمجامعِ حُجَّجِهِ؛ فإنَّ ذلك مصلحةٌ لفعله ومدفعةٌ للشاغل عن إكثاره. وليضرع إلى الله في صلّة توفيقهِ وإمداده بتسديدِ مخافة وقوعه في الغلطِ الضَّرِّ ببدنه وعقله وآدابه. فإنَّه إن ظنَّ منكم ظانُّ أو قال قائلٌ إن الذي برزَ من جميلِ صنعته، وقوّةِ حرَكته إنما هو بفضلِ حيلته وحسنِ تدبيره، فقد تعرّضَ بحسنِ ظنِّه أو مقالته إلى أن يَكْشَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى نفسه، فيصيرُ منها إلى غيرِ كافٍ، وذلك على

(١) بمعنى أمر جديد لم تسبق فيه تجربة.

من تأملهُ غيرُ خافٍ . ولا يقول^(١) "أحدٌ منكم إنه أبصرُ بالأمورِ وأحملُ لعبِ التدبيرِ من مرافقهِ في صناعتِهِ ومصاحبهِ في خدمتِهِ ؛ فإنَّ أعقلَ الرُّجلينِ عند ذوي الألبابِ مَنْ رَمَى بالعُجبِ وراءَ ظهره ، ورأى أنَّ أصحابَهُ أعقلُ منه وأَجَلُ في طريقَتِهِ . وعلى كل واحدٍ من الفريقينِ أن يعرفَ فضلَ نِعَمِ اللَّهِ جلَّ ثناؤُه من غيرِ اغترارٍ برأيه ولا تَرَكِيَّةٍ لنفسِهِ ؛ ولا يُكَاثِرُ^(٢) على أخيه أو نظيرِهِ وصاحبِهِ وعشيرِهِ . وحمْدُ اللَّهِ واجبٌ على الجميعِ ، وذلك بالتواضعِ لعظمَتِهِ والتدليلِ لِعِزَّتِهِ والتحدُّثِ بنعمته .

وأنا أقول في كتابي هذا ما سبقَ به المثلُّ : « من تلزمهُ النصيحةُ يلزمهُ العملُ » . وهو جَوْهرُ هذا الكتابِ وُغْرَةُ^(٣) كلامه بعد الذي فيه من ذكرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ . فلذلك جعلتُهُ آخرُهُ وتمتُّهُ به .

تولانا اللَّهُ وإياكم يا معشرَ الطلبةِ والكتبةِ بما يتولى به من سبقَ علمُهُ بإسعادِهِ وإرشادِهِ ، فإنَّ ذلكَ إليه وبيده . والسلام عليكم ورحمةُ اللَّهِ وبركاته اهـ .

(١) هكذا في الأصل . والظاهر من سياق الكلام أن « لا » ناهية . وإذا كانت كذلك فينبغي أن تكون الجملة « ولا يقل » .

(٢) كاثره : غالبه وتعاطم عليه ؛ فاخره بكثرة المال أو العدد . وحرف الجر (على) هنا خطأ .

(٣) بمعنى : أحسن ما في هذا الكتاب .

الشرطة

وَيُسَمَّى صَاحِبُهَا لِهَذَا الْعَهْدِ بِإِفْرِيقِيَّةِ الْحَاكِمِ ؛ وَفِي دَوْلَةِ أَهْلِ
 الْأَنْدَلُسِ صَاحِبَ الْمَدِينَةِ ؛ وَفِي دَوْلَةِ التُّرْكِ الْوَالِي . وَهِيَ وَظِيفَةُ
 مَرْؤُوسَةٍ لَصَاحِبِ السِّيفِ فِي الدَّوْلَةِ ، وَحُكْمُهُ نَافِذٌ فِي صَاحِبِهَا فِي
 بَعْضِ الْأَحْيَانِ . وَكَانَ أَصْلُ وَضْعِهَا فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ لِمَنْ يُقِيمُ
 أَحْكَامَ الْجَرَائِمِ فِي حَالِ اسْتِبْدَائِهَا أَوْ لَا ثُمَّ الْحُدُودَ بَعْدَ اسْتِيفَائِهَا .
 فَإِنَّ التُّهَمَ الَّتِي تَعْرِضُ فِي الْجَرَائِمِ لَا نَظَرَ لِلشَّرْعِ إِلَّا فِي اسْتِيفَاءِ
 حُدُودِهَا ، وَلِلسِّيَاسَةِ النَّظَرُ فِي اسْتِيفَاءِ مُوجِبَاتِهَا بِأَقْرَارِ يُكْرَهُهُ
 عَلَيْهِ الْحَاكِمُ إِذَا احْتَفَّتْ بِهِ الْقَرَانِ لَمَّا تَوَجَّبَتْهُ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ فِي
 ذَلِكَ . فَكَانَ الَّذِي يَقُومُ بِهَذَا الْاسْتِبْدَاءِ وَبِاسْتِيفَاءِ الْحُدُودِ بَعْدَهُ
 إِذَا تَنَزَّهَ عَنْهُ الْقَاضِي يُسَمَّى صَاحِبَ الشَّرْطَةِ ، وَرَبَّمَا جَعَلُوا إِلَيْهِ
 النَّظَرَ فِي الْحُدُودِ وَالدَّمَاءِ بِاطْلَاقٍ ، وَأَفْرَدُوهَا مِنْ نَظَرِ الْقَاضِي .
 وَزُيِّنَ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ وَقُلِّدُوهَا كِبَارَ الْقَوَادِ وَعِظَمَاءِ الْخَاصَّةِ مِنْ
 مُوَالِيهِمْ . وَلَمْ تَكُنْ عَامَّةَ التَّنْفِيزِ فِي طَبَقَاتِ النَّاسِ ، إِنَّمَا كَانَ
 حُكْمُهُمْ عَلَى الدِّهْمَاءِ وَأَهْلِ الرِّيبِ ، وَالضَّرْبِ عَلَى أَيْدِي الرُّعَاعِ
 وَالْفَجَرَةِ .

ثُمَّ عَظُمَتْ نِبَاهَتُهَا فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَنُوعَتْ إِلَى
 شَرْطَةِ كِبَرَى وَشَرْطَةِ صُغْرَى . وَجُعِلَ حُكْمُ الْكِبَرَى عَلَى الْخَاصَّةِ
 وَالدِّهْمَاءِ . وَجُعِلَ لَهُ الْحُكْمُ عَلَى أَهْلِ الْمَرَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالضَّرْبِ

على أيديهم في الظلمات ، وعلى أيدي أقاربهم ومن اليهم من أهل الجاه . وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامّة . ونُصِبَ لصاحب الكبرى كرسيّ بباب دار السلطان ورجال يتجأون المقاعة بين يديه ، فلا يبرحون عنها إلا في تصريفه . وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحاً للوزارة والحجابه .

وأما في دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظٌ من التنويه وإن لم يجعلوها عامّة . وكان لا يليها إلا رجالات الموحدين وكبرائهم . ولم يكن له التحكّم على أهل المراتب السلطانيّة . ثم فسدت اليوم منصبها وخرجت عن رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بها من المصطنعين .

وأما في دولة بني مرين لهذا العهد بالشرق فولايتها في بيوت من مواليهم وأهل اضطنائهم ؛ وفي دولة الترك بالشرق في رجالات الترك أو أعقاب أهل الدولة قبلهم من الكرد ، يتخيرونهم لها في النظر بما يظهر منهم من الصلابة والمضاء في الأحكام لقطع مواد الفساد وحسم أبواب الدعارة ، وتخريب مواطن الفسوق وتفريق مجامعهم ، مع إقامة الحدود الشرعيّة والسياسيّة كما تقتضيه رعاية المصالح العامّة في المدينة . والله مقلب الليل والنهار ، وهو العزيز الجبار ، والله تعالى أعلم .

قيادة الأساطيل

وهي من مراتب الدولة وخطتها في ملك المغرب وإفريقية،
ومروسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الأحوال.
ويُسمى صاحبها في عرفهم المَلْد بتفخيم اللام منقولا من لغة
الأفريقية فانه اسمها في اصطلاح لغتهم. وإنما اختصت هذه المرتبة
بملك إفريقية والمغرب لأنها جميعاً على ضفة البحر الرومي من جهة
الجنوب، وعلى عُدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة إلى
الإسكندرية إلى الشام، وعلى عُدوته الشمالية بلاد الاندلس
والأفريقية والصقالبة والروم إلى بلاد الشام أيضاً؛ ويُسمى البحر
الرومي والبحر الشامي نسبة إلى أهل عُدوته. والساكنون
بسيف هذا البحر وسواحلهم من عُدوته يعانون من أحواله ما لا
تُعانيه أمة من أمم البحار. فقد كانت الروم والأفريقية والقوط بالعدوة
الشمالية من هذا البحر الرومي، وكانت أكثر حروبهم ومتاجريهم
في السفن، فكانوا مهرة في دُكوبه والحرب في أساطيله. ولما
أسف^(١) من أسف منهم إلى ملك العدوة الجنوبية، مثل الروم
إلى إفريقية والقوط إلى المغرب، أجازوا^(٢) في الأساطيل وملكوها
وتغلبوا على البربر بها، وانتزعوا من أيديهم أرمها، وكان لهم

(١) أسف إلى مداق الأمور: دنا. وفي الصحاح: أسف الرجل أي تتبع مداق الأمور.
(لسان العرب).

(٢) أجاز المكان وأجازته: قطعه (قاموس).

بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسببلة وجولاء ومرتاق وشرشال
وطنجة . وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يجارب صاحب رومة .
ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالمساكر والعُدَد؛ فكانت
هذه عادة لأهل هذا البحر الساكنين حفافيه معروفة في
القديم والحديث .

ولما ملك المسلمون مصر كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن
العاص ، رضي الله عنهما ، أن صِف لي البحر ، فكتب إليه : « إنَّ
البحر خلق عظيم ، يركبه خلق ضعيف ، دود على عود » . فأوعز
حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه . ولم يركبه أحد من العرب إلا
من افتأت على عُمر في ركوبه ونال من عقابه ، كما فعل بعرفة بن
هرثة الأزدي سيّد بحيلة لما أغراه عُمان ، فبلغه غزوه في البحر ،
فأنكر عليه وعنفه أنه ركب البحر للغزو . ولم يزل الشأن ذلك
حتى إذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على
أعدائه . والسبب في ذلك أن العرب كانوا ليداورهم لم يكونوا
أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه ، والروم والإفرنجة لمارسيتهم
أحواله ومرباهم في الثقل على أعدائه مربوا عليه وأحكموا
الدراية بثقافته .

فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم
خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذي صنعة إليهم ببلغ
صناعته ، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمما
وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فشرهوا

إلى الجهاد فيه ، وأنشأوا السفن فيه والشواني^(١) ، وشحنوا
الأساطيل بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء
البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وتغورهم
ما كان أقرب لهذا البحر ، وعلى حافته مثل الشام وإفريقية
والمغرب والأندلس . وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسان بن
النعمان عامل إفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات
البحرية حرصاً على مرايم الجهاد . ومنها كان فتح صقلية أيام
زيادة الله الأول بن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات
شيخ الفتيا ، وفتح قوصرة أيضاً في أيامه بعد أن كان معاوية
ابن حديج أغزي صقلية أيام معاوية ابن أبي سفيان فلم يفتح
الله على يديه ، وفتحت على يد ابن الأغلب وقائده أسد بن
الفرات . وكانت من بعد ذلك أساطيل إفريقية والأندلس في
دولة العبيديين والأمويين تتعاقب إلى بلادها في سبيل الفتنة ،
فتجوس خلال السواحل بالإفساد والتخريب . وانتهى أسطول
الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتي مركب أو نحوها ،
وأسطول إفريقية كذلك مثله أو قريباً منه . وكان قائد الأساطيل
بالأندلس ابن رماحس ، ومرفأها للحط والإقلاع بجاية والمرية .
وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك ، من كل بلد يتخذ فيه
السفن أسطول ، يرجع نظره إلى قائد من النواية يدبر أمر حربه
وسلاحه ومقاتلته ، ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاذيف

(١) بمعنى : المراكب المعدة للجهاد .

وأمر إرسائه في مرفئه . فإذا اجتمعت الأساطيل لغزو محتفل أو غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وأنجاد عساكره ومواليه ، وجعلهم لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم إليه ، ثم يسرحهم لوجههم وينتظر إياهم بالفتح والغنمة .

وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وامتطوا ظهرة للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومه من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه ، مثل ميورقة ومذروقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة وماطة وأقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج . وكان أبو القاسم الشيعي وأبناؤه يغزون أساطيلهم من المهدية جزيرة جنوة فتقلب بالظفر والغنمة . وافتتح مجاهد العائري صاحب دانية من ملوك الطوائف جزيرة سردانية في أساطيله سنة خمس وأربعمائة ، وارتجعها النصارى لوقتها . والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدو الشمالية ، فتوقع بملوك الإفرنج وتشنخ في ممالكهم ، كما وقع في أيام بني الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة البيديين ،

وانحازت أُممُ النَصْرانيَّةِ بِأساطيلهم إلى الجانبِ الشماليِّ الشرقيِّ منه، من سواحلِ الألفرنجة والصقاليَّة وجزائرِ الرومانيَّة لا يعدونها . وأساطيلُ المسلمين قد ضَرَبَتْ^(١) عليهم ضراءُ الأسدِ على فريسته، وقد ملأتِ الأكثرُ من بسيطِ هذا البحرِ عُدةً وعدداً، واختلقت في طُرُقِهِ سِلاماً وحرباً، فلم تسبَح للنَصْرانيَّةِ فيه ألواحٌ .

حتى إذا أدركَ الدولة العُبيديَّة والأُمويَّة الفشلُ والوَهْنُ، وطرقها أِلَاعْتِلالٌ مدَّ النصارى أيديهم إلى جزائرِ البحرِ الشرقيَّةِ مثلَ صِقِلِيَّة وإقريطش وما لَطَّة، فلكوها . ثم ألحوا على سواحلِ الشامِ في تلكَ الفترة وملكوا طرابُلُسَ وعسقلانَ وصورَ وعكا، واستولوا على جميعِ الثُغُورِ بسواحلِ الشامِ، وغلبوا على بيتِ المقدسِ وبنوا عليه كنيسةً لإظهارِ دينهم وعبادَتهم، وغلبوا بني خَزْرونَ على طرابُلُسَ، ثم على قابسَ وصفاقِسَ ووضعوا عليهم الجزيةَ، ثم ملكوا المهديَّةَ مقرَّ ملوكِ العُبيديِّينَ من يدِ أعقابِ بُلْكِينِ بنِ زيري، وكانت لهم في المائة الخامسة الكُرةُ بهذا البحرِ . وَضَعَفَ شَأْنُ الأَساطيلِ في دولةِ مِصرَ والشامِ إلى أنْ انقَطَعَ، ولم يعتنوا بشيءٍ من أمره لهذا العهد؛ بعد أن كانَ لهم به في الدولة العُبيديَّة عنايةٌ تجاوزتِ الحُدَّ كما هو معروفٌ في أخبارهم . فبَطَلَ رِسمُ هذه الوظيفةِ هنالك، وبقيتْ بإفريقيَّة والمغربِ فصارت مَخْتَصَّةً بها . وكانَ الجانبُ الغربيُّ من هذا البحرِ

(١) بمعنى اعتادت واجترأت .

لهذا العهد موفور الأساطيل ثابت القوة ، لم يتحيفه عدو ، ولا كانت لهم به كربة . فكان قائد الأسطول به لعهد لتونة بني ميمون رؤساء جزيرة قادس ، ومن أيديهم أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم ، وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد العدوتين جميعاً .

ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد . وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلي ، أصله من صديغار الوطنين بجزيرة جربة من سرويكنش ، أسره النصراني من سواحيلها وربي عندهم ، واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه ، ثم هلك وولي ابنه فأسخطه ببعض النزعات ، وخشي على نفسه ولحق بتونس ، ونزل على السيد بها من بني عبد المؤمن ، وأجاز إلى مراکش ، فلقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالبرقة والكرامة ، وأجزل الصلة وقلده أمر أساطيله فجلى في جهاد أمم النصرانية ، وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين . وانتهت أساطيل المسلمين على عهد في الكثرة والاستجادة الى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه .

ولما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهد باسترجاع ثغور الشام من يد أمم النصرانية ، وتطهير بيت المقدس ، تابعت أساطيلهم بالمد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه ،

فأمدّوهم بالعُدَدِ والأقواتِ ، ولم تقاومهم أساطيلُ الإسكندريّةِ لاستمرارِ الغلبِ لهم في ذلك الجانبِ الشرقيّ من البحرِ ، وتعدّدِ أساطيلهم فيه ، وُضعفَ المسلمِينَ منذ زمانٍ طويلٍ عن ممانعتهم هناك كما أشرنا إليه قبل . فأوفدَ صلاحُ الدينِ على أيّ يعقوبَ المنصورِ سلطانَ المغربِ لعهده من الموحّدين رسولهُ عبدَ الكريمِ ابنَ مُنقِذٍ من بيتِ بني منقِذٍ ملوكِ شِيزَرٍ ، وكان ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولتهِ ، فبعثَ عبدَ الكريمِ منهم هذا إلى مَلِكِ المغربِ طالباً مددَ الأساطيلِ لتجولَ في البحرِ بين أساطيلِ الأُجانبِ وبين مرآهم من إمدادِ النصرانيّةِ بشغور الشام ، وأصحبهُ كتابهُ إليه في ذلك ، من إنشاءِ الفاضلِ البيسانيّ يقول في افتتاحِهِ : « فتحَ اللهُ لسيّدنا أبوابَ المناجِحِ والميامنِ » حسبما نقلهُ العِمادُ الأُصفهانيُّ في كتابِ الفتحِ القدسيّ . فنقّمَ عليهم المنصورُ تجافئهم عن خطابه بأميرِ المؤمنينَ وأسرّها في نفسه ، وحملهم على مناهجِ البرِّ والكرامةِ ، وردّهم إلى مُرسليهم ، ولم يُجِبْهُ إلى حاجته من ذلك . وفي هذا دليلٌ على اختصاصِ مَلِكِ المغربِ بالأساطيلِ وما حصلَ للنصرانيّةِ في الجانبِ الشرقيّ من هذا البحرِ من الاستِطالةِ وعدمِ عنايةِ الدُولِ بمصرَ والشامِ لذلك العهدِ وما بعدهُ بشأنِ الأساطيلِ البحريّةِ والاستعدادِ منها للدولة .

ولما هلكَ أبو يعقوبَ المنصورُ واعتلتْ دولةُ الموحّدين واستولتْ أُمَمُ الجلائقةِ على الأكثرِ من بلادِ الأندلسِ ، وأجلاوا المسلمينَ إلى سيفِ البحرِ ، وملكوا الجزائرَ التي بالجانبِ الغربيّ

من البحر الرومي، قويت ريجهم في بسط هذا البحر، واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم، وتراجعت قوة المسلمين فيه الى المساواة معهم، كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زناتة بالمغرب، فإن أساطيله كانت عند مرايو الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم.

ثم تراجعت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر، بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الأندلسية. ورجع النصارى فيه الى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الأمم في لجته وعلى أعواذيه. وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلاً من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الأمصار والأعوان، أو قوة من الدولة تستجيش لهم أعواناً وتوضح لهم في هذا الغرض مسلماً. وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة، والرسم في معاناة الأساطيل بالإنشاء والركوب معهوداً، لما عساه ان تدعو إليه الحاجة من الأغراض السلطانية في البلاد البحرية. والمسلمون يستهونون الريح على الكفر وأهله. فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب الحدائق أنه لا بد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلاد الإفريقية، وأن ذلك يكون في الأساطيل. والله ولي المؤمنين، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الفصل الخامس والثلاثون

في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

اعلم أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره . إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة إلى القلم ؛ لأن القلم في تلك الحال خادم فقط مُنْقَذٌ للحكم السلطاني ؛ والسيف شريك في المعونة . وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف عصبيتها كما ذكرناه ، ويقل أهلها بما ينالهم من الهرم الذي قدمناه ، فتحتاج الدولة إلى الاستظهار بأزباب السيوف وتقوى الحاجة إليهم في حماية الدولة ، والمدافعة عنها ، كما كان الشأن أول الأمر في تمهيدها . فيكون للسيف مزية على القلم في الحالتين ، ويكون أرباب السيف حينئذٍ أوسع جاهاً وأكثر نعمة وأسنى إقطاعاً . وأما في وسط الدولة فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لأنه قد تمهد أمره ، ولم يبق همه إلا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الأحكام ، والقلم هو المعين له في ذلك ؛ فتعظم الحاجة إلى تصريفه ، وتكون السيوف مهمة في مضاجع أعقادها ، إلا إذا نابت نائبة أو دُعيت إلى سدِّ فرجة ،^(١)

(١) الفرجة هنا بمعنى الخلل وموضع المخافة .

وما سوى ذلك فلا حاجة اليها . فيكون أربابُ الأقاليم في هذه الحاجة أوسعَ جاهاً ، وأعلى رتبةً ، وأعظمَ نعمةً وثروةً ، وأقربَ من السلطانِ مجلساً ، وأكثرَ إليه تردداً وفي خلواته نجياً ؛ لأنه حينئذٍ آلتُهُ التي بها يستظهرُ على تحصيلِ ثمراتِ ملكه ، والنظرِ في أعطائه ، وتثقيفِ أطرافه ، والمباهاةِ بأحواله ؛ ويكونُ الوزراءُ حينئذٍ وأهلُ السيوفِ مستغنى عنهم ، مبعدينَ عن باطنِ السلطانِ ، حذرينَ على أنفسهم من بواده .

وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلمٍ للنصورِ حينَ أمره بالقُدوم : « أما بعدُ فإنه يَمَّا حَفِظناه من وصايا الفُرس ؛ أخوفُ ما يكونُ الوزراءُ إذا سكنتِ الدهاء . » . سنةُ الله في عبادِهِ ، واللهُ سبحانه وتعالى أعلمُ .

الفصل السادس والثلاثون

في شارات الملك والسلطان الخاصة به

اعلم أن للسلطانِ شاراتٍ وأحوالاً تقتضيها الأبهةُ والبَذخُ فيختصُّ بها ويتميَّزُ بانتحالها عن الرعيةِ والبطانةِ وسائرِ الرؤساءِ في دولته . فلنذكر ما هو مشتهرٌ منها بمبلغِ المعرفة ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾^(١)

(١) آخر آية ٧٦ من سورة يوسف .

الآلة : فمن شاراتِ الْمُلْكِ اتَّخَذُ آلَاةٍ من نشرِ الْأَلْوِيَةِ والراياتِ وقرعِ الطبولِ والنفخِ في الْأَبْوَاقِ والقُرونِ . وقد ذكر أرسطو في الكتابِ الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِ في السِّيَاسَةِ ، أَنَّ السَّرَّ في ذلك إِرْهَابُ الْعَدُوِّ في الْحَرْبِ ؛ فَإِنَّ الْأَصْوَاتَ الْهَائِلَةَ لَهَا تَأْثِيرٌ في النُّفُوسِ بِالرَّوْعَةِ . ولعمري إِنَّهُ أَمْرٌ وَجْدَانِيٌّ في مَوَاطِنِ الْحَرْبِ يَجِدُهُ كُلُّ أَحَدٍ مِنْ نَفْسِهِ . وهذا السَّبَبُ الَّذِي ذَكَرَهُ أَرِسْطُو — إِنْ كَانَ ذَكَرَهُ — فَهُوَ صَحِيحٌ بَعْضُ الْإِعْتِبَارَاتِ . وَأَمَّا الْحَقُّ في ذلك فَهُوَ أَنَّ النَّفْسَ عِنْدَ سَمَاعِ النَّغَمِ وَالْأَصْوَاتِ يُذَكِّرُهَا الْفَرْحَ وَالطَّرَبَ بِلا شَكِّ ، فَيَصِيبُ يَزَاجَ الرُّوحِ نَشْوَةً يَسْتَسْهِلُ بِهَا الصَّعْبَ ، وَيَسْتَمِيتُ في ذلك الْوَجْهَ الَّذِي هُوَ فِيهِ . وهذا موجودٌ حَتَّى في الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ ، بِانْفِعَالِ الْإِبِلِ بِالْحَدَاءِ ، وَالْخَيْلِ بِالصَّفِيرِ وَالصَّرِيخِ كَمَا عَلِمْتَ . وَيَزِيدُ ذَلِكَ تَأْثِيرًا إِذَا كَانَتْ الْأَصْوَاتُ مُتَنَاسِبَةً كَمَا فِي الْغَنَاءِ . وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا يَحْدُثُ لِسَامِعِهِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى . وَلِأَجْلِ ذَلِكَ تَتَّخِذُ الْعَجَمُ في مَوَاطِنِ حُرُوبِهِمُ الْآلَاتِ الْمَوْسِيقِيَّةَ^(١) لَا طَبْلًا وَلَا بَوَقًا ؛ فَيُخْدِقُ الْمَغْنُونُ بِالسُّلْطَانِ في مَوَكِبِهِ بِآلَاتِهِمْ ، وَيُغْنُونَ ، فَيُحَرِّكُونَ نَفُوسَ الشُّجْعَانِ بِضَرْبِهِمْ إِلَى الْإِسْتِمَاتَةِ . وَلَقَدْ رَأَيْنَا في حُرُوبِ الْعَرَبِ مِنْ يَتَغَنَّى أَمَامَ الْمَوَكِبِ بِالشَّعْرِ وَيُطَرِّبُ ؛ فَتَجِيشُ هُمُ الْأَبْطَالِ بِمَا فِيهَا ، وَيَسَارِعُونَ إِلَى مَجَالِ الْحَرْبِ ، وَيَنْبَعثُ كُلُّ

(١) علق الهوريني على هذه الكلمة بما يلي: «قوله الموسيقى وفي نسخة الموسيقىارية وهي صحيحة لأن الموسيقى بكسر القاف بين التحتيتين اسم للنغم والألحان وتوقعها ويقال فيها موسيقى ويقال لضارب الآلة موسيقار. انظر أول سفينة الشيخ محمد شهاب».

قَرْنِ إِلَى قَرْنِهِ^(١). وَكَذَلِكَ زَنَاةٌ مِنْ أُمَمِ الْمَغْرِبِ. يَتَقَدَّمُ الشَّاعِرُ عِنْدَهُمْ أَمَامَ الصُّفُوفِ ، وَيَتَغَنَّى فَيَحْرِّكُ بَغْنَائِهِ أَلْجَالَ الرُّوَاسِيَّ ، وَيَبْعَثُ عَلَى الْإِسْتِمَاتَةِ مَنْ لَا يُظَنُّ بِهَا ، وَيَسْمُونَ ذَلِكَ الْغِنَاءَ تَاصُوكَايَتٍ. وَأَصْلُهُ كُلُّهُ قَرَحٌ يَحْدُثُ فِي النَّفْسِ فَتَنْبَعُ عَنْهُ الشَّجَاعَةُ كَمَا تَنْبَعُ عَنْ فُشُوقِ الْحَمْرِ بِمَا حَدَّثَ عَنْهَا مِنَ الْفَرَحِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَأَمَّا تَكْثِيرُ الرَايَاتِ وَتَلْوِينُهَا وَإِطَالَتُهَا فَالْقَصْدُ بِهِ التَّهْوِيلُ لَا أَكْثَرُ ؛ وَرَبَّمَا يَحْدُثُ فِي النَّفُوسِ مِنَ التَّهْوِيلِ زِيَادَةٌ فِي الْإِقْدَامِ ؛ وَأَحْوَالُ النَّفُوسِ وَتَلَوْنَاتُهَا غَرِيبَةٌ. وَاللَّهُ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. ثُمَّ إِنَّ الْمُلُوكَ وَالِدُولَ يَخْتَلِفُونَ فِي اتِّخَاذِ هَذِهِ الشَّارَاتِ ، فَهُمْ مَكْثَرٌ وَمِنْهُمْ مَقَلٌّ بِحَسَبِ اتِّسَاعِ الدَّوْلَةِ وَعِظَمِهَا . فَأَمَّا الرَايَاتُ فَإِنَّهَا شَعَارُ الْحُرُوبِ مِنْ عَهْدِ الْخَلِيقَةِ ، وَلَمْ تَرَلِ الْأُمَمُ تَعْقِدُهَا فِي مَوَاطِنِ الْحُرُوبِ وَالْفُرُوزَاتِ ، لِعَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَمِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْخُلَفَاءِ . وَأَمَّا قَرَعُ الطُّبُولِ وَالنَّفْخُ فِي الْأَبْوَاقِ فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ لِأَوَّلِ الْمِلَّةِ مُتَجَافِينَ عَنْهُ ، تَنْزُهُاً عَنْ غِلَظَةِ الْمُلْكِ وَرَفْضاً لِأَحْوَالِهِ ، وَاحْتِقَاراً لِأُتْبَتِهِ الَّتِي لَيْسَتْ مِنَ الْحَقِّ فِي شَيْءٍ. حَتَّى إِذَا انْقَلَبَتِ الْخِلَافَةُ مُلْكاً وَتَبَجَّجُوا بِزَهْرَةِ الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا ، وَلَا تَبْسَهُمُ الْمَوَالِي مِنَ الْفُرْسِ وَالرُّومِ أَهْلُ الدُّوَلِ السَّالِفَةِ ، وَأَرَوْهُمْ مَا كَانَ أَوْلَئِكَ يَنْتَحِلُونَهُ مِنْ مَذَاهِبِ الْبَذْخِ وَالتَّرَفِ ، فَكَانَ مِمَّا اسْتَحْسَنُوهُ اتِّخَاذُ الْأَلَةِ فَأَخَذُوهَا ، وَأَذِنُوا الْعُمَّالَهُمْ فِي اتِّخَاذِهَا تَنْوِيهاً بِالْمُلْكِ وَأَهْلِهِ . فَكَثِيراً مَا كَانَ الْعَامِلُ صَاحِبُ الشَّعْرِ أَوْ قَائِدُ الْجَيْشِ يَعْقِدُ لَهُ الْخَلِيفَةُ مِنَ الْعَبَاسِيِّينَ أَوْ الْعُبَيْدِيِّينَ

(١) القرن بالكسر: كَفُوكُ، نظيرك في الشجاعة أو العلم وغيرها. (قاموس)

لوائه، ويخرج إلى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو داره في موكب من أصحاب الرايات والآلات، فلا يميز بين موكب العامل والخليفة إلا بكثرة الألوية وقلتها، أو بما اختص به الخليفة من الألوان لرايته كالسواد في رايات بني العباس، فان راياتهم كانت سوداً حزناً على شهدائهم من بني هاشم، ونعياً على بني أمية في قتلهم، ولذلك سمو المسودة.

ولما افترق أمر الهاشميين وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر، ذهبوا إلى مخالفتهم في ذلك فاتخذوا الرايات بيضاً وسموا المبيضة لذلك سائر أيام العبيديين، ومن خرج من الطالبيين في ذلك العهد بالشرق، كالداعي بطبرستان وداعي صعدة أو من دعا إلى يدعة الرافضة من غيرهم كالقرايمطة.

ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره في دولته، عدل إلى لون الخضرة، فجعل رايته خضراء.

وأما الاستكثار منها فلا ينتهي إلى حد، وقد كانت آلة العبيديين لما خرج العزيز إلى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من الأبواق.

وأما ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرها فلم يختصوا بلون واحد، بل وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملوثة، واستمرروا على الإذن فيها لعلمهم. حتى إذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من ذناتة قصرُوا الآلة من الطبول والبنود على السلطان، وحظروها على من سواه من عماله، وجعلوا

لها موكباً خاصاً يتبع أثر السلطان في مسيره يسمى الساقة . وهم فيه بين كثير ومقلل باختلاف مذاهب الدول في ذلك : فمنهم من يقتصر على سبع من العدد تبركاً بالسبعة كما هو في دولة الموحدين ، وبني الأحمر بالأندلس ؛ ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زناتة . وقد بلغت في أيام السلطان أبي الحسن فيا أدركناه مائة من الطبول ومائة من البنادق ملوثة بالحديد منسوجة بالذهب ، ما بين كبير وصغير . ويأذنون للولاء والعمال والفؤاد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء وطبل صغير أيام الحرب لا يتجاوزون ذلك .

وأما دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فيتخذون أولاً راية واحدة عظيمة ، وفي رأسها خصلة كبيرة من الشعر يسمونها الشالش والختر ، وهي شعار السلطان عندهم ، ثم تتعدد الرايات ويسمونها السناجق ، واحداً سنجق وهي الراية بلسانهم . وأما الطبول فيبالغون في الاستكثار منها ويسمونها الكوسات ، ويديحون لكل أمير أو قائد عسكري أن يتخذ من ذلك ما يشاء إلا الختر فإنه خاص بالسلطان .

وأما الجلائقة لهذا العهد من أمم الأفرنجية بالأندلس ، فأكثر شأنهم اتخاذ الألوية القليلة ذاهبة في الجور صعداً ومعهما قرع الأوتار من الطنابير ، ونفخ الغيطات ، يذهبون فيها مذهب الغناء وطريقة في مواطن حروبهم ؛ وهكذا يبلغنا عنهم وعن وراءهم

من ملوك العجم. ﴿وَمَنْ أَيْدِيهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ
السِّنِينَ كُمْ وَالْوَنُكُرَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ^(١).

السريـر : وأما السريـرُ والمِنْبَرُ والتختُ والكريسيُّ فهي أَعْوَادُ
منصوبةٌ أو أرائكُ مُنْصَدَّةٌ لجلوسِ السلطانِ عليها مرتفعاً عن أهلِ
مجلسه أن يُساوِيَهُمْ في الصعيدِ . ولم يزل ذلك من سُنَنِ الملوكِ
قبلَ الإسلامِ ، وفي دُولِ العجمِ . وقد كانوا يجلسونَ على أَسْرِقِ
الذهبِ . وكان لسليمانَ بنِ داودَ صلواتُ اللهَ عليهما وسلامُهُ كريسيُّ
وسريـرٌ من عاجٍ ، مغشًى بالذهبِ . إلا أنه لا تأخذُ به الدولةُ
إلا بعدَ الاستِفعالِ والترَفِ شَأْنَ الأُبهةِ كُلِّها كما قلناه . وأما في
أَوَّلِ الدولةِ عندَ البداوَةِ فلا يتشوّفونَ إليه .

وأوَّلُ من اتَّخذه في الإسلامِ معاويةُ واستأذنَ الناسَ فيه ،
وقال لهم : إني قد بَدُنْتُ ^(٢) فأذنوا له ، فاتَّخذه واتبعه الملوكُ
الإسلاميُّونَ فيه وصار من منازِعِ الأُبهةِ . ولقد كان عمرو بنُ
العاصِ بِمَصْرَ يجلسُ في قصره على الأرضِ مع العربِ ، ويأتيه
المُقوقسُ إلى قَصْرِهِ ومعه سريـرٌ من الذهبِ محمولٌ على الأيدي
لجلوسه شَأْنَ الملوكِ ، فيجلسُ عليه وهو أمامه ، ولا يُغيرونَ عليه ^(٣)
وفاءً له بما عقدَ معهم من الذِمَّةِ وأَطْرَاحاً لأُبهةِ الملكِ . ثم كان
بعد ذلك لبني العباسِ والعبيديِّينَ وسائرِ ملوكِ الإسلامِ شرقاً

(١) «آية» من سورة الروم .


(٢) بدن : عظم بدنه بكثرة لحمه ، أصبح جسيماً (فاموس) .

(٣) أغار عليهم : هجم وأوقع بهم .

وغرباً من الأيسرة والمنابر والتخوت ما عفا عن الأكاسرة والقياصرة. والله مقلب الليل والنهار.

السكة : وهي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ، ويضرب بها على الدينار أو الدرهم ، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة ، بعد أن يُعتبر عيار النقد من ذلك الجنس في خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى ، وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يُصطلح عليه ، فيكون التعامل بها عدداً ، وإن لم تعد أشخاصها يكون التعامل بها وزناً . ولفظ السكة كان اسماً للطابع ، وهي الحديدة المتخذة لذلك ، ثم نُقل إلى أثرها وهي النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ، ثم نُقل إلى القيام على ذلك ، والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه ، وهي الوظيفة ، فصار علماً عليها في عرف الدول . وهي وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ، ويتقون في سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة . وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها قائل تكون مخصوصة بها ، مثل قائل السلطان لعهدها أو تمثيل حصن أو حيوان أو مصنوع أو غير ذلك ، ولم يزل هذا الشأن عند العجم إلى آخر أمرهم .

ولما جاء الإسلام أغفل ذلك لسداجة الدين ويداوة العرب . وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة وزناً ، وكانت دنانير الفرس

ودراهمهم بين أيديهم يردونها في معاملتهم إلى الوزن ويتصادفون بها بينهم ؛ إلى أن تفاحش الغش في الدنانير والدراهم ، لغفلة الدولة عن ذلك ، وأمر عبد الملك الحجاج ، على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد ، بضرب الدراهم وتمييز المنغشوش من الخالص ، وذلك سنة أربع وسبعين ، وقال المدايني سنة خمس وسبعين ، ثم أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين ، وكتب عليها : ﴿الله أحد﴾  الله الصمد .

ثم ولي ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك ، فجود السكة ، ثم بالغ خالد القسري في تجويدها ، ثم يوسف بن عمر بعده . وقيل : أول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق سنة سبعين بأمر أخيه عبدالله لما ولي الحجاز ، وكتب عليها في أحد الوجهين : « بركة الله » وفي الآخر « اسم الله » ؛ ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة ، وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها على ما كانت استقرت أيام عمر . وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الإسلام ستة دنانق ، والمثقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم ، فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل . وكان السبب في ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المثقال عشرون قيراطاً ، ومنها اثنا عشر ، ومنها عشرة ، فلما احتيج إلى تقديره في الزكاة أخذ الوسط وذلك اثنا عشر قيراطاً ، فكان المثقال درهماً وثلاثة أسباع درهم . وقيل كان منها البغلي بثمانية دنانق ، والطبري أربعة دنانق ، والمغربي

ثمانية دوانق، واليمني ستة دوانق، فأمر عمر أن يُنظر الأغلب في التعامل، فكان البغلي والطبري وها اثنا عشر دانقاً. وكان الدرهم ستة دوانق، وإن زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالاً، وإذا أنقصت ثلاثة أعشار المِثقال كان درهماً. فلما رأى عبد الملك اتخاذ السكة لصيانة النقدين الجارين في معاملة المسلمين من الغش عين مقدارها على هذا الذي استقر لعهد عمر رضي الله عنه، واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لا صوراً، لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناحيهم وأظهرها، مع أن الشرع ينهى عن الصور. فلما فعل ذلك استمر بين الناس في أيام الملة كلها. وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين، والكتابة عليهما في دوائر متوازية يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تليلاً وتحميداً، وصلاة على النبي وآله، وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة. وهكذا أيام العباسيين والعبيديين والأمويين.

وأما صنهاجة فلم يتخذوا سكة إلا آخر الأمر، اتخذها منصور صاحب بجاية، ذكر ذلك ابن حماد في تاريخه. ولما جاءت دولة الموحدين كان مما سن لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل، وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه، ويملأ من أحد الجانبين تليلاً وتحميداً، ومن الجانب الآخر كتباً في السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده، ففعل ذلك الموحدون، وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد. ولقد كان المهدي، فيما يُنقل، يُنعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم.

المربع، نعتة بذلك المتكلمون بالحدان من قبله، المخبرون في ملائيمهم عن دولته .

وأما أهل المشرق لهذا العهد فسكتهم غير مقدرة، وإنما يتعاملون بالدينار والدرهم وزناً بالصنجات المقدرة بعدة منها، ولا يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان كما يفعله أهل المغرب . ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ . ولنختم الكلام في السكة بذكر حقيقة الدرهم والدينار الشرعيين وبيان حقيقة مقدارهما .

مقدار الدرهم والدينار الشرعيين

وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار والموازين بالآفاق والأمصار وسائر الأعمال . والشرع قد تعرض لذكرها وعلق كثيراً من الأحكام بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها . فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدار معين في تقدير تجري عليهما أحكامه دون غير الشرعي منهما . فاعلم أن الإجماع منعقد منذ صدر الإسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب، والواقية منه أربعين درهماً، وهو على هذا سبعة أعشار الدينار، ووزن المثلقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير . فالدرهم الذي هو سبعة أعشاره خمسون حبة وخمسا حبة . وهذه المقادير

كلها ثابتة بالإجماع . فإن الدرهم الجاهلي كان بينهم على أنواع أجودها الطبري ، وهو أربعة دوانق ، والبغلي وهو ثمانية دوانق ، فجعلوا الشرعي بينهما وهو ستة دوانق . فكانوا يوجبون الزكاة في مائة درهم بغلية ومائة طبرية خمسة دراهم وسطاً .

وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك ، واجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه ، ذكر ذلك الخطام في كتاب معالم السنن والماوردي في الأحكام السلطانية ، وأنكره المحققون من المتأخرين ، لما يلزم عليه أن يكون الدينار والدرهم الشرعيان مجهولين في عهد الصحابة ومن بعدهم ، مع تعلق الحقوق الشرعية بهما في الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه .

والحق أنهما كانا معلومي المقدار في ذلك العصر لجريان الأحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق . وكان مقدارهما غير مشحخص في الخارج ، وإنما كان متعارفاً بينهم بالحكم الشرعي على المقدّر في مقدارهما وزنّيتهما . حتى استفحل الإسلام وعظمت الدولة ، ودعت الحال إلى تشخيصهما في المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير . وقارن ذلك أيام عبد الملك^(١) فشخص مقدارهما وعيّنهما في الخارج ، كما هو في الدهن ، ونقش عليهما السكة باسمه وتاريخه إثر الشهادتين الأيمانيتين ، وطرح

(١) هكذا وردت العبارة بالنسخ التي بين أيدينا ويقضي السياق أن تكون العبارة: «وقارن ذلك عبد الملك إلخ» فتستقيم العبارة.

النقود أَجَاهِلِيَّةَ رَأْساً حَتَّى خُلِصَتْ وَنُقِشَ عَلَيْهَا سَكَّةٌ وَتَلَاشَى وَجُودُهَا . فَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَحِيدَ عَنْهُ .

وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَقَعَ اخْتِيَارُ أَهْلِ السِّكَّةِ فِي الدَّوَلِ عَلَى مَخَالَفَةِ الْمَقْدَارِ الشَّرْعِيِّ فِي الدِّينَارِ وَالْدِرْهَمِ ، وَاخْتَلَفَتْ فِي كُلِّ الْأَقْطَارِ وَالْأَفَاقِ ، وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى تَصَوُّرِ مَقَادِيرِهَا الشَّرْعِيَّةِ ذَهَباً كَمَا كَانَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ ، وَصَارَ أَهْلُ كُلِّ أَفْقٍ يَسْتَخْرِجُونَ الْحَقُوقَ الشَّرْعِيَّةَ مِنْ سَكَّتِهِمْ ، بِمَعْرِفَةِ النِّسْبَةِ الَّتِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَقَادِيرِهَا الشَّرْعِيَّةِ .

وَأَمَّا وَزْنُ الدِّينَارِ بِاثْنَيْ وَسَبْعِينَ حَبَّةً مِنَ الشَّعِيرِ الْوَسَطِ فَهُوَ الَّذِي نَقَلَهُ الْمُحَقِّقُونَ وَعَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ إِلَّا ابْنَ حَزْمٍ خَالَفَ ذَلِكَ ، وَزَعَمَ أَنَّ وَزَنَهُ أَرْبَعَةٌ وَثَمَانُونَ حَبَّةً ، نَقَلَ ذَلِكَ عَنْهُ الْقَاضِي عَبْدُ الْحَقِّ ، وَرَدَّهُ الْمُحَقِّقُونَ ، وَعَدُّوهُ وَهْمًا وَغَلَطًا وَهُوَ الصَّحِيحُ . ﴿ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ ﴾ .

وَكَذَلِكَ تَعْلَمُ أَنَّ الْأَوْفِقَةَ الشَّرْعِيَّةَ لَيْسَتْ هِيَ الْمَتَاعَرَفَةُ بَيْنَ النَّاسِ ، لِأَنَّ الْمَتَاعَرَفَةَ مُخْتَلِفَةٌ بِاخْتِلَافِ الْأَقْطَارِ ، وَالشَّرْعِيَّةَ مُتَّحِدَةٌ ذَهَباً لَا اخْتِلَافَ فِيهَا . وَاللَّهُ ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرُهُ نَقْدِيرًا ﴾ .

الخاتم

وَأَمَّا الْخَاتَمُ فَهُوَ مِنَ الْخُطَطِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْوِظَائِفِ الْمُلُوكِيَّةِ . وَالْخَاتَمُ عَلَى الرِّسَالِ وَالصُّكُوكِ مَعْرُوفٌ لِلْمُلُوكِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى قَيْصَرَ ،

فَقِيلَ لَهُ : إِنَّ الْعَجَمَ لَا يَقْبَلُونَ كِتَابًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَخْتُومًا ، فَاتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ وَنَقَشَ فِيهِ : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » .

قَالَ الْبُخَارِيُّ : « جَعَلَ ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ فِي ثَلَاثَةِ أَسْطُرٍ وَخَتَمَ بِهِ ، وَقَالَ : لَا يَنْقُشُ أَحَدٌ مِثْلَهُ » ؛ قَالَ : « وَتَخْتَمُ بِهِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ ، ثُمَّ سَقَطَ مِنْ يَدِ عُثْمَانَ فِي بَيْتِ أَرِيْسَ ، وَكَانَتْ قَلِيلَةَ الْمَاءِ فَلَمْ يُدْرِكْ قَرْعُهَا بَعْدُ ، وَاعْتَمَّ عُثْمَانُ وَتَطَيَّرَ مِنْهُ وَصَنَعَ آخَرَ عَلَى مِثْلِهِ . »
وَفِي كَيْفِيَّةِ نَقْشِ الْخَاتَمِ وَالْخَتْمِ بِهِ وَجُوهٌ . وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ يُطْلَقُ عَلَى الْأَلَةِ الَّتِي تُجْعَلُ فِي الْأَصْبَعِ ، وَمِنْهُ تَخْتَمُ إِذَا لَبَسَهُ . وَيُطْلَقُ عَلَى النِّهَايَةِ وَالتَّامِ ، وَمِنْهُ خَتَمْتُ الْأَمْرَ إِذَا بَلَغْتُ آخِرَهُ ، وَخَتَمْتُ الْقُرْآنَ كَذَلِكَ ، وَمِنْهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَخَاتَمُ الْأُمَمِ . وَيُطْلَقُ عَلَى السِّدَادِ الَّذِي يُسَدُّ بِهِ الْأَوَانِي وَالْدِّنَانُ ، وَيُقَالُ فِيهِ خَتَامٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ خَتَمْتُ مِسْكَ ﴾ . وَقَدْ غَلِطَ مَنْ فَسَّرَ هَذَا بِالنِّهَايَةِ وَالتَّامِ ، قَالَ لِأَنَّ آخِرَ مَا يَجْدُونَهُ فِي شَرَاهِمِ رِيحِ الْمِسْكِ ؛ وَلَيْسَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الْخَتَامِ ، الَّذِي هُوَ السِّدَادُ ، لِأَنَّ الْخَمْرَ يُجْعَلُ لَهَا فِي الدَّنِّ سِدَادُ الطِّينِ أَوْ الْقَارِ يَحْفَظُهَا وَيَطَيِّبُ عَرْفَهَا وَذَوْقَهَا ، فَبُولَغَ فِي وَصْفِ خَمْرِ الْجَنَّةِ بِأَنَّ سِدَادَهَا مِنَ الْمِسْكِ ، وَهُوَ أَطْيَبُ عَرَفًا وَذَوْقًا مِنَ الْقَارِ وَالطِّينِ الْمَعْهُودَيْنِ فِي الدُّنْيَا .

فَإِذَا صَحَّ إِطْلَاقُ الْخَاتَمِ عَلَى هَذِهِ كُلِّهَا صَحَّ إِطْلَاقُهُ عَلَى أَثَرِهَا النَّاشِئِ عَنْهَا . وَذَلِكَ أَنَّ الْخَاتَمَ إِذَا نُقِشَتْ بِهِ كَلِمَاتٌ أَوْ أَشْكَالٌ ثُمَّ نُحِسَ فِي مُذَاقٍ مِنَ الطِّينِ أَوْ مِدَادٍ ، وَوُضِعَ عَلَى صَفْحِ الْقِرْطَاسِ بَقِيَ أَكْثَرُ الْكَلِمَاتِ فِي ذَلِكَ الصَّفْحِ . وَكَذَلِكَ إِذَا طُبِعَ بِهِ عَلَى

جسمٍ لَّيْنٍ كالشمعٍ ، فَإِنَّهُ يَبْقَى نَقْشُ ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ مُرْتَسِمًا فِيهِ .
وإذا كانت كلماتٌ وارتسمت فَقَدْ يُقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى إِذَا كَانَ
النقشُ على الاستقامة من اليمين ، وقد يُقْرَأُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُمْنَى إِذَا
كَانَ النَقْشُ مِنَ الْجِهَةِ الْيُسْرَى ، لِأَنَّ الْخَتْمَ يُقَلَّبُ جِهَةَ الْخَطِّ فِي
الصفحة كما كَانَ فِي النَقْشِ مِنْ يَمِينٍ أَوْ يَسَارٍ . فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ
الْخَتْمُ بِهَذَا الْخَاتَمِ بَعْمِيسِهِ فِي الْمَدَادِ أَوْ الطِينِ ، وَوَضِعِهِ عَلَى الصَّفْحِ
فَتَنْتَقِشُ الْكَلِمَاتُ فِيهِ ، وَيَكُونُ هَذَا مِنْ مَعْنَى النِّهَايَةِ وَالتَّمَامِ بِمَعْنَى
صِحَّةِ ذَلِكَ الْمَكْتُوبِ وَنَفُوذِهِ ، كَأَنَّ الْكِتَابَ إِنَّمَا يَتِمُّ الْعَمَلُ بِهِ
بِهَذِهِ الْعَلَامَاتِ ، وَهُوَ مِنْ دُونِهَا مُلغَى لَيْسَ بِتَامٍ . وَقَدْ يَكُونُ هَذَا
الْخَتْمُ بِالْخَطِّ آخِرَ الْكِتَابِ أَوْ أَوَّلَهُ بِكَلِمَاتٍ مُنْتَظَمَةٍ مِنْ تَحْمِيدٍ أَوْ
تَسْبِيحٍ ، أَوْ بِاسْمِ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ أَوْ صَاحِبِ الْكِتَابِ كَانَتْ
مِنْ كَانَ ، أَوْ شَيْءٍ مِنْ نَعْوَتِهِ ، يَكُونُ ذَلِكَ الْخَطُّ عِلَامَةً عَلَى
صِحَّةِ الْكِتَابِ وَنَفُوذِهِ ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ فِي الْمُتَعَارَفِ عِلَامَةً ، وَيُسَمَّى
خَتْمًا تَشْبِيهًا لَهُ بِأَثَرِ الْخَاتَمِ الْأَصْفِيِّ^(١) فِي النَقْشِ ؛ وَمِنْ هَذَا خَاتَمُ
الْقَاضِي الَّذِي يَبْعَثُ بِهِ لِلْخَصُومِ ، أَيْ عِلَامَتُهُ وَخَطُّهُ الَّذِي يُنْفِذُ بِهِمَا
أَحْكَامَهُ ؛ وَمِنْهُ خَاتَمُ السُّلْطَانِ أَوْ الْخَلِيفَةِ أَيْ عِلَامَتُهُ . قَالَ الرَّشِيدُ
لِيَحْيَى بْنِ خَالِدٍ لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَسْتَوِزَرَ جَعْفَرًا وَيَسْتَبْدِلَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ
أَخِيهِ ، فَقَالَ لِأَبِيهِمَا يَحْيَى : « يَا أَبَتُ إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أُحَوِّلَ الْخَاتَمَ
مِنْ يَمِينِي إِلَى شِمَالِي » . فَكُنِيَ لَهُ بِالْخَاتَمِ عَنِ الْوِزَارَةِ ، لَمَّا كَانَتْ
الْعِلَامَةُ عَلَى الرِّسَالِ وَالصَّكُوكِ مِنْ وَظَائِفِ الْوِزَارَةِ لِعَهْدِهِمْ .

(١) نسبة إلى آصف ، كاتب النبي سليمان عليه السلام .

ويشهد لصحة هذا الإطلاق ما نقله الطبري أن معاوية أرسل إلى الحسن عند مرادته إياه في الصلح صحيفة بيضاء ختم على أسفلها، وكتب إليه أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها ما شئت فهو لك. ومعنى الختم هنا علامة في آخر الصحيفة بخطه أو غيره. ويحتمل أن يُختم به في جِسمِ لِينٍ فتنتقش فيه حروفه، ويُجمل على موضع الحزم من الكتاب إذا حُزم وعلى المودوعات وهو من السداد كما مر. وهو في الوجهين آثارُ الخاتم، فيطلق عليه خاتم. وأول من أطلق الختم على الكتاب، أي العلامة معاوية؛ لأنه أمر لعمر بن الزبير عند زياد بالكوفة بمائة ألف، ففتح الكتاب وصير المائة مائتين ورفع زياد حسابه، فأنكرها معاوية، وطلب بها عمر وجبسه حتى قضاها عنه أخوه عبدالله. واتخذ معاوية عند ذلك ديوان الخاتم ذكره الطبري. وقال آخرون: وحزم الكُتب ولم تكن تُحزم أي جعل لها السداد. وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائم على إنفاذ كتب السلطان والختم عليها إما بالعلامة أو بالحزم. وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما ذكرناه في ديوان الأعمال.

والحزم للكتب يكون إما بدس الورق كما في عُرف كتاب المغرب، وإما بلبصق رأس الصحيفة على ما تنطوي عليه من الكتاب كما في عُرف أهل المشرق. وقد يُجمل على مكان الدس أو الإلصاق علامة يؤمن معها من فتحه والإطلاع على ما فيه. فأهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع ويختمون

عليها بخاتمٍ نُقِشت فيه علامةٌ لذلك ، فيرتسمُ النقشُ في الشمع . وكان في المشرقِ في الدُولِ القديمة يُخْتَمُ على مكانِ اللصقِ بخاتمٍ منقوشٍ أيضاً قد عُجِسَ في مُذاقٍ من الطينِ مُعدٍّ لذلك ، صبغهُ أحمرُ فيرتسمُ ذلك النقشُ عليه . وكان هذا الطينُ في الدولةِ العباسيةِ يُعرفُ بطينِ الختمِ ، وكان يُجَلَّبُ من سیرافَ ، فيظهرُ أنه مخصوصٌ بها .

فهذا الخاتمُ الذي هو العلامةُ المكتوبةُ أو النقشُ للسِّدادِ ، والحزمُ للكتبِ خاصُّ بديوانِ الرسائل . وكان ذلك للوزيرِ في الدولةِ العباسيةِ . ثم اختلفَ العُرفُ وصارَ لمن إليه الترسيلُ وديوانُ الكتابِ في الدولةِ . ثم صاروا في دولِ المغربِ يعدُّونَ من علاماتِ المُلكِ وشاراته الخاتمُ للأصْبَعِ ، فيستجيدونَ صَوْنَهُ من الذهبِ ويرصِّعونه بالفُصوصِ من الياقوتِ والفيروزِ والزُّرُّدِ ، ويلبسهُ السُّلطانُ شارةً في عُرفِهِم ، كما كانت البردةُ والقضيبُ في الدولةِ العباسيةِ والمِظَلَّةُ في الدولةِ العُبيديةِ . واللهُ مُصَرِّفُ الأُمُورِ بحكمه .

الطراز

من آبهةِ المُلكِ والسُّلطانِ ومذاهبِ الدُولِ أن تُرسمَ أسماءُهُم أو علاماتُ تَخَصُّ بِهِم في طرازِ أثوابِهِم المعلقةِ لباسِهِم ، من الحريرِ أو الديباجِ أو الإبريسمِ ، تعتبرُ كتابةُ خَطِّها في نسجِ الثوبِ أَلْهاماً وأسداءً بخِطِّ الذهبِ ، أو ما يُخالفُ لَوْنَ الثوبِ من الخيوطِ الملونةِ من غيرِ الذهبِ ، على ما يُحْكِمُهُ الصَّنَاعُ في تقديرِ ذلك

ووضعه في صناعة نسجهم ؛ فتصير الثياب الملوكة معلمةً بذلك الطراز قصد التنويه بلباسها من السلطان فمن دونه ، أو التنويه بمن يختصه السلطان بلبوسه إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته .

وكان ملوك العجم من قبل الإسلام يجعلون ذلك الطراز بصورة الملوك وأشكالهم ، أو أشكال وصور معينة لذلك . ثم اعتاض ملوك الإسلام عن ذلك بكتيب أسمائهم مع كلمات أخرى تجري مجرى الفال أو السجلات . وكان ذلك في الدولتين من أبهة الأمور وأفخم الأحوال . وكانت الدور المعدة لنسج أثوابهم في قصورهم تسمى دور الطراز لذلك . وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ، ينظر في أمور الصباغ والآلة والحلابة فيها ، وإجراء أرزاقهم وتسهيل آلاتهم ومشارفة أعمالهم . وكانوا يقلدون ذلك لخواص دولتهم وثقات مواليتهم . وكذلك كان الحال في دولة بني أمية بالأندلس ، والطوائف من بعدهم ، وفي دولة العبديين بمصر ، ومن كان على عهدهم من ملوك العجم بالشرق . ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه لضيق نطاقها في الاستيلاء ، وتعددت الدول ، تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليها من أكثر الدول بالجملة .

ولما جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المائة السادسة ، لم يأخذوا بذلك أول دولتهم ، لما كانوا عليه من منازع الديانة والسداجة التي لقنوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدي ،

وكانوا يتودعون عن لباس الحرير والذهب؛ فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم، واستدرك منها أعقابهم آخر الدولة طرّاً لم يكن بتلك النباهة. وأما لهذا العهد فأدركنا بالمغرب، في الدولة المرينية لعنفواينها وشموخها رسماً جليلاً لقنوه من دولة ابن الأحمر معاصريهم بالأندلس، وأتبع هو في ذلك ملوك الطوائف، فأق من بلنحة شاهدة بالأثر.

وأما دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيها من الطراز تحرير آخر على مقدار ملوكهم وعمران بلادهم إلا أن ذلك لا يصنع في دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم، وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صنّاعه من الحرير ومن الذهب الخالص، ويسمونه المزر كش - لفظة أعجمية - ويرسم اسم السلطان أو الأمير عليه ويعدّه الصنّاع لهم فيما يعدونه للدولة من طرف الصناعة اللائقة بها. والله مقدر الليل والنهار، والله خير الوارثين.

الفساطيط والسياح

اعلم أن من شارات الملك وترفيه اتخاذه الأخبية والفساطيط والفازات^(١) من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتان والقطن، فيباهى بها في الأسفار وتنوع منها الألوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار، وإنما يكون الأمر

(١) الفازة: مظلة بعمودين.

في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عاداتهم باتخاذها قبل الملك . وكان العرب لعهد الخلفاء الأولين من بني أمية إنما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياماً من الوبر والصوف . ولم تزل العرب لذلك العهد بادين إلا الأقل منهم . فكانت أسفارهم لغزواتهم ، وحروبهم بظعونهم وسائر جليلهم وأحيائهم من الأهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد . وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الجلل ، بعيدة ما بين المنازل ، متفرقة الأحياء ، يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى كشأن العرب . ولذلك كان عبد الملك يحتاج إلى ساقية^(١) تحشد الناس على أثره أن يقيموا إذا ظعن . ونقل أنه استعمل في ذلك الحجاج حين أشار به رَوْحُ بن زُبَاعٍ وقصَّتها في إحراق فساطيط رَوْحٍ وخيامه لأول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة . ومن هذه الولاية تُعرف رتبة الحجاج بين العرب ؛ فإنه لا يتولى إرادتهم على الظعن إلا من يأمن بوادى السفهاء من أحيائهم ، بماله من العصية الحائلة دون ذلك ، ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقةً بغيره فيها بعصبيته وصرامته .

فلما تفتت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبدخ وزلوا المدن والأمنصار وانتقلوا من سكنى الخيام إلى سكنى القصور ، ومن ظهر الحف إلى ظهر الحافر ، اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها بيوتاً مختلفة الأشكال مقدرة الأمثال

(١) جمع سائق ، من فعل ساق بمعنى قاد . والساقية أيضاً مؤخرة الجيش .

من القُوراء^(١) والمستطيلة والمربعة ويحتفلون فيها بأبلغ مذاهب الاحتفال والزينة ، ويديرُ الأميرُ القائدُ للمساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجاً من الكتّان يسمّى في المغرب بلسان البربر، الذي هو لسانُ أهله « أفراك » بالكاف التي بين الكاف والقاف ، ويختصُّ به السلطانُ بذلك القطر لا يكونُ لغيره .

وأما في المشرق فيتخذُه كلُّ أميرٍ وإن كان دونَ السلطان . ثم جنحت الدعة بالنساء والولدان الى المقام بقصورهم ومنازلهم ، فحفَّ لذلك ظهرُهم وتقاربت الساحُ بين منازلِ العسكر ، واجتمع الجيشُ والسلطانُ في مُعسكرٍ واحدٍ ، يحصرُه البصرُ في بسطة زهواً أنيقاً لاختلاف ألوانه . واستمرَّ الحالُ على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترَفها .

وكذا كانت دولةُ الموحدينَ وزناتة التي أظَلَّتْنا . كان سفرُهم أوَّلَ أمرهم في بيوت سُكنائهم قبلُ الملوك من الخيام والقياطن^(٢) ، حتى إذا أخذت الدولة في مذاهب الترفِ وسكنى القصورِ عادوا الى سكنى الأخبية والفساطيط ، وبلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترفِ بمكانٍ . إلا أنَّ العساكرَ به نصيرُ عُرْضة للبيات لاجتماعهم في مكانٍ واحدٍ تشملهم فيه الصيحةُ ولحفَّتْهم من الأهل والوليد الذين تكون الاستماتة دونهم ، فيحتاجُ في ذلك الى تحفُّظٍ آخرَ . والله القويُّ العزيزُ .

(١) القوراء : الواسعة .

(٢) جمع قيطون : المخدع .

المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة

وهما من الأمور الخلافية ومن شارات الملك الإسلامي ، ولم يعرف في غير دول الإسلام .

فأما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجا على المحراب ، فيحوزة وما يليه . فأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعنه الخارجي ، والقصة معروفة ؛ وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه الياني . ثم اتخذها الخلفاء من بعدها وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة . وهي إنما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستيفحال شأن أحوال الأبهة كلها . وما زال الشأن ذلك في الدول الإسلامية كلها .

وعند افتراق الدولة العباسية وتعدد الدول بالشرق ، وكذا بالأندلس عند انقراض الدولة الأموية وتعدد ملوك الطوائف . وأما المغرب فكان بنو الأغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ، ثم ولأئهم على المغرب من ضنهاجة ، بنو باديس بفاس ، وبنو حماد بالقلعة . ثم ملك الموحدون سائر المغرب والأندلس ، ومحووا ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم . ولما استفحلت الدولة وأخذت بحظها من الترف ، وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فاتخذ هذه المقصورة ، وبقيت من بعده سنة للملوك المغرب والأندلس . وهكذا كان الشأن في سائر الدول . سنة الله في عباده .

وأما الدعاء على المنابر في الخطبة فكان الشأن أولاً عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم . فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة بالصلاة على النبي ﷺ والرضا عن أصحابه . وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاص لما بنى جامعته بمصر . وأول من دعا للخليفة على المنبر ابن عباس ، دعا لعلي رضي الله عنهما في خطبته وهو بالبصرة عامل له عليها ، فقال : اللهم انصر علياً على الحق . واتصل العمل على ذلك فيما بعد . وبعد أخذ عمرو بن العاص المنبر بلغ عمر بن الخطاب ذلك ، فكتب إليه عمر بن الخطاب : «أما بعد ، فقد بلغني أنك اتخذت منبراً ترقى به على رقاب المسلمين ، أو ما يكفيك أن تكون قائماً والمسلمون تحت عقيك ؟ افعزمت عليك إلا ما كسرتة» . فلما حدثت الأئمة ، وحدث في الخلفاء المانع من الخطبة والصلاة استنابوا فيهما . فكان الخطيب يشيد بذكر الخليفة على المنبر تنويهاً باسمه ودعاء له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ، ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة ، ولما ثبت عن السلف في قولهم : من كانت له دعوة صالحة فليضعها في السلطان . وكان الخليفة يفرّد بذلك . فلما جاء الحبر والاستبداد صار المتغلبون على الدول كثيراً ما يُشاركون الخليفة في ذلك ؛ ويشادُ باسمهم عقب اسمِهِ . وذهب ذلك بذهاب تلك الدول ، وصار الأمر إلى اختصاص السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه ، وحظر أن يشاركه فيه أحد ويسمو إليه .

وكثيراً ما يُغفل الماهدون من أهل الدول هذا الرسم عندما

تكون الدولة في أسلوب الغضاضة ومناحي البداوة في التغافل والحشونة ، ويقنعون بالدعاء على الإيهام والإجمال لمن ولي أمور المسلمين . ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا المنحى عباسية ، يعنون بذلك أن الدعاء على الإجمال إنما يتناول العباسي تقليداً في ذلك لما سلف من الأمر ، ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتصريح باسمه .

يُحكى أن يغمراسن بن زيغان ، ماهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الأمير أبو زكريا يحيى بن أبي حفص على تلمسان ، ثم بدا له في إعادة الأمر إليه على شروط شرطاها ، كان فيها ذكر اسمه على منابر عمله ، فقال يغمراسن : تلك أعوادهم يذكرون عليها من شاؤوا . وكذلك يعقوب بن عبد الحق ماهد دولة بني مرين ، حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص وثالث ملوكهم ، وتخلّف بعض أيامه عن شهود الجمعة ، فقبل له لم يحضر هذا الرسول كراهية الخلو الخطبة من ذكر سلطانيه ، فأذن في الدعاء له ، وكان ذلك سبباً لأخذهم بدعوته . وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمكّنها في الغضاضة والبداوة . فإذا انتبّهت عيون سياستهم ، ونظروا في أعطاف ملكهم واستتموا شيات^(١) الحضارة ومعاني البذخ والأبهة ؛ انتحلوا جميع هذه السمات وتفننوا فيها ، وتجاروا إلى غايتها ، وأنفوا من المشرككة فيها ، وجزعوا من

(١) ألوان ، علامات .

افتقادها وُخْلُوَ دولتهم من آثارها . والعالمُ بستانٌ . واللهُ على كل شيءٍ رقيبٌ .

الفصل السابع والثلاثون

في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها

اعلم أنَّ الحروبَ وأنواعَ المقاتلةِ لم تزل واقعةً في الخليفةِ منذُ برأها اللهُ . وأصلُها إرادةُ انتقامِ بعضِ البشرِ من بعضٍ ، ويتعصَّبُ لكلٍّ منها أهلٌ عصبيتهُ . فاذا تذاثروا لذلك وتوافقتِ الطائفتان ، إحداهما تطلبُ الانتقامَ والأخرى تُدافعُ ، كانت الحربُ وهو أمرٌ طبيعيٌّ في البشرِ لا تخلو عنه أمةٌ ولا جيلٌ .

وسببُ هذا الانتقامِ في الأكثرِ : إما غيرةٌ ومناقسةٌ ؛ وإما عدوانٌ ؛ وإما غضبٌ لله ولدينه ؛ وإما غضبٌ للملكِ وسمي في تمهيدِهِ . فالأولُ أكثرُ ما يجري بينَ القبائلِ المتجاوزةِ والعشائرِ المتناظرةِ . والثاني ، وهو العدوانُ ، أكثرُ ما يكونُ من الأممِ الوحشيةِ الساكنينَ بالقفَرِ كالعربِ والتركِ والتركانِ والأكرادِ وأشباهِهِمْ ؛ لأنَّهُمْ جعلوا أرزاقَهُمْ في رماحِهِمْ ، ومعاشَهُمْ فيما بأيدي غيرِهِمْ ، ومن دافعَهُمْ عن متاعِهِ آذَنُوهُ بالحربِ ، ولا بُغْيَةَ لَهُمْ فيما وراءَ ذلك من رُتَبَةٍ ولا مُلْكٍ ، وإنما هَمُّهُمْ وَغَضَبُ أَعْيُنِهِمْ غَلَبُ الناسِ على ما في أيديهِمْ . والثالثُ هو المسمى في الشريعةِ بالجهادِ . والرابعُ هو حروبُ الدُولِ مع الخارجينَ عليها والمائنينَ لطاعتها .

فهذه أربعة أصنافٍ من الحروبِ : الصنفانِ الأولانِ منها حروبُ بُغْيٍ وفتنةٍ ؛ والصنفانِ الآخرانِ حروبُ جهادٍ وعدلٍ ، وصفةُ الحروبِ الواقعةِ بينَ الخليقةِ منذُ أوَّلِ وجودِهِم على نوعينِ : نوعٌ بالزحفِ صفوفافاً ، ونوعٌ بالكرِّ والفرِّ . أما الذي بالزحفِ فهو قتالُ العجمِ كلِّهم على تعاقبٍ أجيالهم . وأما الذي بالكرِّ والفرِّ فهو قتالُ العربِ والبربرِ من أهلِ المغربِ .

وقتالُ الزحفِ أوثقُ وأشدُّ من قتالِ الكرِّ والفرِّ . وذلك لأنَّ قتالَ الزحفِ تُرتَّبُ فيه الصفوفُ ، وتُسَوَّى كما تُسَوَّى القِداحُ أو صفوفُ الصلاةِ ، ويمشونَ بصفوفِهِم إلى العدوِّ قُدُماً . فلذلك تكونُ أثبتَ عندَ المصارعِ وأصدقَ في القتالِ وأرهبَ للعدوِّ ؛ لأنَّهُ كالحائطِ الممتدِّ والقصرِ المشيدِ ، لا يُطمَعُ في إزالتهِ .

وفي التنزيلِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَهُ مَرَصُوصُونَ ﴾ أي يشدُّ بعضهم بعضاً بالثباتِ . وفي الحديثِ الكريمِ : « المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يسدُّ بعضُهُ بعضاً » . ومن هنا يظهرُ لك حكمةُ إيجابِ الثباتِ وتحريمِ التوليِّ في الزحفِ ؛ فإنَّ المقصودَ من الصفِّ في القتالِ حفظُ النظامِ كما قلناه ، فمن ولى العدوَّ ظهرَهُ فقد أخلَّ بالمصافِ ، وباءَ بأثمِ الهزيمةِ إن وقعت وصار كأنَّهُ جرَّها على المسلمينَ ، وأمکنَ منهم عدوُّهم ؛ فعظم الذنبُ لعمومِ المفسدةِ ، وتعدِّيها إلى الدينِ بخرقِ سياجِهِ ؛ فعُدَّ من الكبائرِ . ويظهرُ من هذه الأدلَّةِ أنَّ قتالَ الزحفِ أشدُّ عندَ الشارعِ .

وَأَمَّا قِتَالُ الْكَرِّ وَالْفَرِّ فَلَيْسَ فِيهِ مِنَ الشَّدَّةِ وَالْأَمْنِ مِنَ
الْهَزِيمَةِ مَا فِي قِتَالِ الزَّحْفِ . إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ يَتَّخِذُونَ وِرَاءَهُمْ فِي
الْقِتَالِ مُصَافًا ثَابِتًا يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ فِي الْكَرِّ وَالْفَرِّ ، وَيَقُومُ لَهُمْ مَقَامُ
قِتَالِ الزَّحْفِ كَمَا نَذَرَهُ بَعْدُ .

ثُمَّ إِنَّ الدُّوَلِ الْقَدِيمَةَ الْكَثِيرَةَ الْجُنُودِ الْمُتَّسِعَةِ الْمَلِكِ كَانُوا
يُقَسِّمُونَ الْجِيُوشَ وَالْعَسَاكِرَ أَقْسَامًا ، يُسَمُّونَهَا كَرَادِيسَ ، وَيُسَوِّوْنَ
فِي كُلِّ كَرْدُوسٍ صُفُوفَهُ . وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَثُرَتْ جُنُودُهُمْ
الْكَثْرَةَ الْبَالِغَةَ ، وَحَشِدُوا مِنْ قَاصِيَةِ النُّوَاحِي ، اسْتَدْعَى ذَلِكَ أَنْ
يَجْهَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِذَا اخْتَلَطُوا فِي مَجَالِ الْحَرْبِ وَاعْتَوَرُوا مَعَ
عَدُوِّهِمُ الطَّغْنَ وَالضَّرْبَ ، فَيُخْشَى مِنْ تَدَاوُعِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ لِأَجْلِ
النِّكَرَاءِ^(١) وَجَهْلِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، فَلِذَلِكَ كَانُوا يُقَسِّمُونَ الْعَسَاكِرَ
جُمُوعًا وَيَضُمُّونَ الْمُتَعَارِفِينَ بَعْضَهُمْ لِبَعْضٍ ، وَيُرَتِّبُونَهَا قَرِيبًا مِنْ
الترتيب الطبيعيِّ فِي أَلْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ . وَرِئِيسُ الْعَسَاكِرِ كُلِّهَا مِنْ
سُلْطَانٍ أَوْ قَائِدٍ فِي الْقَلْبِ . وَيُسَمُّونَ هَذَا التَّرْتِيبَ التَّعْيِينَ ، وَهُوَ
مَذْكُورٌ فِي أَخْبَارِ فَارَسَ وَالرُّومِ وَالْدَوْلَتَيْنِ صَدَرَ الْإِسْلَامِ .
فَيَجْعَلُونَ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ عَسْكَرًا مُنْفَرِدًا بِصُفُوفِهِ مُمَيَّزًا بِقَائِدِهِ
وَرَايَتِهِ وَشِعَارِهِ ، وَيُسَمُّونَهُ الْمُقَدِّمَةَ ؛ ثُمَّ عَسْكَرًا آخَرَ مِنْ نَاحِيَةِ
الْيَمِينِ عَنْ مَوْقِفِ الْمَلِكِ وَعَلَى سَمْتِهِ يُسَمُّونَهُ الْمِيحَنَةَ ؛ ثُمَّ عَسْكَرًا
آخَرَ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّمَالِ كَذَلِكَ يُسَمُّونَهُ الْمَيْسِرَةَ ؛ ثُمَّ عَسْكَرًا آخَرَ

(١) النِّكَرَاءُ بفتح النون: الدهاء والفطنة. ويضم النون: الشدة؛ وسياقها هنا يدل على أنها
بمعنى الجهل.

من وراء العسكر يسمونه الساقّة ؛ ويقفُ المَلِكُ وأصحابُه في الوَسَطِ بين هذه الأربعِ ، ويسمّونَ موقِفَهُ القلبَ . فإذا تمَّ لهم هذا الترتيبُ المُخَنَّمُ ، إمّا في مدًى واحدٍ للبصرِ أو على مسافةٍ بعيدةٍ ، أكثرُها اليومُ واليومانِ بين كلِّ عسكرينِ منها ، أو كيفما أعطاهُ حالُ العساكرِ في القِلَّةِ والكثرةِ ، فحينئذٍ يكونُ الزحفُ من بعد هذه التعبّةِ .

وانظرْ ذلك في أخبارِ الفتوحاتِ وأخبارِ الدولتينِ بالمشرقِ ، وكيفَ كانتِ العساكرُ لعهدِ عَبْدِ المَلِكِ تتخلّفُ عن رحيله لُبَعدِ المدى في التعبّةِ ، فاحتيجَ لمن يسوقُها من خلفه وعَيْنَ لذلك الحجاجِ ابنَ يوسفَ كما أشرنا إليه ، وكما هو معروفٌ في أخبارِهِ . وكان في الدولةِ الأُمويّةِ بالأندلسِ أيضاً كثيرٌ منه . وهو مجهولٌ فيما لدينا ، لأنّا إمّا أدركنا دُوَلًا قليلةً العساكرِ ، لا تنتهي في مجالِ الحربِ إلى التناكُرِ ، بل أكثرُ الجيوشِ من الطائفتينِ معاً يجمَعُهُمُ لدينا جِلَّةٌ^(١) أو مدينةٌ ، ويعرفُ كلُّ واحدٍ منهم قِرْنَهُ ويُناديه في حومةِ الحربِ باسمِهِ ولقبِهِ ، فاستُغْنِيَ عن تلك التعبّةِ .

ضرب المصافِ وراء العسكرِ

ومن مذاهبِ أهلِ الكرِّ والفرِّ في الحروبِ ضربُ المصافِ وراءِ عسكرِهِم من الجماداتِ والحِواناتِ العُجمِ ، فيَتَخَذُونَهَا ملجأً

(١) الحلة بكسر الحاء: المحلة أو المجلس. وبضمها: الثوب الجديد.

لِلخِيَالَةِ فِي كَرِّهِمْ وَفَرِّهِمْ ، يَطْلُبُونَ بِهِ ثَبَاتَ الْمُقَاتِلَةِ لِيَكُونَ أَدْوَمَ
لِلحَرْبِ وَأَقْرَبَ إِلَى الْغَلَبِ . وَقَدْ يَفْعَلُهُ أَهْلُ الزَّحْفِ أَيْضاً لِيَزِيدَهُمْ
ثَبَاتاً وَشِدَّةً .

فَقَدْ كَانَ الْفُرسُ وَهُمْ أَهْلُ الزَّحْفِ ، يَتَّخِذُونَ الْفِيلَةَ فِي الْحُرُوبِ
وَيَحْمِلُونَ عَلَيْهَا أَزْجَاجاً مِنَ الْخَشَبِ أَمْثَالِ الصُّرُوحِ ، مَشْحُونَةً بِالْمُقَاتِلَةِ
وَالسِّلَاحِ وَالرَّايَاتِ ، وَيَصُفُّونَهَا وَرَاءَهُمْ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ كَأَنَّهَا
حُصُونٌ ، فَتَقْوَى بِذَلِكَ نَفُوسُهُمْ وَيَزْدَادُ وَثُوقُهُمْ .

وَانْظُرْ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْقَادِيسِيَّةِ ، وَأَنْ فَارِسَ فِي الْيَوْمِ
الثَّالِثِ اشْتَدُّوا بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ حَتَّى اشْتَدَّتْ رَجَالَاتُ مِنَ الْعَرَبِ
فَخَالَطُوهُمْ وَتَبَعَجَوْهَا بِالسُّيُوفِ عَلَى خِرَاطِيمِهَا ، فَنفَرَتْ وَنَكَصَتْ
عَلَى أَعْقَابِهَا إِلَى مَرَابِطِهَا بِالْمَدَائِنِ ، فَجَفَا^(١) مُعَسَّكُ فَارِسَ لَذَلِكَ
وَانْهَزَمُوا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ .

وَأَمَّا الرُّومُ وَمُلُوكُ الْقُوطِ بِالْأَنْدَلُسِ وَأَكْثَرُ الْعَجَمِ ، فَكَانُوا
يَتَّخِذُونَ لَذَلِكَ الْأَسِرَّةَ يَنْصِبُونَ لِلْمَلِكِ سَرِيرَهُ فِي حَوْمَةِ الْحَرْبِ ،
وَيَحْفُفُ بِهِ مِنْ خَدَمِهِ وَحَاشِيَتِهِ وَجُنُودِهِ مِنْ هُوَ زَعِيمٌ بِالْإِسْتِيَاةِ
دُونَهُ ، وَتَرْفَعُ الرَّايَاتُ فِي أَزْكَانِ السَّرِيرِ ، وَيُخْدِقُ بِهِ سِيَاجٌ آخَرُ مِنْ
الرُّمَامَةِ وَالرَّجَالَةِ ، فَيَعْظُمُ هَيْكَلُ السَّرِيرِ وَيَصِيرُ فِتَّةً لِلْمُقَاتِلَةِ وَمَلْجَأً
لِلْكَرِّ وَالْفَرِّ . وَجَعَلَ ذَلِكَ الْفُرسُ أَيَّامَ الْقَادِيسِيَّةِ ، وَكَانَ رُسْتُمُ جَالِساً
عَلَى سَرِيرٍ نَصَبَهُ لَجُلُوسِهِ ، حَتَّى اخْتَلَفَتْ صَفُوفُ فَارِسَ وَخَالَطَهُ
الْعَرَبُ فِي سَرِيرِهِ ذَلِكَ ، فَتَحَوَّلَ عَنْهُ إِلَى الْفُرَاتِ وَقُتِلَ .

(١) لَمْ يَلْزَمْ مَكَانَهُ .

وأما أهل الكُرِّ والفرِّ من العربِ وأكثرِ الأُممِ البدويَّةِ الرَّحالةِ فيصُفُّونَ لذلكِ إيلَهُمُ والظَهَرَ الذي يَحِلُّ ظَعَانُهُمْ فيكونُ فِتَّةً لَهُمْ ، وَيَسْمُونَهَا المَجْبُودَةَ^(١) ، وليس أُمَّةٌ من الأُممِ إلا وهي تفعلُ ذلكَ في حروبِها ، وتَراهُ أوثقَ في الجولَةِ ، وآمَنَ من الغِرَةِ والهزيمةِ . وهو أمرٌ مُشَاهَدٌ .

وقد أغفلتهُ الدولُ لعمدِنَا بالجملةِ ، واعتاضوا عنه بالظَهْرِ الحامِلِ لِلْأَثْقَالِ والفساطيطِ يجعلونها ساقَةً من خَلْفِهِمْ ؛ ولا تُغني غَناءَ الفِيلَةِ وَالْإِبِلِ . فصارتِ العساكرُ بذلكِ عُرضَةً لِلْهَازِمِ ، ومُسْتَشْعِرَةً لِلْفَرَارِ في المواقِفِ .

وكان الحَرْبُ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ كُلَّهُ زَحْفًا . وكان العربُ إِنَّمَا يعرفونَ الكُرَّ والفرَّ . لكن حملَهُم على ذلكِ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ أمرانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ عَدُوَّهُمْ كانوا يقاتِلونَ زَحْفًا فيُضْطَرُّونَ إلى مقاتلتِهِمْ بِمِثْلِ قِتالِهِمْ ؛ الثاني : أَنَّهُمْ كانوا مستميتينَ في جَهادِهِمْ لِمَا رَغِبُوا فيه من الصبرِ ، ولِمَا رَسَخَ فيهِم من الْإِيمَانِ ؛ والزحفُ إلى الاستماتَةِ أَقْرَبُ . وَأَوَّلُ من أَبْطَلَ الصَّفَّ في الحروبِ وصارَ إلى التَّعَبُّةِ كِرَادِيسَ مروانُ بنُ الحَكَمِ في قتالِ الضَّحَّاكِ الخَارِجِيِّ وَالْحَبِيرِيِّ بَعْدَهُ . قال الطَّبْرِيُّ : لما ذكر قتالَ الْحَبِيرِيِّ : « فَوَلَّى الْخَوَارِجُ عَلَيْهِمُ شَيْبَانَ بنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْيَشْكُرِيِّ وَيَلْقَبُ أَبَا الذَّلْفَاءِ ، وقاتلَهُم مروانُ بَعْدَ ذَلِكَ بِالْكَرَادِيسِ ، وَأَبْطَلَ الصَّفَّ من يَوْمِئِذٍ » انتهى . فتنوَسِي قتالَ الزحفِ بِإِبْطَالِ الصَّفِّ ، ثم تنوَسِي الصَّفَّ وراءَ الْمُقاتِلَةِ بِمَا داخلَ

(١) بمعنى المَجْدُوبَةِ ، سميت الإِبِلُ كذلك لأنها مَجْدُوبَةٌ إلى الجِلْشِ ومشدودة به .

الدول من الترف. وذلك أنها حينما كانت بدويّة وسكنائهم الخيام كانوا يستكثرون من الإبل وسكنى النساء والولدان معهم في الأحياء. فلما حصلوا على ترف الملك وألفوا سكنى القصور والحواسر وتركوا شأن البادية والقرى نسوا لذلك عهد الإبل والطعان، وصعب عليهم اتخاذها، فخلّفوا النساء في الأسفار وحملهم الملك والترف على اتخاذ الفساطيط والأخيعة، فاقترضوا على الظهير الحامل للأثقال والأبنية^(١) وكان ذلك صفتهم في الحرب. ولا يُغني كل الغناء لأنه لا يدعو إلى الاستياعة كما يدعو إليها الأهل والأهل. فيخف الصبر من أجل ذلك وتصرفهم الهيئات^(٢) وتُحرم صفوفهم.

فصل : ولما ذكرناه من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكيده في قتال الكرّ والفرّ، صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الأفرنج في جنديهم، واختصوا بذلك لأن قتال أهل وطنهم كله بالكرّ والفرّ. والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون رداً للمقاتلة أمامه، فلا بد وأن يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف، وإلا أجفلوا على طريقة أهل الكرّ والفرّ، فانهزم السلطان والعساكر بإجفالههم؛ فاحتاج الملوك بالمغرب أن يتخذوا جنداً من هذه الأمة المتعودّة الثبات في

(١) علق الهوريني على هذه الكلمة بقوله: «قوله للأثقال والأبنية مراده بالأبنية الخيام كما يدلّ له قوله في فصل الخندق الآتي قريباً إذا نزلوا وضربوا أبنيتهم اهـ».

(٢) الهيعة: صوت العدو المخيف.

الزحفِ وهم الإفرنجُ ، ويُرتَّبونَ مصافَّهُمُ المُخَدِّقَ بهم منها ، هذا على ما فيه من الاستعانةِ بأهلِ الكُفْرِ . وإنَّما استخفُّوا ذلك للضَّروِدةِ التي أرينا كما من تخوُّفِ الإِجْفالِ على مصافِّ السُّلطانِ والافرنجِ لا يعرفونَ غيرَ الثباتِ في ذلك ، لأنَّ عادَّتَهُمُ في القتالِ الزحفُ ، فكانوا أقومَ بذلك من غيرهم . مع أنَّ الملوكَ في المغربِ إنَّما يفعلونَ ذلك عندَ الحربِ مع أُمَمِ العَرَبِ والبربرِ ، وقتالِهِم على الطاعةِ ؛ وأما في الجهادِ فلا يستعينونَ بهم حذراً من ممالأتِهِم على المسلمينَ . هذا هو الواقعُ بالمغربِ لهذا العهدِ ؛ وقد أبدينا سببَهُ . والله بكلِّ شيءٍ عليمٌ .

فصل : وبلغنا أنَّ أُمَّمَ التُّركِ لهذا العهدِ قتالُهُمُ مناضلةً بالسِّهامِ ، وأنَّ تعبئةَ الحربِ عندهمُ بالمُصافِّ ، وأنهم يُقسِّمونَ بثلاثةِ صفوفٍ ، يضربونَ صفّاً وراءَ صفٍّ ، ويترجلونَ عن خيولِهِم ، ويُفرِّغونَ سِهامَهُمُ بين أيديهِم ، ثم يتناضلونَ جُلوساً ، وكلُّ صفٍّ ردةٌ للذي أمامَهُ أن يكسبَهُمُ العدوُّ ، إلى أن يتهيأَ النصرُ لإحدى الطائفتينِ على الأُخرى . وهي تعبئةٌ محكمةٌ غريبةٌ .

فصل : وكان من مذاهبِ الأوَّلِ في حُرُوبِهِمُ حفرُ الخنادقِ على مُعسكرِهِمُ عندما يتقاربونَ للزَّحفِ ، حذراً من معرفةِ البياتِ وألْهُجُومِ على المُعسكرِ بالليلِ ، لما في طُلُعَتِهِ ووحشَتِهِ من مُضاعفةِ الخوفِ ، فيلوذُ الجيشُ بالفرارِ وتجدُّ النفوسُ في الظُّلْمَةِ سِتْراً من عارِهِ ، فإذا تساوَوْا في ذلك أُرِجِفَ المُعسكرُ ووقعتِ الهزيمةُ .

فكانوا لذلك يحتفرون الخنادق على مُسكِرهم إذا نزلوا وضربوا
أبييتهم، ويُديرون الحفائر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم، حرصاً
أن يُخاطبهم العدو بالبيات، فيتخاذلوا. وكانت للدول في أمثال
هذا قوةٌ وعليه اقتدارٌ باحتشاد الرجال، وجمع الأيدي عليه في
كل منزلٍ من منازلهم، بما كانوا عليه من وفور العُمران وضخامة
الملك. فلما خرب العُمران وتبعه ضعفُ الدول وقلةُ الجنود وعدمُ
الفعلة نُسيَ هذا الشأنُ جملةً كأنه لم يكن. والله خيرُ القادرين.

وصية علي رضي الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم صفين

وانظر وصية علي رضي الله عنه وتحريضه لأصحابه يوم صفين
تجد كثيراً من علم الحرب ولم يكن أحدٌ أبصر بها منه .
قال في كلام له : « فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص
وقدّموا الدارع وأخروا الحائسر . وعضّوا على الأضراس ؛ فانه أنبى
للسيوف عن ألهام . والتوا على أطراف الرماح ؛ فانه أصون
للأسنة . وعضّوا الأنصار ؛ فإنه أربط للجاش وأسكن للقلوب .
واخفّوا الأصوات ، فإنه أطرّد للفشل وأولى بالوقار . وأقيموا
راياتكم ، فلا تُمِلوها ولا تجعلوها إلا بأيدي شجعانكم . واستعينوا
بالصدق والصبر ؛ فانه بقدر الصبر ينزل النصر . »

وقال لأشتر يومئذٍ يحرض الأزد : « عضّوا على النواجذ من
الأضراس ، واستقبلوا القوم بهائمكم ، وشّدوا شدّة قوم مورتين

يُثَارُونَ بِآبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ حِنَاقًا عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَقَدْ وَطَّنُوا عَلَى
الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ لئَلَّا يُسَبِّقُوا بَوْتَ ، وَلَا يُلَحِّقَهُمْ فِي الدُّنْيَا عَارٌ .

وقد أشارَ الى كثيرٍ من ذلك أَبُو بَكْرٍ الصِّيرَفِيُّ شَاعِرُ لُتُونَةَ
وَأَهْلِ الْأَنْدَلُسِ فِي كَلِمَةٍ يَدْحُ بِهَا تَاشِفِينَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ يَوْسَفَ ،
وَيَصِفُ ثَبَاتَهُ فِي حَرْبٍ شَهِدَهَا ، وَيَذَكِّرُهُ بِأُمُورِ الْحَرْبِ فِي وَصَايَا
وَتَحذِيرَاتٍ تَنْبِهَكَ عَلَى مَعْرِفَةِ كَثِيرٍ مِنْ سِيَاسَةِ الْحَرْبِ يَقُولُ فِيهَا :

يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الَّذِي يَتَمَنَّى	مِنْ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْهَمَامُ الْأَزْوَغُ
وَمَنْ الَّذِي غَدَرَ الْعَدُوُّ بِهِ دُجَى	فَانْقَضَ كُلُّ وَهُوَ لَا يَتَزَعَّزَعُ
تَمْضِي الْفَوَارِسُ وَالطَّعَانُ يَصُدُّهَا	عَنْهُ وَيَدْمُرُهَا الْوَفَاءُ فَتَرْجِعُ
وَاللَّيْلُ مِنْ وَضَحِ التَّرَائِكِ إِنَّهُ	صُبْحٌ عَلَى هَامِ الْجِيُوشِ يُلَمِّعُ
أَنْتَى فَرَعْتُمْ يَا بَنِي صَنْهَاجَةٍ	وَالْيَكُمُ فِي الرُّوْعِ كَانَ الْمَفْرَعُ
إِنْ سَانُ عَيْنٍ لَمْ يَصِبْهُ مِنْكُمْ	حَضَنُ وَقَلْبُ أَسْلَمَتْهُ الْأَضْلَعُ
وَصَدَدْتُمْ عَنْ تَاشِفِينَ وَإِنَّهُ	لِعَقَابِهِ لَوْ شَاءَ فِيكُمْ مَوْضِعُ
مَا أَنْتُمْ إِلَّا أَسْوَدُ خَفِيَّةٍ	كُلُّ لَكَلٍ كَرِيهَةٍ مُسْتَطْلَعُ
يَا تَاشِفِينَ أَقِمْ لَجِيْشَكَ عُذْرَهُ	بِالْئِيلِ وَالْعُدْرَةِ الَّذِي لَا يُدْفَعُ

(ومنها في سياسة الحرب) :

أَهْدِيكَ مِنْ أَدَبِ السِّيَاسَةِ مَا بِهِ	كَانَتْ مُلُوكُ الْفُرْسِ قَبْلَكَ تُوَلِّعُ
لَا إِنِّي أَدْرِي بِهَا لَكِنَّهَا	ذِكْرِي تُحْضُ الْمُؤْمِنِينَ وَتَنْفَعُ
وَالْبَسَ مِنْ أَلْحَقِ الْمُضَاعَفَةِ الَّتِي	وَمَى بِهَا صِنْعُ الصَّنَائِعِ تُبْعُ

وَالْهِنْدُوَانِي الرَّقِيقَ فَإِنَّهُ
وَأَزْكَبُ مِنَ الْخَيْلِ السَّوَابِقِ عُدَّةً
خَنْدِيقَ عَلَيْكَ إِذَا ضَرَبْتَ بِحُلَّةٍ
وَالْوَادِ لَا تَعْبُزُهُ وَانْزِلْ عِنْدَهُ
وَاجْعَلْ مُنَاجَزَةَ الْجِيُوشِ عَشِيَّةً
وَإِذَا تَضَايَقَتِ الْجِيُوشُ بِمَعْرَكٍ
وَاصْدِمُهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْثُرُ
وَاجْعَلْ مِنَ الطَّلَاعِ أَهْلَ شَهَامَةٍ
لَا تَسْمَعِ الْكَذَّابَ جَاءَكَ مُرْجَفًا
لَا رَأْيَ لِكَذَّابٍ فِيمَا يَصْنَعُ
بَيْنَ الْعَدُوِّ وَبَيْنَ جَيْشِكَ يَقْطَعُ
وَوَرَاءَكَ الصَّدَقُ الَّذِي هُوَ أَمْنٌ
ضَنْكَ فِاطِرَافُ الرِّمَاحِ تُوسِّعُ
شَيْئًا فَاظْهَارُ النُّكُولِ يُضْمَعُ
لِلصِّدْقِ فِيهِمْ شَيْئَةٌ لَا تَخْدَعُ
سَيَّانَ تَتْبَعُ ظَافِرًا أَوْ تَتْبَعُ
أَمْضَى عَلَى حَدِّ الدِّلَاصِ وَأَقْطَعُ
يَحْصِنُ حَصِينًا لَيْسَ فِيهِ مَذْفَعُ
وَوَرَاءَكَ الصَّدَقُ الَّذِي هُوَ أَمْنٌ
ضَنْكَ فِاطِرَافُ الرِّمَاحِ تُوسِّعُ
شَيْئًا فَاظْهَارُ النُّكُولِ يُضْمَعُ
لِلصِّدْقِ فِيهِمْ شَيْئَةٌ لَا تَخْدَعُ
لَا تَسْمَعِ الْكَذَّابَ جَاءَكَ مُرْجَفًا
لَا رَأْيَ لِكَذَّابٍ فِيمَا يَصْنَعُ

قوله : « وَاصْدِمُهُ أَوَّلَ وَهْلَةٍ لَا تَكْثُرُ » البيتُ مُخَالِفٌ لِمَا عَلَيْهِ النَّاسُ فِي أَمْرِ الْحَرْبِ . فَقَدْ قَالَ عُمَرُ لِأَيِّ عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّمَقِيِّ لَمَّا وَلَّاهُ حَرْبَ فَارِسَ وَالْعِرَاقِ فَقَالَ لَهُ : « اسْمِعْ وَأَطِعْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَشْرِكْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَلَا تُجَيِّنْ مُسْرِعًا حَتَّى تَتَيَّنَ ، فَإِنَّهَا الْحَرْبُ ! وَلَا يَصْلُحُ لَهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِثُ^(١) » الَّذِي يَعْرِفُ الْفُرْصَةَ وَالْكَفَّ . وَقَالَ لَهُ فِي أُخْرَى : « إِنَّهُ لَنْ يَنْفَعَنِي أَنْ أُؤَمِّرَ سَلِيطًا إِلَّا سَرَعْتُهُ فِي الْحَرْبِ . وَفِي التَّسْرُعِ فِي الْحَرْبِ إِلَّا عَنِ بَيَانِ ضِيَاعٍ . وَاللَّهُ لَوْ لَا ذَلِكَ لَأَمَرْتُهُ . لَكِنَّ الْحَرْبَ لَا يَصْلِحُهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِثُ » .

هَذَا كَلَامُ عُمَرَ ؛ وَهُوَ شَاهِدٌ بِأَنَّ التَّشَاوَلَ فِي الْحَرْبِ أَوَّلَى مِنْ

(١) رَزِين لَا يَعْجَلُ .

الْخُفُوفِ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَالُ تِلْكَ الْحَرْبِ . وَذَلِكَ عَكْسُ مَا قَالَهُ
الصَّيْرَفِيُّ ؛ إِلَّا أَنْ يَرِيدَ أَنَّ الصَّدَمَ بَعْدَ الْبَيَانِ ^(١) فَلَهُ وَجْهٌ . وَاللَّهُ
تَعَالَى أَعْلَمُ .

وَلَا وَثُوقَ فِي الْحَرْبِ بِالظَّفَرِ وَإِنْ حَصَلَتْ أَسْبَابُهُ مِنَ الْعُدَّةِ
وَالْعَدِيدِ ؛ وَإِنَّمَا الظَّفَرُ فِيهَا وَالْقَلْبُ مِنْ قَبِيلِ الْبَخْتِ وَالْإِتِّفَاقِ .
وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ أَسْبَابَ الْقَلْبِ فِي الْأَكْثَرِ مَجْتَمَعَةٌ مِنْ أُمُورٍ ظَاهِرَةٍ
وَهِيَ الْجِيُوشُ وَوُفُودُهَا وَكَمَالُ الْأَسْلِحَةِ وَاسْتِجَادَتُهَا وَكَثْرَةُ الشُّجْعَانِ
وَتَرْتِيبُ الْمَصَافِ ، وَمِنْهُ صَدَقَ الْقِتَالُ وَمَا جَرَى بِجَرَى ذَلِكَ ،
وَمِنْ أُمُورٍ خَفِيَّةٍ وَهِيَ إِمَّا مِنْ خُدَعِ الْبَشَرِ وَحِيلِهِمْ فِي الْإِزْجَافِ
وَالْتَشَانِيعِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا التَّخْذِيلُ وَفِي التَّقَدُّمِ إِلَى الْأَمَاكِنِ الْمُرْتَفَعَةِ
لِيَكُونَ الْحَرْبُ مِنْ أَعْلَى فَيَتَوَهَّمُ الْمُنْخَفِضُ لَذَلِكَ ، وَفِي الْكُمُونِ
فِي الْغِيَاظِ وَمُطَمِّنِ الْأَرْضِ وَالتَّوَارِي بِالْكَدَى ^(٢) عَنْ الْعَدُوِّ حَتَّى
يَتَدَاوِلَهُمُ الْعَسْكَرُ دَفْعَةً ، وَقَدْ تَوَرَّطُوا ، فَيَتَلَقَّوْنَ إِلَى النِّجَاجِ ،
وَأَمْثَالِ ذَلِكَ . وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْأَسْبَابُ الْخَفِيَّةُ ، أُمُورًا
سَمَاوِيَّةً لَا قُدْرَةَ لِلْبَشَرِ عَلَى اكْتِسَابِهَا تُلْقَى فِي الْقُلُوبِ ، فَيَسْتَوِلِي
الرَّهْبُ عَلَيْهِمْ لِأَجْلِهَا فَتَخْتَلُّ مَرَكَزُهُمْ فَتَقَعُ الْهَزِيمَةُ . وَكَثُرَ مَا تَقَعُ
الْهَزَائِمُ عَنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ لِكَثْرَةِ مَا يُعْتَمَلُ لِكُلِّ وَاحِدٍ
مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فِيهَا حِرْصًا عَلَى الْقَلْبِ ، فَلَا بَدَّ مِنْ وَقُوعِ التَّأْثِيرِ
فِي ذَلِكَ لِأَحَدِيهِمَا ضَرُورَةً . وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ : « الْحَرْبُ خُدْعَةٌ » .

(١) هكذا وردت كلمة «بيان» في النسخ التي بين أيدينا ولا معنى لها هنا والظاهر أنها محرفة
عن كلمة «بيات» كما يقتضيه السياق هنا .

(٢) بمعنى الأرض الصلبة .

ومن أمثال العرب : « رُبَّ حيلةٍ أنفعُ من قبيلةٍ » . فقد
تبيّن أن وقوع الغلب في الحروب غالباً عن أسباب خفية غير
ظاهرة ، ووقوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى البخت
كما تقرّر في موضعه . فأعتبره وتفهم من وقوع الغلب عن الأمور
السماوية كما شرحناه ، معنى قوله ﷺ : « نصرت بالرعب مسيرة
شهر » ، وما وقع من غلبه للمشرّكين في حياته بالعدد القليل وغلب
المسلمين من بعده كذلك في الفتوحات . فإن الله سبحانه وتعالى
تكفل لنبيه بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولي على
قلوبهم ، فيهنّزموا ، معجزة لرسوله ﷺ ؛ فكان الرعب في
قلوبهم سبباً للهزائم في الفتوحات الإسلامية كلّها ؛ إلا أنه خفي
عن العيون .

وقد ذكر الطرطوشي : أن من أسباب الغلب في الحروب أن
تفضل عدّة الفرسان المشاهير من الشجعان في أحد الجانبين على
عدّتهم في الجانب الآخر ، مثل أن يكون أحد الجانبين فيه
عشرة أو عشرون من الشجعان المشاهير وفي الجانب الآخر ثمانية
أو ستة عشر ، فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب ؛ وأعاد
في ذلك وأبدى ؛ وهو راجع إلى الأسباب الظاهرة التي قدّمنا ؛
وليس بصحيح . وإثماً الصحيح المعتبر في الغلب حال العصبية أن
يكون في أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة لكلّهم ، وفي الجانب
الآخر عصابات متعدّدة ؛ لأنّ العصابات إذا كانت متعدّدة يقع
بينها من التخاذل ما يقع في الوحدان المتفرّقين الفاقدين للعصبية ؛

إذ تُنزَلُ كلُّ عصابةٍ منهم منزلةً الواحدِ ، ويكونُ الجانبُ الذي عصابته متعمّدةٌ لا يقاومُ الجانبَ الذي عصبته واحدةٌ لأجل ذلك فتفهمه . واعلم أنه أصبح في الاعتبارِ مما ذهبَ إليه الطُّرُوشِيُّ ولم يحمله على ذلك إلا نسيانُ شأنِ العصبيةِ في حِلِّهِ وبلَدِهِ ، وأنهم إنما يردُّونَ ذلك الدفاعَ والحمايةَ والمطالبةَ إلى الوحدانِ ، والجماعةِ الناشئةِ عنهم ، لا يعتبرونَ في ذلك عصبيةً ولا نسباً . وقد بينا ذلك أوّلَ الكتابِ مع أن هذا وأمثاله على تقديرِ صحِّهِ إنما هو من الأسبابِ الظاهرةِ مثل اتفاقِ الجيشِ العِدَّةِ وصدقِ القتالِ وكثرةِ الأسلحةِ وما أشبهها ؛ فكيف يُجعلُ ذلك كفيلاً بالغلبِ ؟ ونحنُ قد قرّرنا لك الآنَ أن شيئاً منها لا يُعارضُ الأسبابَ الخفيةَ من الحيلِ والخداعِ ولا الأُمُورَ السماويةَ من الرُّعبِ والخذلانِ الإلهيِّ . فافهمه وتفهم أحوالَ الكونِ . واللهُ مقدِّرُ الليلِ والنهارِ .

فصل : ويلحقُ بمعنى الغلبِ في الحروبِ وأن أسبابه خفيةٌ وغيرُ طبيعِيَّةٍ حالُ الشهرةِ والصيتِ . فقلَّ أن تصادِفَ موضعهما في أحدٍ من طبقاتِ الناسِ ، من الملوكِ والعلماءِ والصالحينَ والمنتحلينَ للفضائلِ على العمومِ ، وكثيرٌ ممن اشتهر بالشرِّ وهو بخلافه ، وكثيرٌ ممن تجاوزت عنه الشهرةُ وهو أحقُّ بها وأهلها . وقد تصادِفَ موضعهما وتكونُ طبقاً على صاحبها . والسببُ في ذلك أن الشهرةَ والصيتَ إنما هما بالأخبارِ ، والأخبارُ يدخلها الذهولُ عن المقاصدِ عند التناقلِ ، ويدخلها التعصُّبُ والتشيعُ ، ويدخلها الأوهامُ ، ويدخلها الجهلُ بمطابقةِ الحكاياتِ للأحوالِ ، لحفاها

بالتلبيس والتصنع أو لجلل الناقل ، ويدخلها التقربُ لأصحاب
التجلة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة
الذكر بذلك ، والنفوس مولعة بحبِّ الثناء ، والناس متناولون
الى الدنيا وأسبابها من جام أو ثروة ، وليسوا في الاكثر
براغبين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها ؛ وأين مطابقة الحق
مع هذه كلها ؟ فتختل الشهرة عن أسباب خفية من هذه ، وتكون
غير مطابقة . وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه
بالبخت كما تقرر . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

الفصل الثامن والثلاثون

في الجباية وسبب قتلها وكثرتها

اعلم ان الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع^(١) كثيرة
الجملة ، وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة . والسبب
في ذلك أن الدولة : إن كانت على سنن الدين فليست تقتضي إلا
المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية ، وهي قليلة
الوزائع ، لأن مقدار الزكاة من المال قليل كما علمت ، وكذا
زكاة الحبوب والماشية ، وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم
الشرعية ، وهي حدود لا تتعدى ، وإن كانت على سنن التغلب

(١) ما يتوزع على الأشخاص .

والعَصِيَّةُ فلا بد من البِدَاوَةِ في أولها كما تقدّم ، والبِدَاوَةُ تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافي عن أموال الناس ، والعَفْلَةُ عن تحصيل ذلك إلا في النادر ، فيقلّ لذلك مقدار الوظيفة الواحدة ، والوزيعة التي تُجمَعُ الاموال من مجموعها . وإذا قلّت الوظائف والوظائف على الرعايا نشطوا للعمل ورغبوا فيه ، فيكثرُ الاعتمادُ ويزيدُ محصولُ الاغتيابِ بقلّةِ المَغرَمِ ، وإذا كثُرَ الاعتمادُ كثرت أعدادُ تلك الوظائف والوظائف ، فكثرت الجبايةُ التي هي جملتها . فإذا استمرت الدولة واتّصَلت ، وتعاقَبَ ملوكها واحداً بعد واحدٍ ، واتّصفوا بالكَيْسِ ، وذهب شرُّ^(١) البِدَاوَةِ والسذاجة وخُلِقَها من الإغضاء والتجافي ، وجاء الملكُ العضوضُ والحضارةُ الداعيةُ الى الكَيْسِ ، وتخلّقَ أهلُ الدولة حينئذٍ بِخُلُقِ التحذلقِ ، وتكثرت عوائدهم وحواسنهم بسببِ ما انغمسوا فيه من النعيم والترَفِ ، فيكثرون الوظائف والوظائف حينئذٍ على الرعايا والأَكْرَةِ^(٢) والفلاحين وسائرِ أهلِ المَغارِمِ ، ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقداراً عظيماً لتكثرَ لهم الجبايةُ ، ويضعون المكوسَ على المبيعات وفي الأبواب كما نذكرُ بعد ، ثم تتدرّجُ الزياداتُ فيها بمقدارٍ بعد مقدارٍ لتدرّجَ عوائدُ الدولة في الترفِ وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه ، حتّى تثقلَ المَغارِمُ على الرعايا وتنهضمَ وتصيرَ عادةً مفروضةً ، لأنّ تلك الزيادة تدرّجت قليلاً قليلاً

(١) كذا بالأصول ، وربما تكون محرفة عن أثر البداوة .

(٢) الأكرة : الذين يشتغلون بالزراعة .

ولم يشعر أحدٌ بمن زادها على التعيين ، ولا من هو وإحسُّها ، إنما
تثبتُ على الرعايا كأنها عادة مفروضة . ثم تريد إلى الخروج عن
حد الاعتدال ، فتذهب غبطة الرعايا في الاعترار لذهاب الأمل
من نفوسهم بقلّة النفع ، إذا قابل^(١) بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته
وفائده ، فتقبضُ كثيرٌ من الأيدي عن الاعترارُ جملةً ، فتنقصُ
جملةُ الجباية حينئذٍ بنقصان تلك الوزائع منها . وربما يزيدون في
مقدارِ الوظائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية ويحسّونه جبراً
لما نقص ، حتى تنتهي كلُّ وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس وراءها
نفعٌ ولا فائدة ، لكثرة الإنفاق حينئذٍ في الاعترار وكثرة المغارم
وعدم وفاء الفائدة المرجوة به . فلا تزالُ الجملةُ في نقصٍ ومقدارُ
الوزائع والوظائف في زيادةٍ لما يعتقدونه من جبر الجملة بها ، إلى
أن ينتقص العمرانُ بذهاب الآمال من الاعترار ، ويعودُ وبال ذلك
على الدولة لأن فائدة الاعترار عائدة إليها . وإذا فهمت ذلك
علمت أن أقوى الأسباب في الاعترار تقليلُ مقدارِ الوظائف على
المعتمدين ما أمكن ؛ فبذلك تنبسطُ القوسُ إليه لتفتحها بأدراكِ
المنفعة فيه . والله سبحانه وتعالى مالكُ الأمور كلها ، ﴿ يَبْدِئُ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٢) .

(١) أي إذا قابل الواحد منهم .

(٢) من آخر آية من سورة يس .

الفصل التاسع والثلاثون

في ضرب المكوس اواخر الحولة

اعلم أنَّ الدولة تكونُ في أولها بدويَّةً كما قلنا ، فتكونُ لذلك قَلِيَّةَ الحاجاتِ لعدمِ الترفِ وعوائدهِ ، فيكونُ خرُجُها وإنفاقُها قليلاً ، فيكونُ في الجبايةِ حينئذٍ وفاءً بأزيدِ منها ، بل يفضلُ منها كثيرٌ عن حاجاتهم . ثم لا تلبثُ أن تأخذَ بدينِ الحضارةِ في الترفِ وعوائدها ، وتجرى على نهجِ الدولِ السابقةِ قبلها ، فيكثرُ لذلك خرَاجُ أهلِ الدولةِ ، ويكثرُ خرَاجُ السُلطانِ خصوصاً كثرةً بالغةً بنفقتهِ في خاصَّتهِ ، وكثرةِ عطائه ، ولا تني بذلك الجبايةُ . فتحتاجُ الدولةُ الى الزيادةِ في الجبايةِ لما تحتاجُ إليه الحاميةُ من العطاء ، والسُلطانُ من النفقةِ ؛ فيزيدُ في مقدارِ الوظائفِ والوزائعِ أوَّلاً كما قلناه ، ثم يزيدُ الخراجُ والحاجاتُ والتدريجُ في عوائدِ الترفِ وفي العطاءِ للحاميةِ ، ويدركُ الدولةَ الهرمُ ، وتضعُفُ عصابُها عن جبايةِ الأموالِ من الأعمالِ والقاصيةِ ، فتقلُّ الجبايةُ وتكثرُ العوائدُ ، ويكثرُ بكثرتها أرزاقُ الجنديِّ وعطاؤهم . فيستحدثُ صاحبُ الدولةِ أنواعاً من الجبايةِ يضرُّها على البيعاتِ ، ويفرضُ لها قدرًا معلوماً على الأثمانِ في الأسواقِ ، وعلى أعيانِ السلعِ في أموالِ المدينة . وهو مع هذا مضطرٌّ لذلك بما دعاهُ اليه ترفُ الناسِ من كثرةِ العطاء مع زيادةِ الجيوشِ والحاميةِ . وربما يزيدُ ذلك في أواخرِ

الدولة زيادةً بالغةً ، فتكسُدُ الاسواقُ لفسادِ الآمالِ ، ويؤذِنُ ذلكُ باختلالِ العمرانِ ، ويعودُ على الدولة ؛ ولا يزالُ ذلكُ يتزايدُ إلى أن تَضمحلَّ.

وقد كانَ وقعَ منه بأمصارِ المشرقِ في أخرياتِ الدولةِ العباسيةِ والعبيديةِ كثيرٌ ، وفُرِضَتِ المغارِمُ حتى على الحاجِّ في الموسمِ ، وأُسقطَ صلاحُ الدينِ أيوبُ تلكَ الرسومَ جملةً وأعاضها بآثارِ الخيرِ . وكذلك وقعَ بالأندلسِ لعهدِ الطوائفِ حتى محارِبه يوسفُ بنُ تاشفينَ أميرُ المرابطينَ . وكذلك وقعَ بأمصارِ الجريدِ بإفريقيةَ لهذا العهدِ حينَ استبدَّ بها رؤساؤها . والله تعالى أعلم .

الفصل الأربعون

في أن التجارة من السلطان مضرة بالعملياء مفسدة للبلية

اعلم أنَّ الدولة إذا ضاقت جبايتها بما قدَّمناه من الترفِ وكثرةِ الهوائِدِ والنفقاتِ وقصَّرَ الحاصلُ من جبايتها على الوفاءِ بحاجاتها ونفقاتها ، واحتاجت إلى مزيدِ المالِ والجبايةِ ، فتارةً توضعُ المكوسُ على رِباعِ الرعايا وأسواقهم كما قدَّمنا ذلك في الفصلِ قبله ، وتارةً بالزيادةِ في ألقابِ المكوسِ إن كان قد استُحدثَ من قبلُ ، وتارةً بمقاسمةِ العمالِ والجباةِ وامتلاكِ^(١) عظامهم ، لما يرونَ أنهم

(١) امتكه : امتصه جميعه .

قد حصلوا على شيء طائل من أموال الجباية ، لا يُظهره الحُسان ،
 وثارةً باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية^(١)
 لما يرون التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع يسارة^(٢)
 أموالهم ، وإن الأرباح تكون على نسبة رؤوس الأموال .
 فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله في شراء البضائع
 والتعرض بها لحالة الأسواق ، ويحسبون ذلك من إدراج الجباية
 وتكثير الفوائد . وهو غلطٌ عظيمٌ وإدخال الضرر على الرعايا من
 وجوه متعددة .

فأولاً مضايقة الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع ،
 وتيسير^(٣) أسباب ذلك ، فإن الرعايا متكافئون في اليسار متقاربون
 ومزاحمة بعضهم بعضاً تنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب ، وإذا
 رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيراً منهم ، فلا يكاد أحد
 منهم يحصل على غرضه في شيء من حاجاته ، ويدخل على النفوس
 من ذلك غمٌ ونكد .

ثم إن السلطان قد ينتزع الكثير من ذلك إذا تعرض له غصاً
 أو بأيسر ثمن ، إذ لا يجد من يناقشه في شرائه فيبئس ثمنه
 على بائعه .

ثم إذا حصل فوائد الفلاحة ومغلها كله من زرع أو حرير

(١) أي باسم الجباية .

(٢) استعملت هنا بمعنى القلة ، وقد أخذت من اليسير بمعنى القليل .

(٣) يجوز أن تكون معطوفة على كلمة شراء بمعنى : مضايقتهم في تيسير أسباب ذلك . ويجوز
 أن يكون سقط أثناء النسخ كلمة عدم ، فتصبح العبارة : عدم تيسير أسباب ذلك . وهو الأصح .

أَوْ عَسَلٍ أَوْ سُكَّرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْغَلَّاتِ ، وَحَصَلَتْ
بِضَائِعُ التِّجَارَةِ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ ، فَلَا يَنْتَظِرُونَ بِهِ حَوَالَةَ الْأَسْوَاقِ
وَلَا نَفَاقَ الْبِيَاعَاتِ ، لَمَّا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ تَكَالِيفُ الدَّوْلَةِ ، فَيَكْلِفُونَ
أَهْلَ تِلْكَ الْأَصْنَافِ مِنْ تَاجِرٍ أَوْ فَلَاحٍ بِشَرَاءِ تِلْكَ الْبِضَائِعِ ، وَلَا
يَرْضُونَ فِي أَمَانِهَا إِلَّا الْقِيَمَ وَأَزِيدَ ، فَيَسْتَوْعِبُونَ فِي ذَلِكَ نَاضَ^(١)
أَمْوَالَهُمْ ، وَتَبْقَى تِلْكَ الْبِضَائِعُ بِأَيْدِيهِمْ عُرُوضًا جَامِدَةً ، وَيَكْثُونَ
عُطْلًا مِنْ الْإِدَارَةِ الَّتِي فِيهَا كَسْبُهُمْ وَمَعَاشُهُمْ . وَرَبَّمَا تَدْعُوهُمْ
الضَّرُورَةُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْالٍ فَيَبِيعُونَ تِلْكَ السِّلْعَ عَلَى كَسَادٍ مِنْ
الْأَسْوَاقِ بِأَنْجَسِ ثَمَنِ . وَرَبَّمَا يَتَكَرَّرُ ذَلِكَ عَلَى التَّاجِرِ وَالْفَلَاحِ
مِنْهُمْ بِمَا يُذْهِبُ رَأْسَ مَالِهِ ، فَيَقْعُدُ عَنْ سَوْقِهِ ، وَيَتَعَدَّدُ ذَلِكَ
وَيَتَكَرَّرُ ، وَيَدْخُلُ بِهِ عَلَى الرِّعَايَا مِنَ الْعَنَتِ وَالْمُضَايِقَةِ وَفَسَادِ
الْأَرْبَاحِ ، مَا يَقِصُّ أَمَالَهُمْ عَنِ السَّعْيِ فِي ذَلِكَ جُمْلَةً ، وَيُؤَدِّي إِلَى
فَسَادِ الْجُبَايَةِ ؛ فَإِنَّ مُعْظَمَ الْجُبَايَةِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْفَلَاحِينَ وَالتُّجَّارِ ،
لَا سِوَا بَعْدَ وَضْعِ الْمَكُوسِ وَنَمُوِّ الْجُبَايَةِ بِهَا ؛ فَإِذَا انْقَبَضَ الْفَلَاحُونَ
عَنِ الْفِلَاحَةِ ، وَقَعَدَ التُّجَّارُ عَنِ التِّجَارَةِ ، ذَهَبَتِ الْجُبَايَةُ جُمْلَةً أَوْ
دَخَلَهَا النِّقْصُ الْمَتَفَاحِشُ .

وَإِذَا قَاسَ السُّلْطَانُ بَيْنَ مَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الْجُبَايَةِ وَبَيْنَ هَذِهِ
الْأَرْبَاحِ الْقَلِيلَةِ وَجَدَهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْجُبَايَةِ أَقْلًا مِنَ الْقَلِيلِ . ثُمَّ إِنَّهُ
وَلَوْ كَانَ مُفِيدًا فَيَذْهَبُ لَهُ بِحِطٍّ عَظِيمٍ مِنَ الْجُبَايَةِ فِيمَا يَعْانِيهِ مِنْ

(١) الدرهم والدينار . ويسمى ناضاً إذا تحول عيناً بعد أن كان متاعاً وفي الأساس ، « أعطاه
من ناض ماله » أي من صامته : من الورق أو العين .

شراء أو بيع ؛ فإنه من البعيد أن يوجد فيه من المكس . ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تكسبها كلها حاصلاً من جهة الجباية . ثم فيه التعرض لأهل عمرانه ، واختلال الدولة بفسادهم ونقصه ؛ فإن الرعايا إذا قعدوا عن تسمير أموالهم بالفلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات ، وكان فيها تلاف أحوالهم ، فافهم ذلك ^(١) . وكان الفرس لا يملكون عليهم إلا من أهل بيت المملكة ، ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والآدب والسخاء والشجاعة والكرم ، ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل ، وأن لا يتخذ صنعة فيضرب بحيرانه ، ولا يتاجر فيجب غلاء الأسعار في البضائع ، وأن لا يستخدم العبيد فإنهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة .

واعلم أن السلطان لا ينمي ماله ولا يدرج موجوده إلا الجباية وإدراجها إنما يكون بالعدل في أهل الأموال ، والنظر لهم بذلك ؛ فبذلك تنبسط آمالهم ، وتشرح صدورهم للأخذ في تسمير الأموال وتنميتها ؛ فتعظم منها جباية السلطان . وأما غير ذلك من تجارة أو فلاح فإنما هو مضرة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة . وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين في البلدان ، أنهم يتعرضون لشراء الغلات

(١) علق الدكتور علي عبد الواحد وافي على ذلك بقوله : « يتفق ما يراه ابن خلدون في صدد الأضرار المترتبة على دخول الحكومة مشترية في السوق وعلى اشتغالها بالتجارة أو احتكارها لبعض الأصناف ، واعتبار ذلك ضرائب غير مباشرة على المستهلكين . . . يتفق ذلك مع ما يراه كثير من المحدثين من علماء الاقتصاد السياسي . وقد علله ابن خلدون بالعلل نفسها التي نراها في أحدث مؤلفات الاقتصاد السياسي . انظر كتابنا في « الاقتصاد السياسي » فصل « المنافسة الحرة » (صفحات ١٩٤ - ٢٠٠ من الطبعة الخامسة) انتهى . (المقدمة ، طبعة لجنة البيان العربي ص ٦٧٣) .

والسِّلَعِ من أربابها الواردينَ على بلادِهِمْ ، ويفرِضونَ لذلك من الثمنِ ما يشاؤونَ ، ويبيعونها في وقتها لمن تحتَ أيديهم من الرعايا بما يفرِضونَ من الثمنِ . وهذه أَشدُّ من الأولى وأقربُ الى فسادِ الرعيَّةِ واختلالِ أحوالهم . وربما يَحْمِلُ السلطانُ على ذلك من يُدْخِلُهُ من هذه الأصنافِ ، أعني التِّجَارَ والفلاحينَ لما هي صناعتُهُ التي نشأَ عليها ، فيَحْمِلُ السلطانُ على ذلك ويضربُ معه بسهمٍ لنفسه ليَحْصُلَ على غَرَضِهِ من جمعِ المالِ سريعاً ، سَيِّئاً مع ما يَحْصُلُ له من التِّجَارَةِ بلا مَغْرَمٍ ولا مَكْسٍ ، فانها أَجْدَرُ بِنُموِّ الأموالِ ، وأسرعُ في تَشميرِهِ ؛ ولا يفهمُ ما يَدْخُلُ على السلطانِ من الضَّرَرِ بنقصِ جبايته . فينبغي للسلطانِ أن يَحْذَرَ من هؤلاء ويُعْرِضَ عن سَعَايَتِهِمُ الْمُضِرَّةِ بِجبايته وسُلْطَانِهِ ، والله يُلْهِمُنَا رَشْدَ أَنْفُسِنَا ، وينفَعُنَا بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ ، والله تعالى أعلم .

الفَصْلُ الحَادِي وَالْأَرْبَعُونَ

في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة

والسببُ في ذلك أَنَّ الجبايةَ في أوَّلِ الدولةِ تتوزَّعُ على أهلِ القبيلِ والعصبيةِ بمقدارِ غنائمِهم وعصبيتِهِمْ ، ولأنَّ الحاجةَ إليهم في تمهيدِ الدولةِ كما قلناه من قبلُ . فرئيسُهُم في ذلك متجافٍ لهم عما يسمونَ إليه من الجبايةِ ، مُعْتَاضٌ عن ذلك بما هو يرومُ من

الاستبداد عليهم ، فله عليهم عِزَّةٌ وله إليهم حاجةٌ . فلا يُطَيَّرُ^(١) في سُهمائِهِ من الْجَبَايَةِ إِلَّا الْأَقْلُ من حاجتِهِ . فتجدُ حاشيتَهُ لذلك وأذيالَهُ من الوزراء والكتاب والموالي مُملِّقينَ في الغالب ، وجاهُهُمْ متقلِّصٌ لأنَّه من جاءِ بخدوئِهِمْ ، ونطاقُهُ قد ضاقَ بمن يُزاحِمُهُ فيه من أهلِ عصبِيَّتِهِ .

فاذا استفحلتَ طبيعةُ المُلكِ ، وحصلَ لصاحبِ الدولة الاستبدادُ على قومِهِ ، قَبَضَ أَيْدِيَهُمْ عن الجباياتِ ، إِلَّا ما يُطَيَّرُ لهم بين الناسِ في سُهمائِهِمْ ، وتَقِلُّ حظوظُهُمْ إذ ذاك لقلَّةِ غنائِهِمْ في الدولة ، بما انكَبَحَ من أَعْنَتِيهِمْ ، وصارَ الموالى والصنائعُ مساهمينَ لهم في القيامِ بالدولةِ وتمهيدِ الأمرِ ؛ فينفردُ صاحبُ الدولة حينئذٍ بالجبايةِ أو مُعْظَمِها ، ويحتوي على الأموالِ ويحتجِجُها للنِّفقاتِ في مُهَمَّاتِ الأحوالِ ، فتكثرُ ثروتهُ وتمتلي خزائنهُ ويتَّسعُ نطاقُ جاهِهِ ويعتزُّ على سائرِ قومِهِ ، فيعظمُ حالُ حاشيتهِ وذوِيهِ ، من وزيرٍ وكاتبٍ وحاجبٍ ومولىٍ وشرطيٍّ ويتَّسعُ جاهُهُمْ ، ويقتنونَ الأموالَ ويتأثَّلونها .

ثم إذا أخذتِ الدولةُ في الهَرَمِ بتلاشي العصبِيَّةِ وفناء القبيلِ الماهدينَ للدولةِ احتاجَ صاحبُ الأمرِ حينئذٍ إلى الأعوانِ والأنصارِ ، ولكثرةِ الخوارجِ والمنازعينِ والشوَّارِ ، وتوهُمِ الانتقاصِ ، فصارَ خراجُهُ لظَهْرَائِهِ وأَعوانِهِ ، وهم أربابُ السيوفِ وأهلُ العصبِيَّاتِ ، وأنفقَ خزائنهُ وحاصلَهُ في مُهَمَّاتِ الدولةِ ، وقلَّتْ مع ذلكِ الجبايةُ

(١) بمعنى يقسم له .

لما قدّمناه من كثرة العطاء والإنفاق ، فَيَقِلُّ الخراج وتشتدُّ حاجةُ الدولة إلى المال ، فيتقلّصُ ظِلُّ النعمة والتّرفِ عن الخواصِّ والحجابِ والكتابِ بتقلّصِ ألباءِ عنهم ، وضيقِ نطاقه على صاحبِ الدولة . ثم تشتدُّ حاجةُ صاحبِ الدولة إلى المالِ وتُنْفِقُ أبناءُ البطانةِ والحاشيةِ ما تأثله آباؤهم من الأموالِ في غير سبيلها من إعانةِ صاحبِ الدولة ، ويُقِيلُونَ على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من المناصحة . ويرى صاحبُ الدولة أنّه أحقُّ بتلك الأموالِ التي اكتسبت في دولة سلفه وبجاههم ، فيصطَلِبُها وينتزعُها منهم لنفسه شيئاً فشيئاً وواحداً بعد واحدٍ ، على نسبةِ رتبهم وتنكُرُ الدولة لهم ، ويعودُ وبألٍ ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها وأهلِ الثروة والنعمة من بطانتها ، ويتقوَّضُ بذلك كثيرٌ من مباني المجد بعد أن يدعمه أهلُه ويرفعوه .

وانظر ما وقعَ من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بني قُحطَبَةَ وبني برمك وبني سهل وبني طاهر وأمثالهم ، في الدولة الأموية بالأندلس عند انحلالها أيامَ الطوائفِ في بني شهيد وبني أبي عبدة وبني حُدَيْرَةَ وبني بُردٍ وأمثالهم ، وكذا في الدولة التي أدرَكناها لعهدنا . سنّة الله التي قد خَلَتْ في عبادِهِ .

فصل : ولما يتوقَّعُه أهلُ الدولة من أمثالِ هذه المعاطبِ صار الكثيرُ منهم ينزَعُونَ إلى الفرارِ عن الرُّتبِ والتخلُّصِ من رتبة السلطان ، بما حصلَ في أيديهم من مالِ الدولة إلى قُطرٍ آخر ،

ويرون أنه أهنأ لهم وأسلم في إنفاقه وحصول ثمرته . وهو من الأغلاط الفاحشة والأوهام المُفْسِدَة لأحوالهم ودنيائهم .

واعلم أن الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع . فإن صاحب هذا الغرض إذا كان هو المملك نفسه ، فلا تمكّنه الرعية من ذلك طرفة عين ، ولا أهل العصبية المزاحمون له ، بل في ظهور ذلك منه هدم للملك وإتلاف لنفسه بمجاري العادة بذلك ؛ لأن رتبة المملك يعسر الخلاص منها ، سيما عند استئصال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجدي والخلال والتخلُّق بالشر . وأما إذا كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الرتب في دولته ، فقل أن يُخلى بينه وبين ذلك

أما أولاً فلما يراه المملك أن ذويهم وحاشيتهم ، بل وسائر رعاياهم ممالك لهم ، مُطَّلَعُونَ على ذات صدورهم ، فلا يسمحون بجل ربقته من الخدمة ضناً بأسراريهم وأحوالهم أن يطلع عليها أحد ، وغيره من خدمته لسواهم . ولقد كان بنو أمية بالاندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لفريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني العباس ؛ فلم يُجَّ سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم ، وما أبيع الحج لأهل الدول من الاندلس إلا بعد فراغ شأن الأموية ورجوعها إلى الطوائف . وأما ثانياً فلأنهم وإن سمحوا بجل ربقته هو فلا يسمحون بالتجافي عن ذلك المال ، لما يرون أنه جزء من مالهم كما يرون أنه جزء من دولتهم ، إذ لم يُكْتَسَب إلا بها وفي ظل جاهها ؛ فتحوم نفوسهم على انتزاع ذلك المال

والتقايمة كما هو جزء من الدولة ينتفعون به . ثم إذا توهمنا أنه خَلَصَ بذلك المال إلى قطرٍ آخر ، وهو في النادرِ الأقل ، فتمتدُّ إليه أعينُ الملوكِ بذلك القطرِ وينتزعونه بالارهابِ والتخويفِ تعريضاً أو بالقهرِ ظاهراً ، لما يرونَ أنه مالُ الجبايةِ والدولِ ، وأنه مستحقٌّ للانفاقِ في المصالحِ . وإذا كانت أعينُهُم تمتدُّ الى أهلِ الثروة واليسارِ المُكتسبين من وجوه المعاشِ ، فأحرى بها أن تمتدَّ الى أموالِ الجبايةِ والدولِ التي تجدُ السبيلَ إليه بالشرعِ والعادة . ولقد حاولَ السلطانُ أبو يحيى زكريا بنُ أحمدَ اللحيانيُّ تاسعُ أو عاشرُ ملوكِ الحفصيينَ بإفريقيةَ الخروجَ عن عهدَةِ الملكِ والحقِّ بمصرَ فراراً من طلبِ صاحبِ الثغورِ الغربيَّةِ لما استجمعَ لغزوِ تونسَ ، فاستعملَ اللحيانيُّ الرحلةَ الى ثغرِ طرابلسَ يُورِّي بتمهيدِهِ ، وركبَ السفينَ من هنالك ؛ وخلصَ إلى الاسكندريةَ بعد أن حملَ جميعَ ما وجدَهُ بيتِ المالِ من الصايمِ والذخيرةِ ، وباعَ كلَّ ما كان بجزائنتهم من المتاعِ والعقارِ والجواهرِ ، حتى الكتبُ ، واحتملَ ذلكَ كله الى مصرَ ونزلَ على الملكِ الناصرِ محمدِ بنِ قلاوَنَ ، سنة سبعَ عشرةَ من المائةِ الثامنة ؛ فأكرمَ نُزُلَهُ ورفعَ مجلسَهُ ، ولم يزل يستخلصُ ذخيرَتَهُ شيئاً فشيئاً بالتعريضِ إلى أن حصلَ عليها ، ولم يبقَ معاشُ ابنِ اللحيانيِّ إلا في جرائتِهِ التي فُرِضَتْ لَهُ ؛ إلى أن هَلَكَ سنة ثمانٍ وعشرينَ حسبما نذكره في أخباره . فهذا وأمثاله من جملةِ الوسواسِ الذي يعتري أهلَ الدولِ لما يتوقعونه من ملوكِهِم من المعاطبِ ، وإنما يخلصونَ إن اتفقَ لهم الخلاصُ بأنفسِهِم ؛

وما يتوهمونه من الحاجة فغلطٌ ووهمٌ . والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كافٍ في وجدان المعاش لهم بالجزايات السلطانية أو بالجاه في انتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة . والدول أنسابٌ ؛ لكن :

النفسُ راغبةٌ إذا رَغِبَتْهَا وإذا تُرِدُّ الى قليلٍ تَشْتَعُ

والله سبحانه هو الرزاق ، وهو الموفقُ بِنِّه وفضله ، والله أعلم .

الفصل الثاني والأربعون

في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية

والسببُ في ذلك أنَّ الدولة والسلطان هي السوقُ الأعظمُ للعالم ، ومنهُ مَادَّةُ العمرانِ . فإذا احتجَّ السلطانُ الأموالَ أو الجباياتِ ، أو فُقِدَتْ فلم يصرفها في مصارفها ، قلَّ حينئذٍ ما بأيدي الحاشية والحامية ، وانقطع أيضاً ما كان يصلُ منهم لحاشيتهم وذويهم ، وقلَّتْ نفقاتُهم جملةً وهم مُعظمُ السوادِ ، ونفقاتُهم أكثرُ مَادَّةٍ للأسواقِ ممن سواهم . فيَمَّعُ الكسادُ حينئذٍ في الأسواقِ ، وتضعفُ الأرباحُ في المتاجر فيقلُّ الخراجُ لذلك ؛ لأنَّ الخراجَ والجبايةَ إنما تكونُ من الاعتمادِ والمعاملاتِ وتفاقِ الأسواقِ وطلبِ الناسِ للقوائد والأرباحِ . ووبالُ ذلك عائدٌ على الدولة بالنقص لقلَّةِ أموالِ السلطان حينئذٍ بقلَّةِ الخراجِ . فإنَّ الدولةَ كما قلناه هي السوقُ

الْأَعْظَمُ ، أُمُّ الْأَسْوَاقِ كُلِّهَا ، وَأَصْلُهَا وَمَادَّتُهَا فِي الدَّخْلِ وَالْحَرْجِ ،
فَانْ كَسَدَتْ وَقَلَّتْ مَصَارِفُهَا فَأَجْدَرُ بِمَا بَعْدَهَا مِنَ الْأَسْوَاقِ أَنْ
يَلْحَقَهَا مِثْلُ ذَلِكَ وَأَشَدُّ مِنْهُ . وَأَيْضاً فَالْمَالُ إِنَّمَا هُوَ مَتَرَدِّدٌ بَيْنَ
الرَّعِيَّةِ وَالسُّلْطَانِ مِنْهُمْ إِلَيْهِ ، وَمِنْهُمْ إِلَيْهِمْ ، فَإِذَا حَبَسَهُ السُّلْطَانُ
عِنْدَهُ فَقَدَتْهُ الرَّعِيَّةُ . سَنَةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ .

الفصل الثالث والربعون

في أن الظلم مؤذن بخراب العمران

اعلم أن العُدوانَ على الناسِ في أموالهم ذاهِبٌ بآمالهم في
تحصيلها واكتسابها ، لما يرونه حينئذٍ من أن غايتها ومصيرها انتهابها
من أيديهم . وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت
أيديهم عن السعي في ذلك . وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون
انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب ، فإذا كان الاعتداء
كثيراً عاماً في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب
كذلك لذهابه بالآمال جملةً بدخوله من جميع أبوابها . وإن كان
الاعتداء يسيراً كان الانقباض عن الكسب على نسبته . والعمران
ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح
والمكاسب ذاهبين وجائين . فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت
أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران ، وانتفضت الأحوال

وابذعّر الناس في الأفاق من غير تلك الأيالة في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها ، فنخت ساكن القطر ، وخت دياره ، وخربت أمصاره ، واختل باختلاله حال الدولة والسلطان ؛ لما أنها صورة للعمران تفسد بفساد ماديتها ضرورة .

وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن الموبدان صاحب الدين عندهم أيام بهرام بن بهرام ، وما عرض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة ، بضرب المثال في ذلك على لسان اليوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها ، فقال له : إن يوماً ذكراً يروم نكاح بوم أنثى ، وإنها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها ؛ وقال لها : إن دامت أيام الملك أقطعك ألف قرية ، وهذا أسهل مرام . فتتبه الملك من غفلته وخلا بالموبدان وسأله عن مراده ، فقال له :

أيها الملك إن الملك لا يتم عزه إلا بالشرعية ، والقيام لله بطاعته ، والتصرف تحت أمره ونهيه ؛ ولا قوام للشرعية إلا بالملك ؛ ولا عز للملك إلا بالرجال ؛ ولا قوام للرجال إلا بالمال ؛ ولا سبيل إلى المال إلا بالعمارة ؛ ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل . والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة ، نصبه الرب وجعل له قِيَمًا ، وهو الملك وأنت أيها الملك عمدت إلى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمارها ؛ وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال ، وأقطعها الحاشية والخدم وأهل البطالة ، فتركوا العمارة ، والنظر في العواقب وما

يُصْلِحُ الضِّيَاعَ ، وَسَوَّحُوا فِي الْخَرَجِ لِقُرْبِهِمْ مِنَ الْمَلِكِ . وَوَقَعَ الْحَيْفُ عَلَى مَنْ بَقِيَ مِنْ أَرْبَابِ الْخَرَجِ وَعُمَارِ الضِّيَاعِ ؛ فَانْجَلَوْا عَنْ ضِيَاعِهِمْ وَخَلُّوا دِيَارَهُمْ ، وَأَوَّأُوا إِلَى مَا تَعَذَّرَ مِنَ الضِّيَاعِ فَسَكَنُوهَا ، فَقَلَّتِ الْعِمَارَةُ وَخَرِبَتِ الضِّيَاعُ وَقَلَّتِ الْأَمْوَالُ وَهَلَكَتِ الْجُنُودُ وَالرِّعْيَةُ ، وَطَمِعَ فِي مُلْكِ فَارِسٍ مَنْ جَاوَرَهُمْ مِنَ الْمُلُوكِ لَعَلَّهُمْ بِانْقِطَاعِ الْمَوَادِّ الَّتِي لَا تَسْتَقِيمُ دَعَائِمُ الْمُلْكِ إِلَّا بِهَا .

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى النَّظَرِ فِي مُلْكِهِ ، وَأَنْتَزَعَتِ الضِّيَاعُ مِنْ أَيْدِي الْخَاصَّةِ وَرُدَّتْ عَلَى أَرْبَابِهَا ، وَحُمِلُوا عَلَى رَسُولِهِمُ السَّالِفَةِ ، وَأَخَذُوا فِي الْعِمَارَةِ وَقَوِيَ مِنْ ضَعْفِ مَنْهُمْ ، فَعَمَرَتِ الْأَرْضُ وَأَخْصَبَتِ الْبِلَادُ وَكَثُرَتِ الْأَمْوَالُ عِنْدَ جُبَاةِ الْخَرَجِ ، وَقَوِيَتِ الْجُنُودُ وَقُطِعَتِ مَوَادُّ الْأَعْدَاءِ وَشُحِنَتِ الثَّغُورُ ، وَأَقْبَلَ الْمَلِكُ عَلَى مُبَاشَرَةِ أُمُورِهِ بِنَفْسِهِ ، فَحَسُنَتْ أَيَّامُهُ وَانْتَظَمَ مُلْكُهُ . فَتَفَهَّمُ مِنْ هَذِهِ الْحِكَايَةِ أَنَّ الظُّلْمَ مَخْرِبٌ لِلْعُمَرَانِ ، وَإِنَّ عَائِدَةَ الْخَرَابِ فِي الْعُمَرَانِ عَلَى الدَّوْلَةِ بِالْفَسَادِ وَالْإِنْتِقَاضِ .

وَلَا تَنْظُرْ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنَّ الْإِعْتِدَاءَ قَدْ يَوْجَدُ بِالْأَمْصَارِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الدُّوَلِ الَّتِي بِهَا ، وَلَمْ يَقَعْ فِيهَا خَرَابٌ . وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قِبَلِ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ الْإِعْتِدَاءِ وَأَحْوَالِ أَهْلِ الْمِصْرِ . فَلَمَّا كَانَ الْمِصْرُ كَبِيرًا وَعُمُرَانُهُ كَثِيرًا وَأَحْوَالُهُ مُتَّسِعَةً بَمَا لَا يَنْحَصِرُ ، كَانَ وَقُوعُ النِّقْصِ فِيهِ بِالْإِعْتِدَاءِ وَالظُّلْمِ يَسِيرًا ؛ لِأَنَّ النِّقْصَ إِنَّمَا يَقَعُ بِالتَّدْرِيجِ . فَإِذَا خَفِيَ بِكَثْرَةِ الْأَحْوَالِ وَاتَّسَاعِ الْأَعْمَالِ فِي الْمِصْرِ لَمْ يَظْهَرِ أَثَرُهُ إِلَّا بَعْدَ حِينٍ . وَقَدْ تَذَهَبُ تِلْكَ الدَّوْلَةُ الْمُعْتَدِيَّةُ مِنْ

أصلها قبل خرابِ المصرِ وتجيءُ الدولةُ الأخرى ، فترقعهُ بجِدَّتِها ،
وتجبرُ النقصَ الذي كان خَفِيًّا فيه ، فلا يكادُ يُشعرُ به ، إلا أنْ
ذلك في الأقلِّ النادرِ .

والمُرَادُ من هذا أنْ حصولَ النقصِ في العمرانِ عن الظلمِ
والعدوانِ أمرٌ واقعٌ لا بدُّ منه لما قدَّمناه ، ووباله عائدٌ على الدُّولِ .
ولا تحسبنَ الظلمَ إنما هو أخذُ المالِ أو المُلْكِ من يدِ مالكِهِ من
غيرِ عَوَضٍ ولا سببٍ كما هو المشهورُ ، بل الظلمُ أعمُّ من ذلك .
وكلُّ من أخذَ مُلْكَ أَحَدٍ أو غضبَهُ في عمله أو طالبَهُ بغيرِ حقٍّ
أو فرضَ عليه حقاً لم يَفْرِضْهُ الشرعُ فقد ظلمَهُ . فجباةُ الأموالِ
بغيرِ حَقِّها ظَلَمَةٌ ، والمُعْتَدُونَ عليها ظَلَمَةٌ ، والمتَّهَبُونَ لها ظَلَمَةٌ ،
والممانعونَ لحقوقِ الناسِ ظَلَمَةٌ ، وعُصَّابُ الأُمَلِكِ على العمومِ ظَلَمَةٌ ،
ووبالُ ذلك كُلِّهِ عائدٌ على الدولةِ بخرابِ العمرانِ الذي هو مادُّتها
لازهايه الأَمَالُ من أهله .

واعلم أنْ هذه هي الحكمةُ المقصودةُ للشارعِ في تحريمِ الظلمِ ،
وهو ما ينشأ عنه من فسادِ العمرانِ وخرابه ، وذلك مؤذنٌ بانقطاعِ
النوعِ البشريِّ ، وهي الحكمةُ العامةُ المراعيةُ للشرعِ في جميعِ
مقاصدهِ الضروريةِ الخمسةِ ، من حفظِ الدينِ والنفسِ والعقلِ
والنسلِ والمالِ . فلما كان الظلمُ كما رأيتَ مؤذناً بانقطاعِ النوعِ
لما أدَّى إليه من تخريبِ العمرانِ ، كانت حكمةُ الحظرِ فيه
موجودةً ، فكان تحريمُهُ مُهِمًّا . وأدلتُّه من القرآنِ والسُّنةِ كثيرٌ ؛
أكثرَ من أنْ يأخذَها قانونُ الضبطِ والحصرِ .

ولو كان كلُّ واحدٍ قادراً عليه لوضعَ بازائه من العقوبات الزاجرة ما وضعَ بازاء غيره من المفسدات للنوع ، التي يقدرُ كلُّ أحدٍ على اقترافها من الزنى والقتلِ والسُّكرِ . إلا أنَّ الظلمَ لا يقدرُ عليه إلا من يقدرُ عليه ، لأنَّه إنما يقعُ من أهلِ القدرة والسلطانِ ، فبِوَلَّغَ في ذِمِّهِ وتكريرِ الوعيدِ فيه ، عسى أن يكونَ الوازعُ فيه للقادرِ عليه في نفسه . ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ .

ولا تقولنَّ إنَّ العقوبةَ قد وُضعتَ بازاء الحُرابةِ في الشرعِ ، وهي من ظلمِ القادرِ ؛ لأنَّ المُحاربَ زمنَ حِرَابَتِهِ قادرٌ . فإنَّ في الجوابِ عن ذلكَ طريقينِ . أحدهما أن تقولَ : العقوبةُ على ما يقترفهُ من الجناياتِ في نفسٍ أو مالٍ على ما ذهبَ إليه كثيرٌ ، وذلكَ إنما يكونُ بعدَ القدرةِ عليه والمطالبةِ بِجُنَايَتِهِ ، وأما نفسُ الحُرابةِ فهي خَلو من العقوبةِ . الطريقُ الثاني أن تقولَ : المحاربُ لا يوصفُ بالقدرةِ لأنَّنا إنما نعني بقدرةِ الظالمِ اليدَ المَبسوطَةَ التي لا تُعارضُها قدرةٌ ؛ فهي المؤذنةُ بالحُرَابِ ؛ وأما قدرةُ المحاربِ فإنَّما هي إخافةُ يجعلُها ذريعةً لَأَخْذِ الْأَمْوَالِ ؛ والمدافعةُ عنها بيدِ الكلِّ موجودةٌ شرعاً وسياسةً ؛ فليست من القَدَرِ المؤذِنِ بالحُرَابِ . واللهُ قادرٌ على ما يشاء .

فصل : ومن أشدِّ الظَّالِمَاتِ وأعظَمِها في إفسادِ العُمرانِ تكليفُ الأعمالِ وتسخيرُ الرعايا بغيرِ حقٍّ . وذلكَ أنَّ الأعمالَ من قبيلِ المتحوَّلاتِ كما سنبيِّنُ في بابِ الرِّزْقِ ؛ لأنَّ الرِّزْقَ والكسبَ إنما هو قيمُ أعمالِ أهلِ العُمرانِ .

فإذا مساعيتهم وأعمالهم كلها متمولات ومكاسب لهم ، بل لا مكاسب لهم سواها ؛ فإن الرعيّة المعتملين في العيارة إنما معاشهم ومكاسبهم من اعتمادهم ذلك . فإذا كلفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا سُخْرِيَا في معاشهم بطلَ كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك ، وهو متمولهم فدخل عليهم الضرر ، وذهب لهم حظ كبير من معاشهم ، بل هو معاشهم بالجملة . وإن تكرّر ذلك عليهم أفسد آمالهم في العيارة ، وقعدوا عن السعي فيها جملةً فآدَى الى انتقاض العمران وتخريبه . والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

الاقتصاد

وأعظم من ذلك في الظلم وإفساد العمران والدولة التسلُّط على أموال الناس ، بشراء ما بين أيديهم بأثمان ، ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه النصب والإكراه في الشراء والبيع . وربما تُفرض عليهم تلك الأثمان على التراخي والتأجيل ، فيتملّون في تلك الحسارة التي تلحقهم بما تحدّثهم المطامع من جبر ذلك بحوالاة الأسواق في تلك البضائع التي فُرِضَتْ عليهم بالغلاء ، الى بيعها بأجس الأثمان ، وتعودُ خسارة ما بين الصفتين على رؤوس أموالهم . وقد يعمُّ ذلك أصناف التجار المقيمين بالمدينة والوادين من الأفاق في البضائع ، وسائر السوق ، وأهل الدكاكين في المأكول والفواكه ، وأهل الصنائع

فَمَا يُتَّخَذُ مِنَ آلَاتِ وَالْمَوَاعِينِ، فَتَشْمَلُ الْخَسَارَةُ سَائِرَ الْأَصْنَافِ
وَالطَّبَقَاتِ، وَتَتَوَالَى عَلَى السَّاعَاتِ، وَتُجْهِفُ بِرُؤُوسِ الْأَمْوَالِ،
وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا وَلِجَةً إِلَّا الْقَعُودَ عَنِ الْأَسْوَاقِ لَذَهَابِ رُؤُوسِ
الْأَمْوَالِ فِي جَبْرِهَا بِالْأَرْبَاحِ، وَيَتَشَاوَرُ الْوَارِدُونَ مِنَ الْأَفَاقِ لِشِرَاءِ
الْبَضَائِعِ وَبَيْعِهَا مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ، فَتَكْسُدُ الْأَسْوَاقُ وَيَبْطُلُ مَعَاشُ
الرَّعَايَا، لِأَنَّ عَامَّتَهُ مِنَ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ. وَإِذَا كَانَتْ الْأَسْوَاقُ
عُطْلًا مِنْهَا بَطَلَ مَعَاشُهُمْ، وَتَنْقُصُ جَبَايَةُ السُّلْطَانِ أَوْ تَقْصُدُ، لِأَنَّ
مُعْظَمَهَا مِنْ أَوَاسِطِ الدَّوْلَةِ، وَمَا بَعْدَهَا إِنَّمَا هُوَ مِنَ الْمَكُوسِ عَلَى
الْبَيَاعَاتِ كَمَا قَدْ مَنَاهُ. وَيُؤَوَّلُ ذَلِكَ إِلَى تَلَاشِي الدَّوْلَةِ وَفَسَادِ
عُمَرَانِ الْمَدِينَةِ. وَيَتَطَرَّقُ هَذَا الْخَلَلُ عَلَى التَّدْرِيجِ وَلَا يُشْعِرُ بِهِ.
هَذَا مَا كَانَ بَأَمْثَالِ هَذِهِ الذَّرَائِعِ وَالْأَسْبَابِ إِلَى أَخْذِ الْأَمْوَالِ
وَأَمَّا أَخْذُهَا مَجَانًّا وَالْعُدْوَانُ عَلَى النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَحُرْمَتِهِمْ وَدِمَائِهِمْ
وَأَسْرَارِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ فَهُوَ يُفْضِي إِلَى الْخَلَلِ وَالْفَسَادِ دَفْعَةً، وَتَنْقِصُ
الدَّوْلَةُ سَرِيعًا بِمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الْهَرَجِ الْمَفْضِي إِلَى الْإِنْتِقَاضِ.
وَمِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْمَفَاسِدِ حَظَرَ الشَّرْعُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَشَرَعَ الْمَكَايِسَةَ^(١)
فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ، وَحَظَرَ أَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ سَدًّا لِلْأَبْوَابِ
الْمَفَاسِدِ الْمَفْضِيَةِ إِلَى انْتِقَاضِ الْعُمَرَانِ بِالْهَرَجِ أَوْ بُطْلَانِ الْمَعَاشِ.
وَاعْلَمْ أَنَّ الدَّاعِيَ لَذَلِكَ كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ حَاجَةُ الدَّوْلَةِ وَالسُّلْطَانِ
إِلَى الْإِكْثَارِ مِنَ الْمَالِ بِمَا يَعْرِضُ لَهُمْ مِنَ التَّرَفِّ فِي الْأَحْوَالِ،
فَتَكْثُرُ نَفَقَاتُهُمْ وَيَعْظُمُ الْخَرْجُ وَلَا يَبْنِي بِهِ الدُّخْلُ عَلَى الْقَوَانِينِ.

(١) بمعنى المساومة.

المعتادة ، فيستحدثون ألقاباً ووجوهاً يُوسعون بها الجباية ليني لهم الدخل بالخرج . ثم لا يزال الترفُّ يزيدُ ، والخرجُ بسببه يكثرُ ، والحاجةُ الى أموال الناس تشتدُّ ، ونطاقُ الدولة بذلك يزيدُ ، الى أن تنمحي دائرتها ويذهبَ رَسمُها ويغلبها طالبها . والله أعلم .

الفصل الرابع والأربعون

في الدجالب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند العرب

اعلم أنَّ الدولة في أوَّل أمرها تكونُ بعيدةً عن منازعِ الملك كما قدَّمناه ، لأنَّه لا بدُّ لها من العصبية التي بها يتمُّ أمرها ويحصلُ استيلاؤها ، والبدَاوةُ هي شعارُ العصبية . والدولةُ إن كان قيامُها بالدينِ فإنه بعيدٌ عن منازعِ الملك ؛ وإن كان قيامُها بعزِّ القَلْبِ فقط ، فالبدَاوةُ التي بها يحصلُ القَلْبُ بعيدةٌ أيضاً عن منازعِ الملك ومذاهبه . فإذا كانتِ الدولةُ في أوَّل أمرها بدويةً كان صاحبُها على حالِ القضاةِ والبدَاوةِ والقربِ من الناسٍ وسهولةِ الإذنِ . فإذا رسخَ عزُّه وصار الى الانفرادِ بالمجدِّ ، واحتاجَ الى الانفرادِ بنفسه عن الناسِ للحديثِ مع أوليائه في خواصِّ شؤونه ، لما يكثرُ حينئذٍ من بحاشيته ، فيطلبُ الانفرادَ عن العامة ما استطاع ، ويتَّخذُ الإذنَ ببابه على مَنْ لا يأمنه من أوليائه وأهلِ دولته ، ويتَّخذُ حاجباً له عن الناسِ يقيمه ببابه لهذه الوظيفة .

ثم إذا استفحلَ الملكُ وجاءت مذاهبُهُ ومنازعُهُ استجالتْ خُلُقُ صاحبِ الدولةِ الى خُلُقِ الْمَلِكِ ، وهي خُلُقُ غريبةٌ مَخْصُوصَةٌ ، يحتاجُ مُبايَئُها إلى مُداراتها ومعامَلَتِها بما يَجِبُ لها . وربما جَهِلَ تِلْكَ الخُلُقَ منهم بعضُ من يبايِئُهُم فوقَ فِما لا يُرضيهِم ، فسَخَطُوهُ وصاروا الى حالةِ الانتقامِ مِنْهُ . فانقَرَدَ بِمَعْرِفَةِ هذهِ الآدابِ الخواصِّ من اوليائِهِم ، وَحَجَبُوا غَيْرَ اولئِكَ الخاصَّةِ عن لِقائِهِم في كلِّ وقتٍ ، حفظًا على أَنْفُسِهِم من مُعَانِيَةٍ ما يُسَخِطُهُم ، وعلى الناسِ من التَّعَرُّضِ لِعِقَابِهِم .

فصارَ لَهُم حِجَابٌ آخَرُ أَخْصٌ من الحِجَابِ الْأَوَّلِ ، يُفْضِي إِلَيْهِمْ مِنْهُ خَوَاصُّهُمْ من الْأَوْلِيَاءِ ، وَيُحَجِّبُ دُونَهُ من سِوَاهِم من العامَّةِ . والحِجَابُ الثَّانِي يُفْضِي إلى مجالسِ الْاَوْلِيَاءِ ، وَيُحَجِّبُ دُونَهُ من سِوَاهِم من العامَّةِ^(١) . والحِجَابُ الْأَوَّلُ يَكُونُ في أَوَّلِ الدَّولَةِ كما ذَكَرْنَا ، كما حَدَثَ لَأَيَّامِ مُعَاوِيَةَ وَعَبْدِ الْمَلِكِ وَخُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةٍ ، وَكَانَ الْقَائِمُ على ذَلِكَ الحِجَابِ يُسَمَّى عِنْدَهُم الْحَاجِبَ جَرِيًّا على مَذْهَبِ الْاِشْتِقَاقِ الصَّحِيحِ .

(١) سبق الكلام على الحجاب في الفصل الرابع والثلاثين من هذا الباب بعنوان الوزارة وبمعنوان الحجابة . وهو هناك أكثر وضوحاً . ويظهر أن هنا عبارة سقطت أثناء النسخ أوجدت هنا إبهاماً في المقصود . وقد علق الدكتور علي عبد الواحد وافي على هذه العبارة بقوله : هكذا وردت العبارة في جميع النسخ . ولا بد أن يكون قد حدث فيها حذف وتكرار ، والوضع الصحيح للعبارة هو ما يلي : «فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الأول يفضي إليهم منه خواصهم من الأولياء ، ويحجب دونه من سواهم من الخاصة والعامّة ؛ بينما كان الحجاب الأول يفضي إليهم منه الخاصة ويحجب دونه من سواهم من العامّة . والحجاب الأول يكون في أول الدولة كما ذكرنا . . .» وقد سهل هذا السقط وهذه الزيادة وجود كلمة «من سواهم» في الجملتين .

ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت الدولة من الترف والعز ما هو معروف، وملت خلق الملك على ما يجب فيها، فدعا ذلك الى الحجاب الثاني، وصار اسم الحجاب أخص به، وصار بباب الخلفاء داران للعباسية: دار الخاصة؛ ودار العامة، كما هو مسطور في أخبارهم.

ثم حدث في الدول حجاب ثالث أخص من الأولين، وهو عند محاولة الحجز على صاحب الدولة. وذلك أن أهل الدولة وخواص الملك إذا نصبوا الأبناء من الأعقاب، وحاولوا الاستبداد عليهم، فأول ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحب عنه بطانة أبيه وخواص أوليائه، يوهمه أن في مباشرتهم إياه خرق حجاب الهيبة، وفساد قانون الأدب، ليقطع بذلك لقاء الغير، ويعودده ملابسة أخلاقه هو، حتى لا يتبدل به سواه، إلى أن يستحكم الاستيلاء عليه، فيكون هذا الحجاب من دواعيه. وهذا الحجاب لا يقع في الغالب إلا أواخر الدولة كما قدمناه في الحجز. ويكون دليلاً على هرم الدولة ونفاد قوتها. وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم؛ لأن القائمين بالدولة يتأولون ذلك بطابعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم، لما دُكِبَ في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصاً مع الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومبادئه.

الفصل الخامس والربعون

في انقسام الدولة الواحدة بدولتين

اعلم أنَّ أَوَّلَ ما يقعُ من آثارِ الهرمِ في الدولة انقسامُها . وذلك أنَّ المُلْكَ عند ما يستفحلُ ويبلغُ من أحوالِ التَّرفِ والنَّعيمِ إلى غايَتها ، ويستبدُّ صاحبُ الدولة بالمجدِ وينفردُ به ، يأنفُ حينئذٍ عن المشاركة ، ويصيرُ إلى قطعِ أسبابها ما استطاعَ ، بإهلاكِ من استرابَ به من ذوي قَرابَتِهِ المرشَّحينَ لمنصبِهِ . فرمَّا ارتأبَ المساهمونَ له في ذلك بأنفسهم ، ونزعوا إلى القاصِيَةِ واجتمعَ إليهم من يلحقُ بهم ، مثلُ حاليهم من الاغترارِ والاستِرابَةِ . ويكونُ نطاقُ الدولة قد أخذَ في التضايِقِ ورجعَ عن القاصِيَةِ ؛ فيستبدُّ ذلك النازِعُ من القَرابةِ فيها . ولا يزالُ أمرُهُ يعظمُ بتراجعِ نطاقِ الدولة ، حتى يُقاسمَ الدولة أو يكاد .

وانظرْ ذلك في الدولة الإسلاميَّة العربيَّة حينَ كانَ أمرُها حريزاً^(١) مجتمِعاً ، ونطاقُها ممتدّاً في الاتِّساعِ ، وعصبِيَّةُ بني عبدِ منافٍ واحدةٌ غالبَةٌ على سائرِ مُضَرَ ، فلم يَنبُضْ عِرْقٌ من الخلافِ سائرَ أيامِهِ ؛ إلَّا ما كانَ من يدعَةِ الخوارجِ المستميتينَ في شأنِ يدعَتِهِمْ ، لم يكنْ ذلك لِنزعةِ مُلْكٍ ولا رئاسةٍ ، ولم يتمَّ أمرُهُمْ لمزاحمتِهِم العصبِيَّةَ القويَّةَ .

(١) متأسكاً قوياً .

ثم لما خرج الأمر من بني أمية ، واستقل بنو العباس بالأمر ، وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من القلب والترف ، وأذنت بالتقلص عن القاصية ، نزع عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، قاصية دولة الاسلام ، فاستحدث بها ملكاً واقتطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين . ثم نزع ادريس إلى المغرب وخرج به وقام بأمره ، وأمر ابنه من بعده البربرية من أوربة ومغيلة وزناتة ، واستولى على ناحية المغربين . ثم ازدادت الدولة تقلصاً فاضطرب الأغلبية في الامتناع عليهم . ثم خرج الشيعة وقام بأمرهم كرامة وصنهاجة ، واستولوا على إفريقية والمغرب ، ثم مصر والشام والحجاز ، وغلبوا على الأدارسة ، وقسموا الدولة دولتين أخريين ، وصارت الدولة العربية ثلاث دول : دولة بني العباس بمرکز العرب ، وأصلهم ومادتهم الاسلام ؛ ودولة بني أمية المجديدين بالأندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالشرق ؛ ودولة العبيديين بإفريقية ومصر والشام والحجاز . ولم تزل هذه الدول إلى أن كان انقراضها متقارباً أو جميعاً .

وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى : وكان بالقاصية بنو سامان فيما وراء النهر وخراسان ؛ والعلوية في الديلم وطبرستان ؛ وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقيين وعلى بغداد والخلفاء . ثم جاء السلجوقية فلكوا جميع ذلك . ثم انقسمت دولتهم أيضاً بعد الاستفحال كما هو معروف في أخبارهم . وكذلك اعتبره في دولة صنهاجة بالمغرب وإفريقية ، لما بلغت

إلى غايتها أيام باديس بن المنصور ، خرج عليه عمه حماد واقتطع ممالك الغرب لنفسه ، ما بين جبل أوراس الى تلمسان وملوية ، واختطف القلعة بجبل كتامة حبال المسيلة ، ونزلها واستولى على مركزهم أشير بجبل تطري ، واستحدث ملكاً آخر قسيماً للملك آل باديس ، وبقي آل باديس بالقيروان وما إليها ، ولم يزل ذلك الى أن انقرض أمرهما جميعاً .

وكذلك دولة الموحدين لما تقلص ظلها ناز بإفريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها ، واستحدثوا ملكاً لأعقابهم بنواحيها . ثم لما استفحل أمرهم واستولى على الغاية ، خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الأمير أبو زكريا يحيى ابن السلطان أبي إسحق إبراهيم رابع خلفائهم ، واستحدث ملكاً ببجاية وقسنطينة وما إليها ، أورثه بنوه ، وقسموا به الدولة قسمين ، ثم استولى على كروسي الحضر بتونس ، ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ، ثم عاد الاستيلاء فيهم .

وقد ينتهي الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاث وفي غير أعياص الملك من قومه ، كما وقع في ملوك الطوائف بالاندلس ، وملوك العجم بالشرق ، وفي ملك صنهاجة بإفريقية ، فقد كان لآخر دولتهم في كل حصن من حصون إفريقية ثأر مستقل بأمره كما تقدم ذكره . وكذا حال الجريد والزاب من إفريقية قبيل هذا العهد كما نذكره .

وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن يعرض فيها عوارض

أَلْهَرَمَ بِالْتَّرَفِ وَالِدَّعَةِ وَتَقْلُصِ ظِلِّ الْغَلَبِ ، فَيَقْتَسِمُ أَعْيَاصُهَا أَوْ مَنْ
يَغْلِبُ مِنْ رِجَالِ دَوْلَتِهَا الْأَمْرَ وَتَتَعَدَّدُ فِيهَا الدُّوَلُ . وَاللَّهُ وَارِثُ
الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا .

الفصل السادس والأربعون

في أن الهرم إذا نزل بالدولة لا يرفع

قد قدّمنا ذكرَ العَوَارِضِ الْمُؤَذِّنَةِ بِالْهَرَمِ وَأَسْبَابِهِ وَاحِداً بَعْدَ
وَاحِدٍ ، وَبَيَّنَّا أَنَّهَا تَحْدُثُ لِلدَّوْلَةِ بِالطَّبْعِ ، وَأَنَّهَا كُلُّهَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ
لَهَا . وَإِذَا كَانَ الْهَرَمُ طَبِيعِيًّا فِي الدَّوْلَةِ كَانَ حَدُوثُهُ بِمَثَابَةِ حَدُوثِ
الْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ ، كَمَا يَحْدُثُ الْهَرَمُ فِي الْمِزَاجِ الْحَيَوَانِيِّ . وَالْهَرَمُ
مِنْ الْأَمْرَاضِ الْمُزْمِنَةِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ دَوَائُهَا وَلَا ارْتِفَاعُهَا ؛ لِأَنَّ
طَبِيعِيٌّ ، وَالْأُمُورَ الطَّبِيعِيَّةُ لَا تَتَبَدَّلُ . وَقَدْ يَتَّبَعُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ
الدَّوْلِ مَنْ لَهُ يَقْظَةٌ فِي السِّيَاسَةِ ، فَيَرَى مَا نَزَلَ بِدَوْلَتِهِمْ مِنْ عَوَارِضِ
الْهَرَمِ ، وَيُظَنُّ أَنََّّهُ مُمْكِنُ الِارْتِفَاعِ ، فَيَأْخُذُ نَفْسَهُ بِتَلَاوِي الدَّوْلَةِ
وإِصْلَاحِ يَزَاجِهَا عَنْ ذَلِكَ الْهَرَمِ ، وَيَحْسَبُهُ أَنَّ لِحَقِّهَا بِتَقْصِيرِ مَنْ
قَبْلَهُ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَغَفْلَتِهِمْ ؛ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ، فَإِنَّهَا أُمُورٌ طَبِيعِيَّةٌ
لِلدَّوْلَةِ ، وَالْعَوَائِدُ هِيَ الْمَالِيَّةُ لَهُ مِنْ تَلَاوِيهَا . وَالْعَوَائِدُ مَنْزِلَةٌ
طَبِيعِيَّةٌ أُخْرَى ؛ فَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَ مَثَلًا أَبَاهُ وَأَكْثَرَ أَهْلِ بَيْتِهِ يَلْبَسُونَ
الْحَرِيرَ وَالْذِيْبَاجَ وَيَتَحَلَّوْنَ بِالذَّهَبِ فِي السِّلَاحِ وَالْمَرَائِكِبِ ، وَيَحْتَجِبُونَ
عَنِ النَّاسِ فِي الْمَجَالِسِ وَالصَّلَوَاتِ ، فَلَا يُمْكِنُهُ مَخَالَفَةُ سَلَفِهِ فِي ذَلِكَ

إلى الخُسُونَةِ في اللباسِ والزِيِّ والاختِلَاطِ بالناسِ ؛ إذ العوائدُ حينئذٍ تَمْنَعُهُ وتَقْصِحُ عليه مُرْتَكَبُهُ . ولو فعله لَرُمِيَ بِالْجُنُونِ والوَسْوَاسِ في الخُرُوجِ عن العَوَائِدِ دَفْعَةً ، وَخُشْيَ عليه عَائِدَةُ ذلك وعاقبَتُهُ في سلطانه .

وانظرْ شأنَ الْأَنْبِيَاءِ في إنكارِ العوائدِ ومخالفتِها ، لولا التأييدُ الإلهيُّ والنصرُ السَّامِيُّ . وربما تكونُ العصبِيَّةُ قد ذهبت فتكونُ الْأُجْبَةُ تَعَوِّضُ عن موقعِها من النُفُوسِ . فإذا أُزِيلَتْ تلك الْأُجْبَةُ مع ضَعْفِ العصبِيَّةِ تَجَاسَرَتِ الرعايا على الدَّوْلَةِ بِذَهَابِ أَوْهَامِ الْأُجْبَةِ ؛ فتتدَرَّعُ الدَّوْلَةُ بتلك الْأُجْبَةِ ما أمكنها حتى ينقضي الأمرُ .

وربما يحدثُ عند آخرِ الدَّوْلَةِ قُوَّةٌ توهمُ أَنَّ الهرمَ قد ارتفعَ عنها ويومضُ ذُبَالُها اِيْمَاضَةُ الْخُمُودِ ، كما يقعُ في الذُّبَالِ المشتعلِ فانه عند مقارَبَةِ انطفائه يومضُ اِيْمَاضَةُ توهمِ أَنَّها اشتعالٌ ، وهي انطفاءٌ . فاعتبرْ ذلك ، ولا تُغْفِلْ سِرَّ اللَّهِ تعالى وحكمتَهُ في اِطِّرادِ وجوده على ما قدَّرَ فيه . ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ .

الفصل السابع والأربعون

في كيفية طروق الخلل للدولة

اعلم أَنَّ مَبْنَى الْمُلْكِ على أَساسَيْنِ لا بدَّ منهما . فالأوَّلُ الشُّوْكَةُ والعصبِيَّةُ وهو الْمَعْبَرُ عنه بالجندِ ؛ والثاني المالُ الذي هو قِوَامُ أولئك الجندِ ، واقامةُ ما يحتاجُ إليه الْمُلْكُ من الْأَحْوالِ . والخللُ

إذا طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين . فلنذكر أولاً طرق الخلل في الشوكة والعصبية ؛ ثم نرجع إلى طرقه في المال والجباية .

١ - واعلم أن تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه إنما يكون بالعصبية ، وأنه لا بد من عصبية كبرى جامعة للعصائب مستتعة لها ، وهي عصبية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة . فإذا جاءت الدولة طبيعة المملك من الترف وجدع أنوف أهل العصبية ، كان^(١) أول ما يجدع أنوف عشيرته وذوي قرابه المقاسمين له في اسم المملك ؛ فيستبد في جدع أنوفهم بما بلغ من سوادهم . يأخذهم الترف أيضاً أكثر من سواهم لمكانهم من المملك والعز والقلب ، فيحيط بهم هادمان وهما الترف والقهر . ثم يصير القهر آخراً إلى القتل لما يحصل من مرض قلوبهم عند رسوخ المملك لصاحب الأمر ، فيقلب غيرته منهم إلى الخوف على ملكه ، فيأخذهم بالقتل والإهانة وسلب النعمة والترف الذي تعودوا الكثير منه ، فيهلكون ويقتلون وتفسد عصبية صاحب الدولة منهم ، وهي العصبية الكبرى التي كانت تجمع بها العصائب وتستتيعها ، فتتحل عروتها وتضعف شكيبتها ، وتستبدل عنها بالبطالة^(٢) من موالى النعمة وصنائع الإحسان ويتخذ منهم عصبية ؛ إلا أنها ليست مثل تلك الشدة الشكيمية ، لفقدان الرحم والقراية منها . وقد كنا قدّمنا أن شأن العصبية وقوتها إنما هي بالقراية

(١) فاعل كان ضمير يرجع إلى صاحب الدولة .

(٢) هكذا في الأصل في جميع النسخ . والسياق يقتضي أن تكون « بالبطانة » .

والرحيم، لما جعل الله في ذلك . فينفردُ صاحبُ الدولة عن العشير
والأنصارِ الطبيعية ، ويحسُّ بذلك أهلُ العصائب الأخرى ،
فيتجاسرونَ عليه وعلى بطانته تجاسراً طبيعياً فيهلكهم صاحبُ الدولة ،
ويُثبِّعهم بالقتل واحداً بعد واحدٍ . ويقلِّدُ الآخرُ من أهل الدولة
في ذلك الأول ؛ مع ما يكونُ قد نزلَ بهم من هلكة الترفِ
الذي قدَّمنا . فيستولي عليهم الهلاكُ بالترفِ والقتل ، حتى يخرجوا
عن صبغة تلك العصبية وينسوا نُعرتَها وسودَّتَها ويصيروا أجراً
على الحماية ، ويقتلونَ لذلك ، فتقلُّ الحامية التي تنزلُ بالأطرافِ
والثغورِ ؛ فيتجاسرُ الرعايا على نقضِ الدعوة في الأطرافِ ، ويبادرُ
الخوارجُ على الدولة من الأعياصِ وغيرهم إلى تلك الأطرافِ ،
لما يرجونَ حينئذٍ من حصولِ غرضهم بمبايعة أهل القاصية لهم
وأمنهم من وصولِ الحامية إليهم . ولا يزالُ ذلك يتدرَّجُ ونطاق
الدولة يتضايقُ حتى تصيرَ الخوارجُ في أقربِ الأماكنِ إلى مركزِ
الدولة . وربما انقسمتِ الدولة عند ذلك بدولتين أو ثلاثٍ ، على
قدر قوتها في الأصل كما قلناه ، ويقومُ بأمرها غيرُ أهل عصبيتها ،
لكن إذعاناً لأهل عصبيتها ولغليهم المعهود .

واعتبرْ هذا في دولة العرب في الإسلام ؛ انتهت أولاً إلى
الأندلس والهند والصين . وكان أمرُ بني أمية نافذاً في جميعِ العربِ
بعصية بني عبد مناف ، حتى لقد أمرَ سليمانُ بنُ عبد الملك من
دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ولم يُردَّ
أمره . ثم تلاشت عصبية بني أمية بما أصابهم من الترفِ فانقرضوا .

وجاء بنو العباس فغضوا من أعنة بني هاشم وقتلوا الطالبين وشردوهم ، فأنحلت عصبية عبد مناف وتلاشت ، وتجاسر العرب عليهم ، فاستبد عليهم أهل القاصية مثل بني الأغلب بإفريقية وأهل الأندلس وغيرهم ، وانقسمت الدولة . ثم خرج بنو إدريس بالمغرب ، وقام البربر بأمرهم إذعانا للعصبية التي لهم ، وأما أن تصلهم مقاتلة أو حامية للدولة .

فإذا خرج الدعاة آخرأ فيتغلبون على الأطراف والقاصية ، وتحصل لهم هناك دعوة وملك تنقسم به الدولة . وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة تقلصاً ، إلى أن ينتهي إلى المركز ، وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف ، فتهلك وتضمحل ، وتضعف الدولة المنقسمة كلها .

وربما طال أمدها بعد ذلك فتستغني عن العصبية بما حصل لها من الصبغة في نفوس أهل إيايتها ، وهي صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يعقل^(١) أحد من الأجيال مبدأها ولا أوليتها ، فلا يعقلون إلا التسليم لصاحب الدولة ، فيستغني بذلك عن قوة العصائب ، ويكفي صاحبها ، بما حصل لها في تهديد أمرها الأجراء على الحامية من جندي ومرتق . ويعضد ذلك ما وقع في النفوس عامة من التسليم فلا يكاد أحد أن يتصور عصياناً أو خروجاً إلا والجمهور منكرون عليه مخالفون له ؛ فلا يقدر على التصدي لذلك ولو جهد جهده . وربما كانت الدولة في هذا الحال

(١) بمعنى يفهم ويتدبر .

أَسْلَمَ مِنَ الْخَوَارِجِ وَالْمَنَازَعَةِ لِاسْتِحْكَامِ صِبْغَةِ لِقْسَلِمِ وَالْإِنْقِيَادِ لَهُمْ . فَلَا تَكَادُ النُّفُوسُ تُحَدِّثُ سِرَّهَا بِمُخَالَفَةٍ ، وَلَا يَخْتَلِجُ فِي ضَمِيرِهَا انْحِرَافٌ عَنِ الطَّاعَةِ ؛ فَيَكُونُ أَسْلَمَ مِنَ الْهَرَجِ وَالْإِنْتِقَاضِ الَّذِي يَحْدُثُ مِنَ الْعَصَائِبِ وَالْعَشَائِرِ . ثُمَّ لَا يَزَالُ أَمْرُ الدَّوْلَةِ كَذَلِكَ وَهِيَ تَتَلَاشَى فِي ذَاتِهَا ، شَأْنَ الْحَرَارَةِ الْغَرِيزِيَّةِ فِي الْبَدَنِ الْعَادِمِ لِلْغِذَاءِ ، إِلَى أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى وَقْتِهَا الْمَقْدُورِ . ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ، وَلِكُلِّ دَوْلَةٍ أَمَدٌ . ﴿ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ .

٢ - وَأَمَّا الْخُلُلُ الَّذِي يَتَطَرَّقُ مِنْ جِهَةِ أَلْمَالِ ، فَاعْلَمْ أَنَّ الدَّوْلَةَ فِي أَوَّلِهَا تَكُونُ بَدْوِيَّةً كَمَا مَرَّ ، فَيَكُونُ خُلُقُ الرِّفْقِ بِالرَّعَايَا وَالْقَصْدِ فِي النِّفَقَاتِ ، وَالتَّعَقُّفِ عَنِ الْأَمْوَالِ ، فَتَتَجَانَفُ عَنِ الْأَمْعَانِ فِي الْجَبَايَةِ ، وَالتَّحَذُّلِ وَالْكَيْسِ فِي جَمْعِ الْأَمْوَالِ وَحُسْبَانِ الْعُمَالِ ، وَلَا دَاعِيَّةَ حِينَنْدٍ إِلَى الْإِسْرَافِ فِي النِّفَقَةِ ، فَلَا تَحْتَاجُ الدَّوْلَةُ إِلَى كَثَرَةِ أَلْمَالِ . ثُمَّ يَحْصُلُ الْإِسْتِيلَاءُ وَيَعْظُمُ ، وَيَسْتَفْجِلُ الْمَلِكُ ، فَيَدْعُو إِلَى التَّرَفِ ، وَيَكْثُرُ الْإِنْفَاقُ بِسَبَبِهِ ، فَتَعْظُمُ نِفَقَاتُ السُّلْطَانِ وَأَهْلِ الدَّوْلَةِ عَلَى الْعُمُومِ ، بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْيَضْرِ ، وَيَدْعُو ذَلِكَ إِلَى الزِّيَادَةِ فِي أُعْطِيَاتِ الْجُنْدِ وَأَرْزَاقِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ . ثُمَّ يَعْظُمُ التَّرَفُ فَيَكْثُرُ الْإِسْرَافُ فِي النِّفَقَاتِ ، وَيَنْتَشِرُ ذَلِكَ فِي الرِّعْيَةِ ، لِأَنَّ النَّاسَ عَلَى دِينِ مَلُوكِهَا وَعَوَائِدِهَا . وَيَحْتَاجُ السُّلْطَانُ إِلَى ضَرْبِ الْمَكُوسِ عَلَى أَثْمَانِ الْبَيَاعَاتِ فِي الْأَسْوَاقِ لِإِدْرَارِ الْجَبَايَةِ لِمَا يَرَاهُ مِنْ تَرَفِ الْمَدِينَةِ الشَّاهِدِ عَلَيْهِمُ بِالزُّفْرِ ، وَلِمَا يَحْتَاجُ هُوَ إِلَيْهِ مِنْ نِفَقَاتِ سُلْطَانِهِ وَأَرْزَاقِ جُنْدِهِ . ثُمَّ تَرِيدُ عَوَائِدُ التَّرَفِ فَلَا تَقِي بِهَا

المكوس ، وتكون الدولة قد استفحلت في الاستطالة والقهر لمن تحت يدها من الرعايا ، فتمتد أيديهم إلى جمع المال من أموال الرعايا ، من مكس أو تجارة أو نقد في بعض الأحوال ، بشبهة أو بغير شبهة . ويكون الجند في ذلك الطور قد تجاسروا على الدولة بما لحقها من الفشل والهرم في العصبية فتتوقع ذلك منهم ، وتداوى بسكينة العطايا وكثرة الإنفاق فيهم ، ولا تجدد عن ذلك وليجة . ويكون جباة الأموال في الدولة قد عظم ثروتهم في هذا الطور بكثرة الجباية وكونها بأيديهم ، وبما اتسع لذلك من جاههم ، فيتوجه إليهم باحتجان الأموال من الجباية ، وتفشو السعاية فيهم بعضهم من بعض للمنافسة والحق ، فتعهم النكبات والمصادرات واحداً واحداً إلى أن تذهب ثروتهم وتتلشى أحوالهم ، ويفقد ما كان للدولة من الأبهة والجمال بهم . فإذا اضطلعت نعمتهم تجاوزتهم الدولة إلى أهل الثروة من الرعايا سواهم . ويكون الوهن في هذا الطور قد لحق الشوكة ، وضعت عن الاستطالة والقهر ، فتصرف سياسة صاحب الدولة حينئذ إلى مداراة الأمور ببذل المال ، ويرهأ أرفع من السيف لقلّة غنائه . فتعظم حاجته إلى الأموال زيادة على النفقات وأرزاق الجند ، ولا يغني فيما يريد^(١) . ويعظم الهرم بالدولة ويتجاسر عليها أهل النواحي ، والدولة تنحل عراها في كل طور من هذه ، إلى أن تُفضي إلى الهلاك وتعرض لاستيلاء الطلاب . فإن قصدتها طالب انتزعها من أيدي القائمين بها ، وإلا

(١) أي لا يغني ما يبذله في تحقيق ما يريد.

بقيت وهي تتلاشى إلى أن تَضْمَحِلْ كَالذُّبَالِ فِي السَّرَاجِ إِذَا فِي زَيْتُهُ وَطْفَى. . وَاللَّهُ مَالِكُ الْأُمُورِ وَمُدِيرُ الْأَكْوَانِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

فَصْلٌ فِي اتِّسَاعِ نِطَاقِ الدَّوْلَةِ

أولاً إلى نهليته ثم تضيقه طويلاً بعد طور

إلى فنا، الدولة واضمحلالها^(١)

قد كَانَ تَقَدَّمَ لَنَا فِي فَصْلِ الْخِلَافَةِ وَالْمُلْكِ ، وَهُوَ الثَّالِثُ مِنْ هَذِهِ الْمَقْدَمَةِ ، أَنَّ كُلَّ دَوْلَةٍ لَهَا حِصَّةٌ مِنَ الْمَالِكِ وَالْعِمَالَتِ لَا تَرِيدُ عَلَيْهَا . وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِتَوَزِيعِ عِصَابَةِ الدَّوْلَةِ عَلَى حِمَايَةِ أَقْطَارِهَا وَجِهَاتِهَا . فَحَيْثُ نَفَدَ عِدْدُهُمْ فَالطَّرْفُ الَّذِي انْتَهَى عِنْدَهُ هُوَ الشَّعْرُ؛ وَيَحِيطُ بِالدَّوْلَةِ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهَا كَالنِّطَاقِ . وَقَدْ تَكُونُ النِّهَايَةُ هِيَ نِطَاقَ الدَّوْلَةِ الْأُولَى . وَقَدْ يَكُونُ أَوْسَعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ عِدْدُ الْعِصَابَةِ أَوْفَرَ مِنَ الدَّوْلَةِ قَبْلَهَا . وَهَذَا كُلُّهُ عِنْدَمَا تَكُونُ الدَّوْلَةُ فِي شَعَارِ الْبِدَاوَةِ وَخُشُونَةِ الْبَاسِ . فَإِذَا اسْتَفْجَلَ الْعِزُّ وَالْغَلَبُ وَتَوَفَّرَتِ النِّعَمُ وَالْأَذْرَاقُ بِدُرُورِ الْجَبَايَاتِ ، وَزَخَرَ بِحَرِّ التَّرَفِ وَالْحِضَارَةِ وَنَشَأَتِ الْأَجْيَالُ عَلَى اعْتِبَارِ ذَلِكَ لَطْفَتْ أَخْلَاقُ الْحَامِيَةِ وَرَقَّتْ حَوَاشِيهِمْ ،

(١) نقلنا هذا الفصل عن طبعة (لجنة البيان العربي).

وقد علق الدكتور علي عبد الواحد وافي على هذا الفصل بقوله : «هذا الفصل هو أحد الفصول التي تزيد بها طبعة باريس عن الطبقات المتداولة في العالم العربي . وقد وضع في طبعة باريس في هذا الموضع ، أي بعد الفصل السابع والأربعين من هذا الباب» . نقلنا هذا الفصل حرصاً على أن لا نترك من المقدمة فصلاً لم يذكر برمته ، فيحرم قراؤنا من فائدته .

وعادَ من ذلك إلى نفوسهم هيئاتُ الجُبنِ والكسلِ ، بما يُعانَوْنَهُ من خَنكِ الحضارةِ المؤدِّي إلى الانسلاخِ من شعارِ البأسِ والرجوليَّةِ ، بمفارقةِ البداوةِ وخشونتها ، وبأخذهم العزَّ بالتطاوُلِ إلى الرياسةِ والتنازُعِ عليها ؛ فيُفْضِي إلى قتلِ بعضهم ببعضٍ ، ويكْبِهُهُمْ السُّلْطَانُ عن ذلك بما يُوَدِّي إلى قتلِ أكابرهم وإهلاكِ رؤسائهم ؛ فَتَقْدُرُ الْأُمَرَاءُ وَالْكَبَرَاءُ ، ويكثرُ التابعُ والمُرُؤُسُ ، فَيَقْلُ ذلك من حدِّ الدولةِ ، ويكسِرُ من شوكتها . ويقعُ الخللُ الأوَّلُ في الدولةِ ، وهو الذي من جهةِ الجُندِ وأُحَامِيَةِ كما تقدَّم . ويساويقُ ذلك السَّرْفُ في النفقاتِ بما يعتريهم من أبهةِ العزِّ ، وتجاوزِ الحدودِ بالبذخِ ؛ بالمناعةِ في المَطَاعِمِ والملابسِ وتشديدِ القصورِ واستجادةِ السلاحِ وارتباطِ الخيولِ ، فيَقْصُرُ دَخْلُ الدولةِ حينئذٍ عن خرجها ويطرُقُ الخللُ الثاني في الدولةِ وهو الذي من جهةِ أُمَالٍ والجبايةِ . ويحصلُ العجزُ والانتقاصُ بوجودِ الخللينِ . وربما تنافَسَ رؤساؤُهم فتنازعوا وعجزوا عن مغالبةِ المجاورينَ والمنازعينَ ومدافعتهم . وربما اعتزَّ أهلُ الثغورِ والأطرافِ بما يحسُّونَ من ضعفِ الدولةِ وراءئهم ، فيصيرونَ إلى الاستقلالِ والاستبدادِ بما في أيديهم من العيالاتِ ، ويعجزُ صاحبُ الدولةِ عن حملهم على الجادةِ ، فيضيقُ نطاقُ الدولةِ عما كانت انتهت إليه في أولها ، وترجعُ العنايةُ في تدبيرها بنطاقِ دونه ، إلى أن يحدثَ في النطاقِ الثاني ما حدثَ في الأوَّلِ بعينه من العجزِ والكسلِ في العصابةِ وقلةِ الأموالِ والجبايةِ . فيذهبُ القائمُ بالدولةِ إلى تغييرِ القوانينِ

التي كانت عليها سياسة الدولة من قِبَلِ الجندِ والمالِ والولاياتٍ ،
ليجريَ حالُها على استقامةٍ بتكافؤِ الدَّخْلِ والخَرْجِ والحاميةِ والعِمالاتِ
وتوزيعِ الجبايةِ على الأرزاقِ ، ومقايضةِ ذلك بأوَّلِ الدولة في سائرِ
الأحوالِ . والمفاسدُ مع ذلك متوقَّعةٌ من كلِّ جهةٍ . فيحدثُ في هذا
الطورِ من بعدُ ما حدثَ في الأوَّلِ من قبلُ . ويعتبرُ صاحبُ الدولة
ما اعتبره الأوَّلُ ، ويقايسُ بالوزانِ^(١) الأوَّلِ أحوالها الثانيةَ ، يروم
دفعَ مفايدِ الخللِ الذي يتجددُ في كلِّ طورٍ ويأخذُ من كلِّ طرفٍ
حتى يضيقَ نطاقُها الآخرُ إلى نطاقٍ دونَه كذلك ، ويقعُ فيه ما
وقع في الأوَّلِ . فكلُّ واحدٍ من هؤلاءِ المغيرينَ للقوانينِ قبلَهُمْ
كانَهُمْ مُنشئونَ دولةٍ أخرى ، ومجدِّدونَ مُلكاً . حتى تنقرضَ الدولةُ ،
وتتطاوَلِ الأُممُ حولها إلى التغلُّبِ عليها وإنشاءِ دولةٍ أخرى لهم ،
فيقعُ من ذلك ما قدَّرَ اللهُ وقوعَهُ .

واعتبرَ ذلك في الدولةِ الإسلاميَّةِ كيف اتسعَ نطاقُها بالفتوحاتِ
والتغلُّبِ على الأُممِ ، ثم ترايدِ الحاميَّةِ وتكاثرِ عديهِمْ بما تخوَّلوهُ
من النِّعمِ والأرزاقِ ، إلى أن انقرضَ أمرُ بني أُميَّةٍ وغلبَ بنو
العبَّاسِ . ثم ترايدِ التَّرفِ ، ونشأتِ الحضارةُ ، وطرقُ الخللِ ، فضاقَ
النطاقُ من الأندلسِ والمغربِ بحدوثِ الدولةِ الأمويَّةِ المروانيَّةِ
والعلويَّةِ ، واقتطعوا ذينكَ الشَّعْرَيْنِ عن نطاقِها ، إلى أن وقعَ
الخلافُ بين بني الرشيدِ ، وظهرَ دُعاةُ العلويَّةِ من كلِّ جانبٍ ،
وقمَّدتْ لهم دولٌ ، ثم قُتِلَ الْمُتَوَكِّلُ ، واستبدَّ الأئمَّاءُ على الخلفاءِ

(١) قايِسُ بين الأمرينِ : قَدَّرَ . وازنه : عادلهُ وقابلهُ (قاموس) .

وحجروهم ، واستَقَلَّ الوُلاةُ بالِمِلاتِ في الأَطرافِ . وانقَطَعَ
الخِراجُ منها ، وترايَدَ التَّرفُ . وجاءَ المُعْتَصِدُ فغَيَّرَ قوانينَ الدولة
إلى قانونٍ آخر من السياسةِ أَقْطَعَ فيه ولاةَ الأَطرافِ ما غلبوا
عليه ، مثل بني سامانَ وراءَ النهرِ وبني طاهرٍ العراقَ وخُراسانَ ،
وبني الصَّفَّارِ السندَ وفارسَ ، وبني طولونَ مِصرَ ، وبني الأَغلِبِ
إفريقيَّةَ ، إلى أن افترقَ أمرُ العَرَبِ وغلبَ العَجَمُ ، واستَبَدَّ بنو بُويهِ
والديلمِ بدولةِ الإسلامِ وحَجَرُوا الخِلافةَ ، وبقي بنو سامانَ في
استبداجهم وراءَ النهرِ ، وتطاوَلَ الفاطميُّونَ من المَغربِ إلى مِصرَ
والشامِ فلكوه . ثم قامتِ الدولةُ السُلجُوقيَّةُ من التُّركِ فاستولوا
على ممالكِ الإسلامِ وأَبَقُوا الخلفاءَ في حَجَرِهِمْ ، إلى أن تلاشت
دُوْلُهُمْ . واستَبَدَّ الخلفاءُ منذ عهدِ الناصرِ في نطاقِ أَضيقٍ من هالةِ
القَمَرِ وهو عراقُ العَرَبِ إلى أَصْبَهانَ وفارسَ والبَحْرَيْنِ . وأقامتِ
الدولةُ كذلك بعضَ الشيءِ إلى أن انقَرَضَ أمرُ الخلفاءِ على يدي
هولاكو بن طولِي بن دوشي خان ملكِ التَّتَرِ والمُغُلِ حين غلبوا
السُلجُوقيَّةَ وملكوا ما كانَ بأيديهم من ممالكِ الإسلامِ . وهكذا
يَتَضايقُ نطاقُ كلِّ دولةٍ على نِسْبَةِ نطاقِها الأوَّلِ . ولا يزالُ طوراً
بعدَ طَوَرٍ إلى أن تنقَرَضَ الدولةُ . واعتَبِرَ ذلك في كلِّ دولةٍ عَظُمَتْ
أو صَغُرَتْ . فهكذا سُنَّةُ اللَّهِ في الدُولِ إلى أن يأتي ما قَدَّرَ اللَّهُ
من الفناءِ على خلقِهِ . ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (١)

الفصل الثامن والأربعون

في حدوث الدولة وتجديدها كيف يقع

إِعلم أن نشأة الدول وبدايتها إذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاص يكون على نوعين :

إما بأن يستبدّ ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية عندما يتقاصّ ظلّها عنهم ، فتكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقرّ في نصابه ، يرثه عنه أبناؤه أو مواليه ، ويستفحل لهم الملك بالتدريج ، وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه ، ويتنازعون في الاستئثار به ، ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه ، وينتزع ما في يده ، كما وقع في دولة بني العباس حين أخذت دولتهم في الهرم ، وتقلّص ظلّها عن القاصية ، واستبدّ بنو سامان بما وراء النهر ، وبنو حمدان بالموصل والشام ، وبنو طولون بمصر ، وكما وقع بالدولة الأموية بالأندلس وافترق ملكها في الطوائف الذين كانوا ولايتها في الأعمال ، وانقسمت دولا وملوكا أورثوها من بعدهم من قرابتهم أو مواليتهم . وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب لأنهم مستقرون في رئاستهم ، ولا يطمعون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب ، وإنما الدولة أدركها الهرم وتقلّص ظلّها عن القاصية ، وعجزت عن الوصول إليها .

والنوع الثاني بأن يخرج على الدولة خارج يمين نجاحها من الأمم والقبائل إما بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرنا إليه ، أو يكون صاحب شوكة وعصبية كبيراً في قومه قد استفحل أمره فيسمو بهم إلى الملك ، وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة ، وما نزل بها من الهرم فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ، ويمارسونها بالمطالبة إلى أن يظفروا بها ويزنون^(١) أمرها كما يتبين. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل التاسع والأربعون

في ان الدولة المستقرة انما تستولي على الدولة المستقرة
بالمطالبة لا بالمنفعة

قد ذكرنا أن الدول الحادثة المتجددة نوعان : نوع من ولاية الأطراف إذا تقلص ظل الدولة عنهم وانحسر تيارها ، وهؤلاء لا يقع منهم مطالبة للدولة في الأكثر كما قدمناه ، لأن قصاراهم القنوع^(٢) بما في أيديهم وهو نهاية قوتهم ؛ والنوع الثاني نوع الدعاة والحوارج على الدولة ، وهؤلاء لا بد لهم من المطالبة ، لأن قوتهم وافية بها ، فإن ذلك إنما يكون في نصاب يكون له من

(١) قوله : ويزنون ، وفي نسخة ويرفون من رفا الثوب : أصلحه (قاموس).

(٢) كذا ، والأصح هنا : القنع أو القناعة . وورد في لسان العرب : «قال ابن السكيت : ومن

العرب من يميز القنوع بمعنى القناعة».

العصبية والاعتزاز ما هو كفاه^(١) ذلك وواف به ؛ فيقع بينهم وبين الدولة المستقرة حروبٌ سجالٌ تتصكّر وتصل إلى أن يقع لهم الاستيلاء والظفر بالمطلوب . ولا يحصل لهم في الغالب ظفر بالمنازعة . والسبب في ذلك أن الظفر في الحروب إنما يقع كما قدمناه بأمرٍ نفسانية وهمية ، وإن كان العدوّ والسلاح وصدق القتال كفيلاً به لكنّه قاصرٌ مع تلك الأمور الوهمية كما مرّ ؛ ولذلك كان الخداع من أنفع ما يستعمل في الحرب وأكثر ما يقع الظفر به ؛ وفي الحديث : « الحرب خدعة » .

والدولة المستقرة قد صيرت العوائد المألوفة طاعتها ضرورةً واجبةً كما تقدّم في غير موضع ؛ فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة ويكسر من همم أتباعه وأهل شوكته ، وإن كان الأقربون من بطانته على بصيرة في طاعته ومؤازرته ، إلا أن الآخرين أكثر ، وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد في التسليم للدولة المستقرة ، فيحصل بعض الفتور منهم ، ولا يكاد صاحب الدولة المستجدة يقاوم صاحب الدولة المستقرة . فيرجع إلى الصبر والمطالبة ، حتى يتضح هزم الدولة المستقرة ، فتضمحل عقائد التسليم لها من قومه ، وتنبت منهم لهمم لصدق المطالبة معه ، فيقع الظفر والاستيلاء .

وأيضاً فالدولة المستقرة كثيرة الرزق^(٢) بما استحکم لهم من

(١) كذا ، والأصح : كفاء أو كفاء أو كفوء . وقد ورد في لسان العرب : « تقول : لا كفاء له ، بالكسر ، وهو في الأصل مصدر ، أي لا نظيره » .
(٢) كذا ، وفي نسخة : « كثيرة الترف » .

الملك وتوسّع من النعيم واللذات، واختصوا به دون غيرهم من أموال الجباية، فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجادة الأسلحة، وتعظم فيهم الأبهة الملكية، ويفيض العطاء بينهم من ملوكهم اختياراً واضطراً فِيرْهَبُونَ بذلك كله عدوئهم. وأهل الدولة المستجدة بمزلة عن ذلك؛ لما هم فيه من البداوة وأحوال الفقر والخصاصة^(١) فيسبِقُ إلى قلوبهم أوْهَامُ الرُّعْبِ، بما يبلغهم من أحوال الدولة المستقرة^(٢)، ويُجْمَوْنَ عن قتالهم من أجل ذلك؛ فيصيرُ أمرهم إلى المطاوعة، حتى تأخذ المستقرة مأخذها من أهرم، ويستحكم الخلل فيها في العصبية والجباية، فينتهز حينئذ صاحب الدولة المستجدة فرصته في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة. سُنَّةُ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ.

وأيضاً فأهل الدولة المستجدة كلُّهم مباينون للدولة المستقرة بأنسابهم وعوائدهم وفي سائر مناحيهم، ثم هم مفاجرون لهم ومنايدون بما وقع من هذه المطالبة وبطمعهم في الاستيلاء عليها، فتتمكن المباعدة بين أهل الدولتين سرّاً وجهراً، ولا يصل إلى أهل الدولة المستجدة خبرٌ عن أهل الدولة المستقرة، يصيبون منه غيرة^(٣) باطناً وظاهراً، لانقطاع المداخلة بين الدولتين، فيقيمون على المطالبة وهم في إحجام، وَيَنْكُلُونَ^(٤) عن المناجزة حتى يأذن

(١) الخصاصة بمعنى الفقر. وفي إحدى النسخ هنا زيادة العبارة التالية: «التي يفقد معها الاستعداد من ذلك».

(٢) في إحدى النسخ هنا زيادة «وكثرة استعدادها».

(٣) غرة بكسر الغين: غفلة.

(٤) نكل: نكص، جبن (قاموس).

اللهُ بزوالِ الدولةِ المُستقرّةِ وفناءِ عمرها ، ووفورِ الخللِ في جميعِ جِهاَتِها ، ويتّضحُ لأهلِ الدولةِ المُستجدةِ معَ الأيامِ ما كانَ يخفى منها ، من هَرَبِها وتلاشيها ، وقد عَظُمَت قوَّتُهم بما اقتطعوه من أَعْمَالِها ونَقْصوه من أطرافِها ، فتنبعثُ همهمُ يداً واحدةً للمناجزةِ ، ويذهبُ ما كانَ يَفْتُ في عزائهم من التوهّاتِ ، وتنتهي المطاولةُ الى حدّها ، ويقعُ الاستيلاءُ آخِراً بالمعاجلةِ .

واعتبر ذلك في دولةِ بني العباسِ حينَ ظهورِها ، حينَ قامَ الشيعةُ بخراسانَ بعد انقِدادِ الدعوةِ واجتماعهم على المطالبةِ عَشْرَ سنينَ أو تَريدُ . وحينئذٍ تمَّ لهم الظَّفَرُ واستولوا على الدولةِ الأمويةِ .

وكذا العلويةُ بطبرستانَ عندَ ظهورِ دعوتهم في الدَّيْلَمِ ، كيف كانت مطاولتهم حتى استولوا على تلكَ الناحيةِ . ثم لما انقضى أمرُ العلويةِ وسما الدَّيْلَمُ الى مُلْكِ فارسَ والعِراقينِ ، فكشوا سنينَ كثيرةً يُطاولونَ حتى اقتطعوا أَصْبَهانَ ، ثم استولوا على الخليفةِ ببغدادَ .

وكذا العبيديونَ أقامَ داعيتهم بالمغربِ أبو عبدِ الله الشيعيُّ ببني كُتامةٍ من قبائل البربرِ عَشْرَ سنينَ ، ويزيدُ يُطاولُ بني الأغلِبِ بإفريقيةَ حتى ظَفَرَ بهم ، واستولوا^(١) على المغربِ كُلِّهِ ، وسَمَوْا الى مُلْكِ مِصرَ ، فكشوا ثلاثينَ^(٢) سنةً أو نحوها في طلبِها يُجهِّزونَ إليها

(١) أي استولى العبيديون .

(٢) كذا بالأصول ، ويتضح من مجرى الحوادث التاريخية المثبتة في تاريخ ابن خلدون نفسه وفي الكامل لابن الأثير أن هذه المدة هي ستون سنة . ويظهر أن كلمة ثلاثين خطأ في النسخ .

العساكر والأساطيل في كل وقت ، ويجيئ المدد لمداغتهم برأ وجرأ من بغداد والشام ، وملكوا الإسكندرية والفيوم والصعيد ، وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز وأقيمت بالحرمين . ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر واستولى عليها ، واقتلع دولة بني طنج من أصولها ، واختط القاهرة ، فجاء الخليفة بعد ، أُميرُ لدين الله ، فزَلَّها لستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على الإسكندرية .

وكذا السلجوقية ملوك الترك لما استولوا على بني سامان ، وأجازوا من وراء النهر مكثوا نحواً من ثلاثين سنة ، يطاولون بني سُبُكتكين بخراسان حتى استولوا على دولته . ثم زحفوا إلى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر .

وكذا التتر من بعدهم خرجوا من المفازة عام سبع عشرة وستائة فلم يَتَمَّ لهم الاستيلاء إلا بعد أربعين سنة .

وكذا أهل المغرب ، خرج به المرابطون من لمتونة على ملوكه من مَراوة ، فطاولوهم سنين ، ثم استولوا عليه . ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة ، فكثوا نحواً من ثلاثين سنة يُجَارِبُونَهُمْ ، حتى استولوا على كرسيتهم بمراكش .

وكذا بنو مرين من زَنَاتَة خرجوا على الموحدين فكثوا يطاولونهم نحواً من ثلاثين سنة ، وأستولوا على فاس واقتطعوها وأعمالها من ملكهم . ثم أقاموا في محاربتهم ثلاثين أخرى ، حتى استولوا على كرسيتهم بمراكش حسبما نذكرُ ذلك كله في تواريخ .

هذه الدُول . فهكذا حالُ الدولِ المستَجِدَّةِ معِ المستَقَرَّةِ في المطالَبةِ والمطاوَلَةِ . سُنَّةُ اللَّهِ في عبادِهِ ؛ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا .
ولا يُعَارَضُ ذلكَ بما وقعَ في الفُتُوحاتِ الإسلاميَّةِ وكيفَ كانَ استيلاؤُهُم على فارسَ والرومِ لثلاثِ أو أربعِ من وفاةِ النَّبِيِّ ﷺ . واعلم أنَّ ذلكَ إنما كانَ مُعْجَزَةً من مُعْجَزاتِ نَبِيِّنا ﷺ ؛ سرُّها استماتَةُ المسلمينَ في جهادِ عدوِّهم استبصاراً بالآيمانِ ، وما أوقعَ اللَّهُ في قلوبِ عدوِّهم من الرعبِ والتخاذُلِ . فكانَ ذلكَ كُلُّهُ خارقاً للعادَةِ المقرَّرةِ في مطاوَلَةِ الدولِ المستَجِدَّةِ للمستَقَرَّةِ . وإذا كانَ ذلكَ خارقاً فهو من مُعْجَزاتِ نَبِيِّنا صلواتُ اللَّهِ عليه ، المتعارَفِ ظهورُها في أَلَمَّةِ الإسلامِ . والمُعْجَزاتُ لا يُقاسُ عليها الأُمُورُ العاديَّةُ ، ولا يُعْتَرَضُ بها . واللَّهُ سبحانه وتعالى أعلمُ وبِهِ التَّوْفِيقُ .

الفصلُ النحرُومُ

في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات

إِعلم أَنَّهُ قد تَقَرَّرَ لك فيما سَلَفَ أَنَّ الدولةَ في أوَّلِ أمرِها لا بدُّ لها من الرِّفْقِ في مَلَكَّتِها والاعتِدالِ في إِيالِها ، إما من الدينِ إن كانتِ الدعوةُ دينيَّةً أو من المكارمةِ والمحاسنةِ التي تقتضيها البِدَاوَةُ الطَّبِيعِيَّةُ للدُّولِ . وإذا كانتِ المَلَكَةُ^(١) رَفِيقَةً مُحْسِنَةً

(١) المَلَكَةُ بفتح الميم واللام : بمعنى الملك .

انبسطت آمالُ الرعايا ، وانتشطوا لل عمرانِ وأسبابه فتوقروا ، ويكثرُ التناسلُ . وإذا كان ذلك كله بالتدريجِ فإنما يظهرُ أثرُهُ بعد جيلٍ أو جيلين في الأقلِّ . وفي انقضاء الجيلين تُشرفُ الدولةُ على نهايةِ عمرها الطبيعيِّ ، فيكونُ حينئذٍ العمرانُ في غايةِ الوفورِ والنماءِ . ولا تقولنَّ إنه قد مرَّ لك أن أواخرَ الدولةِ يكون فيها الإجحافُ بالرعايا ، وسوءُ المَلَكَةِ ، فذلك صحيحٌ ، ولا يُعارضُ ما قلناه ؛ لأنَّ الإجحافَ وإن حدثَ حينئذٍ ، وقلَّتِ الجباياتُ فإنما يظهرُ أثرُهُ في تناقصِ العمرانِ بعد حينٍ ، من أجلِ التدريجِ في الأمورِ الطبيعيةِ . ثم إن المجاعاتِ والموتانِ تكثرُ عند ذلك في أواخرِ الدولِ . والسببُ فيه :

أما المجاعاتُ فلقبضِ الناسِ أيديهم عن الفلحِ في الأكثرِ ، بسببِ ما يقعُ في آخرِ الدولةِ من العُدوانِ في الأموالِ والجباياتِ ، أو الفتنِ الواقعةِ في انتقاضِ الرعايا وكثرةِ الحوارجِ لهرمِ الدولةِ ، فيقلُّ احتكاكُ الزرعِ غالباً ؛ وليس صلاحُ الزرعِ وثمرتهُ بمستمِرِّ الوجودِ ، ولا على وتيرةٍ واحدةٍ ، فطبيعةُ العالمِ في كثرةِ الأمطارِ وقلتها مختلفةٌ ، والمطرُ يقوى ويضعفُ ويقلُّ ويكثرُ ، والزرعُ والثمارُ والضرعُ على نسبتهِ ، إلا أن الناسَ واثقونَ في أقواتهم بالاحتكارِ . فإذا فُقدَ الاحتكارُ عَظُمَ توقُّعُ الناسِ للمجاعاتِ فعلا الزرعُ ، وعجزَ عنه أولو الخاصَّةِ فهلكوا ، وكان بعضُ^(١) السنواتِ ، والاحتكارُ مفقودٌ ، فشملَ الناسَ الجوعُ .

(١) كان هنا تامة بمعنى حصل ، وبعض فاعل كان التامة .

وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه، أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل، أو وقوع الوباء. وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة. وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح الحيواني وملايسه دائماً فيسري الفساد الى مزاجه. فإن كان الفساد قوياً وقع المرض في الرئة. وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة. وإن كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف، فتكثر الحميات في الأمزجة وتقرض الابدان وتهلك. وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة، لما كان في أوائها من حسن الملكة ورفقها وقلة المغم، وهو ظاهر. ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري، ليكون تنجس الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات، ويأتي بالهواء الصحيح. ولهذا أيضاً فإن الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير، كمصر بالشرق وفاس بالمغرب. والله يُقَدِّرُ ما يشاء.

الفصل الحادى والعشرون

ففي ان العمران البشرى لا بد له من سياسة ينتظم بها امره

اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري، وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه، وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه؛ وحكمه فيهم: تارة يكون مستنداً إلى شرع مُنزل من عند الله يوجب انقيادهم إليه إيمانهم بالشواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغة؛ وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم. فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة، ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة، والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط.

وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب، وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتى يستغنوا عن الحكم رأساً. ويسمى المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بـ«المدينة الفاضلة»؛ والقوانين المراعاة في ذلك بـ«السياسة المدنية». وليس مرادهم السياسة التي يُحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة؛ فإن هذه غير تلك. وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع، وإنما يتكلمون عليها على جهة الفرض والتقدير.

ثم إن السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين : أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ، ومصالح السُلطان في استقامة مُلكه على الخصوص . وهذه كانت سياسة الفُرس وهي على جهة الحكمة . وقد أغناها الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة ، لأن الأحكام الشرعية مُغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآداب ، وأحكام المُلوك مُندرجة فيها . الوجه الثاني أن يراعى فيها مصلحة السُلطان وكيف يستقيم له المُلوك مع القهر والاستِطالة ، وتكون المصالح العامة في هذه تبعاً . وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لسائر الملوك في العالم من مسلم وكافر . إلا أن ملوك المسلمين يَجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جُهدهم ؛ فقوانينها إذاً مجتمعة من أحكام شرعية ، وآداب خُلُقِيَّة ، وقوانين في الاجتماع طبيعِيَّة ، وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية ؛ والاعتدائه فيها بالشرع أوْلاً ، ثم الحكماء في آدابهم والملوك في سِيَرهم .

ومن أحسن ما كُتِبَ في ذلك وأودِعَ كتابُ طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرِّقَّةَ ومِصرَ وما بينهما . فكتب إليه أبوه طاهر كتابه المشهور عهد إليه فيه ، ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسُلطانه من الآداب الدينية والخُلُقِيَّة ، والسياسة الشرعية والملوكِيَّة ، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيم بما لا يستغني عنه مَلِكٌ ، ولا سوقة . ونصُّ الكتاب :

نص كتاب طاهر بن الحسين لابنه عبدالله

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعدُ فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته، ومراقبته عز وجل، ومزايلة^(١) سُخْطِهِ . واحفظ رعيَّتَكَ في الليل والنهار. والزم ما أَلْبَسَكَ اللهُ من العافية بالذكر لمعادك وما أَنْتَ صائرٌ إليه وموقوفٌ عليه ومسؤولٌ عنه، والعمل في ذلك كُلِّهِ بما يعصمُك اللهُ عز وجل ويُنجِّيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه . فَإِنَّ اللهَ سُبحَانَهُ قد أَحْسَنَ إِلَيْكَ وأوجب الرأفةَ عليك بمن استرعاكَ أمرهم من عبادِهِ، وألزمَكَ العدلَ فيهم، والقيامَ بحَقِّهِ وحدوده عليهم، والذبَّ عنهم، والدفعَ عن حريمهم ومنصبهم، والْحَقْنَ^(٢) لدمائهم، والأَمْنَ لسيَرِهم، وإدخالَ الراحةَ عليهم . ومؤاخِذَكَ بما فُرضَ عليك، وموقِفَكَ عليه، وسائلَكَ عنه، ومثيبَكَ عليه بما قَدِّمْتَ وأَخَّرْتَ . ففرِّغْ لذلك فَهَمَكَ وعقلَكَ وبصرَكَ، ولا يَشغَلَكَ عنه شاغلٌ، وإنَّه رأسُ أمرِكَ ومِلاكُ^(٣) شَأْنِكَ، وأوَّلُ ما يوقِفُكَ اللهُ عليه . وليكن أوَّلُ ما تُلْزَمُ بِهِ نَفْسَكَ، وتُنَسِّبُ إِلَيْهِ فَعْلَكَ، المواظبةَ على ما فرضَ اللهُ عز وجلَ عليك من الصلواتِ الخمسِ والجماعةِ عليها بالناسِ قِبْلَكَ، وتوقُّعُها على سُنَنِها، من إسباغِ الوضوء لها وافتتاحِ ذكرِ اللهِ عز

(١) بمعنى الابتعاد.

(٢) حقن الدم: ضد هدره.

(٣) ملاك الأمر: قوامه. يقال: «القلب ملاك الجسد».

وجلّ فيها ، ورّتل في قراءتك ، وتمكن في ركوعك وسجودك
وتشهّدك ، ولتصرف فيه رأيك ونيتك ، واحضض عليه جماعة ممن
معك وتحت يدك ، وادأب عليها ، فإنها كما قال الله عز وجل :
﴿ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾^(١).

ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله ﷺ ، والمثابرة على
خلائقه ، واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده . وإذا ورد عليك
أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه ، وبلزوم ما أنزل
الله عز وجل في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه ، وإتمام
ما جاءت به الآثار عن رسول الله ﷺ ، ثم فم فيه بالحق لله
عز وجل . ولا تملن عن العدل فيما أحبت أو كرهت لقريب
من الناس أو لبعيد .

وأثر الفقه وأهله والدين وسمّلته ، وكتاب الله عز وجل
والعاملين به^(٢) ؛ فإن أفضل ما يتزّين به المرء الفقه في الدين ،
والطلب له ، والحث عليه ، والمعرفة بما يتقرّب به الى الله عز وجل
فإنه الدليل على الخير كلّه والقائد إليه والآمر به ، والناهي عن
المعاصي والموبقات كلّها . ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء
معرفة واجلالاً له ، ودرّكاً^(٣) للدّرجات العلى في المعاد ، مع ما في

(١) من آية (٤٥) من سورة العنكبوت .

(٢) كذا ، ومقتضى سياق العبارة : « وأثر الفقه وأهله ، والدين والعاملين به ، وكتاب الله عز

وجل وسمّلته » .

(٣) اسم من أدركت الشيء .

ظهوره للناس من التوقير لامرك ، والهيبة لسلطانك ، والأنسة بك ،
والثقة بعدلك .

وعليك بالاعتقاد في الأمور كلها ؛ فليس شيء أبين نفعاً ،
ولا أخصّ أمناً ، ولا أجمع فضلاً منه . والقصد داعية إلى الرشيد ،
والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق قائد إلى السعادة ، وقوام
الدين والسُنن الهادية بالاعتقاد ، فأثره في دنياك كلها .

ولا تقصّر في طلب الآخرة والأجر والأعمال الصالحة والسُنن
المعروفة ومطالع الرشيد والاعانة ، والاستكثار من البرّ والسعي
له إذا كان يُطلب به وجه الله تعالى ومرضاؤه ، ومُرافقة أولياء
الله في دار كرامته . واعلم أن القصد في شأن الدنيا يورث العزّ
ويحصّ^(١) من الذنوب ، وأنتك لن تحوط نفسك من قائل ، ولا
تصلح أمورك بأفضل منه ، فأته واهتد به تتم أمورك وترد
مقدرك وتصلح عامتك وخاصتك . وأحسن ظنك بالله عز وجل
تستقيم لك رعيّتك ، والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها تستديم
به النعمة عليك .

ولا تتهم أحدًا من الناس فيما تؤليه من عملك قبل أن
تكشف أمره ؛ فإنّ إيقاع التهم بالبرّاء ، والظنون السيئة بهم ، آثم
إثم . فاجمل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء
الظن بهم ، وارفضه فيهم ، يُعِنك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم .
ولا تتخذنّ عدو الله الشيطان في أمرك معمداً ، فإنه إنّما يكتفي

(١) يحص: يقلل .

بالقليل من وهنك ويُدخلُ عليك من النعم بسوء الظن بهم ما يُنقصُ لذاذة عيشك. وأعلم أنك تجدُ بحسن الظن قوةً وراحةً ، وتكتفي به ما أحبت كفايته من أمورِكَ ، وتدعو به الناسَ الى محبتِكَ والاستقامة في الأمورِ كُلِّها . ولا يمتنعُ حسنُ الظنِّ بأصحابك ، والرافةُ برعيَّتِكَ ، أن تستعملَ المسألةَ والبحثَ عن أمورِكَ . والمباشرةُ لأُمُورِ الأولياءِ وحياطةُ الرعيةِ والنظرُ في حوائجهم ، وحملُ مؤوناتهم ، أيسرُ عندك مما سوى ذلك ، فإنه أقومُ للدين وأحيا للسنة .

وأخلص نيتك في جميع هذا ، وتفرّد بتقويم نفسك تفرّد من يعلم أنه مسؤولٌ عما صنعَ ومجزئٌ بما أحسنَ ، ومؤاخذٌ بما أساء . فإن الله عزَّ وجلَّ جعلَ الدينَ حرزاً وعزاً ، ورفعَ من اتبعه وعزَّزَه . واسلك بمن تسوسه وترعاه نهجَ الدينِ وطريقته الأهدى . وأقم حدودَ الله تعالى في أصحابِ الجرائم على قدرِ منازلهم ، وما استحقَّوه ، ولا تُعطلَ ذلك ولا تتهاونَ به ، ولا تُؤخِّرَ عقوبةَ أهلِ العقوبةِ ، فإن في تفريطك في ذلك ما يُفسدُ عليك حسنَ ظنِّك . واعتزم على أمرِكَ في ذلك بالسُننِ المعروفةِ ، وجانبِ البدعِ والشبهاتِ يسلمَ لك دينك ، وتتمَّ لك مروءتُك .

وإذا عاهدتَ عهداً فأوفِ به ، وإذا وعدتَ الخيرَ فأنجزه . واقلبِ الحسنةَ وادفع بها . وانمضَ عن عيبِ كلِّ ذي عيبٍ من رعيَّتِكَ ، واشدِّدْ لسانك عن قولِ الكذبِ والزورِ ، وأبغضْ أهلَ النيمةِ ؛ فإن أولَّ فسادِ أمورِكَ في عاجلها وآجلها ، تقريبُ

الكذوب ، والجراءة على الكذب ؛ لأن الكذب رأسُ المآثم ،
والزور والنميمة خاتمها ، لأن النميمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها
لا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر . وأحب أهل الصلاح
والصدق ، وأعز الأشراف بالحق ، وأعز الضعفاء ، ويصل الرحيم ؛
وابتغ بذلك وجه الله تعالى واعزاز أمره ، والتمس فيه ثوابه
والدار الآخرة . واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنها
رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعييتك . وأنعم بالعدل سياستهم
وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التي تنتهي بك الى سبيل الهدى .
واملك نفسك عند الغضب ، وآثر الحلم والوقار ، وإياك والجدّة
والطيش والغرور فيما أنت بسبيله .

وإياك أن تقول أنا مسلطُ أفعلُ ما أشاء ؛ فان ذلك سريعٌ الى
نقص الرأي وقلة اليقين لله عز وجل . وأخلص لله وحده النية
فيه واليقين به . واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من
يشاء وينزعه ممن يشاء . ولن تجد تغير النعمة وحلول النعمة الى
أحدٍ أسرع منه الى جهلة النعمة من أصحاب السُلطان ، والمبسوط
لهم في الدولة إذا كفروا نعم الله وإحسانه ، واستطالوا بما أعطاهم
الله عز وجل من فضله .

ودع عنك شرة نفسك ، ولتكن ذخائرُك وكنوزك التي
تدخر وتكثير البر والتقوى ، واستصلاح الرعية ، وعمارَة بلادهم
والتفقد لأموالهم والحفظ لدمائهم ، والاغاثَة للمهوفين .
واعلم أن الأموال إذا كثرت وادخرت في الخزائن لا تنمو

وإذا كانت في صلاح الرعيّة واعطاء حقوقهم وكفّ الأذية عنهم،
 نمت وزكت، وصلحت بها العامّة، وترتبت بها الولاية، وطاب بها
 الزمان واعتقد فيها العزّ والمنفعة. فليكن كنز خزائنك تفريق
 الأموال في عمارة الإسلام وأهله. ووفّر منه على أولياء أمير
 المؤمنين قبلك حقوقهم، وأوف من ذلك حصصهم وتمهّد ما يصلح
 أمورهم ومعاشهم؛ فإنك إذا فعلت ذلك قرّرت النعمة لك،
 واستوجبّت المزيد من الله تعالى، وكنت بذلك على جباية أموال
 رعيّتك وخراجك أقدر، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك
 أسلّس لطاعتك. وطب نفساً بكل ما أردت، وأجهد نفسك فيما
 حدّدت لك في هذا الباب، وليعظم حقك فيه، وإنما يبقى من
 المال ما أنفق في سبيل الله وفي سبيل حقّه. واعرف للساكرين
 حقهم، وأثبهم عليه، وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول
 الآخرة فتهاون بما يحقّ عليك، فإن التهاون يورث التفریط،
 والتفریط يورث البوار. وليكن عملك لله عزّ وجلّ وفيه، وارج
 الثواب منه، فإن الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله. واعتصم
 بالشكر، وعليه فاعتمد، يزدك الله خيراً وإحساناً؛ فإن الله عزّ
 وجلّ يثيبُ بقدر شكر الساكرين وإحسان المحسنين.

ولا تحقرن ذنباً، ولا تمالئن حاسداً، ولا ترحمن فاجراً، ولا
 تصلن كفوراً، ولا تداهنن عدواً، ولا تصدقن نماماً ولا تأمنن
 غداراً، ولا توالين فاسقاً، ولا تتبعن غاوياً، ولا تحمدن مرأياً،
 ولا تحقرن إنساناً، ولا تردن سائلاً فقيراً ولا تحسنن باطلاً، ولا

تُلاحِظَنَّ مضحكاً ، ولا تحلِقَنَّ وعداً ، ولا ترهُونَ فخراً ، ولا
تُظهرَنَّ غَضَباً ، ولا تباينَنَّ رجاءً ، ولا تمسِنَّ مَرَحاً ، ولا تُركِبَنَّ
سُفْهياً ، ولا تفرِّطَنَّ في طلبِ الآخرة ، ولا ترفعَنَّ للنَّامِ عينا ،
ولا تُغْمِضَنَّ عن ظالمٍ رهبةً منه أو محاباةً ، ولا تطلبنَّ ثوابَ
الآخرة في الدنيا .

وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم . وخذ عن أهل
التجارب وذوي العقل والرأي والحكمة . ولا تُدْخِلَنَّ في مشورتك
أهل الرفه والبخل ، ولا تسمعَنَّ لهم قولاً ، فإنَّ ضررَهم أكثرُ
من نفعهم .

وليس شيءٌ أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمرَ رعيَّتِكَ من الشُّحِّ .
واعلم أنَّكَ إذا كنتَ حريصاً كنتَ كثيرَ الأخذِ قليلَ العطيَّةِ ،
وإذا كنتَ كذلك لم يستقم أمرُكَ إلا قليلاً ، فإن رعيَّتَكَ إنما تعقدُ
على محبَّتِكَ بالكفِّ عن أموالهم وتركِ الجورِ عليهم . ووال مَنْ
صافاك من أوليائك بالإفضال عليهم وحسنِ العطيَّةِ لهم . واجتنب
الشُّحَّ ، واعلم أنه أولُ ما عصى الإنسانُ به ربُّه ، وأن العاصيَ
بمنزلة الخزيِّ ، وهو قول الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(١) . فسهِّل طريقَ الجودِ بالحق ، واجعل
للمسلمينَ كلِّهم في فيئِكَ حظاً ونصيباً ، وأيقن أنَّ الجودَ أفضلُ
أعمالِ العبادِ ، فأعدهُ لنفسك خُلُقاً وأرضَ به عملاً ومذهباً . وتفقدِ
الجُندَ في دواوينهم ومكاتبهم ، وأدرَّ عليهم أرزاقهم ، ووسِّع عليهم

(١) آخر آية ١٦ من سورة التباين .

في معاشيهم ، يُذهب الله عز وجلّ بذلك فاقتهم ، فيقوى لك أمرهم وتريد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وإشراحاً . وحسب ذي السلطان من السعادة أن يكون على جُندٍ ورعيته ذا رحمة في عدله وعطيته وإنصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته . فزأيل مكروه أحد البابين باستشعار فضل الباب الآخر ، ولزوم العمل به تلقى إن شاء الله تعالى به نجاحاً وصلاً وفلاحاً .

واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذي ليس فوقه شيء من الأمور ؛ لأنه ميزان الله الذي تُعدلُ عليه أحوال الناس في الأرض . وبإقامة العدل في القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتؤمن السبل ، وينتصف المظلوم ، وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة ، ويرزق الله العافية والسلامة ، ويقم الدين ، ويُجري السنن والشرائع في مجاريها . واشتد في أمر الله عز وجلّ . وتورّع عن النطف^(١) ، وامض لاقامة الحدود . وأقلل العجلة ، وابتعد عن الضجر والقلق ، واقنع بالقسم ، وانتفع بتجربتك ، وانتبه في صحتك واسد^(٢) في منطقك وأنصف الخصم ، وقف عند الشبهة ، وأبلغ في الحجة ، ولا يأخذك في أحدٍ من رعيّتك محاباةً ولا بجملةً ولا لومةً لائم ، وثبتت وتأن وراقب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر ، وتواضع لرّبك ، وارفق بجميع الرعية ، وسلط الحق على نفسك ، ولا تُسرعن إلى سفك دم ؛ فإنّ الدماء

(١) النطف: التلطف بالعيب.

(٢) أسد: لازم السداد.

من الله عز وجل بمكانٍ عظيم ، فلا تنبغ انتهاكاً لها بغير حقها .
وانظر هذا الخراج الذي استقامت عليه الرعية ، وجعله الله
للإسلام عزاً ورفعةً ، ولأهلِهِ تَوْصِيَةً وَمَنْعَةً ؛ ولعدوِّهِ كِتَاباً وَغِيْظاً ،
ولأهلِ الكفر من معادِيهِمْ ذُلّاً وصغاراً ، فوزَعَهُ بين أصحابِهِ
بالحقِّ والعدلِ والتسويةِ والعموم ، ولا تدفعن شيئاً منه عن شريفٍ
لشرفِهِ ، ولا عن غنيٍّ لغناه ، ولا عن كاتبٍ لك ، ولا عن أحدٍ
من خاصَّتِكَ ولا حاشيتِكَ ، ولا تأخذنَّ منه فوقَ الاحتمالِ له . ولا
تكلفِ أمراً فيه شططٌ . واحملِ الناسَ كلَّهُم على أمرِ الحقِّ ، فإنَّ
ذلك أجمعٌ لآلَتِهِمْ والزَّمُ لِرِضَاءِ الْعَامَّةِ .

واعلم أنَّكَ جُعِلْتَ بولايتِكَ خازناً وحافظاً وراعياً ، وإِنَّمَا سُمِّيَ
أهلُ عملِكَ رعيَّتَكَ لِأَنَّكَ راعِيهِمْ ، وَقِيَّهِمْ . فخذ منهم ما أعطوك
من عفويهِمْ ونِفْذِهِ في قِوامِ أمرِهِمْ وصلاحيهِمْ وتقويهِمْ أودِيهِمْ .
واستعمل عليهم اولى الرأي والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم والعدلِ
بالسياسةِ والعفافِ . ووسَّع عليهم في الرزقِ ؛ فإنَّ ذلك من الحقوقِ
اللازمة لك فيما تقلدتَ وأسندَ إليك ، فلا يشغلك عنه شاغلٌ ولا
يصرفك عنه صارفٌ . فإنَّكَ متى آثَرْتَهُ وَقُتَ فيه بالواجبِ استدعيتَ
به زيادةَ النعمةِ من ربِّكَ ، وحسَنَ الأُحدوثِ في عملِكَ واستجرتَ
به المحبةَ من رعيَّتِكَ وأعنتَ على الصلاحِ فدرتَ الخيراتُ ببلدِكَ ،
وفشتَ العِمادةُ بناحيَّتِكَ ؛ وظهرَ الخصبُ في كُورِكَ ، وكثُرَ خراجُكَ ،
وتوفَّرتَ أموالُكَ ، وقويتَ بذلك على ارتياضِ جُنْدِكَ ، وإِرضاءِ
العامةِ بإفاضةِ العطاءِ فيهِم من نفسِكَ ، وكنتَ محمودَ السياسةِ مرضيَّ

العدل في ذلك عند عدوك ، وكنت في أمورك كلها ذا عدل
وآلة وقوة وعدة . فتنافس فيها ولا تقدم عليها شيئاً ، تحمذ عاقبة
أمرك . إن شاء الله تعالى .

واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك خبر عمالك
ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل في
عمله معيناً لأمره كلها . وإذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر في
عواقب ما أردت من ذلك ، فان رأيت السلامة فيه والعافية ،
ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع فأمضه ، وإلا فتوقف عنه ،
وراجع أهل البصر والعلم به ، ثم خذ فيه عدته ، فإنه ربما نظر
الرجل في أمره وقد أتاه على ما يهوى ، فأغواه ذلك وأعجبه ،
فإن لم ينظر في عواقبه أهلكه ، ونقض عليه أمره . فاستعمل الحزم
في كل ما أردت وباركه بعد عون الله عز وجل بالقوة . وأكثر من
استخارة ربك في جميع أمورك .

وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرة
بنفسك ، فإن لغد أموراً وحوادث تُلهيك عن عمل يومك الذي
أُخِرت . واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أُخِرت عمله
اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى تمرض منه . وإذا أمضيت
لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك ، وجمعت أمر سلطانك .

وانظر احراد الناس وذوي الفضل منهم ممن بلوت صفاء
طويتهم ، وشهدت مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والحفاظ على
أمرك ، فاستخلصهم وأحسن اليهم . وتعاهد أهل البيوتات ممن قد

دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْحَاجَةُ وَاحْتِمِلَ مَوْتَهُمْ ، وَأَصْلَحَ حَالُهُمْ حَتَّى لَا يَجِدُوا لِحُلَّتِهِمْ مَنَافِرًا^(١) وَأَفْرَدَ نَفْسَكَ بِالنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى رَفْعِ مَظْلَمَتِهِ إِلَيْكَ ، وَالْمُحْتَقَرِ الَّذِي لَا عِلْمَ لَهُ بِطَلَبِ حَقِّهِ ؛ فَسَلِّ عَنْهُ أَحْفَى مَسْأَلَةٍ ، وَكُلِّ بِأَمْثَالِهِ أَهْلَ الصَّلَاحِ فِي رَعِيَّتِكَ وَمَرَهُمْ بِرَفْعِ حَوَائِجِهِمْ وَخِلَالِهِمْ إِلَيْكَ لَتَنْظُرَ فِيمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَهُمْ . وَتَعَاهِدْ ذَوِي الْبِئْسَاءِ وَيَتِمَّاهُمْ وَأَرَامِلَهُمْ ، وَاجْعَلْ لَهُمْ أَرْزَاقًا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ اقْتِدَاءً بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْعُطْفِ عَلَيْهِمْ وَالصَّلَةِ لَهُمْ ، لِيُصْلِحَ اللَّهُ بِذَلِكَ عَيْشَهُمْ ، وَيَرْزُقَكَ بِهِ بَرَكَاتٍ وَزِيَادَةٍ . وَاجْرِ لِلْأَضْرَاءِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ ، وَقَدِّمِ حِمْلَةَ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ ، وَالْحَافِظِينَ لِأَكْثَرِهِ فِي الْجَرَايَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ . وَانْصِبْ لِمَرْضَى الْمُسْلِمِينَ دَوْرًا تَأْوِيهِمْ وَقُوَامًا يَرْفُقُونَ بِهِمْ ، وَأَطْبَاءَ يَعَالِجُونَ أَسْقَامَهُمْ ، وَأَسْعِفَهُمْ بِشَهَوَاتِهِمْ مَا لَمْ يُوَدِّ ذَلِكَ إِلَى سَرَفٍ فِي بَيْتِ الْمَالِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّاسَ إِذَا أُعْطُوا حَقُوقَهُمْ وَأَفْضَلَ أَمَانِيَّتِهِمْ لَمْ يُرْضِهِمْ ذَلِكَ وَلَمْ تَطْبِ أَنْفُسُهُمْ دُونَ رَفْعِ حَوَائِجِهِمْ إِلَى وُلَاتِهِمْ ، طَمَعًا فِي نَيْلِ الزِّيَادَةِ وَفَضْلِ الرِّفْقِ بِهِمْ . وَبِمَا تَبَرَّمَ الْمُتَصَفِّحُ ، لِأُمُورِ النَّاسِ لِكَثْرَةِ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ ، وَيَشْغُلُ ذِكْرَهُ وَفِكْرَهُ مِنْهَا مَا يَنَالُهُ بِهِ مِنْ مَوْوَنَةٍ وَمَشَقَّةٍ . وَلَيْسَ مَنْ يَرْغَبُ فِي الْعَدْلِ وَيَعْرِفُ مُحَاسَنَ أُمُورِهِ فِي الْعَاجِلِ وَفَضْلَ ثَوَابِ الْآجِلِ كَالَّذِي يَسْتَقِلُّ مَا يَقْرِبُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَتُلْتَمَسُ بِهِ رَحْمَتُهُ .

(١) مفاخرًا.

وَأَكْثَرُ الْأِذْنِ لِلنَّاسِ عَلَيْكَ وَأَرِيهِمْ وَجْهَكَ ، وَسَكِّنْ لَهُمْ حَوَاسِكَ
وَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَأَظْهَرْ لَهُمْ يَشْرَكَ وَلِنْ لَهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ
وَالنُّطْقِ ، وَاعْطِفْ عَلَيْهِمْ بِجُودِكَ وَفَضْلِكَ . وَإِذَا اعْطَيْتَ فَأَعْطِ
بِسَمَاحَةٍ وَطِيبِ نَفْسٍ وَالتَّمَسَّ لِلصَّنِيعَةِ وَالْأَجْرُ مِنْ غَيْرِ تَكْدِيرٍ
وَلَا امْتِنَانٍ ؛ فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ تِجَارَةٌ مُرَبِّحَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .
وَاعْتَبِرْ بِمَا تَرَى مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَمِنْ مَضَى قَبْلِكَ مِنْ أَهْلِ
السُّلْطَانِ وَالرِّيَاسَةِ فِي الْقُرُونِ الْخَالِيَةِ وَالْأُمَمِ الْبَائِدَةِ .

ثُمَّ اعْتَصِمْ فِي أَحْوَالِكَ كُلِّهَا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَالْوَقُوفِ
عِنْدَ مُحِبَّتِهِ وَالْعَمَلِ بِشَرِيعَتِهِ وَسُنَّتِهِ ، وَبِقَامَةِ دِينِهِ وَكِتَابِهِ ، وَاجْتَنِبْ
مَا فَارَقَ ذَلِكَ وَخَالَفَهُ وَدَعَا إِلَى سُخْطِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .
وَاعْرِفْ مَا يَجْمَعُ 'عُمَالِكَ' مِنَ الْأَمْوَالِ ، وَمَا يَنْفَقُونَ مِنْهَا .
وَلَا تَجْمَعْ حَرَامًا ، وَلَا تُنْفِقْ إِسْرَافًا .

وَأَكْثَرُ مَجَالَسَةِ الْعُلَمَاءِ وَمَشَاوَرَتِهِمْ وَمَخَالَطَتِهِمْ ، وَلِيَكُنْ هَوَاكَ
اتِّبَاعَ السُّنَنِ وَإِقَامَتَهَا ، وَإِثَارَ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا . وَلِيَكُنْ
أَكْرَمُ دَخْلِكَ وَخَاصَّتِكَ عَلَيْكَ مَنْ إِذَا رَأَى عِيْبًا لَمْ تَمْنَعْهُ هَيْئَتَكَ
مِنْ إِنْهَاءِ ذَلِكَ إِلَيْكَ فِي سِتْرٍ ، وَإِعْلَامِكَ بِمَا فِيهِ مِنَ النِّقْصِ ؛
فَإِنَّ أَوْلَئِكَ أَنْصَحُ أَوْلِيَائِكَ وَمُظَاهَرِيكَ .

وَانْظُرْ عَمَالَكَ الَّذِينَ بِحَضْرَتِكَ وَكُتَّابَكَ فَوْقَ كُلِّ رَجُلٍ
مِنْهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَقْتًا يَدْخُلُ فِيهِ بِكِتَابِهِ وَمُؤَامَرَتِهِ وَمَا عِنْدَهُ مِنْ
حَوَائِجِ 'عُمَالِكَ' وَأُمُورِ الدَّوْلَةِ وَرَعِيَّتِكَ . ثُمَّ فَرِّغْ لِمَا يُوْرِدُ عَلَيْكَ مِنْ

ذلك سمعك وبصرَكَ وفهمَكَ وعقلَكَ، وكرّر النظرَ فيه والتدبّرَ له،
فما كان موافقاً للحق والحزم فأمضِهِ، واستخِر الله عزّ وجلّ فيه،
وما كان مخالفاً لذلك فاصرفهُ الى المسألة عنه، والتثبّت منه .
ولا تمننْ على رعيّتك ولا غيرهم بمعروفٍ تؤتيه إليهم . ولا تقبل
من أحدٍ إلا الوفاء والاستقامة والعونَ في أمورِ المسلمين ، ولا
تضعنْ المعروفَ إلا على ذلك . وتفهمْ كتابي اليك وأمينِ النظرَ
فيه والعملَ به ، واستعن بالله على جميعِ أمورك واستخِرهُ ؛ فان
الله عزّ وجلّ مع الصلاحِ وأهله . وليكن أعظمُ سيرتك وأفضلُ
رغبتك ما كان لله عز وجلّ رضا ، ولدينه نظاماً ، ولاهله عزّاً
وقكيناً وللملّة والذِمّة^(١) عدلاً وصلاحاً وأنا أسأل الله عزّ وجلّ
أن يُحسِنَ عونك وتوفيقك ودُشذك وكلاءتك والسلام .

وحدّث الأخباريون أن هذا الكتابَ لما ظهرَ وشاع أمرُهُ
أعجبَ به الناسُ، واتصلَ بالمؤمنين فلما قرىء عليه، قال : ما أبقى
أبو الطيّب ، يعني طاهراً، شيئاً من أمورِ الدنيا والدين ، والتدبيرِ
والرأيِ والسياسةِ، وصلاحِ الملكِ والرعيّةِ، وحفظِ السلطانِ وطاعةِ
الخلفاء وتقويمِ الخلافةِ، إلا وقد أحكمهُ وأوصى به . ثم أمرَ المؤمنينُ
فكُتِبَ به إلى جميعِ العُمالِ في النواحي ليقصدوا به ، ويعملوا بها
فيه . هذا أحسنُ ما وقفتُ عليه في هذه السياسةِ . والله أعلم .

(١) أهل الذمّة : هم النصارى واليهود الذين دخلوا في ذمّة الإسلام .

الفصل الثاني والخمسون

في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس في شأنه
وكشف الغطاء عن ذلك

اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممرّ الأعصار ، أنه لا بدّ في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيّد الدين ، ويُظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويستولي على الممالك الإسلامية ، ويسمّى بالمهدي ؛ ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط^(١) الساعة الثابتة في الصحيح ، على أثره ؛ وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال ، أو ينزل معه فيساعده على قتله ، ويأتّم بالمهدي في صلاته . ويحتجّون في هذا الشأن بأحاديث خرجها الأئمة وتكلم فيها المنكرون لذلك ، وربما عارضوها ببعض الأخبار . وللمتصوفة المتأخرين في أمر هذا الفاطمي طريقة أخرى ، ونوع من الاستدلال ، وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم .

ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة في هذا الشأن وما للمنكرين فيها من المطاعن وما لهم في إنكارهم من المستند ، ثم نتبعه بذكر كلام المتصوفة ورأيهم ، ليتبين لك الصحيح من ذلك ان شاء الله تعالى . فنقول :

(١) بمعنى العلامات .

إن جماعة من الائمة خرجوا أحاديث المهدية ، منهم الترمذي وأبو داود والبزاز وابن ماجه والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي ، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة : مثل علي وابن عباس وابن عمر وطاحه وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري وأمر حبيبة وأمر سلمة وثوبان وقرّة بن إياس ، وعليّ إلهلالي وعبدالله ابن الحارث بن جزء ، بأسانيد ربما يعرض لها المنكرون كما نذكره . إلا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل . فاذا وجدنا طعنًا في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأي ، تطرق ذلك إلى صحة الحديث وأوهن منها . ولا نقولن : مثل ذلك ربما يتطرق إلى رجال الصحيحين ؛ فإن الإجماع قد اتصل في الأمة على تلقيهما بالقبول ، والعمل بما فيهما ؛ وفي الإجماع أعظم حماية وأحسن دفع . وليس غير الصحيحين بمثابة في ذلك ؛ فقد نجد مجالاً للكلام في أسانيدنا بما نقل عن أئمة الحديث في ذلك .

ولقد توغل أبو بكر بن أبي خيثمة ، على ما نقل السهيلي عنه ، في جمعه للأحاديث الواردة في المهدية فقال : ومن أغربها إسناداً ما ذكره أبو بكر الإنكافي ، في فوائد الأخبار ، مسنداً إلى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن جابر ، قال ، قال رسول الله ﷺ : « من كذب بالمهدية فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب »^(١) . وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك ، فيما

(١) في بعض النسخ : فقد كفر .

أَحْسَبُ. وَحَسْبُكَ هَذَا غُلُوءًا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّةِ طَرِيقِهِ إِلَى مَالِكِ
ابْنِ أَنَسٍ. عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الْإِسْكَافَ عِنْدَهُمْ مُتَمُّهُمُ وَضَاعٌ.

وَأَمَّا التِّرْمِذِيُّ فَخَرَجَ هُوَ وَأَبُو دَاوُدَ بِسَنَدَيْهِمَا إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ،
مِنْ طَرِيقِ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ أَحَدِ الْقُرَاءِ السَّبْعَةِ إِلَى زُرِّ بْنِ
حُبَيْشٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنْ
الدُّنْيَا إِلَّا يَوْمٌ لَطَوَّلَ اللَّهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ، حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ فِيهِ رَجُلًا
مِنْ أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمَ ابْنِي». .
هَذَا لَفْظُ ابْنِ دَاوُدَ وَسَكَتَ عَلَيْهِ. وَقَالَ فِي رِسَالَتِهِ الْمَشْهُورَةِ:
«إِنْ مَا سَكَتَ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ صَالِحٌ». وَلَفْظُ التِّرْمِذِيِّ: «لَا
تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّى يَمْلِكَ الْعَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ
اسْمِي»؛ وَفِي لَفْظٍ آخَرَ: «حَتَّى يَلِيَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي»؛
وَكُلَاهُمَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَرَوَاهُ أَيْضًا مِنْ طَرِيقٍ مَوْقُوفًا
عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ. وَقَالَ الْحَاكِمُ: رَوَاهُ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ وَزَائِدَةُ،
وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم، قال: وطرق عاصم عن زُرِّ
عن عبد الله كلها صحيحة، على ما أصلته من الاحتجاج بأخبار
عاصم، إذ هو إمام من أئمة المسلمين. انتهى.

إِلَّا أَنَّ عَاصِمًا قَالَ فِيهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: كَانَ رَجُلًا صَالِحًا،
قَارِئًا لِلْقُرْآنِ خَيْرًا ثَقَّةً، وَالْأَعْمَشُ أَحْفَظُ مِنْهُ. وَكَانَ شُعْبَةُ يُخْتَارُ
الْأَعْمَشَ عَلَيْهِ فِي تَثْبِيَتِ الْحَدِيثِ. وَقَالَ الْعَجَلِيُّ: كَانَ يُخْتَلَفُ عَلَيْهِ
فِي زُرِّ وَأَبِي وَائِلٍ، يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى ضَعْفِ رَوَايَتِهِ عَنْهُمَا. وَقَالَ
مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ: كَانَ ثَقَّةً، إِلَّا أَنَّهُ كَثِيرُ الْخَطَا فِي حَدِيثِهِ. وَقَالَ

يعقوب بن سُفْيَانَ : في حديثه اضطراب . وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم : قلت لأبي إن أبا زُرْعَةَ يقول : عاصمٌ ثقةٌ ؛ فقال : ليس محلهُ هذا . وقد تكلم فيه ابنُ عُليَّةَ فقال : كلُّ من اسمه عاصمٌ سيءٌ الحفظِ . وقال أبو حاتم : محلهُ عندي محلُّ الصدقِ صالحُ الحديثِ ، ولم يكن بذلك الحافظِ . واختلفَ فيه قولُ النسائيِّ . وقال ابنُ حِرَاشٍ : في حديثه نكرةٌ . وقال أبو جعفرِ العُقَيْلِيُّ : لم يكن فيه إلا سوءُ الحفظِ ، وقال الدَّارِقُطْنِيُّ : في حفظه شيءٌ . وقال يحيى القطَّانُ : ما وجدتُ رجلاً اسمه عاصمٌ إلا وجدتهُ رديءَ الحفظِ . وقال أيضاً سمعتُ شُعْبَةَ يقولُ : حدثنا عاصمٌ بنُ أبي النُّجودِ وفي الناس^(١) ما فيها ، وقال الذهبيُّ : ثبتٌ في القراءة ، وهو في الحديث دون الثَّبتِ ، صدوقٌ فِيمَ ، وهو حسنُ الحديثِ .

وإن احتجَّ أحدُ بآئِ الشَّيْخَيْنِ أَخْرَجَا له ، فنقولُ أَخْرَجَا له مقروناً بغيره لا أصلاً . والله أعلم .

وخرَّجَ أبو داودَ في البابِ عن عليٍّ رضي الله عنه ، من روايةِ فطر بن خليفةَ عن القاسمِ ابنِ أبي مُرَّةَ عن أبي الطُّفَيْلِ عن عليٍّ عن النبيِّ ﷺ قال : « لو لم يبقَ من الدهرِ إلا يومٌ لبعثَ اللهُ رجلاً من أهلِ بيتي يملؤها عدلاً ، كما ملئت جوراً » . وفطر بن خليفة وإن وثقه أحمدٌ ويحيى بن القطَّانِ وابنُ مُعِينٍ والنسائيُّ وغيرُهم ، إلا أنَّ العَجَلِيَّ قال : حسنُ الحديثِ وفيه تشيُّعٌ قليلٌ .

(١) كذا بالأصول ، ومقتضى سياق العبارة : وفي النفس ما فيها .

وقال ابنُ مُعينٍ مرّةً : ثقةٌ شيعيٌّ . وقال أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ يونسَ :
كنا نمرُّ على فطرٍ وهو مطروحٌ لا نكتبُ عنه . وقال مرّةً : كنتُ
أمرُّ به وأدعُهُ مثلَ الكلبِ . وقال الدارقطني : لا يُحتجُّ به . وقال
أبو بكرٍ بنِ عياشٍ : ما تركتُ الروايةَ عنه إلا لسوءِ مذهبه .
وقال الجرجاني : زائغٌ غيرُ ثقةٍ . انتهى .

وخرج أبو داودَ أيضاً بسندهُ إلى عليٍّ رضي الله عنه عن
هرونَ بنِ المغيرة ، عن عُمرَ بنِ أبي قيسٍ ، عن شُعيبِ بنِ أبي خالدٍ ،
عن أبي إسحق السبيعي قال : قالَ عليٌّ ونظر إلى ابنهِ الحسينِ :
« إن ابني هذا سيّدٌ كما سماهُ رسولُ اللهِ ﷺ ، سيخرجُ من صلبهِ
رجلٌ يسمّى باسمِ نبيِّكم يشبهُهُ في الخلقِ ولا يشبهُهُ في الخلقِ ،
يملاً الأرضَ عدلاً » . وقال هرونُ : حدّثنا عمرُ بنُ أبي قيسٍ عن
مُطرَفِ بنِ طريفٍ عن أبي الحسنِ عن هلالِ بنِ عُمرٍ ، سمعتُ عليّاً
يقول ، قال النبي ﷺ : « يخرجُ رجلٌ من وراءِ النهرِ يقالُ له
الحارثُ على مقدّمته رجلٌ يقالُ له منصورٌ يوطئُ أو يُمكنُ لآلِ
محمدٍ كما مكّنتُ فرّيشُ لرسولِ اللهِ ﷺ ، وجبَ على كلّ مؤمنٍ
نصرُهُ أو قالُ إجابتهُ » سكتَ أبو داودَ عليه . وقال في موضعٍ آخرَ
في هرونَ : هو من ولدِ الشيعة . وقال السليمانُ : فيه نظرٌ . وقال
أبو داودَ في عمرِ بنِ أبي قيسٍ : لا بأسَ به ، في حديثه خطأ . وقال
الذهبيُّ : صدّقُ له أو هامٌ . وأما أبو إسحق السبيعيُّ وإن خرجَ عنه
في الصحيحينِ فقد ثبتَ أنه اختلطَ آخرَ عُمره ، وروايتهُ عن عليٍّ
منقطعةٌ ، وكذلك روايةُ أبي داودَ عن هرونَ بنِ المغيرة . وأما

السند الثاني فأبو الحسن فيه وهلال بن عُمر مجهولان؛ ولم يُعرف أبو الحسن إلا من رواية مُطَرِّف بن طريف عنه . انتهى .
 وخرج أبو داود أيضاً عن أمِّ سلمة وكذا ابنُ ماجة والحاكم في المُستدرك ، من طريق علي بن نفيل ، عن سعيد بن المسيب ، عن أمِّ سلمة قالت ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « المهدي من ولدِ فاطمة » . ولفظُ الحاكم : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يذكرُ المهدي فقال : « نعم هو حقُّ وهو من بني فاطمة » .

ولم يتكلم عليه بصحيح ولا غيره ، وقد ضعفه أبو جعفر العجلي وقال : لا يتابع علي بن نفيل عليه ، ولا يُعرفُ الابه .
 وخرج أبو داود أيضاً عن أمِّ سلمة من رواية صالح بن الخليل عن صاحب له عن أمِّ سلمة قال : « يكونُ اختلافٌ عند موتِ خليفة ، فيخرجُ رجلٌ من أهلِ المدينة هارباً الى مكة ، فيأتيه ناسٌ من أهلِ مكة فيُخرجونه وهو كارهٌ ، فيبايعونه بين الركنِ والمقامِ ، فيبعثُ إليه بعثٌ من الشام ، فيخسفُ بهم بالبيداء بين مكة والمدينة ، فإذا رأى الناسُ ذلك أتاهُ أبدالٌ^(١) أهلِ الشام ، وعصائبُ أهلِ العراقِ فيبايعونه . ثم ينشأ رجلٌ من قريشٍ أخواله كلبٌ ، فيبعثُ إليهم بعثاً فيظهرون عليهم ، وذلك بعثُ كلبٍ . والخيبة لمن لم يشهد غنيمَةَ كلبٍ ، فيقسم المالَ ، ويعمل في الناسِ بسنةٍ نبيهم ﷺ ، ويلقي الإسلامُ بجرانه على الأرضِ^(٢) ، فيلبثُ

(١) الأبدال : الأولياء والعباد ، سموا بذلك لأنهم كلما مات منهم واحد أبدل آخر به .

(٢) بمعنى يستقر الإسلام على الأرض ويتمكن .

سبع سنين . وقال بعضهم تسع سنين . ثم رواه أبو داود من رواية أبي خليل عن عبد الله بن الحارث عن أم سلمة ، فتبين بذلك المبهمة في الإسناد الأول . ورجاله رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغمز .

وقد يقال : إنه من رواية قتادة ، عن أبي الخليل ، وفتادة مدلس وقد عنعنه ، والمدلس لا يقبل من حديثه إلا ما صرح فيه بالسمع . مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدي ، نعم ذكره أبو داود في أبوابه .

وخرج أبو داود أيضاً وتابعه الحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق عمران القطان عن قتادة عن أبي بصرة عن أبي الخدري من طريق عمران القطان عن قتادة عن أبي بصرة عن أبي سعيد الخدري قال ، قال رسول الله ﷺ : « المهدي مني أجلى الجبهة أفنى ^(١) الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، يملك سبع سنين » . هذا لفظ أبي داود وسكت عليه . ولفظ الحاكم : « المهدي منّا ، أهل البيت ، أشم ^(٢) الأنف أفنى أجلى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً ، يعيش هكذا ، وبسط يساره وإصبعين من يمينه السبابة والإبهام وعقد ثلاثة » قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به ، إنما أخرج له البخاري

(١) أحلى الجبهة : واسعها . أفنى الأنف : مرتفع أعلاه ، محدودب وسطه .

(٢) الشمم : ارتفاع الأنف .

استشهاداً لا أصلاً . وكان يحيى القطان لا يحدث عنه . وقال يحيى بن معين : ليس بالقوي ؛ وقال مرة : ليس بشيء . وقال أحمد بن حنبل : أرجو أن يكون صالح الحديث . وقال يزيد بن زريع : كان حروياً^(١) وكان يرى السيف على أهل القبلة . وقال النسائي : ضعيف . وقال أبو عبيد الآجري : سألت أبا داود عنه فقال من اصحاب الحسن ، وما سمعت إلا خيراً . وسمعت مرة أخرى ذكره فقال : ضعيف ، أفتى في أيام إبراهيم بن عبد الله بن حسن بفتوى شديدة فيها سفك الدماء .

وخرج الترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي سعيد الخدري من طريق زيد العمي عن أبي صديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال : خشينا أن يكون بعض شيء حدث ، فسالنا نبي الله ﷺ ، فقال : « إن في أمي المهدي يخرج ، يعيش خمساً أو سبعا أو تسعاً » . زيد الشاذلي قال قلنا : وما ذاك ؟ قال سينين اقال : « فيجي إليه الرجل فيقول : يا مهدي أعطني » . قال : « فيحثو له في ثوبه ما استطاع أن يحمله » . لفظ الترمذي قال : هذا حديث حسن . وقد روي من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ . ولفظ ابن ماجه والحاكم : « يكون في أمي المهدي ان قصر فسبع وإلا فتسع » ، فتتعم أمي فيه نعمة لم ينعموا بمثلها قط ، تؤتي الأرض أكلها ولا يدخر منه شيء . والمال يومئذ كدوس ، فيقوم الرجل فيقول : يا مهدي اعطني افيقول خذا . انتهى .

(١) الحرورية : فرقة من الخوارج : ينسبون إلى (حرواء) ، قرية قرب الكوفة .

وزيد العمي وإن قال فيه الدار قطني وأحمد بن حنبل ويحيى ابن معين إنه صالح ، وزاد أحمد : إنه فوق يزيد الرقاشي وفضل ابن عيسى ، إلا أنه قال فيه أبو حاتم : ضعيف ، يكتب حديثه ولا يُحتج به . وقال يحيى بن معين في رواية أخرى : لا شيء . وقال مرة : يكتب حديثه ، وهو ضعيف . وقال الجرجاني : متأسك ، وقال أبو زرعة : ليس بقوي وأهي الحديث ضعيف . وقال أبو حاتم : ليس بذلك ، وقد حدث عنه شعبة . وقال النسائي : ضعيف . وقال ابن عدي : عامة ما يرويه ومن يروي عنهم ضعفاء ، على أن شعبة قد روى عنه ، ولعل شعبة لم يرو عن أضعف منه .

وقد يُقال إن حديث الترمذي وقع تفسيراً لما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر قال ، قال رسول الله ﷺ : « يكون في آخر أمتي خليفة يحشو المال حشواً . لا يعده عدداً » . ومن حديث أبي سعيد قال : « من خلفائكم خليفة يحشو المال حشواً » . ومن طريق أخرى عنهما قال : « يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده » . انتهى . واحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا دليل يقوم على أنه المراد منها . ورواه الحاكم أيضاً من طريق عوف الأعرابي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري قال ، قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جوراً وظلماً وعدواناً ، ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً » .

وقال فيه الحاكم : هذا صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

ورواه الحاكم أيضاً من طريق سليمان بن عُبيدٍ عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعدٍ الحذريِّ ، عن رسول الله ﷺ قال : « يخرجُ في آخرِ أمتي المهديُّ يسقيه الله الغيثَ ، ويُخرجُ الأرضُ نباتها ، ويعطي المالَ صحاحاً ، وتكثرُ الماشيةُ وتعظمُ الأمةُ ، يعيشُ سبعمائةً أو ثمانين . » يعني حجباً . وقال فيه ، حديثٌ صحيحُ الإسنادِ ولم يُخرجاه . مع أن سليمان بن عُبيدٍ لم يخرج له أحدٌ من السِّتة ، لكن ذكره ابنُ حبانٍ في الثقاتِ ، ولم يرد أن أحداً تكلم فيه . ثم رواه الحاكمُ أيضاً من طريق أسدٍ بن موسى عن حمادِ بن سلمة عن مطرٍ الوراقِ وأبي هرونَ العبديِّ عن أبي الصديق الناجي ، عن أبي سعيدٍ أن رسول الله ﷺ قال : « تَمْلَأُ الْأَرْضُ جَوْرًا وظلماً ، فيخرجُ رجلٌ من عِترتي ، فيملكُ سبعمائةً أو تسعمائةً ، فيملأُ الأرضَ عدلاً وقسطاً ، كما ملئت جوراً وظلماً » .

وقال الحاكمُ فيه : هذا حديثٌ صحيحٌ على شرطِ مُسلمٍ ؛ وإنما جعله على شرطِ مُسلمٍ لأنه أخرج عن حمادِ بن سلمة وعن شيخه مطرٍ الوراقِ . وأما شيخه الآخرُ وهو أبو هرونَ العبديُّ فلم يُخرج له . وهو ضعيفٌ جداً متهمٌ بالكذبِ ، ولا حاجة إلى بسطِ أقوالِ الأئمةِ في تضعيفه .

وأما الراوي له عن حمادِ بن سلمة وهو أسدُ بن موسى ويلقبُ أسدَ السُّنة ، وإن قال البخاريُّ : مشهورُ الحديث ، واستشهد به في صحيحه ، واحتجَّ به أبو داودَ والنسائي ، إلا أنه قال مرّةً

أخرى : ثقة لو لم يُصَنَّفْ كان خيراً له . وقال فيه محمد بن حزم : منكر الحديث .

ورواه الطبراني في مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ من رواية أبي الواصل عبد الحميد بن واصل عن أبي الصديق الناجي ، عن الحسن بن يزيد السعديّ أحد بني بهدلة عن أبي سعيد الخدري قال ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرج رجل من أمتي يقول بسنتي يُنزلُ الله عز وجل له القطر من السماء ، ويُخرج الأرض بركتها ، وتُمَلَأُ الأرض منه قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً ، يعمل على هذه الأمة ، سبع سنين وَيُنْزَلُ على بيت المقدس » .

وقال الطبراني فيه ورواه جماعة عن أبي الصديق ، ولم يُدْخِلْ أحدٌ منهم بينه وبين أبي سعيد أحداً إلا أبا الواصل ، فإنه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد . انتهى .

وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ، ولم يُعْرِفْهُ بأكثر مما في هذا الإسناد من روايته عن أبي سعيد ، ورواية أبي الصديق عنه . وقال الذهبي في الميزان إنه مجهول . لكن ذكره ابن حبان في الثقات . وأما أبو الواصل الذي رواه عن أبي الصديق فلم يخرج له أحدٌ من الستة . وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية ، وقال فيه : يروي عن أنس ، وروى عنه شعبة وعُتاب بن يشر .

وخرج ابن ماجّة في كتاب السنن عن عبد الله بن مسعود ، من طريق يزيد بن أبي زياد ، عن إبراهيم عن علقمة ، عن عبد الله

قال : بينما نحنُ عند رسولِ الله ﷺ ، إذ أقبلَ فتيةٌ من بني هاشمٍ ، فلما رآهم رسولُ الله ﷺ ، ذرفتُ عيناهُ وتغيرَ لونهُ ؛ قال ، فقلتُ ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرههُ فقال : « إنا ، أهلَ البيتِ ، اختارَ اللهُ لنا الآخرةَ على الدنيا ، وإنَّ أهلَ بيتي سيقَلونَ بعدي بلاءٌ وتشريداً وتطريداً ، حتى يأتيَ قومٌ من قِبَلِ المشرقِ معهم راياتٌ سودٌ ، فيسألونَ الخيرَ فلا يُعطونهُ ، فيقاتلونَ ويُنْصرونَ فيُعطونَ ما سألوا فلا يقبلونهُ ، حتى يدفعوها الى رجلٍ من أهلِ بيتي فيملأها قسطاً كما ملأوها جوراً . فمن أدركَ ذلكَ منكم فليأتهم ولو حَبواً على الثلجِ » . انتهى .

وهذا الحديثُ يُعرفُ عندَ المحدثينَ بحديثِ الراياتِ . ويزيدُ بنُ أبي زيادٍ راويةً ، قال فيه شُعْبَةُ : كان رَقَاعاً ؛ يعني يرفعُ الأحاديثَ التي لا تُعرفُ مرفوعةً . وقال محمدُ بنُ الفضيلِ : كان من كبارِ أئمةِ الشيعةِ . وقال أحمدُ بنُ حنبلٍ : لم يكن بالحافظِ ، وقال مرةً : حديثُهُ ليس بذلكِ . وقال يحيى بنُ معينٍ : ضعيفٌ . وقال العَجَلِيُّ : جائزُ الحديثِ . وكان بآخره يُلقَنُ . وقال أبو زُرْعَةَ : لَيْنٌ ؛ يُكْتَبُ حديثُهُ ولا يُحتجُّ به . وقال أبو حاتمٍ : ليس بالقويِّ . وقال الجُرْجَانِيُّ : سمعْتُهُم يضعفونَ حديثَهُ . وقال أبو داودَ : لا أعلمُ أحداً تركَ حديثَهُ ، وغيرُهُ أحبُّ إليَّ منه . وقال ابنُ عَدِيٍّ : هو من شيعةِ أهلِ الكوفةِ ، ومع ضَعْفِهِ يُكْتَبُ حديثُهُ . وروى له مسلمٌ لكن مقروناً بغيره . وبالجملةِ فالأَكْثَرُونَ على ضَعْفِهِ . وقد صرَّحَ الأئمةُ بتضعيفِ هذا الحديثِ ، الذي رواه عن إبراهيمَ عن علقمةَ عن عبدِ الله ،

وهو حديث الرايات . وقال وكيع بن الجراح فيه : ليس بشيء . وكذلك قال أحمد بن حنبل . وقال أبو قدامة : سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد عن إبراهيم في الرايات ، لو حلف عندي خمسين يمينا قسامة ما صدقته ، اهَذَا مذهب إبراهيم ، اهَذَا مذهب علقمة ، اهَذَا مذهب عبد الله ؟ ١ وأورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء . وقال الذهبي : ليس بصحيح .

وخرج ابن ماجة عن علي رضي الله عنه من رواية ياسين العجلي ، عن إبراهيم بن محمد ابن الحنفية عن أبيه عن جدّه قال ، قال رسول الله ﷺ : « المهديُّ منا ، أهل البيت ، يُصلحُ الله به في ليلةٍ » . وياسين العجليُّ وان قال فيه ابن معين ليس به بأس ، فقد قال البخاريُّ : فيه نظر . وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التضعيف جدًا . وأورد له ابن عدي في الكامل ، والذهبي في الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له ، وقال هو معروف به . وخرج الطبراني في معجمه الأوسط ، عن علي رضي الله عنه ، أنه قال للنبي ﷺ : أمنا المهديُّ أم من غيرنا يا رسول الله ؟ فقال : « بل منا ، بنا يَخْتِمُ الله كما بنا فَتَحَ ، وبنا يُسْتَقْدُونَ مِنَ الشَّرِكِ ، وبنا يُوَلِّفُ الله بين قلوبهم بعد عداوةٍ بَيِّنَةٍ ، كما بنا أَلَفَ بين قلوبهم بعد عداوةٍ الشَّرِكِ » . قال علي : أمؤمنون أم كافرون ؟ قال : « مفتون وكافر » . انتهى .

وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال . وفيه عمر بن جابر الحضرمي وهو أضعف منه . قال أحمد بن حنبل : روي

عن جابرٍ مناكيرٍ ، وبلغني أنه كان يكذبُ ، وقال النسائيُ : ليس بثقةٍ ، وقال ، كان ابنُ لهيعةَ شيخاً أحمقَ ضعيفَ العقلِ ، وكان يقولُ : «عليُّ في السحابِ» ، وكان يجلسُ معنا فيُبصرُ سحابةً فيقولُ : «هذا عليُّ قد مر في السحابِ» . وخرَّجَ الطَّبْرانيُّ عن عليِّ رضي الله تعالى عنه ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال : «يكونُ في آخرِ الزمانِ فتنةٌ يحصلُ الناسُ فيها كما يحصلُ الذهبُ في المعدنِ . فلا تَسُبُّوا أهلَ الشامِ ولكن سُبُّوا أَشْرارَهُمْ فَإِنَّ فِيهِمُ الْإِبْدَالَ . يوشكُ أَنْ يُرْسَلَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ صَيْبٌ^(١) من السماء فيفترقُ جماعتُهُمْ ، حتى لو قاتَلْتَهُمُ الثَّعَالِبُ غلبتَهُمْ . فعند ذلك يخرجُ خارجٌ من أهلِ بيتي في ثلاثِ راياتٍ ، المكثُرُ يقولُ هم خمسةَ عشرَ ألفاً ، والمقلِّلُ يقولُ هم اثنا عشرَ ألفاً ، واما رايَتُهُمْ «أمت أمت»^(٢) ، يلقونَ سبعَ راياتٍ تحت كلِّ رايةٍ منها رجلٌ يطلبُ المَلِكَ ، فيقتلُهُمُ اللهُ جميعاً ، ويردُّ اللهُ إلى المسلمينَ أَلْفَتَهُمْ ونعمتَهُمْ وقاصيتَهُمْ ورايتَهُمْ اهـ .

وفيه عبدُ اللهِ بنُ لهيعةَ وهو ضعيفٌ معروفُ الحالِ . ورواهُ الحاكمُ في المستدرِكِ ، وقال ، صحيحُ الإسنادِ ، ولم يخرِّجْاهُ في روايته . ثم يظهرُ الهاشميُّ فيردُّ اللهُ الناسَ إلى أَلْفَتِهِمْ . . . الخ وليس في طريقهِ ابنُ لهيعةَ وهو إسنادٌ صحيحٌ كما ذكر . وخرَّجَ الحاكمُ في المستدرِكِ عن عليِّ رضي الله عنه ، من روايةِ أبي الطَّيْلِ عن محمدِ بنِ الحَنَفِيَّةِ قال : «كنا عند عليِّ رضي الله عنه ، فسألهُ رجلٌ

(١) الصَّيْبُ من الصوب ، وهو النزول ، يقال للمطر وللشباب .

(٢) كانت هذه الكلمة «أمت . أمت» كلمة السر بين أفراد المسلمين في غزوة بدر .

عن المهدي ، فقال عليُّ : هيهات . ثم عقدَ بيده سبعا ، فقال ذلك يخرجُ في آخر الزمانِ ، إذا قال الرجلُ الله الله قُتِلَ ، ويجمعُ الله له قوماً قزعا^(١) ، كَفَزَعَ السحابِ ، يؤلفُ الله بين قلوبهم فلا يستوحشونَ إلى أحدي ، ولا يفرحونَ بأحدٍ دخلَ فيهم ، عِدَّتُهُمْ على عِدَّةِ أهلِ بدرٍ ، لم يسبُّهُمُ الْأَوَّلُونَ ، ولا يُدرِ كُهُمُ الْآخِرُونَ ، وعلى عِدَّةِ أصحابِ طالوتَ الذينَ جاوزوا معه النهرَ . قال أبو الطفيلِ ، قال ابن الحنفيةَ أتريدُهُ ؟ قلت نعم ! قال فإنه يخرجُ من بين هذينِ الأخشينِ^(٢) . قلتُ لا جرمَ والله ، ولا أدعُها حتى أموتَ ، ومات بها يعني مكَّةَ ، قال الحاكمُ : « هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخينِ » . انتهى .

وإنما هو على شرطِ مسلمٍ فقط ، فإن فيه عماراً الذهنيَّ ويونسَ ابن أبي إسحقَ ، ولم يخرجَ لهما البخاريُّ وفيه عمرو بن محمد العنقزيُّ ، ولم يخرجَ له البخاريُّ احتجاجاً بل استشهداً ، مع ما ينضمُّ إلى ذلك من تشيعِ عمارِ الذهنيِّ ، وهو إن وثقه أحمدُ وابنُ معينٍ وأبو حاتمٍ والنسائيُّ وغيرُهُم ، فقد قال عليُّ بنُ المدينيِّ عن سُفيانَ أن بشرَ بنَ مروانَ قطعَ عُرقوبَيْه ؛ قلتُ في أي شيء ؟ قال : في التشيعِ . وخرجَ ابنُ ماجَّة عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه في رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفرٍ ، عن عليِّ بن زيادٍ اليامي ،

(١) قطع السحاب . أي يجمع الله له الناس أفواجاً .

(٢) الأخشبان : الجبلان المطيفان بمكة ، وهما : أبو قبيس والأحمر ، وهو جبل مشرف وجهه على قعيقعان .

عن عكرمة بن عمار عن اسحق بن عبد الله عن أنس قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « نحن ، ولَدَ عبدِ المطلبِ ، ساداتُ أهلِ الجنة ، أنا وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي » . انتهى . وعكرمة بن عمار وان أخرج له مُسلمُ فإنما أخرج له متابعه . وقد ضَعَفَهُ بعضُ ووثقهُ آخرون . وقال أبو حاتم الرازي : هو مدلسٌ فلا يُقبل ، إلا أن يصريحَ بالسماع . وعلي بن زياد قال الذهبي في الميزان : لا ندري من هو ؛ ثم قال الصوابُ فيه عبدُ الله ابنُ زياد . وسعدُ ابنُ عبد الحميد وان وثقه يعقوب بن أبي شيبة ، وقال فيه يحيى بن معين ليس به بأسٌ ، فقد تكلمَ فيه الثوريُّ ، قالوا لأنه رآه يُفتي في مسائلَ ويخطيُ فيها . وقال ابنُ حبان : كان ممن فحشَ عطاؤه فلا يُحتجُّ به . وقال أحمد بن حنبل : سعد بن عبد الحميد يدعي أنه سمع عرضَ كُتبِ مالكٍ والناسُ ينكرون عليه ذلك ، وهو ههنا ببغداد لم يحجَّ ، فكيف سمعها ؟ وجعله الذهبي ممن لم يقدح فيه كلامٌ من تكلم فيه . وخرَّجَ الحاكمُ في مستدرَكِهِ من رواية مجاهدٍ عن ابنِ عباسٍ موقوفاً عليه ، قال مجاهدٌ قال لي ابنُ عباسٍ : لو لم أسمع أُنك مثلُ أهلِ البيتِ ما حدثتُك بهذا الحديثِ ؛ قال ، فقال مجاهدٌ : فانه في سترٍ لا أذكره لمن يكره اقال ، فقال ابن عباسٍ : « منا ، أهل البيت ، أربعة : منا السفاحُ ومنا المنذرُ ومنا المنصورُ ومنا المهديُّ » . قال ، فقال مجاهدٌ : بين لي هؤلاء الأربعة . فقال ابنُ عباسٍ : « أمّا السفاحُ فربما قتلَ أنصارَهُ وعفا عن عدوِّهِ ؛ وأمّا المنذرُ ، أراه قال ، فإنه

يعطي المال الكثير ولا يتعاضد في نفسه ، ويمسك القليل من حقه ؛
وأما المنصور فإنه يُعطي النصر على عدوه الشر ما كان يعطي
رسول الله ﷺ ، ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين ، والمنصور
يرهب منه عدوه على مسيرة شهر ؛ وأما المهدي فإنه الذي يلا
الارض عدلاً كما ملئت جوراً ، وتأمين البهائم السباع ، وتلقي
الأرض أفلاذ كبديها قال : « قلت وما أفلاذ كبديها ؟ » قال :
« أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة » . اهـ .

وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وهو
من رواية اسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه . واسماعيل
ضعيف ؛ وإبراهيم أبوه ، وإن خرج له مسلم ، فالأكثر على
تضعيفه . اهـ .

وخرج ابن ماجة عن ثوبان قال ، قال رسول الله ﷺ : « يقتل
عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ، ثم لا يصير إلى واحد منهم ،
ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلاً لم يقتله
قوم » . ثم ذكر شيئاً لا أحفظه ، قال : « فإذا رأيتموه فبايعوه ولو
حبوا على الثلج فإنه خليفة الله المهدي » . اهـ .

ورجاله رجال الصحيحين ؛ إلا أن فيه أبا قلابة الجرمي ،
وذكر الذهبي وغيره أنه مدلس ؛ وفيه سفيان الثوري وهو
مشهور بالتدليس ؛ وكل واحد منهما عنعن ولم يصرح بالسماع
فلا يقبل ؛ وفيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهوراً بالتشيع وعمي

في آخر وقته فخلط؛ قال ابن عدي حدث بأحاديث في الفضائل لم يوافقه عليها أحد، ونسبوه إلى التشيع. انتهى.

وخرج ابن ماجة عن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي من طريق ابن لهيعة عن أبي زُرعة عن عمر بن جابر الحضرمي عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال، قال رسول الله ﷺ: «يُخْرِجُ نَاسٌ مِنَ الْمَشْرِقِ فَيُوطِنُونَ لِلْمَهْدِيِّ». يعني سلطانه. قال الطبراني تفرّد به ابن لهيعة، وقد تقدّم لنا في حديث عليّ الذي خرّجه الطبراني في معجمه الأوسط أن ابن لهيعة ضعيف، وأن شيخه عمر بن جابر أضعف منه. وخرج البزار في مسنده والطبراني في معجمه الأوسط، واللفظ للطبراني، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يَكُونُ فِي أُمَّتِي الْمَهْدِيُّ إِنْ قَصَرَ فُسَبِّحُ وَإِلَّا فُتْمَانُ وَإِلَّا فَتَسَعُ، تَنْعَمُ فِيهَا أُمَّتِي نِعْمَةً لَمْ يَنْعَمُوا بِمِثْلِهَا: تَرْسِلُ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ مَدْرَارًا، وَلَا تَدْخِرُ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنَ النَّبَاتِ؛ وَالْمَالُ كُدُوسٌ، يَقُومُ الرَّجُلُ يَقُولُ يَا مَهْدِي أَعْطِنِي، فيقول خذ» قال الطبراني والبزار تفرّد به محمد بن مروان العجلي. زاد البزار: ولا نعلم أنه تابعه عليه أحد وهو وإن وثقه أبو داود وابن حبان أيضاً بما ذكره في التّقات، وقال فيه يحيى بن معين: صالح، وقال مرة ليس به بأس، فقد اختلفوا فيه. قال أبو زُرعة ليس عندي بذلك وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: رأيت محمد بن مروان العجلي حدث بأحاديث وأنا شاهد لم نكتبها، تركها على عهد، وكسب بعض أصحابنا عنه كأنه ضعفه. وخرج أبو يعلى الموصلي في مسنده

عن أبي هريرة قال : « حَدَّثَنِي خَلِيلِي أَبُو الْقَاسِمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخْرِجَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي فَيَضْرِبُهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ . قَالَ : قُلْتُ وَكَمْ يَمْلِكُ ؟ قَالَ خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ . قَالَ قُلْتُ : وَمَا « خَمْسًا وَاثْنَتَيْنِ ؟ » قَالَ « لَا أَدْرِي » . اهـ .

وهذا السند ، وإن كان فيه بشير بن نهيك ، وقال فيه أبو حاتم لا يُحتجُّ به ، فقد احتجَّ به الشيخان ووثقته الناس ولم يلتفتوا إلى قول أبي حاتم لا يُحتجُّ به . إلا أن فيه رجاء بن أبي رجاء اليشكري ، وهو مُخْتَلَفٌ فيه . قال أبو زُرْعَةَ : ثَمَّةٌ ، وقال يحيى بن معين : ضَعِيفٌ ، وقال أبو داود : ضَعِيفٌ ، وقال مرة : صالحٌ . وعلَّقَ له البخاري في صحيحه حديثاً واحداً . وخرَّجَ أبو بكر البرزاني في مُسْنَدِهِ والطبراني في مُعْجَمِهِ الكبير ، والأوسط عن قُرَّةَ بن إياسٍ قال ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَتُمْلَأَنَّ الْأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا ، فَإِذَا مِلْتُمْ جَوْرًا وَظُلْمًا ، بَعَثَ اللَّهُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي ، يَمْلَأُهَا عَدْلًا وَقِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا ؛ فَلَا تَمْنَعُ السَّمَاءُ مِنْ قَطْرِهَا شَيْئًا ، وَلَا تَدْخُرُ الْأَرْضُ شَيْئًا مِنْ نَبَاتِهَا . يَلْبَثُ فِيكُمْ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِي أَوْ تِسْعًا » . يعني سنين اهـ .

وفيه داود بن الحَجَّار بن قحْظَم ، عن أبيه وهما ضَعِيفَانِ جَدًّا . وخرَّجَ الطبراني في مُعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ عن ابن عُمرَ قال : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَنْ يَسَارِهِ ، وَالْعَبَّاسُ عَنْ يَمِينِهِ ، إِذْ تَلَا حَى الْعَبَّاسُ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَأَغْلَظَ الْأَنْصَارِيُّ لِلْعَبَّاسِ ؛ فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ الْعَبَّاسِ

وبيد علي وقال : « سيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض جوراً وظلماً ، وسيخرج من صلب هذا فتى يملأ الأرض فسطاً وعدلاً . فإذ رأيتم ذلك فعليكم بالفتى التميمي » ، فإنه يُقيل من قبل المشرق وهو صاحب راية المهدي » اهـ

وفيه عبد الله بن عمر العمري وعبد الله بن لهيعة وهما ضعيفان اهـ .
وخرج الطبراني في معجبه الأوسط عن طلحة بن عبد الله عن النبي ﷺ قال : « ستكون فتنة لا يسكن منها جانب إلا تشاجر جانب » ، حتى ينادي مناد من السماء ان أميركم فلان اهـ . وفيه المثنى بن الصباح وهو ضعيف جداً . وليس في الحديث تصريح بذكر المهدي ، وإنما ذكروه في أبوابه وترجيته استثناساً .

فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي وخروجه آخر الزمان . وهي كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه . وربما تمسك المنكرون لشأنه بما رواه محمد بن خالد الجندي عن أبان بن صالح بن أبي عياش ، عن الحسن البصري ، عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ انه قال : « لا مهدي إلا عيسى ابن مريم » . وقال يحيى بن معين في محمد بن خالد الجندي : إنه ثقة . وقال البيهقي : تفرد به محمد بن خالد . وقال الحاكم فيه : إنه رجل مجهول . واختلف عليه في إسناده : فمرة يروي كما تقدم وينسب ذلك لمحمد بن إدريس الشافعي ، ومرة يروي عن محمد بن خالد عن أبان عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلاً . قال البيهقي : فرجع الى رواية محمد بن خالد وهو مجهول ، عن أبان بن أبي عياش

وهو متروك، عن الحسن عن النبي ﷺ وهو منقطع، وبالجملة فالحديث ضعيف مضطرب. وقد قيل في «ان لا مهدي إلا عيسى» أي لا يتكلم في المهدي إلا عيسى، يحاولون بهذا التأويل رد الاحتجاج به، أو الجمع بينه وبين الأحاديث، وهو مدفوع بحديث جريح ومثله من الخوارق.

وأما التصوّفة فلم يكن المتقدّمون منهم يخوضون في شيء من هذا، وإنما كان كلامهم في المجاهدة بالأعمال وما يحصل عنها من نتائج المواجد والأحوال، وكان كلام الإمامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله تعالى عنه، والقول بإمامته وإدعاء الوصية له بذلك من النبي ﷺ، والتبرّي من الشيخين كما ذكرناه في مذاهبهم. ثم حدث فيهم بعد ذلك القول بالإمام المعصوم، وكثرت التآليف في مذاهبهم. وجاء الاسماعيلية منهم يدعون ألوهية الإمام بنوع من الحلول؛ وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ، وآخرون منتظرون مجيء من يقطع بموته منهم؛ وآخرون منتظرون عود الأمر في أهل البيت مستدلين على ذلك بما قدّمناه من الأحاديث في المهدي وغيرها. ثم حدث أيضاً عند المتأخرين من الصوفية الكلام في الكشف وفيما وراء الحس. وظهر من كثير منهم القول على الإطلاق بالحلول والوحدة، فشاركوا فيها الإمامية والرافضة لقولهم بألوهية الأئمة وحلول الآله فيهم. وظهر منهم أيضاً القول بالقطب والأبدال، وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الإمام والقباء.

وأشربوا أقوال الشيعة ، وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم ، حتى لقد جعلوا مستند طريقهم في لبس الخرقية ، أن عليا رضي الله عنه ألبسها الحسن البصري وأخذ عليه العهد بالتزام الطريقة . واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم . ولا يعلم هذا عن علي من وجه صحيح . ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه ؛ بل الصحابة كلهم أسوة في طرق الهدى ؛ وفي تخصيص هذا بعلي دونهم رائحة من التشيع قوية ، يفهم منها ومن غيرها مما تقدم دخولهم في التشيع ، وانخراطهم في سلكه .

وظهر منهم أيضاً القول بالقطب وامتلات كتب الاسماعيلية من الرافضة ، وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في الفاطمية المنتظر . وكان بعضهم يميله على بعض ويلقنه بعضهم من بعض ، وكأنه مبني على أصول واهية من الفريقين . وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرائات ، وهو من نوع الكلام في الملاحم ؛ ويأتي الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا . وأكثر من تكلم من هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن الفاطمي ، ابن العربي الحاتمي في كتاب (عنقاء مغرب) وابن قسي في كتاب (خلع النعلين) وعبد الحق بن سبعين ، وابن أبي اطيلى تلميذه في شرحه لكتاب (خلع النعلين) . وأكثر كلماتهم في شأنه أفاظ وأمثال ، وربما يصريحون في الأقل أو يصرح مفسرو كلامهم . وحاصل مذهبهم فيه ، على ما ذكر ابن أبي اطيلى ، أن النبوة بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى ؛ وانها تعقبها الخلافة ؛ ثم يعقب الخلافة الملك ،

ثم يعودُ تجبراً وتكبراً وباطلاً. قالوا: ولما كان في المهود من سنة الله رجوعُ الأمور إلى ما كانت وجب أن يحيا أمر النبوة والحق بالولاية؛ ثم بخلافها؛ ثم يعقبها الدجل مكان الملك والتسلط؛ ثم يعودُ الكفر بحاله. يشيرون بهذا لما وقع من شأن النبوة، والخلافة بعدها، والملك بعد الخلافة: هذه ثلاث مراتب. وكذلك الولاية التي هي لهذا الفاطمي؛ والدجل بعدها كناية عن خروج الدجال على أثره؛ والكفر من بعد ذلك. فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الأولى. قالوا: ولما كان أمر الخلافة لقريش حكماً شرعياً بالاجماع الذي لا يوهنه انكاز من لم يزاول علمه وجب أن تكون الامامة فيمن هو أخص من قريش بالنبي ﷺ، إما ظاهراً كبنو عبد المطلب، وإما باطناً ممن كان من حقيقة الآل، والآل من اذا حضر لم يغيب من هو آله. وابن العربي الحاتمي سماه في كتابه «عنقاء مغرب» من تأليفه: خاتم الأولياء، وكنى عنه بلبنة الفضة إشارة إلى حديث البخاري في باب خاتم النبيين، قال ﷺ: «مثلي فيمن قبلي من الأنبياء كمثل رجل ابتنى بيتاً وأكمله، حتى اذا لم يبق منه إلا موضع لبنة فأننا تلك اللبنة». فيفسرون خاتم النبيين باللبنة، التي أكملت البنيان، ومعناه النبي الذي حصلت له النبوة الكاملة. ويمثلون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة، ويعملون صاحب الكمال فيها خاتم الأولياء أي حائز الرتبة التي هي خاتمة الولاية، كما كان خاتم الأنبياء حائزاً للرتبة التي هي خاتمة النبوة. فكنى الشارع عن تلك المرتبة الخاتمة بلبنة

البيت في الحديث المذكور. وهما على نسبة واحدة فيها . فهي
لينة واحدة في التمثيل . ففي النبوة لينة ذهب ؛ وفي الولاية
لينة فضة ؛ للتفاوت بين الرتبين ، كما بين الذهب والفضة . فيجعلون
لينة الذهب كناية عن النبي ﷺ ؛ ولينة الفضة كناية عن هذا
الولي الفاطمي المنتظر ، وذلك خاتم الأنبياء وهذا خاتم الأولياء .
وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي واطيل عنه : وهذا الإمام
المنتظر وهو من أهل البيت من ولد فاطمة ، وظهوره يكون
من بعد مضي (خ ف ج) من الهجرة ورسم حروفاً ثلاثة يريد
عددها بحساب الجمل ، وهو الحاء المعجمة بواحدة من فوق ستائة
والفاء أخت القاف بثمانين ، والجيم المعجمة بواحدة من أسفل
ثلاثة ، وذلك ستائة وثلاث وثمانون سنة ، وهي في آخر القرن
السابع . ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر تحمل ذلك بعض المقلدين
لهم على أن المراد بتلك المدة مولده ، وعبر بظهوره عن مولده ،
وأن خروجه يكون بعد العشر والسبعائة فإنه الإمام الناجم من
ناحية المغرب .

قال : « وإذا كان مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين
وسبعمائة فيكون عمره عند خروجه ستاً وعشرين سنة » . قال :
« وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة
من اليوم الحمدي ، وابتداء اليوم الحمدي عندهم من يوم وفاة
النبي ﷺ الى تمام ألف سنة » . قال ابن أبي واطيل في شرحه
كتاب (خلع النعلين) : الولي المنتظر القائم بأمر الله المشار إليه

بمحمد المهدي وخاتم الأولياء ، وليس هو بنبي وإنما هو ولي
 ابتعثه روحه وحبيبه . قال ﷺ : « العالم في قومه كالنبي في
 أمته » . وقال : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل . ولم تزل البشرية
 تتابع به من أول اليوم الحمدي إلى قبيل الخمائة نصف اليوم
 وتأكدت وتضاعفت بتباشير المشايخ بتقريب وقته ، وازدلاف
 زمانه منذ انقضت إلى هلم جراً » قال : « وذكر الكندي أن هذا
 الولي هو الذي يصلي بالناس صلاة الظهر ، ويجدد الإسلام ،
 ويظهر العدل ، ويفتح جزيرة الأندلس ويصل إلى رومية فيفتحها
 ويسير إلى المشرق فيفتحها ، ويفتح القسطنطينية ، ويصير له ملك
 الأرض ، فيتقوى المسلمون ويعلو الإسلام ، ويظهر دين الحنيفية ،
 فإن من صلاة الظهر إلى صلاة العصر وقت صلاة » ؛ قال عليه
 الصلاة والسلام : « ما بين هذين وقت » وقال الكندي أيضاً :
 « الحروف العربية غير المعجمة يعني المفتوح بها سور القرآن جملة
 عددها سبعمائة وثلاث وأربعون ، وسبع دجالية ^(١) ، ثم ينزل
 عيسى في وقت صلاة العصر ، فيصلح الدنيا وتمشي الشاة مع الذئب .
 ثم يبقى ملك العجم بعد إسلامهم مع عيسى مائة وستين عاماً ،
 عدد حروف المعجم وهي (ق ي ن) ، دولة العدل منها أربعون
 عاماً » . قال ابن أبي واطيل : « وما ورد من قوله لا مهدي إلا
 عيسى ، فعناه لا مهدي تساوي هدايته ولايته ، وقيل لا يتكلم في

(١) وردت كلمة دجالية هكذا في النسخ التي بين أيدينا ولم نجد لها معنى في المراجع التي
 لدينا ، إلا أن يراد بها نسبة إلى الدجال .

المهد إلا عيسى . وهذا مدفوعٌ بحديث جُرَيْجٍ وغيره . وقد جاء في الصحيح أنه قال : « لا يزالُ هذا الأمرُ قائماً حتى تقومَ الساعةُ أو يكونَ عليهم اثنا عشرَ خليفةً يعني «قُرَشيّاً» . وقد أعطى الوجودُ أنَ منهم مَنْ كانَ في أوّلِ الإسلامِ ، ومنهم مَنْ سَيَكُونُ في آخِرِهِ . وقالَ : « الخلافةُ بعدي ثلاثونَ أو إحدى وثلاثونَ أو ستة وثلاثونَ ، وانقضاؤها في خلافةِ الحسنِ ، وأوّلِ أمرٍ معاويةَ ، فيكونُ أوّلُ أمرٍ معاويةَ خلافةً أخذاً بأوائلِ الأسماءِ فهو سادسُ الخلفاءِ ، وأما سابعُ الخلفاءِ فعمرو بنُ عبدِ العزيزِ ، والباقونَ خمسةٌ من أهلِ البيتِ من ذُرِّيَةِ عليٍّ ، يُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ «إِنَّكَ لَذُو قَرْنِيهَا» يريدُ الأئمةَ ، أي إِنَّكَ لَخَلِيفَةُ في أوّلِها ، وذُرِّيَّتُكَ في آخرِها . وربما استدَلَّ بهذا الحديثِ القائلونَ بالرجعة . فالأوّلُ هو المشارُ إليه عندهم بطلوعِ الشمسِ من مغربِها .

وقد قالَ ﷺ : « إذا هلكَ كسرى فلا كسرى بعده ، وإذا هلكَ قيصرُ فلا قيصرَ بعده ، والذي نفسي بيدِهِ لَتُفَقَّنَ كنوزُهما في سبيلِ الله ، وقد أنفقَ عمرُ بنُ الخطابِ كنوزَ كسرى في سبيلِ الله ، والذي يُهْلِكُ قيصرَ ويُنفِقُ كنوزَهُ في سبيلِ الله هو هذا المُنتظرُ حينَ يفتحُ الفُسطَاطُنيَّةُ : فَنِعَمَ الأَمِيرُ أميرُها ، ونعمَ الجيشُ ذلكَ الجيشُ . كذا قالَ ﷺ : « ومدةُ حكمِهِ بضْعُ » ، واليُضْعُ من ثلاثٍ إلى تسعٍ وقيلَ إلى عشرينَ . وجاءَ ذكرُ أربعينَ ، وفي بعضِ الرواياتِ سبعينَ . فأما الأربعونَ فإنها مُدَّتُهُ ومدةُ الخلفاءِ الأربعةِ الباقيينَ من أهلِهِ القائمينَ بأمرِهِ من بعده ، على جميعِهِم السلامُ

قال : « وذكر أصحاب النجوم والقِرانات أن مُدَّة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاماً ، فيكون الأمرُ على هذا جارياً على الخلافة والعدل أربعين أو سبعين ، ثم تختلِف الأحوال فتكون ملكاً » . انتهى كلامُ ابن أبي واطيل .

وقال في موضع آخر : « نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر من اليوم المحمدي حين تمضي ثلاثة أرباعه » . قال : « وذكر الكِندي يعقوب بن إسحق في كتاب الجفر الذي ذكر فيه القِرانات أنه إذا وصل القرآن الى الثور على رأس ضح بحرفين الصاد المعجمة والحاء المهملة ، يريد ثمانية وتسعين وستائة من الهجرة ، ينزل المسيح فيحكم في الارض ما شاء الله تعالى » . قال : « وقد ورد في الحديث أن عيسى ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، ينزل بين مهرودتين ، يعني حُلَّتَيْن مَزْعَفَتَيْن صفراوين ممصرتين واضعاً كفيه على أجنحة الملكين ، له لمة ، كأنما خرج من ديماس ، إذا طأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه جان كالؤلؤ ، كثير خيلان الوجه . وفي حديث آخر : مربوع الخلق والى البياض والحمرة . وفي آخر : « إنه يتزوج في الغرب . والغرب دَلْوُ البادية ، يريد أنه يتزوج منها وتلد زوجته . وذكر وفاته بعد أربعين عاماً . وجاء أن عيسى يموت بالمدينة ويدفن الى جانب عُمر بن الخطاب . وجاء أن أبا بكر وعمر يُحسَران بين نبين » . قال ابن أبي واطيل : « والشيعَةُ تقولُ إنه هو المسيح ، مسيحُ المسايح من آل محمد . قلتُ وعليه حمل بعض المتصوّفة حديث لا مهدي الا عيسى ، أي لا يكون

مهديُّ إلا المهديُّ الذي نسبته إلى الشريعة المحمدية نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية في الاتِّباع وعدم النسخ». إلى كلام من أمثال هذا يُعيَّنون فيه الوقتَ والرُّجلَ والمكانَ بأدلةٍ واهيةٍ وتحكماتٍ مختلفةٍ ، فينقضي الزمانُ ولا أثرَ لشيءٍ من ذلك ، فيرجعون إلى تجديد رأيٍ آخرَ منتحلٍ كما تراه من مفهوماتٍ لغويةٍ وأشياءٍ تخيليةٍ وأحكامٍ نجوميةٍ. في هذا انقضت أعمارُ الأولِ منهم والآخرِ .

وأما المتصوفةُ الذين عاصَرناهم فأكثرُهم يشيرون إلى ظهورِ رجلٍ مُجدِّدٍ لأحكامِ المِلَّةِ ومراسمِ الحَقِّ ويتحینون ظهورَهُ لما قَرُبَ من عَصَرنا . فبعضُهم يقولُ من وَلَدِ فاطمةَ ، وبعضُهم يطلقُ القولَ فيه . سَمِعناه من جماعةٍ أكبرُهم أبو يعقوبَ البادسيُّ كبيرُ الأولياءِ بالمغربِ ، كان في أوَّلِ هذه المائةِ الثامنةِ ، وأخبرني عنه حافِدهُ صاحبُنا أبو يحيى زكريا عن أبيه أبي محمدٍ عبد الله عن أبيه الوليِّ أبي يعقوبَ المذكورِ .

هذا آخرُ ما أَطْلَعنا عليه أو بَلَّغنا من كلامِ هؤلاء المتصوفةِ ، وما أوردَهُ أَهْلُ الحديثِ من أخبارِ المهديِّ قد استوفينا جميعَهُ بمبلغِ طاقَتنا . والحقُّ الذي ينبغي أن يَتَقَرَّرَ لديك أَنَّهُ لا تَتِمُّ دعوةُ من الدينِ والملكِ إلا بوجودِ شوكةٍ عصبيةٍ تُظهِرُهُ وتُدافعُ عنه مَن يدفعُهُ حتى يَتِمَّ أمرُ الله فيه .

وقد قرَّرنا ذلك من قَبْلُ بالبراهينِ القطعيةِ التي أريناك هناك . وعصيةُ الفاطميينَ بل وقُرَيْشٍ أَجْمَعٍ قد تلاشتَ من جميعِ الآفاقِ ، ووُجِدَ أُمُّ آخرونَ قد استعلت عَصِيَّتُهُمْ على عَصِيَّةِ قُرَيْشٍ ، إلا

ما بقي بالحجاز في مكة وَيَنْبَعُ بالمدينة من الطالبين من بني حسن وبني حُسين وبني جعفر، منتشرون في تلك البلاد وغالبون عليها، وهم عَصَائِبُ بدويَّةٌ متفرقون في مواطنهم وإماراتهم وآرائهم يلبغون آفاقاً من الكثرة. فإن صَحَّ ظهورُ هذا المهدي فلا وجه لظهورِ دعوتِهِ إلا بأن يكونَ منهم، ويؤلفُ اللهُ بين قلوبهم في اتباعِهِ حتى تتمَّ له شوكةٌ وعَصِيَّةٌ وإِفِيَّةٌ باظهارِ كلمته وحملِ الناسِ عليها. وأما على غيرِ هذا الوجه، مثل أن يدعُو فاطميٌّ منهم الى مثلِ هذا الأمرِ في أُفُقٍ من الآفاقِ من غيرِ عَصِيَّةٍ ولا شوكةٍ إلا مجردَ نسبةٍ في أهلِ البيت، فلا يتمُّ ذلك، ولا يمكنُ، لما أسلفناه من البراهين الصحيحة.

وأما ما تدعيهِ العامةُ والأغمارُ من الدهماءِ ممن لا يرجعُ في ذلك إلى عقلٍ يهديهِ ولا علمٍ يُقَيِّدُهُ، فيتحيَّنونَ ذلك على غيرِ نسبةٍ وفي غيرِ مكانٍ، تقليداً لما اشتهرَ من ظهورِ فاطميٍّ، ولا يعلمونَ حقيقةَ الأمرِ كما بيَّناه. وأكثرُ ما يتحيَّنونَ في ذلك القاصيةَ من الممالكِ وأطرافِ العمرانِ، مثلَ الزابِ بإفريقيةِ والسوسِ من المغربِ. ونجدُ الكثيرَ من ضُعفاءِ البصائرِ يقصدونَ رباطاً يماسَةً لما كان ذلك الرباطُ بالمغربِ من الملثمينَ من كدالةٍ واعتقادِهِمْ أَنَّهُ منهم أو قائمونَ بدعوتِهِ، زعماً لا مستندَ لهم، إلا غرابةُ تلك الأُممِ وبعدهم عن يقينِ المعرفةِ بأحوالها من كثرةٍ أو قلةٍ أو ضَعْفٍ أو قوَّةٍ، ولبعدِ القاصيةِ عن منالِ الدولةِ وخروجها عن نطاقِها، فتقوى عندهم الأوهامُ في ظهوره هناك بخروجه عن رِبْعَةٍ

الدولة ومنال الأحكام والقهر ؛ ولا محصول لديهم في ذلك إلا هذا . وقد يقصد ذلك الموضع كثير من ضعفاء العقول للتلبيس بدعوة يمه^(١) تمامها وسواساً وحقاً . وقُتل كثير منهم . أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الآبلي قال : خرج برباط ماسة لأول المائة الثامنة وعصر السلطان يوسف بن يعقوب رجل من منتحلي التصوف ، يعرف بالتويزري نسبة إلى قوزر مصغراً ، وادّعى أنه الفاطمي المنتظر واتبعة الكثير من أهل السوس من ضالة وكزولة وعظم أمره ، وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم ، فدرس عليه السكسوي من قتله بياناً والحل امره .

وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يُعرف بالعبّاس ، وادّعى أنه الفاطمي ، واتبعة الدهماء من غمارة ، ودخل مدينة فاس عنوة وحرق أسواقها وارتحل إلى بلد المزمة فقتل بها غيلة ولم يتم أمره . وكثير من هذا النمط .

وأخبرني شيخنا المذكور بغريبة في مثل هذا ، وهو أنه صحب في حجّه في رباط العبّاد ، وهو مدفن الشيخ أبي مدين في جبل تلمسان المطل عليها ، رجلاً من أهل البيت من سكان كربلاء ، كان متبوعاً معظماً كثير التلميذ والخدام . قال وكان الرجال من موطنه يتلقّونه بالنفقات في أكثر البلدان . قال وتأكّدت

(١) وردت كلمة (يمه) هكذا في النسخ التي بين أيدينا ، وهي تحريف ظاهر ليس لها معنى هنا ، ومقتضى السياق أن تكون العبارة : « بدعوة يكون تمامها وسواساً وحقاً » . وفي نسخة طبعة لجنة البيان العربي عن نسخة خطية : بدعوة تمنية النفس تمامها .

الصُّحْبَةُ بَيْنَنَا فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ فَانْكَشَفَ لِي أَمْرُهُمْ ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا جَاءُوا
 مِنْ مَوْطَنِهِمْ بِكَرْبَلَاءَ لَطَلَبَ هَذَا الْأَمْرَ وَانْتَحَالَ دَعْوَةَ الْفَاطِمِيِّ
 بِالْمَغْرِبِ . فَلَمَّا عَايَنَ دَوْلَةَ بَنِي مَرِينَ ، وَيُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ يَوْمَئِذٍ
 مَنَازِلُ لِيَلْمَسَانَ ، قَالَ لِأَصْحَابِهِ : ارجعوا فقد أَرَى بَنَا الْغَلَطُ ،
 وَلَيْسَ هَذَا الْوَقْتُ وَقْتَنَا . وَيَدُلُّ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ عَلَى
 أَنَّهُ مُسْتَبْصِرٌ فِي أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْعَصْبِيَّةِ الْمَكَافِيَّةِ لِأَهْلِ
 الْوَقْتِ ، فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ غَرِيبٌ فِي ذَلِكَ الْوَطَنِ وَلَا شَوْكَةَ لَهُ ، وَأَنَّ
 عَصْبِيَّةَ بَنِي مَرِينَ لَذَلِكَ الْعَهْدِ لَا يَقَاوِمُهَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمَغْرِبِ
 اسْتَكَانَ ، وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ وَأَقْصَرَ عَنْ مَطَامِعِهِ وَبَقِيَ عَلَيْهِ أَنَّ
 يَسْتَيْقِنَ أَنَّ عَصْبِيَّةَ الْفَوَاطِمِ وَقُرَيْشٍ أَجْمَعٍ قَدْ ذَهَبَتْ ، لِأَسْيَا فِي
 الْمَغْرِبِ . إِلَّا أَنَّ التَّعَصُّبَ لِسَانِهِ لَمْ يَتْرَكْهُ لِهَذَا الْقَوْلِ . وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

وَقَدْ كَانَتْ بِالْمَغْرِبِ لِهَذِهِ الْعُصُورِ الْقَرِيبَةِ نَزْعَةٌ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى
 الْحَقِّ وَالْقِيَامِ بِالسُّنَّةِ لَا يَنْتَحِلُونَ فِيهَا دَعْوَةَ فَاطِمِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ ، وَإِنَّمَا
 يَنْزَعُ مِنْهُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ الْوَاحِدُ فَالْوَاحِدُ إِلَى إِقَامَةِ السُّنَّةِ
 وَتَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ ، وَيَعْنِي بِذَلِكَ وَيَكْثُرُ تَابِعُهُ . وَأَكْثَرُ مَا يُعْنُونَ
 بِاصْلَاحِ السَّائِلَةِ لَمَّا أَنَّ أَكْثَرَ فُسَادِ الْأَعْرَابِ فِيهَا ، لَمَّا قَدَّمَاهُ مِنْ
 طَبِيعَةِ مَعَاشِهِمْ ، فَيَأْخُذُونَ فِي تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ بِمَا اسْتَطَاعُوا . إِلَّا أَنَّ
 الصِّبْغَةَ الدِّينِيَّةَ فِيهِمْ لَا تَسْتَحْكِمُ لَمَّا أَنَّ تَوْبَةَ الْعَرَبِ وَرَجُوعَهُمْ إِلَى
 الدِّينِ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِهَا الْإِقْصَارَ عَنِ الْفَارِغِ وَالنَّهْيَ ، لَا يَعْقِلُونَ فِي
 تَوْبَتِهِمْ وَإِقْبَالِهِمْ إِلَى مَنَاحِي الدِّيَانَةِ غَيْرَ ذَلِكَ ، لِأَنَّهَا الْمَعْصِيَةُ الَّتِي

كانوا عليها قبلَ الْمَفْرَبَةِ ، ومنها توبُّهُمْ . فتجدُ تابعَ ذلك المستحلِّ للدعوة القائمِ بزعمِهِ بالسُّنَّةِ غيرَ متعمِّقينَ في فُرُوعِ الاقتداءِ والاتباعِ ، إنما دينُهُمُ الإعراضُ عن النهبِ والبغْيِ وإفسادِ السابِلةِ ، ثم الإقبالُ على طلبِ الدنيا والمعاشِ بأقصى جُهدِهِم . وشَتَّانَ بين طلبِ هذا الأجرِ في صلاحِ الخلقِ وبين طلبِ الدنيا ، فاتفاقُهُما ممتنعٌ ، لا تستحِكِمُ لَهُمُ صِبْغَةُ في الدينِ ، ولا يكْمُلُ لَهُمُ نَزوعٌ عن الباطلِ على الجملةِ ، ولا يكثرُونَ .

ويختلفُ حالُ صاحبِ الدعوةِ معهم في استِحْكامِ دينِهِ ، وولايَتِهِ في نفسه دونَ تابعِهِ . فإذا هلكَ انحلَّ أمرُهُم وتلاشت عصبِيَّتُهُمْ . وقد وقعَ ذلك بِإفريقيَّةَ ، لرجُلٍ من كُتُبٍ من سُليمٍ يُسمَّى قاسمَ ابنِ مُرَّةَ بنِ أحمدَ في المائةِ السابعةِ ، ثم من بعده لرجُلٍ آخرَ من باديةِ رِياحٍ من بطنِ منهم يُعرفونَ بِمُسْلِمٍ ، وكان يسمَّى سعادةَ ، وكان أشدَّ ديناً من الأولِ وأقومَ طريقةً في نفسه ، ومع ذلك فلم يستَبِّ أمرُ تابعِهِ كما ذكرناه ، حسبما يأتي ذكرُ ذلك في موضعه عند ذكرِ قبائلِ سُليمٍ ورياحٍ . وبعد ذلك ظهرَ ناسٌ بهذه الدعوةِ يتشَبَّهونَ بِمثلِ ذلك ، ويُلبَّسونَ فيها وينتَحِلونَ اسمَ السُّنَّةِ وليدسوا عليها إلَّا الأقلَّ ، فلا يتمُّ لَهُمُ ولا لمن بعدهمُ شيءٌ من أمرِهِمْ . انتهى .

الفصل الثالث والخمسون

في حدثان الدول والأمم وفيه الكلام على الملاحم
والكشف عن سمس الجفر

اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوف الى عواقب
أمرهم ، وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر ، سيما
الحوادث العامة كعرفة ما بقي من الدنيا ، ومعرفة مدد الدول
أو تفاوتها . والتطلع الى هذا طبيعة البشر مجبولون عليها . ولذلك
نجد الكثير من الناس يتشوفون الى الوقوف على ذلك في المنام .
والأخبار من الكهان لمن قصدتهم بمثل ذلك من الملوك والسوقة
معروفة . ولقد نجد في المدن صنفاً من الناس ينتحلون المعاش من
ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه ، فينتصون لهم في الطرقات
والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه . فتغدو عليهم وتروح نسوان
المدينة وصبيانها ، وكثير من ضعفاء العقول ، يستكشفون عواقب
أمرهم ، في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وأمثال
ذلك ، ما بين خط في الرمل ويسمونه المنجم ، وطرق بالخصي
والجبوب ويسمونه الحاسب ، ونظر في المرايا والمياه ويسمونه
ضارب المنديل وهو من المنكرات الفاشية في الأمصار ، لما تقرّر
في الشريعة من ذم ذلك ، وأن البشر محجوبون عن الغيب إلا من
أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية .

وأكثر^(١) ما يعتني بذلك ويتطلع إليه الأمراء والملوك في آماذ دولتهم ، ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم إليه . وكل أمة من الأمم يوجد لهم كلام من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها ، وما يحدث لهم من الحرب والملاحم ، ومدة بقاء الدولة ، وعدد الملوك فيها ، والتعرض لاسمائهم ، ويسمى مثل ذلك الجذنان .

وكان في العرب الكهان والعرافون يرجعون إليهم في ذلك ، وقد أخبروا بما سيكون للعرب من الملك والدولة ، كما وقع لشق وسطيح في تأويل رؤيا ربيعة بن نصر من ملوك اليمن ، أخبرهم بملك الحبشة بلادهم ، ثم رجوعها إليهم ، ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك . وكذا تأويل سطيح لرؤيا الموبدان حين بعث إليه كسرى بها مع عبد المسيح ، وأخبرهم بظهور دولة العرب . وكذا كان في جيل البربر كهان من أشهرهم موسى بن صالح من بني يفرن ، ويقال من غمرة ، وله كلمات حدثانية على طريقة الشعير برطانيتهم وفيها حدثنان كثير ، ومُعظمه فيما يكون لزناتة من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجبل . وهم يزعمون تارة أنه ولي ، وتارة أنه كاهن ، وقد يزعم بعض مزاعمهم أنه كان نبيا ، لأن تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير . والله أعلم .

(١) كان يجب أن يقال : وأكثر من يعتني بذلك .

وَقَدْ يَسْتَدُ الْجِيلُ فِي ذَلِكَ إِلَى خَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ إِنْ كَانَ لِمَهْدِيهِمْ ،
كَمَا وَقَعَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ فَإِنَّ أَنْبِيَاءَهُمْ الْمُتَعَاقِبِينَ فِيهِمْ كَانُوا يُخْبِرُونَهُمْ
بِمَثَلِهِ عِنْدَمَا يَعْنُونَهُمْ فِي السُّؤَالِ عَنْهُ .

وَأَمَّا فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فَوَقَعَ مِنْهُ كَثِيرٌ فَمَا يَرْجِعُ إِلَى بَقَاءِ
الدُّنْيَا وَمُدَّتِهَا عَلَى الْعُمُومِ ، وَفَمَا يَرْجِعُ إِلَى الدَّوْلَةِ وَأَعْمَارِهَا عَلَى
الْخُصُوصِ . وَكَانَ الْمُعْتَمِدَ فِي ذَلِكَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ آثَارُ مَنْقُولَةٍ
عَنِ الصَّحَابَةِ ، وَخُصُوصًا مُسْلِمَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، مِثْلَ كُتُبِ الْأَحْبَارِ
وَوَهْبِ بْنِ مُنَيَّةٍ وَأَمْثَالِهِمَا . وَرَبَّمَا اقْتَبَسُوا بَعْضَ ذَلِكَ مِنْ ظَوَاهِرِ
مَأْثُورَةٍ وَتَأْوِيلَاتٍ مُحْتَمَلَةٍ .

وَوَقَعَ لَجَعْفَرٍ وَأَمْثَالِهِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ كَثِيرٌ مِنْ ذَلِكَ ،
مُسْتَنْدُهُمْ فِيهِ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، الْكَشْفُ بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْوَلَايَةِ .
وَإِذَا كَانَ مِثْلُهُ لَا يُنْكَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ فِي ذَوِيهِمْ وَأَعْقَابِهِمْ ،
رَقَدْ قَالَ ﷺ : « إِنَّ فِيكُمْ مُحَدِّثِينَ » فَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِهَذِهِ الرُّتَبِ
الشَّرِيفَةِ وَالْكَرَامَاتِ الْمُوَهَّوبَةِ . وَأَمَّا بَعْدَ صَدْرِ الْمِلَّةِ وَحِينَ عُلِقَ
النَّاسُ عَلَى الْعُلُومِ وَالْإِصْطِلَاحَاتِ ، وَتُرْجِمَتْ كُتُبُ الْحُكَمَاءِ إِلَى
اللُّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، فَأَكْثَرُ مُعْتَمِدِيهِمْ فِي ذَلِكَ كَلَامُ الْمُتَنَجِّمِينَ فِي الْمُلْكِ
وَالدُّوَلِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ مِنَ الْقِرَائَاتِ ، وَفِي الْمَوَالِيدِ وَالْمَسَائِلِ
وَسَائِرِ الْأُمُورِ الْخَاصَّةِ مِنَ الطَّوَالِعِ لَهَا ، وَهِيَ شَكْلُ الْقَلْكِ ، عِنْدَ
حُدُوثِهَا . فَلَنَذْكُرَ الْآنَ مَا وَقَعَ لِأَهْلِ الْأَثَرِ فِي ذَلِكَ ثُمَّ نَرْجِعُ
لِكَلَامِ الْمُتَنَجِّمِينَ .

أَمَّا أَهْلُ الْأَثَرِ فَلَهُمْ فِي مُدَّةِ الْمَلَلِ وَبَقَاءِ الدُّنْيَا ، عَلَى مَا وَقَعَ

في كتاب السُّهيلي، فإنه^(١) نقل عن الطبري ما يقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة، ونُقِصَ ذلك بظهور كذبه. ومستند الطبري في ذلك أنه نقل عن ابن عباس، أن الدنيا جمعة من جمع الآخرة، ولم يذكر لذلك دليلاً. وسرُّه والله أعلم تقدير الدنيا بأيام خلق السموات والأرض وهي سبعة، ثم اليوم بألف سنة لقوله: ﴿وَلَيْتَ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾. قال: وقد ثبت في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «أجلكم في أجل من كان قبلكم، من صلاة العصر إلى غروب الشمس». وقال: «يُغتُ أنا والساعة كهاتين»، وأشار بالسبابة والوسطى، وقدر ما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين صيرورة ظل كل شيء مثليه، يكون على التقريب نصف سبع، وكذلك وصل الوسطى على السبابة، فتكون هذه المدة نصف سبع الجمعة كلها، هو خمسمائة سنة.

ويؤيده قوله ﷺ: «لن يُعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم»، فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف وخمسمائة سنة.

وعن وهب بن منبه أنها خمسة آلاف وستمائة سنة أعني الماضي. وعن كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة. قال السُّهيلي: «وليس في الحديثين ما يشهد لشيء مما ذكره، مع وقوع الوجود بخلافه».

(١) هكذا في الأصل. والأنسب أن تكون «الذي» بدلاً من «فان».

فأما قوله : « لن يُعجزَ اللهَ أن يؤخرَ هذه الأمةَ نصفَ يومٍ » ،
فلا يقتضي نفياً الزيادة على النصف . وأما قوله : يُعْتُ أنا والساعةُ
كهايتينِ » ، فإنما فيه الإشارةُ إلى القربِ ، وأنه ليسَ بينه وبينَ
الساعةِ نبيٌّ غيره ، ولا شرعٌ غيرُ شرعيه .

ثم رجعَ السهيليُّ إلى تعيينِ أمدِ الملةِ من مبدلٍ آخرَ ، لو ساعدَهُ
التحقيقُ ، وهو أنه جمعَ الحروفِ المقطعةَ في أوائلِ السورِ بعد
حذفِ المكررِ ، قال : وهي أربعة عشرَ حرفاً يجمعُها قولك (ألم ،
يسطع ، نص ، حق ، كره) فأخذَ عددها بحسابِ الجملِ فكان
سبعمئةً وثلاثة^(١) ، أضافه إلى المنقضي من الألفِ الآخرِ قبلَ
بعثه ، فهذه هي مدّةُ الملةِ ، قال : ولا يبعدُ ذلك أن يكونَ من
مقتضياتِ هذه الحروفِ وفوائدها . قلتُ : وكونه لا يبعدُ لا
يقتضي ظهوره ولا التعويلَ عليه .

والذي حمل السهيليُّ على ذلك إنما هو ما وقعَ في كتاب السيرِ
لابن اسحقَ في حديثِ ابني أخطبَ من أحبارِ اليهودِ ، وهما أبو ياسرٍ
وأخوه حيٌّ ، حين سَمِعَا من الأحرفِ المقطعةِ (الم) وتأولاهما على
بيانِ المدّةِ بهذا الحسابِ ، فبلغت إحدى وسبعينَ ، فاستقلا المدّةَ .
وجاء حيٌّ إلى النبيِّ ﷺ يسأله : هل مع هذا غيره ؟ فقال (المص) ،
ثم استزاد (الر) ، ثم استزاد (المر) ، فكانت إحدى وسبعين
ومائتينِ فاستطال المدّةُ . وقال : قد لبّسَ علينا أمرُك يا محمدُ حتى

(١) هذا العدد غير مطابق كما أن المترجم التركي لم يطابق في قوله ٩٣٠ وإنما المطابق
للحروف المذكورة ٦٩٣ وهو الموافق لما سيذكره عن يعقوب الكندي .

لا ندرى أقليلاً أعطيت أم كثيراً ، ثم ذهبوا عنه . وقال لهم أبو ياسر : ما يدريك لعله أعطى عددها كلها تسعمائة وأربع سنين ، قال ابن اسحق : فنزل قوله تعالى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ تُخَمِّتُ هُنَّ أُمُّ الْكُتُبِ وَأُخْرُ مَتَشَبِهَتٌ ﴾ اهـ .

ولا يقوم من القصة دليل على تقدير الملة بهذا العدد ، لأن دلالة هذه الحروف على الأعداد ليست طبيعية ولا عقلية ، وإنما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل . نعم إنه قديم مشهور ، وقدم الاصطلاح لا يصير حجة . وليس أبو ياسر وأخوه حي ممن يؤخذ رأيه في ذلك دليلاً ، ولا من علماء اليهود ، لأنهم كانوا بادية بالحجاز ، غفلاً من الصنائع والعلوم ، حتى عن علم شريعتهم ، وفقه كتابهم وملتهم ، وإنما يتلقفون مثل هذا الحساب كما تتلقفه العوام في كل ملة . فلا ينهض للسهملي دليل على ما ادعاه من ذلك .

ووقع في الملة في حدثان دولتها على الخصوص مُسند من الأثر إجمالي في حديث خرج أبو داود عن حذيفة بن اليمان ، من طريق شيخه محمد بن يحيى الذهبي عن سعيد ابن أبي مريم عن عبد الله بن فروخ عن أسامة بن زيد الليثي عن أبي قبيصة بن ذؤيب عن أبيه ، قال : قال حذيفة بن اليمان : والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوه ، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فئة إلى أن تنقضي الدنيا ، يبلغ من معه ثلثائة فصاعداً إلا قد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته . وسكت عليه أبو داود ، وقد تقدم

أنه قال في رسالته ما سكت عليه في كتابه فهو صالح ، وهذا الحديث إذا كان صحيحاً فهو بجل ، ويفتقر في بيان إجماله وتعيين مبهماته إلى آثار أخرى يحوذ أسانيدُها . وقد وقع إسنادُ هذا الحديث في غير كتاب السنن على غير هذا الوجه . فوقع في الصحيحين من حديث حذيفة أيضاً قال : قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً ، فأترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث عنه ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابه هؤلاء . اهـ .

ولفظ البخاري : ما ترك شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره . وفي كتاب الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري قال : صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً صلاة العصر بنهار ، ثم قام خطيباً ، فلم يدع شيئاً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به ، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه . اهـ .

وهذه الأحاديث كلها محمولة على ما ثبت في الصحيحين من أحاديث الفتن والأشرار لا غير ، لأنه المعبود من الشارع صلوات الله وسلامه عليه ، في أمثال هذه العمومات . وهذه الزيادة التي تفردها أبو داود في هذا الطريق شاذة منكردة ، مع أن الأئمة اختلفوا في رجاله . فقال ابن أبي مريم في ابن فروخ أحاديثه منكيرة ، وقال البخاري يعرف منه ويُنكر ، وقال ابن عدي : أحاديثه غير محفوظة . وأسامة بن زيد وإن خرج له في الصحيحين ووثقه ابن معين ، فإنما خرج له البخاري استشهاداً ، وضعفه يحيى ابن سعيد واحد بن حنبل ، وقال أبو حاتم : يُكتب حديثه ولا

يُجْتَنَّبُ بِهِ . وَأَبُو قُبَيْصَةَ بْنُ ذُوَيْبٍ مَجْهُولٌ . فَتَضَعُفُ هَذِهِ الزِّيَادَةُ
الَّتِي وَقَعَتْ لِأَبِي دَاوُدَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ مَعَ
شَدُوذِهَا كَمَا مَرَّ .

وَقَدْ يَسْتَنِدُونَ فِي حَدِّثَانِ الدُّوَلِ عَلَى الْخُصُوصِ إِلَى كِتَابِ
الْجَفْرِ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ فِيهِ عِلْمَ ذَلِكَ كُلِّهِ مِنْ طَرِيقِ الْأَثَارِ وَالنَّجُومِ .
لَا يَزِيدُونَ عَلَى ذَلِكَ ، وَلَا يَعْرِفُونَ أَصْلَ ذَلِكَ . وَلَا مُسْتَنَدَهُ . وَاعْلَمْ
أَنَّ كِتَابَ الْجَفْرِ كَانَ أَصْلُهُ أَنَّ هَرُونَ بْنَ سَعِيدٍ الْعَجَلِيَّ — وَهُوَ
رَأْسُ الزِّيَادَةِ — كَانَ لَهُ كِتَابٌ يَرْوِيهِ عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ ، وَفِيهِ
عِلْمٌ مَا سَيَقَعُ لِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَى الْعُمُومِ . وَلِبَعْضِ الْأَشْخَاصِ مِنْهُمْ
عَلَى الْخُصُوصِ . وَقَعَ ذَلِكَ لْجَعْفَرٍ وَنَظَائِرِهِ مِنْ رِجَالِهِمْ عَلَى طَرِيقِ
الْكَرَامَةِ وَالْكَشْفِ الَّذِي يَقَعُ لِمِثْلِهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ . وَكَانَ مَكْتُوبًا
عِنْدَ جَعْفَرٍ فِي جِلْدٍ ثَوْرٍ صَغِيرٍ ، فَرَوَاهُ عَنْهُ هَرُونَ الْعَجَلِيُّ وَكَتَبَهُ ،
وَسَمَّاهُ الْجَفْرَ بِاسْمِ الْجِلْدِ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ الْجَفْرَ فِي اللُّغَةِ
هُوَ الصَّغِيرُ وَصَارَ هَذَا الْاسْمُ عِلْمًا عَلَى هَذَا الْكِتَابِ عِنْدَهُمْ .
وَكَانَ فِيهِ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ وَمَا فِي بَاطِنِهِ مِنْ غَرَائِبِ الْمَعَانِي مَرْوِيَّةٌ
عَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ . وَهَذَا الْكِتَابُ لَمْ تَتَّصِلْ رِوَايَتُهُ وَلَا عُرِفَ
عَيْنُهُ ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْهُ شَوَازُّ مِنْ الْكَلِمَاتِ لَا يَصَحُّهَا دَلِيلٌ . وَلَوْ
صَحَّ السَّنَدُ إِلَى جَعْفَرٍ الصَّادِقِ لَكَانَ فِيهِ نَعَمُ الْمُسْتَنَدُ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ
مِنْ رِجَالِ قَوْمِهِ ، فَهَمُّ أَهْلِ الْكَرَامَاتِ ، وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ
يُحَذِّرُ بَعْضَ قَرَابَتِهِ بِوَقَائِعَ تَكُونُ لَهُمْ ، فَتَصِحُّ كَمَا يَقُولُ . وَقَدْ
حَذَّرَ يَحْيَى ابْنُ عَمِّهِ زَيْدٌ مِنْ مَصْرَعِهِ وَعَصَاهُ ، فَخَرَجَ وَقُتِلَ

بِالْجَوَزِ جَانٍ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ . وَإِذَا كَانَتْ الْكِرَامَةُ تَقَعُ لغيرهم فما
 ظَنَنْتُ بِهِمْ عِلْماً وَدِيناً وَآثَاراً مِنَ النُّبُوَّةِ ، وَعِنَايَةً مِنَ اللَّهِ بِالْأَصْلِ
 الْكَرِيمِ . تَشْهَدُ لِفُرُوعِهِ الطَّيْبَةِ . وَقَدْ يُنْقَلُ بَيْنَ أَهْلِ الْبَيْتِ كَثِيرٌ
 مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ، غَيْرَ مَنْسُوبٍ إِلَى أَحَدٍ . وَفِي أَخْبَارِ دَوْلَةِ
 الْعُبَيْدِيِّينَ كَثِيرٌ مِنْهُ . وَانْظُرْ مَا حَكَاهُ ابْنُ الرِّقِيقِ فِي لِقَاءِ
 أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّيْعِيِّ لِعُبَيْدِ اللَّهِ الْمُهَدِيِّ ، مَعَ ابْنِهِ مُحَمَّدٍ الْجَلِيلِ ،
 وَمَا حَدَّثَاهُ بِهِ ، وَكَيْفَ بَعَثَاهُ إِلَى ابْنِ حَوْشَبٍ دَاعِيَتِهِمْ بِالْيَمَنِ ،
 فَأَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمَغْرِبِ ، وَبَثَّ الدَّعْوَةَ فِيهِ عَلَى عِلْمٍ لِقَنَّهُ أَنَّ
 دَعْوَتَهُ تَتِمُّ هُنَاكَ ، وَأَنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ لَمَّا بَنَى الْمُهَدِّيَّةَ بَعْدَ اسْتِفْحَالِ
 دَوْلَتِهِمْ بِإِفْرِيقِيَّةَ قَالَ : « بَنَيْتُهَا لِيَعْتَصِمَ بِهَا الْفَوَاطِمُ سَاعَةً مِنْ
 نَهَارٍ » ، وَأَرَاهُمْ مَوْقِفَ صَاحِبِ الْحِمَارِ بِسَاحَتِهَا ، وَبَلَغَ هَذَا الْخَبْرُ
 حَافِدَهُ إِسْمَاعِيلَ الْمَنْصُورَ ؛ فَلَمَّا حَاصَرَهُ صَاحِبُ الْحِمَارِ أَبُو يَزِيدَ
 بِالْمُهَدِّيَّةِ ، كَانَ يَسْأَلُ عَنْ مَنْتَهَى مَوْقِفِهِ ، حَتَّى جَاءَهُ الْخَبْرُ بِبُلُوغِهِ
 إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي عَيْنُهُ جَدُّهُ عُبَيْدُ اللَّهِ فَأَيَقَنَ بِالظَّفَرِ ، وَبَرَزَ مِنْ
 الْبَلَدِ ، فَهَزَمَهُ وَاتَّبَعَهُ إِلَى نَاحِيَةِ الزَّابِ فَظَفَرَهُ بِهِ وَقَتْلَهُ . وَمِثْلُ
 هَذِهِ الْأَخْبَارِ عَنْهُمْ كَثِيرَةٌ .

التنجم

وَأَمَّا الْمُنْجَمُونَ فَيَسْتَنْدُونَ فِي حَدَثَانِ الدُّوَلِ إِلَى الْأَحْكَامِ
 النُّجُومِيَّةِ . أَمَّا فِي الْأُمُورِ الْعَامَّةِ مِثْلَ الْمُلْكِ وَالدُّوَلِ فَهِيَ الْقِرَائَاتِ ،

وخصوصاً بين العلويين ، وذلك أَنَّ العلويين زُحَلَ وأُشْتَرِي يقترنان في كل عشرين سنة مرة ، ثم يعودُ القِرَانُ إلى برج آخر في تلك المثلثة من التثليث الأيمن ، ثم بعده إلى آخر كذلك ، إلى أن يتكرَّرَ في المثلثة الواحدة اثنتي عشرة مرة تستوي بوجهه الثلاثة في ستين سنة ؛ ثم يعودُ فيستوي بها في ستين سنة ، ثم يعود ثالثة ثم رابعة ؛ فيستوي في المثلثة باثنتي عشرة مرة ، وأربع عودات في مائتين وأربعين سنة ، ويكون انتقاله في كل بُرْج على التثليث الأيمن ، وينتقلُ من المثلثة إلى المثلثة التي تليها ، أعني البُرْج الذي يلي البرج الأخير من القِرَانِ الذي قبله في المثلثة . وهذا القِرَانُ الذي هو قِرَانُ العلويين ينقسمُ إلى كبير وصغير ووسط : فالكبير هو اجتماع العلويين في درجة واحدة من الفلك ، إلى أن يعودَ إليها بعد تسعمائة وستين سنة مرة واحدة ؛ والوسط هو اقتران العلويين في كل مثلثة اثنتي عشرة مرة ، وبعد مائتين وأربعين سنة ينتقل إلى مثلثة أخرى ؛ والصغير هو اقتران العلويين في درجة برج ، وبعد عشرين سنة يقترنان في برج آخر على تثليثه الأيمن في مثل درجة أو دقائقه .

مثال ذلك وقعُ القِرَانِ أوَّلَ دقيقةٍ من الحُلِّ ، وبعد عشرين يكون في أوَّلَ دقيقةٍ من القوس ، وبعد عشرين يكون في أوَّلَ دقيقةٍ من الأسد ، وهذه كلها نارية ، وهذا كُلُّهُ قِرَانُ صغير . ثم يعودُ إلى أوَّلِ الحُلِّ بعد ستين سنة ويسمى دَوْرَ القِرَانِ وعودَ القِرَانِ ، وبعد مائتين وأربعين ينتقلُ من النارية إلى الترابية

لأنها بعدها ، وهذا قرانٌ وسطٌ . ثم ينتقلُ إلى الهوائية ثم المائية ، ثم يرجعُ إلى أولِ الحملِ في تسعمائة وستين سنةً وهو الكبيرُ . والقرانُ الكبيرُ يدلُّ على عظامِ الأمورِ مثلَ تغييرِ الملكِ والدولةِ ، وانتقالِ الملكِ من قومٍ إلى قومٍ ؛ والوسطُ على ظهورِ المتغلبينِ والطالِبينَ للملكِ ؛ والصغيرُ على ظهورِ الخوارجِ والدعاةِ وخرابِ المدنِ أو عمرانها . ويقعُ أثناء هذه القِراناتِ قرانُ التَّخْسِينِ في بُرجِ السَّرَطَانِ في كلِّ ثلاثين سنةً مرَّةً ويسمى الرابعَ . وبرجُ السَّرَطَانِ هو طالعُ العالمِ ، وفيه وبالُ زُحَلٍ وهبوطُ المريخِ ، فتعظمُ دلالةُ هذا القِرانِ في الفتنِ والحروبِ ، وسفكِ الدماءِ ، وظهورِ الخوارجِ ، وحركةِ العساكرِ ، وعصيانِ الجندِ ، والوباءِ والقحطِ ؛ ويدومُ ذلك أو ينتهي على قَدَرِ السعادةِ والنحوسةِ في وقتِ قرانهما على قَدَرِ تيسيرِ الدليلِ فيه .

قال جراسُ بنُ أحمدَ الحاسبُ في الكتابِ الذي ألفه لنظامِ الملكِ : « ورجوعُ المريخِ إلى العقربِ له أثرٌ عظيمٌ في المِلَّةِ الإسلاميةِ لأنه كان دليلاً ، فالمولدُ النبويُّ كان عندِ قرانِ العلويينَ ببرجِ العقربِ ؛ فلما رجع هنالك حدثَ التشويشُ على الخلفاءِ وكثرَ المرضُ في أهلِ العلمِ والدينِ ونقصتِ أحوالهم ، وربما انهدمَ بعضُ بيوتِ العبادةِ . وقد يُقالُ : إنه كان عند قتلِ عليٍّ رضي الله عنه ، ومروانَ من بني أمية ، والمتوكلِ من بني العباسِ . فإذا روعيت هذه الأحكامُ مع أحكامِ القِراناتِ كانت في غايةِ الإحكامِ . »

وذكر شاذانُ البَلْخِيُّ : « أَنَّ المِلَّةَ تنتهي الى ثلثمائةٍ وعشرين .

وقد ظهرَ كَذِبُ هذا القولِ . وقال أبو معشرٍ : يظهرُ بعد المائتين والحسينَ منها اختلافٌ كثيرٌ ؛ ولم يصحَّ ذلك . وقال جراسٌ : « رأيتُ في كتبِ القدماء أن المنجمين أخبروا كسرى عن مُلكِ العربِ وظهورِ النبوةِ فيهم ، وأنَّ دليْلَهُم الزُّهرةُ وكانت في شرفِها ، فيبقى الملكُ فيهم أربعينَ سنةً . وقال أبو معشرٍ في كتابِ القِراناتِ : القِسْمةُ إذا انتهت إلى السابعةِ والعشرينَ من الحوتِ فيها شَرَفُ الزُّهرةِ . ووقعَ القِرانُ مع ذلك بَرجَ العقربِ وهو دليْلُ العربِ : ظهرت حينئذٍ دولةُ العربِ وكان منهم نبيٌّ ويكونُ قوةُ مُلكِهِ ومدَّتُهُ على ما بقي من درجاتِ شرفِ الزُّهرةِ ، وهي إحدى عشرةَ درجةً بتقريبٍ من بَرجِ الحوتِ ، ومدةُ ذلك ستُمائةً وعشرَ سنينَ . وكان ظهورُ أيِّ مسلمٍ عند انتقالِ الزُّهرةِ ، ووقوعُ القِسْمةِ أوَّلَ الحَمَلِ ، وصاحبُ الجَدِّ المشتري .

وقال يعقوبُ بنُ إسحقَ الكِنْدِيُّ : إنَّ مدَّةَ المِلَّةِ تنتهي إلى ستُمائةٍ وثلاثٍ وتسعينَ سنةً ، قال : لأنَّ الزُّهرةَ كانت عندَ قِرانِ المِلَّةِ في ثمانٍ وعشرينَ درجةً وثلاثينَ دقيقةً من الحوتِ . فالباقي إحدى عشرةَ درجةً وثمانينَ دقيقةً ، ودقائقُها ستونُ ، فيكونُ ستُمائةً وثلاثاً وتسعينَ سنةً . قال : وهذه مدَّةُ المِلَّةِ باتِّفاقِ الحكماءِ ، ويعضدُهُ الحُرُوفُ الواقعةُ في أوَّلِ السُّورِ بحذفِ المكررِ واعتباره بحسابِ الجُمَّلِ . قلتُ : وهذا هو الذي ذكره السُّهَيْلِيُّ ، والغالبُ أنَّ الأوَّلَ هو مستند السُّهَيْلِيِّ فيما نقلناه عنه .

قال جراس : « سأل هُرْمُزُ إفریدَ الحكيمَ عن مدَّةِ أردشيرَ

وولده وملوك الساسانية فقال : دليل ملكه المشتري ، وكان في شرفه فيعطى أطول السنين وأجودها ، أربعمئة وسبعا وعشرين سنة ، ثم تريد الزهرة ؛ وتكون في شرفها وهي دليل العرب ، فيملكون لأن طالع القران الميزان ، وصاحبه الزهرة ، وكانت عند القران في شرفها ، فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة . وسأل كسرى أنو شروان وزيره بزجهر الحكيم عن خروج الملك من فارس إلى العرب ، فأخبره أن القائم منهم يولد لخم وأربعين من دولته ، ويملك المشرق والمغرب ، والمشتري يغوص إلى الزهرة ، وينتقل القران من الهوائية إلى العقرب ، وهو مائي وهو دليل العرب ، فهذه الأدلة تُفضي للملة بمدة دور الزهرة وهي ألف وستون سنة . وسأل كسرى أبرويز ألبوس الحكيم عن ذلك ، فقال مثل قول بزجهر . وقال توفيل الرومي المنجم في أيام بني أمية : « إن ملة الإسلام تبقى مدة القران الكبير تسعمائة وستين سنة ، فإذا عاد القران إلى بُرج العقرب كما كان في ابتداء الملة ، وتغير وضع الكواكب عن هيئتها في قران الملة ، فحينئذ إما أن يفتّر العمل به أو يتجدد من الأحكام ما يوجب خلاف الظن » .

قال جراس : « وأتفقوا على أن خراب العالم يكون باستيلاء الماء والنار ، حتى تهلك سائر المكوّنات ، وذلك عندما يقطع قلب الأسد أربعاً وعشرين درجة ، التي هي حد المريخ وذلك بعد مضي تسعمائة وستين سنة » .

وذكر جراس : أن ملك زابلستان بعث إلى المأمون بحكيمة

ذو بان ، أتحفه به في هدية ، وأنه تصرف للمأمون في الاختبارات بحروب أخيه ، وبعقد اللواء لطاهر ، وأن المأمون أعظم حكمته ، فسأله عن مدة ملكهم فأخبره بانقطاع الملك من عقبه وإتصاله في ولد أخيه ، وأن العجم يتغلبون على الخلافة من الديلم في دولة سنة خمسين ، ويكون ما يريد الله ، ثم يسوء حالهم ، ثم تظهر الترك من شمال المشرق فيملكونه إلى الشام والفرات وسنجون وسيملكون بلاد الروم ، ويكون ما يريد الله . فقال له المأمون : من أين لك هذا ؟ فقال من كتب الحكماء ومن أحكام صصة ابن داهر الهندي الذي وضع الشطرنج . قلت والترك الذين أشار إلى ظهورهم بعد الديلم هم السلجوقية ، وقد انقضت دولتهم أول القرن السابع .

قال جراس : « وانتقال القران الى المثلثة المائية من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ليزدجرد ، وبعدها الى برج العقرب حيث كان قران الملة سنة ثلاث وخمسين . قال والذي في الحوت هو أول الانتقال . والذي في العقرب يُستخرج منه دلائل الملة . قال : وتحويل السنة الأولى من القران الأول في المثلثات المائية في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة . ولم يستوف الكلام على ذلك .

وأما مستند المنجمين في دولة على الخصوص ، فن القران الأوسط وهيئة الفلك عند وقوعه ، لأن له دلالة عندهم على حدوث الدولة ، وجهاتها من العمران ، والقائمين بها من الأمم ،

وعَدَدِ ملوكِهِم وأَسْمَائِهِم وأَعْمَارِهِم وَفَحْلِهِم وَأَدْيَانِهِم وَعَوَائِدِهِم وَحُرُوبِهِم ، كما ذكر أبو معشرٍ في كتابه في القِرَاناتِ . وقد توجدُ هذه الدلالةُ من القِرانِ الأصغرِ إذا كان الأوسطُ دالاً عليه ، فن هذا يوجدُ الكلام في الدول .

وقد كان يعقوبُ بنُ اسحقَ الكِنديِّ منجِّمُ الرشيدِ والمأمونِ وضعَ في القِراناتِ الكائنةَ في المِلَّةِ كتاباً سماه : الشيعةُ بالجفرِ ، باسم كتابهم المنسوبِ الى جعفرِ الصادقِ ، وذكر فيه فيما يقالُ حَدَثانَ دولةِ بني العباسِ ، وأنها نهايتُهُ ، وأشار الى انقراضِها والحادثة على بغدادَ ، أنها تقعُ في انتصافِ المائةِ السابعةِ ، وأنَّ بانقراضِها يكون انقراضُ المِلَّةِ . ولم نَقِفْ على شيء من خبرِ هذا الكتابِ ولا رأينا من وقفَ عليه ؛ ولعله غرقَ في كتبهم التي طرَحَها هلاكو ملكُ التَّترِ في دِجلةَ عند استيلائهم على بغدادَ ، وقتلِ المستعصمِ آخرِ الخلفاء . وقد وقع بالمغربِ جزءٌ منسوبٌ الى هذا الكتابِ يسمونه الجفرَ الصغيرَ ، والظاهرُ أنه وُضعَ لبني عبدِ المؤمنِ ، لذكرِ الأولينَ من ملوكِ الموحدينَ فيه على التفصيلِ ، ومطابقةً من تقدَّمَ عن ذلك من حَدَثانِهِ ، وكذَّبَ ما بعده .

وكانَ في دولةِ بني العباسِ من بعدِ الكِنديِّ مُنَجِّمُونَ وكتبُ في الحدَثانِ . وانظر ما نقله الطَّبْرِيُّ في أخبارِ المهديِّ عن أبي بُدَيْلٍ من أصحابِ صنائعِ الدولةِ ، قال : بعثَ إليَّ الربيعُ والحسنُ في غزائِهِما مع الرشيدِ أيامَ أبيه ، فجثَّهُما جوفَ الليلِ ، فإذا عندهما كتابٌ من كتبِ الدولةِ يعني الحدَثانِ ، وإذا مدَّةُ المهديِّ فيه عشرُ

سنين . فقلتُ هذا الكتابُ لا يخفى على المهديِّ ، وقد مضى من دولته ما مضى ، فإذا وقفَ عليه كنتم قد نعيتمُ إليه نفسه . قالوا : فما الحيلة ؟ فاستدعيتُ عنبسةَ الودّاقَ مولى آل بُدَيْلٍ ، وقلتُ له انسخْ هذه الورقةَ ، واكتب مكانَ عشرٍ أربعينَ ففعل ، فواللهِ لولا أنّي رأيتُ العشرةَ في تلك الورقةِ والأربعينَ في هذه ما كنتُ أشكُّ أنّها هي . ثم كتبتُ الناسُ من بعد ذلك في حدثانِ الدُّولِ منظوماً ومنشوراً ورجزاً ما شاء الله أن يكتبوه ؛ وبأيدي الناسِ متفرقةٌ كثيرٌ منها ، وتسمى الملاحم . وبعضها في حدثانِ المِلَّةِ على العمومِ ، وبعضها في دولةٍ على الخصوص . وكلُّها منسوبةٌ إلى مشاهيرَ من أهل الخليفة . وليس منها أصلٌ يُعتمدُ على روايته عن واضعه المنسوبِ إليه .

الملاحم : فمن هذه الملاحمِ بالمغربِ قصيدةُ ابنِ مُرَّانَةَ من بحرِ الطويلِ على رَويِّ الراء ، وهي متداولةٌ بين الناسِ . وتحسبُ العامةُ أنّها من الحدثانِ العامِّ ، فيُطلقونَ الكثيرَ منها على الحاضرِ والمستقبلِ . والذي سمعناه من شيوخنا أنّها مخصوصةٌ بدولةِ لُتُونَةَ ، لأنَّ الرجلَ كان قُبَيْلَ دولتهم ، وذكرَ فيها استيلاءهم على سبّةِ من يد موالِي بني حمودٍ ومُلكيهم لعدوةِ الأندلسِ . ومن الملاحمِ بيدِ أهلِ المغربِ أيضاً قصيدةٌ تُسمى التَّبَعِيَّةُ أوَّلُها :

طربْتُ وما ذاكَ مِنِّي طَرَبُ وقد يَطْرَبُ الطائرُ المَغْتَصَبُ
وما ذاكَ مِنِّي يَلْهُو أَرَاهُ ولكن لتذكاري بعضِ السَّبَبِ

قريباً من خمسمائة بيتٍ أو ألفٍ فيما يقالُ . ذكر فيها كثيراً
من دولة الموحدين وأشارَ فيها إلى الفاطميِّ وغيره . والظاهرُ أنها
مصنوعةٌ . ومن الملاحمِ بالمغرب أيضاً مَلْعَبَةٌ من الشعرِ الزجليِّ
منسوبةٌ لبعض اليهودِ ، ذكر فيها أحكامَ القِراناتِ لعصرِ العلويِّين
والنَّحْسِينَ وغيرهما ، وذكر مِيتَتَهُ قتيلاً بفاس . وكان كذلك فيما
زعموه . وأَوَّلُهُ :

في صَبغِ ذا الأَزرقِ لشرفه خيارا فافهموا يا قومِ هذي الاشارا
نجمُ زُحَلٍ أخبر بذي العلاما وبدل الشكلا وهي سلاما
شاشية زرقا بدل العاما وشاش أزرق بدل الغرارا
يقول في آخره :

قد تم ذا التجنيس لانسان يهودي يُصَلِّبُ ببلدة فاس في يوم عيدِ
حتى يحيه الناسُ من البوادي وقتله يا قوم على الفِرادِ

وأبياتُهُ نحو الخمسمائة ، وهي في القِرانات التي دلت على دولةِ
المُوحِّدين . ومن ملاحمِ المغرب أيضاً قصيدةٌ من عروضِ المتقاربِ
على رَوِيِّ الباء في حِثِّانِ دولة بني أبي حفصِ بتونس من
المُوحِّدين ، منسوبةٌ لابنِ الأَبَّارِ . وقال لي قاضي قُبْسَطِينَةَ الخطيبُ
الكبيرُ أبو علي بنُ باديس ، وكان بصيراً بما يقوله ، وله قدمٌ في
التنجيمِ فقال لي : إنَّ هذا ابنُ الأَبَّارِ ليس هو الحافظُ الأندلسيُّ
الكاتبُ مقتولُ المُستَنصِرِ ، وإنما هو رجلٌ خياطٌ من أهلِ تونسِ
تواطأتْ شهرتهُ مع شهرَةِ الحافظِ . وكان والدي رحمه الله تعالى

يُنشِدُ هذه الأبيات من هذه المَلَحمة وبقي بعضها في حفطي مطلعها :
عَذِيرِي من زَمَنِ قُلُبٍ يَغُرُّ بِبَارِقِهِ الْأَشْبَبِ
ومنها :

وَيَبْعُثُ من جَيْشِهِ قَائِداً وَيَبْقَى هُنَاكَ عَلَى مَرْقَبٍ
فَتَأْتِي إِلَى الشَّيْخِ أَخْبَارُهُ فَيَقْبَلُ كَالْجَلَلِ الْأَجْرَبِ
وَيُظْهِرُ من عَدْلِهِ سِيرَةً وَتلك سِيَاسَةُ مُسْتَجْلِبِ

ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم :
قَائِماً^(١) رَأَيْتَ الرُّسُومَ انْمَحَتْ وَلَمْ يُزَعْ حَقٌّ لَدِي مَنْصِبِ
فَخَذَ فِي التَّرَحُّلِ عَنْ تُونِسَ وَوَدَّعَ مَعَالِمَهَا وَادَّهَبَ
فَسَوْفَ تَكُونُ بِهَا فِتْنَةٌ تُضِيفُ الْبَرِيءَ إِلَى الْمَذْنِبِ
وَوَقَفْتُ بِالْمَغْرِبِ عَلَى مَلَحْمَةٍ أُخْرَى فِي دَوْلَةِ بَنِي أَبِي حَفْصٍ
هَؤُلَاءِ بَتُونِسَ ، فِيهَا بَعْدَ السُّلْطَانِ أَبِي يَحْيَى الشَّهِيرِ عَاشِرِ مُلُوكِهِمْ
ذَكَرُ مُحَمَّدٍ أَخِيهِ مِنْ بَعْدِهِ . يَقُولُ فِيهَا :
وَبَعْدَ أَبِي عَبْدِ الْإِلَهِ شَقِيقُهُ وَيُعْرَفُ بِالْوَثَّابِ فِي نُسخَةِ الْأَصْلِ
إِلَّا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَمْلِكْهَا بَعْدَ أَخِيهِ ، وَكَانَ يَمْنِي بِذَلِكَ
نَفْسَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ .

ومن الملاحِمِ فِي الْمَغْرِبِ أَيْضاً الْمَلْعَبَةُ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى الْهُوشَنِي
عَلَى لُغَةِ الْعَامَّةِ فِي عُرُوضِ الْبَلَدِ الَّتِي أَوَّلَهَا :

(١) علق الهوربيني على ذلك بقوله : « قوله فأما رأيت أصله فإن رأيت ، زيدت ما وأدغمت في إن الشرطية المحذوف نونها خطأ وفي نسخة : (فلما رأيت) والأولى هي الموجودة في النسخة التونسية ا هـ . » والصحيح فأما رأيت بدليل الجواب عن هذا الشرط في قوله في البيت التالي : فخذ .

دعني بدمعي الهتان فترت الامطار ولم تفت
واستقت كلها الويدان واني تملي وتنغدر
البلاد كلها تروي فأولى ما ميل ما تدري
ما بين الصيف والشتوي والعام والربيع تجري
قال حين صحت الدعوى دعنى نبكي ومن عذر
انادي من ذي الازمان ذا القرن اشتد وتري

وهي طويلةٌ ومحفوظةٌ بين عامّةِ المغربِ الأَقصى ، والغالبُ عليها الوضعُ ، لأنّه لم يصحّ منها قولٌ إلّا على تأويلٍ تحرّفه العامّةُ أو الحاريفُ فيه من ينتحلّها من الخاصّةِ . ووقفتُ بالشرقِ على ملحمةٍ منسوبةٍ لابن العربيّ الحاتميّ في كلامٍ طويلٍ شبه الغازي لا يعلمُ تأويله إلا الله . لتخلّله أوافقٌ عدديّةٌ ورُموزٌ ملغوزةٌ ، وأشكالُ حيواناتٍ تامّةٍ ، ورؤوسٌ مقطّعةٌ ، وتماثيلُ من حيواناتٍ غريبةٍ . وفي آخرها قصيدةٌ على رويّ اللامِ ، والغالبُ أنّها كلّها غيرُ صحيحةٍ ؛ لأنّها لم تنشأ عن أصلٍ علميٍّ من نجامةٍ ولا غيرها . وسمعتُ أيضاً أنّ هناك ملاحمَ أخرى منسوبةً لابنِ سينا وابنِ عُقْبٍ ، وليسَ في شيءٍ منها دليلٌ على الصّحّةِ ، لأنّ ذلك انما يؤخذُ من القِرائاتِ . ووقفتُ بالشرقِ أيضاً على ملحمةٍ من جذّانِ دولةِ التُّركِ منسوبةٍ الى رجلٍ من الصوفيّةِ يسمّى الباجريقيّ وكلّها الغازُ بالحروفِ أوّلها :

ان شئتُ تكشّف سرّ الجفر ياسائلي من علمِ جفر وصيّ والدِ الحسنِ

فأفهمهم وكن واعياً حرقاً وجلته
أما الذي قبل عصري لست أذكره
بشهر يبرز يبقى بعد خمسيتها
شين له أثر من تحت سريته
فصر والشام مع أرض العراق له
ومنها :

وآل بوران لما نال طاهرهم
لخلع سين ضعيف السن أتى
قوم شجاع له عقل ومشورة
ومنها :

من بعد باء من الأعوام قتله
يلي المشورة ميم الملك ذو اللسن
ومنها :

هذا هو الأعرج الكلي فاعن به
يأتي من الشرق في جيش يقديهم
بقتل دال ومثل الشام أجمعها
إذا أتى زلزلت يا ويح مصر من
طاه وظاه وعين كلهم حبسوا
يسير القاف قافاً عند جميعهم
وينصبون أخاه وهو صالحهم
تمت ولايتهم بالحاء لا أحد

في عصره فتن ناهيك من فتن
عار عن القاف قاف جداً بالفتن
أبدت بشجور على الأهلين والوطن
الزلزال ما زال حاء غير مقتطن
هلكاً وينفق أموالاً بلا ثمن
هون به إن ذاك الحصن في سكن
لا سلم الألف سين لذلك بني
من السنين يداني الملك في الزمن

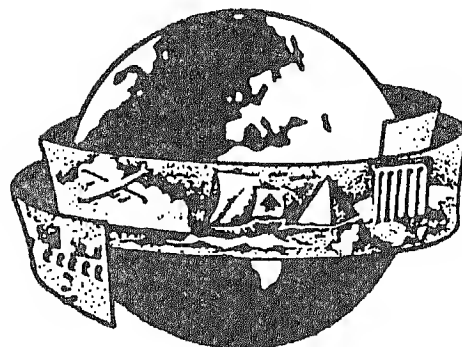
ويقال إنه أشار الى الملك الظاهر وقدم أبيه عليه بمصر :
يأتي اليه أبوه بعد هجرته وطول غيبته والشطف والزرن
وأبياتها كثيرة والغالب أنها موضوعة ، ومثل صنعيتها كان
في القديم كثير أو معروف الانتحال .

حكى المؤرخون لأخبار بغداد : أنه كان بها أيام المقتدر
وراق ذكي يعرف بالديالي ، يبل الأوراق ويكتب فيها بخط
عتيق رمز فيه بحروف من أسماء أهل الدولة ، ويشير بها الى ما
يعرف ميلهم إليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم ، ويحصل
على ما يريد منهم من الدنيا ، وأنه وضع في بعض دفاتره ميماً ،
مكررة ثلاث مرات ، وجاء به الى مفلح مولى المقتدر - وكان
عظيماً في الدولة - فقال له : هذا كناية عنك ، وهو مفلح مولى
المقتدر ، ميم في كل واحدة . وذكر عندها ما يعلم فيه رضاه بما
يناله من الدولة ، ونصب لذلك علامات من أحواله المتعارفة
موه بها عليه ، فبذل له ما أغناه به . ثم وضعه للوزير الحسن ابن
القاسم بن وهب على مفلح هذا ، وكان معزولاً فجاءه بأوراق
مثلها ، وذكر اسم الوزير بمثل هذه الحروف ، وبعلامات ذكرها
وأنه يلي الوزارة للثامن عشر من الخلفاء وتستقيم الأمور على يديه ،
ويقهر الأعداء ، وتعمر الدنيا في أيامه ، وأوقف مفلحاً هذا على
الأوراق وذكر فيها كوائن أخرى ، وملاحم من هذا النوع ،
مما وقع ومما لم يقع ، ونسب جميعه إلى دانيال ، فأعجب به مفلح .

ووقفَ عليه المقتدِرُ ، واهتدى من تلك الأمورِ والعلاماتِ الى ابن وَهْبٍ ، وكان ذلك سبباً لوزارتهِ بمثلِ هذه الحيلةِ العريقةِ في الكذبِ والجهلِ بمثلِ هذه الألفاظِ . والظاهرُ أنَّ هذه الملحمةَ التي ينسبونها الى الباجريقيِّ من هذا النوعِ .

ولقد سألتُ أَكَلَ الدِّينِ ابنَ شَيْخِ الحَنْفِيَّةِ مِنَ العَجَمِ بالديارِ المِصْرِيَّةِ ، عن هذه الملحمةِ ، وعن هذا الرجلِ الذي تُنسَبُ إليه من الصوفيَّةِ وهو الباجريقي ، وكان عارفاً بطرائقهم ، فقال : كَانَ مِنَ القَلَنْدَرِيَّةِ المَبْتَدِعَةِ فِي حَلْقِ اللِّحْيَةِ ، وَكَانَ يَتَحَدَّثُ عَمَّا يَكُونُ بِطَرِيقِ الكَشْفِ وَيُومِي إِلَى رِجَالٍ مَعْيِنِينَ عِنْدَهُ ، وَيَلْغِزُ عَلَيْهِمْ بِمَجْرُوفٍ يَعْنِيهَا فِي ضَمْنِهَا لِمَنْ يَرَاهُ مِنْهُمْ . وَرَبَّمَا يَظْهَرُ نَظْمُ ذَلِكَ فِي أَبْيَاتٍ قَلِيلَةٍ كَانَ يَتَعَاهَدُهَا فَتَنَوَّقَلْتُ عَنْهُ ، وَوَلَّعَ النَّاسُ بِهَا ، وَجَعَلُوهَا مِلْحَمَةً مَرْمُوزَةً ، وَزَادَ فِيهَا الحُرَاصُونَ مِنْ ذَلِكَ الجُنْسِ فِي كُلِّ عَصْرِ ، وَشُعِّلَ الْعَامَّةُ بِفِكَ رُمُوزِهَا ، وَهُوَ أَمْرٌ مَمْتَنِعٌ ، إِذَا الرَّمْزُ إِنَّمَا يَهْدِي إِلَى كَشْفِهِ قَانُونٌ يُعْرَفُ قَبْلَهُ ، وَيُوضَعُ لَهُ ، وَأَمَّا مِثْلُ هَذِهِ الحُرُوفِ فَدَلَالَتُهَا عَلَى الْمُرَادِ مِنْهَا مَخْصُوصَةٌ بِهَذَا النِّظْمِ لَا يَتَجَاوَزُهُ . فَرَأَيْتُ مِنْ كَلَامِ هَذَا الرَّجُلِ الْفَاضِلِ ، شَفَاءٌ لِمَا كَانَ فِي النَفْسِ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ المِلْحَمَةِ . ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ (١) . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ بِهِ التَّوْفِيقَ .

(١) من آية ٤٣ من سورة الأعراف .



دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

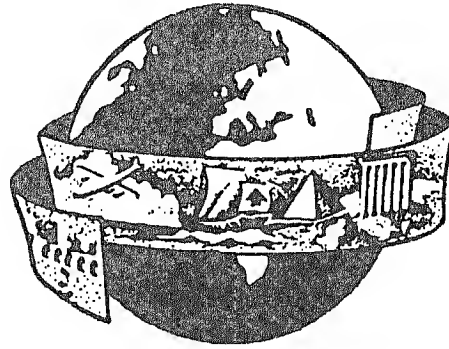
٢٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع.

تلفون: ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٢٤٣٠١ - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

ص.ب. ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقياً: كتامصر

FAX: (202) 3924657

ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN



دار الكتاب اللبناني

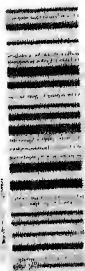
طباعة - نشر - توزيع

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
تلفون: ٧٣٥٧٣١ - ٧٣٥٧٣٢ - فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
برقياً: داكلبان - ص.ب. ١١/٨٣٣٠ - بيروت - لبنان

FAX: (9611) 351433

ATT.: MR. HASSAN EL- ZEIN

Bibliotheca Alexandrina



0180864

IBN KHALDUN

Volume One

DAR AL - KITAB AL - MASRI
CAIRO

DAR AL - KITAB AL - LUBNANI
BEIRUT